

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم — الشيخ عائض القرني

الشيخ محمد عبد المقصود — الشيخ أبو إسحاق الحويني

المجلد الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصْــل الأَوَّل

عُلُــوُّ الهِمَّــةِ
فِـــي
الذِّكْــرِ وَتِــلَاوةِ القُــرْآنِ

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا
عَـنِ الطَّعَـامِ وَتُلْهِيهَا عَـنِ الزَّادِ



□ عُلوُّ الهِمة في الذِّكْر وتِلاوةِ القرآنِ □

« الذِّكْرُ مَنْشورُ الولاية ، الذي من أُعطيه اتَّصل ، ومن مُنعه عُزل ، وهو قوتُ قلوب القوم ، الذي متي فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بُورا .

وهو مَنْزلُ القوم الذي منه **يتزوَّدُون** ، وفيه يَتَّجرون ، وإليه دائمًا يتردَّدون ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ، ودواءُ أسْقَامهم الذي متى فارقهم انتكستْ منهم القلوب ، والسَّبب الواصل والعَلاقة التي كانت بينهم وبين علَّام الغيوب .

إِذَا مَرِضْنَا تداوينَا بِذِكْرِكُمْ   فَنَتْرُكُ الذِّكْـرَ أحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

به يستدفعـون الآفات ، ويستكْشِفـون الكُرُبات ، وتهون عليهم به المصيبات . إذا أظلَّهم البلاءُ فإليه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النوازلُ فإليه مَفْزَعُهم . فهو رياض جَنَّتهم التي فيها يتقلبون ، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتَّجـرون ، يدعُ القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا ، ويوصـل الذاكرَ إلى المذكور بل يدع الذَّاكر مذكورًا .

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقَّتةٌ . و« الذِّكْر » عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة . بل هم يُؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال ؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، فكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها ، فكذلك القلوب بورٌ خرابٌ ، وهو عِمَارتها وأَسَاسها .

وهو جلاءُ القلوب وصِقَالُها ، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلما ازداد الذَّاكِرُ في ذكره استغراقًا ، ازداد المذكورُ محبةً إلى لقائه واشتياقًا . وإذا وَاطَأَ في ذكره قَلْبُه للسانه ، نسي في جنب ذكره كل شيءٍ ، وحفظ اللهُ

عليه كلَّ شيءٍ ، وكان له عوضًا من كل شيءٍ .

به يزول الوَقْرُ عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتَنْقَشع الظُّلْمَةُ عن الأبصار .

زيَّن الله به ألسنةَ الذَّاكرين ، كما زين بالنُّور أبصار الناظرين .

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ، ما لم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصري رحمه الله : تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، وفي الذِّكر ، وقراءة القرآن ، فإنْ وجدتم ..... وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مغلق .

وبالذِّكر يَصْرَع العبدُ الشيطان ، كما يصرعُ الشيطان أهلَ الغفلة والنسيان . **قال بعض السَّلف : « إذا تمكن الذِّكْر من القلب ، فإن دنا منه** الشيطان صَرَعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشَّيطان . فيجتمع عليه الشياطينُ فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسَّه الإنسيُّ »[1].

ما عَرَفَ قدر جلاله من فَتَر لحظةً عن ذكره .

قال ذو النُّون : ما طابت الدنيا إلا بِذِكْرِهِ ، ولا طابت الآخرة إلا بِعَفْوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

أَبَـدًا نُفُـوسُ الطَّالبيـ ـنَ إلى رِيَاضِكُمُ تَحِـنُّ
وَكَذَا القلوبُ بِذِكْرِكُمْ بَعْـدَ المَخَافَـةِ تَطْمَـئِنُّ
حَنَّتْ بِذِكْرِكُمُ ومن يهْوَىٰ الحَبِيبَ ولا يَحِنُّ

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

وفي القلب خلَّة وفاقة لا يَسدُّهَا شيءٌ ألبتة إلا ذكرُ الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعارَ القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان **تبعًا له** ، فهذا هو الذكر الذي يسدُّ الخَلَّة ، ويُغني الفَاقة .

والذِّكْر يَجْمع المُتفرِّق ، ويفرِّق المجتمع ، ويقرِّب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ما تفرَّق على العبدِ من قلبه وإرادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كلَّ العذاب في تفرقها وتشتّتها عليه ، وانفراطها له ، والحياةُ والنعيمُ في اجتماع قلبه وهَمِّه ، وعزمه وإرادته .

ويفرِّق ما اجْتَمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوتِ حُظُوظه ومطالبه .

ويفرِّق أيضًا ما اجتمع عليه من ذُنُوبه وخطاياه وأَوْزاره .

ويفرِّق ما اجتمع على حَرْبه من جند الشيطان ، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلَّما كان أقوى طلبًا لله سبحانه وتعالى ، وأَمْثَلَ تعلّقًا به وإرادة له ، كانت السَّريةُ أكثف وأكثر وأعظم شوكةً ، بحسب ما عند العبدِ من مواد الخير والإرادة ، ولا سبيلَ إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر .

ويقرِّب إليه الآخرة ، فلا يزال يَلْهج بالذِّكْر حتى كأنه قد دخلها وحضرها .

والذكرُ ينبِّهُ القلبَ من نومه ، ويوقظه من سِنَتِهِ ، والقلب إذا كان نائمًا فاتته الأرباحُ والمتاجر ، وكان الغالبُ عليه الخُسْران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته ، شَدَّ المِئْزَرَ ، وأَحْيَا بقيَّة عمره ، واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظتُه إلا بالذِّكْر ، فإنَّ الغفلة نومٌ ثقيل .

والذِّكر شجرةٌ تُثْمر المعارف والأحوال التي شمّر إليها السَّالكون .

والذِّكْرُ يُثْمر المقاماتِ كلَّها من اليقظة إلى التوحيد ، ويَعْدل عتقَ الرِّقاب والحَمْـل على الخيل في سبيل الله ، ويَعْـدل الضربَ بالسَّيْف في سبيل الله عز وجل ، وهو خيرُ الأعمال على الإطلاق ، قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أنبِّئكم بخيرِ أعمالكم وأزكاها عند مَلِيككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الوَرِق والذَّهب ، وخير لكم من أن تلقوا عَدوَّكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذِكْرُ اللهِ »[١] .

وأعلى الذِّكر منزلةً تلاوة القرآن .. أَحْسَـن الحديث والطِّيب مـن القـول .. مَزاميرُ الأُنْس مـن حَضْرة القدس ، بألحان التوحيد مـن رياض التَّمجيد ، هذا طَعْم الخبر فكيف طعم النَّظَر !

آياتٌ منزَّلةٌ من حول العرش ، الأرض بها سماء هي منها كواكب .

ألفاظٌ إذا اشتدتْ فأمواه البحار الزَّاخرة ، وإذا لانت فأنفاسُ الحياة الآخرة .

معانٍ هي عذوبةٌ ترويك من ماءِ البيان ، ورقَّةٌ تَسْتروح منها نسيمَ الجِنَان .

ألفاظٌ لم تعهد كلم أحداقها ، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها .. نورُ القلوب الذي لا تستضيءُ إلا به ، وحياةُ الأرواح .. بل الروح الذي تتوقف الحياة الحقيقية عليه ... فضلُ اللهِ ورحمته ونعمته الكبرى ، لا يَسَعها

---

(١) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي الدرداء ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٢٩ .

ولا يُحيط بها حَمْدُ وشُكْر الخلائق .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] .

وإذا فَرِحَ العبدُ بِفَضْلِ الله ورحمتِهِ وأنس به لَهِجَ به ، وعلتْ همَّته في تلاوتهِ وتدبرهِ والإكثار من الذِّكْر ، حتى يصيرَ الذكرُ والقرآن نعيمَ الرجلِ وعنوانه وجنته وبستانه وأنسه وميدانه .

قال تعالى لكليمه موسى عليه السلام : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه : ٤٢] .

وقال تعالى على لسان نبيه موسى : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه : ٣٣ - ٣٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

وفي الأثر الإلـٰهي : « إنّ عبدي - كلَّ عبدي - الذي يَذْكرني وهو مُلاقٍ قِرْنه » .

قال ابن القيم : « سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّسَ اللهُ روحَه - يستشهد به .

وسمِعته يقول : المحبُّون يفتخرون بِذِكْرِ من يحبونه في هذه الحال ، كما قال عنترة :

وَلَقَدْ ذَكَرْتكِ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا ... أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ

وقال الآخر :

ذكَرْتُكَ والخَطِّيُّ يَخْطُر بيننا ... وقد نَهَلَتْ منَّا المُثقَّفة السُّمْرُ

قال آخر :

ولقدْ ذكرتُك والرِّماحُ شَواجِرٌ ... نَحْوي وبيضُ الهِنْد تَقْطُر من دمِي

وهذا كثير في أشعارهم . وهو مما يدلُّ على قوة المحبة ، فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهمُّ المرءَ فيها غير نفسه ، يدل على أنه عنده بمنزلة نفسِهِ أو أعز منها »[١].

وقال تعالىٰ : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ... **والذَّاكرينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ الآية [الأحزاب : ٣٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُم وَيَزِيدَهُم**

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٢٧ - ٤٢٨ .

مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٩ - ٣٠] .

قال مُطرِّف بن عبد الله : هذه آية القُرَّاء .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ الآية [البقرة : ٢٠٠] .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِن ساعةٍ تَمُرُّ بابنِ آدمَ ، لا يَذْكر اللهَ تَعَالَى فيها ، إلا تحسَّر عليها يوم القيامة »[١] .

وعن معاذ بن جبل يرفعه أيضًا : « ليس تَحسُّرُ أهل الجنة إلَّا على ساعةٍ مرَّتْ بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها »[٢] .

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله عز وجل ؟ قال : « أن تموتَ ولسانك رَطِبٌ من ذكر الله عز وجل »[٣] .

وعن قيس بن سعد بن عبادة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدُلُّكَ على بابٍ من أبواب الجنة ؟ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله »[٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثِرْ من : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛

---

(١) حسن : أخرجه أبو نُعيم في الحلية (٥ / ٣٦١ - ٣٦٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان كما في « فيض القدير » (٥ / ٤٨٣) ونقل المناوي عن البيهقي قوله : في هذا الإسناد ضعف ، غير أن له شاهدًا من حديثِ معاذ ، فالحديث حسن به .

(٢) صحيح : أخرجه ابن السُّني في « عمل اليوم والليلة » ، والطبراني والبيهقي ، وغيرهم .

(٣) حسن : أخرجه ابن حبان والبزار .

(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه ، ورواه الخطيب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٠ .

فإنَّها من كَنْزِ الجنةِ »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثروا من قول : لا حول ولا قوة إلَّا بالله ، فإنَّها من كنوزِ الجنة »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَدُلكَ على كلمةٍ من تحت العرش ، من كنز الجنة ؟ تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أَسْلم عبدي واستسلم »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثِرُوا من غَرْسِ الجنة ، فإنه عَذْبٌ ماؤها ، طيِّب تُرابها ، فأكثروا من غِراسها : لا حول ولا قوة إلا بالله »[٤].

وهناك أحاديث تَشْحَذُ الهِمَمَ وتُعليها في تلاوة القرآن والمداومة على الأذكار ؛ لعظيم أَجْرها وسموِّ فاعلها :

قال ﷺ : « اقْرَءُوا القرآنَ ، فإنَّكم تُؤْجرون عليه ، أمَا إني لا أقول : ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ولكنْ ألفٌ عَشْر ، ولام عشر ، وميمٌ عشر ، فتلك ثلاثون »[٥].

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، وابن حبان ، عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٠٥ .

(٢) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، وأخرجه أحمد والترمذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٤ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٤ .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٣ .

(٥) صحيح : أخرجه أبو جعفر النَّحاس في « الوقف والابتداء » والسجزي في =

وقال ﷺ : « إنَّ لله تعالى أَهْلِينَ مِنَ الناس » قالوا : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : « أهل القرآن ، هُمْ أهلُ الله وخاصَّتُهُ »[(١)].

وقال ﷺ : « أوصيك بتقوى الله تعالى ؛ فإنه رأسُ كلِّ شيءٍ ، وعليك بالجهاد ؛ فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ؛ فإنه رَوْحُكَ في السَّماء ، وَذِكْرُكَ في الأرض »[(٢)].

وقال ﷺ : « خيارُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »[(٣)].

وقال ﷺ : « خَيْرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه »[(٤)].

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يرفعُ بهذا الكلام أقوامًا ويضع به آخرين »[(٥)].

وقال ﷺ : « يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد ، فيقرأ ويصعد لكل آيةٍ درجة ، حتى يقرأ آخر شيءٍ ....

= « الإبانة » والخطيب في التاريخ عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٠ .

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٦٥ .

(٢) حسن : رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٤٣ .

(٣) صحيح : رواه الدارمي عن سعد ، وأحمد وابن أبي شيبة عن علي ، وابن أبي شيبة عن عثمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٦٨ .

(٤) رواه البخاري عن عثمان ، والترمذي عن علي ، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عثمان .

(٥) رواه مسلم وابن ماجه عن عمر .

معه »[١].

وقال ﷺ : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ وَرَتِّلْ كما كنتَ تُرَتِّل في دار الدنيا ؛ فإن **منزلتك عند آخر آيةٍ كنت تقرؤها** »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكِرَام البَرَرَة ، والذي يقرؤه وَيَتَتَعْتَعُ فيه ، وهو عليه شاقٌّ ، له أجران »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « من قَرَأَ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بِعَشْرِ أمثالها ، لا أقول : ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميم حرف »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « من سَرَّه أن يحبَّ الله ورسوله فليقرأ في **المصحف** »[٥].

وقال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَلَّمَ آيةً من كتاب الله فله ثوابها ما تُليت »[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨١٢٢ .
(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن ابن عمرو ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨١٢٢ .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة .
(٤) رواه البخاري في التاريخ والترمذي والحاكم عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٦٩ .
(٥) حسن : رواه أبو نُعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٢ .
(٦) صحيح .

وقال رسول الله ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنتَيْن : رجلٌ آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناءَ الليل وآناءَ النهار . ورجلٌ آتاه الله مالًا ، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنتين : رجلٌ علَّمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، فسمعه جارٌ له ، فقال : ليتني أُوتيتُ مثل ما أُوتِيَ فلان ، فعملتُ مثل ما يعملْ . ورجل آتاه الله مالًا ، فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيتُ مثل ما أُوتي فلان ، فعملتُ مثل ما يعمل »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « يَجِيءُ القرآنُ يوم القيامة فيقول : يا رب ، حَلِّه . فيُلْبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا رب ، زِدْهُ . فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامة ، ثم يقول : يا رب ، ارْضَ عنه . فيرضى عنه ، فيقول : اقرأْ ، وارْقَ ، ويزداد بكل آية حسنة »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « اسمُ اللهِ الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، في ثلاثِ سورٍ من القرآن ، في (البقرة) و(آل عمران) و(طه) »[٤] .

وعالي الهمة يَحْرِص على استجابة دعائه ، ويحرص على اسم الله الأعظم والدعاء به ؛ أشد من حرصه على حياته .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر .
(٢) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة .
(٣) حسن : رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٣٠ .
(٤) صحيح : رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والحاكم عن أبي أُمَامة ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٧٩ .

وقال ﷺ : « **أُعطيتُ** هذه الآيات ، من آخرِ سورة البقرة ، من كنزٍ تحت العرش ، لم يُعْطها نبي قبلي »[١]. واللهِ لو كانت من تحت العرش لكَفَتْ ، فكيف إذا كانت من كنز !

ولذا يقـول ﷺ : « اقرءوا هـاتين الآيتين اللَّتَيْن في آخر سورة البقرة ؛ فإن ربي أعطانيهما من تحت العَرْش »[٢].

وعن ابن عباس قال : « بينما جبريلُ عليه السلام جالسٌ عند النبي ﷺ إذ سَمع نقيضًا من فوقه ، فرفع رأسه إلى السماء ، فقال : إن هذا الباب **من السَّماء قد فُتِحَ ، ما فُتِحَ قط ، قال : فنزل منه مَلَك ، قال : فإنَّ هذا الملك قد نَزَلَ ، مَا نَزَلَ إلى الأرض ، قال** : فجاء المَلَكُ إلى رسول الله ﷺ فسلم عليه وقال : يا محمد ، أَبْشِر بنورَيْن أُوتيتَهما ، لم يُؤْتهن نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تَقْرأْ حرفًا منهما إلَّا أوتيته »[٣].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يكرر الفاتحة حتى شروق الشمس بعد أذكار الصباح ، كما قال الحافظ عمر البزار .

وقال ﷺ : « إنَّ سورةً من القرآن ثلاثون آية ، شفعت لرجلٍ حتى غُفِرَ له ، وهي ﴿ **تَبَارَكَ الذي بِيدِهِ المُلْك** ﴾ »[٤].

---

(١) صحيح : رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن حذيفة ، وأحمد عن أبي ذرٍّ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٦٠ .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٧٢ .

(٣) رواه مسلم والنسائي والطبراني في الكبير ، وابن أبي شيبة في المصنف ، والحاكم في المنتدرك .

(٤) حسن : رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان والحاكم عن =

وقال ﷺ : « اقرءوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه . اقرءوا الزَّهْرَاوَيْنِ : البقرة وآل عمران ، فإنهما تأْتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غَيَايَتان ، أو كأنَّهما فِرْقَانِ من طَيْرٍ صوافَّ ، يحاجَّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة ؛ فإن أخذها بركة ، وتركها حَسْرة ، ولا تستطيعها البطلة »(١).

وقال ﷺ : « ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و﴿ **قُلْ يَاأَيُّهَا الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن »(٢). وعالي الهمة لا يفوته العمل بهذا الحديث .

وقال ﷺ : « لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة ، لَهِيَ أَحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا** ﴾ »(٣).

وقال ﷺ : « ما أَنْزَلَ الله في التوراة ولا في الإنجيل ، مثلَ أُمِّ القرآن ، وهي السَّبع المثاني ، قال الله تعالى : وهي مَقْسُومةٌ بيني وبين عبدي ، ولِعَبْدِي ما سَأَل »(٤).

وقال ﷺ : « من أخذ السَّبعَ فهو حَبْرٌ »(٥).وفي رواية : « فهو خيرٌ » .

= أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٠٩١ .

(١) رواه مسلم وأحمد عن أبي أُمَامة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٠٥ .

(٣) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن عمر .

(٤) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن أُبيٍّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٠ .

(٥) حسن : رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٧٩ .

وفي الحديث عن أنس :.... وكان الرَّجل إذا قرأَ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا ؛ يعني عَظُمَ . وفي رواية : يُعَدُّ فينا عظيمًا . وفي أخرى : عُدّ فينَا ذا شأنٍ[١].

وقال رسول الله ﷺ : « من قَرَأَ سورة الكَهْفِ ، يوم الجمعة ، أضاءَ له من النورِ ما بين الجُمْعَتين »[٢].

وقال ﷺ : « من قرأ سُورة الكهف ، يوم الجمعة ، أضاءَ له النورُ ما بينه وبين البيت العتيق »[٣].

وقال ﷺ : « من قرأ ﴿ **قُلْ هُو اللهُ أَحد** ﴾ عَشْر مرَّاتٍ بنى اللهُ له بيتًا في الجنة »[٤].

وهذه الأحاديث التي سُقْناها يَحْرص عليها الرِّجَال الذين سَبَقت لهم من ربِّهم الحسنى ، وعظَّموا ما عظَّمه الله عز وجل .

* * *

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد وابن عدي وابن حبان والطحاوي في مشكل الآثار ، وابن أبي شيبة .

(٢) صحيح : رواه الحاكم والبيهقي عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٠ .

(٣) صحيح : رواه البيهقي عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧١ .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن معاذ بن أنس ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٢ .

□ في كَمْ يُقْرَأُ القُرْآن □

روى البخاري عن مجاهدٍ عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أنكحني أبي امرأةً ذات حَسَبٍ ، فكان يتعاهد كَنَّتَهُ[(١)] فيسألها عن بَعْلها فتقول : نِعْمَ الرجلُ مِنْ رجلٍ ، لم يَطأ لنا فراشًا ، ولم يُفتِّشْ لنا كَنَفًا[(٢)] منذ أتيناه . فلما طال ذلك عليه ، ذكر للنبي ﷺ فقال : « الْقني به » فلقيته بَعْدُ ، فقال : « كيف تصوم ؟ » قلت : أصوم كلَّ يوم . قال : « وكيفَ تَخْتم ؟ » قلت : كلَّ ليلة . قال : « صُمْ في كل شهرٍ ثلاثةً ، واقرأ القرآن في كلِّ شهر » قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صم ثلاثة أيام في الجمعة » قال : قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « أفطر يومين وصمْ يومًا » قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : « صم أفضل الصوم ؛ صوم داود ؛ صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كلِّ سبع ليال مرةً » فليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله ﷺ ، وذلك أنِّي كبرتُ وضَعُفت ، فكان يقرأ على بعض أهله السّبعَ من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ؛ ليكون أخفَّ عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوَّى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن ؛ كراهية أن يترك شيئًا فارق النبي ﷺ عليه . قال أبو عبد الله : وقال بعضهم : في ثلاثٍ أو في سبع ، وأكثرهم على سبعٍ .

قال ابن حجر : « وقال بعضهم : في ثلاثٍ أو في سبعٍ . كذا لأبي ذر ، ولغيره : « في ثلاث وفي خمسٍ » ، وفي رواية شعبة عن مغيرة بهذا الإسناد : « فما زال حتى قال : في ثلاث » .

---

(١) كَنَّته : هي زوج الولد .

(٢) الكنف : الستر .

ووقع في رواية هُشيم المذكورة : « فاقْرأْه في كل ثلاثٍ » .

وعند أبي داود والترمذي مُصحَّحًا من طريق يزيد بن عبد الله بن الشِّخير عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « لا يَفْقه من قرأ القرآنَ في أقل من ثلاث » وشاهده عند سعيد بن منصور بإسنادٍ صحيح ، من وجهٍ آخر ، عن ابن مسعود : « اقرءوا القرآن في سبع ، ولا تقرءوه في أقل من ثلاث » ولأبي عبيد من طريق الطيب بن سلمان عن عمرة عن عائشة : أن النبي ﷺ كان لا يختم القرآنَ في أقل من ثلاث . وهذا اختيار أحمد وأبي عبيد وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، وثبت عن كثيرٍ من السلف أنهم قرءوا القرآن في دون ذلك ، قال النووي : والاختيار أنَّ ذلك يختلفُ بالأشخاص ؛ فمن كان من أهل الهَمِّ وتدقيقِ الفكر استُحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يختلُ به المقصود من التدبر واستخراج المعاني ، وكذا من كان له شغلٌ بالعلم أو غيره من مُهمَّات الدِّين ومصالح المسلمين العامة ، يستحبُّ له أن يقتصر منه على القدرِ الذي لا يخلُّ بما هو فيه ، ومن لم يكن كذلك فالأَوْلى له الاستكثار ما أمكنه من غيرِ خروجٍ إلى المَلَلِ ، ولا يقرؤه هَذْرمةً ، والله أعلم »[(١)].

وقال ابن حجر في الفتح (٨ / ٧١٦) : « وكأنَّ النهي عن الزيادةِ ليس على التَّحريم ، كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب ، وعُرِفَ ذلك من قرائن الحال التي أرشد إليها السِّياقُ ، وهو النَّظرُ إلى عَجْزه عن سوى ذلك في الحال أو المآل ، وأَغْرَبَ بعض الظاهريةِ فقال : يَحْرُم أن يُقرأ القرآن في أقل من ثلاث . وقال النووي : أكثر العلماءِ على أنه لا تَقْدير في ذلك ، وإنَّما هو بحسب النَّشاط والقوة ، فعلى هذا يختلف باختلاف

---

(١) فتح الباري ٨ / ٧١٥ .

الأحوال والأشخاص ، والله أعلم » .

وعلى الجانب الآخر ، جانب من ذهبوا للكراهة ، نَسْرُد هنا قول الحافظ الذهبي في السير ، تعليقًا على حديث عبد الله بن عمرو :

« وصحَّ أنَّ رسول الله ﷺ نَازَلَهُ إلى ثلاثِ ليال ، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث ، وهذا كان في الذي نزل من القرآن ، ثم بَعْد هذا القول نزل ما بقي من القرآن ، فأقلُّ مراتبِ النهي أنْ تُكْره تلاوةُ القرآنِ كله في أقل من ثلاث ، فما فَقِهَ ولا تدبَّر من تلا في أقل من ذلك ، ولو تلا ورتَّل في أسبوع ، ولازم ذلك لكان عملًا فاضلًا ، فالدِّينُ يُسْرٌ ، فوالله إن تَرْتيل سُبع القرآن في تهجُّد قيامِ الليل ، مع المحافظة على النوافل الراتبة ، والضُّحى وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثَّابتة ، والقول عند النَّوم واليقظة ودُبر المكتوبة والسَّحَر ، مع النظر في العلم النافع والاشتغال به مُخلصًا لله ، مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتفهيمه ، وزجر الفاسق ، ونحو ذلك ، مع أداء الفرائض في جماعةٍ بخشوعٍ وطمأنينةٍ وانكسار **وإيمان ، مع أداء الواجب واجتناب الكبائر ، وكثرة الدعاء والاستغفار والصَّدَقة وصلة الرحم والتواضع والإخلاص في جميع ذلك – لشغل عظيم** جَسِيم ، ولمقامُ أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين ، فإن سائر ذلك مطلوبٌ ، فمتى تشاغل العبد بختمة في كل يومٍ فقد خالف الحنيفيَّة السَّمْحة ، ولم يَنْهض بأكثر ما ذكرناه ، ولا تدبر ما يتلوه.هذا السَّيد العابد الصاحب – يعني عبد الله بن عمرو – كان يقول لمَّا شَاخ : ليتني قبلتُ رخصةَ رسول الله ﷺ . **وكذلك قال له عليه السلام في الصوم ..**

وكُلُّ من لم يَزُمّ نَفْسَه في تعبُّده وأوراده بالسُّنَّة النَّبوية يَنْدم ويترهَّب ويسوء مزاجه ، ويفوته خيرٌ كثير من متابعة سنة نبيِّه الرَّءوف الرَّحيم

بالمؤمنين ، الحريص على نَفْعهم ، وما زال ﷺ معلِّمًا للأمة أَفْضَل الأعمال ، وآمرًا بِهَجْر التبتل والرَّهْبانية التي لم يُبْعث بها ، فنهى عن سَرْد الصَّوم ، ونهى عن الوِصَال ، وعن قيام أكثر الليل إلا في العَشْر الأخير ، ونهى عن **العُزْبة للمستطيع** ، ونهى عن ترك اللَّحم ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي ، فالعابدُ بلا معرفةٍ لكثيرٍ من ذلك معذورٌ مأْجور ، والعابدُ العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها مفضولٌ مغرورٌ ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلَّ . **أَلْهَمَنَا** الله وإيَّاكم حُسْنَ المتابعة ، وجنَّبنا الهوى والمخالفة »[١].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « لم يَفقَه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث »[٢].

قال العلامة ابنُ رجب الحنبلي : « وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك ، فأمَّا في الأوقات المفضَّلة كمكَّة لمن دخلها من غير أهلها ، فيُستحب الإكثارُ فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزمان والمكان ، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة ، وعليه يدلُّ عمل غيرهم كما سبق ذكره »[٣]. وكان قد أورد خَتمَ الشافعي للقرآن ستين مرةً في شهر رمضان ، وختم قتادة للقرآن مرةً كل يوم في العَشْر الأَخير ، وختم أبي حنيفة للقرآن في ليلةٍ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : من قَرَأَ القرآنَ في أقل من ثلاث فهو

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٨٤ - ٨٦ .

(٢) حديث حسن صحيح . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

(٣) لطائف المعارف لابن رجب صـ ١٩١ - ١٩٢ ، مؤسسة الرَّيَّان ، ودار ابن حزم .

رَاجِزٌ . وزاد في رواية أبي إسحاق : هذًّا كهذِّ الشِّعْر ، ونثرًا كنثرِ الدّقل[١] .

وعن ابن وهبٍ قال : قيل لمالك : الرَّجلِ المُحْصر يَخْتم القرآن في ليلة ؟ قال : ما أجودَ ذلك ، إن القرآن إمامٌ لكلِّ خير . قال مالك : ولقد أخبرني من كان يصلي إلى جنب عمر بن حُسين في رمضان قال : كنتُ أسمعه يستفتح القرآن في كل ليلة[٢] .

قال الإمام النَّووي رحمه الله : « ينبغي لحامل القرآن أن يحافظ على تلاوته ويكثر منه ، ليلًا ونهارًا ، سفرًا وحَضَرًا ، وقد كانت للسَّلَفِ رضي الله عنهم عادات مختلفة فيما يختمون فيه القرآن :

فكان جماعةٌ منهم يختمون في كل شهريْن ختمة ، وآخرون في كل شهرٍ ختمة ، وآخرون في كل عشرِ ليال ختمة ، وآخرون في كل ثمانِ ليال ختمة ، وآخرون في كل سبعِ ليال ختمة ، وهذا فعل الأكْثرين من السَّلف . وآخرون في كل ستِّ ليال ، وآخرون في كل خمس ليالٍ ، وآخرون في كل أَرْبع ليال ، وكثيرون في كلِّ ثلاث ليال ، وكان كثيرون يختمون في كل يومٍ وليلة ختمة ، وختم جماعةٌ في كل يوم وليلة ختمتين ، وآخرون في كل يوم وليلة ثلاث ختمات ، وختم بعضهم في

---

(١) إسناده لا بأس به : أخرجه عبد الرزاق والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب .

(٢) إسناده رجاله ثقات ، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٥ / ١٤٧ ، ويعقوب الفسوي في المعرفة ١ / ٦٦٥ . والرَّجل المُحْصر ؛ إما محصر بالمهملتين ، من أحصره المرضُ إذا منعه من السَّفر ، أو من حاجةٍ يريدها . أو من أُحصر الرجل ببول أو بغائط ، إذا أمسك عنه . ويجوز أن يكون المُحتَضَر بالضَّاد المعجمةِ ؛ من حَضَرَه الهمُّ واحتضره وتحضره .

وعمر بن حسين المذكور في الخبر هو عمر بن حُسَين بن عبد الله الجُمحي ، أبو قدامة المكي ، من رجال مسلم .

اليوم والليلة ثماني ختمات ؛ أربعًا في الليل وأربعًا في النهار ، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة .

وممن خَتَمَ أربعًا في الليل وأربعًا في النهار : السيد الجليل ابن الكاتب الصوفي رضي الله عنه ، وهذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة . وروى السيد الجليل أحمد الدَّوْرَقي بإسناده عن منصور بن زاذان ، من عبّاد التابعين ، رضي الله عنه أنه كان يختم القرآن ما بين الظهر والعصر ، ويختمه أيضًا فيما بين المغرب والعشاء ، ويختمه فيما بين المغرب والعشاء في رمضان ختمتين وشيئًا ، وكانوا يؤخِّرون العشاء من رمضان إلى أن يمضي ربعُ الليل . وروى ابن أبي داود بإسناده الصحيح أن مجاهدًا رحمه الله كان يختم القرآن في رمضان فيما بين المغرب والعشاء .

وأما الذين ختموا القرآن في ركعةٍ أو في يوم وليلة فلا يُحصَون لكثرتهم ؛ فمنهم : عثمان بن عفان ، وتميم الدَّاري ، وسعيد بن جبير ، ختموا القرآن في ركعة في الكعبة .

ومنهم : مجاهد والشافعي وآخرون ، ختموا القرآن في يوم وليلة .

وعن منصور قال : كان علي الأزدي يختم فيما بين المغرب والعشاء في كل ليلة من رمضان . وعن إبراهيم بن سعد قال : كان أبي يَحْتبي فما يحلُّ حَبْوته حتى يختم القرآن .

ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات : سليم بن عِتْر رضي الله عنه ، قاضي مصر في خلافة معاوية رضي الله عنه . وروى ابن أبي داود أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات . وروى أبو عُمر الكندي في كتابه « **قضاة مصر** » أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات .

وأما الذين خَتَموا القرآن في أسبوعٍ فكثيرون ؛ نُقل عن عثمان بن

عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأُبيّ بن كعب رضي الله عنهم ، وعن جماعة من التابعين ؛ كعبد الرحمٰن بن يزيد ، وعلقمة ، وإبراهيم ، رحمهم الله تعالى .

والمُختارُ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص : فمن كان يَظْهر له بدقيقِ الفكر لطائف ومعارف ، فليقتصرْ على قدرٍ يحصل له معه كمال فهم ما **يقرؤه** .

وكذا من كان مشغولًا بِنَشْر العلم أو فَصْل الحكومات بين المسلمين ، أو غيره من مُهمَّات الدين والمصالح العامة للمسلمين ، فليقتصرْ على قدرٍ لا يَحْصُل بسببه إخلالٌ بما هو مُرْصَدٌ له ولا فوْت كماله .

وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر منه ما أمكنه ، من غير خروجٍ إلى حدِّ المَلَلِ والهَذْرَمة في **القراءة** »[١] .

قال ابن حجر في فتح الباري (٨ / ٧١٣) : « قوله : باب في كم يقرأ القرآن ؟ وقول الله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ كأنَّه أشار إلى الردِّ على من قال : أقلُّ ما يُجزئ من القراءة في كل يوم وليلة جزءٌ من أربعين جزءًا من القرآن ، وهو منقولٌ عن إسحاق بن راهويه والحنابلة ؛ لأن عموم قوله : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ يشمل أقلّ من ذلك ، فمن ادَّعى التحديد فعليه البيان . وقد أخرج أبو داود من وجهٍ آخر عن عبد الله بن عمرو : **في كم يقرأ القرآن ؟ قال : في أربعين يومًا . ثم قال : « في شهر ...»** الحديث ، ولا دلالة فيه على المدَّعىٰ » .

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي صـ ١١ - ١٢ ، والأذكار للنووي صـ ٩٥ - ٩٦ .

« فإنْ قلتَ : بعضُ المجاهَدات مما لا يُعْقل وقوعها ، كثمانِ ختمات في يوم وليلة ، وكأداء ألف ركعةٍ في ليلة ونحو ذلك ؟!

قلتُ : وقوعُ مثل هذا ، وإن استُبْعد من العَوام ، لكن لا يُستبعَدُ ذلك من أهل الله تعالى ؛ فإنهم أُعطوا من ربهم قوةً مَلكيَّة ، وصلوا بها إلى هذه الصفات ، لا يُنكره إلا مَنْ يُنكر صدور الكراماتِ وخوارق العادات .

وإنَّ الذَّاكرين لهذه المناقب ليسوا ممن لا يُعتمد عليه ، أو ممن لا يكون حُجَّة في النَّقل ، بل هم أئمةُ الإسلام وعُمدُ الأنام ، الذين يُرجع إلى أقوالهم في المهمات ، وتُجعل أخبارهم من القَطعيَّات ؛ كأبي نُعيم وابن كثير والسَّمْعاني وابن حجر المكي وابن حجر العَسْقلاني والسيوطي وعلي القاري وشمس الأئمة الكردري والنووي وشيخ الإسلام الذهبي ومن يحذو حذوهم .

أَفَترى هؤلاء قد اعتمدوا على نقل ما ينقله أرباب الكذب ؟! كلَّا والله ، هم أئمة محتاطون ، لا يُناقَشون فيما يكتبون ، فإن شككتَ في ذلك فارجع إلى الطبقات ينكشف لك أحوال صدقِ هؤلاء الثقات .

وإن اعتُبر مثل هذا الشَّك،ارتفع الأمان عن كتب التواريخ وأسماء الرجال ، فإنهم غالبًا يكتبون ما يكتبون في تراجم العلماء بغير سندٍ مسلسل ، بل بالاختصار والإرسال ، فإن شكَّ في ذلك شاكٌّ عُلم قطعًا أنه متعصب ، خارجٌ عن حدِّ الخطاب ، لا يليق معه إلا الزَّجْر والعتاب »[1].

* * *

---

(١) إقامة الحجة على أنَّ الإكثار في التَّعبد ليس ببدعة ، لأبي الحسنات اللكنوي ، صـ ١٠١ - ١٠٣ .

□ آدَابُ التِّــلاوَة □

ومن علو الهمة في التلاوة ، مراعاة آدابها الظاهرة والباطنة :

ومن الآداب الظاهرة :

استحباب الوضوء ، واستقبال القبلة ، والتَّرتيل ، والبكاء ، قال تعالى : ﴿ **ويخرُّون للأَذْقان يَبْكُونَ ويَزيدُهم خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] ، ومراعاة حقِّ الآيات ؛ فإذا مرَّ بآيةِ سجدةٍ سجد ، والتَّعَوذ في مبتدأ قراءته ، وتحسين القراءة ؛ قال ﷺ : « ما أذِنَ الله لشيءٍ ما أَذن لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وزاد مسلم : « لنبيٍّ حسن الصوت » ، وفي رواية له : « كإذنه لنبي يتغنَّى بالقرآن » .

وقوله ﷺ : « ليس مِنَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن »[١].

وقوله ﷺ : « أَحْسَنُ الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيتَ أنه يخشى الله »[٢].

وقوله ﷺ : « إن من أحسن النَّاس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيتَ أنه يخشى الله »[٣].

أما الآداب الباطنة فهي عَشْرة :

(١) فَهْم أصلِ الكلام .
(٢) التَّعْظيم .
(٣) حُضُور القلب .
(٤) التَّدبُّر .
(٥) التَّفهم .
(٦) التَّخلي عن موانع الفهم .

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم عن عائشة .

(٢) صحيح : رواه محمد بن نصر في الصلاة ، والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٤) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٠٢) .

(٧) التَّخْصيص . (٨) التَّأثر .
(٩) التَّرقي . (١٠) التَّبرُّؤ .

فالأول : فهم أصل الكلام :

فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه ، وإفهامه كلامه لهم ، وتيسير القرآن للذكر ، ولولا لُطْفُ الله بعباده لَمَا ثبت لسماع الكلام ، وهو من صفاته ، عرشٌ ولا ثرًى ، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه ، ولولا تثبيت الله لموسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يُطق الجبل مبادي تجلّيه ، حيث صار دَكًّا .

والثاني : التَّعْظيم للمتكلِّم :

فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يُحْضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويَعْلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأنَّ في تلاوة كلام الله غاية الخطر ﴿ **لا يَمَسُّه إلَّا المُطَهَّرُونَ** ﴾ [الواقعة : ٧٩] ، وكما أنَّ ظاهر جِلْدِ المصحف وورَقه محروسٌ عن ظاهر بَشَرة اللَّامس إلا إذا كان متطهِّرًا ، فباطنُ معناه أيضًا بحُكْم عِزِّه وجلاله محجوبٌ عن باطن القلب إلا إذا كان متطهِّرًا عن كلِّ رجسٍ ، ومستنيرًا بنورِ التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمسِّ جلدِ المصحف كلُّ يدٍ ، فلا يصلح لِنَيْل معانيه كلُّ قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف وضعه على وجهه وقال : كتاب ربي ، كتاب ربي .

فتعظيم الكلام تعظيمُ المتكلم ، ولن تحضره عظمةُ المتكلم ما لم يتفكَّر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فبالتفكُّر في جلاله وصفاته وأفعاله يَحْضر تعظيمُ المتكلم ثم تعظيم الكلام .

قال مالك بن دينار : إن الصِّدِّيقين إذا تُليت عليهم آياتُ الرحمـٰن

طربت قلوبهم واشتاقت إلى ما عنده ، ثم يقول : « اسمعوا إلى ما يقول الصَّادق من فوق عرشه » ثم يبدأ في التلاوة .

الثالث : حُضُور القلب وتَرْك حديث النَّفْس :

قيل لبعْضهم : إذا قرأتَ القرآن تحدِّث نفسك بشيءٍ ؟ فقال : أَوَ شيء أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أحدِّثَ به نفسي ؟! وكان بعض السَّلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية .

وهذه الصفة تتولَّد عمَّا قبلها من التعظيم ؛ فإن المعظِّم للكلام الذي يتلوه ويَسْتَبْشِر به ويستأنس ، لا يغفل عنه ؛ ففي القرآن ما يَسْتأنس به القلب ، إن كان التالي أهلًا له ، فكيف يطلب الأُنس بالفِكْر في غيره وهو في مُتَنَزَّه ومتفرَّج ، والذي يتفرَّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ؟ قال الفُضيل بن عياض : كفى بالله مُحبًّا ، وبالقرآن مؤنسًا ، وبالموت واعظًا ، اتَّخذِ الله صاحبًا ، وَدَعِ الناس جانبًا .

وقال : من لم يَسْتأنس بالقرآن فلا أَنس اللهُ وحشته .

وقيل لذي النّون : ما الأُنْس بالله ؟ قال : العلم والقرآن .

وَلَقَدْ جعلتُكَ في الفُؤادِ مُحدِّثي   وأبحتُ جسْمي مَنْ أَرادَ جُلوسي
فَالجِسْـمُ منِّي للجَلِيسِ مُؤانسٌ   وحبيبُ قَلبي في الفؤادِ أَنِيسي

وقال محمد بن واسع : القرآنُ بستانُ العارفين ، فأينما حلّوا منه حلّوا في رياضٍ نضرة .

وكم في القرآن من ميادينَ وبساتين ومقاصير وعرائس وَدَيَابيج ورياضٍ وخاناتٍ ، فإذا دخل القارئ الميادين ، وقطف من البساتين ، ودخل المقاصير ، وشهد العرائس ، ولبس الدِّيابيج ، وتَنَزَّه في الرياض ، وسكن غرف الخانات -

استغرقه ذلك ، وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ، ولم يتفرَّق فكره .

الرابع : التَّدبُّر :

وهو وراء حضور القلب ؛ فإنه قد لا يتفكَّر في غير القرآن ، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره .

وقد قام رسول الله ﷺ بآية يردِّدُها : ﴿ **إن تُعذِّبهمْ فإنَّهم عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ [المائدة : ١١٨] .

وقام تميم الداري ليلةً بهذه الآية : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سواءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهم سَاءَ مَا يَحْكُمونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقام سعيد بن جبير ليلة يردِّد هذه الآية : ﴿ **وامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ** ﴾ [يس : ٥٩] .

ومحمد بن المنكدر يسأله أبو حازم عن البكاء طيلةَ ليلِهِ ، فيقول : آيةٌ من كتاب الله أبكتني : ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكونُوا يَحْتَسِبون** ﴾ [الزمر : ٤٧] .

وقال بعضهم : إني لأفتتح السُّورة فيوقفني بعضُ ما أَشْهَد فيها عن الفَرَاغ منها حتى يطلع الفجر .

وكان بعضهم يقول : آيةٌ لا أتفهَّمُهَا ، ولا يكون قلبي فيها ، لا أعدُّ لها ثوابًا .

ويقول أبو سليمان الدَّاراني : إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليال ، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

الخامس : التَّفهم :

قال أبو تراب النخشبي :

وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَىٰ مُتَفَهِّمًا لكلامِ مَنْ يَحْظَىٰ لَدَيْهِ السَّائِلُ[١]

فيستوضح من كل آيةٍ ما يليق بها ؛ إذ القرآن يشتمل على ذِكْرِ صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء ، وذكر أحوال المُكذِّبين ، وَذِكْرِ الأوامر والزَّواجر ، وذكر الجنة والنار .

ومن أراد علم الأَوَّلين والآخرين فليثوِّر القرآن . وأعظمُ علوم القرآن تَحْتَ أسماء الله عز وجل وصفاته ؛ إذْ لم يدرك أكثرُ الخلقِ منها إلَّا أمورًا لائقةً بأفهامهم ، ولم يَعْثروا على أغوارها .

السادس : التخلِّي عن مَوانع الفَهْم :

فإن أكثر الناس مُنِعوا عن فهمِ معاني القرآن ؛ لأسباب وحُجُبٍ أَسْدَلَهَا الشيطانُ على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائبُ أسرارِ القرآن .

وحُجُب الفَهْم ثلاثة :

أولها : أن يكون الهَمُّ منصرفًا إلى تحقيق الحروف فقط ، فأنَّى تنْكشف له المعاني .

ثانيها : أن يكون مقلِّدًا لمذهبٍ سمعه بالتقليد .

ثالثها : أنْ يكون مُصِرًّا على ذنبٍ أو متّصفًا بكبْرٍ أو مبتلى بهوًى في

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٧٢ .

الدنيا مطاع ، فيُحْرم بركة الانتفاع بالوحي وفهم القرآن ، فالإنابة شرطٌ في الفهم والتذكير ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ** ﴾ [غافر : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ **تبصرةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** ﴾ [ق : ٨] .

السابع : التَّخْصيص :

وهو أن يُقَدِّرْ أنه المقصود بكلِّ خطاب في القرآن ، فإنْ سمع أمرًا أو نهيًا قدَّر أنه المنهيُّ والمأمور ، وإنْ سمع وَعْدًا أو وعيدًا فكمثل ذلك ، وإن سمع قَصَصَ الأوَّلين علم أن السَّمر غير مقصودٍ وإنما الاعتبار ، فهذا القارئ الواحد مقصود ، فما له ولسائر الناس فليقدِّر أنه المقصود .

قال محمد بن كعب القرظي : من بَلَغَه القرآنُ فكأنَّما كلَّمه الله .

قال بعض العلماء : هـذا القرآن رسائلُ أتتنا مـن قِبَلِ ربِّنا عز وجل بعهوده ، نتدبَّرها في الصلوات ، ونقفُ عليها في الخَلَوات ، ونُنفِّذُهَا في الطاعات والسنن المتَّبعات .

وكان مالك بن دينار يقـول : يا أصحـاب السـورة ، ويا أصحاب السورتين ، يا حملة القرآن ، ماذا غَرَسَ القرآنُ في قلوبكم ؛ إن القرآن ربيع قلب المؤمن ، كما أنَّ الغَيْثَ ربيعُ الأرض ، إن الغيث قد ينزل على الحَبَّة في الحُشِّ ما يمنعه نَتَن موضعها من أن تثمر ، فماذا غرس القرآن في قلوبكم .

وقال قتادة : لم يجالس أحدٌ هذا القرآن إلا قام بزيادةٍ أو نقصان ، قال تعالى : ﴿ **هو شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

الثامن : التَّأَثُّر :

وهو أن يتأثَّر قلبه بآثارٍ مختلفة بحسب اختلافِ الآيات ، فيكون له بحسب كلِّ فهم حالٌ ووَجْد يتَّصف به قلبه من الخوف والرجاء .

قال الحسن : والله ما أَصْبَحَ اليوم عبدٌ يتلو القرآن يؤمن به إلا كَثُرَ حُزْنُه ، وقلَّ فرحه ، وكثر بكاؤه ، وقلَّ ضحكه ، وكثر نصبه وشغله ، وقلَّت راحته وبطالته .

وقال طبيب القلوب وهيب بن الورد : نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرقَّ للقلوب ، ولا أشدَّ استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهُّمِه وتدبُّره . فرحم الله أقوامًا كانوا إذا مَرُّوا بآية فيها ذِكْرٌ للنار فكأنَّ زَفِيرها في آذانهم .

مَنَعَ القُرآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ العُيونِ بِلَيْلِها لا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عن المَلِكِ الجَلِيلِ كَلامَه ... فَهْمًا تَذِلُّ له الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

وإذا مَرُّوا بآية فيها ذِكْرٌ للجنَّة فكأنَّهم فيها مُنعَّمين ، وطربتْ قلوبُهم لنعيمها ، وَتَنْبعث بواطنُهم شوقًا إليها . ومن الصالحين مَنْ مات من سماعِ آياتِ العذاب ؛ كعليِّ بن الفُضيل وزرارة بن أبي أوفى ، وغيرهما كثير .

قال ابن أبي الحواري : إني لأعجب لقُرَّاء القرآن ، كيف يُهنِّيهم النوم ومعهم القرآن ، أما واللهِ لو علموا ما حَمَلوا لطار عنهم النوم فرحًا بما رزقوا .
وسُئل : رجلٌ ينامُ ومعه القرآن ؟ قال : ذاك رجل يتوسَّد القرآن .

ومن لا يتأثر بالقرآن يكون له نصيبٌ من هذه الآية : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ** ﴾ [البقرة : ٧٨] ؛ أي تلاوةً مجرَّدة . أمَّا أهلُ العلم بالله فَهُمُ الَّذينَ قال الله فيهم : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَه حَقَّ تلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ...** ﴾ [البقرة : ١٢١] .

فتلاوة القرآن حَقّ تلاوتِهِ هو أن يَشْترك فيه اللِّسان والعقل والقلب ، فحظُّ اللسان تصحيح الحروف ، وحظُّ العقل تفسير المعاني ، وحظُّ القلب

الاتِّعاظ والتأثر بالانْزِجَار والائْتِمَار ، فاللسان يُرتِّل ، والعقل يترجمُ ، والقلب يتَّعظ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهم لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْل فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُم فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٦] .

وقال تعالى : **﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَـذَا القُـرْآنَ عَلَىٰ جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾** [الحشر : ٢١] .

التاسع : التَّرقِّيْ :

والمـرادُ به أن يترقَّى ؛ حتى كأنَّه يَسْمعـه من ربِّه لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث :

أدناها : أن يُقدِّر العبدُ كأنَّه يَقْرؤه على الله عز وجل ، واقفًا بين يَدَيْه ، وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكونُ حالُه عند هذا التقدير السؤالَ والتملُّق والتَّضرُّع والابتهال .

الثانية : أَنْ يَشْهَد بِقَلْبه كأنَّ الله عز وجل يراه ويخاطبه بأَلْطافه ، ويناجيه بإِنْعامه وإحسانه ، فمقامه مقامُ الحياء والتَّعظيم والإِصغاء والفَهْم .

والثالثة : أن يَرَىٰ في الكَلام المُتكلِّمَ وفي الكلماتِ الصِّفات ، فيكون مقصورَ الهمِّ على المتكلم ، فهذه درجة المقرَّبين .

وقد قال كعب : عَلَيْكُمْ بالقرآن ؛ فإنه فَهْم العقل ، ونُور الحكمة ، وأَحْدَثُ الكتب بالرحمٰن ، لقد كان رسول الله ﷺ يتلَقَّى المطرَ بِثَوْبه ، ولَمَّا يُسأل عن ذلك يقول : « إنه حَديثُ عهدٍ بربه » فما ظَنُّكم بالقرآن ...

فليست كل التلاوة واحدة ، وإلَّا فما معنى قول رسول الله ﷺ : « من أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل فليقرأ على قراءةِ ابن أمِّ عبدٍ »[١]. يعني عبد الله بن مسعود .

قال بعض الحكماء : كنت أَقرأُ القرآن فلا أَجد له حلاوةً ، حتى تلوتُه كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ، ثم رُفعتُ إلى مقامٍ فوقه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يُلقيه على رسول الله ﷺ ، ثم جاء اللهُ بمنزلةٍ أخرى كأني أسمعه من المتكلِّم به ، فعندها وجدتُ له لذَّةً ونعيمًا لا أصبر عليه .

قال عثمان بن عفان : لو طَهُرَتْ قلوبُكم ما شَبِعْتم من كلام ربِّكم .

وقال ثابت البناني : كابدتُ القرآن عشرين سنةً ، وتنعَّمْتُ به عشرين سنة .

العاشر : التَّبرُّؤ :

فيتبرّأ مِنْ حَولِهِ وقوَّته والالتفات إلى نفسه بعينِ الرِّضا والتَّزكية ، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نَفْسَه عند ذلك ، بل يَشْهَد المُوقنين والمُصدِّقين ، ويتشوَّف إلى أن يُلْحقه اللهُ عزَّ وجلَّ بهم ، وإذا تلا آيات المَقْت وذمِّ العصاة والمقصِّرين شهد على نفسه هناك ، وَقَدَّرَ أنه المُخاطَب خوفًا وإشفاقًا .

قيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأتَ القرآن بماذا تدعو ؟ قال : بماذا أدعو ! أستغفر اللهَ من تَقْصِيري سبعين مرة ، وكان يقول : اللهم لا تَمْقُتْنَا .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي بكر وعمر ، ورواه البخاري في التاريخ عنهما ، وابن سعد عن ابن مسعود والحاكم عن عمار ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩٦١) .

قال ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بمائة آيةٍ في ليلة كُتب له قنوت ليلة »[(١)].

قال أبو سليمان الدَّاراني : ربما أقمتُ في الآية الواحدة خمسَ ليالٍ ، ولولا أني أدعُ الفِكْرَ فيها ما جُزْتها أبدًا ، ولربَّما جاءتِ الآية من القرآن فيطيرُ العقلُ ، فسبحان الذي يَردُّه[(٢)].

وقال ﷺ : « إذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليل والنهار ذَكَره ، وإن لم يقمْ به نسيه »[(٣)].

قال زهير البابي : « إن لله عبادًا ذكروه ، فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقًا ، وقومٌ ذكروه فوجلت قلوبهم فَرَقًا وهيبةً ، وآخرون ذكروه في الشِّتاء فارفضُّوا عرقًا من خوفه ، وقوم ذكروه فحالت ألوانُهم غَبْرًا ، وقوم ذكروه فجفتْ أعينُهم سَهَرًا » ... يَتْلُون كتاب الله بشفاهٍ ذابلة ، ودموع وابلة ، وَزَفَرات قاتلة ، وأجسام نَاحلة ، وخواطر في عظمتهِ جائلة .

عَمِيَ أحدُ العُبَّاد ؛ فكان إذا قرأ في المُصْحف عاد إليه بَصَرُهُ .

قال مالك بن دينار : ما تنعَّمَ المتنعِّمونَ بمثل ذِكْرِ الله .

نعم .. إذا سَئِمَ البَطَّالون من بطالتهم فَلَن يَسْأَم مُحِبُّوك من ذكرك ومناجاتك ... وأهلُ الليل والذِّكر في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو بِلَهْوهم .

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي عن تميم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤٦٨) .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٤ / ٢٣٢ .

(٣) صحيح : أخرجه ابن نصر في قيام الليل عن ابن عمر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٩٧ .

وهاك نعيمهم وهذه جَنَّتهم وبَسَاتينهم ، نبدأ بسيِّدهم وإمامهم ﷺ :

○ رسول الله ﷺ سَيِّدُ الذَّاكِرين ○

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يَذكر الله تعالى على كل أَحْيانه . رواه مسلم .

« ولم تَسْتَثْنِ حالةً من حالةٍ ، وهذا يدلُّ على أنه كان يذكر ربَّه - تعالى - في حال طهارته وجنابته .

وأما حال التَّخلِّي ، فلم يكن يشاهده أحدٌ يُحكَىٰ عنه ، ولكن شَرَع لأمَّتِهِ من الأذكار قبل التخلِّي وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذِّكر ، وأنه لا يخلُّ به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شَرَعَ للأمَّة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم : « اللهم جَنِّبْنَا الشيطانَ ، وجَنِّب الشيطان ما رزقْتَنَا »[١] .

وأما عند نَفْسِ قضاء الحاجة وجِماع الأهل ، فلا ريبَ أنَّه لا يُكْرَه بالقلب ؛ لأنه لا بدّ لقلبه من ذِكرٍ ، ولا يمكنه صَرْف قلبه عن ذكرِ مَنْ هو أحبُّ شيءٍ إليه ، فلو كَلَّفَ القلبَ نسيانه ؛ لكان تكليفه بالمحال ، كما قال القائل :

يُرادُ من القَلْبِ نِسْيَانكُمْ   وَتَأْبَىٰ الطِّبَاعُ على النَّاقِلِ

فأما الذِّكْر باللسان على هذه الحالةِ ؛ فليس ممَّا شُرِعَ لنا ، ولا نَدَبَنا إليه رسول الله ﷺ ولا نُقِلَ عن أحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم .

ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء والمراقبة والنعمة عليه في هذه

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس .

الحالة ، وهي من أجلِّ الذكر . فَذِكْر كلِّ حالٍ بحسب ما يليق بها »[١].

أما القرآن .. فما قام أحدٌ به قيام رسولنا ﷺ .. وما تدبَّره أحدٌ تدبُّر رسولنا ﷺ .. وما بكىٰ أحدٌ من تلاوتهِ أو استماعهِ ما بكى سَيِّدُ الخائفين .. أما قال لابن مسعود : « اقرأْ عليَّ ، فإني أُحبُّ أن أستمعه من غيري » ... وينظر ابنُ مسعود فإذا وجه الكريم ﷺ قد بلَّلَتْه الدموع .

وَفِينَا رسـولُ اللهِ يَتْلو كِتَـابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْروفٌ من الفَجْرِ سَاطِعُ

صلّىٰ الله عليه وسلم قَدْرَ ما ذكره الذَّاكِرونَ .

أُبيّ بن كَعْبٍ سَيِّد القُرَّاء :

عن أنس بن مالك قال : لما نَزَلت ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ** ... ﴾ [البيِّنة : ١] قال رسول الله ﷺ لأُبيِّ بن كعب : « إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك » قال : وذكرني ؟ قال : « نعم » فبكى أُبيّ[٢].

وفي رواية : أَوَذُكرت فيما هنالك ؟ قال النبي ﷺ : « نعم » . قال : فبكى أُبيّ[٣].

هذا والله السُّؤدد ، وهذا والله الشَّرف .

عن عبد الرحمٰن بن أَبْزى عن أبيّ بن كعب قال : قال النبي ﷺ : « أُنزلت عليَّ سورةٌ وأردتُ أن أُقرِئَكَهَا » قلت : أَسُمِّيتُ لك ؟ قال : « نعم » . **فقلتُ لأبي : أَفَرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر ؟ قال : وما**

---

(١) الوابل الصيب صـ ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو يعلى وأبو نُعيم وأحمد وابن سعد والبغوي في شَرْح السُّنة .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه والنسائي في « فضائل القرآن » وأحمد .

يمنعني ، والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ... ﴾(١) الآية [يونس : ٥٨] .

وَصَحَّ من طرقٍ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْحَمُ أمتي أبو بكر ... وأقرؤهم أبيّ ... »(٢) .

قال الذهبي في « معرفة القُراء الكبار » : أُبيٌّ بن كعب أَقْرَأُ من أبي بكر ومن عمر .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول : « استقرئوا القرآنَ من أربعة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حُذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبيّ بن كعب »(٣) .

وعن أبي قلابة عن أبي المهلب قال : كان أبيّ يختم القرآنَ في ثمانٍ . قال الذهبي : إسناده صحيح .

وقال له النبي ﷺ : « لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبا المُنْذر » .

وقال عمر رضي الله عنه يوم موت أبيّ : اليوم مات سَيِّد المُسْلمين .

ذو النُّورَيْن عُثْمان بن عَفَّان :

« قال عبد الرحمٰن التَّيمي : لأَغْلبنَّ الليلةَ على المقام ، قال : فلما صلَّيتُ العَتَمَة تخلَّصتُ إلى المقام حتى قُمتُ فيه ، فبينا أنا قائم إذا رجل وضع

(١) إسناده حسن : رواه أحمد والبيهقي في « الشعب » والبخاري في « خلق أفعال العباد » وابن أبي شيبة في المصنَّف ، وأبو نعيم في « الحِلْية » .

(٢) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والبغوي ، وصحَّحه ابن حبان والحاكم والطحاوي في المُشْكل ، وأبو نعيم والطيالسي وابن سعد .

(٣) رواه البخاري والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وأبو نُعيم .

يده بين كَتِفيَّ ، فإذا هو عثمان بن عفان فبدأ بأمِّ القرآن ، فقرأ حتى ختم القرآن فركع وسجد ، ثم أخذ نَعْليه ، فلا أدري أصلَّى قبل ذلك شيئًا أمْ لا »[1].

« كان رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعةٍ ، ثم يُوتر بها »[2].

وعن ابن سيرين قال : قالت امرأة عثمان حين قُتل : لَقَدْ قتلتموه ، وإنه لَيُحْيي الليلَ كلَّه بالقرآن في ركعة[3].

قال الحافظ ابن كثير : « وقد رُوي من غَيْر وجهٍ أنه صلَّى بالقرآن العظيم في ركعة واحدةٍ عند الحَجَر الأسود ، أيام الحج ، وقد كان هذا من دأبه رضي الله عنه ، ولهذا رَوَيْنَا عن ابن عمر أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هو قَانِتٌ آناءَ الليلِ سَاجِدًا وقَائمًا يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رحمةَ ربِّه** ﴾ [الزمر : ٩] قال : هو عثمان بن عفان » .

وقال فيه حسان بن ثابت :

ضحَّوْا بأشْمطَ عُنْوانُ السُّجود به   يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبيحًا وقُرآنَا

قال النووي في « التبيان » (٥٥) : « فَمِن الَّذين كانوا يختمون الختمة في اليوم والليلة : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتَميم الداريّ ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، والشَّافعي ، وآخرون » .

---

(١) الحلية ١ / ١٥٦ .
(٢) إسناده صحيح : أخرجه الطحاوي والبيهقي ٣ / ٢٥ ، وابن أبي داود ، وصحَّح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط ، والشيخ زهير الشاويش في تحقيق شرح السنة ٤ / ٤٩٩ .
(٣) الزُّهد صـ ١٢٧ لأحمد بن حنبل .

وقال أيضًا في « التبيان » (٥٧) : « وأمَّا الذين خَتَموا القرآن في ركعة فلا يُحصَون لكثرتهم ؛ فمن المتقدِّمين : عثمان بن عفان ، وتميم الداريّ ، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم ، ختمه في كلِّ ركعة في الكعبة » .

وقال النووي في « التبيان » (٥٩) : « وروى ابن أبي داود بإسناده أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يفتتح القرآنَ ليلةَ الجمعة ، ويختمه ليلة الخميس » .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

قال عروة بن الزبير : « أولُّ من جَهَر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود »[1].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إلٰه غيره ، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلَّا أنا أعلمُ أين أُنزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلَّا أنا أعلم فيمن أنزلت . ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ منِّي بكتابِ الله تبلغه الإبلُ لركبتُ إليه .

قال عبد الله : « والذي لا إلٰه غيره ، لقد قرأتُ من فِي رسول الله ﷺ بِضْعًا وسبعين سورةً ، ولو أعلم أحدًا أعلمَ بكتاب الله مني تُبلِّغُنيه الإبلُ لأتيته »[2].

وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « من أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل ، فليقرأ على قراءة ابن ....

(١) أخرجه ابن حَجَر في الإصابة ٦ / ٢١٥ ، ورجاله ثقات .
(٢) إسناده صحيح ، سير أعلام النبلاء ١ / ٤٧١ .

أمِّ عبدٍ »[١].

فلله دَرُّكَ يا ابن مسعود حين يُتوِّجُك رسول الله ﷺ هذه الكَرَامة .

لقد كان رسول الله ﷺ يَفْرح بالمطر إذا نزل ، ويقول : « إنه حَدِيثُ عهدٍ بربِّه ... » فما الظن بكلامِ الله بقراءتك الغَضَّة !!

وعن عبد الله أن رسول الله ﷺ مرَّ بين أبي بكرٍ وعمر ، وعبد الله قائمٌ يصلِّي ، فافتتح سورة النِّساء يَسْجُلُها ، فقال ﷺ : « مَنْ أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل ، فليقرأ قراءة ابن أمِّ عبدٍ » فأخذ عبدُ الله في الدعاء ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سأل : اللهم إني أسألك إيمانًا لا يَرتدُّ ، ونعيمًا لا يَنْفد ، ومرافقة نبيِّك محمدٍ ﷺ في أعلى جِنان الخُلْد . فأتى عمرُ عبدَ الله يبشِّره ، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه ، فقال : إنك لَسَبَّاق بالخير[٢].

وعن خَيْثمة قال : كنت جالسًا عند عبد الله بن عمرو ، فذكر ابنَ مسعود ، فقال : لا أزال أحبُّه بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « استَقْرِئوا القرآن من أربعةٍ : من عبد الله بن مسعود - فَبَدَأَ بِهِ - وأُبّي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة » .

قال النووي في التبيان : « وأمَّا الذين ختموا في الأُسبوع فكثيرون : نُقل عن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأُبّي ابن كعب رضي الله عنهم » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم في المستدرك ، ووافقه الذهبي ، وتابعه الألباني . انظر صحيح الجامع رقم ٥٩٦١ .

(٢) إسناده حسن : أخرجه أحمد ١ / ٤٤٥ ، ٤٥٤ والحاكم بنحوه . وقوله يَسْجُلُهَا : أي يقرؤها مفصَّلة .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرف بِلَيْله إذا النَّاس نائمون ، وبنهاره إذا النَّاس مُفْطِرون ، وبِحُزْنه إذا النَّاس يفرحون ، وببكائه إذا النَّاس يضحكون ، وبِصَمْته إذا النَّاس يخوضون ، وبِخُشوعه إذا النَّاس يختالون .

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا مَحْزونًا ، حليمًا حكيمًا ، سكينًا . ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ، ولا غافلًا ، ولا صَخَّابًا ، ولا صيّاحًا ، ولا حديدًا »[(١)] .

معاذ بن جبل رضي الله عنه ، مِقْدَام العلماء ، وأعلم الأمَّة بالحَلال والحرام :

قال رسول الله ﷺ : « خُذُوا القرآنَ من أربعة : من ابن مسعود ، وأُبيٍّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة »[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه : جَمَعَ القرآنَ على عَهد رسول الله ﷺ أربعةٌ ، كلهم من الأنصار : أبيُّ بن كعب ، وَزَيْد ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، أحد عمومتي[(٣)].

وقال عمر بن الخطاب : عجزتِ النساءُ أن يَلِدْنَ مثل معاذ .

هذا العَالِمُ العابد المجاهد ، ما بكى عند الموتِ إلَّا على مَجَالس الذِّكْر ...

ففي مرض موته قال : اخْنق خَنْقَك ، فوعزَّتِكَ إني أحبك .. اللهم إني كنتُ أخافك ، وأنا اليوم أرجوك .. اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحبّ البقاء في الدنيا لكَرْي الأنهار ، ولا غَرْسِ الأَشْجار ، وإنما لمكابدةِ السَّاعات ،

---

(١) الفوائد لابن القيم صـ ١٩٥ .
(٢) رواه البخاري والترمذي وأبو نعيم في الحلية .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

وَظَمأ الهَوَاجر ، ومزاحمةِ العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذِّكْر .

وعنه رضي الله عنه قال : « ما عمل آدميٌّ عملًا أنجى له من عذاب الله من ذِكْرِ الله . قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا ، إلَّا أنْ يضرب بسيفه حتى ينقطع ؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥] »[١].

أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه :

عن ابن حَلْبَس : قيل لأبي الدَّرداء ، وكان لا يَفْتُر من الذكر : كم تسبِّح في كل يوم ؟ قال : مائة ألفٍ ، إلَّا أن تخطئ الأصابع[٢].

تَمِيم الدَّارِي رضي الله عنه :

عن أبي المهلب : كَانَ تميم يختم القرآن في سبعٍ[٣].

وعن ابن سيرين ، أنَّ تميمًا الداري كان يقرأ القرآن في ركعةٍ[٤].

عن مسروق : قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، صلى ليلةً حتى أصبح ، أوْ كاد ، يقرأ آيةً ، يردِّدُها ويبكي ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...** ﴾[٥] الآية [الجاثية : ٢١] .

---

(١) رواه أحمد في الزهد ، وأبو نُعيم في الحلية .
(٢) ابن عساكر ١٣ / ٣٧٧ / ٢ ، وسير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٨ .
(٣) أخرجه ابن سعد ٣ / ٥٠٠ ، وإسناده صحيح .
(٤) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٣٥٩ ، والسير ٢ / ٤٤٥ .
(٥) رجاله ثقات : أخرجه الطبراني برقم ١٢٥٠ ، والسير ٢ / ٤٤٥ .

أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :

عن عكرمة ، أنَّ أبا هريرة كان يسبِّح كلَّ يوم اثني عشر ألف تسبيحةٍ ، يقول : أسَبِّح بِقَدْرِ دِيَتِي[١].

أبو مسلم الخَوْلَاني :

كان يرفع صَوْته بالتَّكْبير حتَّى مع الصبيان ، ويقول : « اذْكُر الله حتى يرى الجاهلُ أنك مجنون »[٢] ، وفي رواية : « أنه مجنون »[٣].

الأسود بن يَزِيد النَّخعي :

عن إبراهيم قال : كان الأسودُ يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين ، وكان ينَام بين المغرب والعشاء ، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ستٍّ ليالٍ[٤].

الإمام سُلَيم بن عِتْر :

الفقيه قاضي مصر وواعظها وقاصُّها وعابدها ، وكان يُدعى الناسك ؛ لشدة تألُّهه .

عن الحارث بن يزيد أن سُلَيم بن عتر كان يقرأ القرآنَ كلَّ ليلةٍ ثلاث مرات[٥].

---

(١) السير ٢ / ٦١٠ ، تاريخ دمشق ١٩ / ١٢٢ / ٢ .
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٩ / ١٧ ب .
(٣) السير ٤ / ١٠ .
(٤) السير ٤ / ٥١ .
(٥) السير ٤ / ١٣٢ .

أبو العالية : رُفيع بن مِهْران :

عن أبي العالية : كان ابن عباسٍ يرفعني على السَّرير - سرير دارِ الإمْرَة - وقُريش أسفل من السرير ، فتغامزت بي قريش ، فقال ابن عباس : هكذا العلمُ ، يزيد الشَّريف شرفًا ، ويُجْلس المملوك على الأَسِرَّة .

قال أبو بكر بن أبي داود : وليس أحدٌ بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية .

وقال أبو خلدة خالد بن دينار : سمعت أبا العالية يقول : كنَّا عبيدًا مملوكِين ، منا من يؤدِّي الضَّرائب ، ومنَّا من يَخْدم أهله ، فكنَّا نختم كل ليلة ، فشقَّ علينا حتى شَكَا بَعْضُنَا إلى بعض ، فَلَقينَا أصحاب رسول الله ﷺ فعلَّمُونا أن نَخْتمَ كلَّ جمعة ، فصلَّيْنا ونمنا ، ولم يشقَّ علينا[1] .

سَعِيد بن جُبَير رضي الله عنه :

عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير أنه كان يختم القرآن في كل ليلتين[2] .

عُرْوَة بن الزُّبير :

عن ابن شَوْذب قال : كان عروة يَقْرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظرًا ، ويقوم به الليل ، فما تركه إلا ليلة قُطعتْ رِجْله ، وكان وَقَعَ فيها الآكِلَةُ ، فنُشِرَت ، وكان إذا كان أيام الرُّطب يَثْلَم حائطَه ، ثم يَأْذَن للناس فيه ، فيدخلون يأكلون ....

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ١١٣ ، والسير ٤ / ٢٠٩ .

(٢) حلية الأولياء ٤ / ٢٧٣ ، وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٥٩ ، والزهد لأحمد ٣٧٠ ، والسير ٤ / ٣٢٥ .

ويحملون[١] .

عَبْد الله بن مُحَيْرِيز :

قال عمرو بن عبد الرحمٰن بن محيريز : كان جَدي يختم في كل جمعة ، وربَّما فَرَشْنا له فلم ينم عليه[٢] .

أبو عبد الرَّحمٰن السُّلمي ، عبد الله بن حبيب ، مُقْرِئ الكُوفة :

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْركم مَنْ تَعَلَّمَ القُرآن وَعَلَّمه »[٣] .

قال أبو عبد الرحمٰن : فذلك الذي أَقعدني هذا المَقْعد .

قال أبو إسحاق السَّبيعي : إن أبا عبد الرحمٰن كان يُقرئ الناسَ في المسجد الأعظم أربعين سنةً .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : أقبلتُ على زيد بن ثابت ، فقرأت عليه القرآن ثلاثَ عشرة سنة .

وقال رحمه الله : إنَّا أخذنا القرآن عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يُجَاوِزُوهنَّ إلى العشر الأخر حتى يَعْمَلوا ما فيهنَّ ، فكنَّا نتعلم القرآن والعمل به ، وإنه سَيرث القرآنَ بعدنا قومٌ يشربونه شُرْبَ الماء ، لا يجاوز تَرَاقِيهم ، بل لا يُجَاوز هاهنا . ووضع يده على حلقه .

---

(١) ابن عساكر ١١ / ٢٨٦ ب ، والحلية ٢ / ١٧٨ – ١٨٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٤٢٦ .
(٢) ابن عساكر ٧١ أ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٥ .
(٣) رواه البخاري .

نافع بن عبد الرحمٰن ، أبو رُوَيْم ، المقرئ المدني :

جَزَى اللهُ بالخَيْراتِ عَنَّا أئمةً لَنَا نَقَلُوا القُرآنَ عَذْبًا وَسَلْسَلَا
فأمَّا الكريمُ السِّرِّ في الطِّيبِ نَافِعٌ فَذَاكَ الَّذِي اخْتَارَ المَدِينَةَ مَنْزِلَا

قال مالك : نافع إمام الناس في القراءة .

وقال أحمد بن هلال المصري : قال لي الشَّيباني : قال لي رجل ممن قرأ على نافع : إن نافعًا كان إذا تكلَّم يُشَمُّ من فِيه رائحة المسك ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أو يا أبا رُويم ، أتتطَّيبُ كلما قعدتَ تُقرئ ؟ قال : ما أمسُّ طيبًا ، ولكني رأيت النبيَّ ﷺ وهو يقرأ في فِيِّ[1] ، فمن ذلك الوقت أَشمُّ من فيِّ هذه الرائحة[2].

رحم الله رئيس القُرَّاء نافعًا ... قرأ على سبعين من التابعين ، وأقرأ الناس دهرًا طويلًا .

قُدْوة المُفسِّرين والمُحَدِّثين قَتادة بن دِعَامة :

قال سعيد بن المسيب لقتادة : ما كنتُ أظن أن الله خلق مِثْلك .

وقال سفيان الثوري : وهل كان في الدنيا مَثل قتادة .

قال سلام بن أبي مُطيع : كان قتادة يختم القرآن في سبع ، فإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث ، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة[3].

---

(١) وفي سير أعلام النبلاء : يَتْفل في فيّ .
(٢) معرفة القراء الكبار للذهبي ١ / ١٠٧ تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، وشرح الشاطبية صـ ١٠ - ١٢ .
(٣) السير ٥ / ٢٧٦ .

الإمام الحُجَّة الفقيه ، قاضي المدينة : سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن ابن عَوْف :

قال ابن سعد بن إبراهيم : كان أبي يَحْتبي ، فما يَحلُّ حَبْوته حتى يقرأ القرآن[1] .

الإمام الرَّباني منصور بن زَاذَان :

شيخ واسط علمًا وعملًا ، المُتيسر له تلاوة القرآن .

قال ابن سعد : كان ثقةً حجة ، سريع القراءة ، يريد أن يَترسَّل فلا يستطيع ، وكان يختم في الضُّحى .

قال يزيد بن هارون : كان منصور بن زاذان يقرأ القرآن كلَّه في صلاة الضحى ، وكان يختم القرآن من الأُولى إلى العصر ، ويختم في اليوم مرتين ، ويصلي الليل كله[2] .

وكان رحمه الله يبلُّ عمامَته من دموع عينيه .

قال هُشيم : كان منصور لو قيل له : إن ملك الموت على الباب ، ما كان عنده زيادة في العمل . وكان يصلِّي من طلوع الشَّمْس إلى أن يصلِّي العصر ، ثم يسبِّح إلى المغرب[3] .

الإمام الحُجَّة حَسَّان بن عَطيَّة :

قال الأوزاعي : ما رأيت أحدًا أكثر عملًا في الخير من حَسَّان بن عطية .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٤١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٤٢ .

وقال الأوزاعي : كان حسان بن عطية إذا صلَّى العصر يذكر الله تعالى في المسجد حتى تغيب الشمس[(١)].

الإمام حَمْزة بن حَبيب الزَّيَّات :

أَحَد القُرَّاء السَّبعة .

قال الذهبي : كان إمامًا حجة ، قيِّمًا بكتاب الله ، عابدًا خاشعًا قانتًا لله ، ثَخِين الورع ، عَديم النَّظِير .

كان شعيب بن حرب يقول لأصحاب الحديث : ألا تَسْألوني عن الدُّرِّ ؟ قراءة حمزة .

وقال يحيى بن معين : سمعت محمد بن فُضيل يقول : ما أحسب أن الله يدفع البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة .

قال حمزة رحمه الله : نظرتُ في المصحف حتى خَشِيتُ أن يَذْهب بصري .

وكان رحمه الله يُقرئ القرآن حتى يتفرق الناس ، ثم يَنْهض فيصلي أربع ركعات ، ثم يصلِّي ما بين الظهر والعصر ، وما بين المغرب والعشاء وحدَّث بعضُ جيرانه أنه لا ينام الليل ، وأنهم يسمعون قراءته يُرَتِّل القرآن[(٢)].

أبو جعفر القارئ ، يَزيد بن القَعْقَاع :

أَحَدُ القرَّاء العَشْرة .

قال سليمان بن مسلم : شهدتُ أبا جعفر حين احتُضر ، جاء أبو حازم ومَشْيخةٌ ، فأكبُّوا عليه يصرخون به ، فلم يُجبْهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥ / ٤٦٧ .

(٢) معرفة القراء الكبار ١ / ١١١ - ١١٥ .

قال شيبة - وكان خَتَنه على ابنة أبي جعفر - : ألا أريكم منه عجبًا ؟ قالوا : بلى ، فكشف عَنْ صدره ، فإذا دَوَّارة بيضاء مثل اللبن ، فقال أبو حازم وأصحابه : هذا والله نور القرآن . قال سليمان : فقالت لي أمُّ ولده بعدما مات : صار ذلك البياض غرةً بين عَيْنيه .

وعن نافع ، قال : لما غُسِّلَ أبو جعفر القارئ ، نظروا ما بين نَحْره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف ، فما شكَّ من حضره أنه نور القرآن ، رحمه الله[1].

بأبي وأمي ذلكم السَّيد .. الذي خالط القرآن لحمه ودمه .. وكان نورًا في صدره وبين عينيه بعد وفاته .

عن مالك بن أنس : كان أبو جعفر القارئ إذا مرَّ سائلٌ وهو يصلي بالليل ، دعاه فيستَتِر منه ، ثم يُلقي إليه إزاره .

شيخ الإسلام وبقيَّة الأَعْلام أبو بكر بن عَيَّاش :

قال الذهبي : قد روي من وجوه متعدِّدة أنَّ أبا بكر بن عيّاش مكث نحوًا من أربعين سنة يختم القرآن في كل يومٍ وليلة مرة .

وهذه عبادة يُخضع لها[2].

قال يحيى الحمَّاني : لمَّا حضرت أبَا بكر الوفاةُ بكتْ أخته ، فقال لها : ما يُبْكيكِ ؟ انظري إلى تلك الزَّاوية ، فقد ختم أخوك فيها ثمانيةَ عشر ألف ختمةٍ .

(١) معرفة القراء الكبار للحافظ الذهبي ١ / ٧٥ - ٧٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٨ / ٥٠٣ .

أَحَـادِيثُ لو صِيغَـتْ لأَلْهَـتْ بحُسْنِهَا
عن الوَشْي أَوْ شُمَّتْ لأغْنَتْ عَنِ المِسْكِ

كان رحمه الله يقول : يا مَلَكَيَّ ، ادعُوَا اللهَ لي ، فإنَّكما أطوع لله مني[1] .

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (١ / ٧٩) : « هو الإمام المُجْمَعُ على فَضْله ، واسْمُهُ كُنْيَتُهُ على الصحيح ... روينا عن ابنه إبراهيم قال : قال لي أبي : إن أباك لم يَأتِ فاحشةً قَطُّ ، وإنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مرة . وَروينا عنه أنه قال لابنه : يا بنَيَّ ، إياك أن تَعْصي اللهَ في هذه الغُرفة ، فإني ختمتُ فيها اثني عَشر ألف ختمة . وروينا عنه أنه قال لابنته عند موته ، وقد بكت : يا بُنيَّة ، لا تبكي ، أتخافين أن يعذِّبني الله تعالى وقد ختمتُ في هذه الزاوية أربعةً وعشرين ألف ختمة ؟! » .

يَحْيَى بن وَثَّاب القارئ العابد :

مقرئ الكوفة في زمانه .

قال الأعمش : يحيى بن وثاب أَقْرأُ من بَالَ على ترابٍ .

وقال الأعمش : كان يحيى من أحسن الناس قراءة ، وربَّما اشتهيتُ تقبيل رأسه لحُسْن قراءته ، وكان إذا قرأ لم تحسّ في المسجد حركة ، كأنْ ليس في المسجد أحد .

قال الأعمش : كان يحيى بن وثّاب إذا قضى الصلاة مكث ما شاء الله ، تُعرف فيه كآبةُ الصلاة .

---

(١) السير ٨ / ٥٠٤ .

قال الأعمش : كنت إذا رأيتُه قلت : هذا قد وقف للحِساب[١].

أبو إسْحَاق السَّبيعي :

كان رحمه الله من العلماء العاملين ، ومن جِلَّة التابعين .

عن ابن فُضيل عن أبيه قال : كان أبو إسحاق السَّبيعي يقرأ القرآن في كل ثلاث[٢].

الزَّاهد القدوة كُرْز بن وَبَرَة :

له الصِّيت البالغ في النُّسك والتَّعبد .

سأل ربَّه أن يَقْوىٰ حتى يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات[٣].

ثَابِت البُنَانيّ :

قال السَّمعاني : هو من تابعي البصرة ، صَحِبَ أنسًا أربعين سنةً ، وكان أَعْبَد أهل البصرة .

« قال شعبة : كان ثابت يقرأ القرآن في يوم وليلة ، ويصوم الدهر »[٤].

أبو حنيفة النُّعْمان :

قال شَمْس الأئمة الكردري في كتابه « مناقب الإمام أبي حنيفة » أنه : « كان يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة ، وفي رمضان كل يوم مرتين ؛ مرة في النهار ومرة في الليل .

---

(١) معرفة القراء الكبار ١ / ٦٣ - ٦٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٩٤ .
(٣) السير ٦ / ٨٥ .
(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ٢ / ٢١٩ .

وقال ابن المبارك : كان أبو حنيفة يَجْمع القرآنَ في ركعتين . وقال أيضًا : أربعةٌ من الأئمة ختموا القرآن في ركعتين : عثمان بن عفان ، وتميم الدَّاري وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة » انتهى مُلخّصًا .

وعن أسد بن عمرو : كان أبو حنيفة عامةَ الليل يقرأ القرآن في ركعة .

وعن مسعر بن كدام قال : دخلتُ المسجد ليلةً فرأيت رجلًا يصلِّي ، فاستَحْليتُ قراءته ، فقرأ سُبْعًا ، فقلت : يركع ، ثم قرأ الثلث ، ثم النِّصف ، فلم يزل يقرأ حتى خَتَمه كلَّه في ركعة ، فنظرت فإذا هو أبو حنيفة .

وَاصِل بن عبد الرَّحمن البَصْري :

قال الذهبي في العبر : « قال أبو داود الطَّيالسي : كان يختم القرآن في كل ليلة »[1].

وَكِيع بن الجَرَّاح :

قال الكَفَوي في « أعلام الأخيار » : قال يحيى بن أكثم : صحبتُه في الحَضَر والسَّفَر ، وكان يصوم الدَّهر ، ويختم القرآن كلَّ ليلة .

وعن محمد بن جرير قال : مكث وكيعٌ بعَبادان أربعين ليلة ، وختم أربعين مرة ، وتصدَّق بأربعين ألف درهم . انتهى .

مِسْعَر بن كِدَام :

قال الحافظ ابن حجر : « قال محمد بن مِسْعَر : كان أبي لا ينام حتّى يقرأ نصف القرآن »[2].

---

(١) العبر للذهبي ١ / ٢١٨ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠ / ١١٥ .

الحَسَنُ بنُ صالح بنِ حيّ الثوري :

« قال وكيع : كان الحسن وعليّ ابنا صالح ، وأمُّهما قد جزَّءُوا الليل ثلاثة أجزاءٍ يختمون فيه القرآن في بيْتِهم كلَّ ليلةٍ ، فكان كلُّ واحد يقوم بثلثه ، فماتت أمُّهما ، فكانا يختمانه ، ثم مات عليّ ، فكان الحسن يختم كلَّ ليلةٍ »[١].

الإمامُ أبو محمَّد عبدُ الله بنُ إدريس بنِ يزيد الأوْديّ :

قال الإمام النووي : « مُتَّفَقٌ على إمامته وجلالته ، وإتقانه وفضيلته ، وورعه وعبادته . روينا عنه أنه قال لبنته حين بكتْ عند حضور موته : لا تبكي ؛ فقد ختمتُ القرآن في هذا البيت أربعةَ آلافِ ختمةٍ .

قال أحمد بن حنبل : كان ابن إدريس نسيج وحده . توفي سنة ١٩٢ هـ رحمه الله تعالى »[٢].

عَبْدُ الرَّحمٰن بنُ القاسم إمامُ مِصر وصاحبُ الإمامِ مالك :

قال أسدُ بن الفُرات : كان ابنُ القاسم يختم كلَّ يومٍ وليلة ختمتين ، قال : فنزل بي حين جئتُ إليه عن ختمة ؛ رغبةً في إحياءِ العلم[٣].

أميرُ المؤمنين في الحديث الإمام يحيٰى بن سعيد القَطَّان :

« قال يحيٰى بن معين : أقام يحيٰى بن سعيد عشرين سنةً يختم القرآن كلَّ ليلةٍ »[٤].

وقال عمرو بن علي : « كان يحيٰى بن سعيد القطَّان يختم القرآن كلّ

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٢٨٨ .

(٢) شرح صحيح مسلم ١ / ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٢١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٧٩ .

يوم وليلة ، يدعو لألف إنسان ، ثم يخرج بعد العصر فيحدّث الناس »(١).

وقال علي بن المديني : « كنّا عند يحيى بن سعيد ، فقرأ رجل سورة الدُّخَان ، فصعِقَ يحيىٰ ، وغُشِيَ عليه . قال أحمد بن حنبل : لو قَدَر أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه ، لدفعه يحيىٰ - يعني الصَّعْق - »(٢).

وقال يحيىٰ بن معين : وكان يحيىٰ يجيء معه بمسباحٍ ، فيُدخل يده في ثيابه فيُسبِّح(٣).

إمام الدنيا وناصر السُّنَّة الشَّافعي :

« قال حسين الكرابيسي : بتُّ مع الشافعي ليلةً ، فكان يصلي نحو ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آيةً ، فإذا أكثر ، فمائة آيةٍ ، وكان لا يمرُّ بآية رحمةٍ إلا سأل الله ، ولا بآية عذابٍ إلا تعوّذ ، وكأنما جُمع له الرجاء والرهبة جميعًا »(٤).

قال الذهبي في « السير » (١٠ / ٣٦) : « قال الربيع بن سليمان - من طريقين عنه ، بل أكثر - : كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمةً . ورواها ابن أبي حاتم عنه ، فزاد : كل ذلك في صلاة »(٥).

وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ / ٥٤) : « قال الربيع : نِمْتُ في منزل الشافعي ليالي ، فلم يكن ينام إلا يسيرًا من الليل . وقال الحميدي : كان الشافعي يختم القرآن كلَّ يومٍ ختمةً » .

هُمُ الرِّجالُ وعيْبٌ أنْ يُقالَ لمنْ ... لمْ يتَّصفْ بمعاني وَصْفِهِمْ رجلُ

---

(١) السير ٩ / ١٧٧ - ١٧٨ .
(٢) السير ٩ / ١٨٠ .
(٣) السير ٩ / ١٧٨ - ١٨٠ .
(٤) السير ١٠ / ٣٥ ، ومناقب الرازي صـ ١٢٧ ، وتوالي التأسيس : ٦٨ .
(٥) آداب الشافعي صـ ١٠١ ، مناقب الشافعي للرازي صـ ١٢٧ ، تاريخ ابن عساكر ١٥ / ١١ / ٢ .

إمامُ أهل السُّنة أحمد بن حنبل :

قال أبو نعيم في « الحلية » (٩ / ١٨١) : « ثنا سليمان بن أحمد ، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : كان أبي يُصلّي في كلّ يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلمّا مرِضَ من تلك الأسواط أضعفتْه ، فكان يصلّي في كلّ يوم وليلة مائة وخمسين ركعة ، وكان قُرب الثمانين » .

لله درُّك يا إمام ، أنت في وادٍ ، والناس في وادٍ آخر . لسان حالك يقول :

أَنْتَ تدري أَيُّهَا الحيرانُ عنّا كيفَ فوقَ الشَّمسِ أزمانًا حلَلْنا

يقول عبد الله بن أحمد : « وكان يقرأ في كلّ يوم سُبْعًا ، يختم في كل سبعةِ أيامٍ ، وكانت له ختمة في كل سَبْع ليالٍ سوى صلاة النهار ، وكان ساعة يصلي عِشاءَ الآخرة ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو »[1] .

وقال هلال بن العلاء : « خرج الشافعي ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل إلى مكة ، فلما أنْ صاروا بمكة ، نزلوا في موضع ، فأمّا الشافعي فإنه استلقى ، ويحيى بن معين أيضًا استلقى ، وأحمد بن حنبل قائم يصلي ، فلما أصبحوا قال الشافعي : لقد عملتُ للمسلمين مائتيْ مسألة .

وقيل ليحيى بن معين : أيّ شيءٍ عملتَ ؟ قال : نفيتُ عن النبي ﷺ مائتي كذّاب .

وقيل لأحمد بن حنبل : فأنت ؟ قال : صلّيْتُ ركعاتٍ ختمتُ فيها القرآن .

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٥٧ .

وعن جعفر بن أبي هاشم قال : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : ختمتُ القرآن في يوم ، فعددتُ موضع الصبر ، فإذا هو نيّفٌ وتسعون »[١].

أبو العباس : أحمد بن محمد بن سهْل بن عطاء :

قال أبو نعيم : « سمعتُ أبا الحسين محمد بن علي صاحِب الجنيد بن محمد يقول : صحبتُ أبا العباس بن عطاء عدّةَ سنين متأدبًا بآدابه ، وكان له في كل يوم ختمةٌ ، وفي كلّ شهر رمضان - في كل يوم وليلة - ثلاثُ ختمات »[٢].

بِشْرُ بْنُ الحارث الحَافي :

« قال علْيُّ بن المَدِيني : ما رأيتُ أخوفَ لله منه ، كان يصلي كلَّ يوم خمسمائة ركعة .

قال ابن المديني : حَفَرَ - بشرٌ - قبرَه ، وختم فيه القرآن ، وكان وِردُه ثُلُث القرآنِ »[٣].

عَبْدُ الرَّحمٰن بنُ مَهْدي :

قال عليّ بن المديني : كان وِرْدُ عَبْدِ الرحمٰن كلَّ ليلةٍ نصف القرآن[٤].

قال الذهبي في السير : « عبد الرحمٰن له جلالةٌ عجيبةٌ ، وكان يُغْشَىٰ عليه إذا سَمِعَ القرآن » . نقله صاحب « شريعة المقارىء »[٥].

---

(١) مناقب الإمام أحمد صـ ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) الحلية ١٠ / ٣٠٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٦٠ .
(٤) السير ٩ / ٢٠٣ .
(٥) سير أعلام النبلاء ٩ / ١٥٣ .

الجُنَيْدُ :

قال أبو الحسين بن الدّرّاج : ذكر الجنيد أهلَ المعرفة بالله ، وما يُراعُونه من الأوْراد ، والعبادات بعد ما ألطفهم اللهُ به من الكرامات ، فقال الجنيد : العبادة على العارفين أحسنُ من التِّيجانِ على رؤوس الملوك(١) .

قال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات فختم القرآن ، ثم ابتدأ من البقرة فقرأ سبعين آيةً ، ثم مات ، رحمه الله(٢) .

وقال الجنيد ، رحمه الله : إنَّ الله عز وجل يخلُص إلى القلوب مِن بِرِّه حَسبَمَا خَلَصَتْ القلوبُ به إليه من ذكره ، فانظر ماذا خالط قلبَك .

وكان رحمه الله يقول - عمَّن قال وتكلَّم بإسقاط الأعمال - : هذه عندي عظيمةٌ ، والذي يسرق ويزني أحسنُ حالًا من الذي يقول هذا ، وإنّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عامٍ لم أُنقصْ من أعمال البرّ ذرةً ، إلا أنْ يُحال بي دونَها .

وقال رحمه الله : لو أقبل صادقٌ على الله ألفَ ألفِ سنةٍ ، ثم أعْرَضَ عنه لحظةً كان ما فاتَهُ أكثرَ مِمَّا نالَه .

وقال الجنيدُ رحمه الله : مَن استخلَصَهُ الحقُّ بمفرد ذكره وصافاه ، يكون له وليًّا منتخَبًا مكرَّمًا مُواصلًا ، يُورِثُه غرائبَ الأنبياءِ ، وَيَزيدُه في التقريب زلفىٰ ، ويُثَبّته في مَحاضِر النَّجْوَىٰ ، ويصطنِعُه للاصْطفاءِ ، ويرفعُه إلى الغاية القُصوىٰ ، وَيُبَلِّغُهُ في الرِّفعة إلى المُنْتَهَىٰ ، ويُشْرِفُ به من ذِرْوَةِ

---

(١) الحلية ١٠ / ٢٥٧ .

(٢) الحلية ١٠ / ٢٦٤ .

الذُّرا على مواطـنِ الرُّشْدِ والهُدَىٰ ، وعلى درجاتِ البَرَرَةِ الأتقياءِ ، وعلى منازل الصَّفوةِ والأوْلياء ، فيكون كلُّه مُنْتَظِمًا ، وعليه بالتمكين مُحتويًا ، وبأنْبائِهِ خبيرًا عالمًا ، وعليه بالقوة والاسْتظهارِ حاكمًا ، وبإرشاد الطالبين له إليه قائمًا ، وعليهم بالفوائد والعَوائد والمنافع دائمًا ، وَلِمَا نَصَبَ له الأئمة مِنَ الرِّعَايةِ لَدَيْهِ به لازمًا ، وذَلِكَ إمامُ الهداةِ السُّفراء العظماء الأجلّة الكبراء ، الذين جعلهم للدِّين عُمُدًا وللأرض أوْتادًا .

عَطَاءُ بنُ السَّائِبِ :

قال عنه الإمامُ أحمد بن حنبل : « عطاءُ بن السائبِ ثقةٌ ثقةٌ ، رجلٌ صالحٌ ، وَمَنْ سَمِعَ منه قديمًا كان صحيحًا ، وكان يختم كلَّ ليلةٍ »[١].

عُمَيْرُ بنُ هانِئ العَبْسيُّ الدارانيّ :

قال أبو داود : كان عُمَيْرُ بنُ هانِئ قَدَرِيًّا ، يُسَبِّحُ كلَّ يومٍ مائةَ ألفِ تسبيحةٍ[٢].

بَكْرُ بنُ سَهْلِ بنِ إسماعيلَ الإمامُ المفسِّر المُقْرِئ :

كان له القَدَحُ المُعَلَّى فِي خَتْمِ القرآنِ في أقَلِّ مُدةٍ .

أبُو قبيصَةَ الإمامُ الخَيِّرُ محمدُ بنُ عبدِ الرحمٰن الضَّبّي :

قال إسماعيل الخُطَبي : سألت أبا قبيصةَ الضَّبي – وكان مِنْ أدْرَسِ مَنْ رأيْناه للقرآن – عَنْ أكثر ما قرأ في يوم ، وكان يُوصف بسرعة القراءة ، فامتنَع أن يخبرني ، فَلَمْ أزَلْ به حَتَّى قال : قرأت في يومٍ مِنْ أيام الصَّيْف أربع خُتَم ، وبلغتُ في الخامسة إلى « براءة » ، وأذَّنْتُ العصر .

(١) التعليق على الرحلة للخطيب البغدادي لنور الدين عتر صـ ١٤٢ .
(٢) السير ١٣ / ٢١٧ ، ٥ / ٤٢١ .

قال : وكان من أهل الصدق[١].

الكتَّانِيُّ القُدْوَةُ أبو بكر محمدُ بن علي بن جعفر :

قال الذهبي : « يقال : ختم الكتانيُّ في الطّواف اثنتي عَشْرَة ألفِ ختمةٍ ، وكان من الأولياء »[٢].

وكان رحمه الله يقول : مِنْ حكَمِ المريد أن يكون نومُهُ غَلَبَةً ، وأكْلُهُ فاقةً ، وكلامُهُ ضرورةً .

أَبو سَهْلِ القطّان : أحمدُ بنُ محمد بن عبد الله :

« قال أبو عبد الله بن بشْر القطّان : ما رأيتُ أحسن انتزاعًا لما أراد من آي القرآن من أبي سهل بن زياد ، وكان جارَنا ، وكان يُديمُ صلاةَ الليل والتلاوة ، فَلِكَثْرَةِ دَرْسِهِ صارَ القرآنُ كأنَّه بيْن عَيْنَيْهِ »[٣].

الإمام القدوة شيخ نيسابور ، أبو عبد الله أحمد بن حرْب بن فيروز :

قال زكريا بن دَلُّوَيه : كان أحمد بن حرب إذا جلس بين يدي الحجّام ليُحفي شاربَه ، يُسبّح ، فيقول له الحجَّام : اسكت ساعةً ، فيقول : اعمل أنت عملك ، وربما قطع من شفته ، وهو لا يعلم .

وقال محمد بن يحيى : مرّ أحمد بن حرب بصبيان يلعبون ، فقال أحدهم : أمسكوا ؛ فإن هذا أحمد بن حرب الذي لا ينام الليل . فقبض على لحيته ، وقال : الصبيان يهابونك وأنت تنام ؟ فأحيا الليل بعد ذلك ، حتى مات[٤] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢ / ٣١٥ ، والسير ١٣ / ٤٩٢ .

(٢) السير ١٤ / ٥٣٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٤٥ ، والسير ١٥ / ٥٢١ .

(٤) السير ١١ / ٣٢ – ٣٣ .

قال يحيى بن يحيى التميمي : إن لم يكن أحمد بن حرب من الأبدال ، فلا أدري مَنْ هم ؟!

« وقال أحمد بن حرب رحمه الله : عبدتُ الله خمسين سنةً ، فما وجدتُ حلاوة العبادة حتى تركتُ ثلاثةَ أشياءٍ : تركت رضا الناس حتى قدرتُ أن أتكلم بالحق ، وتركتُ صحبة الفاسقين حتى وجدتُّ صحبة الصالحين ، وتركتُ حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة »[1].

لله دَرُّ أهل القرآن ، كم أَنِسُوا بكتاب ربهم ، وعلّموه لغيرهم ! فهذا :

محمد بن أبي محمد أبو شجاع ابن المقرون البغدادي :

تصدّر للإقراء والتلقين ستين سنةً ، حتى لقّن الآباء والأبناء والأحفاد احتسابًا لله تعالى ، فكان لا يأخذ من أحد شيئًا ، ويأكل من كسب يمينه[2].

وشيخ همذان : أبو العلاء الهمذاني العطّار المقرئ :

يقول : « كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد ، وآكُلُ خبز الدّخن ... » قال عبد القادر : ثم عظم شأنه حتى كان يمرُّ بالبلد ، فلا يبقى أحد رآه إلا قام ودعا له ، حتى الصبيان واليهود ... وكان يُقرئ نصف نهاره القرآن والعلم ، ونصفه الآخر الحديث ، وكانت السُّنة شعارَه ودِثاره اعتقادًا وفعلًا ، وكان لا يمسُّ الجزء الحديثي إلا على وضوء »[3].

لله دَرُّ أهل القرآن ! كم كان أُنسهم بكتاب ربهم !

---

(١) السير ١١ / ٣٤ .

(٢) معرفة القراء الكبار ٢ / ٥٦٩ .

(٣) معرفة القراء الكبار ، ٢ / ٥٤٣ - ٥٤٤ .

فهذا الصحابي الجليل عبّاد بن بشر يقوم الليل ، ويُصاب بالأسهم وهو يصلي ويقرأ ، فما يمنعه ذلك عن قراءته ، ويقول لعمار بن ياسر : « كنت في سورة فكرهتُ أن أقطعها » .

وعروة بن الزبير : كان يقرأ كلّ يوم ربْع الختمة في المصحف ، ويقوم الليل به ، فما قطعه حتى في الليلة التي قُطعت فيها رجله .

وهذا الشيخ ابن مقرون وابن العطار يتصدران للإقراء السنين الطويلة ... فسقى الله قبورهم عاطرَ رحمته وملأها عليهم نورًا وخضرًا إلى يوم يُبعثون .

الإمامُ القدوةُ الشَّهيدُ أبو بكر محمد بن أحمَدَ بن سَهْلٍ ، المعروفُ بابنِ النابلسي :

قال أبو ذرّ الحافظُ : سجنه بنو عبيدٍ - الفاطميُّون - وصلبُوه على السنّة ، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ، ويقول : كان يقول وهو يُسْلَخُ : ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطورًا** ﴾ .

« قال أبو الفرج ابن الفرج : أقام جوهر - القائدُ - لأبي تميمٍ صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان يَنزل الأكواخ ، فقال له : بلغني أنك قلت : إذا كان مع الرجل عَشْرةُ أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سَهْمًا وفينا تسعةً . قال : ما قلتُ هذا ، بل قلت : إذا كان معه عَشْرة أسهمٍ وجب أن يرميَكم بتسعةٍ ، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا ، فإنكم غيَّرتم المِلّة ، وَقَتَلْتُم الصالحين ، وادَّعيتُم نورَ الأُلوهية ، فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًّا ، فسلخه .

قال مَعْمَر بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقةُ أنّ أبا بكر سُلخ

من مفْرقِ رأسِهِ ، حتى بلغ الوَجْهَ وكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر ، فرحمه السلّاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه ، فقضى عليه ؛ وأخبرني الثقةُ أنَّه كان إمامًا في الحديث والفقه ، صائمَ الدهر ، كبير الصَّوْلةِ عند العامّة والخاصَّة ، ولما سُلخ كان يُسمع من جَسَدِهِ قراءةُ القرآن »[1].

أبو بِشْر أحمد بن محمد بن حَسْنُويه ، الحَسْنُوِي العابد النيسابوري :

ذكره العلامة ابنُ الأثير في « اللُّباب في تهذيب الأنساب » (١ / ٣٠٠) ، وقال : « سَمِعَ محمد بن إسحاق بن خزيمة : كان يختم القرآن كلّ ليلةٍ ». تُوفي سنة ٣٩٠ هـ، رحمه الله تعالى .

جَعْفَر بن الحَسنِ الدَّرزيجاني المقرئ الزاهد الحنبلي :

قال الحافظ ابن رجب : « كان مِنْ عبادِ الله الصالحين ، أمّارًا بالمعروف ، نهّاءً عن المنكر ، وله المقامات المشهودة في ذلك ، كان مداوِمًا على الصيام والتهجُّد والقيام ، له ختماتٌ كثيرةٌ جدًّا ، كلُّ ختمةٍ منها في ركعةٍ ، توفي في الصلاة - ساجدًا - سنة ٥٠٦ هـ، رحمه الله تعالى »[2].

أبو الحَسَنِ الْبَاهِلِي تلميذُ أبي الحسن الأشْعَرِي :

قال عنه أبو إسحاق الإسفراييني : أنا في جانب شَيْخِنَا أبي الحسن الباهلي كقطرةٍ في بحرٍ .

وقال ابن الباقّلاني : كان الباهلي من شِدّةِ اشتغالِهِ بالله مثلَ مجنونٍ أوْ وَالِهٍ[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ١١٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٠٤ .

الحافِظُ ابْنُ عَساكِرٍ :

قال ابْنُه القَاسِمُ : كان أبي مواظِبًا على صلاةِ الجماعةِ وتلاوة القرآنِ ، يَختِمُ كلَّ جُمُعَةٍ ، ويَختِمُ في رمضانَ كلَّ يومٍ ، وكان كثيرَ النّوافِلِ والأذكارِ ، ويحاسِبُ نفسَه على لحظةٍ تَذْهَبُ في غَيْرِ طَاعَةٍ[١] .

الإمامُ الصَّالح عبدُ الرحمٰن بنُ علي بن المسلم بن الخرقي الشافعي :

« قال ابن الحاجب : كان فقيهًا ، عدلًا ، صالحًا ، يتلو كلَّ يومٍ وليلةٍ ختمةً ، وقال أبو حامد ابن الصابوني في كتابه إليَّ : أُضِرّ في الآخر وأُقْعِدَ ، فاحتاج إلى وُضُوءٍ في الليل وما عنده أحدٌ ، فذكَرَ أنه قال : بينا أنا أتفكَّر ، إذ بنورٍ من السماء داخل البيتِ ، فبصُرْتُ بالماء فتوضأتُ . حدّث بعضَ إخوانِهِ بهذا ، وأوصاه أنْ لا يُخبرَ بِهِ إلا بعدَ موته »[٢] .

شَيْخُ الإسلام أبو عُمَرَ محمدُ بنُ أحمد بن قُدامةَ المَقْدِسي :

قال الذَّهبيّ في السير (٢٢ / ٧) : « كان قدوةً ، صالحًا ، قانتًا لله ، ربّانيًا ، خاشعًا ، مخلصًا ، عديمَ النظير ، كبيرَ القَدْر ، كثيرَ الأَوْرَادِ والذِّكْرِ ، والمروءَةِ والفُتُوَّة ، والصِّفَاتِ الحميدة ، قلّ أن تَرَىٰ العيوُن مثلَه . يتلو كلَّ ليلةٍ سُبُعًا مرتّلًا في الصلاة ، وفي النهار سُبُعًا بين الصلاتَيْن » .

أحمدُ بن رَضْوَانَ بن محمد :

مُصَنِّفُ كتاب « الواضح في القراءات العَشْر » .

« قال أبو بكر الخطيب : كان أحمد بن رضوان أحدَ القرّاء المذكورين بإتقان الروايات ، له في ذلك تصانيف ، توفي وهو شابٌّ ، وقد كان الناسُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٥٦٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١ / ١٩٦ - ١٩٧ .

يقرءون عليه في حياة الحمامي لعلمه ، حضرته ليلةً في الجامع ، فقرأ فيها ختمَتَيْن قبل أن يَطْلُع الفجر »[١].

شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تيميَة :

قال عنه الحافظ عمر بن علي البزار :

« أمَّا تعبُّده - رضي الله عنه - فإنه قلَّ أن سُمِعَ بمثلِهِ ؛ لأنَّه كان قد قطع جُلَّ وقتهِ وزمانهِ فيه ، حتى إنه لم يجعلْ لنفسهِ شاغلة تشغله عن الله تعالى ، ما يُراد له لا من أهل ، ولا مال . وكان في ليله ، منفردًا عن الناس كلهم ، خاليًا بربه عز وجلّ ، ضارعًا مواظِبًا على تلاوة القرآن العظيم ، وكان قد عُرفت عادته : لا يكلمه أحدٌ بغير ضرورة بعد صلاة الفجر ، فلا يزالُ في الذكر يُسْمِعُ نفسه ، وربما يَسْمع ذكرَه منْ إلى جانبهِ .. هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس »[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن القيم : « حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلَّى الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريبٍ من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : هَذِهِ غَدْوتي ، وَلَوْ لَمْ أتغدّ الغَدَاءَ ، سقطتْ قوتي . أَوْ كلامًا قريبًا مِنْ هذا .

وقال لي مرةً : لا أترك الذِّكر إلا بنيَّةِ إجمام نفسي وإراحَتِهَا ؛ لأستعد بتلك الرَّاحة لذكْرٍ آخَر . أو كلامًا هذا معناه[٣] .

وقال ابنُ القيم في « الوابِل الصيِّب » (٨٤) : « سمعتُ شَيْخَ الإسلام ابنَ تيمية - قَدّس اللهُ روحه - يقول : « الذِّكْرُ للقلب مثلُ الماءِ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٤ / ١٦١ .

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار صـ ٣٦ - ٣٨ .

(٣) الوابِل الصيِّب لابن القيم صـ ٨٤ .

للسَّمَكِ ، فكيْف يكون حالُ السَّمك إذا فَارَقَ الماءَ ؟! » .

وقال : « سَمِعْتُ شَيْخَ الإسلام ابنَ تيمية - قَدّس اللهُ روحه - يقول : إنَّ في الدنيا جنَّةً ، مَنْ لَمْ يدْخُلْهَا ؛ لا يدخل جنَّةَ الآخِرَة » .

وقال لي مرةً : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنَا جَنَّتي وَبُسْتَانِي في صَدْري ، إنْ رُحْتُ ، فهي معى لا تُفارقُني ؛ إنَّ حَبْسِي خلْوَةٌ ، وقتلي شهادةٌ ، وإخْراجي مِنْ بَلَدِي سياحةٌ .

وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلتُ ملءَ هذه القلعة ذَهَبًا ، ما عَدَل عندي شُكْرَ هذه النعمة . أو قال : ما جزيتهم على ما تسبّبوا لي فيه مِنَ الْخَيْرِ . ونحوَ هذا .

وكان يقول في سجوده ، وهو محبوسٌ : « اللهمَّ أعنِّي على ذكْرك وشكرك ، وحُسْنِ عبادتك » . ما شاء الله .

وقال لي مرةً : المحبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عن رَبِّهِ تعالى ، والمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ .

ولما دخل القلعةَ ، وصارَ داخلَ سُورِهَا ؛ نظر إليه ، وقال : ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : ١٣] »[١] .

وما هذا إلا لِتَفَرُّغِهِ لتلاوة القرآن في السجن بعد أن أخذُوا منه أقلامه وكتبه ودفاتره .

« وَخَتَمَ القرآن مُدَّةَ إقَامَتِهِ بالقلعة - ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة -

---

(١) الوابل الصيب صـ ٩٤ .

انتهى في آخرِ ختمةٍ إلى آخر:اقتربت الساعة ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ** ﴾ ثم كُمّلت عليه بعد وفاته ، وهو مُسَجًّى . كان كلَّ يومٍ يقرأُ ثلاثةَ أجزاءٍ ، يختِمُ في عَشْرَةِ أيَّامٍ . هكذا أخبرني أخوه زَيْنُ الدين »[١].

* * *

« سُبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبَادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دارِ العَمَلِ ، فَآتَاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا ما استفْرَغَ قُوَاهُم لِطَلَبِهَا والمسابقة إِلَيْهَا » .

كان بعضُ العارفينَ يقول : لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ المُلُوكِ ما نحنُ فيه ، لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بالسيوف .

وقال آخرُ : مساكينُ أهل الدُّنْيَا خرجوا منها ، وما ذَاقُوا أطْيَبَ ما فيها ! قيل : وما أطيبُ ما فيها ؟

قال : محبةُ الله تعالى ، ومعرفتُهُ وَذِكْرُهُ . أَوْ نَحْوَ هذا .

وقال آخرُ : إنَّه لَتمُرُّ بالقلب أوْقاتٌ يَرقُصُ فيها طربًا .

وقال آخرُ : إنَّه لَتمُرُّ بي أوقاتٌ ، أقول : إنْ كانَ أهلُ الجنَّةِ في مثلِ هذا ، إنَّهم لَفِي عيشٍ طَيِّب .

يَا مَنْ يُذَكِّرُنِي بِعَهْدِ أَحِبَّتِي ... طَابَ الحَدِيثُ بِذِكْرِهِمْ وَيَطِيبُ
أَعِدِ الحَدِيثَ عَلَيَّ مِنْ جَنَبَاتِهِ ... إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ الحَبِيبِ حَبِيبُ

---

(١) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية للحافظ ابن عبد الهادي صـ ٣٦٨ .

مَلأَ الضُّلوعَ وَفَاضَ عَنْ أجْنَابِهَا ... قَلْبٌ إِذَا ذُكِرَ الحَبِيبُ يَذُوبُ
مَا زَالَ يَخْفقُ ضَارِبًا بِجَنَاحِهِ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَطِيرُ قُلُوبُ

قال ابن القيم : « فَمَحَبَّةُ اللهِ تعالى ، وَمَعْرِفَتُهُ ، ودوامُ ذكرِهِ ، والسُّكُونُ إِلَيْهِ ، والطُّمَأْنِينَة إليه ، وإفرادُه بالحُبِّ ، والخوف والرجاء والتَّوكُّل والْمُعَامَلَة ، بِحَيْثُ يكونُ هو وحدَهُ المستولي على هموم العبدِ ، وعزماتِهِ وإرادَتِهِ - هو جَنَّةُ الدنيا ، والنعيمُ الذي لا يُشْبِهُهُ نعيمٌ ، وهو قُرَّةُ عَيْنِ المحبين ، وحياةُ العارفين » .

يَا ذَا الذي أُنِسَ الفُؤَادُ بِذِكْرِهِ ... أَنْتَ الَّذِي مَا إِنْ سِوَاهُ أُرِيدُ
تَفْنَى اللَّيَالي والزَّمَانُ بَأَسْرِهِ ... وَهَوَاكَ غَضٌّ فِي الفُؤَادِ جَدِيدُ

ولله ما أحلى قَوْلَ الشاعرِ :

والله مَا طلعتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ ... إِلَّا وَحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ ... إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثي بَيْنَ جُلَّاسِي

قال فَتْح المَوْصِلي : المحبُّ لا يَجِدُ مَعَ حبِّ اللهِ للدنيَا لذةً ، ولا يَغْفلُ عن ذِكْرِ اللهِ طَرفَةَ عَيْنٍ .

لَا لِأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَاكَ ... وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي

ولله دَرُّ القائل :

خَطَرَاتُ ذِكْرِي تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتِي ... وَأُحِسُّ مِنْهَا فِي الفُؤَادِ دَبِيبَا
لَا عُضْوَ لِي إِلَّا وَفِيهِ مَحَبَّةٌ ... فَكَأَنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

الْمُحِبُّ لله طائرُ القَلْبِ ، كَثِيرُ الذكرِ ، مُتَسَبِّبٌ إلى رِضْوَانِهِ بِكُلِّ سَبِيلٍ يقدِرُ عليه من الوسائِل والنَّوافل شوقًا .

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ العُهُودَ وأَغْفَلوا ... فَعَهْدُكَ فِي قَلْبِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي

ولله دَرُّ القائل :

ذَكَرْتُكَ لا أنِّي نَسِيتُكَ لَحْظَةً ... وَأَهْوَنُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِي

وعالي الهِمَّة ينظُرُ إلى عِظَمِ أجْرِ الذكْر ، فَيُدَاوِمُ عَلَيْهِ ، وخاصةً بعض الأذكار .

وَمَنْ شاءَ أنْ يسكنَ رِيَاضَ الجنَّةِ في الدنيا ، فَلْيَسْتَوطِنْ مَجَالِسَ الذِّكرِ ؛ فإنها رياضُ الجنة .

عن جابرٍ رضي اللهُ عنه ، قال : خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ ، فقال : « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ، ارْتَعُوا فِي رِيَاضِ الجنَّة » قلنا : يا رسول الله ، وما رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قال : « مجالسُ الذِّكْرِ » ثم قال : « اغْدُوا ورُوحوا واذكروا ، فَمَنْ كان يحبُ أنْ يعلمَ منزلتَهُ عندَ اللهِ ، فلينظُرْ كيفَ منزلةُ اللهِ تعالى عِنْدَهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يُنْزِلُ العبدَ مِنْهُ حيثُ أنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ »[١].

وفي الترمذي : عن أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا » قالوا : يا رسول الله ، وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ ؟ قال : « حِلَقُ الذِّكْرِ »[٢].

ودُور الجنَّةِ تُبْنَى بالذكْرِ ، فإذَا أمْسَكَ الذاكرُ عن الذكر ، أمْسَكَتِ الملائكةُ عَنِ البناءِ .

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقِيتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي إبْرَاهِيمَ الخليلَ عليه السلام ، فقال : يا محمد ، أقْرِئ أُمَّتَكَ مِني السلامَ ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجنةَ طيبةُ التُّربَةِ ، عَذْبَةُ الماءِ ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ ، وأنَّ غراسَهَا : سبحانَ الله ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰه

---

(١) حسنٌ بشواهده : أخرجه ابن أبي الدنيا .

(٢) حسنٌ بشواهده .

إلا الله ، والله أكبر »[١].

فالذكرُ غراسُها وبناؤُها . قال الحسنُ عن بناء الملائكة لدُور الجنة : بالذكر - بأبي أنتم وأمي - أعِينُوهم على العمل .

وكان أحدُ العُبَّادِ يستشعِرُ حضورَ الملائكةِ لمجالسِ الذكرِ ، فيقول حين يشرع في ذكره : أهلًا بملائكةِ ربي ، لا أعدمُكم اليومَ خيرًا ، خذوا على بركةِ الله .

والله - عز وجل - يباهي بالذاكرين ملائكته ، كما روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : خرج معاوية على حلقةٍ في المسجد ، فقال : ما أجلسكُم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . فقال : آلله ، ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا: آلله ، ما أجْلَسَنَا إلَّا ذلك . قال : أمَا إني لمْ أستحلفْكم تهمةً لكم ، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا مني ، وإنَّ رسول الله ﷺ خرج على حَلقَةٍ من أصحابه ، فقال : « ما أجْلَسَكُم ؟ » قالوا : جَلَسْنَا نذكر الله تعالى ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنّ به علينا . قال : « آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ » قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : « أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم ؛ ولكن أتاني جبريل ، فأخبرني أن الله - تبارك وتعالى - يُباهي بكم الملائكةَ » .

فهذه المباهاة من الربِّ - تبارك وتعالى - دليلٌ على شرف الذكر عنده ومحبته له ، وأن له مزيةً على غيره من الأعمال .

يا هذا ، إن مدمنَ الذكر يدخل الجنة وهو يضحك . فللَّه درُّها من منزلةٍ .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن غريب ، وهو حديث حسنٌ بشواهده .

والذاكرون ، كما جاء في الحديث : « هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهم »؛ مِن بركتِهم على نفوسهم ، وعلى جليسهم .

فمجالس الذكر مجالسُ الملائكةِ ، ومجالس الغفلة مجالسُ الشياطين ، وكلٌّ مضافٌ إلى شكله وأشباهه ، وكلُّ امرئ يصيرُ إلى ما يناسبُه .

والذكر يُوجب صلاة الله عز وجل على الذاكر ، وَمَن صلَّى الله - تعالى - عليه وملائكتُه ، فقد أفلح كلَّ الفلاح ، وفاز كلَّ الفَوْز . فيا حسرة الغافل دنيء الهمة عن ربه ، ماذا حرم من خيْره وفضله !

والذكر يورث ذكر الله تعالى للذَّاكر ؛ قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدَها ، لكفى بها فضلًا وشرفًا .

يقول يحيى بن معاذ الرازي : « يا غَفولُ ، يا جهول ، لو سمعتَ صَرِيرَ الأقلامِ في اللَّوْح المحفوظ ، وهي تكتب اسمَك عند ذكرك لمولاك لَمُتَّ شوقًا إلى مولاك » .

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ ، قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ، مثلُ الحيِّ والميِّت » .

عالي الهمّة سبّاق إلى الذكر :

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يسيرُ في طريقِ مكةَ ، فمرّ على جبلٍ يُقال له : جُمْدان ، فقال : « سيروا ، هذا جُمْدان ، سبق المُفرِّدون » قيل : وما المفرِّدون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات » .

وعن معاذ بن جبل ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أيُّ الأعمالِ أحبّ إلى الله عز وجلّ ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطبٌ من ذكر الله

عز وجل »[١].

وعالي الهمة يضعُ نصبَ عَينيه أن العطاءَ والفضلَ الذي رُتِّبَ على الذكر لم يُرَتَّبْ على غيره من الأعمال :

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : لا إلـه إلا الله وحدَه لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، في يوم مائة مرةٍ،كانت له عَدْلَ عشْرِ رقابٍ ، وكُتبتْ له مـائةُ حسنةٍ ، ومُحِيَتْ عنـه مائةُ سَيِّئَةٍ ، وكانتْ له حِرزًا من الشَّيْطان يومَهُ ذلك ، حتَّى يُمسي ، ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ مِمَّا جاء به ، إلَّا رجلٌ عَمِلَ أكثرَ منه . ومن قال : سبحان الله وبحمده،في يوم مائة مرة حُطّتْ عنه خطاياه وإن كانت مثلَ زبد البحر » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَأَن أقولَ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر أحبُّ إليّ مما طلعتْ عليه الشمسُ ».رواه مسلم . وحديث السوق[٢] وعظم أجره .

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلُّكَ على ما هو أكثرُ من ذكرِكَ اللهَ الليلَ مع النهارِ ؟ تقول : الحمد لله عدد ما خلق ، الحمد لله ملءَ ما خلق ، الحمد لله عدد ما في السمٰوات وما في الأرض ، الحمد لله عدد ما أحصىٰ كتابُه ، والحمد لله على ما أحصى كتابُه ، والحمد لله عدد كلِّ شيء ، والحمد لله ملءَ كلِّ شيءٍ ، وتسبِّح الله

---

(١) حسن : أخرجه ابن حبان والبزار .

(٢) صحَّحه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه البوصيري ، وحسّنه الحافظ .

مثلَهن ، تعلَّمْهن ، وعلِّمْهُن عقِبَك مِنْ بَعْدِك »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « أيُعجزُ أحدكم أنْ يكسب كلَّ يوم ألفَ حسنةٍ ؟ يسبح الله مائة تسبيحة ، فيكتب اللهُ له بها ألفَ حسنةٍ ، ويحطُّ عنه بها ألف خطيئةٍ »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « لا يذكرني عبدٌ في نفسه إلا ذكرتُه في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ ، إلا ذكرتُه في الرفيق الأعلى »[٣].

وقال ﷺ : « ليس أحدٌ أفضلَ عند الله من مؤمن يعمّر في الإسلام لتكبيره ، وتحميده ، وتسبيحه ، وتهليله »[٤].

وقال ﷺ : « ما عَمِلَ ابنُ آدم عملًا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله »[٥].

وقال ﷺ : « لا يجلس قومٌ مجلسًا لا يصلون فيه على رسول الله ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة ؛ لما يَرَوْنَ من الثواب »[٦].

وقال : « ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لم يذكر الله فيها ، إلا حسر عليها يوم ....

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦١٥ .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن سعد .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن معاذ بن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣٣٥) .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن طلحة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٣٧١).

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٦٤٤) .

(٦) صحيح : رواه النسائي عن أبي سعيد ، وأحمد وابن حبان والحاكم والخطيب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٦٢٤) .

القيامة »[١].

وقال ﷺ : « إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمّادون » .

وقال ﷺ : « أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربعٌ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا يضرُّك بأيِّهن بدأت »[٢].

وقال ﷺ : « أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد : سبحان الله وبحمده »[٣].

وقال ﷺ : « أحب الكلام إلى الله تعالى ، ما اصطفاه الله لملائكته : سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده ، سبحان ربي وبحمده »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « أفضل الذكر : لا إلٰه إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »[٥].

وقال ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمٰن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « لقد قلتُ بعدَكِ أربعَ كلمات ، ثلاثَ مراتٍ ، لو وُزِنَتْ بما قلتِ - منذ اليوم - لوزنتهنَّ : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[٧].

---

(١) صحيح : رواه الطبراني عن عمران بن حصين ، الصحيحة (١٥٨٤) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٧١) .

(٢) صحيح : رواه مسلم وأحمد عن سمرة بن جندب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٧٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٧٤) .

(٤) صحيح : رواه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٧٥) .

(٥) حسن : رواه الترمذي والنسائي وابن حبان وابن ماجه والحاكم عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١١٠٤) .

(٦) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه .

(٧) رواه مسلم عن جويرية .

يقول ابن القيم : الذكر نوعان :

الأول : ذكر أسماء الرب - تبارك وتعالى - وصفاتِه ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهُه وتقديسه عمّا لا يليق به تبارك وتعالى .

وهذا أيضًا نوعان :

أحدهما : إنشاءُ الثناء عليه بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث ؛ نحو : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر » و« سبحان الله وبحمده » ، و« لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيءٍ قدير » ... ونحو ذلك . فأفضل هذا النوع : أجمعه للثناء وأعمُّه ، نحو : « سبحان الله عدد خلقه » فهذا أفضل من مجرد « سبحان الله » .

ثانيهما : الخبر عن الربّ - تعالى - بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو قولك : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ، ويرىٰ حركاتِهم ، ولا تخفىٰ عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، وبما أثنى به عليه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع : حمدٌ ، وثناءٌ ، ومجدٌ .

فالحمد لله : الإخبار عنه بصفات كماله - سبحانه وتعالى - مع محبته والرضا به ، فلا يكون المحبُّ الساكت حامدًا ، ولا المُثْني بلا محبةٍ حامدًا ، حتى تجتمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامدَ شيئًا بعد شيءٍ ، كانت ثناءً ، فإن كان المدْح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا .

وقد جمع الله - تعالى - لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة : « فإذا قال العبد : ﴿ **الحمد لله ربِّ العالمين** ﴾ ؛ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا

قال : ﴿ **الرحمٰن الرحيم** ﴾ قال : أثنى عليّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ **مالكِ يوْمِ الدِّين** ﴾ قال : مجّدَني عبدي »(١) .

والثاني : ذِكْر أمْره ونهيه وأحكامه .

وهو أيضًا نوعان :

أحدهما : ذِكْره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ، ونهٰى عن كذا ، وأَحبَّ كذا ، وسخِط كذا ورضي كذا .

والثاني : ذكْره عند أمْره فيُبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكْر أمْره ونهيه شيء ، وذكْره عند أمْره ونهيه شيء آخر .

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر ، وأجلّه وأعظمه .

قال ابن القيم : فهذا الذكر - من الفقه الأكبر وما دونه - أفضل الذكر ، إذا صحّت فيه النية .

ومن ذكره سبحانه : ذكره بآلائه ، وإنعامه ، وإحسانه ، وأياديه ، ومواقع فضله على عبيده ، وهو أيضًا من أجلِّ أنواع الذكر .

قال ابن القيم في « الوابل الصيب » : « فهـذه خمسة أنواع : وهي تكون بالقلب واللسان تارة ، وذلك أفضل الذكر . وبالقلب وحده تارة ، وهي الدرجة الثانية ، وباللسان وحده تارة ، وهي الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وإنما كان ذكْر القلب وحده أفضلَ من ذكر اللسان وحده ؛ لأن ذكر القلب يُثمر المعرفة ، ويهيّج المحبة ، ويُثير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويَزَعُ عن

---

(١) صحيح مسلم .

التقصير في الطاعات ، والتهاون في المعاصي والسَّيئات ، وَذِكْر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار ، وإن أثمر شيئًا منها ، فثمرة ضعيفة » .

يقول ابن القيم في « الوابل الصيب » (١٦١ - ١٦٣) : « قراءة القرآن أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر لكلٍّ منهما مجردًا . وقد يَعْرِض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل يُعَيِّنُه ، فلا يجوز أن يَعْدِل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود ؛ فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهيّ عنها نَهْي تحريم أو كراهة ، وكذلك التسميع والتحميد في محلِّهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة - ذكر التهليل والتسبيح ، والتكبير والتحميد - أفضلُ من الاشتغال عنه بالقراءة ، وكذلك إجابة المؤذِّن ، والقول كما يقول،أفضل من القراءة ، وإن كان فضْل القرآن على كلّ كلام كفضل الله تعالى على خلقه ، لكنْ لكلِّ مقام مقالٌ ، متى فات مقاله فيه ، وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ، وفُقدت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيّدة بمحالّ مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ، اللهمَّ إلَّا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفعَ له من قراءة القرآن .

مثاله : أن يتفكر في ذنوبه ، فيُحْدث ذلك له توبةً من استغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فَيَعْدِل إلى الأذكار والدعوات التي تُحَصّنه وتحوطه . وكذلك أيضًا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر ، لم يحضر قلبُه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى ، وأحدث له تضرُّعًا وخشوعًا وابتهالًا ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء،والحالة هذه

أنفع ، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا . وهذا باب نافع يحتاج إلى فقهِ نفسِه ، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه ، وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كلّ ذي حق حقه ، ويوضع كلّ شيءٍ في موضعه .

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا : سُئل بعض أهل العلم : أيّما أنفع للعبد : التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقيًّا ، فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دَنِسًا ، فالصابون والماء الحارُّ أنفع له . فقال لي رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دَنِسَة ؟!

فهذا أصل نافع جدًّا ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ، لئلَّا يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذي بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها ، وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحته بالكلية ؛ لظنّه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا . وهذا يحتاج إلى معرفةٍ بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها ، وفقهٍ في إعطاءِ كلّ عمل منها حقَّه ، وتنزيله في مرتبته ، وتفويته لما هو أهمُّ منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ؛ لإمكان تدارُكه والعوْد إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ، فالاشتغال به أولى ، وهذا كترْك القراءة لردّ السلام ؛ وتشميت العاطس ، وإن كان القرآن أفضل ؛ لأنه يمكن الاشتغال بهذا المفضول والعوْد إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة ، فاتتْه مصلحة ردّ السلام وتشميت العاطس ، وهكذا سائر الأعمال إذا تزاحمت. والله الموفق ».ا هـ .

يقول ابنُ عطاء :

أرى الذِّكْرَ أصْنافًا مِنَ الذِّكرِ حَشْوُهَا ... ودادٌ وشوقٌ يَبْعثانِ على الذِّكْرِ
فَذِكْرٌ أَلِيفُ النَّفْسِ مُمْتَزِجٌ بِهَا ... يحلُّ محلَّ الرُّوحِ في طُرِّهَا يَسْرِي
وَذِكْرٌ يُعَزِّي النَّفْسَ عنها لأنهُ ... لها مُتْلِفٌ مِنْ حيثُ تدري ولا تَدْري

وَذِكْرٌ عَلَا مِنِّي المَفَارِقَ والذُّرَا ... يَجِلُّ عَنِ الإدراكِ بالوهْمِ والفِكْرِ
تَرَاهُ لِحَاظُ العَيْنِ بالقَلْبِ رُؤْيَةً ... فيجْفُو عَلَيْهِ أنْ يُشَاهَدَ بالذِّكْرِ(١)

قال ذو النون : صحبت زنجيًّا ، وكان مُفلفلَ الشّعر ، فإذا ذكر الله ابيضّ ، فوَرَدَ عليَّ أمرٌ عظيم ، فقلت : لِمَ يا هذا ، أنك إذا ذكرت الله ، تحوّل لونُك وانقلبتْ عيناك ؟ فقال :

ذكَرْنَا وَمَا كُنَّا لِنَنْسَى فَنَذْكُرُ ... وَلَكِنْ نَسِيمُ القُرْبِ يَبْدُو فَيَظْهَرُ
فَأَحْيَا بِهِ عَنِّي وأحْيَا بِهِ لَهُ ... إذِ الحقُّ عنْهُ مُخْبِرٌ ومُعَبِّرٌ

قال ذو النون : فما طرق سمعي مثلُ حكمةِ ذلك الزّنجيّ ، فعلمت أن لله تعالى عبادًا تُعْلَى قلوبهم بالأذكار ، كما تُعْلَى الأطيارُ في الأوكار ، لو فتشت منهم القلوبَ ، لما وجدت فيها غير حبّ المحبوب . قال : ثم بكى ذو النّون وأنشأ يقول :

وأَذكرُ أصنافًا منَ الذِّكرِ حشوُها ... ودادٌ وشوقٌ يبعثانِ على الذِّكرِ(٢)

وقال ذو النون عن الذاكرين :

رجالٌ أطاعُوا اللهَ في السِّرِّ والجهرِ ... فما باشرُوا اللذاتِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
أُناسٌ عليهم رحمةُ الله أُنزلتْ ... فظلُّوا سُكُونًا في الكهوفِ وفي القفرِ
يراعُون نَجْمَ اللَّيل مَا يرقدونَهُ ... فباتُوا بإدمانِ التهجُّدِ والصَّبْرِ
فداخل هموم القَوْمِ للخلقِ وحْشَةٌ ... فصاحَ بهم أُنْسُ الجليلِ إلى الذِّكْرِ
فأجسادُهم في الأرض هَوْنًا مُقيمةٌ ... وأرواحُهم تَسْري إلى مَعدِن الفَخْرِ
فهذا نعيمُ القوم إن كنتَ تَبتغِي ... وتعقِلُ عن مولاكَ آدابَ ذَوِي القَدْرِ(٣)

---

(١) التعرُّف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر الكلاباذي صـ ٧٦ مطبعة السعادة .
(٢) الحلية ٩ / ٣٩١ .
(٣) الحلية ٩ / ٣٨٦ .

يقول ابن القيم في « مدارج السالكين » (٢ / ٤٣٣) : « وذِكْر العبد لربه محفوف بذكرَيْن من ربه له : ذكرٌ قبله ، به صار العبد ذاكرًا له ، وذكر بعدَه ، به صار العبد مذكورًا ، كما قال تعالى : ﴿ **فَاذكروني أذكرْكم** ﴾ ، والذكر الذي ذكره الله به بعد ذكره له : نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له ، ومن كثُف فهمُه عن هذا فليجاوزْه إلى غيره ، فقد قيل :

إذا لم تستطِعْ شيئًا فَدَعْهُ   وجاوزْه إلى ما تستطيع

وَمِنْ علوّ الهمة في الذكر : « البقاءُ في الذكر ، فهو أكمل منَ الفناء فيه والغيبة به . والبقاء في الذكر الدّرب الأعظم ، والطريق الأقوم ؛ لما في البقاء من التفصيل والمعارف ، وشهود الحقائق على ما هي عليه ، والتمييز بين الرب والعبد ، وما قام بالعبد ، وما قام بالرب تعالى ، وشهود العبودية والمعبود ، وليس في الفناء شيء من ذلك .

والفناء كاسمه « الفناء » ، والبقاء « بقاء » كاسمه ، والفناء مطلوب لغيره ، والبقاء مطلوب لنفسه . والفناء وصف العبد ، والبقاء وصف الرب ، والفناء عدمٌ ، والبقاء وجودٌ ، والفناء نفيٌ ، والبقاء إثبات . والسلوك على دَرْبِ الفناء فخطر ، وكم به من مفازة ومهلكة ! والسلوك على درب البقاء آمن ؛ فإنه درب عليه الأعلام والهداة والخفراء ، ولكنّ أصحاب الفناء يزعمون أنه طويل ، ولا يشكُّون في سلامته ، وإيصاله إلى المطلوب ، ولكنَّهم يزعمون أنَّ درب الفناء أقرب وراكبه طائر ، وراكب درب البقاء سائر »[1] .

ومن علو الهمة في الذكر : « الخَلاص من القيود ، والبقاء مع الشّهود ، ولزوم المسامرة .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٧ .

أمّا الخلاص من القيود : فهو التخلُّص من الغفلة والنسيان ، والحُجُب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه .

والبقاء مع الشهود : ملازمة الحضور مع المذكور ، ومشاهدة القلب له ، حتّى كأنه يراه .

ولزوم المسامرة : هي لزوم مناجاة القلب لربه ؛ تملُّقًا تارة ، وتضرُّعًا تارة ، وثناءً تارة ، واستعظامًا تارة ، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسِّر والقلب . وهذا شأن كلِّ محبٍ وحبيبه . كما قيل :

إذا ما خَلَوْنَا والرّقيبُ بمجلسٍ فنحنُ سُكوتٌ والهَوىٰ يتكلَّمُ »[1]

« والذكر الظاهر الجاري على اللسان ، المطابق للقلب : إما ثناء ، أو دعاء ، أو رعاية .

وذكر الرعاية : فمثل قول الذّاكر : الله معي . الله ناظرٌ إليّ . الله شاهدي ، ونحو ذلك مما يُستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ، ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرُّز من الغفلة ، والاعتصام من الشيْطان والنفس .

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة ، فإنها متضمِّنة للثناء على الله ، والتعرض للدعاء والسؤال ، والتصريح به ، كما في الحديث : « أفضل الدعاء الحمد لله ».قيل لسفيانَ بن عيينة : كيف جعلها دعاء ؟ قال : أمَا سمعت قول أميَّة بن الصلت لعبد الله بن جُدعان ، يرجو نائلَه :

أأذكرُ حَاجتي أمْ قد كَفاني حياؤُك إنّ شيمتَكَ الحياءُ
إذا أثنىٰ عليكَ المرءُ يومًا كفاه مِنْ تعرُّضِهِ الثّناءُ

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٥ .

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوقٍ بالثناء عليه من سؤاله ، فكيف برب العالمين ؟!

والأذكار النبوية متضمنة لكمال الرعاية ، ومصلحة القلب ، والتحرُّز من الغفلات ، والاعتصام من الوساوس والشيطان . والله أعلم »[١] .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم ﴾ :

« ليس العجب من قوله : ﴿ **فاذكروني** ﴾ إنما العجب من قوله : ﴿ **أذكركم** ﴾ .

يا هذا ، حفْرُ النهر إليك ، وإجراءُ الماء ليس عليك ، احضرْ ساقية ﴿ **فاذكروني** ﴾ إلى جنب بحر ﴿ **أذكركم** ﴾ ، فإذا بالغ فيها مِعْولُ الكدّ ، فاضتْ عليك مياهُ البحر « فبي يسمع ، وبي يُبصر » ، ألقِ بذر الفكر في أرض الخلْوة ، واسْقِ إليه ساقيةً من ماء الفكْر ، لعلَّها تُنبت لك شجرة « أنا جليسُ مَنْ ذكرني » .

﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتذلُّل ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتفضُّل .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالانكسار ﴿ **أذكركم** ﴾ بالمبارِّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بتصفية السرِّ ﴿ **أذكركم** ﴾ بتوفية البرِّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالرهْبة ﴿ **أذكركم** ﴾ بتحقيق الرغْبة .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتنصُّل ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتفضُّل .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بصفاء السر ﴿ **أذكركم** ﴾ بخالص البرّ .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بالتعظيم ﴿ **أذكركم** ﴾ بالتكريم .
﴿ **فاذكروني** ﴾ بترْك الخطاء ﴿ **أذكركم** ﴾ بأنواع العطاء .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٤ - ٤٣٥ .

هذا ذكْره في دار الشقاء ... فكيف عند اللقاء .

هذا في دار المحنة ... فكيف في دار النعمة .

هذا وأنت على الباب ... فكيف إذا كُشف الحجاب ..؟! » .

وملأتُ كلِّي منك حتى لم أدعْ   مـني مكـانًا خاليًا لسـواكا
والقلب فيك هيامُهُ وغرامُهُ   والرُّوح لا تنفكُّ عنْ ذكْراكا

فيا ركائبَ الأرْواح ، جدِّي في طلب هذه المنازل .

ويا نجائبَ القلوب ، أسرعي إلى نَيْل هذه الدرجات .

وكان أبو مسلم الخولاني كثيرَ الذكر ، فرآه بعضُ الناس فأنكر حاله ، فقال لأصحابه : أمجنون صاحبُكم ؟! فسمعهُ أبو مسلمٍ ، فقال : لا يا أخي ، ولكن هذا دواء الجنون .

عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون »[1] .

وَقَدْ شرطتُ على قَوْمٍ صَحِبْتُهُمُ   بأن قلْبي لكم منْ دونهمْ غرَض
ومِنْ حديثي بكمْ قالوا بِهِ مرضٌ   فَقُلْتُ لَا أَذْهَبَ اللهُ عَني ذلك المرض

أمر الحجَّاج بصلب ماهان العابد ، فرُفع على خشبةٍ وهو يسبِّح ويهلِّل ويعقد بيده ، حتى بلغ تسعًا وعشرين ؛ فبقي شهرًا بعد موْته ويده

---

(١) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٨٥) : رَمَزَ المصنِّفُ لصحته ، وهو فيه تابعٌ لتصحيح الحاكم له ، وقد اقتصر الحافظ ابن حجر في أماليه على كونه حسنًا ، وقال الهيثمي : فيه « دراج » ضعَّفه جمعٌ ، وبقية رجال أحدِ إسنادَيْ أحمد ثقات . وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة وضعيف الجامع الصغير .

على ذلك العقد مضمومة .

لَتُحْشَرَنَّ عظامي بعد ما بلِيَتْ يوم الحساب وفيها حبُّكُمْ عَلِقُ

وكان خالد بن معدان يسبِّح كلَّ يوم أربعين ألفِ تسبيحة ، سوى ما يقرأ من القرآن ، فلما مات وُضع على سريره ليغسَّل ، فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح[١] .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كلَّ يوم اثنتي عشرة ألفِ تسبيحةٍ فماتت ، فلما بلغت القبرَ اختُلستْ من أيدي الرجال[٢] .

* * *

(١) لهذه القصة إسناد منقطع في سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٤٠) ، وهي في الحلية (٥ / ٢١٠) وابن عساكر (٥ / ٢٦٠) بطريقٍ أخرى .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤١٧ .



الفصْـلُ الثَّانِـي

عُلُوّ الهِمَّة
في
الأمْر بالمعروفِ والنَّهْي
عن المُنْكَر



□ عُلُوّ الهِمَّة في الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنْكَر □

« إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين ، وهو المُهِمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأُهمل عمله ، لتعطَّلتِ النبوة واضمحلَّتِ الدِّيانة ، وعمَّتِ الفَتْرة وفَشَتِ الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتَّسع الخَرْق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلَّا يوم التَّناد ، وقد كان الذي خِفْنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القُطب عَمَلُه وعِلمُه ، وانْمَحَقَ بالكليّة حقيقتُه ورَسْمُه ، فاستولت على القلوب مُداهنةُ الخلْق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتِّباع الهوى والشهواتِ استرسالَ البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومةُ لائِم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسَدِّ هذه الثُّلْمَة ؛ إمَّا متكفِّلًا بعملها ، أو متقلّدًا لتنفيذها ، مجدِّدًا لهذه السُّنَّة الدَّاثِرة ، ناهِضًا بأعبائها ، ومتشمِّرًا في إحيائها - كان مُستأثرًا من بين الخلق بإحياء سُنَّةٍ أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقُربةٍ تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها »[1] .

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

أُمَّةٌ تُخرج إخراجًا من الغيب من وراء الستار السرمدي ، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله ، تخرج إلى الوجود ، أمة ذات دور خاص ، لها مقام خاص ، ولها حساب خاص .

---

(١) الإحياء ٢/٣٣٣ .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أُخرجتْ لتكون طليعةً ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة ينبغي دائمًا أن تُعطي هذه الأُمم مما لديها ، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتَّصوُّر الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخُلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتِّمه عليها مكانُها ، وتحتِّمه عليها غايةُ وجودها . واجبها أن تكون في الطليعة دائمًا ، وفي مركز القيادة دائمًا . ولهذا المركز تَبعاته .

وفي أول مقتضيات هذا المكان ، أن تقوم على صيانة الحياة من الشَّرِّ والفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحريض على الخير ، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، ومواجهة طواغيت الشَّرِّ في عنفوانهم وجبروتهم .

الدُّعاةُ إلى الخير الآمرون بالمعروف النّاهـون عن المنكر يُواجهون الشَّرَّ في عنفوانه ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عَرَامتها وشِدَّتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكَلَلَ العزائم ، وثقلة المطامع ، وزادُهم هو الإيمان بالله ، وسَنَدُهم هو الله ، وكلّ زاد سوى زاد الإيمان يَنْفَد ، وكل عدّةٍ سوى عدة الإيمان تُفَلّ ، وكل سَنَدٍ غير سند الله ينهار .

إن الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة لله في أبْهَى صُوَرها .

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكُن لله وحده ، تكُن لغير الله .. والعبودية لله وحده تُطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء .. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وفضله .

إن الله سبحانه وَصَف الأُمة المسلمة بأن الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر صفتها ؛ ليدُلَّها على أنها لا تُوجد وجودًا حقيقيًّا إلا أنْ تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تُعرف بها في المجتمع الإنساني ، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس .

وقال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾. [آل عمران : ١٠٤] .

وبيَّن الملك عز وجل أن الفَلَاح مَنُوطٌ بالقائمين به المباشرين ، وإنْ تقاعَدَ عنه الخلْق أجمعون ، عمَّ الحَرَج كافَّةَ القادرين عليه لا محالة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانةٌ للأمة من أن يعبث بها كلُّ ذي هوًى ، وكلّ ذي شهوةٍ ، وكلّ ذي مصلحة ، يقول برأْيِهِ وتصوُّرِهِ ، زاعِمًا أن هذا هو الخير والمعروف والصواب .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفٌ ليس بالهيِّن ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم ، وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلِّط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحلّ الذي يكره الجِدّ ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ، وفيهم وفيهم ، ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر ، ولا تُفلح الأمة ، ولا تُفلح البشرية ، إلَّا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفًا ، والمنكر منكرًا .

والمعروف الأكبر هو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والعبودية له وحده .

والمنكر الأكبر هو الشرك ، ورفْض أُلُوهيَّة الله ، ورفض شريعته للحياة .

حينئذٍ تتحوَّل الحياة إلى مستنقعٍ آسن : حُكْم بغير شرع الله ، اقتصاد يقوم على الرِّبا ، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمةً إلَّا في حالة الإكراه ، ولا يُعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله ، وخمور يُباح تداولُها ، ولا يُعاقب شاربُها إلَّا على حالة السُّكر البيِّن في الطريق العام ، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحدِّ الله ، وشذوذ .... وسبّ لدين الله .

عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض : الله الله »[1].

قال ابن كثير في أحد قولَيْه : معناه أن أحدًا لا يُنكر منكرًا ، ولا يزجُر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا ، وعبّر عن ذلك بقوله : « حتى لا يقال : الله ، الله » .

وفي حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطتَهُ من أهل الأرض ، فيبقى فيها عَجَاجَة لا يعرفون معروفًا ، ولا يُنكرون منكرًا »[2].

وكما جاء في حديثْ البخاري ، لَمَّا قيل للنبي ﷺ : أنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثُر الخَبَثُ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة ، يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذّب فيها الصادق ، ويُؤتَمَن فيها الخائن ، ويُخَوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها ......

---

(١) رواه مسلم .

(٢) إسناده صحيح . رواه أحمد في مسنده (١١/١٨١ - ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .
شريطته : أي أهل الخير والدين ، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأراذل والعجاجة والعجاج : الأراذل ، ومن لا خير فيهم .

الرُّوَيْبِضَة »[١]. قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السَّفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « من أشراط الساعة ... أن يعلو التُّحوتُ الوعول » أكذلك يا عبد الله بن مسعود سمعتَهُ من حِبِّي ؟ قال : نعم ورب الكعبة . قلنا : وما التُّحوت ؟ قال : « فسول الرجال ، وأهل البيوت الغامضة ، يُرفعون فوق صالحيهم ، والوُعُول أهل البيوت الصالحة »[٣].

وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين** ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٥].

« صورة وضيئة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة ، وفي هذا الوعد ، ليحقّقها في ذات نفسه كلُّ من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير »[٤].

لم يشهد الله لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون**

---

(١) الرُّوَيْبِضَة : تصغير الرَّابِضة ، وهو العاجز الذي رَبَضَ عن معالي الأمور ، وقعد عن طلبها ، والتّافه الخسيس الحقير .

(٢) إسناده جيد . رواه أحمد في مسنده ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/٣٧ - ٣٨) : إسناده حسن ومتنه صحيح . وقال ابن كثير في « النهاية في الفتن والملاحم » : هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح (١٣/١٥) من رواية الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي : حديث أبي هريرة وحده في الصحيح بعضه ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة .

(٤) الظلال ١/٤٥٠ .

بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويُؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . [التوبة : ٧١] .

هذا نعت المؤمنين . والذي هَجَر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خارِجٌ من هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكوْن في هذه الأرض ، رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتِّصال بالله ، وفي الحماية من الفتن ، وصلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها .

والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر صفوة مختارة،باعوا نفوسهم لله .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشِّر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١١ - ١١٢] .

بيعة رهيبة وأجر عظيم ، وصفات جليلة تتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة ، وحفظ لحدود الله يردُّ عنها العادِين والمُضيِّعين ، ويصونها من التَّهجُّم والانتهاك .

وقال تعالى : **﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يَفْسُقُون. وإذ قالت أُمَّةٌ منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو مُعذِّبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلَّهم يتقون. فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون ﴾** [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٥] .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب يُؤدَّى لله ؛ لنبلغ إلى الله عُذرنا ، ويعلم أن قدْ أدَّيْنا واجبنا ، ثم لعلَّ النُّصح يُؤثِّر في تلك القلوب العاصية ، فيثير فيها وجدان التقوى .

ولَمَّا لم يُجْدِ النصح ، ولم تنفع العظة ، وسَدِرَ السَّادِرُون في غَيِّهم ، حقَّت كلمة الله ، وتحقَّقتْ نُذُره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نَجْوَة السوء ، وإذا الأُمَّة العاصية يحلّ بها العذاب الشديد ، وأمّا الأُمة الثالثة ، فقد سكت عنها النَّصّ .. ربما تهوينًا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - فاستحقَّتِ الإهمال ، وإن لم تستحقّ العذاب .

قال تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾. [المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

وطبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يُصبِحا عُرفًا مصطلحًا عليه ، أو أن يُصبحا أمْرًا سهلًا يجترىء عليه كل من يهمُّ به .

والقائمون بأمر الله ودينه ، عليهم أن يؤدّوا أمانتهم التي استُحْفِظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء ، لا يخافون لومة لائم ، سواءٌ جاء هذا الشر من الحكّام المتسلطِّين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلِّطين بالمال ، أو الأشرار المتسلِّطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلّطة بالهوى ، فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواءٌ .

والإسلام يشدِّد في الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامَّة بما يقع فيها من شرٍّ ، إذا هي سكتتْ عليه ، ويجعل الأمانة في عنق كلِّ فردٍ ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة .

وفي الآية غاية التَّشدُّد ، إذ علَّل استحقاقهم للعنةِ بتَرْكِهم النهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الرَّبّانيُّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وهذا صوت النذير لكل أهلِّ دين .

قال رسول الله ﷺ : « أكثر منافقي أُمَّتي قُرَّاؤها »[(١)].

وقال ﷺ : « غيرُ الدَّجّال أخوَفُ على أُمّتي من الدَّجّال ، الأئمة المُضِلُّون »[(٢)].

قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [الجمعة : ٥] .

وهذه صورة زريّة بائسة ، ومَثَلٌ سيىء شائِنٌ لكل الذين حُمِّلوا أمانة العلم والعقيدة ، ثم لم يحملوها ويصدعوا بها .

يقول مصطفى صادق الرافعي في « وحي القلم » (٣/٥٨ - ٦٦) تحت عنوان « أمراء للبيع » : « إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نَفْسِه ، لا بمعناها في نفْسِها ، فما يحسُن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردُّه الشرعُ عليه ، ولو نافق الدينُ ، لبَطَل أن يكون دينًا ، لو نافق العالِم الدينيُّ ، لكان كلّ منافقٍ أشرف منه ، فلَطْخَةٌ في الثوب الأبيض ليست كلَطْخةٍ في الثوب الأسود ، والمنافق رجل مُغَطّى في حياته ، لكن عالم الدين

---

(١) صحيح . رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، والطبراني في الكبير وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) والسلسلة الصحيحة رقم (٧٥٠) .

(٢) صحيح . رواه أحمد عن أبي ذر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٩٨٩) وصحيح الجامع رقم (٤١٦٥) .

رجل مكشوف في حياته لا مغطّى ، فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة ، وذاك يتصل بالدِّين من ناحية العمل ، فإذا نافق ، فقد كَذَبَ ، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التّبْيين ، فإذا نافق ، فقد كذبَ وغشَّ وخانَ .

وما معنى العلماء بالشرع إلّا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ، ويقومون بحجَّتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النُّور ، تحويه في نفسها ، وتُلقيه على غيرها ، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا .

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء ، وكلّهم آخِذٌ من نُورٍ واحدٍ لا يختلف ؟!

أولئك في أخلاقهم كاللَّوح من البَلُّور ، يُظهر النُّور نَفْسَه فيه ، ويُظهر حقيقته البَلُّورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللّوح من الخشب ، يُظهر النُّور حقيقتهُ الخشبيَّة لا غير !

وعالم السوء يفكّر في كتب الشريعة وحدها ، فيسهُل عليه أن يتأوَّل ويحتال ، ويغيِّر ويُبدِّل ، ويُظهر ويُخفي ، ولكن العالم الحقّ يفكّر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة ، فهو معه في كل حالةٍ ؛ يسأله : ماذا تفعل ؟ وماذا تقول ؟

والرجل الدِّينيّ لا تتحوّل أخلاقُه ، ولا تتفاوت ، ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم ، فهي بأخلاقه كلها ، لا يكون مرّة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا ؛ الذي لو نطقتْ أفعالُه لقالت لله بلسانه : هم يُعطوني الدراهم والدنانير ، فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيْه دون الآخر ،

أو في بعضه دون بعضٍ ، فهو زائفٌ كلّه .

وأهل الحُكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء ، يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم ، فينزلون بذلك منزلة البهائم ، تقدِّم أعمالها لتأخذ بطونها ، والبطن الآكِل في العالِم السّوء ، يأكُل دِين العالم فيما يأكله .

فإذا رأيت لعالم السوء وقارًا ، فهو البلادة ، أو سكوتًا عن الظلم ؛ فتلك رشوةٌ يأكلون بها .

وقال تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيَّةٍ ينهون عن الفساد في الأرض إلَّا قليلًا ممَّن أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾. [هود : ١١٦] .

سُنّة من سنن الله في الأمم ؛ الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، فإن سنة الله تحقّ عليها ؛ إمَّا باستئصال أو انحلال واختلال . فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام الأمان للأمم والشعوب ، وهم يحُولون دون أُممهم وغضب الله ، واستحقاق النَّكال والضياع .

وقال تعالى : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾. [النساء : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ الآية [المائدة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾. [الحج: ٤١].

لا يُبقون على منكرٍ وهم قادرون على تغييره ، ولا يقعدون عن معروفٍ وهم قادرون على تحقيقه .

قال رسول الله ﷺ : « إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله إيمانٌ بالله ، ثم صلة الرَّحِم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم »(٢) .

وقال ﷺ : « إن من أُمَّتي قومًا يُعطَوْن مثلَ أجور أوَّلهم ، يُنكرون المنكر »(٣) .

وقال ﷺ : « إن الدَّالّ على الخير كفاعله »(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « دليل الخير كفاعله »(٥) .

وقال ﷺ : « من استنّ خيرًا ، فاستُنّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أُجور من استنَّ به ، ولا ينتقص من أُجورهم شيئًا ، ومن استنّ سُنَّةً سيئةً فاستنّ به ، فعليه وِزْرُه كاملًا ، ومن أوزار الذين استنّوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »(٦) .

وقال ﷺ : « إذا عُملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكَرِهَها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرَضِيَها كان كمن شهدها »(٧) .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٦) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن رجلٍ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٤) .

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٠٥).

(٥) حسن : رواه ابن النجار عن علي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٩٠).

(٦) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٤٠) .

(٧) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٩) .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رَأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أوْشَكَ أن يعُمَّهم الله بعقابٍ منه »(١).

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يُغيِّرونه ، أوشك أن يعُمَّهم الله بعقابه »(٢) .

وقال ﷺ : « ما من قوم ٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعزُّ وأكثر ممَّن يعمله ، ثم لم يُغيِّروه ، إلَّا عمَّهم الله تعالى منه بعقابٍ »(٣).

وقال ﷺ : « ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمّةٍ قبلي ، إلَّا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يُؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل »(٤).

وقال ﷺ : « فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره ، يُكفِّرها الصيام ، والصلاة ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٥).

وقال ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(٦) .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٤) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٧٤٩) .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود .

(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن حذيفة .

(٦) رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد .

المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيب لكم »[١].

وقال ﷺ : « والله لأن يُهدى بهداك واحدٌ ، خيرٌ لك من حمر النَّعَم »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ القائم على حدود الله ، والمُدهِن فيها ، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر ، فأصاب بعضُهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لا نَدَعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنَّا خرقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوْا جميعًا »[٣].

وهناك أمثلة وضيئة شفّافة في علوّ الهمَّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودفعِ الشُّبَهِ الباطلة وتبيين الحق للناس ، لسادةٍ من سادات سلفنا ، تبقى مدى الأيام ناصعةً منيرة بيضاء ، تهدي الحائرين وتشدّ أزر العاملين .

الإمام القُدوة ، أبو الوليد عُبادَة بن الصَّامِت الخَزْرجي ، رضي الله عنه :

أحد النُّقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين .

عن قبيصة بن ذؤيب ، أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا ، فقال : لا أُساكنك بأرضٍ ، فرحل إلى المدينة ، قال له عمر : ما أقْدَمَك ؟ فأخبره بفعل معاوية ، فقال له : ارحل إلى مكانك ، فقبَّح الله أرضًا لستَ فيها وأمثالك ، فلا إمْرَةَ له عليك[٤].

---

(١) حسن : رواه أحمد والترمذي عن حذيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٧٠) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٩٤) .

(٣) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير .

(٤) رجاله ثقات . رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/٧ .

عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ[١] على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمَنْشَط والمَكْرَه ، وأن لا نُنازع الأمر أهله ، وأن نقول، أو نقوم بالحق حيث كُنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم . وثمة بيعة أخرى[٢] .

وعن عبيد بن رفاعة : أن عبادة بن الصامت مرّت عليه قِطَارَة[٣] وهو بالشام تحمل الخمر ، فقال : ما هذه ، أزيتٌ ؟ قيل : لا ، بل خمر يُباع لفلان . فأخذ شفرةً من السوق ، فقام إليها ، فلم يذرْه فيها راوية إلا بَقَرَها .. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام – فأرسل فلانٌ إلى أبي هريرة ، فقال : ألا تُمسك عنَّا أخاك عبادة ؛ أمَّا بالغَدَوَات ، فيغدوا إلى السوق يُفسد على أهل الذِّمَّة متاجرهم ، وأما بالعَشِيِّ ، فيقعد في المسجد ليس له عَمَل إلا شتْم أعراضنا وعيْبنا ! قال : فأتاه أبو هريرة ، فقال : يا عبادة ، ما لك ولمعاوية ؟ ذَرْهُ وما حُمِّل . فقال : لم تكن معنا إذ بايعْنا على السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وألا يأخذنا في الله لومة لائم . فسكت أبو هريرة ، وكتب فلانٌ إلى عثمان : إن عبادة قد أفْسَدَ عليَّ الشام[٤].

أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

عن محمد بن كعب قال : كان أبو أيوب يُخالف مروان ، فقال : ما يحملك على هذا ؟ قال : إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي الصلوات ، فإن وافقْتَهُ ، وافقْناك ، وإن خالفتَهُ خالفْناك[٥].

---

(١) أي ليلة العقبة .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي .

(٣) القطارة والقطار : أن تشد الإبل على نَسَقٍ ، واحد خلف واحد .

(٤) السير ٢/٩ – ١٠ .

(٥) رجاله ثقات . أخرجه الطبراني (٣٩٩٣) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر قال : أعرستُ ، فدعا أبي الناس ، فيهم أبو أيوب ، وقد ستروا بيتي بجُنادِيّ أخضر ، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسَهُ ، فنظر فإذا البيت مُستَّر ، فقال : يا عبد الله ، تسترون الجُدُر ؟ فقال أبي : واسْتَحْيا : غلبنا النساءُ يا أبا أيوب . فقال : مَنْ خشيتُ أن تغلِبَه النساء ، فلم أخشَ أن يغلِبْنَك ، لا أدخُل لكم بيتًا ، ولا آكُلُ لكم طعامًا[1] .

أبو هريرة رضي الله عنه :

« قام أبو هريرة – رضي الله عنه – إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة ، فقال له : أتظلُّ عند ابنة فلان تُروِّحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد ، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحَرِّ ! لقد هممتُ أن أفعل وأفعل . ثم قال : اسمعوا من أميركم »[2] .

أبو ذَرّ رضي الله عنه :

عن الأوزاعي : حدثني أبو كثير ، عن أبيه ، قال : أتيتُ أبا ذرّ وهو جالس عند الجمرة الوُسطى ، وقد اجتمع الناسُ عليه يَستفتونَه ، فأتاه رجل ، فوقف عليه ، فقال : ألم يَنْهَك أميرُ المؤمنين عن الفُتيا ؟ فرفع رأسه ، ثم قال : أرقيب أنت عليَّ ! لو وضعْتُم الصَّمْصَامَة على هذه – وأشار بيده إلى قفاه – ثم ظننتُ أني أُنْفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عَليَّ لأنْفَذْتُها[3] .

---

(١) إسناده قوي . أخرجه الطبراني (٣٨٥٣) والذهبي في السير ٢/٤٠٨ – ٤٠٩ . والجنادي : هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران .

(٢) العقد الفريد ١/٥٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٦٤ .

صحابي يقتُل مَنْ سبَّتِ النبي ﷺ :

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن أعمى كانت له أُمّ وَلَدٍ تشتم النبي ﷺ وتقع فيه ، فينهاها فلا تنتهي ، ويزجُرها فلا تنزجر . قال : فلمّا كانت ذات ليلة ، جعلتْ تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْوَل[١] فوَضَعَه في بطنها ، واتّكأَ عليها فقتلها ، فوقع بين رِجْلَيْها طفل ، فلطَّختْ ما هناك بالدم ، فلمَّا أصبح ، ذُكر لرسول الله ﷺ ، فجَمَعَ الناس فقال : « أنشد الله رجلًا فَعَلَ ما فعلَ ، لي عليه حقٌّ ، إلَّا قام » . فقام الأعمى يتخطَّى الناس وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللُّؤْلُؤَتَيْن ، وكانت بي رفيقة ، فلمَّا كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتَّكأتُ عليها حتى قتلتها ، فقال النبي ﷺ : « ألا اشهدوا أن دَمَها هَدْرٌ »[٢] .

وعند ابن سعد عن عبد الله بن معقل : قال نزل ابنُ أمِّ مكتوم على يهوديّة بالمدينة كانت تَرْفُقه وتؤذيه في النبي ﷺ ، فتناولها فضربها فقتلها ، فرُفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال : أما والله إن كانت لترفقني ، ولكن آذتني في الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « أبعدها فقد أبطلتُ دمها »[٣].

ابن عباس رضي الله عنهما يُفحم الخوارج :

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية ، خرج فريق كفّر عليًّا ومعاوية ، وجاءوا بأمور لم تكُن معروفةً من قبل ، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق ، ويكشف الشُّبهة .

---

(١) سيف قصير دقيق .

(٢) صحيح . أخرجه أبو داود والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٥١) وضعّفه في ضعيف أبي داود (٩٣٧) .

قال ابن عباس : دخلت عليهم وهم قائلون ، فإذا هم مسهمة وجوههم من السَّهر ، قد أثَّر السجودُ في جباههم ، كأن أيديهم ثفن الإبل (ثفن الإبل : ما يقع على الأرض من الإبل كالرُّكْبتين) ، عليهم قُمُص مُرَحَّضَة (المرحَّضة : المغسولة) ، فقالوا : ما جاء بك يابن عباس ؟ وما هذه الحُلَّة التي عليك ؟ قال : قلت : ما تعيبون من ذلك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنيّة . قال : ثم قرأتُ هذه الآية : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]، فقالوا : ما جاء بك ؟ قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأُبلّغكم عنهم ، وأُبلّغهم عنكم . فقال بعضهم : لا تُخاصموا قريشًا ، فإنَّ الله يقول : ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾. [الزخرف : ٥٨] ، فقال بعضهم : بلى فلنكلّمه . قال : فكلَّمني منهم رجلان أو ثلاثة . قال : قلت : ماذا نقمتم عليه ؟ قالوا : ثلاثًا . فقلت : ما هنَّ ؟ قالوا : حكَّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام : ٥٧]. قال : هذه واحدة ، وماذا أيضًا ؟ قالوا : فإنّه قاتل ، فلم يَسْبِ ، ولم يَغْنَم ، فلئن كانوا مؤمنين ، ما حلَّ قتالهم ، ولئن كانوا كافرين ، لقد حلّ قتالهم وسَبْيُهم . قال : قلت : وماذا أيضًا ؟ قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . قال : قلت : أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقُض قولكم هذا ، أترجعون ؟ قالوا : وما لنا لا نرجع !! قال : قلت : أمّا قولكم : « حكَّم الرجال في أمر الله » ، فإنَّ الله قال في كتابه : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ٩٥] . وقال في المرأة وزوجها : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ**

بَيْنِهِما فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] ، فصير الله ذلك إلى حُكم الرجال ، فناشدتكم الله ، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين ، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل ، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم ، وفي بضع امرأة ؟ قالوا : بلى ، هذا أفضل . قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأمّا قولكم : « قاتل ولم يَسْبِ ، ولم يغنم » ، أَتَسْبُون أُمّكم عائشة ؟! فإن قلتم : نَسبيها ، فنستحلَّ ما نستحلّ من غيرها . فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمّنا . فقد كفرتم ، فأنتم تردّدُون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟ قالوا : بلى . قال : وأمّا قولكم : « محا نفسه من إمرة المسلمين » ، فأنا آتيكم بمن ترضَوْن ، إنَّ نبي الله ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : « اكتب يا علي : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ، فقال أبو سفيان وسهيل ابن عمرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ، ما قاتلناك . قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا عليّ اكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو »(١) .

لقد كان ابن عباس بحرًا زخّارًا ، كشفَ الشُّبهة ودَحَضَها ، وأتى بالأدلة البيِّنة من الكتاب والسنة ، ولقد أثمرت جهودُه ، فرجع منهم عن باطلهم ألفان .

لله در ابن عباس من إمام .. ورضي الله عن تُرْجُمان القرآن وحبره .

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس ، كي يقارعوا أهل الباطل ، ويكشفوا عن شبهاتهم ، ويوضِّحوا الطريق الحق ، وفي الأمة بقيّة خير ، والله غالب على أمره ، ولا حَوْل ولا قوة إلّا بالله العظيم .

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ٢/١٨٧ .

أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ :

« قال عبد العزيز بن أبي بكرة أن أباه تزوّج امرأةً فماتت ، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها ، فقال : أنا أحقُّ بالصلاة عليها . قالوا : صدق صاحب رسول الله ﷺ . ثم إنه دخل القبر فدفعوه بعنفٍ ، فغُشي عليه ، فحُمِل إلى أهله ، فصرخ عليه عشرون من ابنٍ وبنتٍ ، وأنا أصغرهم ، فأفاق ، فقال : لا تصرخوا ، فوالله ما من نفسٍ تخرج أحبّ إليّ من نفسي . ففزع القوم ، وقالوا : لِمَ يا أبانا ؟ قال : إني أخشى أن أُدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بمعروفٍ ولا أنهى عن منكر ، وما خير يومئذٍ »[1] .

عامر بن عبد قيس راهب العرب :

مرّ - رحمه الله - في الرّحبة ، وإذا رجل يُظلَم ، فألقى رداءه ، وقال : لا أرى ذمَّة الله تخفَر وأنا حيّ . فاستنقذه .

ويُروى أن سبب إبعاده إلى الشام ، كوْنه أنكر وخلَّص هذا الذِّمِّي[2] .

وبعث إليه أمير البصرة : ما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إن لدى أبوابكم طُلّاب الحاجات ، فادعوهم واقضوا حاجاتهم ، ودعوا من لا حاجة له إليكم .

أُوَيْس القَرَني :

قال أُويس القرني لرجلٍ من مراد : يا أخا مراد ، إن الموت وذكْره لم يَدَع لمؤمنٍ فرحًا ، وإن عِلْمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضةً ولا ذهبًا ، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقًا[3] .

---

(١) معجم الطبراني ، وتاريخ ابن عساكر ١٧/٣١٩/ب ، ٣٢٠/أ ، والسير ٣/٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/١٨ .
(٣) حلية الأولياء ٢/٨٣ .

عبد الله بن مُحيريز بن جُنادة :

كان من العلماء العاملين ، ومن سادة التابعين .

قيل : إنه رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّة خزٍّ ، فقال : أتلبس الخز ؟ قال : إنما ألبس لهؤلاء . وأشار إلى الخليفة ، فغضب وقال : ما ينبغي أن يعدل خوفك من الله بأحدٍ من خلْقه[١] .

رحم الله ابن محيريز الذي قال فيه الأوزاعي : من كان مقتديًا ، فليقتدِ بمثل ابن محيريز ، إن الله لم يكن ليُضلّ أمةً فيها ابن محيريز . وقال رجاء بن حَيْوَة : بقاء ابن محيريز ، أمان للناس.

أبو مسلم الخوْلاني ومعاوية :

« السلام عليك أيها الأجير » :

أتى أبو مسلم الخولاني إلى معاوية بن أبي سفيان ، فقام بين السِّماطيْن ، فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقال مَن عنده : أبا مسلم ، السلام عليك أيها الأمير . فقال أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يريد . فقال : اعلم أنه ليس من أجير استُرعي رعيَّة إلّا ربُّ الرعية سائله عنها ، فإن داوى مرضاها وجبر كسراها ، وهَنَأ جرباها ، ورد أُولاها على أُخراها ، ووضعها في أُنُف من الكَلَأ وصفْو من الماء ؛ وفَّاه أجره ، وإن كان لم يُداو مرضاها ، ولم يَهْنأ جرباها ، ولم يجبُر كسراها ، ولم يرد أولاها على أخراها ، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء ؛ لم يُؤته أجرها ، فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك . فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا مسلم[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي .

رحم الله ريحانةَ الشام عبد الله بن ثُوَب أبا مسلم الخولاني .

وحبس معاوية بن أبي سفيان العطاء يومًا (العطاء : مرتبات ثابتة لجميع أفراد الشعب تُؤدَّى لهم من بيت المال) فلما صَعِد المنبر ، قام إليه أبو مسلم الخولاني وقال : لم حبستَ العطاء يا معاوية ؟ إنه ليس من كَدّك ولا كد أبيك ولا كد أمك حتى تحبس . فغضب معاوية غضبًا شديدًا ونزل عن المنبر ، وقال للناس : مكانَكم . وغاب عن أعينهم ساعةً ، ثم عاد إليهم فقال : إنَّ أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغضب من الشيطان ، والشيطان خُلق من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليغتسل » ، وإني دخلت فاغتسلتُ ، وصدق أبو مسلم ، إنه ليس من كدي ولا كد أبي فهلُمُّوا إلى عطائكم .

فانظر رحمك الله إلى صدْع أبي مسلم بالحق ، وانظر إلى حلم خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه وقبوله ، وأين نحن من غُبار قدم معاوية ... من أقزام نصبوا أنفسهم آلهة ، يقولون فلا يُردّ قولهم .

هُبَل هبل .. رمز السخافة والخيانة والعمالة والدَّجَلْ
هتَّافة التهريج ما ملّوا الثناء .. زعموا له ما ليس عند الأنبياءْ
مَلَكٌ تَجَلْبَبَ بالضياء وجاء من كَبِد السماءْ
هو عالم ومعلِّم .. هو عبقريّ مُلهَم
ومن الجهالة ما قَتَلْ
وسعى القطيعْ غباوة يا للبطلْ
وثنٌ يقود جموعهم يا للخجلْ

سيّد التابعين سعيد بن المسيّب :

قال رحمه الله : لا تملئوا أعيُنكم من أعوان الظلمة إلّا بالإنكار من

قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم[١] .

وقال عبد الله بن جعفر : استعمل ابنُ الزبير جابرَ بنَ الأسود بن عوف الزهري على المدينة ، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير ، فقال سعيد بن المسيّب : لا ، حتى يجتمع الناس . فضربه ستين سوطًا ، فبلغ ذلك ابن الزبير ، فكتب إلى جابر يلومه ويقول : ما لنا ولسعيدٍ ، دَعْه[٢] .

لمّا ضرب سعيد بن المسيب ، صاح بجابر بن الأسود - وكان قد تزوج الخامسة قِبل انقضاء عدَّة الرابعة -: والله ما ربَّعْت على كتاب الله ، وإنك قد تزوّجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هي إلا ليالٍ ، فاصنع ما بدا لك ، فسوف يأتيك ما تكره . فما مكث إلا يسيرًا حتى قتل ابن الزبير .

وعقد عبد الملك لابنَيْه الوليد وسليمان بالعهد ، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدة ، وعاملُه يومئذٍ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي ، فدعا الناس إلى البيعة ، فبايعوا ، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما وقال : لا أُبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار . فقيل : ادخل واخرج من الباب الآخر . قال : والله لا يقتدي بي أحد من الناس . فضربه هشام ستين سوطًا ، وطاف به في تبّان من شَعر وسجنوه ، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ويقول : سعيد ! كان والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه .

وقيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجّاج لا يبعث إليك ، ولا يحرّكك ولا يُؤذيك ؟ قال : والله ما أدري ، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد ، فصلى صلاةً لا يُتمّ ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفًّا من حَصًى فحَصَبْتُه بها . زعم أن الحجاج قال : ما زلت بعدُ أُحسن الصلاة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣٢/٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ١٢٢/٧ ، ١٢٣ .

وفي الطبقات لابن سعد : (٥/٣٠) : عن ميمون بن مهران ، قال : قدم عبد الملك بن مروان المدينة ، فامتنعت من القائلة ، واستيقظ ، فقال لحاجبه : انظر ، هل في المسجد أحد من حُدَّاثنا . فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقته ، فقام حيث ينظر إليه ، ثم غمزه وأشار بإصبعه ، ثم ولَّى ، فلم يتحرَّك سعيد ، فقال:لا أراه فَطِن . فجاء ودنا منه ، ثم غمزه وقال : ألم ترني أُشير إليك ؟ قال : وما حاجتك ؟ قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : إليّ أرسلك ؟ قال : لا ، ولكن قال : انظر بعض حُدَّاثنا . فلم أرَ أحـدًا أهْيَأَ منك . قال : اذهب فأعلمه أني لست من حُدّاثه . فخـرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا . وذهب فأخبـر عبد الملك ، فقال : ذاك سعيد بن المسيب ، فدَعْه .

فـلله درّه من إمام في عزَّة نفسه وصدْعه بالحق .

جهْبِذ العلماء الشهيد سعيد بن جبير :

عن عمرو بن ميمون عن أبيه ، قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى عِلْمه .

« وقال سالم بن أبي حفصة : لما أُتي الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنا سعيد بن جبير . قال : أنت شقيّ بن كسير ، لأقتُلَنَّك . قال : فإذن أنا كما سمّتني أُمّي . ثم قال : دعوني أصلي ركعتين . قال : وجِّهوه إلى قبلة النصارى . قال : ﴿ **فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾ [البقرة : ١١٥]، وقال : إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم . قال : وما عاذت به ؟ قال : قالت ﴿ **إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ [مريم : ١٨] .

قال ابن عيينة : لم يقْتَل بعد سعيد إلّا رجلًا واحدًا »[١].

وجعل الحجاج يقول بعد قتله : ما لي ولسعيد بن جبير .

---

(١) الحلية ٤/٢٩٠ ، والسير ٤/٣٣٨ .

وعن خلف بن خليفة ، عن أبيه قال : شهدتُ مقتل سعيد بن جبير ، فلمّا بان رأسه قال : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . ولم يُتمّ الثالثة .

قال سليمان التيمي : كان الشعبي يرى التَّقِيَّة ، وكان ابن جبير لا يرى التقية ؛ وكان الحجاج إذا أُتي بالرجل - يعني ممن قام عليه - قال له : أكفرتَ بخروجك عليّ ؟ فإن قال : نعم . خلّى سبيلَهُ . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلةٍ أقتلك . قال : اختر أنت ، فإن القصاص أمامك[1] .

« وعن داود بن أبي هند قال : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولًا ، وسأُخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعوْنا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادةَ ، فكلا صاحبَيَّ رُزِقها ، وأنا أنتظرها . قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء »[2].

قال الذهبي : « قلتُ : ولمّا علم من فضل الشهادة ، ثَبَت للقتل ولم يكترث ، ولا عامل عدوَّه بالتَّقِيَّة المباحة له ، رحمه الله »[2].

قال ابن كثير : « عن سالم بن أبي حفصة قال : لما أُتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ، إنما أنا سعيد ابن جبير . قال : لأقتلنك . قال : أنا إذن كما سمَّتني أُمي سعيدًا . قال : شقيتَ وشقيتْ أُمُّك . قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه . فقال : دعوني أصلي ركعتين ».

« وفي رواية أنه قال له : لأبدلنّك بالدنيا نارًا تلظّى . قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتّخذتُك إلهًا . وفي رواية أنه لما أراد قتْله قال : وجّهوه إلى قِبلة النصارى . فقال : ﴿ **فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾. فقال : اجلدوا

---

(١) السير ٤/٣٣٨ .

(٢) السير ٤/٣٤٠ .

به الأرض . فقال : ﴿ **منها خلقناكـم وفيها نُعيدكـم ومنها نُخرجكم تارةً أخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم . فقال : اللهم لا تُسلِّطه على أحدٍ بعدي .

وقد ذكر أبو نعيم هنا كلامًا كثيرًا في مقتل سعيد بن جبير ، أحسنهُ هذا والله أعلم » .

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : « قال له الحجاج : ويلك . فقال : الويل لمن زُحزح عن الجنة وأُدخل النار . فقال : اضربوا عنقه . فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أستحفظُك بها حتى ألقاك يوم القيامة ، فأنا خصمك عند الله . فذُبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة ، اقصم الحجاج . فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود ، فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجّاج لمّا أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك عليّ وحلم الله عنك » .

قال ابن كثير : « لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير ؟ »[١] .

قال رسول الله ﷺ : « أَحَبُّ الجهاد إلى الله كلمة حقٍّ تُقال لإمام جائر »[٢] .

وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[٣] .

---

(١) البداية والنهاية ٩/١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٣ .

(٢) حسن . رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٨) .

(٣) صحيح . رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وأحمد وابن ماجه والطبراني في =

وقال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر »[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : « سيّد الشهداء حمزة ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ ، فأمره ونهاه ، فقتَلَه »[(٢)].

الأوزاعي ، عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام رحمه الله :

قال الأوزاعي : رأيت كأن مَلَكيْن عرجا بِي ، وأوقفاني بين يدي ربِّ العزة ، فقال لي : أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف ؟ فقلت : بعزّتك أنت أعلم . قال : فهبطا بي حتى ردّاني إلى مكاني . رواها عبد الله بن أحمد ، عن الحسن بن عبد العزيز ، عنه[(٣)].

قال أحمد بن الغمر : لما جلَّت المحنة التي نزلت بالأوزاعي ، لمّا نزل عبد الله بن علي حماة ، بعثَ إليه فأُشخص . قال : فنزل على ثور بن يزيد الحمصي . قال الأوزاعي : فلم يزل ثور يتكلّم في القدر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر وأنا ساكت ما أجابه بحرف ، فلمّا انفجر الفجر صليتُ ، ثم أتيت حماة ، فأُدخلت على عبد الله بن علي فقال : يا أوزاعي ،

= الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أُمامة ، وأحمد والنسائي والبيهقي في شعب الإيمان عن طارق بن شهاب ، وأبو داود والحميدي والحاكم عن أبي سعيد ، والروياني وابن عدي عن أبي أمامة ، والضياء عن طارق ، والعقيلي عن جابر ، والحاكم عن عمير بن قتادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٠٠) .

(١) صحيح . رواه الترمذي عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٤٩١) وصحيح الجامع رقم (٢٢٠٩) .

(٢) حسن . رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٣٧٤) وصحيح الجامع رقم (٣٦٧٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١١٨/٧ .

أيعدُّ مقامنا هنا ومسيرنا رباطًا ؟ فقلت : جاءت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله » . قال : فنكت بالخيزرانة نكْتًا هو أشدّ من نكْت الأوَّل ، وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت : جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه « لا يحلّ دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث » الحديث . فنكتَ بالخَيْزُرَانَة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في أموال بني أمية ؟ فقلت : إنْ كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام ، وإن كانت لهم حلالًا فما أحلَّها الله لك إلا بحقّها . قال : فنكت بالخيزرانة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مليًّا ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، هممتُ أن أُولِّيك القضاء . فقلت : أصلح الله الأمير ، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك ، وكانوا بحقي عارفين ، فإن رأى الأمير أن يستتمّ ما ابتدأه آباؤه فليفعل . قال : كأنك تريد الإذن ؟ فقلت : إن ورائي لحرمًا بهم حاجة إلى قيامي بهم وستْري لهم . قال : فذلك لك . قال : فخرجت ، فركبت دابّتي وانصرفت ، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلّا وعثمان على البريد . قال : قلت : بدا للرجل فيّ . فقال : إن الأمير غفل عن جائزتك ، وقد بعث لك بمائتي دينار . قال أحمد : قال ابن أبي العشرين : فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرّقها في الأيتام والأرامل والفقراء ، ثم وضع الرسائل في ردّ ما سمع من ثور بن يزيد في القدر[1].

ولقد وصفَ الأوزاعي مجلس عبد الله بن علي لحظةَ دخوله ، فقال رحمه الله : « دخلت أتخطَّى القتلى » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٠/٤٨ب/ ٤٩أ ، وسير أعلام النبلاء ٧/١٢٢ - ١٢٣ .

وفي رواية : « سألني والمسودة قيامٌ على رؤوسنا بالكافر كوبات »[١] .

وفي رواية أخرى : « دخلتُ عليه فرأيت الرجال وقوفا بين يديه بالسيوف ، فلمّا رأيت ذلك لم أشكّ إلا وأنا مقتول »[٢] .

وفي رواية : « لما فرغ عبد الله بن علي - يعني عمّ السفّاح - من قتْل بني أمية ، بعث إليّ ، وكان قتل يومئذ نيِّفًا وسبعين منهم بالكافر كوبات ، فدخلت عليه »[٣] .

وفي رواية : « فنكس رأسه ونكستُ ، فأطلت ، ثم قلت : البول . فأشار بيده : اذهب . فقمت ، فجعلت لا أخطو خطوة إلَّا قلت : إن رأسي يقع عندها » .

وفي رواية : « قلت : لأصدقنّه ، واستبسلتُ[٤] للموت » .

قال الذهبي في السير (١٢٥/٧) : « قد كان عبد الله بن علي ملكا جبّارًا ، سفّاكا للدماء ، صعب المِراس ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمُرِّ الحق كما ترى ، لا كخلْقٍ من علماء السوء ، الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسْف ، ويقلبون لهم الباطل حقًّا - قاتلهم الله - أو يسكتون مع القُدْرة على بيان الحق » .

قال محمد بن عمر التنوخيّ : « كتب المنصور إلى الأوزاعي : أما بعد ... فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ، ما جعل اللَّهُ لرعيَّته قِبَلَك في عنقه ، فاكتب إليَّ بما رأيتَ فيه المصلحة مما أحببتَ .

---

(١) المقارع . مفردها : الكافر كوب . أي : المقرعة .
(٢) من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي .
(٣) السير ١٢٣/٧ - ١٢٤ .
(٤) أبسل نفسه للموت ، واستبسل : إذا وطّن نفسه عليه ، واستيقن .

فكتب إليه : أمّا بعد .. فعليك بتقوى الله ، وتواضَعْ يرفعك الله يوم يضع المتكبِّرين في الأرض بغير الحق ، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عِظمًا ، ولا طاعته إلا وجوبًا »[1] .

الأوزاعي والمنصور :

« خذ لنفسك الأمان من ربك » :

يقول الأوزاعي : بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام ، فأتيتُه ، فلما وصلت إليه وسلّمت عليه بالخلافة ، ردَّ عليّ واستجلسني ثم قال : ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم . قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به . فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثُوبة لا مجلس عقوبة . فطابتْ نفسي وانبسطتُ في الكلام فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما عبد جاءتْه موعظةٌ من الله في دينه ، فإنها نعمة من الله سِيقت إليه ، فإن قَبِلَها بشكرٍ ، وإلا كانت حجَّة من الله عليه » يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما والٍ بات غاشًا لرعيَّته ، حرَّم الله عليه الجنة » . يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدْشٍ خَدَشَهُ أعرابيًّا لم يتعمَّده ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّارًا متكبِّرًا . فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : « اقتصّ مني » . فقال الأعرابي : قد أحللتُك بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيتَ على نفسي . فدعا له بخيرٍ . يا أمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك ، وخُذ لها الأمان من ربّك . يا أمير المؤمنين ، إن المُلك لو بقي لمن قبلك ، لم يصل إليك ، وكذا لا يبقَى لك كما لَمْ يبقَ لغيرك . يا أمير المؤمنين ، جاء في

---

(١) السير ١٢٥/٧ .

تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ - ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ [الكهف : ٤٩] قال : « الصغيرة التَّبسُّم ، والكبيرة الضَّحك » . فكيف بما عملته الأيدي وحصدتْه الألسن . يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عمر بن الخطاب قال : لو ماتت سَخْلَةٌ على شاطىء الفرات ضيعةً ، لخشيت أن أُسأل عنها . فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك . يا أمير المؤمنين ، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى** ﴾ [صٓ : ٢٦]، قال : يا داود ، أقْعِد الخصمين بين يديك ، وإن كان لك في أحدهما هوًى فلا تَمَنَّيَنَّ في نفسك أن يكون الحق له ، فيفلُج على صاحبه ، فأمحوك من نبوّتي ثم لا تكون خليفتي . يا داود ، جعلتُ رسلي إلى عبادي رِعاء كرعاء الإبل ، لعِلْمهم بالرَّعِيَّة ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ويِكْلَئُوا الهزيل على الكلأ والماء . يا أمير المؤمنين ، استعمل عمر بن الخطاب رجلًا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيمًا ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ، أما علمتَ أن لك مِثْل أجر المجاهد في سبيل الله ؟ قال : لا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال : « ما من والٍ يلي شيئًا من أمور المسلمين ، إلا أُتي به يوم القيامة مغلولًا، يده إلى عنقه على جسرٍ في النار ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضةً ، يزيل كلّ عضوٍ منه عن موضعه ، ثم يُعاد فيُحاسَب ، فإن كان محسنًا نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئًا انْخرقَ به ذلك الجسر ، فهوى به في النار سبعين خريفًا » . فقال له : ممن سمعتَ هذا ؟ فقال : من أبي ذر وسلمان . فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر : واعمراه ، من يتولّاها بما فيها . فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه ، ثم بكى وانْتَحَب حتى أبكاني .

يقول الأوزاعي : ثم قلت للمنصور : يا أمير المؤمنين ، قد سأل جدُّك العباسُ النبيَّ ﷺ إمارة مكة والطائف أو اليمن ، فقال له النبي ﷺ :

« يا عمّ ، نَفْسٌ تُنجيها ، خيرٌ من إمارة لا تُحصيها » . نصيحة منه لعمه وشفقةً منه عليه ، وأنه لا يُغني عنه من الله شيئًا ، إذ أوحى الله إليه : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : « يا عباس ويا صفية ويا فاطمة ، إني لست أُغني عنكم من الله شيئًا ، لي عملي ولكم عملكم » .

وقد قال عمر بن الخطاب : لا يُقيم أمر الناس إلا حصيف العقل ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وقال : السلطان أربعة أمراء ؛ فأمير ظَلَفَ نفسَه وعُمّالَه ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله عليه باسِطة بالرحمة . وأمير ضعيف ظلفَ نفسَه وأرْتَعَ عمالَه بضعفه ، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله . وأمير ظلفَ عمالَه وأرتع نفسه ، فذلك الذي قال رسول الله ﷺ : « شرُّ الرِّعاة الحُطَمَة » ، فهو الهالك وحده . وأمير أرتع نَفسَه وعمالَه ، فهلكوا جميعًا . وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : أتيتُك حين أمر الله بمنافيخ النار ، فوُضِعتْ على النار تسعر ليوم القيامة . فقال له : « جبريل ، صف لي النار » . فقال : إن الله عز وجل أمر بها فأُوقِد عليها ألف عام حتى احمرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اصفرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اسودَّت ، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يَطفأ جمرها . والذي بعثك بالحق ، لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أُظهر لأهل الأرض ، لماتوا جميعًا . ولو أن ذَنُوبًا من شرابها صُبّ في ماء الأرض جميعًا ، لقتل مَن ذاقه . ولو أن ذراعًا من السّلسلة التي ذكر الله ، وُضِع على جبال الأَرْض جميعًا ، لذابتْ وما استقرَّتْ ، ولو أَنَّ رجلًا أُدْخِل النَّارَ ، ثم أُخْرج منها لَمَاتَ أَهْلُ الأرض من نَتَن ريحهْ وتشويه خلقه . فبكى النبي ﷺ ، وبكى جبريل لبكائه وقال : أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ! ولم بكيتَ يا جبريل وأنت الروح الأمين ؟ » فقال : أخاف أن أُبتلى بما ابتُلي به هاروت وماروت .

يا أمير المؤمنين ، إن أشدّ الشّدّة القيام لله بحقه ، وإن أكرمَ الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزّه ، ومن طلبه بمعصية الله أذلَّه الله ووضعه ، فهي نصيحتي ، والسلام عليك . ثم نهضتُ فقال : إلى أين ؟ قلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ، إن شاء الله . قال : فقد أذنتُ لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها بقبولها ، والله الموفِّق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين وعليه أتوكّل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها ، فإنك المقبول القول غير المتّهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمالٍ يستعين به على خروجه ، فلم يقبله وقال : لنا في ذلك غِنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه ، فلم يَجِد عليه في ردِّه[(١)].

« قال عبد الحميد بن حبيب : لما سوّينا على الأوزاعي تراب قبره ، قام والي الساحل عند رأسه فقال : رحمك الله أبا عمرو ، فوالله لقد كنت لك أشدّ تقية من الذي ولّاني ، فمن ظُلم بعدك فليصبر »[(٢)].

الثوري ، إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال يحيى بن يمان : سمعت سفيان يقول : إني لأرى المنكر ، فلا أتكلّم ، فأبول أكدمَ دمًا[(٣)].

وقال يحيى بن يمان : لقيت سفيان عند بني فزارة فقال : تدري من **أين جئت ؟ قلت : لا . قال : مررت بدار الصّيْدنانيين[(٤)] فنهيتُهم عن بيع الدّاذي**

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين . تأليف:أحمد رضوان أبو الخير ، نقلًا عن « المصباح المضيء » لابن الجوزي .

(٢) الجرح والتعديل ٢٠٧/١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٥٩/٧ .

(٤) الصَّيْدنانِيُّون والصّيْدلانيّون لغتان بمعنى واحد . والداذي ، ويقال:الذآذي : حَبّ يُوضع الرَّطل منه في فرقٍ من الماء فيكون مُسكرًا .

وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى ، فأبول دمًا[١].

رحمك الله يا سفيان ، أين من غبار نعلك علماء السوء وقُرّاء السوء ، الذين قال فيهم نبينا ﷺ : « أكثر منافقي أُمّتي قُرّاؤها »[٢]. وفيهم يقول القائل :

شيَّخَ الشيخَ بياضُ الشَّعْر ... وهْو للأطفالِ مِثْل السُّخْر

* * *

وَجْهه للحانِ ولَّى شيخُنا ... يا رفاقي بعدُ ما تدبيرُنا

أو كما يقول القائل :

يُرمرِمُ مِن فُتات الكُفرِ قُوتًا ... ويَلْعَق من كؤوسهم الثُّمالَهْ

يُقبِّل راحة الطّاغُوتِ حِينًا ... ويَلْثِم دونما خَجَلٍ نِعَالَهْ

قال عبد الرزاق : قدمنا مكة ، وقدمها الذي يُقال له : المهدي ، فحضرتُ الثوريَّ وقد خرج من عنده وهو مغضب ، فقال : أُدخلت آنفًا على ابن أبي جعفر فقال لي : يا أبا عبد الله ، طلبناك فأعجزتنا ، فأمكننا الله منك في أحبّ المواضع إليه ، فارفع إلينا حوائجك . قال : فقلت : وأي حاجةٍ تكون لي إليك ؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا . فقال لي أبو عبيد الله : يا أبا عبد الله . لا تُكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين . فقلت : ما لي إليه من حاجة ، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد أن عمر بن الخطاب حجَّ فقال لصاحب نفقته : كم أنفقنا في حجِّنا هذا ؟ قال : اثنا عشر دينارًا . قال : أكْثَرْنا أكثرنا . أو قال :

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/١٢٤ .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير ، عن عقبة بن عامر ، والطبراني وابن عدي ، عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) .

أسرفْنا أسرفنا . وعلى أَبْوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الرّاسيات . قال : فقال لي ابن أبي جعفر : يا أبا عبد الله ، أفرأيت إن لم أقدر أن أُوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه ، فما أصنع ؟ قال : تفرّ بدينك وتَلْزَم بيتك ، وتترك الأمر إلى من يقدر أن يُوصل إلى كل ذي حق حقه . قال : فسكت ، وقال لي أبو عبيد الله : أراك تكثر الفضول ، إن كانت لك حاجة فاطلبها ، وإلّا فانصرف . قال : فانصرفت[١].

وعن سفيان أنه أُخذ في المسجد الحرام ، فأُدخل على أبي هارون وهو في إزار ورداء والنعلان في يده . قال : فلمّا دخلتُ سلَّمت وقعدت ، فقال أبو عبيد الله : إني أظن أن له رأي سوء - يعني رأي الخوارج -. فقلت لأبي هارون : من هذا ؟ قال : هذا معاوية بن عُبيد الله . فقلت له : احذر هذا وأصحابه .

قال إبراهيم بن أعين البجلي : كنت مع سفيان الثوري والأوزاعي وإسحاق بن القاسم الأشعثيّ بمكة ، فدخل علينا عبد الصمد بن علي - وهو أمير مكة - عند المغرب وسفيان يتوضّأ وأنا أصبّ عليه ، وهو يتوضأ كأنه بطة وهو يقول : لا تنظروا إليّ فإني مُبتَلى . فيدخل البيت الذي فيه الأوزاعي فسلّم ، ثم أتى عبد الصمد بن علي فسمعت الأوزاعي يقول : مرحبًا مرحبًا . ثم جاء فسلّم على سفيان ، فقال له سفيان : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الصمد . فقال له : كيف أنت ، اتق الله ، اتق الله ، إذا كَبَّرت فأسمعْ[٢].

---

(١) الجرح والتعديل ١/١١٠ - ١١١ .
(٢) الجرح والتعديل ١/١١١ - ١١٢ .

وقال أبو رجاء : طُلِب سفيان حتى أُدخل على أبي جعفر ، والمهدي قائم على رأسه ، فدخل سفيان وسلّم ، ثم دنا من البساط فنحّاه برِجله وجلس . قال : فقال المهدي : يا أبا عبد الله ، حدِّث أمير المؤمنين بشيءٍ ينفعه الله عز وجلّ به . قال : إن سألتمونا عن شيءٍ عِلْمُ ذلك عندنا ، أخبرناكم . فأعاد عليه ، فقال : إني لست بقاصٍّ . ثم قال : حدّثنا أيمن ابن نابل ، عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار على ناقةٍ صَهْباء من بطن الوادي ، بلا ضَرْبٍ ولا طَرْد ، ولا إليك إليك . ثم قال المهدي : حدِّث أمير المؤمنين بشيء ينفعه الله عز وجلّ به . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعاد إرَمَ ذات العماد** ﴾ قرأ إلى قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ١٤] ، ثم قال بيده على خصره : بي بول بي بول . ثم قطعَ .

وقال عبد الصمد بن حسان : قال سفيان الثوري : إني أُدخلت على المهدي ، فقلتُ له : انظر إلى عمر بن الخطاب . فقال : عمر كان له أصحاب . فقلت : فعمر بن عبد العزيز ، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه ، فما تكلّم بشيءٍ إلا صار سُنَّة . فقال : إن لم أُطِق ؟ فقلت : اجلس في بيتك .

وقال عبد الرزاق : كان رجل صَحِب الثوري - يقال له : يوسف - إلى صنعاء ، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر ، فقال له الثوري : ويحك يا يوسف ، شحطوك بغير سكينٍ ، كيف إذا قيل يوم القيامة : أين أبو جعفر وأتباعه ؟ قُمتَ فيهم[١] .

وعن يحيى بن أبي غُنَيّة قال : ما رأيت رجلًا قطُّ أصفَق وجهًا في الله

(١) الجرح والتعديل ١/١١٢ - ١١٤ .

عز وجلَّ من سفيان الثوري[١].

قال الذهبي في السير (٧/٢٥٩) : « قال شجاع بن الوليد : كنت أحجّ مع سفيان ، فما يكاد لسانه يفتُر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذاهبًا وراجعًا » .

عن مفضل بن مهلهل قال : حججت مع سفيَان ، فوافَيْنا بمكة الأوزاعي ، فاجتمعنا في دارٍ ، وكان على الموسم عبد الصمد بن علي ، فدقَّ داقٌّ الباب ، قلنا : من ذا ؟ قال : الأمير . فقام الثوري ، فدخل المخرج ، وقام الأوزاعي فتلقّاه ، فقال له : من أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا الأوزاعي . قال : حيّاك الله بالسلام ، أما إن كتبك كانت تأتينا فنقضي حوائجك ، ما فعل سفيان ؟ قال : فقلت : دخل المخرج . قال : فدخل الأوزاعي في إثره ، فقال : إن هذا الرجل ما قصد إلا قصْدك . فخرج سفيان مقطّبًا ، فقال : سلام عليكم ، كيف أنتم ؟ فقال له عبد الصمد : أتيتُ أكتب عنك هذه المناسك . قال : أَوَلا أدلّك على ما هو أنفع لك منها ؟ قال : وما هو ؟ قال : تدع ما أنت فيه . قال : وكيف أصنع بأمير المؤمنين ؟ قال : إنْ أردتَ كفاك الله أبا جعفر . فقال له الأوزاعي : يا أبا عبد الله ، إن هؤلاء ليس يرضون منك إلا الإعظام لهم . فقال : يا أبا عمرو ، إنا لسنا نقدر أن نضربهم وإنما نؤدِّبهم بمثل هذا الذي ترى . قال مفضل : فالتفت إليّ الأوزاعي فقال لي : قم بنا من هاهنا ، فإني لا آمن أن يبعث هذا من يضعُ في رقابنا حبالًا ، وإن هذا لا يبالي[٢].

وعن عطاء بن مسلم قال : لما استُخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلمّا دخل عليه ، خلعَ خاتمه ، فرمى به إليه ، وقال : يا أبا عبد الله ، هذا

---

(١) الجرح والتعديل ١/١٠٨ .

(٢) الحلية ٧/٣٩ .

خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة . فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قلت لعطاء : قال له : يا أمير المؤمنين ؟! قال : نعم . قال : أتكلَّم على أني آمن ؟ قال : نعم . قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، ولا تُعطني حتى أسألك . قال : فغضب ، وهمّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنْتَه ؟ قال : بلى . فلما خرج ، حفّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ؟ وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة ؟! فاستصغر عقولهم ، وخرج هاربًا إلى البصرة[1] .

ويوضح هذا الموقف ما يأتي :

قال الثوري : قال لي المهدي : أبا عبد الله ، اصحبني حتى أسير فيكم سيرة العُمَرَيْن . قال : قلت : أمّا وهؤلاء جلساؤك ، فلا . قال : فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها . قال سفيان : والله ما كتبت إليك كتابًا قطُّ .

قال يحيى بن يمان : وقال لي سفيان : إن اقتصرتَ على خبزك وبقلك ، لم يستعبِدْك هؤلاء[2] .

قال وزير المهدي أبو عبيد الله : ما أعلَقْنا مخالِيَنا هذه في عنق أحدٍ ، إلا قضم منها ، إلا الثوري .

وقال محمد بن عصام بن يزيد : سمعت أبي يقول : أرسلني سفيان إلى المهدي بكتابه ، بأن نأخذ له الأمان منه ، فدخلت على المهدي ، فقال لي فيما يقول : لو جاءنا أبو عبد الله ، لكنّا نتَّزِر بإزارٍ ، ونرتدي بآخر ، ونضع أيدينا في يده ونخرج إلى السوق ، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . فلما رجعتُ قلتُ : لأي شيءٍ تهرب منه ، وهو يقول : لو جاء ، لخرجت

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٢/٧ .

(٢) الحلية ٣٧٨/٦ .

معه إلى السوق فأمرنا ونهينا ؟! فقال : يا ناعس ! حتى يعمل بما يعلم ، فإذا فَعَل ، لم يسعنا إلا أن نذهب ، فنعلِّمه ما لا يعلم . قال عصام : فكتب معي سفيان إلى المهدي ، وإلى وزيره أبي عبيد الله . قال : وأُدخلت عليه ، فجرى كلامي ، فقال : لو جاءنا أبو عبد الله ، لوضعْنا أيدينا في يده ، وارتدينا بُردًا ، واتّزرنا بآخر ، وخرجْنا إلى السوق ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، فإذا توارى عنا مثل أبي عبد الله ، لقد جاءني قُرّاؤكم الذين هم قراؤكم ، فأمروني ونهوني ووعظوني ، وبكوا - والله - لي ، وتباكيتُ لهم ، ثم لم يفجأني من أحدهم إلا أن أخرج من كُمِّه رُقعةً : أن افعل بي كذا ، وافعل بي كذا . ففعلتُ ، ومقتُّهم . قال : وإنما كتب إليه ؛ لأنه طال مهربُه ، أن يعطيه الأمان ، فأتيتُه فقدمتُ عليه البصرة بالأمان ، ثم مرض ومات[1] .

فانظر - رحمك الله - إلى علوّ فهم الثوري للأمر بالمعروف ، وهربه بعيدًا عن مجالس السلاطين والخلفاء ، حتى يعملوا بما عندهم من علمٍ ، وإلّا فلا .

أَخَذَه عبد الصمد فذهب به إلى المهدي وهو بمنى ، فلمّا رآه ، صاح بأعلى صوته : ما هذه الفساطيط ؟ ما هذه السُّرادِقات ؟![2] .

وعن سفيان قال : أُدخلت على المهدي بمنى ، فسلّمت عليه بالإمرة ، فقال : أيها الرجل ، طلبناك فأعجزْتَنا ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فارفع إلينا حاجتك . فقلت : قد ملأتَ الأرض ظلمًا وجورًا ، فاتّقِ الله ، وليكن منك في ذلك عبرة . فطأطأ رأسه ، ثم قال : أرأيت إن لم أستطع دفْعه ؟ قال : تُخلِّيه وغيرك . فطأطأ رأسه ، ثم قال : ارفع إلينا حاجتك . قلت :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٢٦٣ - ٢٦٤ ، والحلية ٧/٤٣ ، ٤٤ ، والجرح والتعديل .
(٢) السير ٧/٢٦٥ .

أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسانٍ بالباب ، فاتق الله ، وأوْصِل إليهم حقوقهم . فطأطأ رأسه ، فقال أبو عبيد الله : أيها الرجل ، ارفع إلينا حاجتك . قلت : وما أرفع ؟! حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال : حجّ عمر ، فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهمًا . وإني أرى هاهنا أمورًا لا تُطيقها الجبال[١].

رحم الله أمير المؤمنين وشيخ الإسلام وزين العُبّاد سفيان الثوري ... إن كان الرَّبّانيُّون يهابونه ، فكيف بملوك الدنيا .

قال ابن مهدي : « ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه »[٢].

« قال عبد الله بن المبارك : إن سفيان دخل على أبي جعفر ، فقال : حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك »[٣].... وأبو جعفر أبو جعفر في بطشه !! .

لله درُّك يا سفيان من إمام .

قال يحيى بن سعيد : أملى عليّ سفيان إلى المهدي : من سفيان بن سعيد إلى المهدي . فقلت له : لو بدأتَ به . قال : فأبى وقال : اكتب كما أقول . قال أبو الوليد[٤]: فاحتججتُ عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة ، وأنه بدأ بعثمان ، فقال : كان عثمان رجلًا صالحًا[٥].

قال يوسف بن أسباط : قال رجلٌ لسفيان الثوري : إني جعلتُ في

---

(١) ٢٦٤/٧ - ٢٦٥ .
(٢) السير ٢٦٧/٧ .
(٣) الجرح والتعديل ١١٢/١ .
(٤) الراوي عن يحيى بن سعيد .
(٥) الجرح والتعديل ١١٠/١ .

جدة في بناء يبنونه - يعني للسلطان -. قال : ألستَ تَمَنَّى بقاءهم إلى أن يُعطوك أجرك ؟ قال أبو محمد : يعني كم ظلمًا يُجري الله على أيديهم إلى أن تقبض أجرك .

والله لكأن الأمر بالمعروف في زماننا يبكي على سفيان ... لكثرة علماء السوء الذين فرطحوا نعالهم أمام أبواب الحُكّام ، ودَبَّجوا لهم فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان .

لقد مات سفيانٌ حميدًا مبرَّزًا ... على كلِّ قارٍ هجَّنَتْهُ المطامعُ
يَلُـوذُ بأبـواب الملـوكِ بِنِيَّةٍ ... مُبَهْرجَةٍ والزِّيُّ فيه التَّواضُعُ
يُشمِّرُ عن ساقيْهِ والرأسُ فوقَهُ ... مُبَرّكَةٌ[1] فيها اللَّصِيصُ المُخادِعُ
جُعِلتمْ فداءً للذي صان دِينَهُ ... وقرَّبَهُ حتى حوتْهُ المضاجـعُ
على غير ذنبٍ كان إلّا تَنَزُّهًا ... عن النَّاس حتى أدركتْهُ المَصارِعُ
بعيدٌ عن ابواب الملوك مُجانِبًا ... وإن طلبُوه لم تَنَلْهُ الأصابعُ

قال سفيان : إذا أثنى على الرجل جيرانُه أجمعون ، فهو رجل سوءٍ ؛ لأنه ربما رآهم يعصون ، فلا يُنكر ، ويلقاهم بِبشْرٍ[2].

جاء في كتاب « الذهب المسبوك في وعظ الملوك » : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأُتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره ، فلما دخل عليه سلّم ، ولم يسلِّم بالخلافة ، والربيع قائمٌ على رأسه ، متَّكئًا على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلْقٍ وقال له : يا سفيان تَفِرُّ هنا وهاهنا ، تظنّ أن لو أردناك بسوءٍ لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكُم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فيَّ يحكم فيك مَلِكٌ قادِر ، يفرق بين الحقّ والباطل . فقال الربيع له : يا أمير

---

(١) قلنسوة .

(٢) السير ٧/٢٧٨ .

المؤمنين ، أَلِهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه . فقال له المهدي : اسكت ، ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يُعترض عليه في حُكم . فكتب عهده ودفعه إليه ، فأخذه وخرج ، ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس ، فطُلب في كل بلدٍ فلم يُوجَد ، فعُيِّن مكانه شريك النَّخَعِي .

وجاء في كتاب « الإمامة والسياسة » : دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فأمره ونهاه ، فقال له أبو جعفر : ها هنا يا أبا عبد الله ، إلَيَّ إلَيَّ ، ادنُ مني . فقال : إني لا أطأُ ما لا أملك ولا تملك . فقال أبو جعفر : يا غلام ، ادْرُج البساطَ ، وارفع الوطاءَ . فتقدَّم سفيان فصار بين يديه وقعد ، ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فدمعت عينا أبي جعفر . ثم تكلَّم سفيان دون أن يستأذن ، فوعظَ وأمرَ وَنهَى وذكَّر ، وأغلظ في قوله ، فقال له الحاجب : أيها الرجل أنت مقتول . فقال سفيان : وإن كنت مقتولًا فالساعة . فسأله أبو جعفر عن مسألةٍ فأجابه ، ثم قال سفيان : فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقتَ من مال الله ومال أمة محمدٍ ﷺ بغير إذنهم ، قد قال عمر في حجّة حجها ، وقد أنفق ستة عشر دينارًا هو ومن معه : ما أرانا إلا وقد أجحفْنا ببيت المال . وعن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « ربَّ متخوضٍ في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدًا » . فقال أبو عبيدة الكاتبُ : أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟! فقال له سفيان : اسكت ، فإنما أهلكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ . ثم خرج سفيان ، فقال أبو عبيدة الكاتب : ألا تأمر بقتْل هذا الرجل ، فوالله ما أعلم أحدًا أحقّ بالقتل منه ؟ فقال أبو جعفر : اسكت ، فوالله ما بقي على الأرض أحدٌ - اليومَ - يُستحيا منه غير هذا ومالك بن أنس .

وذكر الإمام ابن بلبان والغزالي وغيرهما ، أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري ، فإنه لم يأتِه ، وكان بينه وبينه صُحبة ، فشقّ عليه ذلك ، فكتب إليه الرشيد كتابًا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين ، إلى أخيه في الله سفيان ابن سعيد الثوري : أما بعد يا أخي ، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين ، وقد آخيتُك في الله مؤاخاةً لم أصرِم فيها حَبْلَك ، ولم أقطع منها ودَّك ، وإني مُنْطوٍ لك على أفضل المحبة وأتمّ الإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلَّدنيها الله تعالى ، لأتيتُك ولو حبْوًا ؛ لما أجد لك في قلبي من المحبة ، وإنه لم يبق أحدٌ من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرتُ إليه ، وقد فتحتُ بيوت الأموال ، وأعطيتهم المواهب السَّنيَّة ، ما فرحتْ به نفسي ، وقرّتْ به عيني ، وقد استبطأتُك ، وقد كتبت كتابًا مني إليك أُعْلِمك بالشوق الشديد إليك ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومُواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعَجَلَ العَجلَ » .
ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني ، وأمره بإيصاله إليه ، وأن يُحصي عليه بسمْعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليُخبره . قال عباد : فانطلقتُ إلى الكوفة ، فوجدت سفيان في مسجده ، فلمَّا رآني على بُعدٍ قام ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارقٍ يطرق إلَّا بخيرٍ . قال : فنزلت عن فرسي بباب المسجد ، فقام يصلي و لم يكن وقت صلاة ، فدخلت وسلّمت ، فما رفع أحدٌ من جلسائه رأسه . إلى أن قال : فبقيتُ واقفًا ، وما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس ، وقد علتْني من هيبتهم الرِّعْدَة ، فرميتُ بالكتاب إليه ، فلمّا رأى الكتاب ، ارتعدَ وتباعدَ منه كأنه حيَّة عرضتْ له في محرابه ، فركع وسجد ، وسلّم ، وأدخل يده في كُمِّه وأخذه ، وقلّبه بيده ، ورماه إلى من كان خلفه ، وقال : ليقرأه بعضكم ، فإني أستغفر الله أن أمس شيئًا مسّه ظالم بيده ، قال عباد : فمد بعضهم

يده إليه ، وهو يرتعد كأنه حيَّة تنهشه ، ثم قرأه ، فجعل سفيان يتبسَّم تبسُّم المتعجِّب ، فلمّا فرغ من قراءته ، قال : اقلبوه ، واكتبوا للظالم على ظهره . فقيل له : يا أبا عبد الله ، إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في بياضٍ نقيّ لكان أحسن . قال : اكتبوا للظالم في ظهر كتابه ، فإن اكتسبه من حلالٍ ، فسوف يُجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرامٍ ، فسوف يَصْلَى به ، ولا يبقى شيء مسّه ظالم بيده عندنا فيُفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب إليه ؟ قال : اكتبوا له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من العبد الميت سفيان ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون ، الذي سُلب حلاوة الإيمان ولذّة قراءة القرآن . أما بعد : فإني كتبت إليك أُعلِمك أني قد صَرَمْتُ حبلَك ، وقطعت ودّك ، وإنك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمتَ على بيت مال المسلمين ، فأَنْفَقْتَه في غير حقه ، وأنفذته بغير حُكمه ، ولم ترضَ بما فعلته وأنت ناءٍ عني ، حتى كتبت إليّ تُشهدني على نفسك ، فأمّا أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك ، وستؤدَّى الشهادة غدًا بَيْن يدي الله الحكم العدل . يا هارون ، هجمتَ على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضي بفِعلك المؤلّفةُ قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟! أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم ؛ يعني العاملين ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضي بذلك خلْق من رعيّتك ؟! فشدّ يا هارون مِئزرك ، وأعدّ للمسألة جوابًا ، وللبلاء جلبابًا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فاتّق الله في نفسك ، إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد ولذّة قراءة القرآن ومُجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا . يا هارون ، قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسْبَلْت ستورًا دون بابك ، وتشبَّهتَ بالحَجَبَة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك ،

وتركتهم يظلمون الناس ولا يُنصفون ، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب ، ويزنون ويحدّون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، ويقتلون ويقتلون القاتِلَ ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس ؟! فكيف بك يا هارون غدًا ، إذا نادى المنادي من قِبَل الله : احشروا الظَّلَمَة وأعوانهم . فتقدَّمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكّهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار ؟! وكأني بك - يا هارون - وقد أُخذتَ بِضيق الخِناق ، ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء ، وظُلْمة فوق ظلمة ، فاتّق الله يا هارون في رعيَّتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أُمته ، واعلم أن هذا الأمر لم يَصِرِ إليك إلَّا وهو صائرٌ إلى غيرك ، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحدًا بعد واحد ، فمنهم من تزوّد زادًا نَفَعَه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإياك إياك أن تكتب إليّ بعد هذا ، فإني لا أُجيبك ، والسلام » . وألقى الكتاب منشورًا من غير طيٍّ ولا ختْم ، فأخذتهُ وأقبلت به إلى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة بقلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ، من يشتري رجلًا هرب إلى الله ؟ فأقبلوا إليّ بالدراهم والدنانير ، فقلت : لا حاجة لي بالمال ، ولكنْ جُبَّة صوف وعَباءَة قَطَوانِيّة ، فأُتيت بذلك ، فنزعت ما كان عليّ من الثياب التي كنت أُجالس بها أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي ، إلى أن أتيت باب الرشيد حافيًا راجلًا ، فهزأ بي من كان على الباب ثم استُؤذن لي ، فلما رآني على تلك الحالة ، قام وقعد ، وجَعَل يلطِم رأسه ووجهه ، ويدعو بالويل والحَرَب ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المُرسِل ، ما لي وللدنيا ، والمُلك يزول عني سريعًا . فألقيت الكتاب إليه مثل ما دُفع إليّ ، فأقبل يقرؤه ، ودموعه تنحدر على وجهه ، وهو يشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، قد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجّهتَ

إليه فأثقلتَهُ بالحديد ، وضيَّقتَ عليه السجن ، فجعلته عبرةً لغيره . فقال هارون : اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي والله - حقًّا - من جالستموه ، إن سفيان أُمَّةٌ وَحْدَه . ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه ويبكي ، حتى توفّي رحمه الله تعالى .

مالك بن أنس وصَدْعه عند السلطان بالحق :

قال مالك « قال لي أبو جعفر : قد أردت أن أجعل هذا العِلْم علمًا واحدًا ، فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة ، فيعملون به ، فمن خالف ضربتُ عنقه . فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أو غير ذلك . قلت : إن النبي ﷺ كان في هذه الأُمة ، وكان يبعث السرايا ، وكان يخرج ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا حتى قبضه الله عز وجل ، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا ، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهما ، ففُتحت البلاد على يديه ، فلم يجد بدًّا من أن يبعث أصحاب محمدٍ ﷺ معلِّمين ، فلم يزل يُؤخذ عنهم كابرًا عن كابرٍ إلى يومهم هذا ، فإن ذهبت تحوِّلهم إلى ما لا يعرفون ، رأوْا ذلك كفرًا ، ولكن أقِرّ أهل كل بلدةٍ على ما فيها من العلم ، وخُذ هذا العلم لنفسك . فقال لي : ما أبعدتَ القول ، اكتب هذا العلم لمحمد »[1] - يعني ابنه المهدي -. وكان أبو جعفر يريد حمْل الناس على الموطأ وقال لمالك : لعمري ، لو طاوعتني لأمرتُ بذلك .

وعن عبد المتعال بن صالح - من أصحاب مالكٍ - قال : قيل لمالك ابن أنس : إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون ؟ قال : يرحمك الله ، فأين التَّكلُّم بالحق .

« قال مالك بن أنس : وجَّه إليّ هارون الرشيد ، فسألني أن أحدِّثه فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن العلم يُؤتَى ولا يأتي . فصار إلى منزلي ،

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٩ .

فاستند معي في الجدار ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال الله إجلال ذي الشَّيْبة المسلم . قال : فقام فجلس بين يديّ . فقال لي بعد مدّةٍ : يا أبا عبد الله ، تواضعْنا لعلمك فانتفعْنا به ، وتواضع لنا علمُ سفيان ابن عيينة فلم ننتفع به . وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيأخذ دراهم »[1].

« عن مروان الطّاطَرِيّ ، أن أبا جعفر نهى مالكًا عن الحديث : « ليس على مُسْتَكْرَه طلاق »[2]، ثم دسّ إليه من يسأله ، فحدّثه به على رؤوس الناس ، فضربه بالسياط .

قال الواقدي : لما دُعي مالك ، وشُوِر ، وسُمع منه ، وقُبل قوله حُسد ، وبغَوْه بكل شيءٍ ، فلمّا ولي جعفر بن سليمان المدينة ، سَعَوْا به إليه ، وكثروا عليه عنده ، وقالوا : لا يرى أيْمان بَيْعتكم هذه بشيء ، وهو يأخذ بحديثٍ رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره : أنه لا يجوز عنده . قال: فغضب جعفر ، فدعا بمالك ، فاحتجّ عليه بما رُفِع إليه عنه ، فأمر بتجريده ، وضربه بالسياط ، وجُبذت يده حتى انخلعت من كتفه ، وارتكب منه أمر عظيم ، فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو »[3].

مالك والرشيد :

« احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى » :

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

(٢) لم يرد في المرفوع ، وإنما هو موقوف على ابن عباس ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٨/٥: « ليس لمكْرَه ولا لمضطَهَد طلاق » . ورجاله ثقات ، وعلّقه البخاري ٣٤٣/٩ ولفظه : قال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز . وقال الحافظ : وصله ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨٠/٨ - ٨١ .

كتب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - رسالته الشهيرة إلى هارون الرشيد يعظه فيها وينصحه . وقد جاء في مقدمتها : أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلُك فيه رُشدًا ، ولم أدّخِر فيه نُصحًا ، تحميدًا لله ، وأدبًا عن رسول الله ﷺ ، فتدبَّره بعقلك ، وردِّد فيه بصرك ، وأرْعِهِ سمْعك ، ثم اعقِله بقلبك ، وأحضر فهمك ولا تغيبن عنه ذِهْنك ، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة . اذكر نفسَك في غَمَرات الموت وكُربة ما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب . وأعِدّ لله عز وجل ما يسهِّل عليك أهوال تلك المشاهد وكربها ، فإنك لو رأيتَ سخط الله تعالى ، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب ، وشدّة نقمته عليهم ، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم ، مع كُلُوح وجوههم ، وطول غمّهم ، وتقلّبهم في دَرَكاتها على وجوههم ، ولا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثُّبُور . وأعْظِم بحسرة إعراض الله عنهم وانقطاع رجائهم ، وإجابته إياهم بعد طول الغمّ بقوله : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تُكلّمون** ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]. ثم قال له : لا تأمن على شيءٍ من أمرك مَنْ لا يخاف الله ، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : « شاور في أمـرك الذين يخافون الله ». احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى على نفسك ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ **أنه قال: «ما من نبيٍّ ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأْمُره بالمعروف وتنهاه** عن المنكر ، وبطانة لا تَألُوه خَبَالًا » . ثم قال : لا تَجُرّ ثيابك ، فإن الله لا يحب ذلك ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء ، لم ينظُر الله إليه يوم القيامة » . أطع الله في معصية الناس ، ولا تُطع الناس في معصية الله ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[١].

---

(١) الإسلام بين العلماء والحكام .

الإمام ابن أبي ذئب ، محمد بن عبد الرحمن :

شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي .

قال الذهبي : « كان من أوعية العلم ، ثقة ، فاضلا ، قوّالًا بالحق ، مهيبًا .

قال أحمد بن حنبل : كان يُشبَّه بسعيد بن المسيّب . فقيل لأحمد : خلّف مثله ؟ قال : لا . ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلا أن مالكًا أشد تَنْقِيةً للرجال منه . وقال أحمد : هو أوْرَع وأقْوَل بالحق من مالك »[1] .

قال الذهبي في ترجمته في السير (٧/١٣٩ - ١٤٨) : « دخل ابن أبي ذئب مرّة على والي المدينة ، فكلمه - وهو عبد الصمد بن علي عَمّ المنصور - فكلّمه في شيء ، فقال عبد الصمد بن علي : إني لأراك مرائيا . فأخذ عُودًا ، وقال : مَنْ أُرائي ؟! فوالله لَلنَّاسُ عندي أهْوَن من هذا .

وقال أبو العيناء : لمّا حج المهدي ، دخل مسجد رسول الله ﷺ ، فلم يبقَ أحدٌ إلّا قام ، إلّا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيّب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دَعْهُ ، فلقد قامت كلُّ شعرةٍ في رأسي .

قال أبو العيناء : وقال ابن أبي ذئب للمنصور : قد هلك الناس ، فلو أعَنْتَهُم من الفَيْءِ . فقال : ويلك ، لولا ما سددتُ من الثُّغور ، لكنتَ تؤتى في منزلك فتُذبح . فقال ابن أبي ذئب : قد سدّ الثغور ، وأعطى الناس ، من هو خيرٌ منك : عمر رضي الله عنه . فنكس المنصورُ رأسه - والسيف بيد المسيب - ثم قال : هذا خير أهل الحجاز .

قال أحمد بن حنبل : ابن أبي ذئب ثقة . قد دخل على أبي جعفر

---

(١) السير ٧/١٤٠ ، ١٤٢ .

المنصور ، فلم يَهُلْه أن قال له الحق ، وقال : الظُّلم ببابك فاشٍ . وأبو جعفر أبو جعفر .

قال أبو نُعيم : حججتُ عامَ حجَّ أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك ابن أنس ، فدعا ابنَ أبي ذئب ، فأقعده معه على دار النَّدوة ، فقال له : ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن ؟ - يعني أمير المدينة - فقال : إنه ليتحرى العدل . فقال له : ما تقول فيَّ ؟ مرتين فقال : ورَبِّ هذه البَنِيَّة إنك لجائر . قال : فأخذ الربيع الحاجِب بلحيته ، فقال له أبو جعفر : كُفَّ يا ابن اللَّخْناء[1]، ثم أمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار .

وقال أحمد بن حنبل : كان ابن أبي ذئب رجلًا صالحًا قوّالًا بالحق ، يُشَبَّهُ بسعيد بن المسيب » .

وقال حماد بن خالد : كان يُشَبّه بابن المسيب ، وما كان هو ومالك في موضعٍ عند سلطانٍ ، إلّا تكلّم ابن أبي ذئب بالحق والأمر والنهي ، ومالك ساكت .

« إنك لا تعدل في الرعية » :

قال أبو جعفر المنصور لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار ، قالوا : سَلْه يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد . وكان عامله على المدينة . قال : ما تقول في الحسن ؟ قال : يأخذ بالإِحْنَةِ ويقضي بالهوى . فقال الحسن : والله يا أمير المؤمنين ، لو سألتَهُ عن نفْسِك لرماك بداهيةٍ ونَعَتَك بشرٍّ . قال : ما تقول فِيَّ ؟ قال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لا بدَّ أن تقول . قال : إنك لا تعدل في الرَّعِيَّة ولا تَقْسِمُ بالسَّوِيَّة . فتغيَّر وجه المنصور ، فقام إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال : طهّرني بدمه يا أمير المؤمنين . قال له ابن أبي ذئب : اقعد

---

(١) اللخن : نتن الريح عامة ، وقبح ريح الفرج . ويقال : اللخناء : التي لم تختن .

يا بُنَيَّ ، فليس في دم رجلٍ يشهد أن لا إله إلا الله طهورٌ[١] .

محمد بن أوس والرشيد :

كان هارون الرشيد يطوف بالبيت وهو متَّكيء على الفضل بن الربيع ورجل آخر ، فقام إليه محمد بن أوس الهلالي ، واعْتَرَضَهُ عند الحجر وقال : يا أمير المؤمنين ، استمعْ كلامي ، فإنك إن سمعتَهُ حقًّا قَبِلْتَه ، وإن سمعتَهُ باطلًا فلا تَعْبأ به ، فوقف فقال : يا من غُذِّي في نعيم ، وتردَّد في مُلك سليم ، إن خفتَ العذاب الأليم ، وأحببت البقاء في سرور مقيم ، فلا تسمعنّ ممن أنت بينهما ، ولا تغترنّ بشيءٍ من قولهما ، فإن الله عز وجل يخلو بك دونهما ، فالموت يصل إليك على الطَّوع والكُره منهما ، فلا تقتصدنّ بالذليل ، ولا تتكثّرنّ بالقليل ، ولا تعتصم بغير دافع ، ولا تطمئنّ إلى غير مانعٍ ، لا يمنع ولا يدفع عنك ، فإنك بعين الله ، وبحضرة بيته الذي جعلَهُ مَثابةً للزائر ، ومنحجرًا للفاجر . فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما ، وأومأ أن خُذوا الرجل ، فأُخِذ ، حتى قضى طوافَهُ وصلى ، ورجع إلى المنزل الذي به نزل ، ودعا بالرجل فأُدخل عليه شيخ جليل ، فقال : من أين أنت ؟ قال : من مكة . قال : ما اسمك ؟ قال : محمد . قال : ابن من ؟ قال : ابن أوس . قال : من قبيلتك ؟ قال : بنو هلال . قال : قبيلة مشهورة ، فما حملك أن كلَّمتني بالذي كلّمتني ؟ قال : إشفاقًا عليك ، إذا أنضيت الرّكاب ، وأتعبت الرجال ، وأنفقت الأموال في أمورٍ الله عز وجل أعْلَمُ بها ، حتى صرتَ إلى غاية الطالب ، وموضعٍ ترجو فيه الرحمة ، اعتمدت على ظالمَيْن طاغيَيْن ، قد جُبلا على الغَشْم ، ونُشِّئا على الظُّلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما كنتُ مُتَّخِذ المُضِلِّين عَضُدًا** ﴾ [الكهف : ٥١]. فنكس الرشيد رأسَهُ ، وأقبل ينكُت في الأرض وعيناه تذرِفان ، ثم رفع رأسه فقال :

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

من أين مطعمُك ومشربك ؟ قال : مِن عند مَن يرزقك . قال : مَنْ ذاك ؟ قال : من عند مَنْ فَلَقَ الحَبَّ والنَّوى ، وأخرجَ الحبّ من الثَّرى ، من طعامٍ سهرتْ فيه العيون ، وتعبت في حصاده الأجساد ، وحرستْه الملائكة ، حتى أتاني به القَدَرُ بلا رنق ولا كدرٍ . قال : ألك عيال ؟ قال : نعم . قال . ومن هن ؟ قال : زوجة . قال أفلا أُجري عليك رزقًا تستعين به على بعض أمورك ، وتستغني به عن الطَّلَب من غيركْ ؟ قال : إني بالله عز وجل أغْنَى مني بما بذلتَ لي من ذلك . قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أطِعِ الله عز وجل فيما تعلم من سِرِّك ، فإنك تصل إلى كل محبوبٍ ، وتنال به كل مطلوب . قال : ألك حاجة غيرها ؟ قال : أتُؤمنني من الموت ؟ قال : لا أقدر على ذلك . قال : فتُجيرني من النار ؟ قال : ليست في يدي . قال : فتدخلني الجنة ؟ قال : لست أملك . قال : أفتُحيي لي ميتًا ، حتى أسأله عما عاين ورأى ؟ قال : ذاك في قدرة غيري . قال : ما أنت إلا كسائر مَنْ ترى من رَعِيَّتك ، غير أن الله عز وجل فضَّلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل ، واسْتَخْلَفَك في الأرض لينظر كيف تعمل . وذكر كلامًا ثم خرج . فقال الرشيد : الحمد لله الذي جَعَل في رعيَّةٍ أنا عليها مِثْلَه ، ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه .

الليث بن سعد وهارون الرشيد :

« ومن رأس العين يأتي الكدر » :

يقول عبد الله بن صالح : سمعت الليث بن سعد يقول : لما قدمت على هارون الرشيد قال لي : يا ليث ، ما صلاح بلدِكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا بإجراء النيل ، وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي فقال : صدقت يا أبا الحارث[1] .

---

(١) حلية الأولياء ، سير أعلام النبلاء .

العُمَرِيّ .. وما العمري !! :

الإمام القدوة الزاهد ، العابد ، أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قال الذهبي : أمّار بالعُرْف ، لا تأخذه في الله لومة لائم . كان ينكر على مالك الإمام الاجتماع بالدولة .

قال الذهبي : كتب مالك إلى العُمريّ : إنك بَدَوت ، فلو كنتَ عند مسجد رسول الله ﷺ . فكتب : إني أكره مجاورة مثلك ، إن الله لم يَرَك متغير الوجه فيه ساعةً قَطُّ .

قال الذهبي : « هذا على سبيل المبالغة في الوعظ ، وإلا فمالك من أقْوَل العلماء بالحق ، ومن أشدهم تغيُّرًا في رؤية المنكر »[1] .

وعن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمريّ ، فوعظه ، فبكى وغُشي عليه .

وقيل : إن العمري وعظ الرشيد مرة ، فكان يتلقى قوله بـ : نعمْ يا عمّ ، فلما ذهب ، أتْبَعَهُ الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار ، فردّها وقال : هو أعلم بمن يفرقها عليه . وأخذ دينارًا واحدًا ، وشخص عليه بغداد ، فكره مجيئه ، وجمع العُمَريين ، وقال : ما لي ولابن عمكم !! احتملتُه بالحجاز ، فأتى إلى دار ملكي ، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي ، ردُّوه عني . قالوا : لا يقبل منا . فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى : أنْ ترفقْ بهِ حتى تردّه .

قال مصعب الزُّبيري : ما أدركت بالمدينة رجلًا أهْيَب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فرُدّ من الكوفة ، ولم يصل إليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٧/٨ - ٣٧٨ .

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر : سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول : إن من غفلتك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يُسخطه فتتجاوزه ، ولا تأمر ولا تنهى ، خوفًا من المخلوق ، مَنْ تَرَك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين ، نُزِعت منه الهيبة ، فلو أمر ولَدَهُ ، لاستخفّ به[١] .

قال محمد بن حرب المكي : قدم العمريُّ ، فاجتمعنا عليه ، فلمَّا نظر إلى القصور المُحدِقة بالكعبة صاح : يا أصحاب القصور المشيَّدة ، اذكروا ظُلْمة القبور الموحشة ، يا أهل التَّنعم والتَّلذُّذ ، اذكروا الدود والصديد ، وبلاء الأجسام في التراب . ثم غلبتْه عينُه ، فقام .

لما قدم أبو جعفر المنصور بغداد ، ورد عليه كتابٌ من عبيد الله العُمريّ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر . سلام الله عليك ورحمة الله التي اتَّسعتْ فوسعتْ مَنْ شاء . أما بعد ، فإني عهدتُك وأمْر نفسك لك مهمّ ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها وأبيضها ، وشريفها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، ولكلٍّ حِصتُّه من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإني أُحذِّرك يومًا تعنو فيه الوجوه والقلوب ، وتنقطع فيه الحُجّة لملك قد قهرهم وأذلهم بسلطانه ، والخلق داخرون يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه ، وإنّا كنّا نتحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّرِيرة ، وإني أعوذ بالله أن تُنزل كتابي سوء المنزل ، فإني إنما كتبت به نصيحة ، والسلام »[٢] .

---

(١) السير ٣٧٥/٨ .

(٢) الإمامة والسياسة .

العُمَرِيّ والرشيد :

« فكيف بمن أسْرَف في مال المسلمين » :

يقول سعيد بن سليمان : كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العُمَرِيّ ، وهو من نسل عمر بن الخطاب ، وقد حجّ هارون الرشيد ، فقال له إنسان : يا أبا عبد الله ، ها هو ذا أمير المؤمنين يسعى ، قد أُخلي له المسعى . فقال العمريُّ للرجل : لا جزاك الله خيرًا ، كلَّفتني أمرًا كنت عنه غنيًّا . ثم تعلَّق نَعْلَيه وقام ، فتَبِعتُه ، فأقبلَ هارون الرشيد من المروة يريد الصّفا ، فصاح به : يا هارون . فلمّا نظر إليه قال : لبيك يا عمّ . قال : ارْقَ الصفا . فلما رَقِيهُ قال : ارم نظرك إلى البيت . قال : قد فعلتُ . قال : كم هو ؟- أي عَدَدهم -. قال : ومن يُحصيهم . قال : فكم في الناس مِثْلهم ؟ قال خلْق لا يُحصيهم إلا الله . قال : اعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصَّةِ نفْسِه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم ، فانظر كيف تكون . قال : فبكى هارون . قال العمريُّ : وأُخرى أقولها . قال : قل يا عمّ . قال : إن الرجل ليُسرف في ماله ، فيستحقّ الحَجْر عليه ، فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين ! ثم مضى وهارون يبكي[1].

« ولا يَغُرَّنّك المدَّاحُون الزُّور » :

كتب عبد الله العُمريُّ إلى هارون الرشيد مرة يقول له : « الحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . الذي لا يخذُل مَن أطاعه ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه . يا أمير المؤمنين ، هذا داعي القرآن يُسمِعك يقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فلا استقامة إلا على طريق نجاةٍ ، فاحفظ وصية الله وارْجُ ثوابَه وخف عقابَه ، وتواضع له بحُسن الاستماع من رَعِيَّتك ، واعلم أنك عبد قد بُليت برعاية أمم لا تُحصى ، قد خفرت أمانتها وتفرَّقت أهواؤها

---

(١) صفة الصفوة ١٨٢/٢ .

واختلفت في دينها . فأمرهم مَرِيج وبأسهم بينهم شديد . وَلِيتَهُمْ لإحدى اثنتين : إمّا أدَّيتَ أمانَتَهُم وعَطَفْتَهم على ربِّهم ، فعلَّم الله بك جاهِلَهم وذكَّر بك ناسِيَهُم ، وجدَّد بك العدل وأحيا بك الحقَّ ، فكنت بذلك من المصلحين ، ونلتَ به من الله عز وجل ثواب القائمين بالقسط . وإمّا خفرتَ أمانة الله عز وجل ونقضتَ عهدَهُ ، وزِدت المفسدين فسادًا ، وظلمتَ اليتيم حقَّه ، ومنعت المسكين نصيبَهُ ، وحكمتَ في عباد الله بغير ما أنزل الله ، استكبارًا وعُلُوًّا على المستضعفين ، والله لا يحب المستكبرين . والإمام العادل كالوالد في برِّه ، يسعى لهم صغارًا ويعلِّمهم كبارًا ، ويجمع لهم حياتَهُ ويدَّخِر لهم مماتَهُ ، ويُؤثرهم على نفسه . والإمام العادل خليفة المرسلين ، والقائم بين الله وبين عباده . لا تكُن كعبدٍ ائتمنَهُ سيِّدُه واسْتَحْفَظَه مالَهُ ، فعطَّل الضيعةَ وبذر المال ، وشرَّد العيال وأفْقَرَ أهله ، وأهلكَ مالَهُ . ولا يغُرّنّك المدّاحون الزُّور ، ولا تُوَلِّينّ قريبًا لقرابته ، ولا صديقًا لصداقته ، ولا تُحابِينّ في دين الله عز وجل فيُحاجّك الدِّين غدًا عند الله عز وجل . وإني لم آلُك نصيحةً وعليك شفقةً ، فأنزِلْ كلامي بمنزلة المداوي جرحَه ﴿ **واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله** ﴾ » [البقرة : ٢٨١][١] .

كُرز بن وَبَرة :

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه ، قال : كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف ، فيضربونه حتى يُغشى عليه[٢] .

لله درُّه من عابدٍ له الصِّيت البليغ في النُّسك والتَّعبُّد وله القدح المعلى في الأمر بالمعروف ، فما اجْمَلَه من تكامُل ... وهكذا فليكن العُبّاد .

---

(١) حلية الأولياء .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/٨٥ .

أبو حازم الأعرج ، سلمة بن دينار الأفزر[1] التَّمّار :

قال ابن خزيمة : لم يكن في زمانه مِثْله .

« اعرِض نَفْسَك على كتاب الله » :

لما حجّ سليمان بن عبد الملك ، ودخل المدينة زائرًا لقبر النبي ﷺ ، سأل عن أحدٍ ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ، فقيل له : هاهنا رجل **يُقال له : أبو حازم . فبعثَ إليه فجاءه ، فقالَ له : يا أبا حازم ، ما هذا** الجفاء الذي ظهر منك ، وأنت تُوصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ مع فضلٍ ودِينٍ تُذكَر به ؟ فقال أبو حازم : وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها ، وأنت معدودٌ منهم ، ولم تأتني . فقال أبو حازم : أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ . فقال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أمّا المحسن ، فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفرٍ بعيد ، وأما قدوم المسيء ، فكالعبد الآبق . يؤخذ فيشد كتافه ، فيؤتى به إلى سيّده ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عذّب . فبكى سليمان بكاء شديدًا ، وبكى من حوله . ثم قال : ليت شعري ، ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : اعرضْ نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أُصيب تلك المعرفة في كتاب الله تعالى ؟ قال : عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال :

---

(١) أي الأحدب الذي في ظهره عُجرة عظيمة .

قريبٍ من المحسنين . قال سليمان : يا أبا حازم ، مَنْ أعْقَلُ الناسِ ؟ قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلَّم الحكمة والعلم ، وعلَّم بها الناس . قال سليمان : فمن أحمقُ الناس ؟ فقال : من حطَّ في هوى رجُلٍ هو ظالم ، فباع آخرتَهُ بدنيا غيرِه . قال سليمان : فما أسْمَعُ الدعاء ؟ قال أبو حازم : دعاء المُخبِتِين الخائفين . فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله تعالى ؟ قال : جهدُ المقلّ . قال : فما تقول فيما ابتُلينا به ؟- يعني الخلافة -. قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه ، أصلحك الله . قال سليمان : نصيحة تُلقيها . فقال : ما أقول في سلطانٍ استولى عنوةً بلا مشورةٍ من المؤمنين ، ولا اجتماع المسلمين ، فسُفكت فيه الدماء الحرام ، وقُطعت به الأرحام ، وعُطّلت به الحدود ، ونُكثت به العهود ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها ، فيا ليت شعري ما تقولون ؟ وماذا يُقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئس ما قلتَ يا أعور ، أمير المؤمنين يُستقبَل بهذا . فقال أبو حازم : اسكُت يا كاذب ، فإنما أهْلَكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ ، إن الله قد أخذ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه .

« كيف لنا أن نُصلح ما فَسَد » :

قال سليمان بن عبد الملك : يا أبا حازم كيف لنا أن نُصلح ما فسد منا ؟ فقال : المأخذ في ذلك قريبٌ يسيرٌ يا أمير المؤمنين . فاستوى سليمان جالسًا من اتّكائه ، فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حِلّه وتضعه في أهله ، وكُفّ الأكُفّ عما نُهيت ، وتُمضيها فيما أُمرت به . قال سليمان : ومن يُطيق ذلك ؟ فقال أبو حازم : مَن هربَ من النار إلى الجنة ، ونبذَ سوء العادة إلى خير العبادة . فقال سليمان : اصْحَبْنا يا أبا حازم وتوجّه معنا ، تُصِب منا ونُصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك . قال سليمان : ولِمَ يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أرْكَن إلى الذين ظلموا فيذيقني الله

ضِعفَ الحياة وضعف الممات . فقال سليمان : فتزورنا . قال أبو حازم : إنا عهدْنا الملوك يأتون العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون الملوك ، فصار في ذلك صلاح الفريقين ، ثم صِرنا الآن في زمانٍ صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء ، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعًا . قال سليمان : فأوصِنا يا أبا حازم وأوجِز . قال : اتّقِ الله ألا يراك حيث نهاك ، ولا يَفقِدك من حيث أمَرَك . قال سليمان : ادْعُ لنا بخيرٍ . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وَلِيّك ، فبشّره بخيرِ الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوّك ، فخُذ إلى الخير بناصيته . قال : زدني . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاغتَبطْ ، وإن كنت عدوّه فاتّعِظ ، فإن رحمته في الدنيا مباحة ، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتَّقى في الدنيا ، فلا نفْع في قوسٍ ترمي بلا وترٍ. فقال سليمان : هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها ، فقال : خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لي بها ؛ لأني وغيري في هذا المال سواء ، فإن سوَّيتَ بيننا وعدلت ، أخذتُ ، وإلا فلا ؛ لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما قلت من كلامي . قال سليمان : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : حلالُ الدنيا حسابٌ ، وحرامُها عقاب ، وإلى الله المآب ، فاتّق عذابك أو دع . قال : لقد أوجزتَ ، فأخبرني ما مالك ؟ قال : الثقة بعدله ، والتَّوكُّل على كرمه ، وحُسن الظَّنّ به ، والصبر إلى أجله ، واليأس مما في أيدي الناس قال : يا أبا حازم ، ارفع إلينا حوائجك . قال : رفعتها إلى من لا تُخذل دُونَه ، فما أعطاني منها قبلتُ ، وما أمسكَ عني رضيتُ ، مع أني نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئَيْن : أحدهما لي ، والآخر لغيري ، فأمّا ما كان لي ، فلو احْتَلْتُ عليه بكل حيلةٍ ، ما وصلت إليه قبل أوانِه وحينِه الذي قدِّر لي ، وأمّا الذي لغيري ، فذلك لا أطمع فيه ، فكما منعني رزقَ غيري ، كذلك منعَ غيري رزقي ، فعلام أقتُل نفسي في الإقبال والإدبار . قال سليمان : لا بد أن ترفعَ إلينا حاجةً تأمُر

بقضائها . قال : فتقضيها . قال : نعم . قال : فلا تعطني شيئًا حتى أسألكه ، ولا تُرسل إليَّ حتى آتيك[١] .

« حلالها حساب » :

قدم هشام بن عبد الملك إلى المدينة ، فأرسل إلى أبي حازم ، فقال : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : اتّق الله وازْهد في الدنيا ؛ فإن حلالَها حساب ، وإن حرامَها عذاب . قال : لقد أوجزتَ يا أبا حازم ، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين . فقال : أبو حازم : هيهات ، هيهات . قد رفعتُ حوائجي إلى من تُنجز الحوائج دُونَه ، فما أعطاني منها قنعتُ ، وما منعني منها رضيتُ . وقد نظرت في هذا الأمر ، فإذا هو نصفان : أحدهما لي والآخر لغيري .

وعن زيد بن أسلم قال : كنت مع أبي حازم في الصّائفة ، فأرسل عبد الرحمن بن خالد – وكان أصْلَح من بقي من أهل بيتنا – إلى أبي حازم أن ائتنا ، حتى نُسائلك وتُحدِّثنا . فقال أبو حازم : معاذ الله ، أدركتُ أهل العلم لا يأتون الدِّين إلى أهل الدنيا ، فلن أكون بأولَ مَن فعلَ ذلك ، فإن كان لك حاجة فأبلغنا . فتصدَّى له عبد الرحمن وسأل عنه ، وقال له : لقد ازددتَ علينا بهذا كرامةً[٢] .

الإفريقي والسفاح :

أمَّا الإفريقي فهو شيخ الإسلام ، الإمام القدوة ، أبو أيوب : عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم ، قاضي إفريقية وعالمها .. كان الثوري يعظِّمه جدًّا .

قال إسماعيل بن عيّاش : ولي السفاح ، فظهر جوْرٌ بإفريقية ، فوفد

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) حلية الأولياء .

ابن أنعم على أبي جعفر مُشتكيًا . ثم قال : جئت لأُعلمك بالجور ببلدنا ، فإذا هو يخرج من دارك ؟! فغضب ، وهمَّ به . وقيل : قال له : كيف لي بأعوان ؟ قال : أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول : الوالي بمنزلة السوق ، يُجلب إليه ما ينفق فيه ؟ فأطرق طويلًا ، فأومأ إلى الربيع الحاجب بالخروج[(١)] .

الحَكَمُ بن عمرو الغِفاري ووالي العراق زياد بن أبيه :

« كتاب الله قبلَ كتابِ أمير المؤمنين » :

روى الأعمش عن الشّعبي ، أن زيادًا كتبَ إلى الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان على الصائفة - أي الغُزاة في زمن الصيف - أنَّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء ، فلا تقسِم بين الناس ذهبًا ولا فضة ، واقسم ما سوى ذلك . فكتب إليه الحكمُ : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنينَ ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رَتْقًا على عبدٍ فاتّقى الله ، لجعلَ له منهما مخرجًا . ثم نادى في الناس ، وقسم فيهم ما اجتمع له من الفَيْءِ[(٢)] .

أحَدُ الرَّعِيَّة وعبد الملك بن مَرْوان :

« والحاكم عليك عادل » :

قام عبد الملك بن مروان ليخطب في الناس ذات يوم - وكان بالكوفة - فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر ، وقال له : مهلًا يا أمير المؤمنين ، اقض لصاحبي بحقه ، ثم اخطب . فقال عبد الملك : وما ذاك ؟ فقال سمعان : إن لهذا الرجل مظلمةً ، فجئتُك به لأنظُر عَدْلَك الذي كنت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤١٢/٦ .

(٢) العقد الفريد .

تَعِدُنا به قبل توليتك . فقال عبد الملك : ما بدا لك أن تقول . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهوْن ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتَّعِظون ، أفنقتدي بسيرتكم ، أم نُطيع أمْركم بألسنتكم ؟! فإن قلتم : أطيعوا أمرنا واقبلوا نُصحَنا . فكيف ينصح غيرَهُ من غشَّ نفسه ؟! وإن قلتم : خُذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظةَ ممَّن سمعتموها . فعلامَ قلَّدْناكم أزِمَّة أمورْنا ، وحكَّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟! أوَ ما تعلمون أن منّا من هو أعْرَفُ منكم بصنوف اللغات ، وأبْلَغُ في العظات فإن كانت الإمامة قد عجزتْ عن إقامة العدل فينا ، فخلّوا سبيلها وأطلقوا عقالها ، أما والله لئن بقيتْ في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المرة ، لتَضمحِلّ حقوق الله وحقوق العباد . فقال عبد الملك : وكيف ذلك ؟ فقال سمعان : لأن من كلَّمكم في حقه زُجِر ، ومن سكتَ عن حقه قُهِر ، فلا قوله مسموع ، ولا ظُلْمُه مرفوع ، ولا من جار عليه مَرْدُوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال ؛ حيث مُلكك هناك خامِل ، وعزُّك زائل ، وناصرك خاذِل ، والحاكم عليك عادل . فبكى عبد الملك ثم قال للرجل : ما حاجتك ؟ فقال : عاملك بالسماوةِ ظلمني ، وليلهُ لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهْو . فكتب إليه بإعطائه ظَلامته ، ثم عَزَلَه .

أحَدُ الرَّعِيّة وسليمان بن عبد الملك :

« اذكر يوم الأذان » :

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالِسٌ للعامّة ، فقال : يا سليمان أُذكِّرك يوم الأذان . فارتاعَ لمَّا دعاه باسمه وقال : ويحك ، وما يوم الأذان ؟ قال : قول الله جل ذكره : ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ أن لَّعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾. فبكى سليمان وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : أنا جارٌ في ضيعتك الفُلانيّة ، وقد ظلمني وكيلك ، فأضرَّ ذلك بي وبعيالي .

قال : قد وهبتُ لك الضيعة . وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه[١].

أعرابي وسليمان بن عبد الملك :

« وأنت مسئول عما اجترحوا » :

قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك : إن بالباب – يا أمير المؤمنين – رجلًا له حزم ولسان . قال : أدخِله . فدخل ، فقال له سليمان : ممن الرجُل ؟ فقال : من عبد القيس بن أقصى ، وإني مكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ ، فاحتملْه وإن كرهتَه ، فإن وراءه ما تحب إن قَبِلْتَه . فقال : قل يا أعرابي . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكْتَنَفَك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوه فيك ، خربوا الآخرة وعمَّروا الدنيا ، فهم حربٌ للآخرة سِلْم للدنيا ، فلا تأتَمِنْهم على ما ائتمنك الله عليه ؛ فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضييعًا ، والأُمّة خسفًا ، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنًا بائِع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : أما أنت يا أخا ربيعة ، فقد سَلَلْتَ لسانك ، وهو أقْطَعُ من سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك . قال : فهل من حاجةٍ في ذات نفسك . قال : أمّا خاصّة دون عامّة فلا . ثم قام فخرج . فقال سليمان : لله درّه ما أشْرَف أصْلَه وأجْمَع قلبَه ، وأذْرَب لسانه وأصدق بيِّنته ، وأوْرَعَ نفسه ، هكذا فليكُن الشرف والعقل[٢].

سيِّد أهل اليمن وإمامهم طاووس :

طاووس وسليمان :

« أتعلمون مَن أبْغَضُ الخلْق إلى الله » :

روي أن رجاء بن حَيْوَة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد

---

(١) كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي ، وعيون الأخبار ، والعقد الفريد .

الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يؤمئذٍ بمكة قد حجّ ذلك العام ، فقال : إني رأيت طاووسًا بالمسجد ، فهل لك أن تُرسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان . فلمّا أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلّم . فلما قعد طاووس سكت طويلًا ثم قال : ما أول شيء خُلق ؟ فقلنا : لا ندري . فقال طاووس : أول شيء خُلِق القلمُ . ثم قال : أتدري ما أول شيء كُتب ؟ قلنا : لا . قال : فإن أول ما كُتب : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، ثم كُتب القدر خيرُه وشره إلى يوم القيامة . ثم قال : أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله ؟ قلنا : لا . فقال : إن أبغض الخلق إلى الله تعالى ، عبدٌ أشْرَكَهُ الله في سلطانه ، فعمل فيه بمعاصيه . ثم نهض . قال رجاء : فأظلم عليَّ البيت ، فما زلتُ خائفًا عليه حتى توارى ، فرأيتُ سليمان يحكُّ رأسه بيده ، حتى خشيت أن تُخرج أظافرُه لحمَ رأسه[1].

طاووس وهشام بن عبد الملك :

« ما الذي حملك على ما صنعت » :

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكة ، فلما دخلها قال : ائتوني برجل من الصحابة . فقيل : يا أمير المؤمنين ، قد تفانوْا . قال : فمن التابعين . فأتَوْه بطاووس اليماني . فلما دخلَ عليه ، خلع نعليْه بحاشية بساطه ، ولم يسلِّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولكن قال : السلام عليك . ولم يُكنِّه ، ولكن جلس بإزائه . قال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا ، حتى همَّ بقتله . فقيل له : أنت في حرم الله ورسوله ، فلا يمكن ذلك . فقيل له : يا طاووس ، ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟! فازداد هشام غضبًا وقال : لقد خلعت نعليْك بحاشية

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

بساطي ، ولم تقبِّل يدي ، ولم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولم تُكنني ، وجلستَ بإزائي بغير إذني ، وقلتَ : كيف أنت يا هشام . فقال : أما ما خلعت نعليَّ بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة كلَّ يومٍ خمس مرات ، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ . وأما قولك : لم تقبِّل يدي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول : لا يحلّ لرجل أن يقبل يد أحدٍ ، إلَّا امرأته من شهوةٍ أو ولده برحمةٍ . وأما قولك : لم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ؛ فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب . وأما قولك : جلست بإزائي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار ، فانظر إلى رجلٍ جالس وحوله ناسٌ قيامٌ . وأما قولك : لم تُكنِّني . فإن الله عز وجل سمَّى أولياءه ، وقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى . وكنَّى أعداءه ، فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : ١] فقال هشام : عظني . فقال : سمعت أمير المؤمنين عليًّا كرم الله وجهه يقول : « إن في جهنم حيّاتٍ كأمثال القِلال ، وعقاربَ كالبغال ، تلدغ كلَّ أميرٍ لا يعدل في رعيته » . ثم قام وذهب(١).

عمر بن عبد العزيز :

لله درّه من آمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر ووزير صدْقٍ قبل تولِّيه الخلافة .

« لا تُحْي ذكرى الحَجَّاج » :

لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتبَ الحجاج يزيد بن أسلم ، قال له عمر بن عبد العزيز : أسألك بالله - يا أمير المؤمنين - أن

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص٦٢ نقلًا من كتاب نزهة الناظرين لعبيد الضرير .

لا تُحي ذكرى الحجّاج باستكتابك إياه . فقال : يا أبا حفص ، إني لم أجد عنده خيانة دينارٍ ولا درهمٍ . قال عمر : أنا أوجدك من هو أعفّ منه في الدينار والدرهم . قال : ومن هو ؟ قال : إبليس ، ما مسَّ دينارًا ولا درهمًا ، وقد أهلك هذا الخلْق[1] .

وحجّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرفا على قبّة عسفان ، نظر سليمان إلى السُّرادقات قد ضُربت ، فقال له : يا عمر ، كيف ترى ؟ قال : أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضًا ، وأنت المسئول عنها والمأخوذ بها . فبينما هما كذلك ، إذ طار غراب من سرادقات سليمان في منقاره كسرة ، فصاح ، فقال سليمان : ما يقول هذا الغراب ؟ قال عمر : ما أدري ما يقول ، ولكن إن شئتَ أخبرتك بعلمٍ . قال : أخبرني . قال : هذا غراب طار من سرادقاتك ، في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ ، وعنها مسئول ، من أين دخلت ومن أين خرجت . قال : إنك لتُخبرنا بالعجائب . قال : أفلا أُخبرك بأعجب من هذا ؟ قال : بلى . قال : من عرف الله ، كيف عصاه ؟! ومن عرف الشيطان ، كيف أطاعه ؟! ومن أيقن بالموت ، كيف يَهنيه العيش ؟! قال : لقد غثثتَ علينا ما نحن فيه . ثم ضرب فرسه وسار .

« فكيف سلطانُه عند غَضَبِه » :

وحجّ سليمان بن عبد الملك في خلافته ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرف من ثنيّة قديد رأى سواد عسكره ، فأعجبه ذلك فقال : يا أبا حفص ، ما ترى ما هناك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أرى دُنيًا يأكل بعضها بعضًا ، أنت المبتلَى بها والمسئول عنها . فبينما هو على ذلك برقت برقة فصعقت صاعقة ، فاعتنق سليمان دابَّته ، فلما تجلّى ذلك قال : يا أبا حفص ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

ما ترى هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا سلطان الله عز وجل عند رحمته ، فكيف سلطانه عند غضبه . ثم قال : العَجَب والله ممن عرف الله عز وجل فعصاه ، وعرف الشيطان فأطاعه ، ورأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها فاطمأنّ إليها .

زياد[1] العَبْدِي :

« ما أحد من أُمّة محمد إلا وهو خَصْم لك » :

قدم زياد العبدي على عمر ، فقال له عمر : يا زياد ، ألا ترى ما ابتُليتُ به من أمر أمة محمد ﷺ . قال : يا أمير المؤمنين ، لا تُعمِل نفسك في الوصف ، وأعمِل نفسك في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرةٍ منك نطقتْ ، ما بلغت كُنه ما أنت فيه . ثم قال زياد : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن رجل له خصم ألَدّ ، ما حاله ؟ قال : سيىء الحال . قال : فإن كانا خصميْن الدَّيْن ؟ قال : ذاك أسوأ لحاله . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذلك حين لا يَهْنَؤُه عيشٌ . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أحد من أمة محمد إلا وهو خَصم لك . قال : فبكى عمر حتى تمنَّيت أن لا أكون قلت له . وقال له عمر مرَّةً : يا زياد ، إني أخاف أن أكون قد هلكت ؟ قال : أنا أخاف عليك أن لا تكون تخاف .

أبو قِلَابَة :

حكي عن أبي قلابة ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا أبا قلابة ، عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا خليفة غيرك . قال له : زدني . قال : وأنت أول خليفة يموت . قال : زدني . قال : إذا كان الله معك فمن تخاف ! وإذا كان عليك فمن

---

(١) زياد العبدي : هو زياد بن أبي زياد ميسرة مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المتوفّى سنة ١٣٥هـ .

ترجو ! قال : حسبي[1] .

عطاء بن أبي رَباح وهشام :

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : مرحبًا مرحبًا ، هاهنا هاهنا . فرفعه حتى مسَّت ركبته ركبته ، وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا ، فقال هشام : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أهل الحرمين ، أهل الله وجيران رسول الله ﷺ ، تقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم . قال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءيْن وأرزاقهم لسنة . ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ومادة الإسلام ، تردّ فيهم فضول صدقاتهم . قال : نعم ، اكتب يا غلام بأن تردّ فيهم صدقاتهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الثغور يرمون من وراء بَيْضَتكم ، ويقاتلون عدوكم ، قد أجريت لهم أرزاقًا تردّها عليهم ، فإنهم إن هلكوا غُزيتم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، تُحمل أرزاقهم إليهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل ذِمَّتكم ، لا يكلَّفون إلا ما يطيقون ، فإنما يجيئون معونةً لكم على عدوكم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، أن لا يُحمَّلوا ما لا يطيقون ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اتق الله في نفسك ، فإنك خُلقت وحدك وتموت وحدك ، وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ، لا والله ما معك ممن ترى أحد . فأكبَّ هشام يبكي . وقام عطاء ، فلما كان عند الباب ، وإذا رجل قد تَبِعه بكيسٍ ما ندري فيه دراهم أو دنانير ، وقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : ما أصنع

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

بهذا ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩] ثم خرج عطاء فوالله ما شرب عنده حسوة من ماء فما فوقها[1].

أعرابيّ وهشام :

« هذا جزاء من يطفِّف في الكَيْل » :

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام:عظني يا أعرابي .

فقال : كفى بالقرآن واعظًا : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : ٦] . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يطفّف الكيل والميزان ، فما ظنّك بمن أخذه كله[2].

سالم بن عبد الله بن عمر :

« ما أعظم ما ابتُليتَ به يا عمر » :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : « سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هذه الأمة ، من غير مشورةٍ مني فيها ولا طلب مني لها ، إلا قدر من الرحمن قدَّره عليّ ، فأسأل الذي ابتلاني أن يُعينني على ما ولّاني من عباده وبلاده ، أن يرزقني فيهم العمل بطاعته ، وأن يرزقهم مني الرأفة والرحمة ، ويرزقني فيهم السمع والطاعة وحُسن المؤازرة . فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث إليَّ بكتب عمر وسيرته وقضائه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين .

(٢) العقد الفريد .

في أهل القبلة وأهل الذمة ، فإني سائر بسيرته ومتَّبع أثره إن الله أعانني على ذلك ، إن شاء الله . والسلام » .

فكتب إليه سالم : « من سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله تعالى خلقَ الدنيا لما أراد ، فجعل لها مُدَّة قصيرة ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء . ثم إنك يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا ، فإن استطعت أن لا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة ، فافعل ، وإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتبعنّك أحد بمظلمة ، ويجيء مَن قبلَك وهم غابِطون لك ، فافعل ، فإنهم قد عالجوا نزْع الموت ، وعاينوا أهوال المطْلع ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذَّتها ، وانشقّت بطونهم التي كانوا لا يشبعون فيها ، واندقَّت رقابهم غير متوسّدين ، بعد تظاهُر الفُرُش والمرافق والسرر والخدم . فصاروا جِيَفًا في بطون الأرض تحت آكامها ، لو كانوا إلى جنب مساكين تأذّوا من ريحهم ، بعد إنفاق ما لا يُحصى من الطِّيب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . ما أعظم ما ابتُليتَ به يا عمر . فمن بعثتَ من عُمّالك فازجُر زجرًا شديدًا ، شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها . المالَ المال يا عمر . الدمَ الدم يا عمر . كتبتَ إليّ أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته . إن عمر عمل في غير زمانك وبغير رجالك ، وأنا أرجو إن عملتَ على النحو الذي عمل به عمر ، بعد ما بلوت من المظالم ، أن تكون أفضل من عمر عند الله ، وقل كما قال العبد الصالح : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] »[١] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

سالم وهشام بن عبد الملك :

حجّ هشام بن عبد الملك أيام خلافته ، فدخل الكعبة ، فوجد فيها سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا ، فقال الخليفة : يا سالم ، سلني حاجة . فقال له سالم : إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيرَهُ . فلما خرج سالم من الكعبة ، خرج هشام في إثره ، وقال له : الآن خرجتَ من بيت الله ، فسلني حاجة . فقال سالم : من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة ؟ فقال هشام : من حوائج الدنيا . فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟!

الحسن البصري :

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ويحذّره من الدنيا : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن الدنيا دار ظَعْن وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال . وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة ، فاحْذَرْها ؛ فإن الراغب فيها تارك ، والغني فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرَّض لها . إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدَها تُذلّ مَن أعزّها ، وتفرِّق من جمعها . فهي كالسّمّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه - والله - حَتْفُه . فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه ، يحتمي قليلًا مخافة ما يكره طويلًا . الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ولم يغترّ بزينتها ، فإنها غدّارة ختّالة خدّاعة ، قد تعرّضتْ بآمالها ، وتزيّنت لخُطّابها ، فهي كالعروس ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة ، وهي - والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق - لأزواجها قاتلة . فاتّق يا أمير المؤمنين صَرْعتها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مُؤَدٍّ إلى الهلكة والفناء . واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفّق ، والمتمسِّك بها هالك غَرِق . والفَطِن

اللبيب من خاف ما خوّفه الله ، وحَذِر ما حذّره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين . الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عَقْل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه ، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف من سوء العاقبة . والدنيا - وأيم الله - يا أمير المؤمنين حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام .

وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها تنجُ مِن ذي عظيمةٍ وإلَّا فإنّـي لا أخَالُـكَ ناجِيَـا

ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب ، حتى رَحِمَه من كان عنده ، وقال : رحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يُوقظنا من الرّقدة ويُنبّهنا من الغفْلة ، ولله هو من مشفقٍ ما أنْصَحَه ، وواعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : عظني . فكتب إليه الحسن : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فكُن للمثْل من المسلمين أخًا ، وللكبير ابنًا ، وللصغير أبًا ، وعاقب كلّ واحدٍ منهم بذنبه على قدر جسمه ، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار »[١].

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين » :

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب الحسن البصري رحمه الله : « والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ؛ يسعى لهم صغارًا ، ويعلّمهم كبارًا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم في مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهًا ووضعته كرهًا ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

وربّته طفلًا ، تسهر بسهره وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتفطمه أُخرى ، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبدٍ ائتمنه سيّدُه ، فاستحْفَظَهُ مالَه وعيالَه ، فبدَّد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرَّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليُزدجَر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ! وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! واذكُر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحبّاؤك ، ويسلموك في قعره وحيدًا فريدًا ، فتزوّد له . واذكُر إذا بُعثر ما في القبور وحصِّل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . لا تحكُم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمل أثْقالَكَ وأثقالًا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطَّيِّبات في دنياهم بذهاب طيّباتك في آخرتك . ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنتِ الوجوه للحي القيوم . إني يا أمير المؤمنين لم آلُك شفقةً ولا نصحًا ، فأنزِل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ؛ لما يرجوه له من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير

المؤمنين ورحمة الله وبركاته »[١].

« إن استقمتَ استقاموا » :

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى فقهاء العراق أن يأتوه ، فاعتلَّ الحسن - أصيب بعلّة بفتْق في بطنه - وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، إن استقمتَ استقاموا ، وإن مِلت مالوا . يا أمير المؤمنين ، لو أنَّ لك عمر نوحٍ وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، ما كان لك بُدٌّ من أن تقتحم العقبة الجنة أو النار ، من أخطأتْه هذه دخل هذه » . فلما أتاه الكتاب ، أخذه فوضعه على عينيه ، ثم بكى ثم قال : كيف لي بعمر نوح ويقين إبراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان ؟! ولو نلت ذلك ، لم يكن لي بدّ أن أشرب بكأس الأوَّلين .

الحسن والحجّاج :

روي أن الحجاج بنى دارًا بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليروْن لأنفسهم عزًّا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عِبرًا ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيّده ، وإلى فرش فينجّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسّنها ، ثم يحفّ به ذباب طمعٍ وفراش نارٍ وأصحاب سوءٍ ، فيقول : انظروا ما صنعتُ : فقد رأيْنا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ! أما أهل السماوات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيتَ دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغُرِرت في دار الغرور لتذلّ في دار الحبور . ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، ليُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . وبلغ الحجّاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه .

حضور ، فلا تنكرون ؟! ثم أمر بإحضاره ، فجاء وهو يحرِّك شفتيْه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال له الحجاج : هاهنا اجلس . فأجلسه قريبًا منه وقال : ما تقول في عليٍّ وعثمان ؟ قال : أقول قوْل مَن هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك . قال : قال موسى لفرعون حين سأله ﴿ **فَمَا بالُ الْقُرُون الأولى قال علْمُهَا عَنْدَ رَبِّي فِي كِتَاب لَا يضلُّ رَبِّي وَلَا ينْسَى** ﴾ [طه : ٥١ ، ٥٢] عِلْم عليٍّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد . ودعا بغاليةٍ – طِيب – وعلف بها لحيتَهُ ، فلما خرج تَبِعَه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلتَ عليه ؟ قال : قلت : « يا عُدَّتي عند كُربتي ، ويا صاحبي عند شدّتي ، ويا وليّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته واصرف عني أذاه » . ففعل ربي عز وجل[1] .

الحسن وابن هُبيرة :

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق ، أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيتٍ ، فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلَّم ثم جلس معظِّمًا لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إلّي كتبًا ، أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعتُه عصيتُ الله ، وإن عصيتهُ أطعتُ الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجًا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير . فتكلَّم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده – أي يريد إرضاءه – فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ قال : أقول : يا ابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك مَلَك من ملائكة الله فظٌّ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيُخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو ابن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة ، أشدّ إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو بن هبيرة ، إني أُخوِّفك مقامًا خوَّفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١٤]. يا عمرو بن هبيرة ، إن تَكُ مع الله في طاعته ، كفاك يزيد ابن عبد الملك . وإن تكُ مع يزيد على معاصي الله ، وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعَبْرته . فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما ، فأكثر في جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي . فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس ، من استطاع منكم أن يُؤثر الله على خلْقه ، فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسنُ شيئًا منه فجهلتُه ، ولكنْ أردتُ وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه .

وفي رواية أُخرى : رفقْنا فرقِّقُوا .

الحسن والنضر بن عمرو :

أحضر النضر بن عمرو - وكان واليًا على البصرة - الحسن البصري يومًا فقال : يا أبا سعيد ، إن الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : ﴿ **وكُلُوا واشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إنَّه لا يُحِبُّ الْمُسْرِفينَ** ﴾. [الأعراف : ٣١] وقال عزَّ من قائل : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللَّهِ التي أخْرَجَ لِعبادِه والطَّيِّباتِ من الرِّزق قُلْ هي لِلَّذِين آمنوا في الحياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]. فقال الحسن : يا أيها الرجل ، اتّقِ الله في نفسك ، وإياك والأماني التي ترجّحتَ فيها فتهلك ، إن أحدًا لم يُعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأُمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا . إن الله سبحانه اختار محمدًا ﷺ لنفسه ، وبعثه

برسالته ورحمته ، وجعله رسولًا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا ، وحدَّ له في الدنيا حدودًا ، وجعل له فيها أجلًا ، ثم قال عز وجل : ﴿ **لقد كانَ لكم في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدي بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسُنّته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر . فذلك باب مخرجنا ، فأمّا أماني فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ مّن أهلها . فقال النضر : والله يا أبا سعيد ، إنا على ما فينا لنُحِبّ ربّنا . فقال الحسن : لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعُوني يُحْبِبْكُم اللهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] . فجعلَ سبحانه اتِّباعه ﷺ علمًا للمحبّة وأكْذَبَ من خالف ذلك . فاتقِ الله أيها الرجل في نفسك ، وأيم الله لقد رأيت أقوامًا كانوا قبلك في مكانك ، يعلون المنابر وتهتزّ لهم المراكب ، ويجرّون الذيول بطرًا ورياءَ الناس ، يبنون المدر ويُؤثرون الأثر ، ويتنافسون في الثياب ، أُخرجوا من سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم . فالويل لهم يوم التغابن ويا ويحهم ﴿ **يوم يفرّ المرءُ من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه** ﴾[1] . [عبس : ٣٤ - ٣٧].

ودخل عليه مرة أخرى فقال له : أيها الأمير - أيَّدك الله - إن أخاك مَن نصحك في دينك ، وبصَّرك عيوبك ، وهداك إلى مراشدك ، وإن عدوّك من غرَّك ومنّاك . أيها الأمير ، اتقِ الله ، فإنك أصبحتَ مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمنّى الأماني ، وترجّح في طلب العذر . والناس - أصلحك الله - طالبان : فطالب دنيا ، طالب آخرة . وأيم الله لقد أدرك طالبُ الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم .

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطَلَب الفاني وتَرْك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظِّها غفلتْ حتى سقاها بكأس الموتِ ساقيها

نعوذ بالله من الحوْر بعد الكوْر ، ومن الضلالة بعد الهُدى . لقد حدّثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول « كفى بالمرء خيانةً أن يكون للخونة أمينًا ، وعلى أعمالهم مُعينًا »[1] .

خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز :

« إن أقوامًا غرَّهم ستْر الله » :

قال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان : عظني وأوجِز . فقال خالد ابن صفوان : يا أمير المؤمنين ، إن أقوامًا غرّهم ستر الله ، وفتنهم حُسن الثناء ، فلا يغلبنّ جهلُ غيرك بك عِلْمَك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثناء الناس مفتونين ، وعما افترض الله علينا متخلِّفين ، وإلى اللهو مائلين . قال : فبكى ، ثم قال : أعاذنا الله وإياك من اتِّباع الهوى .

ودخل عليه مرة أُخرى فقال له : عظني يا خالد . فقال : إن الله لم يرض أحدًا أن يكون فوقك ، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أوْلَى بالشُّكر منك . قال : فبكى عمر حتى غُشي عليه ثم أفاق ، فقال : هيه يا خالد ، لم يرض أن يكون أحد فوقي ، فوالله لأخافنّه خوفًا ، ولأحذرنّه حذرًا ، ولأرجونّه رجاءً ، ولأُحبنّه محبّة ، ولأشكُرنّه شكرًا ، ولأحمدنّه حمدًا ، يكون ذلك كله غاية طاقتي ، ولأجتهدنّ في العدل والنَّصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها ، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها ، حتى ألقى الله عز وجل ؛ فلعلي أن أنجو مع الناجين ، وأفوز مع الفائزين . وبكى حتى غُشي عليه .

---

(١) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

أحد الرَّعِيَّة وعمر بن عبد العزيز :

« ويحك ارْدُدْ عليَّ كلامَك » :

ذكر رجل مظلمة له على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين اذكُر مقامي هذا ، فإنه مقام لا يشغل الله - عز وجل - عنه كَثْرة مَن تخاصمَ إليه من الخلائق ، يومَ تلقاه بلا ثقةٍ من العمل ولا براءةٍ من الذنب . فقال عمر : ويحك ، اردُد عليّ كلامك . فردَّده عليه ، فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال : ما حاجتك ؟ قال : عاملك على أذربيجان ظلمني ، وأخذ من مالي عشرة الآف درهم . فكتب بردِّ ذلك عليه ، وبعزْل عامله ، وقال : انظروا هل اخْلَوْلَق له ثوب ، أو تقطّع له من حذاء . فحسب ذلك فبلغ عشرين دينارًا ، فأمر عمر بدفْعها إليه[1].

يعلى بن مَخْلَد والحجّاج :

دخل يعلى بن مخلد المجاشعي على الحجاج في مرض الموت ، فقال له : كيف ترى ما بك يا حجاج مِن غَمَرات الموت وسَكَراته ؟ فقال : يا يعلى ، غمًّا شديدًا ، وجهدًا جهيدًا ، وألمًا مضيضًا ، ونزْعًا حَريضًا ، وسفرًا طويلًا ، وزادًا قليلًا ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبّار . فقال : له يا حجاج ، إنما يرحم الله من عباده الرُّحماء الكُرماء ، أُولي الرحمة والرأفة ، والتَّحنُّن والتَّعطُّف على عباده وخلْقه ، أشهد أنك قرين فرعون وهامان ؛ لسوء سيرتك ، وترْك مِلّتك ، وتنكُّبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلتَ صالحي الناس فأفْنَيْتَهم ، وأبرت عِترةَ التابعين فتبرتهم ، وأطعت المخلوق في معصية الخالق ، وهرقت الدماءَ ، وضربت الأبشار ، وهتكتَ الأستار ، وسُستَ سياسة متكبِّر جبّار ، لا الدِّين أبقيتَ ، ولا الدنيا أدركتَ ، أعززتَ بني مَرْوان ، وأذللتَ نفسك ، وعمرتَ دورهم ،

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي .

وأخربتَ دارك . فاليوم لا يُنجُّونك ولا يُغيثونك ، إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر . لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا ، وعناءً وبلاءً ، فالحمد لله الذي أراحها بموتك ، وأعطاها مُناها بخِزْيك . قال : فكأنما قُطع لسانه عنه ، فلم يحر جوابًا ، وتنفّس الصُّعَداء ، وخنقتْه العَبْرة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه ، وأنشأ يقول :

ربِّ إن العبادَ قد أيأسُوني ... ورجائي لك الغداةَ عظيمُ[1]

يحيى بن يعمر والحجّاج :

عن الشعبي : كنت عند الحجاج ، فأُتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبَّلًا بالحديد ، فقال له الحجاج : أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ . فقال : بلى . فقال الحجاج : لتأتيني بها واضحة بيِّنة من كتاب الله ، أو لأقطعنّك عضوًا عضوًا . فقال : آتيك بها واضحة بيّنة من كتاب الله يا حجاج . قال : فتعجَّبَ من جُرأته بقوله : يا حجاج . فقال له الحجاج : ولا تأتيني بهذه الآية : ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾. فقال : آتيك بها واضحة من كتاب الله ، وهو قوله : ﴿ **وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيوسُفَ وَمُوسَى وَهَارونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسَى** ﴾ فمن كان أبو عيسى وقد أُلحِق بذرية نوح ؟ قال : فأطرق مليًّا . ثم رفع رأسه فقال : كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله . حلّوا وثاقهُ ، وأعطوه من المال كذا[2].

رجل من اليمن والحجاج :

بينما الحجاج جالس في الحجر إذ دخل رجلٌ من أهل اليمن ، فجعل يطوف فوكّل به بعض من معه ، فقال : إذا خرج من طَوْفِه فأْتِنِي به . فلما

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي .

فرغ من طوْفه ، أتاه به فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال : ألك علم بمحمد بن يوسف ؟ قال : نعم . قال : فأخْبِرني عنه . قال : لقد تركتُه أبيض بضًّا سمينًا طويلًا عريضًا . قال : ويلك ، ليس عن هذا أسألك . قال : فعَمَّه ؟ قال : عن سيرته وطُعمته . قال : فأجْوَرُ السِّير ، وأخْبَث الطُّعم ، وأعْدَى العداةِ على الله وأحكامه . قال : فغضب الحجاج وقال : ويلك ، أما علمتَ أنه أخي ؟ قال : بلى . قال : أفأنت ما علمت أن الله ربي ؟ والله لهو أمْنَعُ لي منك ، أكْثَر منك لأخيك . قال : أجل ، أرسِلْه يا غلام[1].

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه :

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لي إليك حاجة ، فأخلني – وعنده مسلمة بن عبد الملك بن مرْوان – فقال له عمر : أسِرٌّ دون عَمِّك ؟ فقال : نعم . فقام مسلمة وخرجَ . وجلس بين يديه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربّك غدًا إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم تُمتها ، أو سُنَّة لم تُحْيِها ؟ فقال له : يا بني أشيءٌ حمَّلَتكَهُ الرعيّة إليّ ، أم رأي رأيتَهُ من قِبَل نفسك ؟ قال : لا والله ، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسئولٌ ، فما أنت قائل ؟ فقال له أبوه : رحمك الله ، وجزاك من ولدٍ خيرًا ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير . يا بُنَّي ، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقدةً عقدة وعَروةً عروةً ، ومتى ما أُريد مُكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم ، لم آمن أن يفتقوا عليّ فَتْقًا تكثُر فيه الدماء ، والله لَزَوالُ الدنيا أهْوَن عليّ من أن يُهراق في سببي محجمةٌ من دم ، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا ، إلا وهو يُميت فيه بدعة ويُحيي فيه سنة ، حتى يحكُم الله

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

الخازن وعمر :

كان لعمر بن عبد العزيز غلام ، وكان خازنًا لبيت المال ، وكان لعمر ثلاث بناتٍ ، فجئنه يوم عرفة وقلن له : غدًا العيد ، ونساء الرعيَّة وبناتهم يَلُمْنَنا ، ويقُلن : أنتنّ بنات أمير المؤمنين ، ونراكن عُريانات ، لا أقلّ من ثيابٍ بيضاء تَلْبَسْنها . وبكين عنده ، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن ، وقال له : أعطني مُشاهرتي - الراتب الشهري - لشهرٍ واحد . فقال الخازن : يا أمير المؤمنين ، تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا ، انظر ، إن كان لك عُمرُ شهرٍ ، فخُذ مشاهرةَ شهرٍ . فتحيَّر عمر وقال : نِعم ما قلت أيها الغلام ، وبارك الله فيك . ثم قال لبناته : اكظِمن شهواتكنّ ؛ فإن الجنة لا يدخلها أحد بغير مشقّة[1].

غلامٌ هاشميّ وعمر بن عبد العزيز :

« لو أن الأمر بالسِّنّ ، لكان في الأُمّة من هو أحقّ منك » :

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدتِ الوفود من كل بلد ؛ لبيان حاجتها وللتهنئة ، فوفد عليه الحجازيّون ، فتقدم غلامٌ هاشمي للكلام ، وكان حديث السِّنّ ، فقال عمر : ليتكلمْ من هو أسنُّ منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه ، فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافِظًا وقلبًا حافظًا ، فقد استحق الكلام ، وعرَف فضله من سمِع خطابه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن ، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك . فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة ، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منّ علينا بك ، ولم يُقدمنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ، أما الرغبة : فقد

(١) التبر المسبوك .

أتيناك من بلادنا . وأما الرهبة : فقد أمِنَّا جورك بعدْلِك . فقال عمر : عظني يا غلام . فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن ناسا من الناس غرّهم حِلْم الله عنهم ، وطول أملهم ، وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهوَوْا في النار . فلا يغرنَّك حِلم الله عنك ، وطول أملك ، وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزِلّ قدمُك فتلحق بالقوم . فلا جعلك الله منهم ، وألحقَكَ بصالحي هذه الأمة . ثم سكت . فقال عمر : كم عمر الغلام ؟ فقيل : إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه ، فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأثنى عليه خيرًا ، ودعا له وتمثّل قائلًا :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولدُ عالمًا ... وليسَ أخو علمٍ كمنْ هُو جاهلُ
فإنَّ كبيرَ القومِ لا علم عندَهُ ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافلُ

محمد بن واسع وبلال بن أبي بُردة :

« لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي » :

دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حارٍّ ، وبلال في حشمه وعنده الثلج ، فقال بلال : يا أبا عبد الله ، كيف ترى بيتنا هذا ؟ قال : إن بيتك لطيّب والجنة أطيب منه . وذكْر النار يُلهي عنه . قال : ما تقول في القدر ؟ قال : جيرانك من أهل القبور ففكّرْ فيهم ، فإن فيهم شغلا عن القدر . قال : ادع لي . قال : وما تصنع بدعائي ، وعلى بابك كذا وكذا ، كلٌّ يقول إنك ظلمتهم . يرتفع دعاؤهم قبل دعائي ؟! لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي .

مالك بن دينار وبلال بن أبي بُردة :

« ما أدري أيُّهما أكرم على الله » :

خرج بلال بن أبي بردة في جنازة ، وهو أمير على البصرة ، فنظر إلى جماعة وقوفًا فقال : ما هذا ؟ قالوا : مالك بن دينار يذكّر الناس . فقال لوصيف معه : اذهب إلى مالك بن دينار ، فقل له يرتفع إلينا إلى القبر . فجاء الوصيف

فأدّى الرسالة إلى مالك ، فصاح به مالك : ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها ، فإن تكن له حاجة ، فليجيء إلى حاجة نفسه . فلما دفنوا ميِّتهم ، قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك ، فلما دنا منه ونزل ، نزل من معه ، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس ، فلما رآه مالك بن دينار سكت ، فأطال السكوت ، فقال بلال : يا أبا يحيى ذكّرنا . فقال : ما نسيتَ شيئًا فأذكِّرك به . قال : فحدِّثنا . قال : أمّا هذا فنعم ، قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة ، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه . فوالله ما أدري أيهما كان أكرم على الله سبحانه . فقال بلال : يا أبا يحيى ، أتدري ما الذي جرأك علينا ، وما الذي أسكتنا عنك ؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئًا . أما والله لو أخذت من دراهمنا شيئًا ، ما اجترأت علينا هذه الجرأة .

يقول الطرطوشي : فأفاد هذا الحديث علمًا . ألا فاتقوا دراهمهم . وما أشبه هذا بقول القائل :

مَنْ كان لا يطأُ الترابَ برجلِهِ ... وَطِىء الترابَ بناعمِ الخَدِّ
مَن كانَ بينَكَ في الترابِ وبينَهُ ... شبرانِ كان بغايةِ البعدِ
لو بُعثرتْ للناسِ أطباقُ الثَّرى ... لم يُعرَفِ المولى مِنَ العبدِ[1]

مالك بن دينار والمهلّب :

« أعرفك حقَّ المعرفة » :

عن الأصمعي عن أبيه ، قال : مرَّ المهلب بن أبي صفرة على مالك ابن دينار ، وهو يتبختر في مِشيته ، فقال له مالك : أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصَّفّيْن ؟ فقال له المهلّب : أما تعرفني ؟ فقال مالك : أعرفك أحسن المعرفة . قال : وما تعرف مني ؟ قال : أمَّا أولك نطفة مذرة ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

وآخرك ، جيفة قَذِرة ، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة . قال : فقال المهلب : الآن عرفتني حق المعرفة .

نعم يا أخي يحيى :

أنفٌ يسيل وأذن كلها سَهَكٌ والعين مُرْمَصَة والثَّغرُ مَلْعُوبُ

يا ابنَ التراب ومأكولُ الترابِ غدًا قصِّرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

حطيط الزَّيَّات والحجَّاج :

« أنت خطيئةٌ من خطاياه » :

جِيءَ بحطيط الزيات إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سلِ عمّا بدا لك ، فإني عاهدتُّ الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سُئلتُ لأصدقنَّ ، وإن ابتُليتُ لأصبرنّ ، وأن عوفيت لأشكرنّ . قال : فما تقول فيَّ ؟ قال : أقول : إنك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم ، وتقتل بالظّنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول : إنه أعظم جرمًا منك ، وأنت خطيئة من خطاياه . قال : فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب . قال : فانتهى به العذاب ، حتى انتحلوا لحمه . فما سمعوه يقول شيئًا ، ثم مات . رحمه الله . وكان ابنَ ثمان عشرة سنة .

أحد الزُّهاد وخليفة :

حُكيَ أن بعض الزهاد دخل على بعض الخلفاء ، فقال له : عظني . فقال له : يا أمير المؤمنين ، كنت أسافر الصين ، فقدِمتها مرة وقد أصيب ملكُها بسمْعِه ، فبكى بكاء شديدًا ، وقال : أما إني لست أبكي على البليَّة النازلة ، ولكن أبكي لمظلوم على الباب يصرخ فلا يُؤْذن له ، ولا أسمع صوته ، ولكن إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس : لا يلبَس أحد ثوبا أحمر إلا متظلِّم . ثم كان يركب الفيل في نهاره حتى يرىٰ

حمرة ثياب المظلومين . فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، غلبت عليه رأفته على المشركين . وأنت مؤمن بالله تعالى ، ومن أهل بيت نبيه ﷺ . كيف لا تغلب رأفتك بالمؤمنين[١]؟!.

صالح المري[٢] والمهدي :

قال صالح المري : دخلت على المهدي ، فلما مثُلت بين يديه قلت : يا أمير المؤمنين احمل الله ما أكلمك به اليوم ، فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلْظة النصيحة فيه ، وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهدْيه ، وقد ورثك الله من العلم والحجة ميراثا قطع به عذرَك . واعلم أن رسول الله ﷺ خصمُ مَن خالَفه في أمته ، ومن كان محمد خصمَه : اللَّهُ خصمُه ، فأعدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حُججًا تضْمن لك النجاة ، أو استسلم للهلكة . واعلم أن أبطأ الصَّرعى : نهضة صريعِ هوًى يدّعيه إلى الله قربةً ، وأن أثبتَ الناس قدمًا يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة نبيه . فمثلك لا يكابر المعصية ، ولكن تُمثَّل له الإساءة إحسانًا ، وتشهد له عليها خونة العلماء ، وبهذه الحبالة تصيدتِ الدنيا نظراءَك ، فأحسِن الحَمْل ؛ فقد أحسنتُ إليك الأداء . قال : فبكى المهدي . يقول مَن روى هذا القول : وقد أخبر بعض الكتَّاب في الدواوين ، أنه رأى هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي .

صالح بن عبد الجليل والمهدي :

« أنت أعلمُ بموضع النجاة » :

دخل صالح بن عبد الجليل – وكان ناسكًا مفوها – على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لما

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

(٢) صالح بن بشير المري ، واعظ البصرة ، روى عن الحسن البصري .

سهل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول الله ﷺ ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، لانقطاع عذر الكتمان في التَّقيّة ، لا سيما حين اتسمتَ بميْسَم التواضع ، ووعدتَ الله وحملةَ كتابه إيثار الحقّ على ما سواه ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : مَن حجب الله عنه العلم ، عذّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابًا من أقبل إليه العلم فأدبرَ عنه ، ومَن أُهدي إليه العلم فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله ، وقصر بها ، فاقبلْ ما أهدىٰ الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيقٍ . فبكى المهدي حتى ظنوا أنه لا يسكت ، وقال : يا صالح ، **لو وجدتُ رجالًا يعملون بما آمرهم به وما أنوي في رعيتي** ، لظننت أني ألقىٰ الله عز وجل وأمْر أمة محمد ﷺ أقلّ ذنوبي وأهون حسابي . ولكن دُلّني على وجه النجاة ، فإن لم أعمل كنت أنا الجاني على نفسي ، والمؤثر هوايَ على رضا ربي . قال له صالح : أنت يا أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة . قال : لو كنتُ أعلم بموضع النجاة ما كنتُ أولى بعظتي مني بعظتك ، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا يَصلُح والله عليها أحد من أهل هذا العصر ؛ وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يُرضي أحدهم التمر البالي ، وتنفعه الكسرة اليابسة ، والماء القَراح . وهم اليوم في مطارف الخزّ والوشْي ، ومائدة أحدهم في اليوم تمثل غنىٰ ذي العيال في زمن عمر ، ولو أنني حملتُ الناس على سيرة العمريْن في هذا العصر ، كنت أولَ مقتول ؛ وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد ، لا يصبر عليه إلا المرزأ السابق ، فأطرق صالح مفكّرًا ثم رفع رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه ليقع في خَلَدي أنك قبلت قولي قبول تحقيقٍ . فقال المهدي : شهيدي على ذلك هو الله . فقام صالح ، وقال : أعانك الله يا أمير المؤمنين على صالح نيَّتك ، وأعطاك أفضل ما تأمَله في رعيَّتك ، ووهب لك أعوانًا صالحين بررة ، يعملون بما

يجب عليهم فيك . ثم خرج .

حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان :

« أدركنا العلماءَ وهم لا يأتون أحدًا » :

قال مقاتل بن صالح الخراساني : دخلتُ على حماد بن سلمة مفتي البصرة ، فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ ، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علْمُه ، ومطهرة يتوضأ فيها ، فبينما أنا عنده جالس ، إذا بطارقٍ يطرق الباب ، فقال : يا صبية،اخرجي فانظري مَن هذا ؟ فقالت : رسول محمد بن سليمان . قال : قولي له يدخل وحده . فدخل ، فناوله كتابًا فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن سليمان إلى حماد ابن سلمة ، أما بعد : فصبَّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته . وقعتْ مسألة فأْتنا نسألك عنها . والسلام ». قال : يا صبية ، هلمِّي الدواة . ثم قال لي : اقلب الكتاب واكتب : « أما بعد،وأنت فصبّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا . فإن كانت وقعت مسألة فأْتِنا واسألنا عما بدا لك . وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدَك ، ولا تأتني بخيلك ورَجْلِك ، فلا أنصح ، ولا أنصح إلا نفسي . والسلام » فبينما أنا عنده ، إذ دقّ داقٌّ الباب . فقال : يا صبية،اخرجي ، فانظري من هذا ؟ فقالت : محمد بن سليمان . قال : قولي له : ليدخلْ وحده . فدخل فسلم ، فجلس بين يديه ، فقال : ما لي إذا نظرتُ إليك ، امتلأتُ رعبًا . فقال حماد : سمعتُ ثابتًا البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العالم إذا أراد بعلمه وجهَ الله عز وجل ، هابه كلُّ شيء ، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز ، هاب من كلِّ شيء » . فقال : ما تقول رحمك الله في رجل له ابنانِ ، وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد أن يجعل له في حياته ثُلثَيْ ماله ؟ قال : لا يفعل رحمك الله ؛ فإني سمعت البناني

يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله أن يعذب عبدَه بماله ، وقفه عند موْته لوصية جائرة » . قال : فحاجة إليك . قال : هات ؛ ما لم تكن رزية في دين . قال : أربعون ألف درهم تأخذها ؛ تستعين بها على ما أنت عليه . قال : ارددها على مَن ظلمته بها . قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته . قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني ، زَوَىٰ الله عنك أوزارك . قال : فتقسِمُها . قال : فلعلي إن عدلْت في قسمتها أن يقول بعض مَن لم يُرزق منها : لم يعدِل . ازوِها عني ، زوىٰ الله عنك أوزارك[١].

بهلول[٢] المجنون والرشيد :

« لا يعطيك وينساني » :

عن الفضل بن الرَّبيع ، قال : حججتُ مع هارون الرشيد ، فمررنا بالكوفة ، فإذا بهلول المجنون يَهذي ، فقلت له : اسكُتْ ؛ فقد أقبل أمير المؤمنين . فسكت . فلما حاذاه الهوْدَجُ ، قال : يا أمير المؤمنين ، حدثني أيمن بن نابل ، قال : أنبأنا قدامة بن عبد الله العامري قال : « رأيت النبي ﷺ بمنىٰ على جمل ، وتحته رَحْل أسود ، فلم يكنْ ثَمَّ طردٌ ولا ضرْبٌ ولا إليكَ إليكَ »[٣]. قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه بهلول المجنون . قال : قد عرفته . قال : يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين :

هبْ أنك قد ملكتَ الأرضَ طَرًّا ... ودانَ لك العبادُ فكانَ ماذا
أليس غدًا مصيرك جوْفُ قبرٍ ... ويحثو التُّربَ هذا ثم هـذا

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) هو أبو وهيب بهلول بن عمرو المجنون ، من أهل الكوفة .

(٣) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه النسائي والدارمي وابن ماجة .
(إليكَ إليكَ) : اسم فعل ، بمعنى تنحَّ عن الطريق .

قال : أجدتَّ يا بهلول ، أفغيره ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، من رزقه الله جمالًا ومالًا ، فعفَّ في جماله وواسى في ماله ، كُتب في ديوان الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئًا . قال : فإنا قد أمرنا بقضاء دَينك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين . لا تقضِ دَينا بدَين ،ارددِ الحق إلى أهله ، واقضِ دَيْن نفسك من نفسك . قال : إنا قد أمرنا أن يُجرَى عليك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يعطيك وينساني . أجرى عليَّ الذي أجرى عليك ، لا حاجة لي في جرايتك .

« وهذه قصورهم ، وهذه قبورهم » :

حينما التقى هارون الرشيد بالبهلول ، قال له : عظني يا بهلول . فقال له بهلول : بمَ أعظك يا أمير المؤمنين ؟! هذه قصورهم ، وهذه قبورهم . ثم قال : كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق بين يديه ، وسألك عن النقير والفتيل والقطمير ، وأنت عطشان جوعان عُريان ، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون . فإذا بهارون تخنقه العَبرة ، وتسيل دموعه ، ويأمر بصِلَةٍ لبهلول ، فقال له بهلول : ردَّها على من أخذتها منهم ، قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترتضيهم به . ثم أنشد :

دعِ الحرْصَ على الدنيا ... وفي العيْشِ فَلا تَطمعْ
فإنَّ الرزقَ مقسُوم ... وسوءُ الظنِّ لا يَنفعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حرْصٍ ... غَنيٌّ كلُّ مَنْ يقنعْ[1]

ابن السَّماك والرشيد :

« لو مُنعتْ عنك هذه الشربة ؟ » :

حينما دخل ابن السماك على الرشيد أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

واقفٌ غدًا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار . فبكى هارون حتى ابتلتْ لحيته بالدموع ، ثم طلب هارون ماءً ليشرب ، فلما وضع الماء على فيه ليشرب ، قال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . فقال له ابن السماك : اشربْ هنَّأك الله . فلما شرب ، قال له : أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير أن لا يُنافس فيه . فبكى هارون الرشيد ، حتى أشفق الحاضرون عليه .

« لا يكنْ أحدٌ أطوعَ لله منك » :

قال ابن السماك : أرسل إليَّ هارون الرشيد ، فدعاني ، فقال لي : يا ابن السماك ، عظني . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة من ذاق نعيم الدنيا . قال : فبكى ، ثم قال : زدْنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يرضَ لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدًا ، فلا ترض أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك . قال : فبكى هارون حتى رحمتُه . فقال لي الفضل : ارفق بأمير المؤمنين . ثم قال : تكلَّمْ يا ابن السماك وادعُ . فدعوتُ بدعاءٍ أعجبه ، وقلت في دعائي : اللهمَّ إنك قلتَ : ﴿ **وأقسموا بالله جَهد أيْمانهم لا يبعث اللَّهُ مَن يموت** ﴾ أفتراك يا رب تجمع بين أهل القَسَمَيْن في مكان واحد . وهارون يبكي[1].

وجاء في « سراج الملوك » للطرطوشي : لما دخل ابنُ السّماك على هارون الرشيد ، قال له : عظني . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الله لم يرضَ

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

لخلافته في عباده غيركَ ، فلا ترض من نفسك إلا بما رضيَ الله به عنك ، فإنك ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين ، مَن طلب فِكاك رقبته في مهلة مِن أجَله ، كان خليقًا أن يعتق نفسَه . يا أمير المؤمنين ، منَ ذوَّقته الدنيا حلاوتَها بركون منه إليها ، أذاقتْه الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ، ناشدتك الله أن تَقدُم إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض ، وقد دُعيتَ إليها ، وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين ، تموت وحدك وتحاسَب وحدك ، وإنك لا تَقدُم إلا على نادمٍ مشغول ، ولا تُخلف إلا مفتونًا مغرورًا ، وإنك وإيّانا في دار سفرٍ وجيران ظعن .

وجاء فيه أيضًا :

« هذا ذلّ الصفة ، فكيف بذلِّ المُعاينة ؟! » :

بعث هارون إلى ابن السماك ، فلما أخذه الحرس بغير رفْق ورآه الرشيد ، قال : ارفقوا بالشيخ . فلما وقف بين يديه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أمي - أتعب فيه من يومي هذا ، فاتقِ الله في خلقه ، واحفظ محمدًا في أمته ، وانصح لنفسك في رعيَّتك ؛ فإن لك مقامًا بين يدي الله تعالى أنت فيه أذلّ من مقامي هذا بين يديك. فاتق الله ، واعلم أن مِن أخْذ الله وسَطوته على أهل المعصية كيْت وكيْت . قال : فاضطرب الرشيد على فراشه ، حتى نزل إلى مصلًّى بين يديْ فراشه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ذلُّ الصّفة ، فكيف لو رأيتَ ذلَّ المعاينة ؟! فكادتْ نفس الرشيد تخرج .

شقيق البلْخي والرَّشيد :

قال هارون الرشيد لشقيق البلخي : أوصني . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق ، وإنه تعالى يطلب منك

مثل صِدْقه ، وإنه تعالى أعطاك مكان الفاروق وهو يطلب منك مثل عدْله ، وإنه تعالى أجلسك مكان عثمان وهو يطلب منك مثل حيائه وخوفه ، وإنه أعطاك مكان عليّ وهو يطلب منك مثل علمه وحُكمه . فقال له الرشيد : زدْني يا شقيق . فقال شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن لله دارًا تُعرف بجهنم ، وإنه جعلك بوَّابًا عليها ، وأعطاك ثلاثة أشياء لتردَّ عباده عنها : أعطاك بيت المال والسوْط والسيف ، وأمرك أن تمنع الناس عن دخول النار ، فمن جاءك مُحتاجًا إلى طعام حلال ، فلا تمنعْه حقه في بيت المال ، حتى لا يسرق ويقتل . ومن خالف أمر الله ، وخرج على حدود الله فأدّبه بالسوط . ومن قتل نفسًا بغير حق ، فاقتله بالسيف ، إلا أن يعفو ولي المقتول . فإن لم تفعل في مُلكك بدين الله ، فأنت زعيم أهل النار . فقال له الرشيد : زدْنا . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن مَثَلك كمَثل منبع الماء ، والعلماء والأمراء هم السواقي على منبع الماء ، فإذا كان المنبع صافيًا ، نقلت السواقي الماء صافيًا ، وإن كان النبع كَدَرًا ، كان ماء السواقي كدرًا . فبكى هارون الرشيد من قوْله ، وأمر له بمال . فأبى أن يأخذه وتركه ، وانصرف .

عمرو بن عُبيد[1] والمنصور :

« أظهِرِ الحق يتبعْك أهلُه » :

قال المنصور : يا أبا عثمان ، عظني . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **والفجر وليالٍ عشر والشفعِ والوتر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فصبَّ عليهم ربك سوْطَ عذابٍ إن ربك**

(١) شيخ أهل البدع والمعتزلة ولا كرامة .. وقد سقناها لقبول كلمة الحق ولو من أبعد الناس عنها ؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة عن شيطان الجن الذي عَرَض له : « صدقك وهو كذوب » .

لبالمرصاد ﴾ قال : فبكى بكاءً شديدًا ، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة ، وقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشترِ نفسك منه ببعضها . واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ، ثم أفضىٰ إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك . وإني أحذرك ليلة تَمخضُ صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشد من بكائه الأول ، حتى رجف جنباه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقًا بأمير المؤمنين ، قد أتعبته منذ اليوم . فقال له عمرو : وبمثلك ضاع الأمر وانتشر – لا أبالك – وماذا خفتَ على أمير المؤمنين أن يبكيَ من خشية الله ؟ فقال له أمير المؤمنين : يا أبا عثمان،أعني بأصحابك أستعن بهم . قال : أظهرِ الحق يتبعك أهله . قال : لقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم ، تستعين بها على سفرك وزمانك . قال : لا حاجة لي فيها . قال : والله لتأخذنها . قال : والله لا آخذُها . فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف . فقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هو ابني محمد ، وهو المهدي ، وولي العهد . فقال : والله لقد سميتَه اسمًا ما استحقه عملُه ، ولقد مهدتَّ له أمرًا أمتعَ ما يكون به ، أشغلَ ما يكون عنه . ثم التفتَ إلى المهديّ فقال : يابن أخي ، إذا حلَف أبوك ، وحلَف عمك ، فإن أباك أقدر على الكفَّارة من عمِّك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال : لا تبعثْ إليَّ حتى آتيك . قال : إذًا لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني . قال : فاستحفظه وودعه ، ونهض قائمًا . فلما ولّى مدَّه بصرَه ، وهو يقول :

كلُّكُمْ يمشي رُويدْ ... كلُّكُمْ يطلبُ صَيدْ
غيرَ عمرو بن عُبَيدْ

« **لَيتقربنَّ إليك بالعدلِ مَن لا نيَّةَ له فيه** » :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرةٍ من الخير والشرِّ . وإن الأمة

خُصماؤُك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليْك . وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية . يا أمير المؤمنين ، إن وراء بابك نيرانًا تتأجج من الجور ، والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ . قال : فبكى المنصور . فقال سليمان بن مجالد ، وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو ، قد شققتَ على أمير المؤمنين . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين مَن هذا ؟ قال : أخوك سليمان بن مجالد . قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وإن كل ما تراه يَنفَد ، وإنك جيفة غدًا بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدَّمته ، ولَقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قُرْبك ، إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه .. يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا إلى شهواتهم . قال المنصور : فأصنعُ ماذا ؟ ادعُ لي أصحابك ، أُوَلِّهم . قال : ادع أنت بعمل صالح تُحدِثه ، ومرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل في اليوم الواحد عمَّالًا ، كلما رابَك منهم ريْب ، أو أنكرت على رجل عزلْتَه ووليْت غيره . فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرَّبن به إليك مَن لا نيةَ له فيه .

الفُضَيْل بن عِياض :

انظر إلى سيِّدٍ من سادات المتهجدين ، الذي كان إذا وعظ قبّل ابنُ المبارك جبهته ، وقال : يا مُعلّمَ الخير ، من يحسن هذا غيرك .

انظر إليه حين يقول : لَأَنْ يدنو الرجل من جيفة منتنةٍ ، خير له من أن يدنو إلى هؤلاء - يعني السلطان -.

وقال أيضًا : رجل لا يخالط هؤلاء ، ولا يزيد على المكتوبة ، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ويحج ويعتمر ، ويجاهد في سبيل الله .

واسمع يا أخي إلى الجبال حين تتكلم،استمع إلى زواجر الكلم تُلقى على مسامع الخليفة من قِبل متهجد ، وهو الفُضَيل : « قال الفَضْل بن الربيع : حجّ أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجتُ مسرعًا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء ، فانظر لي رجلًا أسأله . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة . فقال : امضِ بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فقال : مَن ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعًا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحدَّثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ فقال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه . فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . قال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فخرج مسرعًا ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ لأتيتك . قال : خذ لما جئناك له ، فحادثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ قال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه. فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا الفضيل بن عياض . قال : امضِ بنا إليه . فأتيناه فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يردّدها ، فقال : اقرع الباب . فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعة ؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه » فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا ، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال : يالها من كفٍّ ! ما ألْينها إن نجتْ غدًا من عذاب الله عز وجل ! فقلت في نفسي : ليكلمنّه الليلة بكلام من تقي قلب نقيّ . فقال له : خذ لما جئناك له ،

رحمك الله . فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم ابن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيْوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء ، فأشيروا عليّ . فعدّ الخلافة بلاء ، وعددتَّها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتّ النجاة من عذاب الله فصم الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا ، وأوسطهم أخًا ، وأصغرهم عندك ولدًا ، فوقِّر أباك ، وأكرمْ أخاك ، وتحنّنْ على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله ، فأحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك ، واكرْه لهم ما تكره لنفسك ، ثم متْ إذا شئت . وإني أقول لك ؛ فإني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزِلُّ فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثلُ هذا ؟ أو مَنْ يشير عليك بمثل هذا ، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، حتى غُشي عليه ، فقلت له : ارفُقْ بأمير المؤمنين . فقال : يا ابن الربيع ، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ! ثم أفاق ، فقال له : زدني ، رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، بلَغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا ، فكتب إليه عمر : يا أخي ، أذكّرك طولَ سهر أهل النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخرَ العهد ، وانقطاع الرجاء . قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد ، حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمَك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . قال : فبكى هارون بكاء شديدًا ، ثم قال له : زدني رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أمِّرني على إمارة . فقال له النبي ﷺ : « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعلْ » . فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، فقال له : زدني ، رحمك الله . قال : يا حسنَ الوجه ،

أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإياك أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك ؛ فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشًّا ، لم يرحْ رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ، وقال له : عليك ديْن ؟ قال : نعم ، ديْن لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إنْ ناقشني ، والويل لي إن لَمْ أُلهم حجتي . قال : إنما أعني من ديْن العباد ؟ قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال جل وعز : ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ . فقال له : هذه ألف دينار ، فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك . فقال : سبحان الله ، أنا أدلّك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ! سلّمك الله ووفقك . ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : إنْ دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا . هذا سيد المسلمين »[1] .

« هذا كتاب الله بين الدَّفتيْن » :

حدث يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض ، قال : لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين ، قال : أيّكم هو ؟ قال : فأشاروا إلى أمير المؤمنين ، فقال : أنت هو يا حسنَ الوجه ؟! لقد كُلِّفتَ أمرًا عظيمًا ، إني ما رأيت أحدًا هو أحسن وجهًا منك ، فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار ، فافعل . فقال لي : عظني . فقلت : بماذا أعظك ؟! هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه ؟ وماذا عمل بمن عصاه ؟ إني رأيتُ الناس يُعرضون على النار عرضًا شديدًا ، ويطلبونها طلبًا شديدًا حثيثًا ، أمَا والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها . فقال : عدْ إليّ . فقال : لو لم تبعث إليّ لم آتِك ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ مني عدتُ إليك.

---

(١) الحلية ٨/١٠٥ - ١٠٧ .

عبد الله الخُراساني وهارون الرشيد :

حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال : حججتُ مع أبي - سنةَ حجّ الرشيد - فإذا نحن بالرشيد ، وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء ، وقد رفع يديْه وهو يرتعد ويبكي . ويقول : يا رب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذنب ، وأنت العوّاد إلى المغفرة ، اغفر لي . فقال لي : يا بنّي ، انظر إلى جبّار الأرض كيف يتضرّع إلى جبّار السماء .

هارُونُ الرَّشيد ورجلٌ :

أمير المؤمنين هارون الرشيد أمَر يحيى بن خالد بحبْس رجل جنى جِناية ، فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيدُ ، فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء . فقال للموكّل به : عَرِّضْ له بأنْ يكلّمني ، ويسألني إطلاقَه . فقال له الموكَّل ذلك . فقال : قلْ لأمير المؤمنين : إن كلّ يومٍ يمضي من نعمتك يُنقص من محنتي ، فالأمر قريب ، والمَوْعدُ الصراطُ ، والحاكمُ الله . فخرّ الرشيد مغشيًّا عليه ، ثم أفاق وأمر بإطلاقه .

أسلم مولى عمرَ وجعفر بنُ أبي سليمان :

« مَن أبطأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه » :

روى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبي طالب الهاشمي ، والي المدينة : احذر أن يأتيَ رجل غدًا ، ليس له في الإسلام نسبة ، ولا أبٌ ، ولا جدٌّ ، فيكون أولى برسول الله منك ، كما كانت امرأة فرعونَ أوْلى بنوحٍ ولوطٍ عليهما السلام من زوْجيْهما ، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته . مَن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبُه ، ومن أسرع به عمله لم يُبطئْ به نسبُه .

الأَمينُ بن هارونَ الرشيد :

قال الإمـام أحمد : بلغني أنّ إسماعيل بن عُلَيَّة الحافظ أُدخِل على

الأمين ، فلما رآه ، زحَف ، وجعل يقول : يا ابنَ الفاعلة ، تتكلم في القرآن[١]؟! وجعل إسماعيل يقول : جعلني الله فداك ، زلةٌ من عالِم ، ثم قال أحمد : إنْ يغفرِ اللَّهُ له - يعني الأمين - فبها[٢].

شيخ الإسلام ، أبو نعيم ، الفضْل بن دُكَين :

قال الإمام أحمد : شيخانِ كان الناس يتكلمون فيهما ، ويذكرونهما ، وكنا نلقى من الناس في أمرهما ما الله به عليم ، قاما لله بأمر لم يقُم به كبير أحد[٣] .

قال أبو العباس السرّاج عن الكديمي ، قال : لما دخل أبو نُعيم على الوالي ليمتحِنَهُ ، وثَمّ يونس وأبو غسّان وغيرهما ، فأول مَنِ امتُحن فلانٌ فأجاب ، ثم عطَفَ على أبي نُعيم ، فقال : قد أجاب هذا ، فما تقول ؟ فقال : والله ما زلتُ أتّهم جَدَّه بالزندقة ، ولقد أخبرني يونس بن بُكير أنه سمع جدَّه يقول : لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير . أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ، الأعمش فمَن دونه ، يقولونه : القرآن كلام الله ، وعنقي أهونُ من زِرّي هذا . فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبّل رأسه - وكان بينهما شحناء - وقال : جزاك الله من شيخٍ خيرًا[٤].

رحم الله أبا نعيم من إمامٍ حافظ ، قال فيه الإمام أحمد : نُزاحم به سفيانَ بن عُيينة . وقال فيه : كان ثقة ، يقظانَ في الحديث ، ثم قام في أمر

(١) وكان إسماعيل يقول بخلق القرآن .
(٢) سير أعلام النبلاء ١١٢/٩ ، وتاريخ بغداد ٢٣٨/٦ .
(٣) تاريخ بغداد ٣٤٨/١٢ - ٣٤٩ ، والسير ١٤٩/١٠ .
(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٤٨١ ، وتاريخ بغداد ٣٤٩/١٢ ، وتهذيب الكمال لوحة ١٠٩٨ .

الامتحان ما لم يقُم غيره ، عافاه الله .

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء : « كنا نهاب أبا نعيم أشدّ من هيبة الأمير » . والجزاء من جنْس العمل .

قال أبو المظفَّر سِبطُ ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » : قال عبد الصمد بن المهتدي : لما دخل المأمون بغداد ، نادى بترْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك لأن الشيوخ بقوْا يُضربون ويُحبسون ، فنهاهم المأمون ، وقال : قد اجتمع الناس على إمام . فمرّ أبو نعيم ، فرأى جنديًّا وقد أدخل يديْه بين فخذَي امرأة ، فنهاه بعنْفٍ ، فحمله إلى الوالي ، فيحمله الوالي إلى المأمون ، قال : فأُدخلتُ عليه بُكرةً وهو يُسبِّح ، فقال : توضأ . فتوضأتُ ثلاثًا على ما رواه عبد خير عن علي ، فصلّيتُ ركعتين ، فقال : ما تقول في رجل مات عن أبويْن ؟ فقلت : للأمّ الثلث ، وما بقي للأب . قال : فإنْ خلّف أبوَيْه وأخاه ؟ قلت : المسألة بحالها ، وسقَطَ الأخُ . قال : فإن خلّف أبوين وأخويْن ؟ قلت : للأم السُّدُس وما بقي للأب . قال : في قول الناس كلّهم ؟ قلت : لا ، إن جدّك ابن عبّاس يا أمير المؤمنين ، ما حجَبَ الأمَّ عن الثلث إلا بثلاثة إخوة . فقال : يا هذا ، مَن نهى مثلك عن الأمر بالمعروف ؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا . ثم خرجتُ[1] .

الإمام الحافظ أبو عثمان ، عفان بن مسلم البصري الصَّفّار :

قال حنبل : حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفّان ، بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحْنة ، وكان أول مَن امتُحن من الناس عفّان ، فسأله يحيى من الغد ، بعد ما امُتحن ، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه ، فقال : أخبرْنا بما قال لك إسحاق . قال : يا أبا زكريا ، لم أُسوِّدْ وجهك ولا وجوه

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٤٩ - ١٥٠ ، وتاريخ بغداد ١٢/٣٥٠ .

أصحابك ، إني لم أُجبْ . فقال له : فكيف كان ؟ قال : دعاني ، وقرأ عليّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة ، فإذا فيه : امتَحِنْ عفّان ، وادعُه إلى أن يقول : القرآن كذا وكذا ، فإن قال ذلك ، فأقرّه على أمره ، وإن لم يجبْك إلى ما كتبتُ به إليك ، فاقطعْ عنه الذي يُجرى عليه . وكان المأمون يُجري على عفان كلَّ شهرٍ خمسمائة درهم ، فلما قرأ عليّ الكتابَ ، قال لي إسحاق : ما تقول ؟ فقرأتُ عليه ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ حتى ختمتُها ، فقلت : أمخلوق هذا ؟ فقال : يا شيخ ، إنّ أمير المؤمنين يقول : إنك إنْ لم تُجبْه إلى الذي يدعوك إليه ، يقطع عنك ما يُجري عليك . فقلت : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] فسكت عني ، وانصرفت ، فسُرّ بذلك أبو عبد الله ويحيى[1].

قال إبراهيم بن ديزيل : لما دُعي عفان للمحنة ، كنت آخذًا بلجام حماره ، فلما حضر عُرِض عليه القوْل ، فامتنع أن يُجيبَ ، فقيل له : يُحبس عطاؤك . قال : وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم . فقال ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدقّ عليه داقٌّ الباب ، فدخل عليْه رجل شبّهتُه بسمّان أو زيّات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ، ثبّتك الله كما ثبّتَّ الدِّين ، وهذا في كل شهر[2].

أخي ، « اعلم أنه إذا هذّب الآمر نفسَه ، أثّر قولُه إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ ، فما قَدَر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكَّر ساعةً ، ثم قام ، فجعل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٤٤/١٠ ، وتاريخ بغداد ٢٧١/١٢ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٧١/١٢ - ٢٧٢ ، والسير ٢٤٥/١٠ .

الكلب يتبصْبَص حوله ولا يُؤذيه ، حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له ، فقال : إنما نبح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقدٍ بيني وبيْن الله عز وجل ، فلما رجعتُ ذكرته ، فاستغفرت »[١].

عبد الله بن مرزوق :

« لما قدِم المهدي مكة ، لبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ في الطّواف نحّى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق ، فلبّبه بردائه ، ثم هزّه وقال له : انظر ما تصنع ! مَن جعلك بهذا البيت أحقَّ ممن أتاه من البُعْد ، حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه ؟! وقد قال الله تعالى : ﴿ **سواءً العاكِف فيه والبَاد** ﴾ مَن جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه ابن مواليهم - فقال : أعبدُ الله بن مرزوق ؟ قال : نعم . فأُخذ فجيء به إلى بغداد ، فكرِه أن يعاقبه عقوبة يُشنّع بها عليه في العامّة ، فجعله في إصطبل الدوابّ ليَسُوسَ الدوابَّ ، وضمّوا إليه فرسًا عضوضًا سيّيء الخُلُق ، ليعْقره الفرس ، فليّن الله تعالى له الفرس . قال : ثم صيّروه إلى بيْت وأُغلق عليه ، وأخَذَ المهدي المفتاح عنده ، فإذا هو قد خرج بعد ثلاثٍ إلى البستان يأكل البقْل ، فأوذِن به المهدي ، فقال له : مَن أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني . فضجّ المهدي وصاح ، وقال : ما تخاف أنْ أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنتَ تملك حياة أو موتًا . فما زال محبوسًا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه ، فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذْرًا ، إن خلصه الله مِن أيديهم أن ينحر مائة بدَنة ، فكان يعمل في ذلك ، حتى نحرها »[٢].

---

(١) التبصرة ٢/٣٣٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٣٤٣ - ٣٤٤ .

بِشر بن الحارث الحافي :

« قال فتح بن شخرف : تعلَّق رجل بامرأةٍ ومعه سكين ، لا يدنو منه أحد إلّا عَقَره ، وكان شديد البدن ، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح ، مرّ بشر بن الحارث فدنا منه ، وحكّ كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الأرض ، ومرّت المرأة ومرّ بشر ، فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا ، فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال : إن الله عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل . فضَعُفْتُ لقوله وهِبْتُه هيبةً شديدة ؛ لا أدري مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسَوْأتاه ، كيف ينظر إليّ بعد اليوم ! وحُمَّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع »[1].

الإمام أحمد بن حنبل :

ومَنْ في الناس كأحمد ، وكل موقفٍ يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلْق القرآن ... ويكفي أن يصدع بالحق الخليفة ويقول : « ايتُوني بشيءٍ من كلام الله أو سُنَّة رسوله ﷺ » .

وكان رحمه الله أمْرًا بالمعروف ونهْيًا عن المنكر يمشي على الأرض .

« قال صالح بن أحمد : كان رجل يختلف إلى عفان ، يقال له : أحمد ابن الحكم العطار ، فختن بعض ولده ، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث ، وطلب إلى أبي أن يحضر ، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه ، فلمَّا دخل أُجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، هاهنا آنية من فضة . فالتفت فإذا كرسي ، فقام فخرج ، وتبعه من كان في البيت ، وأُخبر الرجل فخرج فلحق أبي ، وحلف أنه ما علم بذلك ، ولا أمر به ، وجعل يطلب إليه فأبى ، وجاء

---

(١) التبصرة ٢/٣٣١ .

عفان فقال له الرجل : يا أبا عثمان ، اطلب إلى أبي عبد الله يرجع . فكلّمه عفان فأبى أن يرجع ، ونزل بالرجل أمر عظيم .

وعن علي بن أبي صالح السّوّاق قال : كنّا في وليمة باب القبر قال : فجاء أحمد بن حنبل ، فلمّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج ، فلحقه صاحب المنزل ، فنفض يده في وجهه وقال : زيّ المجوس ، زي المجوس . وخرج »[١].

* * *

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٤٨ - ٣٤٩ .

□ مواقف الربانيين تُحيي الأمة □
« قد مات في حديدهم أقوام »

حين يَدْلَهِمُّ الخطب ، ويجلُّ الأمر ، ويظهر الفساد ، ويشيع الظلم في كثير من البلدَان التي نَحّت الحكم بما أنزل الله ، حينئذ يخشى الناس على أنفسهم وأولادهم وذويهم ، فيُضطرون إلى الانزواء بعيدًا عن معترك الأحداث ، بل ويخضعون لهذا الواقع المظلم ، ويستسلمون له بعد أن ألجمتْ ألسنتَهم تلك الأوضاع ، فنجدهم قد رضُوا أن يتجرعوا مرارة الصبر ، وربما شربوا كؤوس الذلِّ والمهانة ، لكن الظالم ينسى - حين بغيه وجبروته - تدبير الخالق العزيز الجبار ، وأنه له بالمرصاد ، فيتمادى في بغيه ويزيد في طغيانه ، ولكن يأبى الله إلا أن ينصر دينه ويتمَّ نوره ، ويدحض الباطل ، ويعلي الحق ، فيقيِّض لتلك الشعوب الذليلة المنكسرة من يخرجها من خُنوعها وذلتها ، ويبعث فيها روح العزة والكرامة ، وذلك حين يضحي العلماء والدعاة بأنفسهم ، حينما يقعون تحت سِياط الجلادين وسيوف الجبارين وأعواد المشانق ؛ لأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ليقولوا للناس : إن الموت في سبيل الله خير من الموت جبنًا وذلًا . ويقيض الله كذلك لأولئك الظلمة الطغاة من يرهب قلوبهم ، ويزلزل كراسيهم بالصدع بكلمة الحق ابتغاء مرضاة الله ، بعد أن يتخذوا كل الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك ، وبعد أن يصرَّ الظالم على ظلمه ، ويقف من شرع الله موقف المعارض ، ويقف من الدعاة إلى الله موقف المعادي والمحارب .

إن إحياء الأمة من مواتها ، وبعثها من غفوتها ونومها ، وإخراجها من عبادة غير الله ، وقيادتها إلى ربها وسوْقها إليه سوقًا جميلًا ، وحمْل هذا الدين والسعي به والجهاد في سبيله - إن هذا وغيره هو من سمات العلماء الفحول عبر تاريخنا المجيد . ونستعرض هنا صورًا من مواقف أولئك العلماء ، لعلها

تكون إحياءً للغافلين ، ورهبة للظالمين ، إذ ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء دين الله سبحانه ، وهي العزاء لكل مسلم يسوؤه تلك التصرفات الجائرة ضد الدين ودعاته .

ولو استرجعنا التاريخ لوجدنا الأمر لا يكاد يختلف ، بل يسجل التاريخ تلك الحقيقة الجليَّة ألا وهي الصراع بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان ، ولن تموت أمثال هذه الكلمات الصادقة : « ولأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ... » !!

فإلى أولئك الذين يسقطون ظلمًا وعدوانًا في الدفاع عن الإسلام ودعوته ؛ ليعلموا أنه قد سبقهم أقوام على الطريق نفسه ، وإليك أخي صورًا من تلك المواقف : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] :

الإمام البويطي[١] :

هو العلّامة ، سيّد الفقهاء ، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي . صاحَب الشافعيَّ ولازمه مدة ، وفاق الأقران ، وكان إمامًا في العلم قدوة في العمل ، زاهدًا ربانيًا متهجدًا ، دائمَ الذكر .. سعى به أصحابُ ابن أبي دُؤاد ، حتى كتب فيه ابن أبي دُؤاد إلى والي مصر ، فامتحنه - أي في محنة خلق القرآن - فلم يُجب ، وكان الوالي حسن الرأي فيه ، فقال له : قل فيما بيني وبينك . قال : إنه يقتدي بي مائة ألف ، ولا يدرون المعنى !! فأمر به أن يُحمل إلى بغداد .

قال الربيع بن سليمان : رأيته على بغلٍ في عنقه غُلٌّ ، وفي رجليه قيدٌ ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٨ .

وبينه وبين الغلّ سلسلة فيها لَبِنَةٌ- طوبة- وزنها أربعون رطلًا ، وهو يقول: «إنما خَلَقَ اللهُ الخلْق بـ « كن » ، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق ، ولئن دخلت عليه لأصْدُقَنَّه – يعني الواثق – ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم » .

وتوفي رحمه الله في قيده مسجونًا بالعراق ، في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

الإمام نعيم بن حماد[1] :

هو العلّامة صاحب التصانيف ، وكان شديدًا في الرد على الجهمية ، حُمل إلى العراق في إبّان تلك الغيمة مع البويطي مقيدَيْن .

وكان يقول : « من شبّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس في ما وصف اللهُ به نفسه ورسولُه تشبيه » .

قال ابن يونس : حُمل على القول بتلك الفرية ، فامتنع أن يجيب ، فسجن ، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين ، وجُرّ بأقياده ، فأُلْقي في حفرة ، ولم يكفَّن ، ولم يُصلَّ عليه .. وأوصى نُعيمُ بن حماد أن يدفن في قيوده . وقال : « إني مخاصم » .

الإمام الخزاعي[2] :

هو أبو عبد الله أحمد بن نصر الخزاعي ، كان أمّارًا بالمعروف ، قوّالًا بالحق ، من أكابر العلماء العاملين ، ومن أهل العلم والديانة .

حُمل من بغداد إلى سامرّاء مقيدًا ، وجلس له الواثق ، فقال له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٦١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ٦٧ ، والبداية والنهاية ١٠ / ٣١٨ .

ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلام الله . قال : فترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءتِ الرواية . قال : ويحك ! يُرى كما يُرى المحدود المتجسم ، ويحويه مكان ، ويحصره ناظر ؟! أنا كفرتُ بمن هذه صفته . ما تقولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربي : هو حلال الدَّم . ووافقه فقهاءُ . قال الواثق : ما أراه إلا مؤديًا لكفره ، قائمًا بما يعتقده . ودعا بالسيف ، وقام ، وقال : إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر . فضرب عنقه ، بعد أن مدُّوا له رأسَه بحبل ، وهو مقيد .

قال الحسن بن محمد الحربي : سمعت جعفر الصائغ يقول : رأيت أحمد بن نصر - حين قُتل - قال رأسه : لا إلـٰه إلا الله . والله أعلم .

وعُلّق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها : هذا رأس أحمد بن نصر ، دعاه الإمام إلى القول بخلْق القرآن ، ونفي التشبيه ، فأبى إلا المعاندة ؛ فجعله الله إلى ناره . وبقي رأسه منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامراءِ ، وفي رجليه زوج قيود .

هذه صور لابتلاء العلماء على مرِّ التاريخ من الظَّلَمة والطواغيت ، والنتيجة أن أولئك العلماء يُتَرحم عليهم حتى الآن ، أمَّا أولئك الظلمة المحادُّون لله ولرسوله ولشريعته . فإنهم محلُّ المقت والكراهية .. ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَب ينقلبون** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧][1] .

شيخٌ شاميٌّ يُلقِم كبيرَ المعتزلة حجرًا :

مَنْ أوتي بصيرة في كتاب الله لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى

---

(١) « مواقف العلماء تحيي الأمة » لحسن قطامس مقال في مجلة البيان عدد ٧٤ شوال ١٤١٤ هـ .

علم الكلام ، ومنطق اليونان ، وعلم الفلسفة ؛ ففي كتاب الله غنًى ، كيف لا ، وهو كتاب الله الذي وضّح الدلائل ، وبيّن المسائل ، ونفى الضلال والباطل ؟! وإذا قَصُر الناس في الاستدلال من القرآن ، وطلبوا الحجة من غيره ؛ فلقصور في عقولهم ، وضعف في بصائرهم . وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القوْل بخلْق القرآن ، فألقمهم حجرًا ، وأخزى حقُّه باطلَهم ، وقد اعتمد في حِجَاجه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وهو حِجاجٌ قريب المأخذ ، يدركه الناس بسهولة ويسر ، وتستمع إليه فيأسرك روعةُ الاستدلال ، وقوة الحجة .

حكىٰ المسعودي عن علي بن صالح قال : « حضرت يومًا من الأيام جلوس المهتدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي ، فيما يتظلم به إليه - ما استحسنته ، فأقبلتُ أرمُقه ببصري إذا نظر في القصص ، فإذا رفع طرْفه إلَيَّ أطرقت ، فكأنه علِم ما في نفسي . فقال لي : يا صالح ، أحسب أنَّ في نفسك شيئًا تحب أن تذكره . قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فأمسك ، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح ، ونهض ، فجلست جلوسًا طويلًا ، فقمت إليه ، وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : أتحدثني بما في نفسك ، أمْ أحدثك ؟ فقلت : بل هو من أمير المؤمنين أحسن . فقال : كأنني بك وقد استحسنت مِن مجلسنا . فقلت : أيُّ خليفة خليفتنا ، إن لم يكن يقول بقوْل أبيه ، من القول بخلْق القرآن ! فقال - أي الخليفة - : قد كنت على ذلك برهة من الدهر ، حتى أُقدِم عَلَى الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من « أذنه » من الثغر الشامي ، مقيدًا طوالًا ، حسن الشيبة ، فسلّم غيرَ هائب ، ودعا فأوجز ، فرأيت الحياء منه في حماليق عينَي الواثق ، الرحمةَ عليه . فقال : يا شيخ ،

أجبْ أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يصغُر ، ويضعف ، ويقلُّ عند المناظرة . فرأيت الواثق ، وقد صار مكان الرحمة ، غضبًا عليه . فقال : أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك ؟! فقال : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في كلامه ؟ فقال الواثق : قد أذنتُ لك . فأقبل الشيخ على أحمد ، فقال : يا أحمد إلامَ دعوت الناس ؟ فقال أحمد : إلى القوْل بخلق القرآن . فقال له الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها ، من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين ، فلا يكون الدين تامًّا إلَّا بالقوْل بها ؟ قال : نعم . قال الشيخ : فرسول الله ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم ؟ قال : لا . قال له : يعلمُها أم لم يعلمها ؟ قال : عَلِمَها . قال : فلمَ دعوتَ إلى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ إليه ، وتركهم منه ؟ فَأَمْسَكَ . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة .

ثم قال له : أخبرني يا أحمد ، قال الله في كتابه العزيز : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ الآية [المائدة : ٣] ، فقلتَ أنت : الدين لا يكون تامًّا إلَّا بمقالتك بخلق القرآن ، فالله تعالى - عز وجل - صدق في تمامه وكماله ، أم أنت في نقصانك ؟! فَأَمْسَكَ . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثمَّ قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد ، قال الله عز وجل : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ الآية [المائدة : ٦٧] ، فمقالتك هذه التي دعوتَ الناس إليها ، فيما بلَّغه رسول الله ﷺ إلى الأمّة أم لا ؟ فأمسك . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثمَّ قال بعد ساعة : خبِّرني يا أحمد ، لمّا علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها ، أتَّسع له عن أن أمسك عنها أم لا ؟ قال أحمد :

بل اتَّسع له ذلك . فقال الشيخ : وكذلك لأبي بكر ، وكذلك لعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي رحمة الله عليهم ؟ قال : نعم . فصرف وجهه إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إذا لم يتَّسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع الله علينا . فقال الواثق : نعم ، لا وسَّع الله علينا ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسولِ الله ﷺ ولأصحابه ، فلا وسع الله علينا . ثمَّ قال الواثق : اقطعوا قيوده ، فلما فُكَّت ، جاذب عليها . فقال الواثق : دعُوه ، ثم قال : يا شيخ،لِمَ جاذبْتَ عليها ؟ قال : لأني عقَدتُّ في نيتي أن أجاذب عليها ، فإذا أخذتُها أوصيتُ أن تُجعل بين يدَي كفني ، ثمَّ أقول : يا ربي ، سَلْ عبدك : لِمَ قيدني ظلمًا ، وارتاع بي أهلي ؟ فبكى الواثق ، والشيخ ، وكلُّ مَنْ حضر . ثمَّ قال له : يا شيخ ، اجعلني في حِلٍّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتُك في حلٍّ ، إعظامًا لرسول الله ﷺ ، ولقرابتك منه . فتهلل وجه الواثق وسُرَّ . ثمَّ قال له : أَقِمْ عندي آنسُ بك . فقال له : مكاني في الثغر أنفع ، وأنا شيخ كبير ، ولي حاجة . قال : سَلْ ما بدا لك . قال : يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم . قال : قد أذنت لك . وأمر له بجائزة ، فلم يقبلْها .

قال المهتدي : فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالة ، وأحسب - أيضًا - أن الواثق رجع عنها »[1] .

ابن الجوزي والمستضيء بالله :

عبد الرحمٰن بن الجوزي وعظ المستضيء بالله، فقال له: يا أمير المؤمنين،

(١) الاعتصام ١ / ٣٢٤ .

إنْ تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكتُّ خفت عليك . فأنا أُقدِّم خوفي عليك من خوفي منك ؛ لمحبتي دوامَ أيامِك . وأن أقدم قول القائل : اتق الله . خيرٌ من قول القائل : إنكم أهل بيت مغفورٌ له . وكان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ، ولم أغيِّره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ؛ لئلا يَنسىٰ الجياع . وكان عمر يضرب بطنه عامَ الرمادة ويقول : قرْقِري إن شئت أوْ لا ، والله ، لا شبعْتِ والمسلمون جياع . فترتب على هذه الموعظة أن أطلق أمير المؤمنين المستضيء بالله المحابيس ، وتصدق صدقات كثيرة ، وأشبع الجياع[1].

الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي :

« في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان » :

كان مما كتبه الإمام الغزالي للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي : « ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حُسْن سيرة الملك ، فينبغي للملِك أن ينظر في أمور رعيته ، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها ، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة ، ويجب عليه احترام الصالحين ، وأن يثبت على الفعل الجميل ، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل ، ويعاقب من ارتكاب القبيح ، ولا يحابي مَنْ أصر على القبيح ؛ ليرغِّب الناس في الخيرات ويحذَرُوا من السيئات ، ومتىٰ كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهىٰ المُفْسِد عن فساده ويتركه على مراده ، أفسد سائر أموره في بلاده . وقال الحكماء : إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك ؛ لأن العوامّ إنما يبخلون ، ويركبون الفساد ، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بمُلوكهم ، فإنهم يتعلمون منهم ،

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .

ويلزمون طباعهم ، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة . وكان سليمان بن عبد الملك همّته في كثرة الأكل ، وتطييب الطعام ، وقضائه الأوطار ، وبلوغ الشهوات . وكانت همّة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة . قال محمد بن علي بن الفضيل : ما كنتُ أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها ، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرْم والبساتين ، واهتموا ببناء الدور ، وعمارة القصور . ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام ، حتى كان الرجل يسأل صاحبه : أيَّ لون اصطنعتَ ، وما الذي أكلتَ ؟ ورأيتُهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة ، وتفرغوا لتلاوة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات . لتعلم أن في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان ، ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله : من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات ، وإدراك الكمالات ، كما يُقال »[1].

البخاري وأمير بُخارى :

« إني لا أُذِلُّ العلمَ » :

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي - والي بخارى - إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليّ كتابَ الجامع والتاريخ ؛ لأسمع منك . فقال محمد بن إسماعيل لرسوله : قل له : إني لا أُذِلُّ العلم ، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين ، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فلْيحضِرني في مسجدي ، أو في داري ، فإن لم يعجبْك هذا فأنت سلطان ، فامنعني من المجلس ؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة : أني لا أكتم العلم ؛ فكان سبب الوحشة ....

(١) التبر المسبوك .

بينهما[١] .

النّـوريّ :

صَحِبَ السري ، وكان الجنيد يعظمه ، لكنه في الآخر رقّ له وعذره ، لما فسد دماغُه .

ولما مات قال الجنيد : « ذهب نصف العلم بموته »[٢] .

قال أبو بكر بن الجلّاد : كان النوريّ إذا رأى منكرًا غيّره ، ولو كان فيه تَلَفُه . نزل يومًا ، فرأى زورقًا فيه ثلاثون دَنًّا ، فقال للملّاح : ما هذا ؟ قال : ما يلزمك ؟ فألحّ عليه . قال : أنت - والله - صوفي كثير الفضول ، هذا خمر للمعتضد . قال : أعطني ذلك المِدْرى . فاغتاظ ، وقال لأجيره : ناولْه حتى أُبصر ما يصنع ، فأخذه ، ونزل ، فكسَّرها - كلها - غير دَنٍّ ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد ، فقال : من أنت ، ويلك ؟ قال : مُحْتَسِب ، قال : مـن ولّاك الحِسْبة ؟ قال : الذي ولّاك الإمامة يا أمير المؤمنين ، فأطرق ، وقال : ما حملك على فعْلك ؟ قال : شفقة منِّي عليك . قال : كيف سَلِم هذا الدَّنُّ ؟ فذكر أنه كان يكسِّر الدّنان ونفسه مخلصَة خاشعة ، فلما وصل إلى هذا الدَّنِّ ، أعجبته نفسه ، فارْتاب فيها ، فتركه[٣] .

شيخ الإسلام ، المحدِّث الإمام ، أبو الحسن بنانُ الحمّال .

« من يُضرب بعبادته المثلُ . وقد امتحِن في ذات الله فصبر ، وارتفع شأنه . فنقل أبو عبد الرحمٰن السلمي في « مِحَن الصوفية » أن بنانًا الحمّال

---

(١) مقدمة فتح الباري .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٠ ، ٧٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٦ .

قام إلى وزير خُمارويه صاحب مصر - وكان نصرانيا - فأنزله عن مركوبه ، وقال : لا تركبِ الخيل وغَيِّر ، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة . فأمر خُمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرح ، فبقي ليلةً ، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبِلٌ القبلة ، فأطلقه خُمارويه واعتذر إليه .

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال ؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع ، فجعل السبُع يشمه ولا يضرُّه ، فلما أُخرج من بين يدي السبع ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك ؟ قال : كنت أتفكر في سُؤر السباع ولُعابها »[1].

لله درُّه مِن سيد مِن سادات المسلمين .. حتى الأُسد الضواري تعرف منزلته ، وتتأدب معه ... خافوا الله وقاموا بحقه ، فخافتهم الأُسد وقاموا بحقهم .

شيخ الإسلام ابنُ الحطيئة ، أبو العباس أحمد بن عبد الله اللخمي :

قال شجاع المدلجي - وكان من خيار عباد الله - : كان شيخنا ابن الحطيئة شديدًا في دين الله ، فظًّا غليظًا على أعداء الله ، لقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[2] مع عِظَم سلطانه ، ونفوذ أمره ، فما يحتشمه ، ولا يكرمه ، ويقول : أحمق الناس في مسألة كذا وكذا : الروافض ؛ خالفوا الكتاب والسنة ، وكفروا بالله . وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر ، وقد حضره بعض وزراء المصريين - أظنه ابن عباس - فاستسقى في مجلسه ، فأتاه بعض غلمانه بإناءٍ فضّةً ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده ، وصرخ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) قاضي الخليفة العاضد .

صرخة ملأت المسجد ، وقال : واحَرّها على كبدي ، أُتشربُ في مجلس يُقرأ فيه حديث رسول الله ﷺ في آنية الفضة ؟! لا ، والله لا تفعل ، وطرد الغلام ، فخرج ، وطلب الشيخ كوزًا ، فجيء بكوزٍ قد تثلّم ، فشرب واستحيى من الشيخ ، فرأيتُه - والله - كما قال الله : ﴿ **يتجرَّعُه ولا يكاد يُسيغه** ﴾[1] [إبراهيم : ١٧] .

شيخ الإسلام الهَرَوي الأنصاري ، أبـو إسماعيل : عبد الله بن محمد بن علي :

قال تلميذه المؤتمن : كان يدخل على الأمراء والجبابرة ، فما يبالي .

قال عنه الذهبي في السِّير (١٨ / ٥٠٩) : « كان سيفًا مسلولًا على المتكلمين ، له صولةٌ وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده ، يعظمونه ، ويتغالون فيه ، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به . كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير ، وكان طوْدًا راسيًا في السُّنة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امتُحـن مرات ، وأُوذيَ ، ونُفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعتُه يقول : عُرضتُ على السيف خمسَ مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يُقال لي : اسكت عمّن خالفك . فأقول : لا أسكت »[2].

هذا - والله - الثبات على الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

« قال الحافظ أبو النضر الفامي : كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان ، وواسطة عِقد المعاني ، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٤٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٠٩ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٤ .

المحاسن ، منها نُصرةُ الدين والسنة ، من غير مداهنة ولا مراقبةٍ لسلطان ولا وزير . وقد قاسىٰ بذلك قصد الحُسّاد في كلّ وقت ، وسعَوا في رُوحه مرارًا ، وعَمدوا إلى إهلاكه أطوارًا ، فوقاه الله شرَّهم ، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه » .

قال ابن طاهر : « حكىٰ لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسِلان قَدِمَ هراة ومعه وزيره نظام الملك ، فاجتمع إليه أئمة الحنفية ، وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ، ومطالبته بالمناظرة ، فاستدعاه الوزير ، فلما حضر قال : إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك ، فإنْ يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك ، وإن يكن الحق معهم رجعت ، أو تسكت عنهم . فوثب الأنصاري وقال : أناظر على ما في كُمّي . قال : وما في كمِّك ؟ قال : كتاب الله - وأشار إلى كمِّه الأيمن - وسنة رسول الله ، وأشار إلى كمِّه اليسار ، وكان فيه « الصحيحان » ، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم ، فلم يكن فيهم مَنْ ناظره من هذا الطريق . وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول : حضرتُ مع الشيخ ؛ للسلام على الوزير نظام الملك ، وكان أصحابنا كلّفوه الخروج إليه ، وذلك بعد المحنة ، ورجوعه إلى وطنه بلخ - يعني أنه كان قد غُرِّب - قال : فلما دخل عليه أكرمه وبجّله ، وكان هناك أئمة من الفريقين ، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير ، فقال العلوي الدبوسي : يأذن الشيخ الإمام أن أسأل ؟ قال : سَلْ . قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري ؟ فسكتَ الشيخ ، وأطرق الوزير ، فلما كان بعد ساعة قال الوزير : أجبْه . فقال : لا أعرف أبا الحسن ، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء ، وأن القرآن في المصحف ، ويقول : إن النبي ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ . ثم قام وانصرف . فلم يُمكن أحدًا أن يتكلم من هَيْبته ، فقال الوزير للسائل : هذا أردتم ! أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا ، وما عسى أن أفعل

به ؟ ثم بعث إليه بصلة وخِلَع فلم يقبلها ، وسافر من فوْره إلى هراة »[١].

قال خادمه : وسمعت أصحابنا بهراة يقولون : لما قدم السلطان ألب أرسلان في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلَّموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزْمٍ أنْ نخرج ونُسلّم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك ، وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلْوته ، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مجسِّمٌ ، وأنه يترك في محرابه صنمًا ، يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بعث السلطان الآن يجده ، فعظُم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب ، فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان مَن أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتدَّ غضب السلطان ، فقال له السلطان : ما هذا ؟ قال : صنم يُعمل من الصُّفر شبه اللعبة . قال : لستُ عن ذا أسألك . قال : فعمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام – بصولة وصوت جَهْوري –: سبحانك! هذا بهتان عظيم. فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني . وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامة ، فأردنا أن نقطع شرّه عنا ، فأمر بهم ، ووكّل بهم ، وصادرهم ، وأخذ منهم ، وأهانهم[٢].

ما يضيرُ البحرَ أمسى زاخِرًا ... أنْ رمى فيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١١ – ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٧ – ١١٨٨ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٨ – ١١٨٩ .

ولله در القائل :

يَا نَاطِحَ الجبـلِ العـالي لتُكْلِمَهُ أشفقْ على الرأْس لا تُشفق عَلى الجبلِ

الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي :

« قال الضِّياء : أخبرني خالي موفق الدين ، قال : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلَّا سبقني إليه ، إلا القليل ، وكمّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم .

قال الضياء : كان لا يرى منكرًا إلَّا غيّره بيده أو بلسانه ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم . قد رأيته مرة يهريق خمرًا ، فجبذ صاحبه السيف فلم يَخَفْ منه ، وأخذه من يده ، وكان قويًّا في بدنه ، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشَّبابات . قال خالي الموفق : كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه ، وكنّا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خمرهم وتضاربنا ، فسمع خالي أبو عمر ، فضاق صدره ، وخاصمنا ، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا ، وصوّب فعلنا ، وتلا ﴿ **وانْه عن المنكر واصبرْ على ما أصابك** ... ﴾ [لقمان : ١٧] .

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان ، قال : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلَتْ لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابيرَ فكسَّرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنتُ أنا وعبد الهادي عند حمَّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عِصِيٌّ فخفّفتُ المشي ، وجعلت أقول : « حسبي الله ونعم الوكيل » ، فلما صرت على الجِسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر ، قال : فإذا فارس يركض فترجَّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله

لهُ هيبة في النفوس »[١].

هذه والله أحلى مذاقًا منَ العسل ...

« قال فضائل بن محمد المقدسي : سمعتُهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له ، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ ، مثل سركس وأزكش ، فقالوا : آمنا بكرامتك يا حافظ . وذكروا أن العادل قال : ما خِفْتُ من أحدٍ ما خفتُ من هذا . فقلنا : أيُّهَا الملك هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيِّل إليّ إلّا أنه سَبُع . وبلغني - بعدُ - عنه أنه قال : ما رأيتُ بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فَخُيِّل إليّ أنه أسد .

قال الضياء : كانوا قد أوغروا عليه صدر العادل ، وتكلموا فيه ، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار »[٢].

قال الذهبي في السير : جرّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات ، فقاموا عليه ورمَوْه بالتجسيم ، فما دارى كما كان يداريهم الموفق .

وحكى الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل ، فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ ، جعل يتكلم في أمر (ماردين) وحصارها ، فسمع الحافظ فقال : أيش هذا ، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين ، ما تشكر الله فيما أعطاك ، أمَا ... أمَا ؟! قال : فما أعاد ولا أبدى . ثم قام الحافظ وقمتُ معه ، فقلت : أيش هذا ؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا ،

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٥٣ - ٤٥٥ .

(٢) السير ٢١ / ٤٥٥ .

ثم تعمل هذا العمل ؟! قال : أنا إذا رأيتُ شيئًا لا أقدر أصبر .

وسمعتُ أبا بكر بن الطحان ، قال : كان في دولة الأفضل جعلوا الملاهي عند الدَّرج – يعني درج جيرون – فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيرًا ، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث ، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّفِّ والشبابة ، فقال : ذاك عندي حرام ، ولا أمشي إليه . ثم قرأ الحديث ، فعاد الرسول ، فقال : لا بُدّ من المشي إليه ، أنت قد بطّلتَ هذه الأشياء على السلطان . فقال الحافظ : ضرب الله رقبته ورقبة السلطان . فمضى الرسول وخفنا . فما جاء أحد[1].

قال الحافظ عبد الغني : سألت الله أن يرزقني مثل حال الإمام أحمد ، فقد رزقني صلاته . قال : ثم ابتُلي بعد ذلك وأوذي .

ولقد ناظر الفقهاءَ ، وثبت على عقيدة أهل السنة أمام الأشاعرة ، وصدع بها فوشوا به إلى الحكام والسلاطين ، وبدّعوه وكفّروه ، وهمُّوا أن يقتلوه . رحمه الله .

ولقد أُمِرَ الحافظ أن يكتب اعتقاده ، فكتب : أقول كذا ، لقول الله كذا . وأقول كذا ؛ لقول الله كذا ، ولقول النبي ﷺ كذا . حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها ، فلما رآها الكامل قال : أيش أقول في هذا ، يقول بقوْل الله ، وقول رسوله ﷺ ؟!

ناظره القاضي محيي الدين ، والخطيب ضياء الدين ، وجماعة ، فصعدوا إلى القلعة ، وقالوا لواليها : هذا قد أَضلّ الناس ، ويقول بالتشبيه . وارتفعت الأصوات ، فقال والي القلعة الصَّارم برغش : كلّ هؤلاء على

---

(١) السير ٢١ / ٤٥٥ – ٤٥٦ .

ضلالة وأنت على الحق ؟ قال : نعم . فأمر بكسر منبره .

رحم الله الحافظ عبد الغني ، فقد كان سيدًا من سادات أهل الدين والعلم ، والتألُّه ، والصدْع بالحق .

العماد المقدسي « جوهرة عصره » :

قال عنه الضياء المقدسي : ما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا والٍ ، وكان قويًّا في أمر الله ، ضعيفًا في بدنه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، أمّارًا بالمعروف ، لا يرى أحدًا يُسيء صلاته إلا قال له ، وعلَّمَه .

قال : وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا ، فكسّر ما معهم ، فضربوه حتى غُشي عليه ، فأراد الوالي ضربَهم ، فقال : إنْ تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤْذِهم ، وهُم في حِلٍّ . فتابوا[1] .

أَسد الشَّام اليونيني ، عبد الله بنُ عثمان بن جعفر :

قال الشيخ علي القصار : كنت أَهَابه كأنه أسد .

وقال الذهبي : كان أمّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك .

قيل : إن العادل أتى والشيخ يتوضأ ، فجعل تحت سجادته دنانير ، فردّها وقال : يا أبا بكر،كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق ، وتبيع المرأة وقية ، يؤخذ منها قراطيس ؟! فأبطل ذلك .

وقيل : جلس بين يديه المعظم وطلب الدعاء منه ، فقال : يا عيسى ، لا تكن نحسًا مثل أبيك ، أظهر الزغل[2] ، وأفسد على الناس ....

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٤٩ - ٥٠ .

(٢) العملة المغشوشة .

المعـاملة[١].

البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي :

كان قوّالًا بالحق ، داعيةً إلى الأثر ، لا يخاف في الله لومة لائم . وكان له – رحمه الله – مجاهداتٌ ومقامات في الدين ، وكانت له المنزلة الرفيعة في قلوب الناس .

وكان له أصحاب كثيرون ، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي عليه ، حتى نُودي في الناس : لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري . فاختفى ، وتوفي مستترًا ، فدفن بدار أخت توزون .

سلطان العلماء ، وبائع الملوك والأمراء : أبو محمد عِزُّ الدين عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبي القاسم :

« شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ..... لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثلَه ، علمًا وورعًا وقيامًا في الحق ، وشجاعة وقوةَ جنانٍ ، وسلاطة لسان »[٢].

وقال عنه ابن حجر : « كان عالي الهمة ، بعيد الغوْر في فهم العلوم ..... وكان قائمًا بالأمر بالمعروف ، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا »[٣].

وذكر اليافعي أن الإمام العزَّ كان جبل إيمان ، لا يخشى سلطانًا ، ولا يهاب سَطوة الملك ، بل يعمل بما أمر الله ورسوله به ، وما يقتضيه الشرع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٠١ – ١٠٢ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٠٩ .

(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر ٢ / ٣٥١ .

المطهـر[١].

أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر للملك الأشرف موسىٰ بن الملك العادل ابن أيوب :

دخل سلطان العلماء على الملك الأشرف في مرضِ موْته ، فقبَّل الأشرف يده ، وقال له : ادعُ الله لي ، وأوصني وانصحني . فقال له عزّ الدين : أمّا دعائي للسلطان ، فإني أدعو له في كثير من الأحيان ؛ لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام ، والله تعالى يُبَصِّر السلطان فيما يبيِّض به وجهه يوم يلقاه ، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان،فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه ، وكان قُبَيْل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان - الملك - الكامل واقع ووحشة ، وأمر وهو في ذلك المرض بنصْب دِهليزه إلى صوْب مصر ، وضرب منزلة تُسمّىٰ : الكُسوة[٢] ، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التَّتَرُ بالمشرق ، فقال الشيخ للسلطان - الملك - الكامل : أخوك الكبير وَرَحِمُكَ ، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء ، والتَّتَرُ قد خاضوا بلاد المسلمين ، تترك ضرْب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء المسلمين ، وتضربه إلى جهة أخيك ! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار ، ولا تقطعْ رَحِمَك في هذه الحالة ، وتنوي مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته ؛ فإنْ مَنَّ الله بعافية السلطان رجوْنا من الله إدالته على الكفار ، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة ، فإنْ قضىٰ الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نِيَّته . فقال له : جزاك الله خيرًا عن إرشادك ونصيحتك . وأَمَر - والشيخ حاضر - في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق ، إلى منزلة يُقال لها : القُصير[٣] ، فنُقل

---

(١) مرآة الجنان لليافعي ٤ / ١٥٥ .

(٢) أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

(٣) هذه المنزلة هي القرية التي تُسمّىٰ اليوم باسم : الجعافرة . إحدىٰ قرى مركز =

في ذلك اليوم . ثم قال له : زدني من نصائحك ووصاياك . فقال له : السلطان في مثل هذا المرض ، وهو على خطر ، ونُوّابُه يُبيحون فروج النساء ، ويُدمنون الخمور ، ويرتكبون الفجور ، ويتنوَّعون في تمكيس المسلمين ، ومن أفضل ما تلقى الله به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات ، وبإبطال كلِّ مَكْسٍ ، ودفْع كلِّ مظلمة . فتقدم رحمه الله - للوقت - بإبطال ذلك كله ، وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نصائحك ، وعن المسلمين خيرًا ، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه . وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه ، وقال : هذه اجتماعةٌ لله لا أكدِّرها بشيء من الدنيا ، وودَّع الشيخ السلطان ، ومضى إلى البلد ، وقد شاع عند الناس صورة المجلس ، وتبطيل المنكرات ، وباشَرَ الشيخ بنفسه تبطيلَ بعضها »[1] .

إنكارُه على مَلِك دمشق التَّنازُل عن ديار المسلمين ، وعقْد الصُّلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين :

« لما تحالف الصالح إسماعيل - المعروف بأبي الخبيش ، حاكم دمشق - مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صَفْد ، وقلعة الشقيف ، وصيدا ، وبعض ديار المسلمين اختيارًا ؛ لينجدوه على الصالح نَجم الدين أيوب ، حاكم مصر ؛ لأنّ الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة ؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر ، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ، ليقاتلوا المسلمين ، فشقّ ذلك على سلطان العلماء مشقةً عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح ، وعلى المتدينين من المتعيِّشين مِنَ السلاح ، فاستفتَوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح ، فقال : يحرُم عليكم مبايعتُهم ؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به

= فاقوس ، محافظة الشرقية .

(١) طبقات الشافعية ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إخوانكم المسلمين .

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه - في الجامع - الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين : « اللهم أبرِمْ لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعِزُّ فيه وليّك ، وتُذِلُّ فيه عَدُوّك ، ويُعمل فيه بطاعتك ، ويُنهى فيه عن معصيتك » والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، والنصر على أعداء الله الملحدين .

فكاتب أعوانُ الشيطانِ السلطانَ بذلك ، وحرّفوا القول وزخرفوه ، فجاء كتابه باعتقال الشيخ ، فبقي مدة معتقلًا ، ثم وصل الصالح إسماعيل ، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدةً بدمشق ، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود في الفوْر ، فقطع عليه الطريق وأخذه ، وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوبٌ ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة ، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور - صاحب حمص - وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصِّه إلى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطُّف وتستنزله ، وتعِدُه بالعوْد إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك تدخل به عليّ ، وإنْ خالفك فاعتقلْه في خيمة إلى جانب خيمتي . فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرَع في مُسايسته وملاينته ، ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبِّل يده لا غيره »[1]. وهنا قال سلطان العلماء كلماته النَّيِّرة ، وهي كلمات للحياة ، فيها استعلاءُ أهل العلم وعزَّة العقيدة ، خرَّ من هوْل هذه الكلمات رسولُ الحاكم . قال

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

عز الدين : « والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي ، فضلًا أن أُقَبِّل يدَه . يا قوم ، أنتم في وادٍ ، وأنا في وادٍ ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به »[(١)].

عزةُ سلطان العلماء بربه .. يصون يده المتوضِّئة عن ملامسة عميل للصليبيين ، وإن كان سلطانَ دمشق .. يصون يده التي تكتب العلم وتسجد لمولاها .

لَوْ كَانَ فيهمْ مَنْ عَراهُ غرامُ ... ما عنّفوني في هـواهُ ولامُوا[(٢)]
لكنَّهـم جهِلُوا لَذاذةَ حُسْنِـهِ ... وعلمْتُها ولذَا سَهِـرْتُ ونامُـوا
لَوْ يعلمُونَ كَمَا علمتُ حقيقةً ... جَنحُوا إلى ذاك الجَنَابِ وهامُوا
أوْ لَـوْ بـدتْ أنوارُهُ لعُيونِهـمْ ... خَـرُّوا ولم تثبُتْ لهـم أقـدامُ
مولايَ عِزَّ الدين عَزّ بك العُلا ... فَخْـرًا فـدونَ حِذاكَ مِنْهُ الْهامُ
جاوزتَ حدَّ المدْح حتىٰ لم يُطِقْ ... نظْمًا لفضلِكَ في الورىٰ النَّظَّامُ
فعليـكَ يا عبـدَ العـزيز تحـيةٌ ... وعليكَ يا عبدَ العزيـز سَلامُ[(٣)]

يقول الشيخ شرف الدين عبد اللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء ، فيما حكاه السُّبكي في « طبقات الشافعية » بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان :

« فقال له : قد رسم لي إنْ لم توافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال : افعلوا ما بدا لكم . فأخذه واعتقله في خيمـة إلى جانب خَيْمـة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يومًا لملوك

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٢) هذا البيت لسلطان العلماء ، وما بعده لتلميذه عمر بن عبد العزيز الأسواني قاضي أسوان .
(٣) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم . قال : هذا أكبر قُسُوس المسلمين ، وقد حبستُه لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلتُه عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجتُه فجاء إلى القدس ، وقد جدّدتُ حبسه واعتقاله لأجْلِكم . فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسَلْنا رجليه ، وشربنا مرقتها »[1].

لله ما أحلى هذه الكلمة وأطيبها ... « صَدَقَكَ وهو كذوب » ... ونور الحق لا يخفى ، وجمال الشيخ وهيبته ، وحسن موقفه يشهدُ به الأعداء .. وهذه شهادة الكفار في حقّه .. فما بالُ أذنابهم ؟!

قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ويُنكرُ الفمُ طَعْمَ الماءِ مِن سقَمِ

« ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله تعالى الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجّى الله سبحانه وتعالى الشيخ ، فجاء إلى الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه الله ، وولّاه خطابة مصر وقضاءَها ، وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، واتفق له في تلك الولايات عجائبُ وغرائبُ » .

عالم تَهابُهُ المبتدعة والملوك :

« كان رحمه الله سيفًا ذا حدَّيْن : حدٌّ سلّه على ترف الملوك ولهْوهم ولعبِهم ومنكرهم ، وآخر على بِدَع العوامّ ، بجرأة لا نظير لها ، ولو كان وراء ذلك السجنُ أو الموتُ ، فيُمْضي اللهُ كلمته في الملك والمملوك . وترجم ذلك قولًا وعملًا[2] ، فكان يقول :

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٤ .

(٢) صفحات مطويَّة من حياة سلطان العلماء بقلم سليم بن عيد الهلالي صـ ٦٥ - طبع دار ابن الجوزي .

طُوبى لمن تولّى شيئًا من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة البدع ، وإحياء السنن[(١)] .

وأبطل بدعًا كثيرة منها : صلاة الرغائب المبتدَعة ، وصلاة ليلة النّصف من شعبان ، ودقّ المنبر بالسيف .

ولله درُّه حين يقول في نُصرة الحق : « ينبغي لكلِّ عالم إذا أُذل الحقُّ ، وأُخمل الصوابُ أن يبذل جهده في نصرهما ، وأن يجعل نفسه بالذلِّ والخمول أولى منهما ، وإنْ عزّ الحق فظهرَ الصوابُ ، أن يستظل بظلِّهما ، وأن يكتفيَ باليسير مِن رشاش غيرهما »[(٢)] .

وقال رحمه الله في « الفتاوى » (٧١ - ٧٢) مُنَبِّهًا على خطورة البدع الزاعمة أن في الإسلام قشرًا ولُبابًا : « لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشرٌ ، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا ، وأنّ العلم الملَقّب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء الشريعة ؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبيٌّ شقيّ ، قليل الأدب . ولو قيل لأحدهم : إن كلام شيخك قُشورٌ ، لأنكَرَ ذلك غاية الإنكار ، ويطلق لفظ القشور على الشريعة ! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله . فيعزَّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب .

وكان سلطان العلماء رحمه الله يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه ، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ ، أستاذ دار المُلْك - وهو الذي كان إليه أمر المملكة - عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناءً ....

(١) مساجلة علمية صـ ١٠ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

لطبلخانات[١]، وبقيتْ تَضْرِبُ هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدْم البناء ، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء . ولما علم الوزير غضب لذلك ، فقام الشيخ بالإشهاد عليه ، وأسقط عدالته ، وحكم بفسْقه ، وعزل نفسه عن القضاء ، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان ، ولكنه لم يُعِدْه إلى الولاية ، وظنَّ فخر الدين أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج .

العزُّ ونجم الدين أيوب :

وقد كانت له قصة - أيَّ قصة - مع نجم الدين أيوب سلطان مصر .

ونجم الدين هو نجم الدين ظلمًا وجبروتًا .

قال عنه صاحب النجوم الزاهرة : « كان كثير التخيُّل والغضب ، والمؤاخذة مع الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهْم ، لا يقيل عثْرةً ، ولا يقبل معذرة ، ولا يرعى سالف خدمةٍ ، السيئة عنده لا تُغتفر ، وكان جبارًا متكبرًا ، شديد السطوة ، كثير التجبُّر على أصحابه ونُدمائه وخواصِّه ، ثقيل الوطأة ، حتى إن خواصَّه لم يكونوا يأمنون سطوته ، ولا يقدرون على الاحتراز منه ، ولم يكن في خلقه الميْل لأحدٍ من أصحابه ولا أهله ولا أولاده ، ولا المحبة لهم ، ولا الحنوُّ عليهم على ما جرت به العادة »[٢].

قال أبو الحسنْ الباجي تلميذ العز : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قَوْمِه في زينته ، على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذتِ الأمراءُ تقبّل الأرض بين

(١) أي : دار لهوٍ وغناء .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦ / ٣٣٥ .

يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه : يا أيوب .. ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : يا أيوب ألم أُبَوِّءْ لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى هذا ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية تُباع فيها **الخمور** ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلى صوته ، والعساكر واقفون - فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون: ﴿ **إنا وجدْنا آباءَنا على أمَّة** ... ﴾ [الزخرف : ٢٢] فَرَسَمَ السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الباجي : فسألتُ الشيخ لمَّا جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : يا بنيَّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تَكْبُر عليه نفسه فتؤذيه . فقلت : يا سيدي ، أما خفتَه ؟ فقال : واللهِ يا بني استحضرت هَيْبة الله تعالى ، فصار السلطان قُدّامي كالقط »[1].

لله ما أعطرَ هذا الكلام .. وإنْ شئتَ فهناك ما هو أحلى وأعطرَ :

« **أمراءُ للبَيْع** » :

حكى السُّبكي والسيوطي أنه « لما تولَّى الشيخ عزُّ الدين القضاء تصدّى لبيْع أمراء الدولة مِنَ الأتراك ، وذكر أنه لم يثبتْ عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرِّق مستصحبٌ عليهم لبيْت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظُم الخَطْب عندهم ، واضَّرم الأمر ، والشيخ مصمِّم لا يصحِّح لهم بَيْعًا ولا شراءً ولا نكاحًا ، وتعطلتْ مصالحهم لذلكْ ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبًا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلسًا ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عِتقُكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١١ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١١ .

إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجعْ ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غِلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمار آخر ، ومشىٰ خلفهم خارجًا مِنَ القاهرة قاصدًا نحو الشام ، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالبُ المسلمين ، لم تكدِ امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبَه إليه يتخلف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متىٰ راح ذهب ملكُك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع ، واتفقوا معهم على أنه يُنادَى على الأمراء ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِدْ ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟! والله لأضربنَّه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرَق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرح له الحال فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله . ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يبُسَتْ يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدتْ مفاصلُه ، فبكىٰ ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدي ، أيش تعمل ؟ قال : أنادي عليكم ، وأبيعكم . قال : ففيمَ تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين . قال : وَمَن يقبضه ؟ قال : أنا ، فتمّ ما أراد ، ونادىٰ على الأمراء واحدًا واحدًا ، وغالىٰ في ثمنهم ، ولم يبِعْهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ، وهذا ما لم يُسمع بمثله عن أحد . رحمه الله تعالى »[1] .

ولقوة الشيخ في الحق وجرأته في بيانه ، وأمره بالمعروف ونهيه عن

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٢ / ١٦٢ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٦ .

المنكر ، لا يهاب أحدًا إلا الله ، ولا يخشى مِن دونه شيئًا . رُوي عن الملك الظاهر بيبرس أنه لما توفي الإمام العز ، ومرَّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصّه : « اليوم استقر أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه . لانتزع الملك مِني »[1].

وبرغم هذا ، فقد كان الملك الظاهر بيبرس يجلّ سلطان العلماء ، « ولم يبايع بيبرس واحدًا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة ، ثم بعده السلطان ، ثم القضاة . ولما مات حزن عليه كثيرًا حتى قال : لا إلٰه إلا الله ، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي ، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته ، وحَملَ نعشَه ، وحضر دفنه »[2].

فاتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة ، وأدّىٰ الرسالة خرج إليه وسأله : هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره . فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته ، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[3].

بأبي وأمي من يحكمون ، ويخضع لحكمهم الخلفاء والسلاطين .

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شبة ٢ / ١٣٩ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٥ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١٦ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

(٣) طبقات الشافعية بتصرف ٨ / ٢١٠ - ٢١١ .

أمره بالمعروف أيام قطز :

« لما دَهَم التتار البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد ، جَبُنَ أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عزّ الدين رحمه الله ، فقال : اخرجوا ، وأنا أضمن لكم على الله النصر . فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار . فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرتَ ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام ، وضربتَه سكّة ونقدًا ، وفرّقته في الجيش و لم يقمْ بكفايتهم ذلك الوقت ، اطلبِ القرْض ، وأمّا قبل ذلك فلا . فأحضر السلطان والعسكر - كلهم - ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ؛ بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره ، وانتصروا »[١] .

ابن دقيق العيد :

قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٢١٢/٩) عن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد : « كان يخاطب عامّة الناس ، السلطان فمَن دونه ، بقوله : يا إنسانُ . وإن كان المُخاطَب فقيهًا كبيرًا قال : يا فقيه . وتلك كلمة لا يسمحُ بها إلا لابن الرفعة ، ونحوه . وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي : يا إمام . ويخصُّه بها »[٢] .

هذا الإمام العظيم الأمّار بالمعروف الذي كانت تَهابه الملوك ، وكان سلطانُ مصر إذا رآه من على البعد قام له ، فإذا وصل عنده قبّل السلطان يده ، فيقول له شيخ الإسلام : هذا خير لك ، هذا ينفعك .

هذا هو العالم الرباني .. أما علماء السوء ، فأصدق وصفٍ للفرد منهم

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٩ /

قول الشاعر :

يرمرِمُ مِنْ فُتات الكُفر قُوتًا ... ويشربُ مِنْ كُؤوسِهِمُ الثّمالهْ

يُقبِّلُ راحَةَ الطاغوتِ حِينًا ... وَيَلْثَمُ دُونما خجلٍ نِعَالَهْ

الإمام النَّووي :

كان مواجِهًا للملوك والجبابرة بالإنكار ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة ، كتب الرَّسائل ، وتوصل إلى إبلاغها ، فممَّا كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمَّن العدل في الرعيَّة . وإزالة المكوس عنهم ، وكَتَبَ معه في ذلك شيخُنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمٰن بن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة ، وشيخنا العلّامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام بن عليّ بن عمر الزواوي شيخ المالكية ، وشيخنا العلّامة ذو العلوم أبو بكر محمد بن أحمد الشريشي المالكي ، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ العارف ولي الله عبد الله ، عُرِفَ بابن الأرمني ، وشيخنا المفتي أبو حامد محمد بن العلَّامة أبي الفضائل عبد الكريم بن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها ، وجماعة آخرون ، ووضعها في ورَقة كتبها إلى الأمير بَدْر الدِّين بيْلبك الخَزنْدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التُّركي ، وهذه صورتها :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

من عبد الله يحيىٰ النَّواوي .

سلام الله ورحمته وبركاته على المولىٰ المُحْسِن ملكِ الأمراء بدر الدين ، أدام الله الكريم له الخيرات ، وتولَّاه بالحسنات ، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله ، وبَارَكَ له في جميع أحواله ، آمين .

وَيُنْهَى إلى العلوم ....

الشريفة[١] أَنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضِيقِ عيشٍ ، وَضَعْف حالٍ ، بسبب قلّة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، وقلّة الغلّات والنبات ، وهلاك المواشي ، وغير ذلك . وأنتم تعلمون أنَّه تجب الشفقةُ على الرعيّةِ والسُّلطان ، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم ؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة .

وقد كتبَ خدَمَةُ الشَّرعِ ، الناصحون للسّلطان ، المحبُّون له ، كتابًا بتذكيره النَّظَر في أحوال رعيَّتِهِ ، والرفق بهم ، وليس فيه ضررٌ ، بل هو نصيحةٌ مَحْضَةٌ ، وشفقةٌ تامةٌ ، وذكرىٰ لأولي الألباب .

والمسئول من الأمير - أيَّده الله تعالىٰ - تقديمه إلى السلطان ، أدام الله له الخيرات ، ويتكلَّم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعيَّة بما يجدُهُ مُدَّخَرًا له عند الله ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ٣٠] .

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان - أعزَّ الله أنصاره - والمسلمين كلّهم في الدُّنيا والآخرة ، فيجب عليكم إيصالُهُ للسُّلطانِ - أعزَّ الله أنصاره - وأنتم مسئولون عن هذه الأمانة ، ولا عُذْرَ لكم في التأخُّرِ عنها ، ولا حُجَّةَ لكم في التَّقصيرِ فيها عند الله تعالى ، وتُسألون عنها ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** ﴾ ، ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس : ٢٤ - ٢٧] .

أنتم بحمد الله تحبُّون الخير ، وتحرِصون عليه ، وتسارعون إليه ، وهذا

---

(١) أي نرفع إلى علْمِكم الشريف .

من أهم الخيرات ، وأفضل الطَّاعات ، وقد أُهِّلْتُم له ، وساقه الله إليكم ، وهو مِنْ فضلِ الله ، ونحن خائِفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحْصُلِ النَّظَرُ في الرِّفْقِ بهم . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ١١٥] .

والجماعة الكاتِبون منتظرون ثمرةَ هذا ، مما إذا فَعَلْتُمُوهُ ، وَجدتُّموه عند اللهِ ؛ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فلما وصلتِ الورقتان إليه ؛ أوقفَ عليهما السُّلطان ، فلما وقف عليها ؛ ردَّ جوابَها جوابًا عنيفًا مؤلمًا ، فتنكَّدت خواطرُ الجماعة الكاتبون ، وغيرهم ، فكتب - رحمه الله - جوابًا لذلك الجواب :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

الحمدُ لله رب العالمين .

اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلِّم .

من عبد الله يحيٰى النواوي : يُنْهَى أنَّ خَدَمَةَ الشَّرْعِ كانوا كتبوا ما بلغ السلطان - أعزَّ الله أنصاره - فجاء الجوابُ بالإنكارِ والتَّوبيخ والتَّهديد ، وَفَهِمْنَا منه أنَّ الجهادَ ذُكِرَ في الجواب على خِلاف حكْم الشَّرع ، وقد أَوْجَبَ الله إيضاحَ الأحكامِ عند الحاجة إليها ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ١٨٧] فوجب علينا حينئذ بيانُهُ ، وحَرُمَ علينا السكوتُ ؛ قال الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا**

يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] .

وَذُكِرَ في الجوابِ أنَّ الجهادَ ليسَ مختصًّا بالأجنادِ ، وهٰذا أمرٌ لم نَدَّعِهِ ، ولكنَّ الجهادَ فرضُ كفايةٍ ، فإذا قَرَّرَ السُّلطانُ له أجنادًا مَخْصوصينَ ، ولهم أخباز[١] معلومةٌ مِن بيت المال ، كما هو الواقع - تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزِّراعة ، والصَّنائع ، وغيرهم ، الذي يحتاجُ الناسُ كلُّهم إليها ، فجهادُ الأجنادِ مُقابِلَ الأخبازِ المقرَّرةِ لهم ، ولا يَحِلُّ أنْ يُؤْخَذَ مِنَ الرَّعِيَّةِ شيءٌ ما دَامَ في بيتِ المالِ شيءٌ مِن نَقْدٍ ، أو متاعٍ ، أو أرضٍ ، أو ضِياعٍ تباع ، أو غير ذٰلك . وهٰؤلاء علماءُ المسلمينَ في بلاد السلطان - أعزَّ الله أنصاره - مُتَّفِقونَ على هٰذا ، وبيتُ المال - بِحَمْدِ الله - معمورٌ ، زَادَهُ الله عمارةً وَسَعَةً ، وخيرًا وبركةً في حياة السلطانِ المقرونةِ بكمالِ السعادةِ له ، والتَّوفيق والتَّسديد والظُّهورِ على أعداء الدين ، ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وإنما يُسْتَعَانُ في الجهادِ وغيرِهِ بالافتقارِ إلى الله تعالى ، واتِّباع آثار النبي ﷺ ، ومُلازمةِ أحكام الشرع .

وجميعُ ما كتَبْناهُ أوَّلًا وثانيًا هو النصيحةُ التي نعتَقِدُهَا ، ونَدِينُ اللهَ بها ، ونسألُهُ الدَّوام عليها حتى نَلْقَاه . والسُّلطانُ يعلمُ أنَّها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة ، وليس فيها ما نُلامُ عليه ، ولم نكتُب هٰذا للسلطان ؛ إلا لِعِلْمِنَا أنَّه يُحِبُّ الشَّرعَ ، ومتابعَتَهُ أخلاقَ النبيِّ ﷺ ، في الرِّفْقِ برعيَّتِهِ ، والشفقةِ عليهم ، وإكرامِهِ لآثَارِ النبيِّ ﷺ ، وكلُّ ناصحٍ للسلطانِ موافِقٌ على هٰذا الذي

---

(١) الأخباز واحدها : الخبزة أي النصيب ، وهي الرواتب والجرايات التي تعطى شهريًّا ، أو تبعًا للمواسم الزراعية ، أو عند الحملات الحربية .

كَتَبْنَاهُ . وأما ما ذُكِرَ في الجواب مِن كَوْنِنا لم نُنْكِر على الكُفَّارِ حين كانوا في البلاد ، فكيف يُقَاسُ ملوكُ الإسلامِ ، وأهلُ الإيمان والقرآنِ بِطُغَاةِ الكفَّارِ ؟! وبأيِّ شيءٍ كُنَّا نُذَكِّرُ طُغَاةَ الكفَّارِ وَهُم لا يَعْتَقِدُونَ شيئًا مِن دينِنَا ؟!

وأما تهديدُ الرعيةِ بسبب نصيحَتِنَا ، وتهديدُ طائفةٍ ، فليس هو المَرْجُوّ مِن عَدْلِ السلطانِ ، وَحِلْمِهِ ؛ وأيُّ حِيلةٍ لضعفاءِ المسلمين المفرَّقين في أقطار ولايةِ السلطان في كتابٍ كَتَبَهُ بعضُ المسلمين النَّاصحينَ نصيحةً للسلطان ولهُم ، ولا عِلْمَ لَهُمْ بِه ؟! وكيفَ يؤاخَذونَ بِهِ لو كانَ فيهِ ما يُلامُ عليه ؟!

وأمَّا أنا في نفسي ، فلا يضرُّني التهديدُ ، ولا أكبرُ منه ، ولا يمنَعُني ذٰلك من نصيحة السُّلطان ، فإنِّي أعتَقِدُ أنَّ هـٰذا واجبٌ عليَّ وعلىٰ غيري ، وما ترتَّبَ على الواجبِ ، فهو خيرٌ وزيادةٌ عند الله تعالى ، ﴿ **إنَّما هـٰذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ** ﴾ [غافر : ٣٩] ، ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا ، وأن لا نخافَ في اللهِ لومَةَ لائمٍ .

ونحنُ نُحِبُّ للسلطانِ معالِيَ الأمورِ ، وأكمَلَ الأحوالِ ، وما ينفعُهُ في آخرتِهِ ودُنْياه ، ويكونُ سببًا لدوامِ الخيراتِ له ، ويَبْقىٰ ذِكْرُهُ له على مرِّ الأيام ، ويخلُدُ في سننه الحسنة ، ويجد نفعَهُ ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وأما ما ذُكِرَ من تمهيد السلطانِ البلادَ ، وإدامته الجهاد ، وفتْح الحصون ، قَهْر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها لخاصَّةُ والعامَّة ، وسارَتْ في أقطارِ الأرض ، ولله الحمد ، وثواب ذلك مُدَّخَرٌ

للسلطان إلى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ولا حُجَّةَ لنا عند اللهِ تعالىٰ إذا تَرَكْنا هذه النَّصيحَةَ الواجبَةَ علينا .
والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته .
الحمدُ لله رب العالمين[1] .

ومما كتبه لمَّا احتيطَ على أملاكِ دمشق - حرسها الله تعالى - بعد إنكاره مواجهةَ السلطان الظاهر ، وعدم إفادته وقبوله :

بسم الله الرحمٰنِ الرحيم .
الحمدُ لله ربِّ العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] وقد أوجبَ الله على المكلَّفين نصيحةَ السلطانِ - أعزَّ الله أنصارَه - ونصيحَةَ عامَّةِ المسلمين ؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الدِّينُ النَّصيحةُ ؛ للهِ ، ولكتابِهِ ، ورسولِهِ ، وأَئمَّةِ المسلمين ، وعامَّتِهم »[2] . وَمِن نصيحة السلطان - وفَّقه الله لطاعته ،

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار صـ ١٠١ - ١٠٨ .
(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (١ / ٧٥) ، والنسائي في « المجتبى » (٢ / ١٧٨) ، وأبو داود في « السنن » (٥ / ٢٢٣) ، والحميدي في « المسند »=

وتولّاه بكرامته - أن تُنْهى[1] إليهِ الأحكام إذا جرتْ على خِلافِ قواعِدِ الإسلام .

وأوجبَ الله تعالى الشَّفَقةَ على الرعيَّةِ ، والاهتمامَ بالضَّعَفةِ ، وإزالَةَ الضَّررِ عنهم . قال الله تعالى : ﴿ **وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحِجْر : ٨٨] .

وفي الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضعفائِكم »[2] .

وقال ﷺ : « مَنْ كَشَفَ عن مسلم كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا ، كَشَفَ الله عنهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، والله فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ ....

= (٢/ ٣٦٩) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٠٢) ، والبخاري في « التاريخ الصغير » (٢ / ٣٥) ، وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (رقم ٧٤٧ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١) ، وبيَّن أن محمد بن عجلان أدخل إسنادًا في إسناد ، فجعل الحديث من مسند أبي هريرة . والصحيح أنه من حديث تميمٍ الدَّاري . وانظر حوْل هذا الأمر : « فوائد الليث بن سعد » (ص ٥١ - ٥٥) ، وكلام محققه عليه .

(١) أي : تُرفع إليه وتبلُغ مسامعَه .

(٢) أخرجه البخاري في « الصحيح » (٦ / ٨٨) ، والنسائي في « المجتبى » (٦ / ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣ / ٣٤٥) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤ / ٢٦٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥ / ١٠ ، ٢٦ و٨ / ٢٩٠) ، والدَّوْرَقي في « مسند سعد بن أبي وقاص » (رقم ٥١) ، والهيثم الشاشي في « مسنده » (ورقة ١٠ / أ) . وأبو طاهر المخلِّص ، وأبو القاسم التيْمي في « الترغيب » ، كما في « النكت الظراف » (٣/٣١٩) .

أخيهِ »[١].

وقال ﷺ : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شيئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ؛ فارْفُقْ بِهِ ، وَمَنْ شَقَّ عليهِم ، فاشْقُقْ عليهِ »[٢].

وقال ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[٣].

وقال ﷺ : « إِنَّ المُقْسِطِينَ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يمينِ الرحمـٰنِ ، الذينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِم ، وأهلِيهِم ، وما وُلُّوا »[٤].

وقد أنعم اللهُ تعالى علينا ، وعلى سائِر المسلمين بالسلطان - أعزّ الله أنصارهُ - فقد أقامَه لنُصْرَةِ الدِّين والذَّبِّ عن المسلمين ، وأذلَّ بِهِ الأعداءَ مِنْ جَميعِ الطَّوَائِفِ ، وفتحَ عليهِ الفتوحاتِ المشهورةَ في المدةِ اليسيرةِ ، وأَوْقَعَ الرُّعْبَ منه في قلوب أعداءِ الدين وسائر الماردين ، ومَهَّدَ له البلادَ والعبادَ ، وقَمَعَ بسببهِ أهلَ الزَّيْغِ والفساد ، وأمدَّهُ بالإعانةِ واللُّطْفِ والسَّعَادَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في « الصحيح » (٤ / ٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، وأبو داود في « السنن » رقم ٤٩٤٦) ، والترمذي في « الجامع » رقم ١٤١٥ ، ١٩٣٠) ، وابن ماجه في « السنن » (رقم ٢٢٥) ، وأحمد في « المسند » (٢ / ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٤) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (رقم ١٨٢٨) ، وأحمد في « المسند » (٦ / ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠) ، وغيرهما .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح والأدب المفرد ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وعبد الرزاق ، وأبو داود وأبو عوانة وابن الجارود في المنتقى ، وأحمد ، والطبراني في الكبير .

(٤) أخرجه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في التاريخ ، والنسائي ، والحميدي في المسند ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في « السنن الكبرى » .

فللهِ الحمدُ على هٰذه النعمِ المتظاهرةِ ، والخيراتِ المتكاثرةِ ، ونسألُ الله الكريمَ دوامَها له وللمسلمين ، وزيادَتَها في خير وعافية ، آمين .

وقد أوجبَ الله شكْرَ نِعَمِهِ ، وَوَعَدَ الزيادةَ للشّاكرينَ ، فقال تعالى : ﴿ **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ولقد لَحِقَ المسلمين بسبب هٰذه الحَوْطَةِ على أملاكِهم أنواعٌ مِن الضَّرَرِ ، لا يمكنُ التعبيرُ عنها ، وطُلِبَ منهُم إثباتٌ لا يلزمُهُم ، فهٰذه الحَوْطَةُ لا تَحِلُّ عندَ أحدٍ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين ، بل مَن في يدهِ شيءٌ ، فهو مُلْكُه ، لا يَحِلُّ الاعتراضُ عليه ، ولا يُكَلَّفُ بإثباتِهِ .

وقد اشْتُهِرَ من سيرةِ السلطان أنَّه يُحِبُّ العملَ بالشرع ، ويُوصي نُوَّابَهُ به ، فهو أَوْلى مَنْ عَمِلَ به ، والمسئول إطلاق النَّاس من هٰذه الحَوْطَةِ ، والإفراج عن جميعِهم ، فَأَطْلِقْهُم ، أَطْلَقَكَ الله مِن كُلِّ مَكروهٍ ، فَهُم ضَعَفَةٌ ، وفيهم الأيتامُ ، والأراملُ ، والمساكينُ ، والضَّعَفَةُ ، والصَّالحونَ ، وبِهِم تُنْصَرُ ، وتُغَاثُ ، وتُرْزَق ، وهم سُكَّان الشام المبارك ، جيرانُ الأنبياءِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ، وسكَّانُ ديارِهم ، فلهُم حُرماتٌ مِن جهاتٍ . ولو رأى السُّلطانُ ما يلحَقُ الناسَ مِن الشَّدائِد ، لاشتَدَّ حُزْنُه عليهِم ، وأطلقَهُم في الحالِ ولم يُؤَخِّرْهُم ، ولكن لا تُنْهَى الأمورُ إليهِ على وجْهِهَا .

فباللهِ ، أغِثِ المسلمين ، يُغِثْكَ الله ، وارْفقْ بِهِمْ ؛ يَرْفقِ الله بك ، وعَجِّلْ لَهُم الإفراجَ قبلَ وقوعِ الأمطارِ ، وتَلَفِ غَلَّاتِهم ؛ فَإِنَّ أكثرَهُمْ وَرِثُوا هٰذه الأملاكَ مِن أسلافِهم ، وَلَا يمكِنُهُم تحصيلُ كتبِ شراءٍ ، وقد نُهِبَتْ كُتُبُهم .

وإذا رفقَ السلطانُ بهِم ؛ حَصَلَ له دعاءُ رسولِ اللهِ ﷺ لمن رفق

بأمَّتِهِ ، ونصره على أعدائِهِ ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم** ﴾ [محمد : ٧] ، وَتَتَوَفَّرْ له من رعيَّتِهِ الدَّعوات ، وتظْهَرُ في مملكَتِهِ البركاتُ ، ويُبَارَكُ له في جميعِ ما يقصدُه من الخيرات .

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يوم القيامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً ؛ فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ »[١]. فنسأَلُ الله الكريم أن يوفِّقَ السلطانَ للسُّننِ الحسنةِ التي يُذكَرُ بها إلى يوم القيامة ، ويحميه مِن السُّنن السيِّئةِ .

فهٰذه نصيحَتُنَا الواجبةُ علينا للسُّلطانِ ، ونرجو مِن فضلِ اللهِ تعالى أن يُلْهِمَهُ الله فيها القَبولَ . والسلامُ عليكُم ورحمة الله .

الحمدُ لله رب العالمين ، وصلواتُه وسلامُه على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبِهِ[٢] .

قال السخاوي : « وكان السبب في هذه الحوْطة - كما صرّح به صاحب البدر السَّافر - : أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ، ونزوحهم عن البلاد ولّى وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية ، فقال : إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولَوْا عليها ، فتملَّكوها ، على مقتضى مذهب الإمام أبي حنيفة[٣] رحمه الله . فوضع السلطان يده عليها ، فقام جماعة من أهل العلم في ذلك ، وكان الشيخ فيهم.. (قلت) - أي

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما .
(٢) تحفة الطالبين صـ ١٠٨ - ١١٤ .
(٣) والجمهور علىٰ خلافه .

السخاوي -: بل هو أعظمهم . قال : فكلّم السلطان في ذلك كلامًا فيه غِلْظَة ، فظنَّ السلطان أنّ له مناصبَ يعزله عنها . فقيل له : ما له . انتهىٰ كلام البدر .

وقال الخطيب النونيني : إنه وَاقَفَ الظَّاهرَ غير مرة ، بدار العدل بسبب الحوْطة على بساتين دمشق وغير ذلك . وحُكي عن الظاهر أنه قال : أنا أفزع منه . أو ما هذا معناه . ولقد شاهدتُّه مرةً طلع إلى زاوية الشيخ خضر - بالجبل المشرِف على المزة - وحدَّثه في أمرٍ ، وبالغ معه وأغلظ له ، فسمع الشيخ خضر كلامًا مؤْلِمًا ، فأمر بعض مَنْ عنده بإخراجه ودفْعه ، فما تأثر لذلك في ذات الله - عز وجل - ولا رجع عن قَصْده ؛ لنفْع يجلِبُه لبعض المسلمين .

وقال العماد ابن كثير : إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة ، لمّا أرادوا وضْع الأمْلاك على بساتينها ، فردّ عليهم ذلك ، ووقى اللهُ شرَّها ، بعدَ أن غضب السلطان وأراد البطش به ، ثم بعد ذلك أحبّه وعظّمه ، حتى كان يقول : أنا أفزع منه . انتهىٰ كلام ابن كثير »[1] .

ومما كتبه بسبب الفقهاء ، لما رُسِمَ[2] بأن الفقيه لا يكون منزلًا في أكثر من مدرسة واحدة ، وهٰذه صورته :

« بسم الله الرحمٰنِ الرحيم :

خَدَمَةُ الشَّرْع يُنْهونَ أَنَّ الله تعالى أمرَنا بالتَّعاوُنِ على البرِّ والتَّقوى ،

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام النووي ، للحافظ السخاوي صـ ٤٥ طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر .

(٢) أي : كُتب ، و « المرسوم » ما يُصدره رئيس الدولة كتابة في شأنٍ من الشئون ، فتكون له قوة القانون .

ونصيحَةِ وُلاةِ الأمورِ ، وعامَّةِ المسلمين ، وأَخَذَ على العُلماءِ العهدَ بتَبْليغِ أحكامِ الدينِ ، ومناصحةِ المسلمين ، وحثَّ على تعظيمِ حُرُماتِهِ ، وإعظامِ شعائِرِ الدينِ ، وإكرامِ العلماء وتُبَّاعِهم .

وقد بلغَ الفقهاءَ بِأَنَّهُ رُسِمَ في حَقِّهِم بِأَنْ يُغَيِّروا عنِ وظائِفِهم ، ويُقْطَعوا عن بعضِ مدارِسِهم ، فتنكَّدَتْ بذلك أحوالُهُمْ ، وتضرَّروا بهذا التضييقِ عليهم ، وهُم محتاجونَ ، ولهُم عِيالٌ ، وفيهِم الصَّالِحونَ ، والمشتغِلونَ بالعلومِ ، وإنْ كَانَ فيهِم أفرادٌ لا يَلْتَحِقُونَ بمراتِبِ غيرِهم ، فهم منتَسِبونَ إلى العلمِ ، ومشارِكُونَ فيهِ . ولا تَخْفَى مراتِبُ أهلِ العلمِ ، وفضلُهم ، وثناءُ الله تعالى عليهم ، وبيانُه مزيَّتَهم على غيرِهم ، وأنَّهم وَرَثَةُ الأنبياءِ - صلواتُ الله وسلامُه عليهِم - وأَنَّ الملائِكَةَ - عليهم السلام - تضعُ أَجْنِحَتَهَا لَهُم ، ويستَغْفِرُ لَهُم كُلُّ شيءٍ ، حتى الحيتانُ . واللائِقُ بالجَنابِ العالي إكرامُ هٰذه الطَّائِفَةِ ، والإحسانُ إليهِم ، ومُعاضَدَتُهُم ، ودفعُ المكروهاتِ عنهُم ، والنَّظَرُ في أحوالِهِم ؛ بما فيهِ الرِّفقُ بهم ؛ فقد ثبت في « صحيح مسلم » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِم ؛ فَارْفقْ بِهِ » .

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه كان يقـول لطلبةِ العلم : مرحبًا بوصيةِ رسـول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رجـالًا يأتونَكُم يَتَفَقَّهـونَ في الدِّين ، فإذا أَتَوْكُمْ ؛ فاسْتَوْصوا بِهِمْ خَيْرًا »[1].

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وعبد الرزاق في المصنف ، والرامهرمزي في المحدث الفاصل صـ ١٧٦ ، كلهم من طريق أبي هارون العبدي عمارة بن جُوَين كذبه بعضهم . انظر الميزان (٣ / ١٧٣) .

والمسئول أن لا يُغَيِّر على هذه الطائفةِ شيءٌ ، وتُسْتَجْلَب دعوتُهم لهٰذه الدولة القاهرة ، وقد ثبت في « صحيح البخاري » أن رسول الله ﷺ قال : « هل تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ » .

وقد أحاطتِ العلومُ بما أجاب بِهِ الوزيرُ نظامُ المُلْك ، حينَ أنْكَرَ عليهِ السلطانُ صرْفَ الأموالِ الكثيرةِ في جهةِ طلبةِ العلم ، فقال : « أَقَمْتُ لَكَ بِهَا جُنْدًا لَا تُرَدُّ سِهَامُهُم بالأَسْحارِ » . فاسْتَصْوبَ فِعْلَهُ ، وساعَدَهُ عليهِ .

والله الكريمُ يوَفِّقُ الجنابَ دائمًا لمرضاتِهِ ، والمسارعة إلى طاعاتِهِ .

والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وله - رَحِمَهُ الله تعالى - رسائِلُ كثيرةٌ في كُلِّياتٍ تتعلَّقُ بالمسلمين وجزئيات ، وفي إحياء سننٍ نيِّرات ، وفي إماتة بدع مظلماتٍ ، وله كلامٌ طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مواجهًا به أهل المراتب العاليات »[١].

قال السخاوي مُعَقِّبًا : « قلت : منها رسالة إلى نائب السَّلطنة بدمشق يطلب جمْع الناس للاستسقاء ، كتبها في يوم الأحد ، حادي عشر جمادىٰ الأولىٰ ، سنة ثمانٍ وستين وستمائة » .

وقد ردّ فيها على من خذَّل في صلاة الاستسقاء ، وجاء فيها : « فهذا المخذِّل مخطئ جاهل ، بل إنِ اعتقد هذا ، كان كافرًا ؛ لأنّ ما فعله رسول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كلّ مكلَّف

(١) تحفة الطالبين ١١٥ - ١١٨ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٤٦ - ٤٧ .

الانقياد له ، والمسارعة إلى قبوله ، وانشراح الصدر له . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا ممّا قَضَيْتَ وَيسلِّموا تسليما** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنينَ إذا دُعوا إلى الله ورسوله لِيحكُم بيْنهم أن يقولُوا سمِعْنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وكلُّ ما خالف سنة رسول الله ﷺ فهو البدْعة والضلالة والغباوة والجهالة والسَّفاهة والرذالة ، بل هذه طريقة الكفَّار في مُدافعة دين الإسلام ، ويأبىٰ الله إلا أن يُتمّ نورَه ، ولو كرِه الكافرون ، ويجب على وليّ الأمر - وفقه الله لطاعته - إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضّالّ الغاشم المتجاهل ، وغيره ممّن يقول نحوَ هذا القوْل في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ - أن يؤدّب تأديبًا بليغًا ينزجر به هو وأمثالُه ، ويُشهرَ أمْره ، ليَنْكِفَ أهلُ الجهالة والضلالة عن مثل فعله ، ولِيعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر الله تعالى والاقتداء برسول الله ﷺ وهو مصلحة فاخرة ، وسعادة معجّلة ، ومِنة مِنَ الله تعالى ، يُشكر على التوفيق لها . وأمّا نزول المطر فهو إلى الله تعالى ، وليس المراد بالاستسقاء تيقُّن نزول المطر » .

وحثّ النّووي في رسالتِهِ نائبَ السلطنة أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء ، بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء ، والصدقة وصيام ثلاثة أيام ، والخروج في اليوم الرابع صيامًا . ولمّا وصلتِ الرسالة لوليّ الأمرِ ، أمَرَ مُحتَسِب البلد ، فنادىٰ - ساعته - في الناس بصيام ثلاثة أيام ، أوَّلُها يوم الإثنين الثاني عشر من جمادىٰ الأولى ، ثمّ خرج وليّ الأمر والناس يوْم الخميس ، الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقَوْا ، ثم سُقوا بعد ذلك بسبعة أيّام سقيا عامة وترادفتْ أمطار كثيرة بعد أنْ حصل لكثير من الناس قنوطٌ ، فللّه الحمد على نِعَمِهِ ، والتوفيق لإظهار شعائر دينه ، ومتابعة

رسوله ﷺ ، والاعتناء بسنتهِ .

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق ، فامتثلوا لأمْره في ذلك ، فسُقوا كلُّهم في بلدانهم في الوقت المذكور ، ثم وقعتْ في البلدان ثلوج كثيرة لم يُرَ في تلك السنين مثلُها ، وأبطل تضمين الخانات والخمور ، وأُريقتْ على كلّ مَنْ وُجدتْ عنده في دمشق وسائر بلاد الشام ، ورفعتِ المنكرات - ولله الحمد - رَفْعًا تامًّا بعد أن كانت شائعةً أفحش الشَّياع ، وذلك في ربيع الآخر من السنة . ثم جعل اللهُ الكريم في الغلات أنواعَ البركات ، وأخصبتِ الغلّات في جميع بلاد الشام إلى حدٍّ لم يُعهد مثلُه ، من نحو ثلاثين سنة ، ثم أعقب ذلك رُخْصًا لكثرة الغلات ، لم يُعهد مثلُه من نحو خمسَ عشْرة سنةً[1] .

بَيْنَ الإمام النَّووي وابنِ النّجار :

كان في دمشق شخصٌ - يُقال له : ابن النجار - « سَعَى في إحداث أمورٍ على المسلمين باطلةٍ ، فقام الشيخ - قدّس الله رُوحه - مع جماعة من علماء المسلمين فأزالوها بإذن الله تعالى ، ونصر الله الحقّ وأهله ، فغضب لذلك ؛ لكراهيته مصلحة المسلمين ونصيحة الدين ، وبعث إلى الشيخ يهدِّده ، ويقول : « أنت الذي تحزِّبُ العلماء على هـٰذا » . فكتب إليه الشيخ - قدَّس الله روحه - كتابًا هذا صورته :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

---

(١) ترجمة النووي للسّخاوي ص ٤٧ - ٤٩ .

من يحيىٰ النووي .

اعلم أيُّها المقصرُ في التأهُّب لمعادِه ، التاركُ مصلحَةَ نفسه في تهيئةِ جهازِه له وزادِه ، أنِّي كنتُ لا أعلمُ كراهَتَكَ لنُصْرَةِ الدين ، ونصيحةِ السلطان والمسلمين ؛ حملًا منِّي لك على ما هو شأنُ المؤمنين ، من إحسان الظنِّ بجميع الموحِّدين ، وربما كنتُ أسمعُ في بعض الأحيانِ مَنْ يذْكُرُكَ بِغِشِّ المسلمين ، فأُنْكِرُ عليه بلساني وبقلبي ، لأنها غيبةٌ لا أعلم صحَّتها ، ولم أزَلْ على هٰذا الحال إلى هٰذه الأيام . فجرىٰ ما جرىٰ من قوْل قائل للسُّلطان - وفَّقه الله لكريمِ الخيرات - : إنَّ هٰذه البساتينَ يَحِلُّ انتزاعُها من أهلِها عندَ بعضِ العلماء . وهٰذا مِنَ الافتراء الصريح ، والكذب القبيح ، فوجب عليَّ وعلى جميعِ مَن عَلِمَ هٰذا من العلماء أن يُبَيِّنَ بُطلانَ هٰذه المقالة ، وَدَحْضَ هٰذه الشناعة ، وأنَّها خلافُ إجماع المسلمين ، وأنَّه لا يقولُ بها أحدٌ من أئمَّةِ الدين ، وأن يُنْهوا[1] ذلك إلى سلطان المسلمين ؛ فإنَّه يجبُ على الناس نصيحته ؛ لقول النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح : « الدِّينُ النصيحة ، للهِ ، ولكتابه ، ولرسوله ، وأئمَّة المسلمين ، وعامَّتهم » .

وإمام المسلمين في هٰذا العصر هو السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولَّاه بكرامته - ، وقد شاع بين الخواصِّ والعوامّ ، أنَّ السلطانَ كثيرُ الاعتناء بالشَّرعِ ، ومحافظٌ على العملِ به ، وأنَّه بَنَىٰ المدرسة لطوائف العلماء ، ورتَّب القُضاة من المذاهب الأربعة ، وأمر بالجلوس في دار العدل ؛ لإقامة الشرع ، وغير ذٰلك ، مما هو معروف من اعتناء السُّلطان - أعزَّ الله أنصارَهُ - بالشرع ، وأنَّه إذا طلبَ طالبٌ منهُ العملَ بالشرعِ ؛

---

(١) أي : يرفعوا .

أمر بذٰلك ، ولم يخالفه .

فلما افترى هٰذا القائلُ في أمرِ البساتين ما افتراه ، ودلَّس على السلطان ، وأظهر أن انتزاعها جائزٌ عند بعض العلماء ، وغشَّ السلطان في ذٰلك ، وبلَغ ذٰلك علماءَ البلد ؛ وجب عليهم نصيحةُ السلطان ، وتبيينُ الأمرِ له على وجهه ، وأنَّ هٰذَا خلافُ إجماع المسلمين ، فإنَّه يجب عليهم نصيحةُ الدين ، والسلطانِ ، وعامَّةِ المسلمينَ . فوفَّقهم الله تعالى للاتفاقِ على كَتْبِ كتاب يتضمَّن ما ذكرتُه ؛ على جهةِ النَّصيحة ؛ للدين ، والسلطان ، والمسلمين ، ولم يذكروا فيه أحدًا بعينه ، بل قالوا : مَن زعم جوازَ انتزاعِهَا ، فقد كذب ، وكتب علماءُ المذاهب الأربعة خطوطَهم بذٰلك ؛ لِمَا يجب عليهم من النَّصيحةِ المذكورة ، واتَّفقوا على تبليغها وليِّ الأمرِ - أدامَ الله نِعَمَهُ عليه - لِيَنْصحوه ، ويُبيِّنوا حكمَ الشرع .

ثم بلَّغني جماعاتٌ متكاثِراتٌ في أوقاتٍ مختلفاتٍ - حصل لي العلم بقوْلهم - أنك كرهت سعيَهم في ذلك ، وسارَعَتْ في ذمِّ فاعل ذلك ، وأسندت معظم ذٰلك كله إليَّ . ويا حبذا ذٰلك من صنيع . وبلَّغني عنك هٰؤلاء الجماعات أنَّك قلت : قولوا ليحيىٰ : هو الذي سعىٰ في هٰذا ، فينكفَ عنه ، وإلا أخذتُ منهُ دارَ الحديث .

وبلَّغني عنك هٰؤلاء الجماعاتُ أنَّك حلَفتَ مراتٍ بالطلاق الثلاث أنَّك ما تكلَّمتَ في انتزاع هٰذه البساتين ، وأنَّك تشتهي إطلاقَها .

فيا ظالم نفسه ، أمَا تستحي من هٰذا الكلام المتناقض ، وكيف يصحُّ الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنَّك لم تتكلم فيها ، وبين كراهتك السَّعْيَ في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين ؟!

ويا ظالمَ نفسهِ ، هل تعرَّض لك أحدٌ بمكروه ، أو تكلَّم فيك بعينِك ؟

وإنما قال العلماءُ : مَن قالَ هٰذَا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه ، وغشَّه ، ولم ينصحْه ؛ فإنَّ السلطانَ ما يفعلُ هٰذا إلَّا لاعتقادِهِ أنَّه حلالٌ عند بعضِ العلماء ، فبيِّنوا أنَّه حرامٌ عند جميعهم . وأنت قد قُلْتَ أنَّك لم تتكلم فيها . وحلفتَ على هٰذا بالطَّلاقِ الثلاث ، فأيُّ ضررٍ عليك في إبطال قولِ كاذبٍ على الشرع ، غاشٍّ مدلس على السلطان ، وقد قلتَ أنَّه غيرُك ؟! وكيف تكره السَّعْيَ على شيءٍ قد أجمعَ الناسُ على استحسانِهِ ، بل هو واجب على مَن قدر عليه ؟! وأنا - بحمد الله - من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت ، وأمّا نجاحُه ، فهو إلى الله تعالى ، مقلِّب القلوب والأبصار .

ثم إني أتعجَّب غايةَ العجب من اتِّخاذكَ إيَّاي خَصمًا ، ويا حَبَّذا ذٰلك من اتِّخَاذ ؛ فإنِّي - بحمد الله تعالٰى - أُحِبُّ في الله تعالى ، وأُبْغِضُ فيه ، فأُحِبُّ مَنْ أطاعَهُ ، وأُبْغِضُ مَن خالفه ، وإذا أخبرتَ عن نفسكَ بكراهتِك السَّعْيَ في مصلحة المسلمين ، ونصيحة السلطان ؛ فقد دخلتَ في جملة المخالفين ، وصرتَ ممَّن نُبْغِضُهُ في الله ربِّ العالمين ؛ فإنَّ ذٰلك من الإيمان ؛ كما جاءت به الآثار الصحيحة ، المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار[1].

ارْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ ... فَـذَاكَ ذَنْـبٌ عِقَـابُـهُ فِيـهِ

ويا ظالمَ نفسه ، أنا خاصمتُك ، أو كالَمْتُكَ ، أو ذكرتُك ، أو بيني وبينك مخاصمة ، أو مُنازَعَة ، أو معاملةٌ في شيءٍ ؛ فما بالك تكره فعْل

---

(١) يشير الإمام النووي إلى حديث : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » أخرجه أبو داود في « السنن » (رقم ٤٦٨١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (رقم ٧٦١٣ و٧٧٣٧ و٧٧٣٨) . والبغوي في « شرح السنة » (١٣ / ٥٤) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص ١٧٨ ، ١٧٩) بإسنادٍ حسنٍ .

خيرٍ يَسَّرني الله الكريمُ له ؟! ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [البروج : ٨] .

بل أنت لسوءِ نَظَرِكَ لنفسك تتأذّىٰ على نفسكَ ، وتُشْهِدُ الشهودَ بكراهة هٰذه النصيحة ، التي هي مصرِّحة بأنَّك أنت الذي تكلَّمتَ في هٰذه البساتين ، وأنَّ الطلاقَ واقعٌ عليكَ ، وما أبعدَ أن تكون شبيهًا بمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٠] .

ويا عدوَّ نفسِهِ ، أتُراني أكرَهُ مُعاداةَ مَن سَلَكَ طَرِيقَتِكَ هٰذه ؟! بل - واللهِ - أُحِبُّها ، وأوثِرها ، وأفعَلُها بِحَمْدِ الله تعالى ، فإنَّ الحُبَّ في الله ، والبُغْضَ فيهِ ، واجبٌ عليَّ وعليكَ ، وعلى جَميعِ المكَلَّفينَ ، ولستُ أَدْري أيَّ غرضٍ لك في حِرْصِكَ في الإنكارِ على السَّاعين في إعظام حُرُماتِ الدِّين ، ونصيحة السلطان والمسلمين . فيا ظَالِمَ نفسه ، انْتَهِ عن هٰذا ، وارْجِعْ عن طَرِيقةِ المباهتين المعاندين .

وأَعْجَبُ مِن هٰذا تَكْرِيرُك الإرسالَ إليَّ - بزعمك الفاسد - كالمتوعِّد : إنْ لم يَنْكَفَّ أخذتُ مِنهُ دارَ الحديث .

فيا ظالِمَ نفسِهِ ، وجاهِلَ الخير وتاركه ، أطَّلَعْتَ على قلبي أنِّي متهافِت عليها ، أو علمتَ أني منحَصِرٌ فيها ، أو تحقَّقْتَ أني معتمِدٌ عليها ، مستَنِدٌ إليها ، أو عَرَفْتَ أنِّي أعتقدُ انحصارَ رزقي فيها ، أوَما علمتَ - لو أنصفتَ - كيف كان ابتداءُ أمرها ؟! أوَ ما كنتَ حاضرًا ، مُشاهِدًا أَخْذي لها ؟! ولو فُرِضَ تهافُتي عليها ، أكنْتُ أوثِرُهَا علىٰ مصلحةٍ عامةٍ للمسلمين ، مشتملةٍ على نصيحة الله ، وكتابه ، ورسوله ﷺ ، والسُّلطان ، وعامة المسلمين ؟! هٰذا ما لم أفْعَلْهُ ولا أفعله ، إن شاء الله تعالى .

وكيف تتوهم أنِّي أترك نصيحةَ الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامَّتِهِم ؛ مخافةً مِن خيالاتك ؟! إن هٰذه لغباوةٌ منك عظيمة .

ويا عجبًا منك ! كيفَ تقول هٰذا ؟! أنتَ ربُّ العالمين ؟! بيدك خزائنُ السَّماوات والأرض ، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين ؟! أمْ أنت سلطان الوقت ؛ تحكم في الرَّعيَّة بما تُريد ؟!

فلو كنتَ عاقلًا ؛ ما تهَجَّمْتَ علىٰ التَّفَوُّهِ بِهٰذا الذي لا ينبغي أن يقولَه إلا ربُّ العالمين ، أو سلطان الوقت ؛ مع أن سلطان الوقت منزَّهٌ عن قولك الباطلِ ، مرتفعُ المَحَلِّ عن فعْلِ ما ذكرتَ .

يا ظَالِمُ ، فإنْ كنت تقول هٰذا استقلالًا منك ؛ فقد افتأَتَّ عليه ، واجْتَرَأْتَ علىٰ أمرٍ عظيم ، ونسبْتَه إلى الظُّلم عدوانًا ، وإنْ كنتَ تقوله عنه ، فقد كذبتَ عليه ؛ فإنَّه - بحمد الله - حَسَنُ الاعتقاد في الشَّرْع ، وذٰلك من نِعَمِ الله تعالى عليه ، والسلْطان - بحمد الله وفضله - أكثرُ اعتقادًا في الشَّرْع مِن غيره ، ومعظم حُرُماته ، وليس هو ممن يقابلُ ناصِحَهُ بهذيانات الجاهلين ، وتُرَّهات المخالفين ، بل يقبلُ نصائِحَهُم ، كما أمره الله تعالى .

واعلم أيُّها الظالمُ نفسه ، أنِّي - والله الذي لا إلٰه إلا هو - لا أترُكُ شيئًا أقْدِرُ عليه من السعْي في مناصحةِ الدين والسُّلطانِ والمسلمين في هٰذه القضيَّة ، وإنْ رَغِمَتْ أنوفُ الكارِهين ، وإنْ كَرِهَ ذٰلِكَ أعداءُ المسلمين ، وفَرِقَ حزبُ المخذِّلين ، وسترىٰ ما أتكلَّم به ، إن شاء الله تعالى ، عند هٰذا السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولَّاه بكرامته - في هٰذه القضيةِ ، غيْرةً على الشرعِ ، وإعظامًا لحُرمات الله تعالى ، وإقامةً للدِّين ، ونصيحةً للسلطان وعامة المسلمين .

ويا ظالمَ نفسه ، أجْلِبْ بخَيْلِكَ وَرجلِكَ إنْ قَدَرْتَ ، واسْتَعِنْ بأهلِ المشرقَيْنِ وما بين الخافقَيْن ؛ فإني - بحمد الله - فيَّ كِفَايَةٌ تامَّةٌ ، وأرجو من فضلِ الله تعالى أنَّك لا تَقْوىٰ لمنابذةِ أقلِّ الناس مرتبةً ، وأنا - بحمد الله تعالى - مِمَّن يَوَدُّ القتلَ في طاعةِ الله تعالى .

أَتَقْوى يا ضعيف الحِيَلِ لمنابذتي ؟! أَبَلَغَكَ يا هٰذا أنِّي لا أؤمِنُ بالقدر ، أو بلغكَ أنِّي أعتقِدُ أنَّ الآجالَ تَنْقُصُ ، وأنَّ الأَرْزَاقَ تَتَغَيَّرُ[1] ؟! أما تفكِّرُ في نفسك في قبيحِ ما أَتَيْتَهُ من الفعالِ ، وسوء ما نَطَقْتَ بهِ من المقالِ ؟!

أيا ظالمَ نفسه ، مَن طلب رضا اللهِ تعالى تردُّه خيالاتُك ، وتمويهاتُك ، وأباطِيلُكَ ، وتُرَّهاتُك ؟!

وبعد هٰذا كله ، أنا أرجو من فضل الله تعالى أنَّ الله يوفق السلطان - أدام الله نِعَمَهُ عليه - لإطلاقِ هٰذه البساتين ، وأن يفعَلَ فيها ما تقرُّ به أعيُنُ المؤمنين ، ويُرْغِمُ أنفَ المخالِفينَ ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

والسُّلْطانُ - بحمدِ الله تعالى - يفعل الخيراتِ ، فما يترُكُ هذه القضيَّة تفوتُه .

واعلَمْ أنك عندي - بحمد الله تعالى - أقلُّ ممَّن أهتم بشأنك ، أو ألتفتُ إلى خيالاتِك وبطلانِك ، ولكنِّي أردتُ أن أعرِّفَكَ بعضَ أمري ؛

---

(١) انظر رسالة « إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان » للشيخ مرعي الحنبلي . نشر دار عمار ، و« تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل » للشوكاني - نشر دار ابن حزم تحقيق:مشهور حسن سليمان .

لتدخلَ نفسكَ في منابذةِ المسلمين بأسرِهم ، ومنابذةِ سلطانِهم - وفَّقه الله تعالى - على بصيرةٍ منك ، وترتفع عنك جهالةُ بعضِ الأمر ؛ ليكون دخولُك بعد ذٰلك معاندةً لا عذرَ لك فيها .

ويا ظالِم نفسهِ ، أتتوهَّمُ أنَّه يَخْفىٰ عليَّ وعلى مَن سَلَكَ طريقَ نصائحِ المسلمين وولاةِ الأمرِ وحُماةِ الدين أنَّا لا نَعْتَقِدُ صِدْقَ قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

وقولِهِ تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بأهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم ﴾ [محمد : ٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

وقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح : « لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرُّهم خذلان من خذلهم »(١).

والمراد بِهٰذه الطائفة أهل العلم ؛ كذا قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أولي النُّهى والفهم .

وقوله ﷺ : « والله في عونِ العبدِ مَا كَانَ العبدُ في عونِ أخيهِ » .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، وغيرهما بنحوه ، من حديث المغيرة بن شعبة ، والحديث وارد عن جمع من الصحابة ، بلغ عددهم ستة عشر نفسًا مِنَ الصحابة . وعدّه ابن تيمية من الأحاديث المتواترة .

هٰذا فِيمَنْ كَانَ فِي عَوْنِ واحدٍ مِنَ النَّاس ، فكيفَ الظَّنُّ بِمَنْ هُو في عَوْنِ المسلمين أجمعينَ ؛ مع إعظامِ حُرُمَاتِ الشَّرْعِ ، ونصيحة السلطان ، وموالاته ، وبذْل النَّفس في ذٰلك ؟!

وَاعْلَمْ أنِّي والله لَا أتعرَّضُ لك بمَكْرُوهٍ سوىٰ أنِّي أُبغِضُكَ لله تعالى ، وما امتناعي عن التعرُّض لك بمكروهٍ عن عَجْزٍ ، بل أخافُ الله ربَّ العالَمين من إيذاءِ مَنْ هُوَ مِن جملةِ الموحِّدين .

وقد أخبرني مَن أثِقُ بخبرِهِ وصلاحِهِ ، وكراماتِهِ وفَلاحِهِ ، أنَّكَ إنْ لم تُبَادِرْ بالتَّوْبَةِ ، حلَّ بك عقوبةٌ عاجلةٌ ، تكونُ بها آيةً لِمَن بعدكَ ، لا يَأْثَمُ بِهَا أحدٌ مِنَ النَّاسِ ، بل هو عدلٌ مِنَ الله تعالى ، يوقِعُهُ بِكَ ؛ عِبرةً لِمَنْ بَعْدَكَ ، فَإِنْ كنتَ ناظرًا لِنَفْسِكَ ، فَبَادِرْ بالرُّجوعِ عن سوءِ فعالِك ، وَتَدَارَكْ ما أسْلَفْتَهُ مِنْ قَبِيحِ مقالِكَ ، قبلَ أنْ يَحِلَّ بِكَ مَا لَا تُقَالُ فيهِ عَثرَتُكَ ، ولا تغترَّ بسلامَتِك وثروتِكَ ووصلتِكَ ، وأفْكِر في قول القائل :

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نَفْسِهَا ... لَوْ كَانَ فِي العَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ وَاثِقٍ بِالعُمْرِ وَارَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدتُّ مَا يَجْمَعُ

والسَّلام على مَنِ اتَّبَعَ الهدىٰ ، والحمد لله رب العالمين[١] .

شَيخ الإسلام ابن تيمية :

شيخ المسلمين ، ودرَّة الموحدين وبقيَّة السلف العاملين ، سيرته تحتاج لمجلدات ضِخام ، ولكن :

قليلٌ منكَ يَكفيني ولكنْ ... قليلُكَ لَا يُقَالُ له قليلُ

(١) تحفة الطالبين صـ ١١٩ - ١٢٠ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٣٦ ، ٥٠ - ٥٥ .

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة ، جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يُمَكِّنه مِنَ الفتْك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجالٌ من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضْرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق . فأذِنَ لهم ، فحضروا بين يديه ، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أوَّلًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدْناه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه أوَّلًا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكُرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكّره ووعظه ، فأجابه إلى ذلك طائعًا ، وحُقنتْ بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم ، وصِين حريمُهم .

يقول الحافظ عمر بن البزار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » : حدثَني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدّث السلطان بقوْل الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه ، حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تُلاصِق ركبتُه ركبةَ السلطان ، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكُلّيته ، مصْغٍ لما يقول ، شاخصٌ إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوْقعَ الله في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أرَ مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعْظَمَ انقيادًا مني لأحد منه . فأُخبرَ بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل . فقال الشيخ للترجمان : قلْ

لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون - على ما بلغنا - فغزوْتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدَا فوفَّيا ، وأنت عاهدت فغدرتَ ، وقلتَ فما وفَّيت ، وجُرْتَ .

وسأله : إن أحببتَ أن أُعمِّر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك ؟ فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ ، وأستبدل به غيره . فخرج من بين يديْه مُكرمًا مُعزَّزًا ، قد صنع له الله بما طوىٰ عليه نيَّته الصالحة من بذْله نفسَه في حقن دماء المسلمين ؛ فبلّغه ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أُسارىٰ المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلهم ، وحفظ حريمهم[1] .

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارىٰ واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر ، فقال ابن تيمية للقائد (بولاي) ، وكان قد التحق مع **قازان** : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملَّة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : وقدِ أطلقنا من النصارىٰ مَن شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرضٍ في قلبه ؛ فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفَه من بعض الولاة . فقال : لو صَحَحْتَ لم تخفْ أحدًا .

---

(١) الأعلام العَليَّة صـ ٦٩ - ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجِل الذي يهاب ربَّه تهابُه الملوكُ .

وقد قصَّ - أيضًا - هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر ابن قوام البالسي ، وكان يومَ قازانَ في جملةِ مَن كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لمّا تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازانَ ، وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لتُرْجمانه : قلْ لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك مؤذِّنون وقاضٍ وإمام وشيخ - على ما بلغنا - فغزوتَنا ، وبلغتَ بلادنا على ماذا ؟! وأبوك وجدُّك (هولاكو) كانا كافرين ، وما غزوَا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدتَّ فغدرت ، وقلت فما وفَّيت . قال : وجرَتْ له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَب ، قام ابن تيمية فيها كلّها لله ، وقال الحقَّ ، ولم يخشَ إلا الله عز وجل . قال : وقرّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكلّه مما نهبتُم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ! قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه : اللهمَّ إن كان هذا - عبدك محمود - إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كلُّه لك ، فانصرْه وأيِّده ، وملِّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلْزِلْه ، ودمِّره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمِّن على دعائه ، ويرفع يديه . قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خَوْفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده ، قال له قاضي القضاة نَجم الدين بن صرصري وغيره : كِدتَّ أن تُهلكنا وتُهلك نفسك ، والله لا نصحبُك من هنا . فقال : وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عُصبةً ، وتأخَّر هو في خاصَّةِ نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعتْ به الخواقِين والأمراء من أصحاب قازان ، فأتَوْه يتبرَّكون

بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارسٍ في ركابه ، وكنت أنا من جملة مَن كان معه ، وأمَّا أولئك الذين أبَوْا أن يصحبُوه ، فخرج عليهم جماعة من التَّتَر ، فشلَّحوهم عن آخرهم[1].

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » في تاريخ سنة « أربع وسبعمائة » :

« وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقًا كبيرًا متَّسعًا جِدًّا ، يُسمَّى : المجاهد إبراهيم القطان ، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناسُ من كلّ جانبٍ وقطّعوه ، حتى لم يدعُوا فيه شيئًا ، وأمَر بحلْق رأسه ، وكان ذا شعر ، وقلّم أظفاره ، وكانوا طوالًا جدًّا ، وحَفّ شاربه المُسبَل على فمه ، المخالف للسنة ، واستتابه من كلامه الفَحِش وأكْل ما يغيّر العقل ، من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها ، وبعدَه استحضر الشيخُ محمدَ الخباز البلاسي فاستتابه - أيضًا - عن أكْل المحرمات ومخالطة أهل الذمة ، وكتبَ عليه مكتوبًا أن لا يتكلم في تعبير المنامات ، ولا في غيرها بما لا عِلْمَ له به . وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ ، وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرةٍ كانت - بنهر قلوط - تُزار ويُنذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها وَمِنَ الشِّرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيما ، وبهذا وأمثاله حسدوه ، وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه ، فحُسد على ذلك وعُودي ، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم ، ولا بالى ، ولم يصِلُوا إليه بمكروه ، وأكثر ما نالوا به الحبْس ، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه ما

---

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

يَشِينه ، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه ، وإلى الله إيابُ الخلق وعليه حسابُهم .

وفي مستهَلِّ ذي الحجة رَكِبَ الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجَرَد والكسروانيين ، ومعه نقيبُ الأشراف زيْن الدين ابن عدنان ، فاستتابوا خلقًا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ، ورجع مؤيَّدًا منصورًا »[1].

وعن أحداث سنة تسعٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « استهلَّتْ وخليفةُ الوقت المستكفي أمير المؤمنين ... وسلطان البلاد ، الملك المظفر ، ركْن الدين بيبرس الجاشنكير . وفي ليلةِ سلَخَ صفرُ توجّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية مِنَ القاهرة إلى الإسكندرية بصحبة أمير مقدَّم ، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد ، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق ، فحصل عليه تألُّم ، وخافوا عليه غائِلة الجاشنكير وشيخه المنبجي ، فتضاعف له الدعاء ؛ وذلك أنهم لم يُمكّنوا أحدًا من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية ، فضاقتْ له الصدور ، وذلك أنه تمكن منه عدوُّه نصر المنبجي ، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي ، ويقول : زالت أيامه ، وانتهت رياسته ، وقرُب انقضاءُ أجلِهِ . ويتكلم فيهما ، وفي ابن عربي وأتباعه ، فأرادوا أن يُسيّروه إلى الإسكندرية - كهيئة المنفىٰ - لعلّ أحدًا من أهلها يتجاسَرُ عليه فيقتله غيْلَةً ، فما زاد ذلك الناسَ إلا محبة فيه ، وقربًا منه ، وانتفاعًا به ، واشتغالًا عليه ، وحُنُوًّا وكرامة له .

وجاء كتابٌ من أخيه يقول فيه : إن الأخ الكريم نزل بالثَّغْر المحروس على نية الرِّباط ؛ فإنّ أعداء الله قصدُوا بذلك أمورًا يَكيدونه بها ، ويَكيدون

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٦ - ٣٧ .

الإسلام وأهله ، وكانت تلك كرامةً في حقنا ، وظنوا أن ذلك يُؤدي إلى هلاك الشيخ ، فانقلبتْ عليهم مقاصدُهم الخبيثة ، وانعكستْ من كلّ الوجوه ، وأصبحوا وأمسَوْا ، وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سُودَ الوجوه ، يتقطعون حَسَراتٍ وندمًا على ما فعلوا . وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مُقْبِلين عليه مُكرمين له ، وفي كل وقتٍ ينشر من كتاب الله ، وسنة رسوله ما تَقَرُّ به أعين المؤمنين ، وذلك شجًى في حُلُوق الأعداء .

واتُّفق أنه وَجَد بالإسكندريةِ إبليس[١] قد باض فيها وفرّخ ، وأضلّ بها فِرَق السبعينية والعربية ، فمزّق الله بقدومه عليهم شملهم ، وشتَّتَ جموعَهم شَذَرَ مَذَرَ ، وهتك أستارهم وفضحهم ، واسْتتاب جماعةً كثيرةً منهم ، وتوّب رئيسًا من رؤسائهم ، واستقر عند عامّة المؤمنين وخواصّهم من أميرٍ ، وقاضٍ وفقيه ، ومُفتٍ وشيخ ، وجماعة المجتهدين - إلّا من شَذّ من الأغمار الجهّال ، مع الذلة والصَّغار - محبةُ الشيخ وتعظيمهُ وقبولُ كلامه ، والرجوع إلى أمره ونهيه ، فَعَلَتْ كلمةُ الله بها على أعداء الله ورسوله ، ولُعِنوا سرًّا وجهرًا ، وباطنًا وظاهرًا في مجامع الناس بأسمائهم الخاصَّة بهم ، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ، ونزل به من الخوْف والذل ما لا يُعَبَّر عنه »[٢].

ابن تيمية والأحمدية الرفاعية :

عَنْ سَنة خمسٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « وفي يوم السبت تاسِع جمادىٰ الأولى حضر جماعة كثيرة مِنَ الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق ، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فسألوا مِن نائبِ

---

(١) كُنية إبليس : الشيخ أبو مرَّة .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٥١ - ٥٢ .

السَّلْطنة بحضرة الأمراء أن يكُفّ الشيخ تقي الدين إمارَته عنهم ، وأن يُسلم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن . لا بد لكلِّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولًا وفعلًا ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه . فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ : تلك أحوالٌ شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم مَن باب الحِيَل والبهتان ، ومَن أراد منهم أن يدخل النار ، فليدخل أولًا إلى الحمّام ولْيغسل جسدَه غسلًا جيدا ، ويدلّكه بالخلّ والأُشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إنْ كان صادقًا ، ولو فُرض أنّ أحدًا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل ، فإن ذلك لا يَدلّ على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالِفة للشريعة إلا إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك . فابتدر شيخ المنيبع ، الشيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تَنْفَق عند التَّتر ، ليست تنفق عند الشرع . فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم ، وأنّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقُه .

وصنّف الشيخ جزءًا في طريقة الأحمدية ، وبيّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيُّلاتهم ، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب ، وأظهر الله السنة على يديْه ، وأخمد بدعتهم ، ولله الحمد والمنَّة »[1].

ويحلو لنا أن نبسُط هذه القصة بقلم ابن تيمية نفسه :

ابن تيمية يُخزي دَجَاجِلَة البطائحية :

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية ،

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٨ .

وهم الأحمدية الرفاعية[١] ، وينتسبون إلىٰ الزهد والتصوف ، ويدَّعون التأله والتعبد ، ولكنهم يقومون بأعمالٍ شركية ، ويُظهرون بدَعًا ما أنزل الله بها من سلطان ، ويحتالون لنيْل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس ، ويُظهرون أعمالًا وخوارقَ يدلّلون بها على أن طريقهم حقٌّ وصدق ، كالدخول في النار ، وملامسة الحيَّات ، وإظهار الدم واللَّاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك ، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجهِ باطِلِهم ، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام ، وسنَّة الرسول ﷺ ، وجَرَت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعاتٌ ومحاوراتٌ ، فأقام عليهم الحجة ، وكشف باطلهم ، ثمَّ ناقشهم في مَحفلٍ عامٍّ ، حضر فيه الأمراء والقوَّاد والعلماء ، وكثير من أهل دمشق وغيرهم ، وسنذكر طَرَفًا مما جرىٰ بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه[٢].

فمن ذلك أن شيخًا منهم استدل على باطله بأنَّه كان عند بعض أمراء التَّتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبده ، فقال له الأمير التتري : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم ، ويبقىٰ أثر الأكل في الطعام بيِّنًا يُرىٰ فيه . فأنكر الشيخ ذلك ، فقال له الأمير التتري : إنْ كان يأكل ، فأنت تموت . فقال الشيخ : نعم . قال : فأقمت عنده إلى نصف النهار ، ولم يظهر في الطعام أثر ، فاستعظم ذلك التتري ، وأقسم بأيْمانٍ مغلَّظة أنه كلَّ يوم يَرىٰ فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقال شيخ الإسلام : أنا أبيِّن لك سبب ذلك ؛ ذلك التتري كافر مشرك ، ولصنمه شيطان يغويه بما يُظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله

---

(١) الشيخ أحمد الرفاعي بريء منهم ؛ لأنه من شيوخ أهل السنة والجماعة ، أثنى عليه ابن تيمية ، والحافظ الذهبي في السير ، وكفىٰ بهذا تعديلًا له .

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ١١ / ٤٤٥ - ٤٤٧ .

تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتتري وأمثاله سُودٌ ، وأهل الإسلام المحْض بيضٌ ، وأنتم بلَق ، فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضرًا .

نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه الله :

قال شيخ الإسلام : جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوَّقين بأغلالِ الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندي مرّاتٍ فأخاطبه بالتي هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يُظهرونه من الشعار المبتدَع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا سرٌّ من أسرارهم ، وأنه سِيمَاء أهل الموهبة الإلـٰهية السالكين طريقهم - أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه - خاطبتُه في ذلك في المسجد الجامع ، وقلت : هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعَل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة ، ولا من المشايخ الذين يقتدىٰ بهم ، ولا يجوز التعبُّد بذلك ، ولا التقرُّب به إلى الله تعالى ؛ لأنَّ عبادة الله بما لم يشرعْه ضلالة ، ولباسُ الحديدِ على غير وجه التعبد قد كَرِهَه مَن كرهه مِن العلماء ؛ للحديث المرويّ في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال : « ما لي أرىٰ عليك حِلية أهل النار ؟ » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأنَّ في أعناقهم الأغلال ، فالتشبه بأهل النار من المنكرات ، وقال بعض الناس : قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا ، قال في آخره : « أحبُّ القيْد وأكره الغُلَّ . القيْد ثبات في الدين » . فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة ؟!..

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوًا منه مع زيادة . وخوَّفته مِن عاقبة الإصرار على البدعة . وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ،

ونحو ذلك مِنَ الكلام الذي نسيتُ أكثره لبعْد عَهدي به . وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبُّد بها - باتفاق المسلمين - ولا التقرب بها إلى الله ، ولا اتخاذها طريقًا إلى الله وسببًا لأَنْ يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند الله وقربةً إليه ، ولا أن يُجعل شعارًا للتائبين المريدين وجهَ الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلَهم .

التقرُّب إلى الله بفعل المباح والمكروه والحرام :

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جُعلت مباحاتٍ ، فأمَّا إذا اتُخذت واجباتٍ أو مستحباتٍ كان ذلك دينًا لم يشرعه الله ، وجعْلُ ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعْل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرّمه الله ؛ ولا دِين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظُمَ ذمُّ الله في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذنِ الله به ، ولمن حرّم ما لم يأذنِ الله بتحريمه . فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات ؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم ، لم يجب عليه فعْله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل ، عند أحمد وغيره . وعند آخرين لا شيء عليه ، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعةً وعبادةً .

العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنّة :

ونحو ذلك العهود التي تُتَّخذ على الناس لالتزام طريقةِ شيخٍ معيَّنٍ ، كعهود أهل « الفُتُوّة » ، و« رُمَاة البنْدق » ، ونحو ذلك ، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدِّين والطاعة لله إلَّا ما كان دِينًا وطاعةً لله ورسوله في شرع الله . لكن قد يكون عليه كفارة عند الحِنْثِ في ذلك ؛

ولهذا أمرتُ غيرَ واحد أن يعدِلَ عما أُخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحةٍ ، أو مشتملة على أنواعٍ من البدع ، إلى ما هو خيرٌ منها من طاعة الله ورسوله ﷺ ، واتباع الكتاب والسنَّة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنَّه قربة وطاعة وبرٌّ ، وطريق إلى الله ، واجب أو مستحب إلَّا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ ؛ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما عُلم باتفاق الأمّة أنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍّ ، ولا قربة؛لم يَجُز أن يُعتقد ، أو يُقال : إنَّه قربة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنَّه لا يجوز قصْد التقرب به إلى الله ، ولا التعبُّد به ، ولا اتخاذه دينًا ، ولا عَمَلُه من الحسنات ، فلا يجوز جعْله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل . وبإهمال هذا الأصل غلط خلْق كثير من العلماء ، يروْن الشيء إذا لم يكن محرَّمًا لا يُنهىٰ عنه ، بل يقال : إنه جائز . ولا يفرقون بين اتخاذه دينًا وطاعة وبرًا ، وبين استعماله كما تُستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه دينًا بالاعتقاد أو الاقتصاد أَو بهما ، أو بالقوْل أو بالعمل أو بهما - من أعظم المحرّمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يُعلم أنها مَعَاصٍ وسيئات .

نفاق ومداهنة :

فلما نهيْتُهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ، ومَضَتْ على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين ، وإظهار ما يخالف شِرْعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرِّفق والأَنَاة ، وأنتظر الرجوع والفيْئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إليَّ كتابًا بعد كتابٍ ، فيه احتجاج واعتذار ،

وعتبٌ وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة ، بل إمَّا أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصَّدُّ عن سبيل الله ، وأكْل أموال النَّاس بالباطل .

شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة :

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ؛ فإن جوابَ مثلِ هذا الكتاب لا يتم إلَّا بذلك . وحضر عندنا منهم شخصٌ فنزعنا الغُلَّ من عنقه . وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] ؛ ولهذا غَالِبُ وجدِهم هوًى مطلقٌ ، لا يدرون من يعبدون ، وفيهم شَبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [المائدة : ٧٧] ؛ ولهذا كان السلف يُسَمُّونَ أهلَ البدع:أهلَ الأهواء .

رَفْضُهم للحِجَاج وإظهارهم الدَّجَل والتَّهريج :

فَحَمَلَهم هواهُم على أن تجمَّعوا تجمُّع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله ﷺ ، ونتفق على اتباع سبيله ، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مَطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو - على ما ذكر لي - وهم من الصِّياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العُجاب . فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعْذِرة ، وطلبًا للبيان والتبصرة ، ورجاءَ المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصرة مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدِموا

من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلُّب في نهر بَرَدَى ، وإظهار التَّولُّه الذي يُخيِّلون به على الورىٰ ، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمُحَال ، الذي يسلمه إليهم مَن أضلوا من الجهال .

بين البطائحية والأمير :

فلما رأى الأمير ذلك هالَه ذلك المنظر . وسأل عنهم ، فقيل له : هم مشتَكُون ، فقال : ليدخلْ بعضُهم . فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوىٰ عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه ، لكن حدثني مَن كان حاضرًا أنَّ الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله مِنْ عنده ، أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ . قال فأيّ شيء يُقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا . قال : فنسمع كلامه ، فمَن كان الحق معه نصرناه . قالوا : نريد أن تشدَّ منا . قال : لا ، ولكن أشدُّ من الحقِّ ، سواء كان معكم أو معه . قالوا : ولا بدَّ من حضوره ؟ قال : نعم . فكرَّروا ذلك ، فأمر بإخراجهم . فأرسل إليَّ بعضَ خواصّه مِن أهل الصدق والدين ممن يَعرفُ ضلالَهم ، وعَرَّفني بصورة الحال ، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

نُصْح شيخ الإسلام لهم :

فلمّا علمتُ ذلك أُلقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشْف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحببتُ البغْي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلَّا أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عَرَّفهم بصورة الحال ، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثُر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قُدَّامَ رماحِ أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان . فاجتمعوا ،

وأشار عليهم شيوخُهم بإظهار موافقة الشريعة ، والخروج عما يُنكر عليهم من البدع . وقال لهم شيخهم : أحوالنا تَظْهر عند التتار ، لا عند شرع محمد بن عبد الله ، ونزعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

الأمير يُصرُّ على كشْف باطلهم :

ولكن الأمير أصرّ على عقْد المناظرة ، لكشْف باطلهم ، وألزَمَهم بالحضور .

شيخ الإسلام يستنْصِرُ ربَّه :

قال رحمه الله : فاستخرتُ الله تعالى تلك الليلة ، واستعنته واستنصرته واستهديته ، وسلكتُ سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أَدخل النَّار عند الحاجة إلى ذلك[1] ، وأنها تكون بَرْدًا وسلامًا على من اتَّبع ملةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباهَ الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم – إمامِ الحنفاء – بنواحي البطائح منضمين إلى مَن يُضاهيهم مِن نصارىٰ الدَّهماء .

وَبَيْنَ الصابئة وَمَن ضَلَّ مِن العباد المنتسبين إلى هذا الدين نَسَبٌ يعرفه مَن عرف الحق المبين . فالغالية من القرامطة والباطنية ، كالنصيرية والإسماعيلية ، يخرجون إلى مُشابَهَة الصابئة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراك ، ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلوُّ في البَشَر ، والابتداع في العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك ، بحسب ما هو به لائق ، كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

---

(١) يقول الشيخ عمر الأشقر معلِّقًا في كتابه « جَوْلَةٌ في رياض العلماء » صـ ١٨٩ : رحمه الله ، ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين الله .

استثارتُهم للناس وجَمْعُهم الأعوانَ والأنصار :

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد ، وما أحببت أن أستصحب أحدًا للإسعاد ، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب ، واللهُ هو المسبِّبُ لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعًا مما جرتْ به عادتُهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثلَ زَعْمهم أنّ لهم أحوالًا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأنّ لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء . وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المَنيفة ، وأن المُنْكِر عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر ، غيرُ واصل إلى الحقائق والسرائر ، وأن لهم طريقًا وله طريق ، وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق . وأشباه هذه الدعاوىٰ ذات الزخرف والتزويق .

سببُ انتشارِهم في ديار الإسلام :

وكانوا لِفَرْط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ؛ لخفاء نور الإسلام ، واستبدالِ أكثر الناس بالنورِ الظلامَ ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقةِ الإسلام في دولة التتار - لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقوْل قائل .

أنصار الباطل :

قال المخبرُ : فغدا أولئك الأمراءُ الأكابر ، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر . وَذَكَر لي أنواعًا من الخطاب ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق ، فأعاد الرسولَ إليّ مرة ثانية فبلغتُه أنّا في الطريق . وكان كثير من أهل البدع الأضّداد - كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد - مُجدِّين في نصْرهم بحسب مقدورهم ،

مجهزين لمن يُعينهم في حضورهم . فلما حضرتُ وجدتُّ النفوس في غاية الشوْق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون ، طالبين للاطلاع .

كذِبُهم على الشيخ ، وفضْح الشيخ لهم ، وكشْفُه لباطلهم :

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا : إن الشيخ طلبهم للامتحان ، وأن يُحْموا الأطواقَ نارًا ويَلبسونها . فأَكْذبَ ذلك ، وقال للأمير : نحن لا نستحلُّ أن نأمر أحدًا بأن يدخل نارًا ، ولا تجوز طاعة مَن يأمر بدخول النَّار ، وفي ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذَّابون مبتدعون ، قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم . وذكرت تلبيسَهم على طوائف من الأمراء ، وأنَّهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري ، وعلى قفجق نائب السلطنة ، وعلى غيرهما ، وقد لبَّسوا أيضًا على الملك العادل - كتغا - في مُلكه ، وفي حالة ولاية حماة ، وعلى أمير السلاح ، أجلِّ أمير بديار مصر . وضاق المجلس عن حكاية جميعِ تلبيسهم ، فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري ، وأنَّهم كانوا يُرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المُكاشفة ، ووعدوه بالمُلْك ، وأنهم وعدوه أن يُروه رجالَ الغيْب ، فصنعوا خُشبًا طوالًا ، وجعلوا عليها مَن يمشي كهيئةِ الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة ، وذاك يَرىٰ مِن بعيدٍ قومًا يطوفون على الجبل ، وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالًا كثيرًا ، ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير : وولدُه هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو ممن حدثني بهذه القصة ، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلًا في القبر يتكلم ، وأوْهموه أن الموتىٰ تتكلم ، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ، ولم يُقربوه منه ، بل مِن بعيد ؛ لتعود عليه بركته ، وقالوا : إنه طلب منه جملةً من المال . فقال قفجق : الشيخ

يكاشف ، وهو يعلم أنَّ خزائني ليس فيها هذا كله . وتَقرَّب قفجق منه وجذَب الشَّعَرَ ، فانقلع الجِلْد الذي ألصقوه على جلده من جلْد الماعز . فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي : إنه لما انقضى المجلس ، وانكشف حالهم للناس ، كتب أصحاب قفجق إليه كتابًا ، وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى .

وذكرتُ للأمير أنهم مُبتدِعون بأنواعٍ من البدع ، مثل الأغلال ونحوها ، وأنَّا نهيْناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة . فذكر الأمير حديث البدعة ، وسألني عنه ، فذكرت حديث العِرْباضِ بن سَارِيَة ، وحديث جابر ابن عبد الله ، وقد ذكرتُهما بعد ذلك بالمجلس العامّ ، كما سأذكره .

الشيخ مستعد لدخول النار لكشْف باطِلهم :

قلت للأمير : أنا ما امتحنتُ هؤلاء ، لكن هم يزعمون أنَّ لهم أحوالًا يدخلون بها النَّار ، وأنَّ أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ، ويقولون لنا : هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشّرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلَّم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرع أو خالفه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إنْ دخلوا النار أَدخل أنا وهم ، ومن احترقَ منّا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسل جسومَنا بالخلّ والماء الحارّ .

حِيلة دخول النار :

فقال الأمين : ولِمَ ذاك ؟ قلت : لأنهم يَطْلُون جسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهْن الضفادع ، وباطِنِ قشْر النارنج ، وحجرِ الطلق ، وغير ذلك من الحِيل المعروفة لهم . وأنا لا أطلي جلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخلّ والماء الحار ، بطُلتْ الحيلة وظهر الحق . فاستعظم الأميرُ هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ، قد استخرت الله

في ذلك ، وألقى في قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإنَّ خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ ، المتبعين له باطنًا وظاهرًا - لحُجَّةٍ أو حاجةٍ ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه ، من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله . هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتِهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذٍ أن نعارض ما يُظهرونه مِن هذه المخاريق ، بما يؤيدنا الله به من الآيات .

ولْيُعلمْ أن هذا مثلُ معارضة موسى للسحرة ، لمّا أظهروا سحرهم أيّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السّماط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أنَّ هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه . وسمعتُه يخاطب الأمير الكبير الذي قَدِم من مصر (الحاج بهادر) - وأنا جالسٌ بينهما على رأس السّماط - بالتركي ، ما فهمتُه منه إلَّا أنه قال : اليوم ترىٰ حربًا عظيمًا . ولعل ذاك كان جوابًا لمن كان خاطبه فيهم ، على ما قيل .

الأمير يُصرُّ على البيان :

وحضر شيوخُهم الأكابر ، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح ، وإطفاءَ هذه القضية ، ويترفقون ، فقال الأمير : إنما يكون الصُّلح بعد ظهور الحق . وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر ، أنا وهو وبَهادر ، فسمعتُه يذكر له أيُّوب الحمّال بمصر ، والمُولَهين ونحو ذلك ، فدلَّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظَّمة ، وأن لهم فيهم ظنًّا حسنًا ، والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي .

وكان الأمير أحبَّ أن يُشهد (بهادرَ) هذه الواقعة ليتبيَّن له الحقّ ،

فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدِم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يُبسط في الميْدان . وقد قدم البطائحية ، وهم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية ، من الإزباد والإرغاء ، وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبْو والتقلُّب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالِفة لما أمَر به لقمان لابنه في قوله تعالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ الآية . [لقمان : ١٩] . فلما جلسنا وقد حضر خَلْق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأوَّل المشتكي ، وشيخ آخر يُسمي نفسه : خليفةَ سيِّده أحمد ، ويركب بعلمين ، وهم يسمُّونه : عبد الله الكذَّاب . ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدةٍ قد قدِم عليَّ منهم شيخٌ بصورةٍ لطيفة ، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتُه طلْبَته ، ولم أتفطّنْ لكذبه ، حتى فارقني ، فبقي في نفسي أنَّ هذا خفيَ عليَّ تلبيسُه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحدٍ ، بل أُدركه في أول الأمر ، فبقي ذلك في نفسي ، ولم أره قطُّ إلى حين ناظرتُه ، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديمًا ، فتعجبتُ من حسْن صنْع الله ، أنه هتكه في أعظم مشهد يكون ، حيث كتم تلبيسَه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ مضمونه طَلَبُ الصلح ، والعفو عن الماضي والتوبة ، وأنّا مُجيبون إلى ما طلب من ترْك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومُتّبعون للشريعة . فقلت : أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ الآية [غافر : ٣] هذه إلى جنب هذه . وقال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ - ٥٠] .

ردُّ الشيخ عليهم في بدعةِ لُبْسِ أطواق الحديد :

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للُبسهم الأطواق ، وذكر أن وَهْبَ بنَ مُنبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابدٌ ، وأنه جعل في عنقه طَوْقًا ، في حكاية من حكايات بني إسرائيل ، لا تثبت . فقلت لهم : ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ؛ قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة ، فقال : « أَمُتَهوِّكونَ يا ابن الخطاب ؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حيًّا ، ثم اتبعتموه وتركتموني لَضللْتم ». وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئًا من كتب أهل الكتاب ، فقال : « كفى بقومٍ ضلالة أنْ يتبعوا كتابًا غيرَ كتابهم ، أُنزل إلى نبي غير نبيهم » ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ الآية . [العنكبوت : ٥١] .

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى ، فيما علمنا أنَّه أُنزل عليهما من عند الله ، إذا خالف شرعنا ، وإنَّما علينا أن نتَّبع ما أُنزل علينا من ربنا ، ونتّبع الشرعة والمِنْهاج الذي بعث الله به إلينا رسولَنا . كما قال تعالى : ﴿ **فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ الآية [المائدة : ٤٨] . فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلَم صحتها ؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ؟! ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٤١] . هاتِ ما في القرآن ، وما في الأحاديث الصِّحاح ، كالبخاري ومسلم . وذكرتُ هذا وشبهه بكيفية قوية .

لا يجوز الخروج على الشريعة بحال :

فقال هذا الشيخ منهم ، يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعية . فقلت له : هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ؛ بل كلُّهم يَنهى عن التعبُّد به ويَعُدُّه بدعة . وهذا الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مفتي الشافعية دعوتُه ، وقلت : يا كمال الدين ، ما تقول في هذا ؟ فقال : هذا بدعة غير مستحبة ، بل مكروهة . أو كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوطُ طائفةٍ من العلماء بذلك . وقلت : ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ، ولا الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ . وأشكُّ هل تكلمتُ هنا في قصة موسى والخضر ، فإنِّي تكلمتُ بكلام بَعُدَ عهدي به .

الباطن والظاهر محكومٌ بالكتاب والسنَّة :

فانتدبَ ذلك الشيخُ عبد الله ورفع صوته ، وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يُوقف عليها . وذكر كلامًا لم أضبط لفظَه ، مثل المجالس والمدارس ، والباطن والظاهر ، ومضمونُه : أنَّ لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأن لنا أمرًا لا يقف عليه أهل الظاهر ، فلا يُنكرونه علينا .

فقلتُ له - ورفعت صوتي وغضبت - : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كلّ هذا مردود إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقُضاة وغيرهم ؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ . وذكرت هذا ونحوه .

إدِّعَاءُ الخوارق :

فقال - ورفع صوته - : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى

الأحوال الخارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليمَ الحال إليهم لأجْلها .

فقلت - ورفعتُ صوتي وغضبت - : أنا أخاطب كلّ أحمديّ من مشرق الأرض إلى مغربها ، أيّ شيء فعلوه في النار ، فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترقَ فهو مغلوبٌ - وربما قلت : فعليه لعنة الله - ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخلّ والماء الحار . فسألني الأمراء والناس عن ذلك ، فقلت : لأن لهم حِيَلًا في الاتصال بالنار ، يَصنْعُونها من أشياء من دُهن الضفادع ، وقشر النارنج ، وحجر الطلق . فضجَّ الناس بذلك ، فأخذ يُظهر القدرة على ذلك ويقول : أنا وأنت نلف في بارية ، بعد أن تُطلَى جسومُنا بالكِبْريت . فقلت : فقم . وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك ، فمدَّ يده يُظهر خَلْع القميص ، فقلت : لا ، حتى تغتسل في الماء الحارّ والخلّ . فأظهر الوهم على عادتهم ، فقال : من كان يحب الأمير فليُحضرْ خشبًا . أو قال : حزمة حطبٍ . فقلت : هذا تطويلٌ وتفريق للجمع ، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يُوقد ، وأُدخل أُصبعي وأُصبعَك فيه بعد الغسْل ، ومنِ احترقت أصبعُه فعليه لعنة الله ، أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغيَّر وذَلّ . وذكر لي أنَّ وجهه اصفر .

الخوارق ليست دليل الصَّلاح والتُّقَى :

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ، ولو طِرتُم في الهواء ، ومشيْتم على الماء ، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدلّ على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع ، ولا على إبطال الشرع ؛ فإنَّ الدَّجال الأكبر يقول للسماء : أمطري . فتمطر ، وللأرض : أنبتي . فتنبت ، وللخربة : أخرجي كنوزَكِ . فتُخرج كنوزها تتبَعُه ؛ ويقتل رجلًا ثم يمشي بين شِقَّيْه ، ثم يقول له : قُمْ . فيقوم ، ومع هذا فهو دجّالٌ كذّاب

ملعون ، لعنه الله . ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقْعٌ عظيم في القلوب .

وذكرتُ قوْل أبي يزيد البسْطامي : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ، ويمشي على الماء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي . وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنَّه قال للشافعي : أتدري ما قال صاحبنا ؟- يعني الليث بن سعد - قال : لو رأيتَ صاحب هوًى يمشي على الماء ، فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر اللَّيث ، لو رأيتَ صاحب هوًى يطير في الهواء فلا تغتر به . وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلامٍ بعُد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح . وجعلتُ أُلحُّ عليه في إظهار ما ادَّعوه من النار مرةً بعد مرةٍ ، وهم لا يُجيبون ، وقد اجتمع عامّة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضجون في الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها .

وقع الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملون :

فذكر بعض الحاضرين أنَّ النَّاس قالوا ما مضمونه : ﴿ **فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ** ﴾ وذكروا أيضًا أنَّ هذا الشيخ يُسمَّى : عبد الله الكذاب . وأنَّهُ الذي قصَدك مرة فأعطيتَه ثلاثين درهمًا . فقلت : ظهر لي - حين أخذ الدراهم وذهب - أنه مُلَبِّس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه ، مضمونها أنَّه أَدخل النَّار في لحيته قُدّام صاحب حَماة ، ولما فارقني وقع في قلبي أنَّ : لحيته مدهونة ، وظهر عجزهم وكذبهم وتلبيسهم .

استخدام القوة إن لم تنفع الحُجّة :

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال ؟ فقلت : بهذه السِّياط الشرعية . فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إيْ والله ، بالسِّياط الشرعية تبطل هذه

الأحوال الشيطانية . كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكتُ سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ضربناه بسيف الله . وأعاد الأمير هذا الكلام .

لا يُقَرُّ أحدٌ على إظهار المنكر في ديار الإسلام :

وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقَرُّون ولا نُقَرُّ نحن ؟!. فقلت : اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دُورهم ، والمبتدِع لا يُقَرُّ على بدعته . فأُفحموا بذلك .

وحقيقة الأمر أن مَن أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يُقَرَّ على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَر ، ولا يُقَر مَن أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذّمة لا يُقَرون على إظهار منكرات دينهم ، ومَن سواهم فإنْ كان مسلمًا أخذ بواجباتِ الإسلام وترك محرماتِه ، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذِميًا ، فهو إما مرتدٌّ وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

ذمُّ المبتدِعَة :

وذكرت ذمَّ المبتدعة ، فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق ، عن أبيه أبي جعفر الباقر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : « إنَّ أصدق الكلام كلام الله ، وخيرَ الهدي هدي محمد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفي السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطَبَنا رسول الله ﷺ خطبةً ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مُودِّعٍ ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ،

فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسّكوا بها ، وعضّوا عليها بالنواجذ ، وإيّاكم ومُحدَثات الأمور ؛ فإنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . وفي رواية : « وكل ضلالة في النار » .

البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي :

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثًا في ذمّ الزنا . فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شرٌّ من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية ؛ فإنَّ المعصية يُتاب منها ، والبدعة لا يُتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نُتَوِّب الناس ، فقلت : من ماذا تتوبونهم ؟ قال : من قطْع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ؛ فإنهم كانوا فُسّاقًا يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينْوُون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالّين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يُبْغضه الله ويُبغضون ما يحبه الله . وبيّنتُ أنَّ هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ مِنَ المعاصي .

قلت مخاطبًا للأمير والحاضرين : أمّا المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلًا كان يدعى حمارًا ، وكان يشرب الخمر ، وكان يُضحك النبي ﷺ ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ ، فلعنه رجل مرةً ، وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ !. فقال النبي ﷺ : « لا تلعنْه فإنه يحبُّ الله ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله ، شهد له النبي ﷺ بذلك ، ونهى عن لعْنه .

وأما المبْتَدِع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ،

وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي ﷺ كان يَقْسِم ، فجاءه رجل ناتِئُ الجبين ، كَثُّ اللحية ، محلوقُ الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال ، فقال النبي ﷺ : « يخرج من ضِئْضِيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاتَه مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءَته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرُقون **من الإسلام كما يمرُق السهم من الرَّمِيَّة ؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد »** وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » ، وفي رواية : « شرُّ قتلى تحت أديم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه » .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم ، وما هم عليه من العبادة والزهادة أمَرَ النبي ﷺ بقتلهم ، وقَتَلهم عليّ بن أبي طالب ومَن معه من أصحاب النبي ﷺ ؛ وذلك لخروجهم عن سُنَّة النبي وشريعته ، وأظن أني ذكرتُ قول الشافعي : لَأَن يُبتَلَى العبد بكلّ ذنبٍ ما خلا الشرك بالله خيرٌ من أن يُبْتَلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قُبْح البدع في الإسلام ، وأنها أظلمُ من الزنا والسرقة وشرْب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدَعًا منكرة ، فيكون حالهم أسوأ مِن حال الزاني والسارق وشارب الخمر ، أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا ، لا تتعرض لهذا الجَناب العزيز . يعني أتباع أحمد بن الرفاعي . فقلتُ منكِرًا بكلام غليظ : ويحك ؛ أيّ شيء هو الجَناب العزيز ، وجَناب من خالفه أولى بالعزِّ يا ذا الزرجنة ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ؟! فقال : يا مولانا ، يحرقك الفقراء بقلوبهم . فقلت : مثل ما أحرقني الرافِضَةُ لما قصدتُ الصُّعود إليهم ، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم ، ويقول أصحابهم : إن لهم سرًّا مع الله ، فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بَركة ما

يسَّره الله في أمْر غزو الرافضة بالجبل ، أكذب الطوائف ، حتى قيل فيهم : لا تقولوا : أكذبُ من اليهود على الله . ولكن قولوا : أكذب من الأحمدية على شيخهم . وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ** ﴾ [هود : ٥٥] .

ولما رددتُّ عليهم الأحاديث المكذوبة ، أخذوا يَطلبون مِنِّي كتبًا صحيحة ليهتدوا بها فبذلتُ لهم ذلك ، وأُعيد الكلام : أنه مَن خرج عن الكتاب والسنَّة ضربتُ عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام ، واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعْده ، ونصر عبده ، وهزَمَ الأحزاب وحده .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة ، يا بيْت الكَذِب . فإن فيهم من الغلوّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم مِنَ الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك ، أو يساوونهم ، أو يزيدون عليهم » . ا هـ .

ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون :

لمّا عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلْك ، وزالت دولة المظفر الجاشنكير وخُذل ، وخُذل شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي « دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر ، ولم يكن له دأْب إلَّا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معزَّزًا مكرَّمًا مبجَّلًا ... ولما قَدِمَ عليه الشيخ تقي الدين نهض قائمًا للشيخ أوَّل ما رآه ، ومشى له إلى طرف الإيوان ، واعتنقا هناك هُنَيْهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستانٍ ، فجلسا ساعةً يتحدثان ، ثم جاء ويَدُ الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابن الخليلي الوزير ، وتحته ابن صصرى ، ثم صدْر الدين علي الحنفي ، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان

على طرف طراحته ، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذِّمَّة إلى لُبْس العمائم البيض بالعلائم ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألفٍ في كلّ سنة زيادةً على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام ، وكبار العلماء من أهل مصر والشام ، من جملتهم ابن الزملكاني . قال ابن القلانسي : وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني ، فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا مِنَ القُضاة ، فقال لهم السلطان : ما **تقولون ؟** يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيْه ، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظ ، وردّ على الوزير ما قاله ردًّا عنيفًا ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفقٍ وتُؤُدَةٍ وتوقير . وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريبٍ منه ، وبالغ في التَّشنيع على مَنْ يُوافق في ذلك . وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أولُ مجلس جلسته في أُبَّهة المُلْك تنصر فيه أهل الذِّمة لأجْل حُطامِ الدنيا الفانية ، فاذكرْ نعمة الله عليك إذْ ردّ مُلْكك إليك ، وكبتَ عدوَّك ، ونصرك على أعدائك . فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك ، فقال : والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك ؛ لأنه إنما كان نائبًا لك . فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك . وجرتْ فصول يطولُ ذكْرها . وقد كان السلطان أعلم بالشيخ مِن جميع الحاضرين ، ودينه وقيامه بالحق وشجاعته . وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لمَّا انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه ، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتْل بعض القضاة ؛ بسبب ما كانوا تكلّموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضِهم بعزْله مِنَ المُلْك ومُبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك ، وآذوك أنت أيضًا ، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قَتْل بعضِهم . وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوْا فيه من عَزْلِهِ ومبايعة الجاشنكير ،

ففهم الشيخ مُرادَ السلطان ، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، ويُنكر أن يَنال أحدًا منهم بسوءٍ ، وقال له : إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم . فقال له : إنهم قد آذَوْك وأرادوا قتلك مِرارًا . فقال الشيخ : مَنْ آذاني فهو في حِلٍّ ، وَمَن آذى اللهَ ورسولَه فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح »[1].

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثلَ ابن تيمية حرّضنَا عليه فلم نقدِر عليه ، وقدَر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا .

لله درُّك يا شيخ الإسلام مِن إمامٍ !

لله درُّك من إمامٍ أمة ... لله درُّ أمٍ درتْ عليك .. وأمةٍ فيها مثلك ...

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية آيةً من آيات الله في الصَّدْع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن الفرق . ويكفي ردُّه على فلاسفة الصوفية ، والدجاجلة منهم ، والأشاعرة والمتكلمين ، والشيعة ، والمُقَلِّدة ، والفلاسفة وأهل الاعتزال ، وكان أمَّارًا بالمعروف للسلاطين والأمراء .

قال الحافظ عمر بن علي البزار : « أخبرني مَن لا أتَّهِمُه أن الشيخ رضي الله عنه حين وُشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أحضره بين يديْه ، قال : فكان من جملة كلامه : إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس ، وأنّ في نفسك أخْذ المُلْك . فلم يكترثْ به ، بل قال له بنفسٍ مطمئنةٍ ، وقلب ثابت ، وصوت عالٍ ، سمعَه كثيرٌ ممّن حضَر : أنا أفعل ذلك ؟! والله إنّ مُلْكَك ومُلك المُغل لا يساوي عندي فِلْسَيْن . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته – بما أوقع الله له في

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٥٣ ، ٥٥ – ٥٦ .

قلبه منَ الهَيْبة العظيمة - : إنك - والله - لصادق ، وإن الذي وشى بك إلّي لكاذب »[١] .

لقد « كان رضي الله عنه من أعظم أهل عصره قوةً ومقامًا وثبوتًا على الحق ، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق ، لا يصدُّه عن ذلك لوْمُ لائم ، ولا قوْل قائل ، ولا يرجع عنه لحُجَّة مُحتجٍّ ، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ ، ولا يلتفتُ إلى مُباينٍ معاندٍ ، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا ، ولم يُوَلِّهم دُبُره فرارًا ، ولقد قصَد أعداؤه الفتْكَ به مرارًا ، وأوسعُوا حِيَلهم عليه إعلانًا وإسرارًا ، فجعل الله حِفْظَهُ منهم له شعارًا ودِثَارًا . ولقد ظنُّوا أن في حبْسه مشينةً ، فجعله اللهُ له فضيلةً وزينةً ، وظهر له يوم موْته ما لوْ رآه وادُّه أقرّ به عَيْنَيْه ، فإن الله تعالى لعلْمِه بقرْب أَجَله ، ألبسَه الفراغ عن الخلْق ، للقدوم على الحقِّ أجملَ حُلَلِهِ ، كونه حُبِسَ على غير جَريرةٍ ولا جريمة ، بل على قوة في الحق وعزيمة ، هذا مع ما نَشَرَ الله له من عُلومه في الآفاق ، وبَهَرَ بفنونهِ البصائر والأحداق وملأ بمحاسن مؤلفاته الصُّحُف والأوراق ، كبْتًا ورغْمًا للأعداء ، أهل البدع المُضلّة والأهواء ، وصُنعًا عظيمة من رب السماء ، لعوائده لخاصَّة الأولياء ، أهل المحبة والولاء »[٢].

قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرْسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوْم القيامة »[٣].

---

(١) الأعلام العَليَّة صـ ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية صـ ٧٥ - ٧٧ .
(٣) حسن : رواه أحمد ، وابن ماجه ، والبخاري في التاريخ عن أبي عنبة الخولاني وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٩٢ .

الطرطوشي وأمير مصر :

« افتحِ البابَ وَسَهِّلِ الحجابَ » :

« قال أبو بكر الطرطوشي : دخلتُ على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو أمير على مصر ، فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ السلام عليّ نحو ما سلّمتُ ردًّا جميلًا ، وأكرمني إكرامًا جزيلًا ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني بالجلوس فيه ، فقلتُ : أيُّها الملِك ، إن الله تعالى قد أحلَّك محلًّا عليًّا شامخًا ، وأنزلَك منزلًا شريفًا باذخًا ، وملَّكك طائفةً من مُلْكه ، وأشرَكَك في حكمه ، ولم يرضَ أن يكون أمْر أحدٍ فوق أمرك ، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أولى بالشُّكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفِعال والإحسان ؛ قال الله تعالى : ﴿ **اعملُوا آلَ دَاودَ شُكْرًا** ﴾ . واعلمْ أن هذا الذي أصبحتَ فيه مِن المُلْك إنما صار إليك بموْت مَن كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتَّقِ الله فيما حوْلك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سَائِلُك عن الفتيل والنقير والقِطْمير ، قال الله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنسألَنَّهم أجمعِينَ عمَّا كَانُوا يَعْمَلون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ أتيْنا بها وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ ، واعلم أيُّها الملك أنَّ الله تعالى قد آتى مُلْك الدنيا بحذافيرها سليمانَ بنَ داود عليه السلام ، فسخَّر له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحْش والبهائم ، وسخَّر له الرِّيح تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصابَ ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : ﴿ **هذا عَطَاؤنا فامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حِسابٍ** ﴾ . فوالله ما عدَّها نعمة كما عددتُّموها ، ولا حَسِبها كرامةً كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجًا مِنَ الله تعالى ومَكْرًا به ، فقال : ﴿ **هـٰذا مِنْ فَضْلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأَشْكُرُ أمْ أكفُرُ** ﴾ . **فافتحِ البابَ ، وسهِّل الحجابَ ، وانصرِ المظلومَ ، وأغثِ الملهوفَ ، أعانك الله على نصْر المظلوم ، وجعَلك كَهفًا للملهوف وأمانًا**

للخائف »[١].

الشيخ شمس الدين والسلطان بايزيد :

« إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة » :

حضرَ السلطان بايزيد بن محمد[٢] - أحدُ سلاطين العثمانين - إلى المحكمة الشرعية بين يديْ الشيخ شمس الدين محمد بن حمزة الفناري[٣] قاضي القسطنطينية ليشهد أمامه في قضية من القضايا ، فما كان من الشيخ الفناري إلا أن ردّ شهادة السلطان و لم يقبلْها ، وسأل السلطانُ الشيخَ الفناري عن أسباب ردِّ شهادته ، فقال له الشيخ : إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة . وابتسم السلطان ، ثم أمر ببناءِ مسجدٍ أمام دارِه . ولم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك[٤].

الشيخ عبد الحميد الجزائري والمندوب السامي :

استدعى المندوب السامي الفرنسي - في سورية - الشيخ عبد الحميد الجزائري ، وقال له : إما أن تُقلع عن تلقين تلاميذِك هذه الأفكار وإلّا أرسلتُ جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفثُ فيه هذه السموم ضدَّنا ، وإخمادِ أصواتك المنكَرة . فأجاب الشيخ عبد الحميد : أيُّها المسيُو الحاكم ، إنك لا تستطيع ذلك . واستشاط المسيو غضبًا ، وقال : كيف لا أستطيع ؟ قال الشيخ : إذا كنتُ في عرسٍ علّمتُ المحتفلين ، وإذا كنتُ في مأْتمٍ وعظْتُ

(١) المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف .
(٢) السلطان بايزيد بن محمد الفاتح .
(٣) هو الشيخ شمس الدين محمد ، ولي القضاء في بروسيا وارتفع قدْره عند السلطان بايزيد ، وهو من عائلة اشتُهرت بالعلم والفقه .
(٤) « أقباس روحانية » لشيث خطاب .

المُعزِّين ، وإنْ جلستُ في قطار علَّمتُ المسافرين ، وإن دخلتُ السجن أرشدتُّ المسجونين ، وإن قتلتموني ألهبتُ مشاعر المواطنين ، وخيرٌ لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها[١].

أبو غياث الزاهد والأمير[٢] :

رُوي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر ببخارى ، فدخل المدينة ليزورَ أخًا له ، وكان غلمان الأمير نصر بن محمد ، ومعهم المُغَنُّون والملاهي ، يخرجون من داره ، فلما رآهم أبو غياث الزاهد قال : يا نفس ، وقع أمرٌ إن سكتِّ فأنت شريكةٌ . فرفع رأسه إلى السماء واستعان بالله وأخذ العصا ، فَحَمَلَ عليهم حملةً واحدة ، فولُّوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان ، وقصُّوا على الأمير ، فدعا به ، وقال له : أما علمتَ أنه مَن يخرج على السلطان يتغدى في السجن ؟ فقال له أبو غياث : أما علمت أنه من يخرج على الرحمـٰن يتعشَّى في النيران ؟ فقال له : مَن ولّاك الحسبة ؟ فقال : الذي ولّاك الإمارة . فقال الأمير : ولّاني الخليفةُ . فقال أبو غياث : ولّاني الحسبةَ ربُّ الخليفة . فقال الأمير : ولَّيتُكَ الحسبةَ بسمرقند . فقال : عزلتُ نفسي عنها . فقال الأمير : العجَب في أمْرِك ، تحتسب حين لم تؤْمر ، وتمتنع حيث تؤْمر ؟! قال : لأنك إن وليتني عزلتني ، وإذا ولّاني ربي لم يعزلني أحد . فقال الأمير : سَلْ حاجتَك ؟ فقال : حاجتي أن تردَّ علي شبابي ؟ فقال : ليس ذلك إليَّ ، فهل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى مالكٍ خازنِ النار أن لا يعذبني . قال : ليس لي ذلك أيضًا . قال : هل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى رضوان خازن الجنان يدخلني الجنة . قال : ليس ذلك إليّ أيضًا . قال

---

(١) « أقباس روحانية » .

(٢) « تربية الأولاد في الإسلام » لعبد الله ناصح عُلوان .

أبو غياث : فإنها مع الربّ الذي هو مالك الحوائج كلها ، لا أسأله حاجة إلَّا أجابني إليها . فخلّى الأميرُ سبيلَه[١] .

الشاطبي[٢] والأمير موسك :

« قُلْ للأمير نصيحةً » :

كان الأمير عزُّ الدين مُوسك مِن أمراء دولة بني أيُّوب - ويُنسب إليه شارع الموسكي بمصر - كان أميرًا يحبّ أهل العلم والصلاح ، فلما قَدِمَ الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضرير ، وكان إمامًا منقطِع القرين ، رأسًا في القراءات ، الذي سارت الرُّكبان بقصيدته (حرز الأماني) فلما قَدِمَ مصر ووُصِفَ للأمير ، طَلَبَهُ ، ولم يتقدم إليه الأميرُ بنفسه . فأخذتِ الشيخَ عِزَّةُ العلم ، وهو الغريب الفقير ، فكتب له رقعةً فيها :

قُلْ للأميرِ نصيحةً ... لا تركَنَنَّ إلى فقيهْ
إنَّ الفقيهَ إذا أتى ... أبوابَكُم لا خيرَ فيهْ

أحد علماءِ الأزهر والخديوي إسماعيل :

« مِنك يا إسماعيل ، لا منَّا » :

لما وقعتِ الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالتِ الهزائم على مصر - لوقوع الخلاف بين قُوّاد جيوشها - ضاق صدر الخديوي لذلك ، فركب

---

(١) الموعظة مِن كتاب « من أخلاق العلماء » .

(٢) (الشاطبي) : هو القاسم بن فيروه الرعيني ، وهو إمام قُرَّاء عصره . وُلد بشاطبة (الأندلس) ، وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٠ هـ . وكان ضريرًا ، رحَل إلى القاهرة وعلَّم فيها. من آثاره: حِرز الأماني؛ وهي قصيدة في القراءات تُعرف بالشاطبية ، وكان عالمًا بالحديث والتفسير واللغة . قال ابن خلكان : كان إذا قُرئ عليه صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ؛ تُصحح النُّسخ مِن حفظه .

يومًا مع شريف باشا ، وهو مُحرج ، فأراد أن يفرِّج عن نفسه ، فقال لشريف باشا : ماذا تصنع حينما تلمُّ بك مُلمَّة تريد أن تدفعها ؟ فقال : يا أفندينا ، إن الله عوَّدني إذا حاق بي شيءٌ من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري ، يقرؤه لي علماءٌ أطهارُ الأنفاس ، فيفرج الله عني . قال : فكلَّم شيخَ الأزهر ، وكان الشيخ العروسي ، فجمع له من صلحاء العلماء جمعًا ، أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر . قال : ومع ذلك ، ظلَّتْ أخبار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء ، وقال لهم محنقًا : إمَّا أن هذا الذي تقرءونه ليس بصحيح البخاري ، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ؛ فإن الله لم يَدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا . فَوَجَم العلماء لذلك . وابتدره شيخٌ من آخر الصفِّ يقول له : منك يا إسماعيل ، فإنا روينا عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهونَّ عن المنكر ، أَوْ لَيُسلِّطنَّ الله عليكم شرارَكم ، فيدعو خيارُكم ، فلا يُستجاب لهم »[1]. وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ، ولم يَنْبِسَا بكلمة . وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنِّبونه . فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل : أين الشيخ القائل للخديوي ما قال ؟ فقال : أنا . فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يَلُومون الشيخ يُودِّعونه وداعَ مَن لا يأملون أن يرجع . وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره ، فإذا به قاعد في البهْو وأمامه كرسي ، أجلس عليه الشيخ وقال : أَعِدْ يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر . فأعاد الشيخ كلمته وردَّد الحديث وشرحه ، فقال له الخديوي : وماذا صنعْنَا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا أفندينا ، أليست المحاكم المختلطة قد فتِحت بقانون يُبيح الربا ؟! أليس الزنا برخصة ؟! أليس الخمر مباحًا ؟! وعدّد له

---

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط .

منكراتٍ تجري بلا إنكارٍ ، وقال : فكيف تنتظر النصر مِنَ السماء ؟! فقال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب ، وهذه مدنيَّتهم ؟ قال : إذن ، فما ذنب البخاري ، وما حِيلة العلماء ؟! ففكّر الخديوي مليًّا ، وأطرق طويلًا ، ثم قال : صدقتَ . وأمر ، فرتِّبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيهًا[1] .

الشيخ العدوي أمام السلطان :

« ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه » :

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل حَفِيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ، مع عدَّة امتيازات في نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السَّراي ، ولما كانت للمقابلة السُّنِّية تقاليدُ ، منها أن يَنحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتْمًا على رجال السراي أن يدرِّبوا العلماء على طريقة المقابلة عدَّة أيام ؛ كي لا يُخطئوا في حضْرة السلطان . وعندما حان الموعد ، دخل السادة العلماء الأجلَّاء فنسُوا دينهم واشتَروْا به دنياهم ، وانْحَنَوْا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا مُوجِّهين وجوهَهم إلى الخليفة ، كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي ، ذكَر دينَه ونسيَ دنياه ، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوعَ الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين . وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ، دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ،

---

(١) من كتاب « من أخلاق العلماء » .

والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلَّم ، وخرج مرفوع الرأس . وأُسقط في يَد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بدّ غاضبٌ ، فضائعةٌ تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا . ولكنّ كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدًى ، فلا بدَّ أن تصدع القلوب قوية حارّة ، كما نبعت من مَكمنها قوية حارّة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلَع عليه دون سواه(١).

الشيخ العدوي أمام المحكمة :

« لم يَعُدْ جديرًا بأن يحكمنا » :

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحدَ الذين شاركوا في الثورة العرابية ، فلما حلَّتِ الهزيمة وقبِض على عرابي والعرابيين ، كان العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلَّفة من لفيفٍ مِنَ الباشوات ، ومن رجال الخديوي . ووقف الشيخ - الذي قَارَب سنّ الثمانين - أمام المحكمة ، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوتٍ غليظ جافٍّ : هل وقَّعتَ باسمك ، أو ختمتَ بخاتَمك قرارًا يقضي أنّ أفندينا المعظَّم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُّ العزْل ؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السِّنِّ يستعيد حَمِيَّة الشباب وحماسته ، فنظر إلى أيوب باشا نظرةً ثابتةً حادَّة ، واتَّكأ بذراعيْه على منضدةٍ أمامه ، وقال : أيُّهَا الباشا ، إنني لم أرَ الورقة التي تتحدث عنها ، ولهذا فلن أجيب على سؤالكِ عمّا إذا كنتُ قد وقَّعتُها ، ولكنني أقول لك ما يأتي : إنه إذا أحضرتَ لي الآنَ ورقةً تحتوي على مثلِ هذا المعنى الذي ذكرتَه ، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك ،

---

(١) « مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام » ، نقلًا عن « التصوف الإسلامي » لزكي مبارك .

الآن أيُّها الباشا . ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلًا : إذا كنتم مسلمين ، فهل تستطيعون أن تُنكروا أن توفيق باشا - وقد خان بلاده ، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم - لم يعدْ جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا . واصفرَّ وجْه الباشا رئيس المحكمة ، الذي كان يظنُّ أنه يُخيف المحكومين ، ولم ينطق بكلمة واحدة يردُّ بها على الرجل المُسنِّ الجريء ، وأوْمأ إلى حُرَّاس المحكمة أن يأخذوه ويَخرجوا به من قاعة المحكمة ، ثم نقلوه إلى قريته ، واعتقلوه فيها[1] .

أحد علماء الأزهر والسلطان :

« مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَهُ » :

لما قَدِمَ السلطان عبد العزيز مصرَ وزار الجامع الأزهر وصحبَه الخديوي إسماعيل ، فَلَحظَ الخديوي على شيخ بالجامع كأنه غيرُ مُهتمٍّ ، فهو مسندٌ ظهرَه ، مادٌّ رجلَه ، فأسرع بالسلطان عنه ، ثم كلَّف أحدَ رجاله - وقد أراه الشيخَ - أن يذهب له بصُرَّةٍ ، يريد أن يعرف حاله ، فلما جاء الرسولُ ليعطيه قبضَ الشيخُ عنه يدَه ، وقال له : قل لمن أرسلك : إن مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يده[2] .

صَاحِبُ الظِّلال أسكَنَه اللهُ ظلالَ الجنة :

سيد قطب ، وله مِن اسمه أوْفَى نصيبٍ - رحمه الله - في صَدْعِهِ بالحقّ ، ونهْيه عن المنكر ...

---

(١) جريدة أخبار اليوم ٨ / ١٩٨١ .

(٢) كتاب : « أخلاق العلماء » . والسلطان عبد العزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث ، وُلد عام ١٨٣٠م وتُوفي عام ١٨٧٦م ، انسلخت على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية العثمانية .

هذا الذي أصدروا الحكْم بإعْدامه ورفض أنْ يكتب الْتماسًا للطاغية بتخفيف الحكْم ..

وكتابُهُ « الظلال » يُنبئ عن لَيْثٍ هَصُورٍ ، وعن رجل أمَّارٍ بالمعروف ، يطلب منه عبد السلام عارف - حاكم العراق - أن يرحل معه حيث الأمن والأمان والمناصب ، فيفضّل البقاءَ في مصر مرابطًا ، آمرًا بالمعروف ، وكفاه شرفًا وفخرًا .. رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

قافلة النور تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فَتُبْتَلَى :

لقد ضرب الربّانيون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر أروعَ الأمثلة في القيام بالحقّ ، وأن لا تأخذهم في الله لومةُ لائمٍ .

« قتل الحجاجُ عبدَ الرحمـٰن بن أبي ليلَى ، وعبدَ الله بن غالب الحدّاني ، وسعيدَ بن جُبير ، وأبا البختري الطائي ، وكميل بن زياد ، وحُطيطًا الزيّات ، وماهان الحنفي ؛ صَلَبه ، وصلَب قبلَه ابن الزبير . وقتَل الواثقُ أحمدَ بن نصر الخزاعي ، وصلَبه .

فأمّا من ضُرِبَ من كبار العلماء :

فعبد الرحمـٰن بن أبي ليلَى : ضربه الحجاج أربعمائة سَوْطٍ ، ثم قتله .

سعيد بن المسيب : ضربه عبدُ الملك بن مروان مائةَ سَوْطٍ ، وصب عليه جَرَّةَ ماءٍ في يوم شاتٍ ، وأُلبس جُبَةَ صوفٍ .

وخُبيب بن عبد الله بن الزبير : ضربه عمر بن عبد العزيز - بأمْر الوليد - مائةَ سَوْطٍ ، فكان عمر إذا قيل له : أبشِرْ . قال : كيف بخبيبٍ على الطريق ؟!

أبو الزِّناد : ضربه بنو أمية .

أبو عمرو بن العلاء : ضربه بنو أمية خمسمائة سَوْطٍ .

ربيعة الرأي : ضربه بنو أمية .
عطية العوفي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
يزيد الضَّبي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
ثابت البناني : ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد .
عبد الله بن عون : ضربه بلال بن أبي بُردة سبعين سوطًا .
مالك بن أنس : ضربه المنصور سبعين سوطًا في يَمينِ المُكْرَه ، وكان مالك يقول : لا تلزمُه اليمين .
أبو السّوار العدوي ، وعقبة بن الغافر : ضُرِبا بالسِّياط » .

وضُرب إمام أهل السنة بالسياط في الله ، فقام مَقَامَ الصِّدِّيقين ، في العَشْر الأواخر مِن رمضان سنةَ عشرين ومائتين .

وكمْ للرَّبانيين - على مدار التاريخ - من مواقف أنصعَ من ضَوْءِ النهار ! بَيّضَ الله وجوههم كما بيّضوا وجْه التاريخ .. وكانوا شامةَ الحُسْنِ فيه .

إلى الله نشكو أهلَ الممالك من أهل مِلَّتِنا :

« ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم الله البصيرة والنور حينما يَرَوْنَ الحالة الأليمة التي تتردَّى فيها الأمة ؟! إلَّا أن يتوجهوا إلى ربهم بالشكوى ، ثمَّ يُجرِّدوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوِجْهة الصحيحة .

هذا عَالِم فذٌّ من علماء الأندلس يجأَرُ بالشكوى إلى الله ، يشكو ملوكَ زمانه ؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة ، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة ، وبجمع المال عن حماية الديار .

وفي مثل هذا الجوّ يضعُف الأخيار ويكثر الأشرار ، ويستشرف أعداء الإسلام إلى السِّيادة والسلطان ، وهذا ما حدث ، عندما اتخذ بعضُ الملوك

اليهودَ وزراءً وعمَّالًا سلَّطوهم على رِقاب المسلمين فاستأسدُوا ، وضارّوا المسلمين ، وتجرَّأ زعيمُهم على كتابة كتابٍ يتهجم فيه على كتاب الله الكريم ، ويزعم أنه متناقِض . فكتب ابن حزم كتابه هذا[1] ، وبدأه بالشكوى : « اللهمَّ إنَّا نشكو إليك تشاغُل أهل الممالك - من أهل ملتنا - بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصورٍ - يتركونها عمّا قريبٍ - عن عمارة **شريعتهم اللازمة لهم في معادِهم ودار قرارهم ، وبجمْع أموال - ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم ، وعونًا لأعدائهم عليهم - عن حِياطة مِلَّتهم التي** بها عَزُّوا في عاجِلَتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف **لذلك أهلُ القبلة والذّمة ، وانطلقت ألسنةُ أهل الكفر والشرك بما لو حقَّق** النظرَ أربابُ الدنيا لاهتموا بذلك ضِعفَ هَمِّنَا ؛ لأنهم مُشارِكون لنا فيما يلزم الجميع ، من الامْتِعَاضِ للديانة الزهراء ، والحميَّة للملة الغرَّاء ، ثُمَّ هُم **بعدُ مُتردُّون بما يؤول إليه إهمالُ هذه الحال ، من فساد سياستهم والقدح** في رياستهم . فللأسباب أسباب ، وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب ، وقد قال علي بن العباس :

لا تَحْقِرنَّ سُبَيّبًا ... كم جرَّ أمرًا سُبَيْبُ

وقال أبو نصر ابن نباتة :

فَلَا تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ ... وإنْ كَانَ في سَاعِدَيْهِ قِصَرْ

فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ ... وتعجَزُ عمَّا تَنالُ الإبَرْ

لقد كان في المسلمين بقية خيرٍ ؛ فقد أثَّرت كتابات **الأخيار** فيهم ، وأثارتْ حميَّتَهم قصائدُ الشعراء الذين بيَّنوا مساوئ اليهود ، ومنها قصيدة

---

(١) كتاب « الردُّ على ابن النغريلة اليهودي » صـ ٤٥ - ٤٦ تحقيق د . إحسان عباس - نشر مكتبة دار العروبة - القاهرة .

أبي إسحاق الألْبيري التي يقول فيها :

وإِنّي احتللتُ بِغِرْنَاطَةَ ... فكنتُ أراهم بِهَا عابثِينْ
وَقَدْ قسَّموها وأعمالَهَا ... فمنهُمْ بكلِّ مكانٍ لَعِينْ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَاياتِهَا ... وأنْتُمْ لأوضَاعِهَا لابِسُونْ
وهم أُمَناكم على سِرِّكُمْ ... وكيفَ يكون أمينًا خَؤُونْ

وثار المسلمون وهبُّوا جميعًا في ثورةٍ عارمةٍ أوْدَتْ بحياة أربعمائة مجرمٍ يهودي ، منهم ابن النغريلة ، هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة .

ما أشبه الليلةَ بالبارحة ! ومُصابُ اليوم أعظمُ ، فأهل الممالكِ في زماننا أقاموا لليهود دولة في مَسرَى الرسول ﷺ ، وباعوا الأرض المباركة بِعَرَضٍ حقيرٍ ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناءِ الخنازير ، واستقبلوهم في ديارهم . تُرى ، لو كان ابن حزم حيًّا ماذا يقول ، وماذا يكتب ؟ وتراه لو كتَب ، أيحرِّك أشجان المسلمين ؟! إلى الله نشكو ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم »[1] .

لا يعلم إلا الله – إن لم يأمرِ الربانيُّون بالمعروف وينهون عن المنكر – ما سيكون ، والوحْل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يُدمي القلوب والعيون ، والمسلمون ينحدرون من هاوِيَةٍ إلى هاوية ، ويتقهقرون من نكْسة إلى نكسة ، ويتهافتون من خَرابٍ إلى خرابٍ .

أَلِفَتِ الأمة الآثام ، حتى أمْسَتْ جزءًا من كِيَانِها تتمسَّك به وتدافع عنه ، حالُهم مثلُ حال الأُمم التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ **تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا**

(١) « جوْلة في رياض العلماء » صـ ١٠٣ – ١٠٥ للدكتور عمر سليمان الأشقر – طبع دار النفائس ومكتبة الفلاح .

إلَى أُمَمٍ مِنْ قبلكَ فزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهمْ فهوَ وَلِيُّهم اليومَ ... ﴾ الآية [النحل : ٦٣] جعل القبيح في عيونهم حَسَنًا ، والمُرّ في مذاقهم حلوًا ، وكرّه لهم الاستقامة وَوَحْيَ السماء ، فهم لا يرتضُون إلا ما ابتدعوا ، ولا يقبلون عنه بَديلًا .

ومثال ذلك الواضح : كان القذَرُ الجنسيّ يتمُّ في خَفَاءٍ ، ثم صار يبدو على استحْيَاءٍ ، ثم تواضَعَ عليه الرِّعَاعُ ، ثم صار قانونًا يُعمل به ، ثم انعقدتْ مؤتمراتٌ عالمية تدعو إليه ولا ترىٰ فيه عِوَجًا فَمَنْ يُعرِّي هؤلاءِ العُراة ويفضحهم إنْ سَكَتَ الربانيُّون ؟!

ناشئةٌ حديثةٌ تكره اللهَ ورسوله ، وتنقِم على الإسلام ووحْيه ، وتريد باسم العلمانية أن تعيدَنا إلى جاهلية عمياء ..

ومَنْ لهؤلاء الأقزام يصدُّهم إلا الجبال الشُّمُّ مِنَ الربانيين الذين ذاقوا حلاوة الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاستعذبوا ما يُلاقون ، ابتغاءَ وَجْه ربِّهم الأعلى ؟! يا جيلَ المصاحف · أكلتْ مواسِمَنا الجنادب .. واستبدَّ بنا الحواة ، وغادرتنا آخرُ السُّحُبِ الحميمةِ في السماء .

وأقول يا جيلَ المصاحف .. يا خميرَ الأرض .. يا غَرْسَ الشهادة ، أنت الذي سيبدِّل الأوزان والأحزان ، يزرعُ في العيون نخيلَها، فَلَكَمْ تباطأَ في الرحيل عن القُرىٰ عامُ الرَّماد !!

أبو النصر وعاملٌ للخليفة :

« كتاب الله قبل كتاب الخليفة » :

دخل أبو النصر سالم مولَى عمر بن عبيد الله على عاملٍ للخليفة ، فقال له : يا أبا النصر ، إنه تأتينا كتبٌ مِن عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد

بُدًّا من إنفاذها ، فما تَرَى ؟ قال أبو النصر : قد أَتاك كتابُ الله قبل كتاب الخليفة ، فأيّهما اتبعتَ كنت من أهله .

أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان :

« لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون ؟ » :

كان والي البصرة : محمدُ بن سليمان ، فكان كلما صعد المنبر أمَرَ بالعدل والإحسان ، فقام أبو سعيد الضبعي ، فقال : يا محمدَ بن سليمان ، إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **يَٰأَيُّهَا الذينَ آمنُوا لِمَ تقولونَ ما لا تَفعلونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولُوا مَا لا تفعلونَ** ﴾ . يا محمدَ بنِ سليمان ، إنه ليس بيْنَك وبيْنَ أن تتمنَّى أَنْ لم تُخلق إلا أن يَدخل مَلَكُ الموتِ من بابِ بيتك . قال : فخنقَتْ محمدَ بن سليمان العَبْرة ، فلم يقدر أن يتكلم ، فأحبَّه النُسَّاكُ حين خنقته العَبْرة ، وقالوا : مؤمنٌ مذنبٌ .

* * *



الفصْـلُ الثَّـالِـث

عُلُوّ الـهِمَّة
في الجهــاد

دعنا نُسافر في دروب إبائنا	ولنا من الهِمَم العظيمةِ زادُ
ميعادنا النصرُ المُبينُ فإن يكُنْ	موتٌ فعند إلٰهنا الميعـادُ
دَعْنَا نمُت حتى ننال شهادةً	فالموت في درب الهُدى ميلادُ

□ علو الهِمّة في الجهاد □

مع أن اللهَ مَلِكَ الملوك ، وخلْقه عبيدٌ ، وهو سبحانه يفعل في ملكه ما يريد ، مع هذا اشترى من المؤمنين نفوسهم لنفاستها لديه ، إحسانًا منه وفضلًا ، ورقم ذلك العقد الكريم في كتابه الحكيم ، فهو يُقرأ أبدًا بألسنتهم ويُتلىٰ : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ . [التوبة : ١١١] فجعل سبحانه هاهنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم ، وأتى بالتوكيد لذلك ، وأضاف الجليلُ هذا العقد إلى نفسه سبحانه ، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع ، ووعدَ بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يُخلفه ولا يتركه ، وجعل محلَّ هذا الوعد أفضل كُتُبه المنزلة من السماء ، ولا أحد أوفىٰ من الله ، وأمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ، ويبشّر به بعضهم بعضًا ، وأخبرهم إخبارًا مؤكّدًا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم ، والبيع هاهنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة .

والجهاد في سبيل الله أغلى التّجارات مع ملك الملوك ، الذي خزائن جوده لا يغيضها الإنفاق ، قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذين آمنوا هل أَدُلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويُدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ [الصف : ١٠ - ١٢] .

أفلا عاقل يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأن الرّيّ الأعظم في شرب كؤوس الحتوف ، وأن من اغبرّتْ قدماه في سبيل الله ، حرّمه الله

على النار ، ومن أنفق دينارًا ، كُتب له بسبعمائة دينار ، وأن الشهداء حقًّا عند الله من الأحياء ، وأن أرواحهم في جوف طيرٍ خُضرٍ تتبوّأ من الجنة حيث تشاء ، وأنه لا يحسُّ ألم القتل إلّا كمسِّ القرْصة ، وكم للموت على الفراش من سكْرة وغصّة ، فهذا فضلٌ لا يُضاهَى ، وخيرٌ لا يتناهى ، فهل من متعرِّضٍ لهذه الرُّتَب وإن كان نيلُها مقسومًا ، وصرف عمره في طلبها وإن كان منها محرومًا ، ومشمِّر للجهاد عن ساق الاجتهاد ، هل من نفير إلى ذوي العناد من كل العباد،وتجهيز الجيوش والسّرايا ، وبذْل الصِّلات والعطايا ، وإقراض الأموال لمن يضاعفها ويزكّيها ، ودفع سلع النفوس من غير مُماطلة لمشتريها ، وأن ننفر في سبيل الله خِفافًا وثِقالًا ، ونتوجّه لجهاد أعداء الله رُكبانًا ورجالًا ، وأن نجرّ الخميس القمقام[1] إلى أولياء إبليس اللئام ، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم ، ويُعطوا الجزية صغرةً بأيمانهم ، أو نستلب نفوسهم من أبدانهم ، ونجتذب رؤوسهم من تيجانهم ، فجموع ذوي الإلحاد مكسَّرة ، وجيوش أُولي العناد مُدبرة مُدمَّرة ، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغّرة ، أفلا نطير إليهم زرافاتٍ ووحدانًا ، ونُغير عليهم رجالًا وفرسانًا ، ونُخاطر بالنفوس والمُهَج ، ونركب قفر البرِّ وَثَبَجَ البحر لنيل الدّرج ، أفلا يبيت كلٌّ منّا وسلاحه له ضجيعًا ، ويُصبح معترك الحروب للمسلمين ربيعًا ، وحَرّ الوطيس لهم غَيْثًا مَرِيعًا[2].

أفلا نُبيد بأيدي الجلاد حُماة الشرك وأنصاره ، ونصول بنُصُول الحداد على دُعاة الكفار لنهتك أستاره ، ونتطهّر بدماء المشركين والكفار من أرجاس الذنوب وأنجاس الأوزار .

---

(١) القمقام : العدد الكثير .

(٢) المريع : الخصب .

ألا من أيامٍ تعود ، يلمع البِيض البواتِر في ظُلُمات نَقْعٍ كالدَّياجِر ، وجريان الدم الزّاخِر من الحناجر بالخناجر ، هُنالك تفتح من الجنة أبوابها ، وترتفع فرشها ، وتوضع أكوابها ، وتبرز الحور العين عروبها وأترابها ، هنالك يقوم للجهاد خُطّابها ، يضربون فوق الأعناق ، ويستعذبون من المنيّة مُرّ المذاق ، ويبيعون الحياة الفانية بالعيش الباق ، يردون مورد الشهادة منهلًا لن يظمئوا بعده أبدا ، تربح تجارتهم وهم أسعد السعداء .

يا رجال الله ، أتُقفَل أبواب الجهاد فلا تُطرق ! وتُهمَل أسبابه فلا تُرمق ! وتُصفَن خيوله فلا تركُض ! وتصمت طبولُه فلا تنبض ! وتربض أُسوده فلا تنهض ! أتمتدّ أيدي الكفرة الأذِلّاء إلى المسلمين فلا تُقبض ! أتُغمد السيوف من أعداء الدِّين ، إخلادًا إلى حضيض الدَّعَة والأمان ! ويخرس لسان النَّفير إليهم فصاح نفيرهم في أهل الإيمان !

آمَتْ عروس الشهادة إذ عدمت الخاطِبين ، وأمات الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مُخاطَبين ، فلا نجد إلّا من طوى بساطَ نشاطه عنه ، أو اثّاقل إلى نعيم الدنيا الزّائل رغبةً منه ، أو تركه جزعًا من القتْل وهَلَعًا ، أو أعرض عنه شُحًّا على الإنفاق وطمعا ، أو جَهِلَ ما فيه من الثواب الجزيل ، أو رضي بالحياة الدنيا من الآخرة ، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل .

أفلا يقظة للهِمَم الرُّقَّد ! أفلا نهضة للعزم المُقْعَد !

أيهوي نجم الجهاد بعد أن كان مُشرقًا سَنِيًّا ، وينمحي رَسْمُه واسمه كأن لم يكُن له من قبل سَمِيًّا ؟!

﴿ يَٰأَيُّهَا الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ولا تضروه

شيئًا والله على كل شيءٍ قدير ﴾ [التوبة : ٣٨ - ٣٩] .

إن النَّفْرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع من ثقلة اللحم والدم ، وتحقيقٌ للمعنى العلوي في الإنسان ، وتغليبٌ لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه الشُّقَّة والعناء ، يذهب الهمّ والغمّ ، ولكنّها الشّقّة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم السّاقِطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنّه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ، ولكنّه الأُفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبِنْية المهزولة .

كثيرٌ هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التّافه الرخيص .

قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يُقْتَل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

أخي : إن كنت عالي الهِمّة ، فلا ريب أن هٰذِهِ الأحاديث لها وقْع أيّ وقع في نفسك .. تحدو بها ليلَ نهار ، علّك ترى خَفْق البُنُود وصهيل الخيل في الوَغَى .

قال رسول الله ﷺ : « أفْضَل الناس مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ، ثم مؤمن في شِعْبٍ من الشّعاب يتّقي الله وَيَدَع الناس من شرِّه »[١].

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « أفضل العمل الصلاة لوقتها ، والجهاد في سبيل الله »[١].

ويكفي الجهاد فضلًا تَمَنّي الرسول ﷺ ألّا يقعُد خلف سريّةٍ ، ويكفي الشهادةَ فخرًا تمنّي رسول الله ﷺ لها .

قال رسول الله ﷺ : « انْتَدَبَ الله لمن خرج في سبيله ، لا يُخرجه إلا إيمانٌ بي ، وتصديقٌ برسلي ، أن أرجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمة ، أو أُدخله الجنة ، ولولا أن أشُقّ على أُمتي ، ما قعدتُ خلفَ سريّة ، ولَوَدِدْتُ أن أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ثم أُقتل ، ثم أحيا ثم أُقتل »[٢].

ولما تمنى سليمان عليه السلام كثْرة الأولاد ؛ ليكونوا فرسانًا يجاهدون في سبيل الله .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطُوفنَّ الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كلُّ امرأةٍ فارسًا يُجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبُه : إن شاء الله . فلم يقُل ، ولم تحمل شيئًا ، إلّا واحدًا ساقطًا أحَدُ شِقَّيْه » فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » . رواه البخاري ومسلم .

قال شعيب وابن أبي الزِّناد : « تِسْعِين » . وهو أصحُّ .

وقال ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »[٣].

---

(١) صحيح . رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٢٣) . وعند البخاري ومسلم : « ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله » .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد ومسلم ، والترمذي عن أبي موسى .

وقال ﷺ : « إن سياحة أُمتي الجهاد في سبيل الله »[١].

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ : « أُوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شيءٍ ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكْر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإنه رَوْحُكَ في السماء وَذِكْرك في الأرض »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « أيّما مسلم رمى بسهمٍ في سبيل الله ، فبلغ مخطئًا أو مُصيبًا ، فله من الأجر كرقبةٍ أعْتَقَهَا من ولد إسماعيل ... »[٣].

وقال ﷺ : « تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يُخرجه من بيته إلا الجهادُ في سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يُدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمةٍ »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « ثلاثة كلّهم ضَامِنٌ على الله : رجلٌ خرج غازيًا في سبيل الله ، فهو ضامن على الله حتى يتوفّاه ، فيُدخله الجنة أو يُردّه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ ... »[٥].

---

(١) صحيح . أخرجه أبو داود ، والحاكم في المستدرك وصححه ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أُمامة ، وأخرجه ابن عساكر وابن المبارك عن سعد بن مسعود الكِنْدي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٩٣) .

(٢) حسن . رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسّنه الألباني في الصحيحة رقم (٥٥٥) وصحيح الجامع رقم (٢٥٤٣) .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن عبسة ، وأحمد في مسنده ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٧٣٩) والصحيحة رقم (١٧٥٦) .

(٤) رواه البخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح . رواه أبو داود ، وابن حبان ، والحاكم وصححه عن أبي أُمامة ، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٧٢٧) وصحيح الجامع رقم (٣٠٥٣) .

وقال ﷺ: « ثلاثة في ضمان الله عز وجل : رجل خرج إلى مسجدٍ من مساجد الله عز وجلّ ، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله تعالى ، ورجل خرج حاجًّا »(١).

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه بابٌ من أبواب الجنة ، يُذهِب الله به الهمَّ والغمَّ »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « الرَّوْحة والغَدْوة في سبيل الله ، أفضل من الدنيا وما فيها »(٣).

وقال رسول الله ﷺ : « غَدْوَة في سبيل الله أو رَوْحَة ، خيرٌ مما طلعتْ عليه الشمسُ وغربتْ »(٤).

وقال رسول الله ﷺ : « قيام ساعةٍ في الصَّفِّ للقتال في سبيل الله ، خيرٌ من قيام ستين سنة »(٥).

وقال رسول الله ﷺ : « موقفُ ساعةٍ في سبيل الله ، خيرٌ من قيامِ ليلة القَدْر عند الحجر ....

(١) صحيح . رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٥١) والصحيحة رقم (٥٩٨) .
(٢) صحيح . رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أُمامة ، وأحمد والحاكم والهيثم ، وابن بشران والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٩٤١) وصحيح الجامع (٤٠٦٣) .
(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد .
(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي أيوب .
(٥) صحيح . أخرجه ابن عدي وابن عساكر عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٢٩) .

الأسود »[١].

وقال ﷺ في حديث معاذ : « وَذِرْوَة سَنَامِهِ : الجهاد » .

وقال رسول الله ﷺ : « ما اغبرَّتْ قدما عبدٍ في سبيل الله ، إلَّا حرَّم الله عليه النار »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُجاهد في سبيله - كمثلِ الصائم الدائم ، الذي لا يفتُر من صيامٍ ولا صدقةٍ ، حتى يرجع ، وتوكَّل الله للمجاهد في سبيله إنْ توفّاه أن يُدخله الجنة ، أو يرجعه سالمًا مع أجرٍ أو غنيمة »[٣].

وقال ﷺ : « مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم الخاشع الرّاكع الساجد »[٤].

وقال ﷺ : « ما خالط قلبَ امرئٍ مسلم رَهْجٌ في سبيل الله ، إلَّا حرّم الله عليه النار »[٥].

---

(١) صحيح . رواه ابن حبان ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٦٣٦) .

(٢) صحيح . رواه الشيرازي في الألقاب عن عثمان ، والبخاري والترمذي والنسائي ، وأحمد عن عبد الرحمٰن بن جبر ، وأحمد والدارمي عن مالك بن عبد الله ، والطيالسي وأحمد عن جابر .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي والترمذي عن أبي هريرة .

(٤) صحيح . رواه النسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٨٥٠) .

(٥) صحيح . رواه أحمد عن عائشة ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٢٧) وصحيح الجامع رقم (٥٦١٦) .
والرهج : الغُبار .

وقال ﷺ : « من راح رَوْحَة في سبيل الله ، كان له بمثْل ما أصابه من الغُبار مسْكًا يوم القيامة »(١).

وقال ﷺ : « من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ ، فقد وجبتْ له الجنة ، ومن سأل القتْل في سبيل الله من نفسه صادقًا ، ثم مات ، أو قُتل ، فإنّ له أجر شهيدٍ ، ومن جُرح جرحًا في سبيل الله ، أو نُكب نَكْبَةً ، فإنها تجيء يوم القيامة كأغْزَر ما كانت ، لونها لون الزَّعْفَران ، وريحها ريح المسك ، ومن خرج به خُرَّاج في سبيل الله ، كان عليه طابع الشهداء »(٢).

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لو أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسُهم أن يتخلَّفوا عني ، ولا أجد ما أحْمِلُهم عليه ، ما تخلَّفتُ عن سريّةٍ تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده ، لوددتُ أني أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ، ثم أُقتل ثم أحيا ، ثم أُقتل »(٣).

وقال ﷺ : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله ، أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا ، ألَا تُحِبُّون أن يغفر الله لكم ويُدخلكم الجنة ؟ اغْزُوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقةٍ ، وجبتْ له الجنة »(٤).

وقال رسول الله ﷺ : « يا أبا سعيد ، من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام

---

(١) حسن . رواه ابن ماجه والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٣٣٨) وصحيح الجامع رقم (٦٢٦٠) .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود والترمذي والنسائي ، وابن حبان عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٤١٦) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٤) حسن . رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٣٧٩) وتخريج المشكاة (٣٨٣٠) .

دِينًا ، وبمحمدٍ نبيًّا ، وجبْت له الجنة . وأُخرى يُرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض ؛ الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله »(١).

قال تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يَهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يُبشّرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجرٌ عظيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٩ - ٢٢] .

وقال ﷺ : « إن أرواح الشهداء في جوف طيرٍ خُضرٍ ، لها قناديلُ معلَّقةٌ تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءتْ ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعة فقال : هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا : أيّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ فيفعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ ، فلمّا رأوْا أنهم لم يُتركوا من أن يُسألوا ، قالوا : يا ربّ ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلى الدنيا فنُقتل في سبيلك مرةً أُخرى . فلمَّا رأى أنْ ليس لهم حاجة تُركوا »(٢).

وقال ﷺ : « للشهيد عند الله سبع خصال : يُغفر له في أوّل دَفْعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويُحَلّى حُلَّة الإيمان ، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفَزَع الأكبر ، ويُوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويشفع

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والنسائي عن أبي سعيد .

(٢) رواه مسلم والترمذي عن ابن مسعود .

في سبعين إنسانًا من أهل بيته »[١].

وقال ﷺ : « ما من مكلومٍ يُكْلَم في سبيل الله ، إلَّا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَدْمَى ، اللّونُ لونُ الدمِ ، والرِّيح ريح المسك »[٢].

وقال ﷺ : « من سأل الله الشهادة بِصِدْقٍ ، بَلَّغَه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »[٣].

وقال ﷺ : « يُؤْتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة ، فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أيْ ربّ ، خير منزلٍ . فيقول : سَلْ وتَمَنَّ . فيقول : يا ربّ ، ما أسأل ولا أتمنّى إلا أن تُرُدَّني إلى الدنيا ، فأُقتل في سبيلك عشر مرارٍ . لما يرى من فَضْلِ الشهادة ... »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « يضحك الله إلى رَجُلَيْن قتلَ أحدُهما الآخَرَ ، يدخُلان الجنة ، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقْتَل ، ثم يتوب الله على القاتِل فيُسلِم ، فيُقاتِل في سبيل الله فَيُسْتَشْهَد »[٥]. وإنا لنرجو أن يكون عكاشة بن محصن وطليحة الأسدي من هؤلاء .

وقال ﷺ : « يُغفر للشهيد كل ذنبٍ إلَّا الدَّيْن »[٦].

---

(١) صحيح . رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه عن المقدام بن معدي كرب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥١٨٢) وأحكام الجنائز (٣٥ – ٣٦) .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن سهل بن حنيف .

(٤) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٦) رواه أحمد ومسلم عن ابن عمرو .

وقال ﷺ : « لما أُصيب إخوانكم بأُحد ، جعل الله أرواحهم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهار الجنة ، تأكُل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ ، معلَّقة في ظِلِّ العرش ، فلمَّا وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : مَنْ يُبَلِّغُ عنّا أنَّا أحياء في الجنة نُرزق ؛ لئلَّا يزهدوا في الجهاد ، ولا يتَّكِلُوا عند الحرب ؟ فقال الله تعالى : أنا أُبلِّغهم عنكم »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « عَجِب ربُّنا من رَجُلٍ غزا في سبيل الله ، فانهزم أصحابُه ، فَعَلِمَ ما عليه ، فرجع حتى أُهريق دمُه ، فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدي ، رجع رغبةً فيما عندي ، وشفقةً مما عندي ، حتى أُهريق دمه »[٢].

وقال ﷺ : « عينان لا تَرَيَانِ النار : عينٌ بَكَتْ وَجَلًا من خشية الله ، وعين باتتْ تَكْلأُ في سبيل الله »[٣].

وَبَيّنَ ﷺ أن الشهيد لا يُفتن في قبره فقال : « كفى ببارِقَةِ السيوف على رأسه فتنة »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « « رِبَاطُ شهرٍ خير من صيامِ دهرٍ ، ومن

---

(١) صحيح . رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (٥٢٠٥) .

(٢) صحيح . رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٩٨١) .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الأوسط عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤١١١) .

(٤) صحيح . رواه النسائي عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٨٣) .

مات مُرابطًا في سبيل الله أَمِنَ من الفزع الأكبر ، وغُدِي[١] عليه برزقه ، وَرِيحَ[٢] من الجنة ، ويُجرى عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله »[٣].

وقال ﷺ : « رباط يوم في سبيل الله ، خيرٌ من الدنيا وما عليها ، وموضع سَوْطِ أحدكم من الجنة ، خيرٌ من الدنيا وما عليها ، والرَّوْحَة يَرُوحها العبد في سبيل الله أو الغَدْوَة ، خيرٌ من الدنيا وما فيها »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « القتلى ثلاثة : رجلٌ مؤمنٌ جاهَدَ بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لَقِيَ العدو قاتَلَهم حتى يُقتل ، فذلك الشهيد المُمْتَحَن في خيمة الله تحت عرشه ، ولا يَفْضُلُه النبيون إلا بِفَضْلِ درجةِ النُّبوَّة . ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قُتل ، فتلك مصمصةٌ محتْ ذنوبه وخطاياه ؛ إن السيف محّاءٌ للخطايا ، وأُدْخِلَ من أيّ أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب - ولجهنم سبعة أبواب - وبعضها أفضلُ من بعضٍ . ورجل منافق ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قُتل ، فذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق »[٥].

---

(١) مُرَّ عليه برزقه .

(٢) طُيِّب .

(٣) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٧٩) .

(٤) رواه مسلم عن سلمان .

(٥) إسناده حسن . رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي المثني - فقد روى عنه اثنان .

أخرجه ابن حبان واللفظ له ، والطيالسي ومن طريقه البيهقي ، وأخرجه أحمد والدارمي ، والطبراني ، وقال الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح خلا =

وقال ﷺ : « أفضل الشهداء من سُفِكَ دمه وعُقِر جواده »[١].

وقال ﷺ : « أفضلُ الشهداء الذين يُقاتِلون في الصَّفِّ الأوَّل ، فلا يَلْفِتُون وجوههم حتى يُقتلوا ، أولئك يتلبَّطُون[٢] في الغُرَف العُلا من الجنة ، يضحك إليهم ربُّك ، فإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ في موطنٍ ، فلا حساب عليهم »[٣].

اللهم اضحكْ إلينا ، وارزقنا أعلى درجات الشهداء ، واحشُرنا إليك من حواصل الطيور .

يا وَيْحَ نَفْسي وما ارتفعتْ بنا هِمَمٌ   إلى الجنانِ وتالي القومِ أوّابُ
إلى كَوَاعِب لِلأطرافِ قاصِرَة   وَظِلِّ طُوبَى وَعِطْرُ الشَّذْو يَنْسَابُ
إلى قناديل ذَهَبٍ عُلِّقتْ شرفًا   بعرشِ ربي لمن قُتِلوا وما غَابُوا

قال أنس : أنزل الله في الذين قُتلوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسِخَ بعدُ : (أن بَلِّغوا قومَنَا أن قد لَقِينا ربَّنا فَرَضِيَ عنّا وَرَضِينَا عنه)[٤].

وقال ﷺ : « أنا زعيمٌ - والزعيم : الحميل - لمن آمن بي وأسلم

= أبي المثنى وهو ثقة .
والشهيد المُمتَحَن : المصفَّى المهذّب ، وعند أحمد والطبراني « المفتخر » ، وقرف : أي كسب ، ومصمصة : أي مطهرة من دنس الخطايا .

(١) صحيح . رواه الطبراني في الكبير عن أبي أُمامة ، وأحمد ، وأبو داود عن عبد الله ابن حبشي ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥٠٤) وصحيح الجامع رقم (١١٠٨) .

(٢) أي يتمرَّغون .

(٣) صحيح . رواه أحمد ، والطبراني في الكبير عن نعيم بن همار ، وأخرجه أبو يعلى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧ - ١١) .

(٤) رواه البخاري ومسلم والبغوي ، وابن حبان .

وهاجر ، ببيتٍ في ربض الجنة ، وببيتٍ في وسط الجنة ، وأنا زعيمٌ لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل الله ، ببيتٍ في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيتٍ في أعلى غُرَف الجنة ، فمن فعل ذلك ، لم يَدَع للخير مطْلبًا ، ولا من الشَّرِّ مهربًا ، يموت حيث شاء أن يموت » .

والزعيم هو الحميل ، هو الكفيل ، وهو مدرج في الحديث[1] .

قالوا سهرتَ وفي فُؤادكَ حرقةٌ ... تـدمَى وألفُ تسـاؤلٍ يـتردّدُ
وعلى جبينـك قصَّـةٌ مكلومـةٌ ... تروي المآسي للجميع وتسرُدُ
ودموعك الملْأى بألف حكايةٍ ... رسمتْ على خَدَّيْكَ نارًا تُوقدُ
أنا يا صِحـابُ قضيَّةٌ مسلوبةٌ ... لَعِبَ الدَّعيُّ بِهَا وغـاب السيّدُ
أنا يا صِحَابُ مشـاعرٌ موتورةٌ ... للثأر تسعى والمسالك تُوصَدُ
أنا يا صحاب مدامعٌ محمومةٌ ... تَهْمـي من الألم المُميتِ فتبردُ
أنا يا صحابُ من الجراح مُعَذَّبٌ ... في كل أرضٍ جرحنـا يتمـدّدُ
في كل أرضٍ تُستبـاح دمـاؤنا ... في كل أرضٍ يُستباح المسجدُ
هل هذه كشميرُ ضاع نحيبُها ... بين اللّظَى وبها الكلابُ استأسدوا
أم هـذه حلبٌ ظـلامٌ موحِشٌ ... صمـتٌ يقطِّعه الأنينُ الأسـودُ
أم هذه القدسُ الجريحةُ تشتكي ... ممـا يُخطِّطه القريب الأنجـدُ
أم هـذه أفغـانُ تلعَـقُ جرحهـا ... وتبيتُ تبحث عن صديقٍ يُنجدُ
وأبِيتُ تلحقـني معـرَّةُ ذِلَّـتي ... وبكاءُ أحبابي هنـاك استنجدوا

ولله دَرُّ القائل :

هـذي بسـاتين الجنـان تزيَّنـتْ ... للخـاطبين فـأين مـنْ يرتـادُ

(١) إسناده صحيح . رواه ابن حبان واللفظ له ، والنسائي ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي .

يا ويحنا ماذا أصاب رجالنا ... أَوَ ما لنا سعدٌ ولا مقدادُ

نامتْ ليالي الغافلين وليلُنا ... أرقٌ يُذيب قلوبَنا وسُهادُ

سُلَّتْ سيوفُ المعتدين وعربدتْ ... وسيوفُنا ضاقتْ بها الأغمادُ

أهو القُنُوط يهدُّ رُكْن عزيمتي ... وبه ظلَّمُ مخاوفي تزدادُ

يا ليلَ أُمَّتنا الطويلَ متى نرى ... فجرًا تُغرِّد فوقه الأمجادُ

أجدادنا كتبوا مآثرَ عزِّها ... فمحا مآثر عزِّها الأحفادُ

ترعى حِماها كلُّ سائبةٍ وفي ... تمزيقها يتجمَّع الأضدادُ

تصغي لأغنية الهوى فنهارها ... نومٌ ثقيل والمساء سِفادُ

دَعْنَا نُسَافِر في دروبِ إبائنا ... ولنا من الهِمَم العظيمةِ زادُ

ميعادُنا النصرُ المبين فَإِنْ يكُن ... موتٌ فعند إلٰهنا الميعادُ

دَعْنا نمُت حتى ننال شهادةً ... فالموت في دربِ الهُدى ميلادُ

* * *

□ أعلى الناس هِمَّة في الجهاد رسولُنا ﷺ □

قال رسول الله ﷺ : « ما من الناس من نَفْسٍ مسلمةٍ يقبضها ربها ، تُحبّ أن ترجع إليكم ، وأن لها الدنيا وما فيها غير الشهداء ، ولأن أُقتل في سبيل الله ، أحبُّ إليّ من أن يكون لي أهْل الوَبَر والمَدَر »[١].

كان رسول الله ﷺ أشجع الناس ، وأقواهم قلبًا ، وأثْبَتَهم جنانًا ، وقد حضر المواقف الصعبة المشهورة ، وفرّ الكُماةُ والأبطالُ عنه غير مرّةٍ ، وهو ثابتٌ لا يبرح ، ومُقْبِل لا يُدبر ، ولا يتزحزح .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحْسَن الناس ، وكان أجْوَد الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة ذات ليلةٍ ، فانطلق ناس قِبَل الصوت ، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فَرَسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ، وفي عنقه السيف ، وهو يقول : « لم تُراعُوا ... لم تراعوا »[٢].

وفي لفظ للبخاري ، قال : فزع الناس ، فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة قطَفًا[٣] ، ثم خرج يركُض وحده ، فركب الناس يركضون خَلْفَه ، فقال : « لم تُراعُوا ، إنه لبحر » . قال : فما سُبق بعد ذلك اليوم .

وقال ابن عمر : ما رأيتُ أشجع ولا أنْجَد ولا أجْوَد ولا أرْضَى من رسول الله ﷺ .

---

(١)
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .
(٣) القطاف : تقارب الخطو في السرعة .

وفي صحيح مسلم عن البراء : كنّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقِي به ، وإن الشجاع منا الذي يُحَاذِي به ؛ يعني النبي ﷺ .

وقال عليٌّ : « لقد رأيتُني يوم بدرٍ ونحن نلوذُ بالنبي ﷺ ، وهو أقْرَبُنا إلى العدوّ ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأسًا » .

وفي الصحيحين عن البراء - وسأله رجل من قيس : أفَرَرْتُم عن رسولِ الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ ؟ - قال البراء : رسول الله ﷺ لم يفرّ ،وكانت هوازنُ يومئذٍ رُماةً ، وإنّا لمّا حملْنا عليهم انكفّوا ، فأقبلنا على الغنائم ، فاستقبلونا بالسِّهام ، ولقد رأيتُ رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخِذٌ بلجامها ، وهو يقول : « أنا النبيُّ لا كَذِبْ ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ » .

وروى مسلم عن العباس رضي الله عنه قال : « فلما التقى المسلمون والكفار ، ولّى المسلمون مُدبِرِين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار ، وأنا آخِذٌ بلجامها أكُفُّهَا إرادةَ أن لا تُسرِع ، وأبو سفيان آخذٌ بركابه ، ثم نادى : يا للمسلمين » .

ولما رآه أُبيّ بن خلف يوم أُحُد وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا . وقد كان يقول للنبي ﷺ : عندي فرسٌ ، أعلفها كلَّ يومٍ فرقًا من ذرةٍ ، أقْتُلك عليها . فقال له النبي ﷺ : « أنا أقتُلك إن شاء الله » . فلمّا رآه يوم أحد ، شدّ أُبيٌّ على فرسه على رسول الله ﷺ ، فاعترضَهُ رجال من المسلمين ، فقال النبي ﷺ هكذا ؛ أي خَلُّوا طريقه ، وتناول الحربةَ من الحارث بن الصِّمَّة ، فانتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطايُرَ الشعراء[1] . عن ظهر البعير إذا انْتَفَضَ ، ثم استقبله النبيُّ ﷺ ، وطعنَهُ

(١) الشُّعْر ، بضم الشين وسكون العين : جمع شَعْراء ، وهي ذِبَّانٌ حُمر - =

في عنقه طعنةً تَدَأْدَأَ[١] عنها عن فرسه مرارًا ، وقيل : بل كسر ضلعًا من أضلاعه ، فرجع إلى قريش ، يقول : قتلني محمد . وهم يقولون : لا بأس . فقال : لو كان ما بي بجميع الناس ؛ لَقَتَلَهم ، أليس قد قال : أنا أقتُلك ، والله لو بَصَقَ عليَّ لقتلني . فمات - لعنه الله - بسرف في قفولهم إلى مكة .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثاني اثنين :

كان رضي الله عنه يَذُبّ عن رسول الله ﷺ .

فعن عُروة بن الزبير قال : سألتُ ابنَ عمرو بن العاص : أخبِرْني بأشد شيءٍ صنعه المشركون بالنبي ﷺ . قال : بَيْنَا النبي ﷺ يصلي في حِجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْط ، فوضَعَ ثوبه في عنقه ، فخنَقَهُ خَنْقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودَفَعَهُ عن النبي ﷺ ، قال : ﴿ **أتقتلون رجلًا أن يقول ربِّي الله** ﴾ [غافر : ٢٨] رواه أحمد والبخاري .

وفي يوم بدرٍ جعل الصحابة لرسول الله ﷺ عَرِيشًا ، وقالوا : من يكون مع النبي ﷺ ؛ لئلّا يصل إليه المشركون ؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلّا أبو بكرٍ ، شاهِرًا السيف على رأس رسول الله ﷺ .

نعم ... كان الصديق أشجع الناس بعد رسول الله ﷺ ، فإنه كان أثبتهم قلبًا ، وحَسْبُكَ من ذلك ثباتُ قلبه يوم بدر ، وهو يقول للنبي ﷺ : يا رسول الله ، كفاك بعض مُناشَدَتك ربّك ، فإنه مُنجز لك ما وَعَدَكَ . وثبات قلبه يوم أُحُد ، وقد صرخ الشيطان بأن محمدًا ﷺ قد قُتِلَ ، ولم

= وقيل : زُرق - تقع على الإبل والحمير فتؤذيها أذًى شديدًا .

(١) دَأْدَأَ - وَتَدَأْدَأَ : تدحرج وسقط .

يبقَ أحدٌ مع أحد ، وثبات قلبه يوم الخندق ، ويوم صُلح الحديبية ، ويوم حُنَينٍ حين فرَّ الناس ولم يفرّ .

ولو لم يكن من شجاعته إلا ثبات قلبه ، وتثبيته المسلمين عند الخطب الأعظم والأمر الأفخم بموت نبينا ﷺ ، إذ زاغتْ قلوب كثيرٍ من الناس ، وزُلزِلُوا بموته زلزالًا شديدًا ، وأُقعِدَ بعضهم ، وشكَّ آخرون ، لكفانا ذلك دليلًا على عظيم شجاعته وقوة قلبه ، إذ كان قلبه في تلك النازلة العُظمى التي اهتزّتْ لها الدنيا بأجمعها ، لو وُزن بقلوب الأمة لَرَجَحَهَا .

وكان عزمه في قتال من ارتدّ ، لو فُرِّقَ على قلوب الجبناء من أهل الأرض لشجّعهم إلى أن قام بمهمة قناة الإسلام بعد اعوجاجها ، وجرت الملة الشهباء على سننها ومنهاجها ، وأذّن مؤذّن الإيمان ﴿ **ألا إن حزب الله هم الغالبون** ﴾ وتولَّى حزبُ الشيطان وهم خاسرون ، فتلك - لعمر الله - الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأُمم ، والهِمَّة التي تنازلتْ لها أعالي الهمم ، فرضوان الله عليهم أبدًا ما شهر بارق ، وقُهر مارق ، وعلى بقية الصحابة أجمعين[١] .

الفاروق الذي تفِرُّ شياطينُ الإنسِ والجنِّ منه :

قال رسول الله ﷺ : « إيهًا يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ، ما لَقِيَكَ الشيطان سالكًا فجًا قطُّ ، إلا سلك فجًّا غير فجِّك »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فرُّوا من عمر »[٣] .

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢/ ٩٦٥ - ٩٦٦ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) حسن . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وعزاه المزي للنسائي .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم أعزَّ الإسلام بأحبِّ هذيْن الرجُلَين إليك ؛ بأبي جهلٍ أو بعمر بن الخطاب » قال : وكان أحبّهما إليه عمر .(١)

وروى البخاري ، عن عبد الله بن مسعود قال : ما زلنا أعِزَّة منذ أسلم عمرُ(٢) .

وعن ابن مسعود : أن عمر صارعَ جِنِّيًّا ثلاث مراتٍ فَصَرَعَهُ(٣) .

وقد ذكر القرطبي في تاريخه ، أن عمر رضي الله عنه كان يُمسك أُذُنه اليسرى بيده اليمنى ، ويَثِب ، فيصير على ظهر الفَرَس ، من غير أن يُمسك شيئًا بيده .

وعن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لم تعلم قريشٌ بإسلامه ، فقال : أيُّ أهل مكة أفْشَى للحديث ؟ فقالوا : جميل بن معمر الجُمَحي ، فخرج إليه وأنا أتبعُ أثَرَهُ ، أعقِلُ ما أرى وأسمع ، فأتاه فقال : يا جميلُ ، إني قد أسلمتُ . قال : فوالله ما ردّ عليه كلمةً ، حتى قام عامدًا إلى المسجد ، فنادى أنديةَ قريش فقال : يا معشر قريش ،

---

(١) صحيح لشواهده . أخرجه الترمذي ، وأحمد ، وابن حبان ، وعَبْدُ بن حُميد ، وأحمد في فضائلْ الصحابة ، وابن سعد في الطبقات .

(٢) وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٣) صحيح لشواهده . رواه الهيثمي بمعناه وقال : رواه الطبراني بإسنادين ، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح ، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود ، والطريقة الثانية فيها المسعودي وقد اختلط ، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي .

إنّ ابن الخطاب قد صَبَأ . فقال عمر : كذبَ ، ولكنّي أسلمتُ ، وآمنت بالله ، وصدَّقت رسوله . فثاوروه ، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم ، حتى فَتَر عمرُ ، وجلس فقال : افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كُنَّا ثلثمائة رَجُلٍ ، لقد تركتموها أو تركناها لكم . فَبَيْنَا هم كذلك قيام ، **إذ جاء رجُلٌ عليه حُلَّة حرير ، وقميص موَشًّى فقال : ما لكم ؟ فقالوا :** إن ابن الخطاب قد صبأ . قال : فَمَهْ ، امرؤٌ اختار دينًا لنفسه ، أفتظنون أن بني عَدِيّ تُسلم إليكم صاحبهم . قال : فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه . فقلت له بعدُ بالمدينة : يا أبهْ ، من الرجل الذي ردَّ عنك القوم يومئذٍ ؟ قال : يا بُنَيَّ ، ذاك العاص بن وائل[(١)].

إنه عمرُ هادِم دولة بني ساسان ، في عهده زال مُلْك المجوس ، **وذهبت إمبراطورِيةُ كسرى ، ولا يزال التاريخ يذكر لرستم قائد قوات الفرس** مقولته الشهيرة : « أكل عمرُ كبدي ، أحرق الله كبده . وإنما هو عمر الذي يُكَلِّم الكلاب فيعلّمهم العقل ، علّم هؤلاء حتى علّموا »[(٢)].

يَا مَنْ يرى عمرًا تكسُوه بُرْدَتُهُ والزَّيتُ أُدْمٌ له والكُوخُ مأواهُ
يهتزُّ كسرى على كُرْسِيِّهِ فَرَقًا من خوفه وملوكُ الرُّومِ تَخْشَاهُ

أبو محمد ، طلحة بن عُبيد الله التَّيْمي ، أحد العشرة :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١ / ٢٦) : في جامع أبي عيسى بإسناد حسن ، أن رسول الله ﷺ قال يوم أُحُد : « أوجب طلحة »[(٣)].

---

(١) حسن . رواه ابن حبان في موارد الظمآن ٢ / ٢١٨ .
(٢) الطبري ٣ / ٥٣٢ .
(٣) سنده حسن . أخرجه الترمذي وأحمد وابن سعد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وسنده حسن ، وهو في الإصابة والاستيعاب وتاريخ الطبري .

وفي رواية : « أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع » .

وعن جابر قال : لما كان يوم أحد ، وولى الناس ، كان رسول الله ﷺ في ناحيةٍ في اثني عشر رجلًا ، منهم طلحة ، فأدركهم المشركون ، فقال النبي ﷺ : « مَنْ للقوم ؟ » قال طلحة : أنا . قال : « كما أنت » . فقال رجل : أنا . قال : « أنت » . فقاتل حتى قُتل ، ثم التفت فإذا المشركون ، فقال : « مَنْ لهم » ؟ قال طلحة : أنا . قال : « كما أنت » . **فقال رجل من الأنصار : أنا . قال : « أنت » . فقاتل حتى قتل ، فلم يزل** كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحةُ ، فقال : « منْ للقوم ؟ » قال طلحة : أنا . فقاتل طلحة قتال الأحدَ عشر ، حتى قُطعت أصابعه ، فقال : « حَسِّ » . فقال رسول الله ﷺ : « لو قلتَ : « باسم الله » لرفعتْك الملائكة ، والناسُ ينظرون » ثم ردّ الله المشركين .

وعند الطبراني : « لو قلتَ : « بسم الله » لطارت بك الملائكة ، والناس ينظرون إليك »[1].

وعند النسائي والبيهقي في الدلائل : « حتى تَلِجَ بك في جوِّ السماء » .

لله دَرُّ أبي محمد .. ما فعل ، حتى لو نطق بـ« بسم الله » لطارت به الملائكة ، حتى تَلِجَ به السماءَ ؟!

روى البخاري عن خالد بن قيسٍ ، قال : رأيت يد طلحة التي وَقَى

---

(١) الحديث حسن . أخرجه النسائي والطبراني والحاكم وابن شاهين والبيهقي في الدلائل ، وقال الذهبي : رواته ثقات . وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٠٤) : « ورجال إسناده ثقات كلهم على شرط مسلم ، لكن أبو الزبير مدلس ، وقد عنعنه ، وبالجملة : فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق . والله أعلم » .

بها النبيَّ ﷺ يومَ أُحُد شَلَّاء .

وعن المعتمر - وهو ابن سليمان - قال : سمعت أبي ، عن أبي عثمان ، قال : لم يبقَ مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن غيرُ طلحة وسعد . عن حديثهما[١] .

« وعن عائشة وأمِّ إسحاق بنْتَي طلحة ، قالتا : جُرح أبونا يومَ أحدٍ أربعًا وعشرين جراحة ، وقع منها في رأسه شجّة مربّعة ، وقُطع نساه - يعني العِرْق - وشُلّتْ إصبعه ، وكان سائر الجراح في جسَده ، وغلبه الغَشْيُ ، ورسول الله ﷺ مكسورةٌ رباعيته ، مشجوجٌ في وجهه ، قد علاه الغشي ، وطلحة مُحتَمِله ، يرجع به القَهْقَرَى ، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه ، حتى أسنده إلى الشِّعْب »[٢] .

قال تعالى : ﴿ مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صَدَقُوا ما عَاهدُوا الله عليه فمِنهُم مَّن قضَىٰ نحْبَهُ ومنهم مَّن ينتظر وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن طلحة أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاء يسأله عمَّنْ قضى نَحْبَه : من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ ، ويوقِّرونه ويَهابونه ، فسأله الأعرابي فأعرضَ عنه ، ثم سأله فأعرضَ عنه ، ثم إني اطَّلعتُ مِن باب المسجد - وعليَّ ثيابٌ خُضْر - فلما رآني رسول الله ﷺ قال : « أينَ السائل عمّن قضى نَحْبَه ؟» قال الأعرابي : أنا . قال : « هذا ممَّن قضى نَحْبَه »[٣] .

---

(١) معناه : وهما حدَّثاني بذلك . أو يريد أنها حدثتان .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٢ .

(٣) سنده حسن . أخرجه الترمذي في المناقب ، وقال : حسن غريب . والطبراني في الكبير وابن سعد . وسنده حسن .

وقال ﷺ : « طلحة ممَّن قضَىٰ نحبه »[١].

وعن طلحة رضي الله عنه ، قال : عُقِرتُ يوم أحد في جميع جسدي ، حتى في ذَكَري[٢].

وطلحة يومَ الشِّعْبِ واسى محمَّدًا لَدَى ساعة ضَاقَتْ عليهِ وسُدَّتِ
وقاهُ بكفَّيْهِ الرِّماحَ فَقُطِّعَتْ أصابِعُهُ تَحتَ الرماحِ فشُلَّتِ

الزُّبير بن العوَّام ، حوارِيُّ الرسول :

أوَّلُ مَنْ سَلَّ سَيْفَه في الإسلام ، رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكلّ نبي حواريًّا ، **وإن حواريّي** : الزبيرُ »[٣].

وقال ﷺ : « الزبير ابن عمّتي ، وحواريّي من أمتي »[٤].

بأبي وأمي فارس رسول الله ﷺ وحواريّه ، مَنْ نزلتْ بسِيمَاهُ الملائكة في يوم بدر ، وجمَع له رسول الله ﷺ بين أبويْه .

عن عروة بن الزبير قال : كانت على الزبير - يوْم بدرٍ - عمامةٌ صفراءُ ، فنزل جبريل على سيماءِ الزبير .

---

(١) صحيح ، رواه الترمذي وابن ماجه عن معاوية ، وابن عساكر عن عائشة ، وابن سعد والترمذي وأبو يعلى والضياء عن طلحة ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٩١٦ ، والصحيحة رقم ١٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٩ .

(٣) رواه البخاري والترمذي عن جابر ، والترمذي والحاكم عن علي .

(٤) صحيح ، رواه أحمد في مسنده عن جابر ، وصحّحه الألباني في الصحيحة رقم ١٨٧٧ ، وصحيح الجامع رقم ٣٥٨٣ .

يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير :

جَدِّي ابنُ عمَّةِ أحمدٍ ووزيرُهُ عندَ البلاءِ وفارسُ الشَّقْراءِ
وَغَداةَ بدرٍ كان أوَّلَ فارسٍ شَهِدَ الوغَى في اللَّامَةِ الصَّفراءِ
نَزَلتْ بِسِيمَاهُ الملائِكُ نُصْرَةً بالحوْضِ يَوْمَ تألُّبِ الأعداءِ

قال الثوريّ : نَجْدةُ الصحابةِ : حمزة ، وعليّ ، والزبير .

قالت عائشة لعروة : يا ابن أختي ، كان أبواك - يعني الزبير وأبا بكر - منَ ﴿ **الذين استجابُوا لله والرسول مِن بعد ما أصابهم القَرْحُ** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٢] .

لما انصرف المشركون من أُحُدٍ ، وأصاب النبيَّ ﷺ وأصحابَه ما أصابهم ، خاف أن يرجعُوا ، فقال : « مَنْ ينتدبُ لهؤلاء في آثارهم ، حتى يعلموا أنّ بنا قوةً ؟ » فانتدب أبو بكر والزبير في سبعين ، فخرجوا في آثار المشركين ، فسمعُوا بهم ، فانصرفوا . قال تعالى : ﴿ **فانقَلبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ** ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٤] ، لم يلقوا عدوًّا[١] .

وروى البخاري ومسلم عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ يومَ الخَندق : « **مَنْ يأتينا بخبرِ بني قُريظة ؟ » فقال الزبير : أنا . فذهب على فرسٍ** ، فجاء بخبرهم . ثم قال الثانية ، فقال الزبير : أنا . فذهب ، ثم الثالثة ، فقال النبي ﷺ : « لكلّ نبيٍّ حواريٌّ ، **وحواريّي[٢] الزبير** » .

---

(١) أخرجه البخاري إلى قوله : سبعين ، وأخرج الجزءَ الأوّلَ مسلمٌ ، وابن ماجه ، وابن سعد ، والحميدي ، والحاكم .

(٢) الحواري : هو الخالص من كل شيء . قاله مصعب الزبيري ، والحواريّ : خالصة الإنسان وصفيّه المختص به كأنه أخلص ونقي من كل عيب . وتحوير الثياب : تبييضها وغسلها ، ومنه سمي أصحاب عيسى : حواريين ، لأنهم كانوا =

عن ابن الزبير ، عن أبيه قال : جمع لي رسول الله ﷺ أبوَيْه .

وعن ابن الزبير أنه قال له : يا أبه ، قد رأيتُك تحملُ على فرسك الأشقر يومَ الخندق . قال : يا بنيَّ ، رأيتَني ؟ قال : نعم . قال : فإن رسول الله ﷺ يومئذٍ لَيجمعُ لأبيك أبوَيْه ، يقول : « ارْمِ ، فِدَاكَ أبي وأمي » .

وعن ابن أبي الزّناد قال : ضرب الزبيرُ يوم الخندق عثمانَ بنَ عبد الله ابن المغيرة بالسَّيف على مِغْفَره ، فقطعه إلى القَرَبُوس[1] ، فقالوا : ما أجود سيفك ! فغضب الزبير ، يريد أن العمل ليده لا للسيف .

وعن علي بن زيد : أخبرني من رأى الزبيرَ ، وفي صدْره أمثالُ العيونِ من الطَّعن والرَّمْي .

وعن عروة قال : كان في الزبير ثلاثُ ضرباتٍ بالسيف : إحداهن في عاتِقِه ، إنْ كنتُ لأُدخل أصابعي فيها ، ضُرب ثنتين يومَ بدْر ، وواحدةً يوم اليرموك .

قال عروة : قال عبد الملك بن مروان ، حين قُتل ابنُ الزبير : يا عروة ، هل تعرف سيف الزبير ؟ قلت : نعم . قال : فما فيه ؟ قلت : فَلَّةٌ فلها يومَ بدرٍ . فاستلّه فرآها فيه ، فقال : بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ .

قال علي بن أبي طالب : أشجع الناس : الزبير ، ولا يعرف قَدْرَ الرجال إلا الرجالُ .

عن الزبير قال : لقيتُ يوم بدر عُبيدةَ بن سعيد بن العاص ، وهو

= قصّارين يبيضون الثياب . وقيل:الحواري : الناصر .

(١) مُقدَّم السَّرج ومُؤخره .

مُدجَّج لا يُرى إلا عيناه ، وكان يُكنَى : أبا ذاتِ الكِرَش . فحمَلتُ عليه بالعَنَزَة ، فطعنتُه في عينه ، فمات . فأُخْبرت أن الزبير قال : لقد وضعتُ رجلي عليه ، فكان الجهْدُ أن نزعتُها . يعني الحربة ، فلقد انثنى طرفُها . رواه البخاري .

« قَتَلَ الزبيرُ في هذه المعركة عبيدةَ بن سعيد بن العاص ، وقتل عمَّه نَوْفَلَ بنَ خُويلد بن أسد » .

لله ما أصدق الزبيرَ مع الله ورسوله حين يقتل عمَّه .

وعن عروةَ أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير : ألا تشُدّ فنشدَّ معك ؟ قال : إني إنْ شددتُ كذبتم . فقالوا : لا نفعل . فحمل عليهم حتى شقَّ صفوفَهم ، فجاوزهم وما معه أحَد ، ثم رجع مُقبلًا ، فأخذوا بلجامه فضربوه ضربَتَيْن ، ضربةً على عاتقه ، بينهما ضربة ضُرِبَهَا يومَ بدر . قال عروة : فكنت أُدخل أصابعي في تلك الضربات ، ألعبُ وأنا صغير . قال : وكان معه عبد الله بن الزبير وهو ابنُ عشر سنين ، فحمله على فرس ، ووكل به رجلًا[1] .

قال الذهبي في السِّير معلِّقًا : « هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله ؛ فإن عبد الله كان إذْ ذاك ابنَ عشر سنين » .

وذكر ابن كثير أن الموقعة هي « اليرموك » . ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين .

ويا لروعة إقدام الزبير حين يُحجم الأبطالُ من صحابة رسول الله ﷺ ، ولا يصبرون معه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٦٢ - ٦٣ .

قال ابن كثير : « وقد كان فيمن شَهِدَ اليرموك : الزبيرُ بن العوام ، وهو أفضل مَنْ هناك مِنَ الصحابة ، وكان من فرسان الناس وشجعانهم ، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ ، فقالوا : ألا تحملُ فنحمل معك ؟ فقال : إنكم لا تثبتون . فقالوا : بلى . فحمل وحملوا ، فلما واجهوا صفوفَ الروم أحجموا وأقدم هو ، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر ، وعاد إلى أصحابه . ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل في الأولى ، وجُرح يومئذٍ جُرحَيْن بين كتفيْه . وفي رواية : جُرْحٌ »[1] .

ويقول ابن كثير مرة أخرى : « خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا ، فشهد اليَرْمُوك ، فتشرَّفوا بحضوره ، وكانت له بها اليد البيضاء والهمة العلياء ، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتَيْن ، مِن أوّلهم إلى آخرهم »[2] .

« ورأى النبيُّ يوم « أحد » رجلًا يقتل المسلمين قَتْلًا عنيفًا ، فقال : « قمْ إليه يا زبير » فَرَقِي إليه الزبير ، حتى إذا عَلا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه ، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى الأرض ، فوقع الزبيرُ على صدره وَقَتَله »[3] .

قال الزبير رضي الله عنه : « جمع لي رسول الله ﷺ أبوَيْه مرتَيْن : في أُحد ، وفي قريظة »[4] .

« ويوم (حُنين) طاعَن الزبيرُ المشركين حتى أزالهم عن أماكنهم ، وكان قائد المشركين يراقب سير القتال ، فأخبره أصحابه أنهم يروْن فارسًا واضعًا رمحَه على عاتقه ، عاصبًا رأسه بملاءَةٍ حمراء ، فقال : هذا الزبير بن

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ١١ .
(٢) البداية والنهاية ٧ / ٢٦٠ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٥٨ .
(٤) الاستيعاب (٢/ ٥١٣) ، وأُسد الغابة (٢ / ١٩٧) .

العوام ، وأحلِفُ باللّات ليخالطنّكم فاثبتوا له . فلما انتهى الزبير إلى مواضع المشركين وأبصرهم ، قصدهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها »[(١)].

لله دَرُّ أشجع الناس الذي قال فيه علي بن أبي طالب : « يغضَبُ كالنَّمِر ، وَيَثِبُ وُثوبَ الأَسَد »[(٢)].

« ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتْحها كانت معه قوّات تبلغ ثلاثةَ آلافٍ وخمسمائة رجل ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه ، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو ، فأرسل الزبيرَ بنَ العوام في اثني عشر ألفًا ، وقيل : أرسل عمر أربعة آلافِ رجلٍ ، عليهم من الصحابة الكبار : الزبير ، والمقداد بن الأسود ، وعُبادة بن الصامت ، ومَسْلمة بن مُخَلّد ، وقال آخرون : خارجة بن حذافة هو الرابع . وكتب إليه : « إني أمددتك بأربعةِ آلافٍ ، على كلّ ألفٍ منهم رجل مَقامَ ألفٍ » . وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال »[(٣)].

وحين قدِم الزبير على عمرو وجدَه مُحَاصِرًا حصن (بابليون) ، فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن ، ثم فرّق الرجال حوْل الخندق ، وطال الحصار حتى بلغت مدّته سبعة أشهرٍ ، فقيل للزبير : « إن بها الطاعون » . فقال : « إنما جئنا للطعن والطاعون »[(٤)].

---

(١) قادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٥ للواء الركن محمود شيث خطاب - طبع دار الفكر .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٥ / ٣٦٢ .

(٣) فتوح مصر والمغرب صـ ٦١ ، ومعجم البلدان ٦ / ٣٧٦ ، وقادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٨ ، ٢٢٦ .

(٤) طبقات ابن سعد ٣ / ١٠٧ ، والبلاذري صـ ٢١٥ .

« وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص ، فقال الزبير : « إني أهِبُ نفسي لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » . فوضع سُلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحيةِ سُوق الحمّام ثم صَعِد ، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف ، فتحامل الناس على السُّلّم حتى نهاهم عمرو ؛ خوْفًا من أن ينكسر ، فلما رأى الرُّوم أنّ العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا ، وبذلك فتح حصن بابليون أبوابَه للمسلمين ؛ فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر ، وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المُقَوْقِس »[١] .

ولله دَرُّ حسان حين يقول :

أقام على عهْد النبيِّ وهَدْيِهِ ... حواريُّه والقوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ
أقام على منهاجِهِ وطريقِهِ ... يُوالي وليَّ الحقِّ والحقُّ أَعْدَلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يصولُ إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حَشَّهَا ... بأبيضَ سَبَّاقٍ إلى الموتِ يُرْقِلُ[٢]
وإنَّ امرأً كانت صفيةُ أمَّهُ ... ومِن أسدٍ في بيتها لَمُؤَثَّلُ
له من رسولِ اللهِ قُربَى قريبةٌ ... ومِن نُصْرَةِ الإسلام مَجْدٌ مُؤَثَّلُ
فكمْ كُرْبَةٍ ذَبَّ الزبيرُ بسيفِهِ ... عن المصطفى واللهُ يُعْطي فيُجزلُ
ثناؤُكَ خيرٌ من فَعالِ معاشرٍ ... وفعلُكَ يا ابنَ الهاشِمِيةِ أفضلُ[٣]

---

(١) قادة فتح الشام ومصر صـ ٢٠٩ ، ٢٢٧ .

(٢) يقال : أرقل القوم إلى الحرب إرقالًا : أسرعوا ، والإرقال : ضرْب من الخَبَب ، وهي سرعة سيْر الإبل .

(٣) ديوان حسان ١٩٩ - ٢٠٠ طبعة دار صادر البيروتية .

ويرحم الله مَنْ قال :

لما أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَواضَعَتْ سُورُ المدينةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ

الإمامُ البطل الضِّرغام ، أسد الله أبو عمارة ، وأبو يعلى حمزةُ بن عبد المطلب :

قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدُ الشهداء عند الله يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب »[1].

وقال ﷺ : « سيّد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه ، فقتله »[2].

قال ابن إسحاق : لما أسلم حمزة ، علمت قريشٌ أن رسول الله ﷺ قد امتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

وكان حمزة رضي الله عنه أوّلَ قاتلٍ لأوّلِ قتيلٍ من المشركين يوم بدر ، فلما « تَواجَه الفئتانِ ، وتقابل الفريقانِ ، وحضر الخَصْمانِ بين يدي الرَّحمٰن ، واستغاث بربه سيد الأنبياء ، وضجَّ الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء ، سامعِ الدعاء وكاشِفِ البلاء ، فكان أولَ من قُتل من المشركين : الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي .

قال ابن إسحاق : وكان رجلًا شرسًا سَيِّئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربنّ من حَوْضهم ، أو لأهدِمنّه ، أو لأموتنَّ دُونه ، فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ[3] قدمَه بنصف ساقه وهو

---

(١) حسن ، أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر ، والطبراني في الكبير عن علي ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٧٦ ، والصحيحة رقم ٣٧٤ .

(٢) حسن ، رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٧٥ ، والصحيحة رقم ٣٧٤ .

(٣) أطنَّ : قطع .

دون الحوْض ، فوقع على ظهره تشخب[1] رجلُه دمًا نحو أصحابه ، ثم حبَا إلى الحوْض حتى اقتحم فيه ، يريد زعم أن تبرَّ يمينُه ، وأَتْبَعَهُ حمزة فضربه حتى قتله في الحوْض »[2].

« وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه كان يُقسم فيها قَسَمًا : إن هذه الآية ﴿ **هذانِ خَصْمانِ اختصمُوا في ربِّهم** ... ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيْه ، وعُتْبة وصاحبيْه يوم برزُوا في يوم بدر »[3].

برز عُتْبة وشيْبة والوليد بن عتبة ، فلما توسطوا بين الصفين ، دَعَوا إلى البراز ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ومعاذ ابنا الحارث ، وأمهما عفراء ، والثالث : عبد الله بن رواحة - فيما قيل - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهْط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم من حاجة . وفي رواية : فقالوا : أكفاء كِرام ، ولكن أخرجوا إلينا مِنْ بني عمِّنا . ونادَى مناديهم : يا محمد ، أخرجْ إلينا أكْفاءنا من قومنا . فقال النبي ﷺ : « قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقمْ يا حمزة ، وقم يا علي » . فلما دَنَوْا منهم ، قالوا مَن أنتم ؟ تكلموا نعرفكم . فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسول الله ، أنا حمزة بن عبد المطلب . فقال : كفْؤٌ كريم . وقال علي : أنا عبد الله وأخو رسول الله . وقال عبيدة : أنا الذي في الحلفاء . فأمّا حمزة فلم يُمهل شيبةَ أن قتله ، **وأما عليّ فلم يُمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما** بضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذفّفا عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما رضي الله عنه .

---

(١) تشخب : تسيل .
(٢) البداية والنهاية ٣ / ٢٧٢ .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والنسائي في فضائل الصحابة .

فقالت هندُ في ذلك :

أعَيْني جُودي بدمعٍ سَرَبْ على خيرِ خُنْدُفَ لمْ ينقلبْ
تداعَى له رهْطُه غُدْوةً بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبْ
يُذيقونَهُ حدّ أسيافِهِمْ يُعلونه بعدَما قَدْ عَطِبْ

ولهذا نذرت هندُ أن تأكل من كبد حمزة[١].

رضي الله عن أسد الله وأسد رسوله ؛ فكم قتل من رجالاتِ المشركين يوم بدر ومنهم طعيمة بن عدي بن الخيار .

عن سعد بن أبي وقاص : كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أحد بين يديْ رسول الله ﷺ بسيفين ويقول : أنا أسد الله[٢].

وعن جابر بن عبد الله قال : فَقَدَ رسول الله ﷺ يوم أُحد حمزةَ حين فاءَ الناسُ من القتال ، قال : فقال رجل : رأيتُه عند تلك الشجرة وهو يقول : « أنا أسد الله وأسد رسوله »[٣].

قال الضِّرغَامُ - قولًا صدق به ومضَى عليه - : « والذي أَنزل عليك الكتاب لنجالدنَّهم » . فَيقتل حمزةُ يوم أحد أرطأة بنَ عبد شَرْحَبيل بن هاشم بن عبد مناف ، وكان أحد النفر الذين يحملون اللِّواء ، وكذلك قتل عثمانَ بن أبي طلحة كبشَ قريشٍ ، وحاملَ لوائها ، والقائل :

إنّ على أهلِ اللّواءِ حقًّا أن يخَضِبُوا الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقَّا

فحمل عليه حمزة فقتله .

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢) إسناده صحيح ، رواه الحاكم في المستدرك ، وابن سعد ٣ / ١ / ٦ .

(٣) صحيح ، رواه الحاكم في المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه .

كَحمزة لمّا وفّى صادقًا بذي هبة صارمٍ سلجَجِ[١]
فلاقاهُ عبدُ بني نَوْفلٍ يبربرُ كالجملِ الأدْعَجِ
فأوْجَرَهُ حربةً كالشِّهَابِ تلهَّبُ في اللّهبِ المُوهَجِ

قال وحشيُّ بن حرب : مرّ بحمزة سباع بن عبد العزى الغبشاني ، وكان يكنى بأبي نِيارٍ ، فقال حمزة : هلمّ إلّي يا ابن مُقَطِّعة البظور ؛ وكانت أمُّه أمّ أنمار مولاة شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكانت ختّانةً بمكة ، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله ، والله إني لأنظر لحمزة كأنه الجمل الأوْرَق ، يَهُدُّ الناس بسيفه هدًّا ، ما يقوم له شيء .

وعند البخاري من قوْل وحشيّ : « خرج سباع فقال : هل من مبارزٍ ؟ قال : فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال : يا سباع ، يا ابن أمّ أنمار مُقَطِّعَةِ البظور ، أتحادّ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : ثم شدّ عليه ، فكان كأمسِ الذاهب » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : نظروا ، فإذا حمزة قد بُقِرَ بطنُه ، وأخذتْ هند كبده ، فلاكتْها . فلم تستطع هند أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أكلتْ منها شيئًا ؟ » قالوا : لا . قال : « ما كان الله ليُدخل شيئًا من حمزةَ النار »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « لولا جَزَع النساء ، لتركته حتى يُحشر من حواصل الطيْر وبطون السِّباع »[٣].

---

(١) سَلْجَج : طيب لذيذ .
(٢) حسن لغيره ، رواه ابن سعد في الطبقات .
(٣) إسناده حسن لغيره ، رواه ابن سعد في الطبقات .

رضي الله عن أسد الله ، الذي قال فيه عبد الرحمن بن عوف : « قُتل حمزة وهو خير منِّي »[١].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمع رسول الله ﷺ نساءَ الأنصارِ يَبكين على هلكاهُنّ ، فقال : « لكنّ حمزة لا بواكيَ له » . فجئْن فبكين على حمزة عنده ، إلى أن قال : « مروهُنَّ لا يبكين على هالكٍ بعدَ اليوم »[٢].

ولكنّ الإسلامَ وديارَه لا بواكيَ له ولها :

بكى رسول الله ﷺ حمزةَ .. بكَى الفروسية والرجولة « ولكن حمزة لا بواكيَ له » .. وفي واقعنا تَدْمَى القلوب قبل العيون صارخة : « ولكن السيف لا بواكي له » ، « ولكن الأعراض لا بواكي لها » ، « ولكن الإسلام لا بواكي له » .

فكمْ من مسجدٍ جعلُوه ديرًا ... على محرابه رُسِمَ الصَّليبُ
دَمُ الخِنزيرِ فيه لهم خَلُوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيهِ طيبُ

وهذي صرخاتِ طفلةٍ من البوسنة :

في عالمٍ قَطَعَ الرقابَ وأشعَل النيران في صدر العذَارَى المؤمناتْ
في عالمٍ جعَل البطونَ خنادقًا للموت أطلق في بيوت الله رِجْسَ المَعْصِيَاتْ
في عالمٍ فقأَ العيونَ وغاص في دم الصغار وأسكت الصَّلواتْ
في عالمٍ أعطى الكلاب الحقَّ في عِرضِ البناتْ
مِنْ ثدي أمي كان لوْن الدَّمِ يحكي قصة الأهوال في الزمن اللّعينْ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) إسناده قوي : أخرجه أحمد ، وابن ماجه ، وابن سعد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير في « البداية » ٤ / ٤٨ : هو على شرط مسلم .

كفّنتُ بين يديَّ وجهَي وانحنيتُ على التراب أُقبّل الأَب الحنونْ
وقد توارى في قطار الراحلينْ
ومضيتُ عاريةً أُغطي عُرْي نفسي والقطار الأسود الملعونْ
يطوي ليلنا الدامي الحزينْ
الآن يا مولاي في صَمْتِ المنابرْ
يشرب الأوْغاد دم المسلمينْ
الآن يأكل ثَدْيَ أُمِّي ألفُ نخَّاسٍ
ويشرب من دمائي ألف قوّادٍ
ويعبث في مآذننا ضلالُ المُفسدينْ
الآن أرحل في قطار الموْت ألعنُ كلّ خائنْ
مَنْ خان يومًا مسجدًا مَن باع آلاف المآذنْ
لا تسأل البحّارَ حين يموتُ مَن في البحر قد خرقَ السفائِنْ
الآن يا مولاي نرحل في قطار الموت تبكينا المدائنْ
فالكل يا مولاي خائنٌ فالكل يا مولاي خائنْ(١)

في البوسنة : ذبح الآباءُ أمامَ الأبناء ... صَبُّ المسكراتِ بالقوة في أفواه القاصرات وحقنهن بدماء الخنازير قبل الاغتصاب ... امرأة تموت فورًا فيغتصبها جندي صربيّ مباشرةً بعد موْتها ، وكان يقول : لا تزال ساخنة ، يمكنني أن أفعل ذلك : ذبح الآلاف كما تُذبح الشِّياه ، قطْع رؤوسهم بالمنشار الكهربائي ، وتعليق رؤوسهم على جانبي الطُرُق وفي المساجد ... اغتصاب المئات من القاصرات ، ما بين خمسة سنوات إلى اثنتي عشرةَ سنة ... اغتصاب آلاف المسلمات ...

---

(١) رسالة من طفلة مسلمة بالبوسنة .

فالبكاء على حمزة ، على أسد الله ، الذي كان مِدْرَهًا[١] يذود عن الإسلام كلّ كَفُورٍ ، البكاء على حمزة .. البكاء على الإسلام الآن .. **أَشْجَى** :

يا سيدي .. فلأعترِفْ ..
أنّ الجواد الجامحَ المجنون قد خسِرَ الرّهانْ
وبأن أَوحالَ الليالي السُّود
فوق رؤوسنا
صارت ثياب الملك والتيجانْ
وبأنّ أشباه الرجال تحكّموا
وبأنّ هذا العَصرَ للغلمانْ
يا سيدي .. فَلأَعترف
أن المآذن لا تساوي رقصةً
أو هزّ خصرٍ في حمى السلطان
أن الفراشاتِ الجميلة
لن تقاوم خِسَّة الثعبانْ
أن الأُسود تموت حُزْنًا
عندما تتحكم الفئرانْ
أن السَّماسِرة الكبارَ توحَّشوا
باعُوا الشعوبَ وأجهضوا الأوطانْ
ولأَعترف يا سيدي
أني وَفَيْتُ .. وأنّ غيرَي خانْ
أني نزفتُ رحيقَ عمري كي يطلّ الصبحُ
لكنْ خانني الوغْد الجبان

(١) سَيِّدًا .

قتلوا الشباب وصوْلة الفرسانْ
في زمنِ النخاسَة والهوانْ
سجنوا الزهور وفجر العمر قربانا
لأصنام تبيع الإفك جهرًا
في حِمَى الشيطانْ
القدس ترسم وجْه أحمدَ
والملائك حولهُ
والكون يتلو سورةَ الرَّحمـٰنْ
القدس في الأفق البعيدِ
تُطِلُّ أحيانا وفي أحشائها
طَيْفُ ابن زنكيٍّ وحوْله الفرْسانْ
القدس تبدو في ثيابِ الحزنِ
قنديلًا بلا ضوءٍ
بلا نبضٍ .. بلا ألوانْ
تبكي كثيرًا
كلّما حانتْ صلاةُ الفجرِ
وانطفأتْ عيونُ الصبحِ
وانطلق المؤذِّنُ بالأذانْ
القدسُ تسألُ
كيف صار الابنُ سمسارًا وباعَ الأمَّ
في سوق الهوانِ بأرخصِ الأثمانْ
صوتُ المآذِنِ والمنابرِ لم يزلْ
في القدسِ يرفع رايةَ العصيانْ

اللهُ أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
الله أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
الله أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ

* * *

كانت لنا يومًا .. هنا أوطانْ
وطنٌ بلوْنِ الصُّبْحِ كانْ ..
وطنٌ بلون الفرح
حين يجيءُ منتصرًا على الأحزانْ
وطنٌ أضاءَ الكون عمرًا
بالسماحةِ .. والهدايةِ .. والأمانْ
وطنٌ على أرجائه الخضراءِ هَلَّ الوحيُ
في التوراة .. والإنجيلِ والقرآنْ
في كلّ شبرٍ مِن ثَراه
تمهّل التاريخُ .. وانتفضَ الزمانْ
وطنٌ بلونِ الصبح كانْ
يمتد مِن صوْت المؤذنِ
في رُبوعِ الشام .. للسودانْ
ينسَابُ فوق ضفاف دجلةَ ينتشني فيها
ويخشعُ في رُبَا لبنانْ
ويُطِلّ فوق خمائِل الزيتونِ
في بغداد .. في حلب .. وفي عمّانْ
عَيْنَاهُ دجلةُ والفراتُ
جناحُه يمتدُّ في اليمنِ السعيدِ

إلى ضفافِ المغربِ العربي
من أقصى الخليج إلى ذُرا أسوانْ
وُلِد الزمانُ وكبّر الهرمانْ
القلب في سَيْنَاءَ ينبِضُ
يحملُ الوحي المتوّجَ بالجلالِ
فيخسَأُ الشيطانْ
وطنٌ تطوف عليه مكةُ كعبةُ الدنيا
وبيتُ الحقّ .. والإيمانْ
وطنٌ عنيدٌ أيقظَ الدنيا
وعلّمها طريق المجدِ
علّمها آي الذّكرِ
علمّها البيانْ

* * *

وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
ماذا تبقّى منهُ ..
الآن تأكلهُ الكلابُ وترتوي
بالدَّمِ فوقَ ربوعِهِ الديدانْ
الآن ترحل عنه أفواجُ الحمامِ
وَتَنْعَق الغربانْ
الآن ترتع فيه أسرابُ الجرادِ
وتعبثُ الفئرانْ
الآن يأتي الماءُ مسمومًا
ويأتي الخبزُ مسمومًا

ويأتي الحلمُ مسمومًا
ويأتي الفجر مصلوبًا على الجدرانْ
وطنٌ بلون الفرح يبدو الآن محمولًا
على نعشٍ مِنَ الأحزانْ
جسدٌ هزيلٌ في صقيعِ الموتِ
مصلوبٌ بلا أكفانْ
وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
الآنَ ترتحلُ الرجولةُ عن ثَراهُ
ويسقط الفرسانْ
في ساحة الدَّجل الرخيصِ
يغيبُ وجْه الحقِّ
تسقط أمنياتُ العمرِ
يزحَفُ موكبُ الطغيانْ
في ساحةِ القَهْرِ الطويلِ
يضيع صوتُ العدْل
تخبو تسبيحاتُ الفجرِ
تعلُو صيحةُ البهتانْ
وطنٌ بلونِ الصبحِ كانْ
وطنٌ كبيرٌ أنت في عيني
هزيلٌ في ظلامِ السّجن والسجّانْ
وطنٌ جسورٌ أنت في عيني
ذليلٌ في ثياب العجْز والنسيانْ
وطنٌ عريقٌ أنت في عيني
أراكَ الآن أطلالًا

بلا اسم .. بلا رَسْمٍ .. بلا عنوانْ
وطنٌ بلون الصبح كانْ
في أيّ عينٍ
سَوف أحمي وجهَ ابني
بعدما صلبوا صلاحَ الدينِ
يا وطني على الجدرانْ
في أيّ صدرٍ
سوف يسكن قلبُ ابني
بعدما عزلُوا صلاحَ الدينِ
من عَيْنِ الصغارِ .. وتوّجوا ديّانْ
يا للمهانة عندما تغدو سيوف المجدِ
أوْسمةً بلا فرسانْ
يا للمهانة عندما يغدو صلاح الدين
خلفَ القدسِ مطرودًا
بلا أهلٍ .. بلا سكنٍ .. بلا وطنٍ .. بلا سلطانْ
في كل شيء أنت يا وطني مهانْ
مَنْ عَلَّمَ الأسد الأبيّ
بأنْ يُنَكِّسَ رأسه ويهادنَ الجرذانْ
مَنْ عَلَّمَ الفرس المكابرَ
أن يهرولَ ساجدًا في مَوْكب الحملانْ
من علّم القلبَ التقيّ
بأن يبيع صلاته ويعود للأوثانْ
من عَلَّمَ الوطنَ العريقَ

بأن يبيع جنودَه ..
ويقايض الفرسانَ .. بالغلمانْ
مَنْ علّم الوطنَ العزيزَ بأن يبيعَ تُرابَهُ
للراغبين بأبخسِ الأثمانْ
مَنْ عَلَّمَ السيفَ الجسورَ
بأن يُعانِقَ خَصْمَهُ
ويعلِّق الشهداءَ في الميدانْ
يـأيُّها الوطن المهانْ
إني بريء منكَ ..
أيها الزمن الجبانْ[1]
إني بريء منك يا ..
عصرَ الضياع وسطوةَ الخصيانْ
إني بريء منكَ ..
مِنْ كَفُورك والجبانْ

البطل الكرّارُ البَراءُ بن مالك بن النضر ، رضي الله عنه :

قال ﷺ : « كم من أشعثَ أغبرَ ذي طِمرينِ لا يُؤْبَهُ له ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »[2].

كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الجيش : لا تستعملوا البراءَ على جيش ؛ فإنه مهلكة من المهالك ، يقدم بهم .

---

(١) قصيدة « رسالة إلى صلاح الدين » بتصرف ، للشاعر فاروق جويدة .
(٢) صحيح : رواه الترمذي والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٥٧٣ ، تخريج مشكلة الفقر ١٢٥ .

قال الذهبي في السير (١ / ١٩٦) : « بلغنا أن البراءَ يومَ حربِ مسيلمةَ الكذاب أمر أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم ، ويلقوه في الحديقة ، فاقتحم إليهم وشدّ عليهم ، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة ، فجُرح يومئذ بضعةً وثمانين جرحًا ، ولذلك قام خالد بن الوليد عليه شهرًا يداوي جراحه »[١].

لك الله يا براء ، تجادل صناديد الشرك بمفردك في حديقة الموت ، حتى تفتح بابها ، والله ما عقمتْ أمةٌ أنجبتْك .

« وقد اشتُهر أن البراء قَتَلَ في حروبه مائة نفس من الشجعان مبارزةً . وعن ابن سيرين قال : قال الأشعري - يعني في حصار « تُسْتَر » - للبراء ابن مالك : إنْ قد دُلِلنا على سِرْبٍ يخرج إلى وسطِ المدينة ، فانظر نفرًا يدخلون معك فيه . فقال البراء لمجزأة بن ثور : انظر رجلًا من قومك طريفًا جَلْدًا فسمّه لي . قال : وَلِمَ ؟ قال : لحاجةٍ . قال : فإني أنا ذلك الرجل . قال : دُللنا على سرب ، وأردنا أن ندخله . قال : فأنا معك . فدخل مجزأة أولَ من دخل ، فلما خرج من السِّرب شدخوه بصخرة ، ثم خرج الناس من السرب ، فخرج البراء فقاتلهم في جَوْف المدينة ، وقتل رضي الله عنه ، وفتح الله عليهم » .

وعن أنس مرفوعًا قال : « كم من ضعيف مُتضعف ذي طمرين ، لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »[٢].

وإن البراء لقي المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط صـ ١٠٩ ، والإصابة ١ / ٢٣٦ ، والاستيعاب لابن عبد البر ١ / ٢٨٧ .

(٢) أخرجه الحاكم ٣ / ٢٩٢ وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، وابن عبد البر في الاستيعاب .

فقالوا له : يا براء،إن رسول الله ﷺ قال أنك لو أقسمت على الله لأبرّك ، **فأقسمْ على ربك . قال : أقسِم عليك يا رب لمَا مَنَحْتَنَا أكتافَهم ... وذكر** الحديث .

ومنحهم الله أكتاف القوم .

وعند الطبري : اللهم اهزمهم لنا ، واستشهدني[١]. وكان له ما أراد .

قال حمّاد بن سلمة : زعم ثابت ، عن أنس قال : دخلتُ على البراء وهو يتغنّى ويرنّمُ قوسه ، فقلتُ : إلى متى هذا ؟ قال : أتراني أموتُ على فراشي ؟! والله لقد قتلْتُ بضعًا وتسعين[٢].

استشهد الأسد المغوار يوم فتح « تُسْتَر » سنة عشرين .

علَمُ المجاهدين أبو عبد الله جعفر بن أبي طالب ذو الجَناحيْن ، السيِّد الشهيد ، رضي الله عنه :

أوّلُ من عَقَرَ في الإسلام .

قال رجلٌ من بني مُرّة بن عوف : لَكَأنّي أنظر إلى جعفر يوم « مُؤْتة » حين اقتحم عن فرسٍ له شقراءَ فعقرها ، ثم قاتل حتى قتِل[٣].

قال جعفر بعدما عَقَر جوادَه :

يا حبـذا الجنـة واقترابُها   طَيّبـةٌ وبـاردٌ شَرَابُهـا
والرُّوم رُومٌ قد دنا عذابُها   عـلـيّ إنْ لاقيتُهـا ضِرَابُهَـا

عن محمد بن عمر بن علي قال : « ضربه رومي فقطعه نصفين ، فوُجد في

---

(١) تاريخ الطبري صـ٥١٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ٧ / ١ / ١٠ وإسناده صحيح .

(٣) رجاله ثقات ، وإسناده قوي .

نصفه بضعةٌ وثلاثون جرحًا .

وروَى البخاري عن ابن عمر قال : أَمَّرَ رسولُ الله ﷺ في غزوة مؤتة زيدَ بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنْ قُتل زيدٌ فجعفر ، وإن قتلَ جعفرُ فعبد الله بن رواحة » . قال عبد الله : كنتُ فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسْنَا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلَى ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعينَ ، مِن طعنةٍ ورميةٍ .

وعن ابن عمر قال : جمعتُ جعفرًا على صدري يوم مؤتة ، فوجدتُ في مُقدم جسده بضعًا وأربعين من بين ضربةٍ وطعنةٍ[١] .

وفي البخاري عن ابن عمر : أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، فعددتُ به خمسين ، بين طعنةٍ وضربةٍ ليس منها شيء في دُبُره ؛ يعني ظهره .

قال ﷺ : « رأيتُ جعفر بن أبي طالب ملَكًا في الجنة مُضَرَّجةً قوادِمُه بالدماء ، يطير في الجنة »[٢] .

بأبي أنت وأمي يا ذا الجناحين ... تُمسك اللواءَ بيمينك فتقطع يمينُك ، فتمسكه بيسارِك فتقطع ، فتضمّه إلى عضدَيْك .

عبد الله بن رَوَاحَة بن ثَعْلَبَة ، الأمير السعيد الشهيد :

لما جهَّز النبيُّ ﷺ إلى مؤتة الأمراءَ الثلاثةَ ، فقال : « الأمير : زيدٌ ، فإن أُصبتَ فجعفر ، فإن أصيب فابنُ رواحة » .

---

(١) إسناده حسن ، سير أعلام النبلاء ١ / ٢١٠ .

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ٣ / ٢٠٩ ، وقال الحافظ في الفتح : وإسناده جيد ٧ / ٧٦ .

قال عروة بن الزبير : لما تجهز الناس وتهيئوا للخروج إلى مؤتة ، قال للمسلمين : صحبكم الله ، ودفع عنكم . قال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسألُ الرَّحمـٰنَ مغفرةً وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذفُ الزَّبَدَا
أو طعنـةً بيديْ حـرّانَ مُجهزَةً بحـربةٍ تنفذ الأحشـاءَ والكَبِدَا
حتى يقولوا إذا مرُّوا على جَدَثي أرشَدَكَ اللهُ مِن غَازٍ وقد رشَدَا

قال : ثم مَضَوْا حتى نزلوا بأرض الشام ، فبلغهم أن هِرَقْل قد نزل من أرض البلقاء في مائة ألفٍ من الروم ، وانضمت إليه المستعربة من لَخْم ، وجذام ، وبلقين ، وبهرا ، وبلي ، في مائة ألف فأقاموا لَيْلَتَيْن ينظرون في أمرهم . وقالوا نكتب لرسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوِّنا . قال : فشجع عبد الله بن رواحة الناسَ ، ثم قال : والله يا قوم ، إنّ الذي تكرهون لَلّذي خرجتم له ، تطلبون الشهادة ، وما نقاتل العدو بِعُدّة ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلِقوا ؛ فإنما هي إحدَى الحُسْنَيَيْنِ ، إما ظهورٌ وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد – والله – صدق ابنُ رواحة . فمضى الناس .

وفي رواية للوليد بن مسلم : استشار زيدٌ أصحابه ، فقالوا : قد وَطِئْتَ البلاد وأخفتَ أهلَها فانصرِفْ ، وابن رواحة ساكت ، فسأله ، فقال : إنا لم نَسِرْ لغنائم ولكنا خرجنا للِّقاء ، ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عُدَّة ، والرأي : المسير إليهم .

وعن زيد بن أرقم قال : كنت يتيمًا لعبد الله بن رواحة في حِجْرِه ، فخرج في سفْرته تلك مُرْدِفي على حقيبةِ راحلتهِ ، فوالله إنا لنسير ليلةً ، إذ سمعتُه يتمثّل بأبياته هذه :

إذا أَدنيْتني وحملْـتِ رحْلي مسـيرةَ أربعٍ بعد الحِسـاءِ

فشأنُكِ فانعمي وخَلاكِ ذمٌّ ولا أَرْجِعْ إلى أهلي ورائي
وآبَ المسلمون وغادروني بأرضِ الشام مستنهى الثَّواءِ[(١)]
وردّكِ كلّ ذي نسبٍ قريبٍ إلى الرحمٰن منقطعَ الإخاءِ
هنالكَ لا أبالي طَلْعَ بعْلٍ ولا نخلٍ أسافلها رُوَاء

فلما سمعتهن بكيتُ ، قال : فخفقني بالدِّرة ، وقال : ما عليك يا لُكَع أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبتَيْ الرَّحْل .

فأخذ الرايةَ عبدُ الله بن رواحة بعد قتْل صاحبيه ، فجعل يستنزل نفسَه ، ويتردد بها بعضَ التردُّد ، فقال عند ذلك :

أقسمتُ باللهِ لتنزلنَّهْ طائعةً أوْ لتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنَّهْ ما لي أراكِ تكرهينَ الجنهْ
قد طالَ ما قد كنتِ مُطمئنهْ هل أنتِ إلا نطفةٌ في شَنَّهْ

وقال أيضًا :

يا نفسُ إنْ لا تُقتلي تموتي هذا حِمامُ الموتِ قد لَقِيتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ إنْ تفعلي فِعْلَهُما هُدِيتِ
وإن تأخرتِ فَقَدْ شقيتِ

ونزل فلما نزل ، أتاه ابن عمٍّ له بعظمٍ من لحمٍ ، فقال : شُدَّ بهذا صُلْبَك ؛ فإنك قد لاقيتَ من أيامكِ هذه ما قد لقيتَ . فأخذه من يده ، ثم انتهشَ منه نَهْشَةً ، ثم سمع الحِطْمَة في ناحية الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أَخَذَ سيفه ، فقاتل حتى قُتل ، رضي الله تعالى عنه[(٢)].

(١) أيْ : حيث انتهى مثواه ، أي : لا أريد رجوعًا .
(٢) الحلية ١ / ١١٨ - ١٢٠ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٤٣ - ٢٤٥ .

أبو دُجَانَةَ الأنصاري ، سِمَاكُ بن خَرَشَةَ رضي الله عنه :

ثبتَ أبو دجانة يوم أُحد مع النبي ﷺ ، وبايعه على الموت ، وهو ممَّن شارك في قَتْل مسيلمة الكذاب ، ثم استُشهد يومئذٍ .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحدٍ فقال : « مَنْ يأخذ مني هذا ؟ » فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسانٍ منهم يقول : أنا ، أنا . قال : « فمن يأخذه بحقِّه ؟ » فأحجمَ القوم ، فقال سِماك بن خَرَشَةَ أبو دجانة : أنا آخذه بحقّه . قال : فأخذه ، ففلق به هامَ المشركين . رواه أحمد ومسلم .

« قال ابن إسحاق : قاتَل أبو دجانة حتى أمْعَن في الناس . قال ابن هشام : حَدَّثني غير واحدٍ من أهل العلم أن الزبير بن العوَّام قال : وجدتُّ في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنَعَنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ومن قريشٍ ، وقد قمتُ إليه وسألتُه إياه قبله ، فأعطاه أبا دجانة وتركني ، والله لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتَّبعتُه ، فأخرج عصابةً له حمراءَ ، فعصب بها رأسَه ، فقالتِ الأنصار : أخرج أبو دجانة عِصَابة الموت ، وهكذا كانت تقول له إذا تعصّب ، فخرج وهو يقول :

أنا الذي عاهدَني خليلي ... ونحنُ بالسَّفْحِ لدَى النَّخيلِ
أن لا أقومَ الدهرَ في الكَيُّول[1] ... أضربُ بسيفِ اللهِ والرسولِ

فجعل لا يَلقَى أحدًا إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يدعُ جريحًا إلَّا ذفَّف[2] عليه ، فجعل كلٌّ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا فاختلفا ضربتيْنِ ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه

---

(١) الكَيُّول : مؤخر الصفوف .
(٢) أجهز عليه .

بدرَقَتِه ، فعضّتْ بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله »[١] .

رحمك الله ، ورضي عنك يا أبا دجانة .. يا صاحب عِصابة الموت .. يا مَنْ لا تقوم الدهرَ في الكيول بل تفلق هامَ المشركين .

أمّا نحن ، فتُفلق هامُنا .. وتصبغ العصابات من دمانا وأعراض نسائنا .

قد استردّ السبايا كلُّ منهزمٍ ... لم تبقَ في أسْرِهَا إلا سَبَايَانَا
وما رأيتُ سياطَ الذلِّ داميةً ... إلا رأيتُ عليهم لحْمَ أسْـرَانا
وما نموتُ على حدّ الظُّبا أنفًا ... حتى لقـد خجِلَتْ منّا مَنَايانا

عن أنس بن مالك قال : رمَى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة ، فانكسرتْ رجلُه ، فقاتل وهو مكسورُ الرِّجل حتى قُتِلَ رضي الله عنه[٢] .

مَجْزَأَةُ بن ثَوْرٍ السَّدُوسي :

المغوار الذي جعله الله سببًا في فتح « تُسْتَر » .. بعد أن دلّهم رجلٌ من فارس على منفذٍ خفيٍّ ، ونفقٍ تحت الأرض يصل بين النهر والمدينة ، بعد أن طال حصار تُستر ومصاولة المسلمين للمشركين ثمانين مرة . وسار مجزأة على رأس ثلاثمائة من أشجع جندِ المسلمين ، يُصارعون هذا النفق الخطير ويعبرونه ، وابتلع النفق مائتين وعشرين رجلًا ... وانقضَّ مَجزأة سيد بني بكر وصحبه على حُماة الحصن ، وفتحوا الأبواب وهم يكبرون .

هذا البطل العظيم الذي قتل مائةً مبارزةً .. لله درُّ أمٍّ درَّتْ عليه ، وثَدْيٍ أرضعه !

---

(١) البداية والنهاية ٤ / ١٧ - ١٨ .
(٢) أسد الغابة ٢ / ٤٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ١ / ٢٤٤ .

يقول الطبري عن حصار تُسْتَر ، في أحداث سنة سبع عشرة : « قتل البراءُ بن مالك فيما بين أوّلِ ذلك الحصار ، إلى أن فتح الله على المسلمين مائة مبارزٍ ، سوى من قتل في غير ذلك ، وقتل مجزأةُ بنُ ثور مثلَ ذلك ، وقتل كعب بن سور مثل ذلك ، وقتل أبو تميمة مثل ذلك ، في عدةٍ من أهل البصرة ، وفي الكوفيين مثل ذلك ، منهم : حبيب بن قرّة ، ورِبْعيّ ابن عامر ، وعامر بن عبد الأسود – وكان من الرؤساء – في ذلك ما ازدادوا به إلى ما كان منهم »[١].

ثابت بن قيْس بن شمَّاس الخَزْرجي ، خطيبُ الأنصار والبطل الكرّار ، رضي الله عنه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « نِعْمَ الرجل ثابت بن قيس بن شماس »[٢].

وقال له النبي ﷺ : « يا ثابت ، أما ترضَى أن تعيش حميدًا ، وتُقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة »[٣].

« فلما كان يوم اليمامة ، انهزم الناس ، فقال ثابت : أُفٍّ لهؤلاء ولِمَا يعبدون ! وأفٍّ لهؤلاء ولِمَا يصنعون ! يا معشر الأنصار ، خلُّوا سَنَني لعلّي **أصلى بحرِّها ساعةً ، ورجل قائم على ثُلْمَةٍ ، فقتله وقُتل .**

وعن أنس قال : أتيتُ على ثابت بن قيس يوم اليمامة وهو يتحنّط ، فقلت : أي عَمِّ ، ألا ترى ما لقي الناس ؟ فقال : الآن يا ابن أخي .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٠١ طبع دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب ، وقال : حديث حسن . وهو كما قال ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) إسناده قوي ، أخرجه الحاكم ٣ / ٢٣٤ وصححه ، ووافقه الذهبي .

وعن أنسٍ قال : جئتُه وهو يتحنط ، فقلت : ألا ترى ؟ فقال : الآن يا ابن أخي . ثم أقبل ، فقال : هكذا عن وجوهنا نقارعُ القوم ، بئس ما عوّدتُّم أقرانكم ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ، فقاتل حتى قُتل[١].

« وعن أنسٍ : أن ثابت بن قيسٍ جاء يوم اليمامة ، وقد تحنط ولبس ثوبيْن أبيضيْن ، فكُفِّن فيهما ، وقد انهزم القوم ، فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، وأعتذر من صنيع هؤلاء ، بئس ما عوّدتم أقرانكم ، خلّوا بيننا وبينهم ساعة ، فَحَمَلَ ، فقاتل حتى قُتل »[٢].

لك الله يا ثابتُ مِن فارسٍ مغوارٍ وبطل كرّار .. تلبس الكفن ببطولةٍ وفدائية ، وغيرك من أقزام عصرنا أوْلى بلُبْسِ الكفن من الأموات ذلًّا وخِزْيًا وهوانا !!

لقد جفّتْ سواقينا وهَدّ الذل مأْوَانا
ولم يتركْ لنا الأعداءُ غرسًا في أراضينا
سِوىٰ أجيافِ مَوْتانا
أخي إن ضجّ بعد الحرب (يهودي) بأعمالِهْ
وقدّس ذِكْرَ مَن ماتُوا وعظّمَ بَطْشَ أبطالِهْ
فلا تهزجْ لمن سادوا ولا تشمَتْ بمَن دَانا
بل اتبعني لنحفر خندقًا بالرفش والمِعْوَلْ
نُواري فيه موتانا
بل اركعْ خاشعًا مِثلي لنبكي حظَّ موتَانا
أخي مَنْ نحن لا وطن ولا أهل ولا جار

---

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

إذا نِمْنَا إذا قُمْنا ردانا الخزيُ والعارُ
لقد خمّتْ بنا الدنيا كما خُمَّتْ بموتانا
فهاتِ الرّفش واتبعني لنحفرَ خندقًا آخرْ
نواري فيه أحيانا

نعيم بن مالك بن ثَعْلبة ، وهو أَحَد بني سالمٍ ، رضي الله عنه :

في البداية والنهاية (٤ / ١٣ - ١٤) : قال في يوم أُحد للنبي ﷺ : يا نبي الله ، لا تحرمْنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأَدخلنّها . فقال له رسول الله ﷺ : « بِمَ ؟ » قال : بأني أحبُّ الله ورسوله ، ولا أفرّ يوم الزَّحف . فقال له رسول الله ﷺ : « صدقت » . واستُشهد يومئذٍ .

عبد الله بن عمرو بن حَرام ، الصحابي الذي كلّمه اللهُ كِفاحًا :

رزقه الله الشهادة يوم أُحد لمّا تعرض لها .

رأى عبدُ الله بن حرام مبشَّر بن عبدِ المنذر - وكان ممن استشهد ببدرٍ - يقول له : أنت قادمٌ علينا في هذه الأيام . فقصَّها على النبي ﷺ ، فقال : « هذه الشهادة » .

وعن جابرٍ أن أباه قال له : إني مُعرّضٌ نفسي للقتل[1].

وروى البخاري عن جابر قال : لمّا حضر أُحُد ، دعاني من الليل فقال : ما أراني إلّا مقتولًا في أول من يُقتَل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك ، غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ ، وإنّ عليّ دَيْنًا فاقض ، واستوصِ بأخواتك خيرًا . فأصبحنا فكان أول قتيل ...

لله درُّه .. يتعرض للشهادة ويعزم عليها ، ويُوصي ابنه ، وكأنه يرى

(١) فتح الباري ٣ / ٢٥٦ .

الشهادة رأْيَ العين ..

قال جابر : لما قُتل أبي يوم أُحد ، جعلتُ أكشف عن وجهه ، وأبكي ، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني ، وجعلتْ عمتي تبكيه ، فقال النبي ﷺ : « تبكيه أو لا تبكيه ، ما زالت الملائكة تُظلله بأجنحتها حتى رفعتموه »[(١)].

وعن جابر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أخبرك أن الله كلَّم أباك كفاحًا ، فقال : يا عبدي ، سَلْني أُعطِكَ . قال : أسألك أن تردَّني إلى الدنيا ، فأُقتل فيك ثانيًا . فقال : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون . قال : يا ربِّ ، فأبلغْ من ورائي . فأنزل الله ﴿ **ولا تحسبَنَّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بلْ أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] »[(٢)] .

سعد بن الربيع رضي الله عنه :

أَحَدُ النُّقَبَاء ليلةَ العَقَبة .

« لما كان يوْم أُحد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رجلٌ ينظرُ لي ما فعل سعدُ بن الربيع ؟ » فقال رجل من الأنصار[(٣)] : أنا . فخرج يطوف في القتلَى ، حتى وجد سعدًا جريحًا مثبتًا بآخر رَمَقٍ ، فقال : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر : أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟! قال : فإني في الأموات ، فأبلِغْ رسول الله ﷺ السلام ، وقلْ : إن سعدًا يقول : جزاك الله عني خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته ، وأبلغْ قومَك مِني السلام ، وقلْ لهم : إن سعدًا يقول لكم : إنه لا عُذْرَ لكم عند الله إنْ خُلِص إلى نبيّكم

---

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٢٩٨ ، والبخاري (١٢٤٤ ، ٤٠٨٠) ومسلم والنسائي .

(٢) صحيح ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) هو أبيّ بن كعب .

ومنكم عَيْنٌ تَطْرِف »[١].

«وعن مالك بن أنس أن النبي ﷺ قال : « مَنْ يأتينا بخبرِ سعد ؟». فقال رجل : أنا . فذهب يطوف بين القتلَى ، فوجده وبه رمَق ، فقال : بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك . قال : فاذهب فأَقْرِهِ مني السلام ، وأخبره أنني قد طُعنتُ اثنتي عشرة طعنةً ، وقد أنفذت مقاتلي »[٢].

لله دَرُّكَ يا ابن الربيع !

المِقْدَادُ بن عمرو ، فارس بدْر ، رضي الله عنه :

السابق إلى الإسلام ، الفارس يوم الحرب والإقدام ، أعرض عن العمالات ، وآثر الجهادَ والعبادات .

روى البخاريُّ عن عبد الله بن مسعود قال : شهدتُّ من المقداد بن الأسود مشهدًا ، لأَنْ أكون صاحبَه أحبّ إليّ ممّا عُدل به ، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسَى لموسَى : ﴿ **اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون** ﴾ ، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، وبين يديْك وخلفك . فرأيتُ النبي ﷺ أشرق وجهُه ، وسرَّ :

« وعند ابن إسحاق : أن المقداد قال : يا رسول الله ، امضِ لِمَا أراك الله ، فنحن معك لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **اذهبْ أنت وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعِدُون** ﴾ ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرتَ بنا إلى « بَرْكِ الغِماد » ،

(١) الإصابة ٤ / ١٤٤ ، والاستيعاب لابن عبد البر ٤ / ١٤٥ ، والسيرة لابن هشام ٢ / ٩٤ - ٩٥ .

(٢) الموطأ ٢ / ٢١ ، وطبقات ابن سعد ٣ / ٢ / ٧٧ .

لجالدْنَا معك من دونه . حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له »[(١)].

عن أبي راشد الحُبراني قال : وافيتُ المقدادَ فارسَ رسول الله ﷺ بـ« حِمص » على تابوت من توابيت الصيارفة ، قد أفضل عليها من عِظَمِه ، يريد الغزو ، فقلت له : قد أعذر الله إليك . فقال : أبتْ علينا سورة البَحُوث ﴿ **انفرُوا خِفَافًا وثِقَالًا** ... ﴾ [التوبة : ٤١][(٢)].

أبو طَلْحَة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ، وأحدُ أعْيان البدْريِّين ، رضي الله عنه :

هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لصوتُ أبي طلحةَ في الجيش خيرٌ من فِئةٍ »[(٤)].

بربِّك قُلْ لي : إنْ كان هذا حال صوته ، فكيف زَنْدُه ونَبْله ، وسيفه ورمْحُه ؟!

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٦١ ..

(٢) صحيح : أخرجه ابن سعد ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي . وسورة البَحوث هي التوبة ، سُميتْ بذلك لبحثها عن المنافقين وهتْكها لأستارهم .

(٣) صحيح ، رواه الحاكم عن جابر ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ١٢٧٥ ، وصحيح الجامع ٥٠٨١ .

(٤) صحيح ، رواه أحمد والحاكم وابن سعد وأبو نعيم في الحلية والخطيب وابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٨٢ .

عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة كان يرمي بين يديْ رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ ، وكان رجلًا راميًا ، وكان رسول الله ﷺ إذا رمَى أبو طلحة ، رفع بصرَه ينظر أينَ يقع سهمُه . وكان يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ، ويقول : يا رسول الله ، هكذا لا يُصيبك سهم[١] .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم أُحد ، انهزم الناس عن رسول الله ﷺ ، وأبو طلحة بين يديْه مُجَوِّبًا عليه بحَجَفَةٍ[٢] ، وكان راميًا شديد النّزْع ، كسَر يومئذٍ قوسيْن أو ثلاثةً . وكان الرجل يمرّ معه **الجَعْبة من النَّبْل فيقول ﷺ : « انثُرْها لأبي طلحة »**. **ثم يشرف** إلى القوم ، فيقول أبو طلحة : يا نبي الله ، بأبي أنت ، لا تُشرف ، لا يُصيبك سهمٌ ، نَحْري دونَ نَحْرِكَ .

وكان إذا بقي مع النبي ﷺ ، جثا بين يديْه ، وقال : نفسي لنفسك الفداءُ ، ووجْهي لِوجْهك الوِقَاءُ .

« وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال يوم حُنَيْنٍ : « مَنْ قتل قتيلًا فله سَلَبُه » . فقَتل أبو طلحة يومئذٍ عشرين رجلًا ، وأخذ أسْلَابَهم »[٣] .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن أبا طلحة قرأ ﴿ **انفرُوا خِفافًا وثِقالًا** ... ﴾ الآية [التوبة : ٤٢] ، فقال : استنفرنا الله ، وأمَرنا : شيوخَنا وشبابَنا ؛ جهِّزوني . فقال بنوه : يرحمك الله ! إنك قد غزوتَ على عهد رسول الله ﷺ ،

---

(١) أخرجه أحمد ٣ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ وابن سعد ٣ / ٥٠٦ وإسناده صحيح .
(٢) مجوبًا عليه : أي مُتَرِّسًا عليه ، والحجفة : الترس .
(٣) إسناده صحيح ، أخرجه أبو داود ، والدارمي ، وابن سعد ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وأبي بكر ، وعمر ، ونحن نغزو عنك الآن . قال : فغزا البحرَ فمات ، فلم يجدوا جزيرةً يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ، فلم يتغيَّر[١].

عَمرو بن الجَمُوح بن زيد الخَزرجي ، سيِّد بني سَلَمَةَ ، رضي الله عنه :

عن جابرٍ رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يا بني سلمة ، مَن سيِّدكم ؟ » . قالوا : الجدُّ بن قيس ، وإنا لنبخّله . قال : « وأيّ داءٍ أدْوَى مِنَ البخل ؟! بل سيدكم : الجَعْد الأبيض عمرو بن الجَمُوح »[٢].

وأخرج أحمد من حديث أبي قتادة قال : أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إنْ قاتلتُ في سبيل الله حتى أُقتل ، أأمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة ؟ - وكانت رجله عَرْجاء - فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . فقُتلوا يومَ أُحدٍ : هو ، وابنُ أخيه ، ومولًى له . فمرَّ رسول الله ﷺ فقال : « كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة » . فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعِلوا في قبر واحد[٣].

لم يشهد رضي الله عنه بدرًا ؛ كان أعرجَ ، ولما خرج يوم أحدٍ منعه بنوه ، وقالوا : عَذَرك اللهُ . فأتى رسول الله ﷺ يشكوهم . فقال : « لا عليكم أنْ لا تمنعوه ؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة » .

قالت امرأته هندُ أختُ عبد الله بن عمرو بن حرام : كأني أنظر إليه قد أخذ دَرَقَته ، وهو يقول : اللهمَّ لا تردَّني .

---

(١) إسناده صحيح .
(٢) سنده قوي ، أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو نعيم في الحلية .
(٣) قال الحافظ في « الفتح » ٣ / ١٧٣ : سنده حسن .

فلما كان يوم أحد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضُها السمٰوات والأرض ، أعِدَّتْ للمتقين » . فقام وهو أعرج ، فقال : والله لأقْحزَنَّ[1] عليها في الجنة . فقاتل حتى قُتِلَ .

ابنُ أمِّ مَكْتُوم القرشي ، رضي الله عنه :

عن مروان بن الحَكَم ، أن زيد بن ثابتٍ أخبره أن رسول الله ﷺ أملَى عليه (لا يستوي القاعدُون مِنَ المؤمنينَ والمجاهدونَ في سبيل الله ...) فجاءَه ابن أمّ مكتوم ، وهو يُملُّها عليّ ، قال : يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ . وكان أعمَى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخِذُه على فخِذي ، فثقلت عليّ ، حتى خفتُ أن تُرضَّ فخذي ، ثم سُرِّي عنه . فأنزل الله ﴿ **غيرُ أولي الضَّرر** ﴾[2].

وكان رضي الله عنه - بعدُ - يغزو ويقول : ادفعوا إليّ اللواء ؛ فإني أعمَى لا أستطيع أن أفرَّ وأقيموني بين الصَّفَّين[3].

وعن أنس ، أن عبد الله بن زائدة - وهو ابن أم مكتوم - كان يقاتل يوم القادسية وعليه دِرْعٌ له ، حصينة سابغة[4].

قال الواقدي : شَهِدَ القادسية معه الراية ، ثم رجع إلى المدينة فمات بها .

قال الذهبي في « السير » (١ / ٣٦٥) : « قلت : ويقال:استشهد يوم القادسية » .

---

(١) القَحْزُ : الوَثْب .

(٢) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وابن سعد .

(٣) أخرجه ابن سعد .

(٤) أخرجه ابن سعد ٤ / ١ / ١٥٤ .

لله دَرُّكَ يا مؤذِّن رسول الله ﷺ ! حين تشهد الوغَى ، وطَعْنَ الرماح ووقْع الأسنّة ، وتُمسك بالراية وأنت أعمى .. مِن أيّ طينةٍ طاهرةٍ عَطِرة كنتم ، وبأيّ أرحامٍ حُملتم ، ومن أيّ أصلاب خرجتم ؟! لكأنكم أتيتم إلينا من عوالم علوية غير عالمنا هذا !!

فالقادسيَّةُ ما يزالُ حديثُها عِبَرٌ تُضِيءُ بأرْوَعِ الأمثالِ
تَحْكِي مفاخرَنا وتَذكُر مجدَنا فتجيبُها حِطِّينُ بالمِنْوَالِ
صَفَحَاتُ مجدٍ في الخلودِ سطُورُها تاقَ الزمانُ لها بغيرِ جِدالِ

الطِّيِّب المُطيَّب الذي تشتاقُ إليه الجنةُ عمَّار بن ياسر ، رضي الله عنه :

قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاقُ إلى ثلاثةٍ : علي وعمّار وسَلمان »[(١)].

وعن علي رضي الله عنه قال : استأذن عمّار على النبي ﷺ ، فقال : « مَنْ هذا ؟ » قال : عمار . قال : « مرحبًا بالطَّيِّب المُطيَّب »[(٢)].

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مُلِئَ إيمانا إلى مُشَاشِهِ » . يعني عمّارًا[(٣)].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللَّذيْن مِن بعدي ، أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدي عمّار ، وتمسّكوا بعهد

---

(١) حسن ، رواه الترمذي ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٨ .
(٢) صحيح ، أخرجه الترمذي ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده صحيح . رواه النسائي ، والبزار ، وقال الحافظ في الفتح ٧ / ٩٢ : إسناده صحيح . والمُشاش : رؤوس العظام اللَّيِّنة .

ابن أمّ عبد »[١].

وعمار رضي الله عنه هو الذي قال عنه أبو الدرداء رضي الله عنه : « الذي أُجيرَ من الشيطان » .

وقال أبو هريرة : « وعمار الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه » .

قال ابن عمر : رأيت عمَّارًا يوم اليمامة على صخرة ، وقد أشرف يَصيح : يا معشرَ المسلمين ، أَمِنَ الجنة تفرُّون ؟! أنا عمار بن ياسر ، هلمُّوا إليّ . وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قطعتْ فهي تُذبذب ، وهو يقاتل أشدَّ القتال[٢].

وعن طارق بن شهاب : إن أهل البصرة غزوا « نهاوند » ، فأمدَّهم أهل الكوفة وعليهم عمار ، فظفروا ، فأراد أهل البصرة ألا يقْسموا لأهل الكوفة شيئًا ، فقال رجل تميمي : أيها الأجدعُ ، تريد أن تشاركنا في غنائمنا ؟! فقال عمار : خيرُ أذنيّ سَبَبْتَ ؛ فإنها أصيبتْ مع رسول الله ﷺ[٣].

عكرمَة بنُ أبي جَهْل :

الشَّريف الرئيس الشهيد أبو عثمان القرشي المخزومي ، رضي الله عنه .

« قال الشافعي : كان محمودَ البلاءِ في الإسلام . رضي الله عنه .

---

(١) حسن ، أخرجه أحمد ، والترمذي ، وصححه ابن حبان ، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا ، والحاكم وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وأخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » .

(٢) أخرجه ابن سعد ٣ / ١ / ١٨١ .

(٣) إسناده صحيح ، أخرجه ابن سعد ٣ / ١ / ١٨١ - ١٨٢ ، وعبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في السنن ، والبغوي في شرح السنة .

وقال أبو إسحاق السّبيعي : نزل عِكْرمة يومَ اليَرْمُوك ، فقاتل قَتْلًا شديدًا ، ثم استُشهد ، فوجدوا به بضعًا وسبعينَ ، من طعنةٍ ورمْيةٍ وضربةٍ .

وقال عروة وابن سعد وطائفة : قُتل يوم أجنادين »[(١)].

لمّا كان يوم اليرموك ، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل والقَعْقَاع ابن عمرو أن يُنشِئا القتال ، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البِرَاز ، وتنازل الأبطال وتجاولوا ، وحمِي الحرب وقامت على ساقٍ . فنادى عكرمة : « قاتلتُ رسول الله ﷺ في كلّ موطنٍ ، وأفرّ منكم اليوم ؟! مَنْ يبايع على الموت ؟ فبايعه أربعمائة من وُجوه المسلمين وفرسانهم ، فبايعه عمُّه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، فاستبسلوا وقاتلوا قُدَّام فسطاط خالد ، حتى أثبتوا جميعًا جرْاحًا . وأُتي خالد بِعِكْرمة جريحًا فوضع رأسَه على فخِذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسَه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجهيْهما ، ويُقطِرُ الماءَ في حلقيْهما .

فرضي اللهُ عن شهيد اليرموك عكرمة ، الذي قال فيه ابن كثير : « يُقال : إنه لا يُعرف له ذنبٌ بعد ما أسْلَم »[(٢)].

أبو الأعْور ، سعيدُ بن زيْد بن عمرو بن نُفَيل أحدُ العشرة ، رضي الله عنه :

قائد الفرسان يوم أجْنادِين ، وكان من أشد الناس ، وهو الذي أشار على خالد بِبَدْءِ القتال يوم أجنادين لما رمَى الرومُ المسلمين بالنُّشّاب ، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلًا : « عَلامَ نستهدف لهؤلاء الأعْلاج ؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شَمَسَتِ[(٣)] الخيل ؟! » . فأقبل خالد إلى خيل المسلمين ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١١ ، ٧/ ٣٥ ، والطبري ٣/ ٤٠١ .

(٣) امتنعتْ ظهورها عن الركوب .

وقال لهم : « احملوا - رحمكم الله - على اسم الله » . وحمل خالدٌ على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين .. على مَيْمنتهم مرة ، ثمّ على مَيْسرتهم ، ثم صبروا لَرَشْق نبالهم ، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم ، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[١] ، وانهزموا هزيمةً شديدة ، وقتلهم المسلمون كيف شاءُوا ، وأصابوا معسكرهم وما حَوى .

وعند الطبري ، عن ابن إسحاق : « فلما رأى القبقلار[٢] ما رأى من قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثَوْبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يوم البئِيس ، لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ من هذا . فاحْتَزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لَمُلَفَّفٌ » .

ولعلّ أروع بطولاته تلك التي سجّلها يوم اليرموك :

« قال سعيد بن عمرو بن نُفيل : لمّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك ، فخرجتْ لنا الروم بعشرين ومائة ألفٍ ، وأقبلوا علينا بخطًى ثقيلةٍ ، كأنهم الجبال تُحركها أيدٍ خفيّةٌ وسار أمامهم الأساقفةُ والبطارقةُ والقسِّيسُون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات ، فيردِّدُها الجيش من ورائهِمْ ، ولهم هَزِيمٌ كهزيم الرَّعد . فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه ، هالتْهم كثرتُهم ، وخالط قلوبَهم شيءٌ من خوْفهم . عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال ، فقال : عبادَ الله ، انصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم . عباد الله ، اصبروا ؛ فإن الصبر منجاةٌ

---

(١) الفواق : ما بين الحلْبَتَيْن من الوقت ، والمراد : الزمن القصير .
(٢) قائد جيش الروم .

من الكفر ومرضاةٌ للرب ، وَمَدْحَضَةٌ للعار . وأَشرعُوا الرماح ، واستتِرُوا بالتروس ، والزموا الصمتَ إلا من ذكْر الله عز وجل في أنفسكم ، حتى آمركم إن شاء الله .

قال سعيد : عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عُبيدة : إني أزمعتُ[١] على أن أقضي أمري الساعة[١] ، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو عُبيدة : نعم ، تُقرئه مني ومن المسلمين السلامَ ، وتقول له : يا رسول الله ، إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا . قال سعيد : فما إنْ سمعتُ كلامَه ، ورأيتُه يمتشِقُ حُسَامَه ويمضي إلى لقاءِ أعداء الله ، حتى اقتحمتُ[٢] إلى الأرض ، وجثوْتُ على ركبتَّي ، وأشرعتُ رمحي ، وطعنت أوَّلَ فارس أقبَل علينا ، ثم وَثبتُ على العدوِّ ، وقد انتزع الله كلَّ ما في قلبي من الخوْف ، فثار الناس في وُجوه الروم ، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب الله للمؤمنين النصر »[٣] .

« قال حبيب بن سلمَة : اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد ، فللَّه درُّ سعيد ! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد ، لما نظر إلى الروم وخافها ، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيْه ، حتى إذا دَنَوْا منه وثب في وجوههم مثلِ الليْثِ ، فطعن برابته أوَّلَ رجلٍ من القوم فقتله ، وأخذ - واللهِ - يقاتل راجلًا - قتالَ الرجل الشجاع البَأْسِ - فارسًا ، ويعطِفُ الناسُ إليه »[٤] .

---

(١) أزمعتْ : عزمتُ . وأقضي أمري الساعة : أي أموت في هذه الساعة .
(٢) اقتحمت إلى الأرض : رميتُ بنفسي بشدةٍ على الأرض .
(٣) صُور من حياة الصحابة ١ / ١٥٥ - ١٥٨ للدكتور عبد الرحمٰن رأفت الباشا - طبع مؤسسة الرسالة .
(٤) تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٤١ ، الأزدي ٢٢٦ .

حَكِيمُ الأُمَّةِ أبو الدَّرْدَاء :

« قال ابن إسحاق : كان الصحابة يقولون : أَتْبَعُنَا للعلم والعمل أبو الدرداء .

قال سعيد بن عبد العزيز : أسلم أبو الدرداء يومَ بدر ، ثم شَهِدَ أُحُدًا ، وأمَرَه رسول الله ﷺ يومئذٍ أن يَرُدَّ مَنْ على الجبل ، فردَّهم وحْدَه » .

أبو أيُّوب الأنصارَي ، السيّدَ الخزرجي ، النَّجَّاري البدْري :

رفع الله في الخافقيْن ذِكْره ، وأعلى في الأنام قَدْرَه حين اختار بيْتَه مِن دون بُيوت المسلمين جميعًا لينزل فيه النبي ﷺ ، لما حَلَّ في المدينة مهاجرًا ، وحسْبُه بذلك فَخْرًا .

أمّا في شيخوخته فقد كان عجبًا .

وكانت آخر غزَوَاته حين جهَّز معاويةُ جيشًا بقيادة ابنه « يزيد » لفتْح القسطنطينية ، وكان أبو أيُّوب آنذاك شيخًا طاعِنًا في السِّنِّ يحبو نحو الثمانين من عمره ، فلم يمنعه ذلك من لقاءِ العدوّ ، لكنّه لم يمض غيرُ قليلٍ على مُنازَلة العدو ، حتى مرض أبو أيوب مرضًا أقعده ، فأتاه يزيد يعوده ، فقال : حاجتكَ ؟ قال : نعم ، إذا أنا متّ فاركب بي ، ثم تبيّغْ[1] بي في أرض العدوّ ما وجدتَّ مَسَاغًا ، فإذا لم تجد مساغًا ، فادفنِّي ثم ارجعْ ، فلما مات ركب به ، ثم سار به ، ثم دفنه . وكان يقول : قال الله : ﴿ **انفروا خِفافًا وثِقالًا** ... ﴾ الآية [التوبة : ٤١] ، لا أجدُني إلا خفيفًا أو ثقيلًا .

وعند ابن سعد : عن أبي ظبيان ، قال : أغزى أبو أيوب فمرض ،

---

(١) تبيّغ به الدم : أي تردَّد فيه . وفي « الطبقات » ، و« أسد الغابة » ، وابن عساكر : ثم سُغْ،أي : ادخل فيها ما وجدت مُدَّخَلًا .

فقال : إذا متُّ فاحملوني ، فإذا صافَفْتم العدوَّ ، فارموني تحت أقدامكم . أمَا إني سأحدثكم بحديث سمعتُه من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة »(١).

يا له من شَوْقٍ عارم إلى الجهاد ، لا يحدُّه حدٌّ ! فرضي الله عن السيِّد الشيْخ المجاهد ، المدفون تحتِ أسوار القسطنطينية .

أبو الغادية ، الصحابي الذي قَتل بِسَهْمٍ واحدٍ ثلاثمائة رُوميّ في وقتٍ واحدٍ :

لا تعجبْ .. فحياة الصحابة كلُّها أعاجيبُ .

تركْنا البحارَ الزاخراتِ وراءنا   فَمِنْ أينَ يدري الناسُ أنَّى توجَّهنا

قال الذهبي عن أبي الغادية : « مِن وجوه العرب ، وفرسان أهل الشام .

قال عثمان بن أبي العاتكة : رمَى العدوّ الناسَ بالنِّفْطِ ، فقال معاوية : أمَا إذْ فعلوها فافعلوا . فكانوا يترامَوْنَ بها . فتهيَّأ روميٌّ لرمْي سفينة أبي الغادية في طنجير(٢) ، فرماه أبو الغادية بسهمٍ ، فقتله ، وخرّ الطنجير في سفينتهم ، فاحترقتْ بأهلها . كانوا ثلاثمائة . فكان يُقال : رميةُ سهمِ أبي الغادية قتلتْ ثلاثمائة نفسٍ »(٣).

الصحابي الجليل سَلَمَة بن عمرو بن الأكْوَع رضي الله عنه :

قال مولاه يزيد : سمعتُ سلمةَ يقول : بايعتُ رسول الله ﷺ على الموت ، وغزوتُ معه سبعَ ....

---

(١) إسناده قوي ، أخرجه ابن سعد ٣ / ٤٨٤ - ٤٨٥ .
(٢) الطّنجير : قِدرٌ نُحاسي ، مُعرَّب ، وفارسيّته : باتيل .
(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٥٤٥ .

غزَوات[١] .

عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : بيَّتنا هوازن مع أبي بكر الصديق ، فقتلتُ بيديّ ليْلتئذٍ سبعة أهل أبيات[٢] ، وكان شعارُنا تلك الليلة : « أَمِتْ أَمِتْ » .

« وروى مسلم في صحيحه عن سلمة : قدِمنا الحديبيةَ مع رسول الله ﷺ ونحن أربعَ عشرَةَ مائة ، وعليها خمسون شاةً لا تُرْويها . قال : فقعد رسول الله ﷺ على جبَا الرَّكِيَّة[٣] ، فإمّا دعا وإما بصَق فيها . قال : فجاشتْ[٣] ، فسقينا واستقينا . قال : ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيْعَة في أصل الشجرة . قال : فبايعتُه أوّلَ الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسطٍ من الناس ، قال : « بايعْ يا سلمة » . قال : قلت : قد بايعتُك يا رسول الله في أوَّلِ الناس . قال : « وأيضًا » . قال : ورآني رسول الله ﷺ عَزِلًا – يعني ليس معه سلاح – قال : فأعطاني رسول الله ﷺ حَجَفَة أو دَرَقَةً ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس قال : « ألا تبايعني يا سَلمة ؟ » قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أوَّل الناس ، وفي أوسط الناس . قال : « وأيضًا » . قال : فبايعتُه الثالثة ، ثم قال لي : « يا سلمة ، أين حَجَفَتُكَ أو دَرَقَتُكَ التي أعطَيتُك ؟ » قال : قلتُ : يا رسول الله ، لقيني عمّي عامر عَزِلًا فأعطيتُه إيّاها . فضحك رسول الله ﷺ ، وقال : « إنك كالذي قال الأول : اللهم أبغني حبيبًا ، هو أحبّ إليّ من نفسي » . ثم إن المشركين راسلونا الصُّلح ، حتى مشى بعضنا في بعض ، واصطلحنا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي .

(٢) إسناده حسن ، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن سعد .

(٣) الجَبَا : ما حول البئر ، والحوْض . والرَّكِيَّة : البئر . وجاشت : ارتفعت .

قال : وكنتُ تَبيعًا لطلحة بن عُبيد الله ، أسقي فرسَه وأحسُّه وأخدمه ، وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي إلى الله ورسوله ﷺ . قال : فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيتُ شجرةً فكسحتُ شوكها ، فاضطجعت في أصلها . قال : فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضهُم ، فتحولتُ إلى شجرةٍ أخرى ، وعلّقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ، إذْ نادَى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قُتِلَ ابن زنيم . قال : فاخترطتُّ سيفي ، ثم شددتُ على أولئك الأربعة وهم رقودٌ ، فأخذت سلاحهم ، فجعلتُه ضِغثًا في يدي . قال : ثم قلت : والذي كَرَّم وَجْهَ محمدٍ ، لا يرفع أحد منكم رأسَه إلا ضربتُ الذي فيه عيناه . قال : ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمِّي عامرٌ برجل من العَبَلات - يُقال له : « مكرز » - يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : « دعُوهم ، يكن لهم بَدءُ الفجور وثِنَاه » . فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله ﴿ **وهو الذي كفَّ أيْديَهم عنكمْ وأيديَكُم عنهُمْ بِبَطْنِ مكةَ مِن بعدِ أنْ أظفرَكُم عليْهم** ... ﴾ الآية كلّها . قال : ثم خرجنا راجعين إلى المدينة ، فنزلنا منزلًا بيننا وبين بني لِحْيان : جبلٌ ، وهم المشركون ، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رَقِي هذا الجبل الليلة ، كأنه طليعةٌ للنبي ﷺ وأصحابه . قال سلمة : فرقيتُ تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا ، ثم قدمنا المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ بِظَهْره[1] مع « رباح » غلامِ رسول الله ﷺ وأنا معه ، وخرجتُ معه بفرس طلحة ، أندّيه مع الظَّهر ، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمٰن الفَزَارِي قد أغار على ظَهْرِ رسول الله

---

(١) الإبل تُعَدُّ للركوب وحمْل الأثقال .

ﷺ فاستاقه أجمع ، وقَتَل راعيه . قال : فقلت : يا رباح ، خذْ هذا الفرس ، فأبلِغه طلحة بن عبيد الله ، وأخبرْ رسول الله ﷺ أنّ المشركين قد أغاروا على سرحه . قال : ثم قمتُ على أكَمَة فاستقبلتُ المدينة ، فناديتُ ثلاثًا : يا صَبَاحاه . ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنَّبْل ، وأرتجز أقول :

أنـا ابـنُ الأكـوعْ والـيومُ يومُ الرُّضّـعْ

فألحق رجلًا منهم فأصكُّ سهمًا في رحْلِهِ ، حتى خلص نَصْلُ السهم إلى كَتِفِه . قال : قلت : خذْها .

وأنـا ابـنُ الأكـوعْ والـيومُ يوم الرُّضّـعْ

قال : فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم ، فإذا رجع إليّ فارسٌ أتيتُ شجرةً فجلست في أصلها ، ثم رميْتُه فعقرتُ به ، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايُقه ، علوتُ الجبلَ فجعلتُ أُردّيهم بالحجارة ، فما زلتُ كذلك أتبعهم ، حتى ما خَلَقَ اللهُ من بعيرٍ من ظهرِ رسول الله ﷺ إلّا خلّفتُه وراء ظهري ، وخلَّوْا بيني وبينه ، ثم اتبعتُهم أرميهم حتى ألقوْا أكثر من ثلاثين بُرْدةً ، وثلاثين رمحًا يستخفّون ، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلتُ عليه آرامًا من الحجارة ؛ يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى أتوا مُتَضايقًا مـن ثَنِيَّةٍ ، فإذا هم قـد أتاهم فلان بن بدر الفزاري ، فجلسـوا يتضحَّوْن - يعني يتغدّون - وجلستُ على رأسِ قَرْنٍ . قال الفزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البَرْح ، والله ما فارقنا منذ غَلَسٍ يرمينا حتى انتزع كلِ شيء في أيدينا . قال : فليقمْ إليه نفرٌ منكم أربعةٌ . قال : فصعِد إليّ منهم أربعةٌ في الجبل . قال : فلمّا أمكنوني من الكلام ، قال : قلت : هل تعرفونني ؟ قالوا : لا ، ومن أنت ؟ قال : قلت : أنا سلمة بن الأكوع ، والذي كرّم وجه محمدٍ ﷺ لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركتُهُ ، ولا يطلبني رجل منكم

فيدركني . قال أحدهم : أنا أظنُّ . قال : فرجعوا ، فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارسَ رسول الله ﷺ يتخلَّلون الشجر . قال : فإذا أوّلهم : الأخْرم الأَسَدي ، على إثْره أبو قتادة الأنصاري ، وعلى إثْره المقداد بن الأسود الكِنْدي . قال : فأخذتُ بعَنَانِ الأخْرَم . قال : فولّوا مدبرين . قلتُ : يا أخرم ، احذرهم ، لا يقتطعوك حتى يلحَق رسولُ الله ﷺ وأصحابه . قال : يا سلمة ، إن كنتَ تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلمُ أن الجنة حَقٌّ والنَّار حقٌّ ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشَّهادة . قال : فخلّيتُه ، فالتقى هو وعبد الرحمٰن . قال : فَعَقَرَ بعبدِ الرحمٰن فرسَه ، وطعنه عبدُ الرحمٰن فقتله ، وتحوّل على فرسه ، ولحِقَ أبو قتادة فارسُ رسول الله ﷺ بعبد الرحمٰن فطعنه فقتله ، فوالذي كرّم وجه محمد ﷺ ، لتبعتهُم أعدو على رجليّ ، حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمدٍ ﷺ ، ولا غبارِهم شيئًا ، حتى يعدِلوا قبل غروب الشمس إلى شِعْبٍ فيه ماء ، يقال له : ذو قَرَد ؛ ليشربوا منه وهم عِطاشٌ . قال : فنظروا إليّ أعدو وراءهم ، فخلّيْتُهم عنه - يعني أجليْتُهم عنه - فما ذاقوا منه قطرةً . قال : ويخرجون فيشتدون في ثَنِيّةٍ . قال : فأعدو فألحق رجلًا منهم ، فأصكُّه بسهم في نُغْض كَتِفِهِ . قال : قلتُ : خذها .

وأنا ابنُ الأكوعْ   واليومُ يومُ الرّضّعْ

قال : يا ثَكِلَتْهُ أمُّهُ أَكْوَعُهُ بكْرَةَ ؟ قال : قلتُ : نعم يا عدوّ نفسِه ، أَكْوَعُكَ بُكْرَة . قال : وأرادوا فرسين على ثَنِيَّة . قال : فجئت بهما ، أسوقهما إلى رسول الله ﷺ ، ولحقني عامرٌ بسطيحةٍ فيها مَزْقَةٌ من لبنٍ وسطيحةٍ فيها ماءٌ ، فتوضأت وشربتُ ، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي خلّيْتُهم عنه ، فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكلّ شيءٍ استنقذتُه من المشركين ، وكلّ رمحٍ وبُرْدةٍ ، وإذا بلال نَحَرَ ناقةً

من الإبل الذي استنقذتُ من القوم ، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كَبِدِهَا وسَنامها . قال : قلت : يا رسول الله ، خلّني فأنتخبُ من القوم مائةَ رجلٍ فأتّبع القوم ، فلا يبقَى منهم مُخبرٌ إلا قتلتُه . قال : فَضَحِكَ رسول الله ﷺ ، حتى بَدَتْ نَواجِذُهُ في ضوء النار . فقال : « يا سلمة ، أتراكَ كنتَ فاعلًا ؟ » قال : قلت : نعم ، والذي أكرمك . فقال : « إنهم الآن ليُقْرَوْن في أرض غَطَفَان » . قال : فجاء رجل من غَطَفَان ، فقال : نَحَرَ لهم فلان جزورًا . فلما كشفوا جلدَها رأوا غبارًا ، فقالوا : أتاكم القوم . فخرجوا هاربين ، فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ : « كان خيرَ فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخيرَ رَجَّالتِنا سلمَةُ » . قال : ثم أعطاني رسول الله ﷺ سَهْمَيْن : سهمَ الفارس وسهمَ الراجل فجمعهما إلي جميعًا ، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءَه على العَضْبَاء راجعين إلى المدينة . قال : فبينما نحن نسير ، قال : وكان رجل من الأنصار لا يُسبَق شدًّا ، قال : فجعل يقول : ألا مُسابقٌ إلى المدينة ؟ هل من مُسابقٍ ؟ فجعل يُعيد ذلك ، فلما سمعتُ كلامه ، قلت: أما تُكْرِم كريمًا ، ولا تَهاب شريفًا ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسولَ الله ﷺ . قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي وأمي ، ذرني فلأسابقنَّ الرجلَ . قال : «إنْ شئت » . قال : قلت : اذهب إليك . وثنيتُ رجلَيّ ، فطَفَرْتُ فعدوتُ ، فربطت عليه شَرَفًا أو شَرَفَيْن أستبقي نفسي[1] ، ثم عدوتُ في إثْره فربطت عليه شرفًا أو شرفيْن ، ثم إني رفعت حتى ألحقه . قال : فأصكُّه بين كَتِفيْه ، قال : قلتُ : قد سُبِقتَ والله . قال : أنا أظنُّ . قال : فسبقتُه إلى المدينة ... » .

---

(١) أي : حبست نفسي عن الجرْي الشديد . والشرف : ما ارتفع من الأرض . وطفرت : أي وَثَبْتُ .

فيا لبديع صُنع ابن الأكوع !! يطارد جيشًا بمفرده حتى يستردَّ منهم ما سلبوه ، وهو راجلٌ ، بل ويأخذ منهم السَّلَب والغنيمة ، ولا يسمح لهم حتى بشرْب الماء !!

وعلى النقيض .. تطارد ملايينَ العرب شرذمةٌ من اليهود ، تأخذ منهم كل شيء ، ولا تُبقي لهم إلا العطش ، تأخذ أغلى مقدَّساتهم ، ولا تعطيهم إلا الذبح ... وهتْكَ الأعراض وبقْر البطون .. ومع هذا فالمسلمون نائمون .. ومنْ لم توقظْه النوائب وتُعلي همَّتَه .. فليطُلْ نومُه .. فإلى الجماهير الغافلة :

نامي فإنْ لم تشبعي من يقظةٍ فمن المنامِ
نامي على زَبَدِ الوعود يُدَافُ في عسَل الكلامِ
نامي تَزُرْكِ عرائسُ الأحلام في جُنْح الظَلامِ
تتنوّري قرصَ الرغيف كدورةِ البدر التمامِ
وَتَرَي ذرائبَكِ الفِساحَ مُبلّطاتٍ بالرُّخامِ
نامي إلى يومِ النشورِ ويوم يُؤذنُ بالقيامِ
نامي على المُسْتنقَعَاتِ تموجُ باللُّجَجِ الطَّوامي
زخّارةً بشذا الأقاح يمدّه نَفْخُ الخُزَامِ
نامي على قَتْل الرضيع كأنّه سجْعُ الحمامِ
نامي على لون الدماءِ كأنّه شهْدُ الطعامِ
نامي على هتْك النساءِ كأنّه طُهْر التمامِ
نامني على ذبْح الرجال كأنهم أضحَى اللئامِ
نامي على مَهْد الأذَى وتوسَّدي خدَّ الرّغامِ
واستفرشي صُمَّ الحصَى وتلحّفي ظُلَلَ الغمامِ
فالشمس لن تؤذيك بعدُ بما توهَّج من ضِرامِ

والنور لن يُعمي جفونًا قد جُبِلْنَ على الظلامِ
نامي إليك تحيتي وعليك نائمةً سَلامي

فارسُ رسول الله ﷺ ، أبو قتادةَ الحارثُ بن ربعيّ ، الأنصاريّ السّلمِي ، رضي الله عنه :

عن سلمة بن الأكوع ، عن النبي ﷺ : « خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رَجَّالتنا سلمةُ بن الأكوع »[1].

قال أبو قتادة : إني لأغسل رأسي ، قد غسلتُ أحدَ شِقَّيْه إذ سمعتُ فرسي جِرْوَة تصهلُ وتبحث بحافرها ، فقلت : هذه حرب قد حضرتْ ، فقمتُ ولم أغسل شقّ رأسي الآخر ، فركبتُ وعليّ بُرْدةٌ ، فإذا رسول الله ﷺ يصيح : « الفَزَع الفَزَع » . فأُدرك المقدادَ فسايرتُه ساعةً ، ثم تقدّم فرسي ، وكان أجودَ من فرسه ، وأخبرني المقدادُ بقتل مسعدة[2] محرزًا - يعني ابن نضلة - فقلت للمقداد : إما أن أموت أو أقتل قاتلَ محرز . فضرب فرسَه ، فلحقه أبو قتادة ، فوقّف له مسعدةُ ، فنزل أبو قتادة فقتله وجنب فرسه معه ، قال : فلما مرّ الناس تلاحقوا ونظروا إلى بُرْدي فعرفوها ، وقالوا : أبو قتادة قُتِلَ . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، ولكنه قتيل أبي قتادة ، عليه بُرْدُه ، فخلّوا بينه وبين سَلَبه وفرسه » . قال : فلما أدركني ، قال : « اللهم باركْ له في شَعْره وبَشَرِه . أفلح وجهُك ، قتلتَ مسعدةَ ؟ » قلت : نعم . قال : « فما هذا الذي بوجهك ؟ » قلت : سهمٌ رُميتُ به . قال : « فادْنُ مِنّي » ، فبصق عليه ، فما ضربَ عليّ قطّ ، ولا قاح . فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة ، وكأنه ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً . قال : وأعطاني

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد ومسلم .

(٢) زعيم المشركين .

فرسَ مسعدةَ وسلاحَه(١).

وقال أبو قتادة : خرجنا مع رسول الله ﷺ عامَ حنينٍ ، فلما التقينا رأيت رجلًا قد علا المسلمين ، فاستدرتُ له مِن ورائه ، فضربتُه بالسيف على حبل عاتقي ضربَةً قطعت منها الدّرع ، فأقبل عليّ ، وضمّني ضمّةً وجدتُ منها ريحَ الموت ، ثم أرسلني ومات - إلى أن قال -: فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ قتيلًا له بيّنةٌ فله سَلَبُه » . فقمتُ فقلت : مَنْ يشهد لي ؟ وقصصتُ عليه ، فقال رجلٌ : صدق يا رسول الله ، وسلبُ ذلك القتيل عندي ، فأرضِه منه . فقال أبو بكر : لاها الله ! إذًا لا يعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فيعطيك سلبَه . وقال النبي ﷺ : « صدق » . فأعطانيه ، فبعتُ الدّرع وابتعت به مخرقًا في بني سلمة ، فإنه لأول مالٍ تأثلته في الإسلام(٢).

وعند أحمد بإسناد صحيح : فقال عمر : لا يُفيئها الله على أسد من أُسده ، ويعطيكَها . فضحك رسول الله ﷺ ، وقال : « صدق عمر » .

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذْ تأخر عن الراحلة ، فدعَمْتُه بيدي ، حتى استيقظ ، فقال : « اللهمّ احفظْ أبا قتادةَ كما حفظني منذ الليلة ، ما أرانا إلا قد شققْنا عليك »(٣).

وعن عبد الله بن عُبيد بن عُمير أن عمر بعث أبا قتادة ، فقتلَ ملكَ فارس بيده ، وعليه منطقةٌ قيمتُها خمسةَ عشرَ ألفًا ، فنفَلَها إياه ....

---

(١) المغازي للواقدي ، والمعجم الصغير ، والمستدرك ، والاستيعاب ، والإصابة ١١ / ٣٠٣ .

(٢) الموطأ ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي .

(٣) سنده صحيح ، أخرجه الطبراني ، وأحمد ، ومسلم .

عمـر(١).

البطلُ عُكَّاشةُ بن محْصن يقتل فارسَيْن بطعنةٍ واحدةٍ :

وأسدنا عكاشةُ أحدُ السبعِين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

ذكر ابن إسحاق في سيرته أنه أدرك في غزوة الغابة أوْبارًا ، وابنَه عمرَو بن أوْبار ، وهما على بعيرٍ واحدٍ ، فانتظمهمًا بالرُّمحِ فقتلهما جميعًا ، واستنقذ بعض اللقاح(٢).

قاتَل عكاشةُ يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده ، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلًا من حطبٍ ، فقال : « قاتِلْ بهذا يا عكّاشة » . فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه فعاد سيفًا في يده طويلَ القامةِ شديدَ المتْن أبيض الحديدة ، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يُسمّى : العوْن ، ثم لم يزل عنده يشهد به المَشَاهدَ مع رسول الله ﷺ حتى قتله طليحة الأسدي أيامَ الرِّدَّة(٣).

لله ما أعظمَ شوقَهم للشهادة والجنة ! فهذا عُمير بن الحمَام الأنصاري :

يوم بدرٍ يسمع قول رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنةٍ عرضها السمٰوات والأرض » . فقال عمير : يا رسول الله ، جنةٌ عرضها السمٰوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بَخٍ بَخٍ . فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قول : بخٍ بخٍ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءَةَ أن أكون من أهلها . قال : « فإنك مِنْ أهلها » . فأخرج تمراتٍ من قَرنِهِ ،

---

(١) رجاله ثقات .

(٢) مشارع الأشواق ٢/٩٨٥ .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ٢٩٠ .

فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئِن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياةٌ طويلةٌ . قال : فرمَى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتل[١] .

حَرام بن ملحان الأنصاري ، رضي الله عنه :

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « لما طُعِنَ حرام بن ملحان - وكان خاله - يوم بئر معونة قال بالدَّم هكذا ، فنضحه على وجهه ورأسه ، ثم قال : فزتُ وربِّ الكعبة » . أخرجه البخاري .

الله أكبر ... فزت وربِّ الكعبة .

وقالها عامر بن فهيرة ، فأسلم قاتلُه في الحال .

حَنْظَلَةُ غِسِّيل الملائكة :

عن الزبير بن العوام قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول عند قتْل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث ، حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم تغسّله الملائكة ، فسلوا صاحبته عنه » . فقالت : إنه خرج لمّا سمع الهائعةَ وهو جُنُبٌ . فقال رسول الله ﷺ : « لذلك غسّلته الملائكة »[٢] .

الله أكبر ، يستشهَد يوم زفافه ! فهل هناك مثلٌ أعلى للبطولة والشهامة ، والوفاء لدينه ونبيه فوق هذا ؟!

قد كانت ليلةُ المعركة الليلة التي دخل فيها بزوجته جميلة بنت أُبيّ

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن أنس بن مالك .

(٢) حسن ، رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وسكت عليه الذهبي ، وله شاهد مرسل عند البيهقي وشاهدٌ عند أبي يعلى والطبراني في الكبير .

ابن سلول ، كما يقول الواقدي .. يترك زوجه بعد أن تشبثتْ به ، فيتركها ليمضي على عَجَلٍ ، ليخوض معركةً طاحنة رهيبة .. وقد كاد هذا البطل أن يَقتل أبا سفيان قائد عام المشركين ، وحَمَل عليه ، وبعد أن عقر فرس أبي سفيان وقع أبو سفيان علىٰ الأرض ، فعلاه حنظلةُ ليذبحه .. فسارَع شدادُ بن الأسود الملقّب بابن شعوب ، فضرب حنظلةَ فقتله وهو بارِكٌ على صدر أبي سفيان[1] .

أنس بن النَّضر :

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : « غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدرٍ ، فقال : يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتالٍ قاتلت المشركين ، لئن أشهدني الله قتالَ المشركين ، لَيرينَّ الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنةَ وربِّ النضر ، إني أجد ريحها من دون أُحدٍ . قال سعد : فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين : ضربةً بالسيف ، أو طعنةً برمح ، أو رميةً بسهمٍ ، ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّل به المشركون ، فما عرفه أحدٌ إلا أُختُه ، ببنانِهِ . قال أنس : كنا نرى - أو نظنُّ - أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ... ﴾ إلى آخر الآية »[2] .

سَيِّد الأنصارِ سعد بن معاذ ، رضي الله عنه :

رضي الله عن السيِّد البطل ، الذي قال للرسول ﷺ في يوم بدر

---

(١) انظر سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لبشاميل « أحد » صـ ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) أخرجه البخاري .

لما قال : « أشيروا عليّ أيُّها الناس » . قال : واللهِ لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أَجَل » . قال : فقد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودَنَا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضتَّ بنا البحر لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلّ الله أن يُرِيَكَ منا ما تَقَرّ به عينُك ، فسرْ على بركةِ الله .

قال ابن إسحاق : فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتيْن ، واللهِ لكأني أنظر إلى مَصَارِع القَوْمِ »[1].

« واللهِ لا نُعطيهم إلا السَّيْف » :

كلماتٌ لسعد بن معاذ تسطَّر بمدادٍ من نور في تاريخ أمتنا .

لما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة ، وكادت تغرق القِلة المؤمنة ، أراد رسول الله ﷺ أن يعقد صلحًا منفردًا بينه وبين غَطَفَان ، وسيديْها : عيينة بن حِصن والحارث بن عوف ، على أن تفكّ غطفان الحصارَ عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزابَ ، على أن يعطيهم رسول الله ﷺ ثلثَ ثمار نخْل المدينة ، واستشار رسول الله السعديْن ، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم - يعني غطفان - لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة ، إلا قِرًى[2] أو بيْعًا ، وإن كانوا ليأكلون العِلْهز[2] في

(١) البداية والنهاية ٣ / ٢٦١ .
(٢) القِرَى : الضيافة ، والعلهز : وبر يُخلط بدماءِ الحَلَم ، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجَدْب .

الجاهلية في الجهد ، أَفَحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، أعزّنا بك وبه ، ونُقطعهم أموالنا ؟! ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . ثم خرج سعد إلى سيِّدَيْ غطفان وقد رفع صوته في تحدٍّ : ارجعا ، ليس بيننا وبينكم غير السيف .

يا للرجال ! في وقتٍ بلغتْ القلوب الحناجر من شدّة الكرْب وتقاطُر البلايا ؟! كلمات تصدر من فمِ الصادق سعد ، تتفجّر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأَنَفَة ، فتبثُّ الأملَ في نفوس المسلمين ، وتُدهش سيِّدَيْ غطفان ؛ فيفيقوا ، ويعلّمهم سعد أن الذي يصنع النصر قوةُ العقيدة ، وزخم الإيمان بالله والثقة به .

الأنصارُ أكثرُ الناس شهيدًا :

قال ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (١ / ١١٨) : « رجالُ الأنصار أشجعُ الناس . قال عبد الله بن عباس : ما استُلَّتْ السيوف ، ولا زحفتِ الزحوف ، ولا أقيمتِ الصفوف ، حتى أسلم ابنا قيْلة ، يعني الأوس والخزرج ، وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر ، من الأزد » .

عن قتادة قال : « ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيدًا ، أعزَّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحدٍ سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب »(١).

وعن أنس أنه كان يقول : يا ربّ،سبعين من الأنصار يوم أحد ،

(١) أخرجه البخاري .

وسبعين يوم بئر معونة ، وسبعين يوم مسيلمة الكذاب ، وسبعين يوم جسر أبي عبيدة .

سعد بن خَيْثمة الأنصاري رضي الله عنه :

أحد نقباء الأنصار الاثني عشر ، شهد العقبة الأخيرة مع السبعين ، ولما ندب رسول الله ﷺ الناسَ إلى غزوة بدر قال لهُ أبوه خيثمة : إنه لا بدّ لأحدنا أن يقيم ، فآثِرني بالخروج وأقمْ مع نسائِك . فأبى سعد ، وقال : لو كان غير الجنة آثرتك به ؛ إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا . فاستَهما ، فخرج سهمُ سعد ، فخرج فقتِل ببدرٍ[1] .

أبو عَقيل عبد الرحمٰن بن ثعْلبة الأنصاري ، رضي الله عنه :

بدريّ ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

روى ابن الجوزي ، عن جعفر بن عبد الله بن أسلم ، قال : لما كان يوم اليمامة واصطفّ الناس ، كان أول من جُرح أبو عَقِيل ، رُمِي بسهمٍ ، فوقع بين منكبيْه وفؤادِه في غير مَقتل ، فأخرج السهم ووهَن له شقّه الأيسر في أول النهار ، وجُرّ إلى الرَّحل . فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم - وأبو عقيل واهِن من جُرحه - سُمع معن بن عدي يصيح : يا لَلأنصار ، اللهَ اللهَ والكرّةَ على عدوّكم . قال عبد الله بن عمر : فنهض أبو عَقيل يريد قومه ، فقلت : ما تريد ؟! ما فيك قتال . قال : قد نوّه المنادي باسمي . قال ابن عمر : فقلت : ماذا تريد ؟! ما فيك قتال . قال : قد نوَّه المنادي باسمي . قال ابن عمر : فلت له : إنما يقول : يا لَلأنصار . ولا يعني الجرحى . قال أبو عَقيل : أنا من الأنصار ، وأنا أجيبه ولو حَبْوًا . قال

---

(١) صفة الصفوة ١ / ٤٦٨ .

ابن عمر : فتحزّم أبو عَقيل وأخذ السيف بيده اليمنى ، ثم جعل ينادي : يا لَلأنصار ، كرّةً كيومِ حُنين ، فاجتمِعوا رحمكم الله جميعًا ، تقدّموا فالمسلمون دريئة دون عدوّهم . حتى أقحموا عدوّهم الحديقة ، فاختلطوا واختلفتِ السيوف بيننا وبينهم . قال ابن عمر : فنظرتُ إلى أبي عَقيل وقد قُطعت يده المجروحة من المنكب فوقعتْ إلى الأرض ، وبه من الجراح أربعةَ عشرَ جرحًا ، كلّها قد خلصتْ إلى مقتل ، وقُتل عدوّ الله مسيلمة . قال ابن عمر : فوقفتُ على أبي عَقِيل وهو صريعٌ ، بآخر رَمَقٍ ، فقلت : يا أبا عَقيل . قال : لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدّبرَة ؟ قلت : أبشِر ، قد قُتل عدو الله . فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله . ومات يرحمه الله .

قال ابن عمر : فأخبرت عمر ، بعد أن قدِمت ، خبره كله . فقال : رحمه الله ، ما زال يسعى للشهادة ويطلبها ، وإن كان - ما علمتُ - من خِيار أصحَاب نبينا ﷺ ، وقديم إسلامهم ، رضي الله عنه[1] .

« لقد كان يوم اليمامة يومًا من أيام الله .. يوم عَلَتْ فيه الهمم ، حمي البراء بن معرور .. وكان إذا رأى الحرب أخذتْه العرواء ، فيجلس على ظهر الرجال حتى يبول في سراويله ، ثم يثور كما يثور الأسد ، وقاتلتْ بنو حنيفة قتالًا لم يعهد مثله ، وجعلتِ الصحابة يتواصوْن بينهم ، ويقولون : يا أصحابَ سورة البقرة ، بطل السِّحر اليوم . وقال زيد بن الخطاب : أيّها الناس ، عَضُّوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوّكم ، وامضوا قدمًا . وقال : والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله ، أوْ ألقى الله فأكلمه بحُجَّتي . فقُتل شهيدًا ، رضي الله عنه . وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن ، زيّنوا القرآن بالفعال . وحملَ فيهم حتى أبعدهم ، وأصيب ، رضي الله عنه . وحَمَل

(١) صفة الصفوة ١ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

خالد بن الوليد حتى جاوزهم ، ورجع ثم وقف بين الصفيْن ودعا للبِراز ، وقال : أنا ابن الوليد العوْد ، أنا ابن عامرٍ وزيد . ثم نادَى بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذٍ : يا محمداه - وجعل لا يبرز له أحدٌ إلا قتله ، ولا يدنو منه شيءٌ إلا أكلَه ، وميّز خالدٌ المهاجرين من الأنصار من الأعراب ، وكل بني أب على رايتهم ، يقاتلون تحتها ، حتى يعرف الناس من أين يُؤْتَوْن ، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يُعهد مثلُه ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوّهم حتى فتح الله عليهم ، وولّى الكفار الأدبارَ ، واتّبعوهم يقتلون في أقفائهم ، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا ، حتى أَلجَئُوهم إلى حديقة الموت ، وقد أشار عليهم محكم اليمامة - وهو محكم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها ، فدخلوها وفيها عدوّ الله مُسيلمة لعنه الله ، وأدرك عبدُ الله بن أبي بكر محكمَ بن الطفيل فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله ، وأغلقتْ بنو حنيفة الحديقة عليهم ، وأحاط بهم الصحابة . وقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة . فاحتملوه فوق الجحفِ ، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها ، يقتلون مَن فيها من المرتدّة من أهل اليمامة ، حتى خلصوا إلى مُسيلمة لعنه الله ، وإذا هو واقفٌ في ثلمةِ جدارٍ كأنه جملٌ أوْرق ، وهو يريد يتساند ، لا يعقل مِن الغيظ ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزبَدَ ، حتى يخرج الزَّبد من شِدْقيْه ، فتقدم إليه وحشيُّ بن حرْب مولى جُبَيْر بن مُطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه وخرجتْ من الجانب الآخر ، وسارع إليه أبو دُجانة سِمَاك بن خَرشة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادتْ امرأةٌ من القصر : واأمير الوضاءة ، قتله العبد الأسود . فكان جملةُ من قُتلوا في الحديقة وفي المعركة قريبًا من عشرة آلاف مقاتل ،

وقيل : واحدٌ وعشرون ألفًا »[1].

قال ضرار بن الأزور البطل في غزوة اليمامة :

فَلَو سُئِلَتْ عَنَّا جَنوبٌ لأَخْبرتْ ... عَشِيَّةَ سَالَتْ عَقِرباءُ ومُلْهَمُ
وسال بفرع الوادي حتى ترقرقتْ ... حجارتُهُ فيه من القوم بالدَّمِ
عشيةَ لا تُغني الرماحُ مكانها ... ولا النَّبْلُ إلا المشرفيُّ المُصَمِّمُ
فإن تبتغي الكفارَ غير مسيلمٍ ... جَنوبٌ فإني تابعُ الدين مُسْلِمُ
أُجاهدُ إذْ كانَ الجهادُ غنيمةً ... ولله بالمرءِ المجاهد أَعلمُ

أبو يحيىٰ صُهَيب الرومي ، الرابح بيْعه :

عن حماد بن سلمة : حدثنا عليُّ بنُ زيد ، عن ابن المسيِّب ، قال : أقبل صُهَيبٌ مُهاجرًا ، واتَّبعه نفرٌ ، فنزلَ عن راحلته ، ونَثَل كِنَانَتَهُ ، وقال : لقد علمتم أني من أرماكم ، وأيمُ الله ، لا تَصِلون إليَّ حتى أرمي بكلّ سهمٍ معي ، ثم أضربُكم بسيفي ، فإن شئتُم دللتُكم على مالي ، وخلَّيتُم سبيلي ؟ قالوا : نفعل . فلما قَدِمَ على النبي ﷺ قال : رَبِحَ البيعُ أبا يحيى . ونزلتْ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ** ... ﴾.

وفي رواية أخرى : « أخرج منها أربعين سهمًا ، فقال : لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا ، ثم أصيرُ بعدُ إلى السيف ، فتعلمون أني رجلٌ » .

وعن أنس : « ونزلتْ على النبي ﷺ ﴿ **وَمِنَ الناسِ مَن يشري نفسه ابتغاءَ مرضاتِ الله** ... ﴾ الآية ، فلما رآه النبي ﷺ ، قال : « يا أبا يحيى ، رَبِحَ البيعُ » . قال : وتلا عليه ....

(١) البداية والنهاية ٦ / ٣٢٩ - ٣٣٠ .

الآيـة »[١].

عبدُ الله بن أُنيس البطل ، قاتل خالد بن سفيان الهذَلي :

ذكر البيهقـي في الدلائل : « عـن عبد الله بن أنيس قال : دعـاني رسول الله ﷺ فقال : « إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغـزوني ، وهو بعُـرَنة ، فائتِه فاقتلْه » . قال : قلت : يا رسول الله ، انعتْه لي حتى أعرفه . قال : « إذا رأيتَه وجدتَّ له قشعريرة » . قال : فخرجتُ متوشّحًا سيفي ، حتى وقعتُ عليه وهو بعرنة مع ظعْنٍ يرتادُ لهُـنَّ منزلًا ، وحين كان وقت العصر فلما رأيته ، وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة ، فأقبلتُ نحوه ، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلـني عن الصـلاة ، فصلّيت وأنا أمشي نحوه أومىء برأسي للركوع والسجود ، فلما انتهيتُ إليه قال : مَنِ الرجل ؟ قلت : رجلٌ من العرب ، سمع بك وبجمْعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك . قال : أجَل ، أنا في ذلك.قال : فمشيتُ معه شيئًا ، حتى إذا أمكنني ، حملتُ عليه بالسيف حتى قتلتُه ، ثم خرجتُ وتركتُ ظعائنه[٢] مُكِبّاتٍ عليه ، فلما قدِمتُ على رسول الله ﷺ فرآني قال : « أفلح الوجه » . قال : قلت : قتلتُه يا رسول الله . قال : « صدقت » . قال : ثم قام معي رسول الله ﷺ فدخل في بيته ، فأعطاني عصا ، فقال : « أمسِكْ هذه عندك يا عبد الله بن أنيس » . قال : فخرجتُ بها على الناس ، فقالوا : ما هذه العصا ؟ قلت : أعطانيها رسول الله ﷺ ، وأمرني أن أُمسكها . قالوا : أوَ لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك .

---

(١) صحيح ، أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه .

(٢) نساؤه .

قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟ قال : « آية بيني وبينك يوم القيامة . إن أقلّ الناس المنحصرون يومئذ » . قال : فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه ، حتى إذا مات أُمِرَ بها فضُمّتْ في كفنه ، ثم دُفِنَا جميعًا »[1].

قال عبد الله بن أنيس في قتْله خالد بن سفيان :

تركتُ ابنَ ثورٍ كالحوار وحولَهُ ... نوائحُ تفري كلّ جَيبٍ مُعـدَّدِ
تناولتُه والظعـنُ خلفي وخلفَـهُ ... بأبيضَ مِنْ ماءِ الحديد المُهَنَّدِ
أَقـولُ له والسيفُ يعجمُ رأسَـهُ ... أنا ابنُ أنيسٍ فارسٌ غيرُ قعددِ
أَنا ابنُ الذي لم ينزل الدهر قدرَهُ ... رحيبُ فنـاءِ الدار غـيرُ مـزنّدِ
وقلـتُ له خذهَـا بضرْبةِ ماجدٍ ... خفيفٍ على دين النبيّ محمَّـدِ
وكنـتُ إذا هَـمَّ النبـيُّ بكافـرٍ ... سبقـتُ إليه باللّسـان وباليَدِ[2]

أبو سنان وهب الأسدي ، أوَّلُ مَن بايع تحت الشجرة :

يا له من سبّاق إلى الخير .. بلغت همته فوق الثريا !!

أنتَ تدري أيّهـا الحـيرانُ عنّـا ... كيفَ فوقَ الشمسِ أزمانًا حَلَلْنَا

عن الشّعبي : أنّ أول من بايع رسولَ الله ﷺ بيعةَ الرضوان أبو سنان الأسدي .

« وأخرج الحميدي ، عن الشعبي قال : لما دعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعـة ، **كان أول من انتهـى إليه أبو سنان ، فقال : ابسـطْ يدَكَ أبايعك** . فقال النبي ﷺ : « علامَ تبايعني ؟ » فقال أبو سنان : على ما في .....

---

(١) رواه أحمد بلفظه ، وأخرجه أبو داود مختصرًا والبيهقي بلفظ أحمد ، وقال الساعاتي في الفتح الرباني ٧ / ٢٨ : حسَّنَ الحافظ إسناده .

(٢) البداية والنهاية ٤ / ١٤٣ .

نفسـك »[١].

يا الله .. « على ما في نفسك » .. تُغني عن أيِ تعليق !

أمير المؤمنين ، وفارسُ الخلفاء ، وابن الحواري أبو خبيب عبد الله بن الزبير ابن العوّام ، رضي الله عنه :

عن عثمان بن طلحة قال : كان ابن الزبير لا ينازَع في ثلاثة : شجاعة ، ولا عبادةٍ ، ولا بلاغةٍ[٢].

شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة مع أبيه ، فلما انهزم الروم يوم اليرموك ، جعل يُجْهز على جَرْحاهم[٣].

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح طرابلس ، أمر الخيل بالإسراع إلى « صبراته » لفتحها ، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ، فصبحوها من ليلتهم على غرّةٍ ، فوجدوا أبواب السور مفتوحةً وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى ، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ، ولم يهرب منهم أحد إلا من ركب البحر هاربًا إلى صقلية ، وهدَم المسلمون سورها خوفًا من تحصُّن الروم به مرةً ثانية ، وغنموا كلّ ما فيها ، وكان شيئًا كثيرًا .

قَتْل عبدِ الله بن الزبير لملك إفريقية « جُرْجِير » :

وشهد ابن الزبير فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان ، تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وكان الفتح على ....

---

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٣١٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٧٠ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٣٩٦ - ٣٩٧ .

يـديْـه[١] .

قال ابن الزبير : هَجَمَ علينا جُرْجِيرُ في عشرين ومائة ألف ، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا[٢] .

« سيّر عثمانُ ابنَ الزبير في جماعة إلى إفريقية ، سنة ستٍ وعشرين الهجرية ، ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مُجِدًّا حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ، ولما وصل كثُر الصِّياحُ والتكبير في المسلمين ، فسأل « جُرْجِيرُ » ملكُ إفريقية عـن الخبر ، فقيل : « قد أتاهم عَسْكرٌ » . ففتَّ ذلك في عضُده ... ورأى عبد الله قتالَ المسلمين كلّ يوم ، من بكْرةٍ إلى الظهر ، فلما أذّن سمع منادي « جُرجير » يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألفِ دينارٍ ، وأزوِّجه ابنتي . فخاف عبد الله بن سعد على نفسه ، فحضر ابن الزبير عند عبد الله بن سعد وقال له : تأمر مناديًا ينادي : مَن أتاني برأس « جُرجير » نفلْتُه مائة ألفٍ ، وزوّجتُه ابنتَه ، واستعملته على بلاده . ففعل ، فصار « جرجير » يخاف أشدَّ مِن عبد الله بن سعد . ثم إن عبد الله ابن الزبير قال لعبد الله بن سعد : إنّ أمْرَنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمدادٍ متَّصِلةٍ وبلادٍ هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيتُ أن نترك غدًا جماعةً صالحةً من أبطالِ المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العَسْكَر إلى أن يضجروا ويَملّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرّةٍ ، فلعلّ الله ينصرنا عليهم . فأحضر ابن سعد جماعةً من أعْيَان الصحابة واستشارهم ،

---

(١) الإصابة ٤ / ٧١ .

(٢) السير ٣ / ٣٧١ .

فوافقوه على ذلك .

وفي صباح الغد نفّذ ابن سعدٍ خطّةَ ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجةٌ ، ومضَى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالًا شديدًا ، فلما أذّن بالظهر وهمّ الروم بالانصراف على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكلٌّ من الطائفتين ألقى سلاحَه ووقع تعبًا .. عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحدٍ . وكبّروا ، فلم يتمكن الروم من لُبْس سلاحهم حتى غَشِيَهم المسلمون ، ونظر عبد الله فرأى « جُرجير » وقد خرج من عسْكره ، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله »[1] .

فقد رأى ابن الزبير « جُرجير » وراءَ عسْكره على برذون أشهب ، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسْكره أرضٌ بيضاء ليس فيها أحدٌ ، فاختار ثلاثين فارسًا من المسلمين وأخذهم معه ... ثم حَمَلَ في الوجه الذي فيه « جُرجير » ، وقال للفرسان الذين معه : احمُوا ظهري ... فخرق الصف إلى جرجير ، وخرج صامدًا له ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسولٌ إليه ، حتى دنا منه ، فعرف الشرّ ، فثنى بِرْذَوْنه مُولِّيًا ، ولكنّ ابن الزبير أدركه فطعنه ، ودافّه[2] بالسيف ، وحزّ رأسَه ، ونصبه في رمح ، وكبّر ... فحمل المسلمون من الوجه الآخر ، فانهزم العدو في كلّ وجهٍ ، ومنح الله المسلمين ....

(١) أسد الغابة (٣ / ١٦٢) ، وابن الأثير (٣ / ٣٤) .
(٢) دافّ مدافّة ودفافًا : أي أجهز عليه .

أكتافهم[١].

وانهزم الروم بعد أن قتل ابنُ الزبير « جرجير » ، فقتل المسلمون منهم مقتلةً عظيمةً ، وأُخِذَتْ ابنة « جُرجير » سبيةً ، فنفّلها ابن الزبير ، وكان سهمُ الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهمُ الراجل ألف دينارٍ . ولما أراد ابن أبي سرح أن يبشّر عثمان بالفتح ، قال لابن الزبير : أنت أَوْلى بهذا . فأرسله إلى عثمان بشيرًا ، فأخبره بما فتح الله عليه ، فأمره عثمان أن يخطب ، فلما خطب قال عثمان : كأنه أبو بكر[٢].

قال الذهبي في السير (٣ / ٣٧٧) : « قد كان يُضرب بشجاعته المثل » .

قاتل يوم الدار دفاعًا عن عثمان ، فجرح بضعة عشر جرحًا غائرة ، يقول : وإني لأضع اليوم يدي على بعضِ تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خيرَ أعمالي .

يقول رجلٌ من أهل حمص ، يصف يوم ابن الزبير الأخير ، قال : « رأيته يوم الثلاثاء ، وإنا لنطّلع عليه ، أهل حمص خمسمائة خمسمائة ، من باب ندخله لا يدخله غيرنا ، فيخرج إلينا وحده في أثرنا ، ونحن منهزمون منه ، ولقد رأيته يقف بالأبطح ، ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننا أنه لا يُقتل »[٣].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧ / ٤٠١ - ٤٠٢) .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٧ / ٤٠٢ ، وقادة فتح المغرب العربي صـ ٤١ - ٤٣ للواء الركن محمود شيت خطاب .
(٣) تاريخ الطبري ٥ / ٣٣ .

« وكان رضي الله عنه يقول :

جلسنا على الأعقاب تدْمي كُلُومُنَا ولكنْ على أقدامنا تقطر الدَّمَا

ولما قُتل وقف عليه الحجاج وطارق بن عمرو ، فقال طارق : ما ولدتِ النساءُ أذْكَرَ مِن هذا . فقال الحجاج : تمدح مَن يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ، هو أعذر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عذْر ، إنا مُحَاصِرُوه ، وهو في غير خندقٍ ولا حِصنٍ ولا منعةٍ منذ سبعةِ أشهر ، ينتصف منّا ، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو . فبلغ كلامُهما عبدَ الملك ، فصوّب طارقًا »[١] .

بُسْر بن أرْطاة القرشيّ :

كان فارسًا ، شجاعًا ، فاتكًا ، من أفراد الأبطال ، وكان له نكايةٌ في الروم .

« لقد كان بسرٌ على جانبٍ عظيمٍ من الشجاعة والإقدام ، وكان من أُسود العرب .

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، بعد فتح مصر أن افرضْ لمن شهد بيعة الحديبية - أو قال : بيعة الرضوان - مائتيْن من الدنانير ، وأتِمّها لخارجةَ بن حذَافة لضيافته ، ولبُسْر بن أرطاة لشجاعته .

وفي روايةٍ عن عمر بن الخطاب : جعل لعمرو بن العاص مائتيْن ؛ لأنه أمير ، ولبُسر مائتيْن ؛ لأنه صاحب سيف .

وقال عمر بن الخطاب عن بسرٍ : رُبَّ فتحٍ قد فتحه الله على يديْه »[٢] .

(١) الطبري ٥ / ٣٣ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٢٢٢ .

وانظر - بربك - إلى واقعةٍ أغربَ من الخيال :

« غَزَا بُسر الروم مرةً ، فكانت ساقته[1] لا يزال يُصَاب منها طرفٌ ، فجعل يلتمس أن يصيب الذين يلتمسون عوْرة ساقتِه ، فيكمن لهم الكمينَ ، فلم تُصب كمائنُه ولم تَظفر ، فلما رأى ذلك تخلّف في مائةٍ من جيشه ، ثم جعل يتأخر حتى تخلّف وحده ، فبينما هو يسير في بعض أوْدية الروم ، إذْ رُفع إلى قريةٍ فيها جَوْزٌ كثيرٌ ، وإذا براذين مربوطةٌ بأشجار الجوْز ، وإلى جانب الأشجار كنيسةٌ فيها فرسان ، وكانت تلك براذين الذين كانوا يتعقبونه في ساقتِه ، ونزل « بُسْر » عن فرسه فربطه مع تلك البراذين ، ثم مضى حتى أتى الكنيسة ، فدخلها ثم أغلق عليه وعليهم بابها ، فجعلتِ الروم تعجب من إغلاقه وهو وحده ، فما استمالوا إلى رماحِهم حتى صرَع منهم ثلاثة ، وفقده أصحابه ، فلاموا أنفسهم ، وقالوا : إنكم لأهلٌ لِأَنْ تُجْعَلُوا مثلًا للناس ، إنّ أميرَكم خرج معكم فضيّعتموه حتى هلك ، ولم يهلك منكم أحدٌ ، فبينما هم يسيرون في الوادي إذْ بهم قد أتوْا على مرابط البراذين ، وإذا فرس « بُسْر » مربوط معها فعرفوه ، وسمعوا الجلَبة في الكنيسة فدخلوها ، فلما رآهم « بُسْر » سقط مغشيًّا عليه ، فأقبلوا على من كان باقيًا فأسروه ، وقَتلوا مَن قتلوا ، فأقبلت عليهم الأسارى يقولون لهم : ننشدكم الله ، من هذا الذي دخل علينا ؟ فقالوا : بُسْر بن أرطاة . فقالوا : ما ولدتِ النساءُ مثلَه . فعمدوا إلى جلدٍ فوضعوه في جوْفه ، ثم عصبوه بعمائمهم ، وحملوه على شِقّهِ التي ليست بها جراحة ، حتى أتوْا به العسكر فخاطوا جراحَه ، فَسَلِمَ وعُوفي »[2].

---

(١) جماعة من الرجال واجبها حماية مؤخرة الجيش من العدو .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٣ / ٢٢١ ، سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٧٤ .

عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، رضي الله عنه :

الهاشمي ، ابنُ عم رسول الله ﷺ ، ومن مُسلمة الفتح .

لما توفي رسول الله ﷺ كان لهذا نحوٌ من ثلاثين سنةً .

قال أبو الحُويْرث : أول من قُتِلَ يوم أجنادين بِطرْيقٌ برز يدعو إلى البراز ، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، فاختلفا ضَرَباتٍ ، ثم قتله عبد الله ، ثم برز آخر ، فضربه عبد الله على عاتقه ، وقال : خذْها وأنا ابن عبد المطلب . فأثبته وقطع سيفه الدرع ، وأشرع في منكبه ، ثم ولّى الرومي منهزمًا[1] .

« وعزم عليه عمرو بن العاص أن لا يبارز ، فقال : لا أصبر . فلما اختلطت السيوف ، وُجِدَ في رِبْضةٍ من الروم عشرةٍ مقتولًا ، وهم حوله ، وقائم السيف في يده في غري[2] ، وإنّ في وجهه لثلاثين ضربة .

قال الواقدي : فحدّثتُ بهذا الزبيرَ بن سعيد النوفلي ، فقال : سمعتُ شيوخنا يقولون : لمّا انهزمتِ الروم يومئذٍ ، انطلق الفضل بن عباس في مائة نحوًا مِن ميل ، فيجد عبد الله مقتولًا في عشرةٍ مِنَ الروم قد قتلهم ، فقبروه »[3] .

وَاثِلةُ بن الأسْقَع ، رضي الله عنه :

آخر من مات من الصحابة بدمشق .

لله درُّه من بطلٍ ! يُلقي الرعبَ في كتيبةٍ من الروم قبل فتْح دمشق .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٩ / ١١٥ ب ، ١١٦أ ، وسير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) لزق .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٨٢ .

« عن واثلة قال : وقفتُ في ظُلمة قنطرةِ « قينية »[١] ليَخْفَى على الخارجين من باب « الجابية »[٢] موقفي . فأسمع صريرَ باب « الجابية » فمكثتُ ، فإذا بخيلٍ عظيمةٍ ، فأمهلْتُها ثم حملتُ عليهم ، وكبّرتُ ، فظنوا أنهم أحيط بهم ، فانهزموا إلى البلد ، وأسلموا عظيمَهم ، فدعستُه بالرمح ، ألقيتُه عن بِرْذَونه ، وضربتُ بيدي على عِنان البِرْذَوْن ، وراكضتُّه حتى أنهكتُه ، والتفتوا ، فلما رأوني وحدي تبعوني ، فدعستُ فارسًا بالرمح فقتلتُه ، ثم دنا آخر فقتلته ، ثم جئتُ خالد بن الوليد فأخبرته ، وإذا عنده عظيمٌ من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق »[٣].

وقبلها .. في معركة فحل « كان واثلة في خَيْلِ ابن هبيرةَ ، فعَرَض له بِطْريقٌ من كبارهم ، فبرز له واثلة وهو يقول :

لَيْثٌ وليثٌ في مَجَالِ ضَنكِ ... كلاهُمَا ذو أَنِفٍ ومَعْكِ

أجولُ جَوْلَ صارمٍ في العركِ ... أوْ يكشفَ اللهُ قِناعَ الشَّكِ

مع ظَفري بحاجتي وتركِي

ثم حمل على البِطْرِيق فضربه ضربةً فقتله »[٤].

جُلَيْبيب رضي الله عنه « هذا مني وأنا منه » :

« عن أبي برزة أن النبي ﷺ كان في مغزًى له فأفاء الله عليه ، فقال لأصحابه : « هل تفقدون مِن أحدٍ ؟ » قالوا : نعم ، فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال : « هل تفقدون من أحدٍ ؟ » قالوا : نعم ، فلانًا وفلانًا وفلانًا . ثم

---

(١) قرية كانت مقابل الباب الصغير من مدينة دمشق ؛ صارت الآن بساتين .

(٢) باب الجابية من أحياء دمشق يقع غربي جامع بني أمية .

(٣) تاريخ دمشق ١٧ / ٣٥٣ ب ، ٣٥٤أ .

(٤) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٥ .

قال : « هل تفقدون من أحدٍ ؟ » قالوا : لا . قال : « لكني أفقد جُليبيبًا فاطلبوه » . فطُلب في القتلَى فوجدوه إلى جنبِ سبعةٍ قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبي ﷺ فوقف عليه ، فقال : « قتَل سبعةً ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه » . قال : فوضعه على ساعديْه ، ليس له إلا ساعِدَا النبيِّ ﷺ . قال : فحفر له ووُضع في قبره . ولم يَذكرْ غُسْلًا »[1].

هذا مني وأنا منه .. فمَن مِن الناس على مدار التاريخ يقال له مثل هذا ؟!

بانُوا وكأنهم ما كانوا !

قائد مجاهدي العيص أبو بصير : عتبة بن أسد ، رضي الله عنه : « ويلُ أُمِّهِ مِسْعَر حربٍ لو كان له أحَدٌ » :

بعد صلح الحديبية وما اشترطتْه قريشٌ على النبي ﷺ : إنه لا يأتيك منّا رجلٌ ، وإن كان على دينك ، إلا رددته إلينا « رجع النبي ﷺ إلى المدينة ، فجاءه أبو بصير - رجلٌ من قريش - وهو مسلم ، أرسلوا في طلبه رجليْن ، فقالوا : العهد الذي جعلتَ لنا . فدفعه إلى الرجليْن فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأَرى بسيفك هذا يا فلان جيِّدًا . فاستلّه الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيِّدٌ ، لقد جربتُ به ثم جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه . فأمكنه منه فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعرًا » . فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل والله صاحبي ، وإني لمقتولٌ . فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله ، قد - والله - أوفى اللهُ ذمّتك ، قد رددتَّني

(١) صحيح : أخرجه أحمد مصحوبًا بقصة ، والنسائي في فضائل الصحابة .

إليهم ثم أنجاني الله منهم . قال النبي ﷺ : « ويلُ أمّه مِسْعَر حرب ، لو كان له أحد » . فلما سمع ذلك عرف أنه سيردُّه إليهم ، فخرج حتى أتى سِيْفَ البحر ، قال : وينفلت منهم أبو جندَل بن سُهيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لَحِق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ ، فوالله ما يسمعون بعِيرٍ خرجتْ لقريشٍ إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلتْ قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشده اللهَ والرّحِمَ لما أرسل ، فمَن أتاه فهو آمنٌ ، فأرسلَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم ،فأنزل الله تعالى ﴿ **وهُوَ الذي كفَّ أيْديَهم عنكم وأيديَكُمْ عنهُمْ ببَطْنِ مكةَ مِنْ بعدِ أنْ أظفرَكم عليهِم** ... ﴾ حتى بلغ ﴿ **الحَمِيةَ حَميَّةَ الجاهليةِ** ... ﴾ ، وكانت حمِيّتهم أنهم لم يُقرُّوا أنه نبي الله ، ولم يقرُّوا ببسم الله الرحمٰن الرحيم ، وحالوا بينهم وبين البيْت »[(١)].

لله دَرُّكَ فتى قريشٍ عتبةَ بن أسيد الزهري ! كم عانيْتَ في سبيل دينك ! زجّ بك قومُك بنو زهرة في السجن ، وفررتَ منه مُسرعًا إلى المدينة بعد صلحِ الحديبية ، وعلمتَ أن نبيك ﷺ لا يغدر ، واستسلمت طائعًا لأمر رسول الله : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرَجًا ومخرجًا ، فانطلق إلى قومك » .

ولله دَرُّكَ من شجاعٍ ، حين قتلتَ حارسك العامري ! ولله درُّك حين فرّ الآخر مذعورًا طالبًا النجاة !

ولله درُّك حين توّجك وتوّج شجاعتك نبيُّكَ ﷺ ، حين قال :

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود عن المِسْور بن مَخْرمة ومروان . وعزاه المِزِّي للنسائي .

« ويْلُ أمِّه مِسْعَرِ حربٍ لو كان معه رجالٌ » !

ولله دَرُّكَ حين تحمل سيْف القتيل المشرك ، وتستوي على بعيره الذي غنمتَ منه ، وتتجه نحو «العِيصِ» ، حيث تكثر الأحراش والأشجار ، لتبدأ منها حرب العصابات وتعلن الثورة على قومك قريش !

ولله دَرُّكَ حين أخفْتَ قريشًا إخافةً شديدةً ، فصارت لا تُرسل قوافلها إلى الشام إلا تحت حراسةٍ شديدةٍ ، ومع ذلك لم تنجُ هذه القوافل منك أيها الثائر البطل !

ولله دَرُّكَ حين يفرّ إليك المستضعفون من شبابِ مكة ، يفرون من سجون أهليهم ، يجتمع إليك من شباب قريشٍ - وحدهم - سبعون شابًّا ، وينضمُّ إليك رجالٌ من غِفَار وجُهيْنة ، حتى بلغتم ثلاثمائة !

لله دَرُّكَ ودرُّ نائبك أبي جندل بن سهيل بن عمرو !

لله دَرُّكَ حين يجتمع رجالاتُ قريشٍ في دار الندوة ، يرتجفون فزعًا منك ، ويرسلون أبا سفيان إلى النبيّ ﷺ ، وهم يستعطفونه ويسترحمونه : إننا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط . مَن جاء منهم إليك فأمسِكْه مِن غير حَرَجٍ فهو آمن ؛ إن هؤلاء الرَّكْب - يَعني ثوار العِيص - قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره[1]. إننا نسألك بالأرحام ، إلا ما آويتهم فلا حاجة لنا بهم[2].

لله دَرُّكَ ودرُّ إخوانِك حين تقضُّ مضاجعَ قريشِ الكفر ، فجعلتهم يطلبون صاغرين ، مسترحمين ، مناشدين نبيّك ﷺ الرّحِمَ أنْ يُسقط الشرطَ

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ١٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٢٤ .

الذي أملَوْه صلفًا وكبرياءً وغُرورًا وبغيًا وبطرًا ! يأتي الزبانية مُقرّين أن لا طاقةَ لهم بمِسْعر الحرب .. وما يأتيك كتابُ نبيّك إلا وأنت في مرضِ الموت .. فتفضُّه وتَشْرع في قراءَته ، إلا أن روحَك الطاهرة فاضت إلى باريها وكتابُ الرسول ﷺ في يدك .. فسلامٌ عليك مع الأبرار .. واللهِ ما عقمتْ أمةٌ ولدتْ مثلك .

كَعْبُ بنُ مالكٍ ، رضي الله عنه يُخوِّفُ دَوْسًا ببيْتِ شعرٍ فتسلم :

شاعر رسول الله ﷺ وصاحبه ، وأحد الثلاثة الذين خلّفوا ، فتاب الله عليهم .

شهد العقبة ، وفيها يقول : لقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدرٍ ، وإنْ كانت بدرٌ أذكر في الناس منها(١) .

قال كعب : لما انكشفنا يوم أحدٍ ، كنت أول من عرف رسول الله ﷺ ، وبشَّرتُ به المؤمنين حيًّا سويًّا وأنا في الشِّعْب ، فدعا رسول الله ﷺ كعبًا بلأْمته - وكانت صفراء - فلبسها كعب ، وقاتل يومئذٍ قتالًا شديدًا ، حتى جُرح سبعةَ عشرَ جرحًا(٢) .

قال ابن سيرين : كان شعراءُ أصحاب رسول الله ﷺ : حسّان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك .

وعن كعبٍ أنه قال : يا رسول الله ، قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل . قال : « إن المجاهد مجاهدٌ بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ، لكأنما ترمونهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٣ ، والمستدرك ٣ / ٤٤١ .

نضْحَ الإبل »[١].

قال ابن سيرين : أما كعب ، فكان يذكر الحرب ، يقول : فعلنا ونفعل ، ويتهددهم . وأما حسان ، فكان يذكر عيوبهم وأيّامهم . وأما ابن رواحة ، فكان يعيِّرهم بالكفر .

ولقد أسلمتْ دَوْس فَرَقًا من بَيْتٍ قاله كعبٌ :

نُخَيِّرُهَا ولوْ نطقتْ لَقالتْ قواطِعُهنَّ دَوْسًا أو ثقيفا[٢]

والبيت مع البيت الذي قبله :

قضينا مِن تِهامَةَ كلَّ رَيْبٍ وخيبرَ ثُمَّ أجممنَا السيوفَا

نُخيِّرها ولوْ نطقتْ لقالتْ قواطِعُهنَّ دَوْسًا أو ثقيفا

لله دَرُّكَ يا كعب ! ببيْتٍ واحدٍ منك أيها البطل تُسلمُ قبيلةٌ بأسرها خوْفًا .

وما أحلى التاج الذي يرصّع به جبينك رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث : عن جابرٍ أن رسول الله ﷺ قال لكعبِ بن مالك : « ما نسي ربُّك لك - وما كان ربُّك نسيا - بيتًا قلتَه » . قال : ما هو ؟ قال : « أنْشِدْه يا أبا بكر » . فقال :

زَعمتْ سَخِينَةُ أَنْ ستَغْلِب رَبَّهَا وَلَيُغْلَبنَّ مُغَالِبُ الغلَّابِ[٣]

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٥٠٠) وعنه أحمد ، وسنده صحيح .

(٢) أسد الغابة ٤ / ٤٨٨ ، والإصابة ٨ / ٣٠٥ . وقوله : « نخيِّرها » أي : السيوف . أي نعطيها الخِيَرة ، ولو نطقتْ لاختارتْ أن تحارب دوْسًا أو ثقيفًا .

(٣) أورده صاحب كَنز العمال ١٣/ ٥٨١ ، ونسبه لابن منده وابن عساكر . والسخينة : طعام من سمنٍ ودقيقٍ ، أو دقيقٍ وتمرٍ ، أغلظ من الحَساء ، وكانت =

يهودٌ ولا علِيَّ لهم : البطلُ .. بل حَيْدَرة الأبطال عليُّ بن أبي طالبٍ ، رضي الله عنه :

روى البخاري عن قيْس بن عباد عن علي بن أبي طالبٍ قال : أنا أول مَن يَجْثو بين يدي الرحمٰن للخصومة يوم القيامة .

وقال قيْس بن عباد : وفيهم أنزلت ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اختصمُوا في رَبِّهِمْ** ... ﴾ الآية . قال : « هم الذين تبارزُوا يوم بدرٍ : حمزةُ ، وعليٌّ ، وعبيدة - أو أبو عبيدة - بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعُتبة بن ربيعة ، والوليد بن عُتبة .

« وعن علي قال : تقدم - يعني عُتبة بن ربيعة - وتَبِعَه ابنه وأخوه ، فنادى : مَن يُبارز ؟ فانتُدب له شبابٌ من الأنصار ، فقال : مَنْ أنتم ؟ فأخبروه ، فقال : لا حاجةَ لنا فيكم ، إنما أردْنا بني عمّنا . فقال رسول الله ﷺ : « قُمْ يا حمزة ، قم يا عليّ ، قم يا عبيدة بن الحارث » فأقبل حمزة إلى عُتبة ، وأقبلتُ إلى شَيْبة ، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتانِ ، فأثخن كُلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، ثم مِلْنَا على الوليد ، فقتلناه واحتملنا عُبيدة »[1] .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ / ٢٩٨) : فيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لحمزة وعليّ وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم .

وانظرْ - بربّك - إلى الفارس الشابّ .. علي بن أبي طالب ، وإلى قتلاه يومَ بدرٍ ، فقد قتل بعد شيبةَ ، والوليد : العاصَ بن سعيد بن العاص ، وعامرَ بن عبد الله النمري ، وطعيمةَ بن عديّ بن نوفل ، وزمعة بن الأسود بن

= قريشٌ تكثر من أكلها ، فَعُيِّرتْ بها ، حتى لقبوا : « سخينة » .

(١) صحيح أخرجه أبو داود (٢٦٦٥) .

المطلب ، ونوفل بن خُوَيْلد بن أسد وهو أخو أمّ المؤمنين خديجة - وكان من شياطين قريش - وعقيل بن الأسود بن المطلب ، والنضر بن الحارث قتله صَبْرًا بعد المعركة ، وعُمير بن عثمان بن عمرو ، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة ، وأبا قَيْس بن الفاكهة بن المغيرة ، وحاجِبَ بن السائب ابن عُوَيْمر ، وعبد الله بن المنذر ابن أبي رفاعة ، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجَّاج ، وأوْس بن مِعْيَر بن لَوْذَان ؛ خمسةَ عشَرَ رجلًا قتلهم حَيْدَرَةُ .. علي بن أبي طالب في يوم بدرٍ .

وفي أُحُدٍ يقتل عليّ أبا أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وعبد الله ابن حميد بن زهير .

قتْل عليٍّ لعمرو بن عبد وُدّ فارس قريش في يوم الأحزاب :

كان عمرو بن عبد ودّ العامري « كبشَ الكتيبة » قد حضر معركة بدرٍ الكبرى ، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جُرح في المعركة ، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسُه دُهنًا حتى يقتل محمدًا ، ولهذا كان أولَ الفرسان المقتحمين بخيلهم الخنْدق نحو المسلمين ، ومعه فوارس من قريش ، وخرج علي بن أبي طالب في نفرٍ معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلَهم ، وأقبلت الفرسان تُعْنِق[1] نحوهم .

قال ابن إسحاق : « كان عمرو بن ودّ العامري (وهو كبش الكتيبة) قد قاتل يوم بدرٍ حتى أثبتتْهُ الجراحةُ فلم يشهد أُحُدًا ، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانُه ، فلما وقف هو وخيله قال : مَن يبارز ؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب » .

---

(١) أي : تُسرع .

وعند البيهقي في « دلائل النبوة » : « خرج عمرو بن عبد ودّ وهو مُقنَّع بالحديد ، فنادى : مَنْ يبارز ؟ فقام علي بن أبي طالبٍ فقال : أنا لها يا نبي الله . فقال : « إنه عمرو ، اجلسْ » . ثم نادى عمرٌو : ألا رجلٌ يبرز ؟ فجعل يُؤنِّبهم ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا ، أفلا تبرزون إليّ رجلًا ؟! فقام عليٌّ فقال : أنا يا رسول الله . فقال : « اجلسْ » . ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بحِحْتُ من النداء لِجَمْعِهم هلْ منْ مُبارِزْ
ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشجَّعُ موقِفَ القرنِ المناجِزْ
ولذاك إني لم أزلْ متسرِّعًا قبلَ الهَزَاهِزْ
إنَّ الشجاعةَ في الفتَىٰ والجود من خيْرِ الغرائِزْ

قال : فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، أنا . فقال : « إنه عمرٌو » . فقال : وإن كان عمرًا . فأذِن له رسول الله ﷺ ، فمشى إليه ، حتى أتى وهو يقول :

لا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أتاكَ مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزْ
في نيّةٍ وبصيرةٍ والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائزْ
إني لأرجُو أن أُقِيـ ـمَ عليكَ نائِحَةَ الجنائِزْ
مِن ضربةٍ نجلاءَ يَبْـ ـقَى ذكرُها عندَ الهزاهزْ[1] »

ولما مشى علي إلى عمرو ليبارزه قال له : يا عمرُو ، إنك كنتَ تقول : لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلّا قبلتُها . قال له : أجل . فقال له : إني أدعوك أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتُسلِمَ لرب العالمين . فقال عمرو : يا ابن أخي ، أخِّرْ عني هذه . قال

(١) الهَزاهِز : الحروب والشِّدة .

علي : وأخرى : ترجع إلى بلادك ، فإنْ يكُ محمد رسول الله صادقًا كنتَ أسعد الناس به ، وإن يكُ كاذبًا كان الذي تريد . فقال عمرٌو : هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريشٍ أبدًا . كيف وقد قدرتُ على استيفاءِ ما نذرتُ ؟! ثم قال عمرٌو : فالثالثة ، ما هي ؟ فقال علي : البرازُ . فضحك فارسُ قريشٍ عمرٌو - وكان فارسًا مشهورًا مُعَمَّرًا قد جاوز الثمانين - ثم قال لعليٍّ : إن هذه الخصْلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعني بها . ثم قال لعليٍّ : مَنْ أنت ؟ قال له : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ فقال عليٌّ : أنا علي ابن أبي طالب . فقال عمرٌو : يا ابن أخي مِن أعمامك مَن هو أسنُّ منك ؛ فوالله ما أحب أن أقتلك . فقال علي : ولكني - والله - أحبُّ أن أقتلك . فعند ذلك غَضِبَ عمرٌو غضبًا شديدًا ، ونزل فسلّ سيفَه ، كأنه شُعْلَةُ نارٍ ، ثم أقبل نحو عليٍّ مُغضَبًا ، واستقبله عليّ بدَرَقَته فضربه عمرو في دَرَقته فقدّها ، وأثبتَ السَّيْف فيها ، وأصابَ رأسَه فشجّه ، وضربه عليٌّ على حبل عاتِقه فسقط ، وثار العَجَاجُ ، وَسَمِعَ رسول الله ﷺ التكبير ، فعرف الناس أنَّ عليًّا قد قتل عمرًا ، فثَمَّ يقول عليّ :

أعليُّ تقتحم الفوارسَ هكذا   عنّي وعنهم أخّروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرارَ حفيظتي   ومُصَمَّمٌ في الرأسِ ليسَ بنابي

وألقى عكرمة رمحه يومئذٍ وهو منهزم عن عمرٍو ، فقال حسان بن ثابت :

فـرّ وألقَـى لنـا رمحَـه   لعـلَّكَ عِكْـرمُ لم تفعـلِ
وولَّيْتَ تعدو كعدْو الظَّليـ   ـم ما أن يحوّر عن المَعدِلِ
ولم تلوِ ظهـرَك مسـتأنسًا   كأنّ قفـاكَ قفـا فَرْعَـلِ[1]

---

(١) الفرعل : صغار الضباع .

قال عمر بن الخطاب : هلّا استلبت درعَه ، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها . فقال : ضربته فاتقاني بسوءَته فاستحيَيْتُ - ابنَ عمي - أن أسلبه . وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفتَه بعشرة آلافٍ ، فقال : « ادفعوا إليهم جيفتَهُ ؛ فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدِّية » . فلم يقبل منهم شيئًا .

عليّ صاحب الراية يوم خَيْبَر الذي يفتح الله عليه :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأُعطينَّ هذه الراية رجلًا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديْه » . قال عمر بن الخطاب : ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ . قال : فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها . قال : فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إياها . وقال : « امشِ ولا تلتفتْ ، حتى يفتح الله عليك » . فسار عليٌّ شيئًا ، ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ : يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ قال : « قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءَهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابُهم على الله »[1] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديْه ، يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله » . قال : فبات الناس يدركون ليلتهم ، أيُّهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوْا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم،كلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيْه . قال : فأرسَلوا إليه فأُتي به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيْه

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائيُ في الخصائص ، والطيالسي .

ودعا له ، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ ، فأعطاه الراية ، فقال عليٌّ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انفُذ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادْعُهم إلى الإسلام ، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه ، فوالله ، لَأَن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم »(١).

وعند البخاري عن سلمة ، قال : « كان عليّ قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر ، وكان به رمدٌ ، فقال : أنا أتخلّف عن رسول الله ﷺ ؟! فخرج عليٌّ فلحِقَ بالنبي ﷺ ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لأُعطينَّ الراية - أو ليأخذنَّ الراية - غدًا رجلًا يحبُّه الله ورسوله - أو قال : يحبُّ الله ورسوله - يفتح الله عليه » . فإذا نحن بعليّ ، وما نرجوه ، فقالوا : هذا علي . فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ، ففتح الله عليه »(٢).

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : إن رسول الله ﷺ أخذ الراية فهزّها ، ثم قال : « مَنْ يأخذها بحقِّها ؟ » فجاء فلان فقال : أنا . قال : أمط . ثم جاء رجلٌ فقال : أَمِطْ . ثم قال النبي ﷺ : « والذي كَرَّم وجهَ محمدٍ ، لأُعطينَّهَا رجلًا لا يفرّ ، هاك يا عليّ » فانطلَقَ حتى فتح الله عليه خيبر وفَدَك ، وجاء بعجْوتهما وقديدهما(٣).

وفي حديث سلمةَ بن الأكْوع عند مسلم : « ثم أَرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ وهو أرمد ، فقال : « لأُعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ الله ورسوله ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد ، وأبو يعْلى ، والنسائي في الخصائص .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم .
(٣) حسن : أخرجه أحمد في المسند ٣ / ١٦ ، وأخرجه أحمد أيضًا في فضائل الصحابة .

أو يحبه الله ورسوله » . قال : فأتيتُ عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد ، حتى أتيتُ به رسول الله ﷺ ، فبصق في عينيْه فبرأ ، وأعطاه الراية . وخرج « مرحب » فقال :

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ شاكي السلاحِ بطلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

فقال عليٌّ :

أنا الذي سمّتْني أُمّي حَيْدَرَهْ[1] كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المنْظَرَهْ
أُوَفِّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال : فضرب رأسَ « مرحب » فقتله ، وكان الفتح على يديْه .

مَرْحب هذا : فارس فرسان اليهود ، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية :

هذا سَيفُ مَرحَبْ مَن يَذُقهُ يعطبْ

فضربه عليٌّ فقدّ الحجر والمغفر ورأسَه ، ووقع السيف في الأضراس .

وقبله قتل علي أخا مَرحَبَ ، وهو الحارث . وبارز عليٌّ قائدًا يهوديًّا - بعد مبارزة الزبير لياسر - وكان هذا القائد الفارس يُسمّى عامرًا ، فقتله عليٌّ أمام الحصن . قال رسول الله ﷺ حين طلع عامرٌ : « تروْنه خمسةَ أذرع ؟ » وكان طويلًا جسيمًا ، فلما دعا للبراز ، وخطر بسيفه ، وعليه دِرعانِ ، وهو مُقَنَّعٌ في الحديد يصيح : من يبارز ؟ فأحجم الناس عنه ، فبرز إليه عليّ فضربه ضرباتٍ ، كلّ ذلك لا يصنعُ شيئًا ، حتى ضرب ساقيْه فبرك ، ثم ذفّف[2] عليه فأخذ ....

(١) حيدرة : هو الأسد .
(٢) أجهز عليه .

سلاحه[١] .

وفتح الله على يد عليّ بن أبي طالب حصن « ناعم » أقوى حصون خيبر .. فيا لعليٍّ مِن حَيْدَرة !!

الحُبَابُ بن المُنْذر بن الجَمُوح حاملُ اللِّواء أمام حِصن « الصَّعب » بخَيْبر :

في أيام خيبر .. بعد سقوط حصن ناعم ، كان الدوْر قد أتى على حصن « الصَّعب بن معاذ » من حصون النطاة ، وأعطى الرسول ﷺ الراية للحباب بن المنذر الأنصاري للقيام بالهجوم على هذا الحصن .. وخرج كبيرُ قادةِ اليهود على فرسه أمام الحصن وطلب المبارزة ، وكان اسم هذا القائد « يوشع » فخرجَ لملاقاته الحباب فنازله ، وبعد كرٍّ وفرٍّ ، ومقارعةٍ عنيفةٍ بالسيوف ، تمكَّن قائد قوات المسلمين مِن قتل « يوشع »[٢] .

ورمَى اليهود المسلمين بسهامهم التي صبُّوها كالمطر على المسلمين من أبراج الحصن ، بل إن اليهود بلغ بهم الاستبسال والشراسة في الدفاع عن حصن « الصَّعب » إلى أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجومٍ مضادٍّ كاسحٍ عنيفٍ ، كشفوا به قوات المسلمين وطاردوها ، وثبت قائد المسلمين الحباب يقاتل اليهود بشراسة عندما انكشف رجاله أمام اليهود ، وأمام ثبات رسول الله ﷺ ومعه الحباب ، عادت قوات المسلمين من جديد إلى التجمُّع خلفَ قائدهم الحباب ، الذي قام بتنظيمهم في الحال ، ثم شنَّ بهم في نفس الوقت هجومًا عنيفًا على حِصْنِ « الصعب » بُغْية اقتحامه ، فطارد اليهودَ حتى أدخلهم حصنهم الذي أغلقوا أبوابه .

يقول جابر بن عبد الله عن اليهود : « رمَوْا بالنبل ساعةً سراعًا ،

---

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة - خيبر - لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٢٢ .

(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة - خيبر صـ ١٣٠ .

وترّسْنَا عن رسول الله ﷺ ، وأمطرونا بالنَّبْل ، فكأنَّ نبْلَهم الجرادُ ، حتى ظننت أن لا يُقلعوا ، ثم حملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ ، فانهزم المسلمون ، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ ، وهو واقفٌ قد نزل عن فرسه ، وثبّتَ الحبابُ رايتَنَا ، واللهِ ما يزال يراميهم على فرسه . وندب رسولُ الله المسلمين وحضّهم على الجهاد ، ورغبّهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعدَه خيبر يغنّمه إياها ، قال : فأقبل الناس جميعًا حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زَحَفَ بهم الحباب ، فلم يزل يدنو قليلًا قليلًا ، وتراجع اليهود على أدبارها حتى لحمَهَا الشرُّ ، فانهزموا سراعًا ، ودخلوا الحصن وغلّقوا عليهم » .

أقام المسلمون على حصن « الصعب » يومين ، ثم عدا بهم الحباب البطل في اليوم الثالث ومعه الراية ، فقاتلهم أشدَّ قتالٍ ... واغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدنّي معنوياتهم ، فشنّ هجومًا خاطفًا برجاله على الحصن فاقتحموه ، وقاتلوا بضراوةٍ حتى افتتحوه ، واستولَوْا على كلّ ما فيه من أسلحةٍ وأرزاقٍ ، وكان شيئًا عظيمًا فرّج الله به الضائقة التي عانى منها الجيش الإسلامي بعد أن نَفِد التموين بسبب طول الحصار .

« يقول أبو سبرة : حمَل صاحبُ رايتنا وحملنا معه ، وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم في جوْفه ، فلما دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غَنَمٌ ، فقتلنا مَن أشرف لنا ، وأسرنا منهم ، وهربوا في كل وجهٍ يركبون الحرّة يريدون حصن قلعة الزُّبير ، وصعد المسلمون على جُدُره ، فكبّروا عليه تكبيرًا كثيرًا ، ففتَتْنَا أعضادَ اليهود بالتكبير ... فوجدنا - والله - من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك ، من الشعير والتمر والسَّمن والعسل والزيت والودك ، وأخرجنا منه غَنَمًا كثيرًا وبقرًا وحُمُرًا ، وأخرجنا منه آلاتٍ كثيرةً للحرب ، ومنجنيقًا ودباباتٍ وعُدّة ، فنعلم أنهم كانوا يظنون أن الحصار يكون دهرًا ، فعجّل الله خِزيَهم .

وقد خرج من أُطمٍ مِن حصن « الصعب » من البرّ عشرون عكمًا مخرومةً من غليظ متاع اليمن ، وألفٌ وخمسمائة قطيفة .. يقال:قدم كلُّ رجل بقطيفةٍ على أهله ... وجعل المسلمون يأكلون مقامهم شهرًا وأكثر من ذلك الحصن ، ويعلفون دوابَّهم .

وفي حصون الشّق .. وأمام « قلعة أُبيّ » أمنعِ حصونهم،قتَل الحبابُ ابن المنذر قائدَ اليهود عزول .. فقد قاتل أهلُ الحصن قتالًا شديدًا ، وخرج رجلٌ من اليهود يُقال له : غزّال ، فدعا إلى البِراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فاختلفا ضرباتٍ ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع ، فوقع السيف من يد غزّال ، فكان أعزل ، ورجع منهزمًا فوقع ، فذفَّف عليه » .

لله دَرُّ الحباب بن المنذر من صحابيٍّ عاشقٍ لمبارزة اليهود وقتالهم !!

محمد بن مَسْلمة بن سلَمة الأنصاريّ ، قاتلُ طاغيةِ اليهود كعب بن الأشرف :

كعب بن الأشرف طاغية اليهود الذي اغتلم الحقد والغدر في نفسه ، وخانَ عهده مع المسلمين ، وجعل يؤلِّب قريشًا ويحرضها على العرب ، ويرثي أبا جهل ويقول :

نبئْـتُ أنَّ بـني المغـيرةِ كُلّهمْ خشعُوا لقتْل أبي الحكيمِ وجدّعُوا

ويقول عن قتلَى بدرٍ من المشركين : هؤلاء أشرافُ العرب وملوك الناس ، واللهِ لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم ، لبطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

« عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لكعب ابن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » . فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : « نعم » . قال : فأْذنْ لي أن أقول شيئًا . قال : « قُلْ » . فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هذا الرجل قد سألنا

صدقةً ، وإنه قد عنّانا ، وإني قد أتيتُك أستسلفك . قال : وأيضًا واللهِ لتملِنَّه . قال : إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيءٍ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أَوْ وسقيْن . فقال : نعم ، ارهنوني . قالوا : أيّ شيءٍ تريد ؟ قال : ارهنوني نساءَكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟! قال : فارهنوني أبناءَكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنَا فيُسبّ أحدهم ، فيقال : رُهن بِوسقٍ أَوْ وسقيْن ؟! هذا عارٌ علينا ، ولكنا نرهنك اللّامة[1] . فواعده أن يأتيه ، فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة - وهو أخو كعب من الرضاعةِ - فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة . قالت : أسمع صوتًا كأنه يقطُر منه الدم . قال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ؛ إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب . ويدخل محمد بن مسلمة معه رجالٌ : أبو عَبْس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر ، فقال : إذا ما جاء فإني قائلٌ بشَعْرهِ فأشمّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه فدونكم فاضربوه . وقال مرةً : ثم أشمُّكم . فنزل إليهم متوشّحًا وهو ينفح منه ريح الطيب ، فقال : ما رأيت كاليوم ريحًا - أيْ أطْيَبَ . وقال غير عمرو[2] : قال : عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب . قال عمرو : فقال : أتأذن لي أن أشمَّ رأسك ؟ قال : نعم . فشمّه ، ثم أشمّ أصحابَه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قال : نعم . فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه . ثم أتَوْا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فأخبروه »[3] .

---

(١) قال سفيان أحد رواة الحديث : يعني السلاح .

(٢) أحد رواة البخاري ، راوي الحديث عن جابر بن عبد الله

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ، وعزاه المزي للنسائي .

وعند محمد بن إسحاق : « فأخذ - أبو نائلة - بفَوْدَي رأسه ، ثم قال : اضربوا عدو الله . فاختلفتْ عليه أسيافهُم فلم تُغن شيئًا . قال محمد ابن مسلمة : فذكرت مِغْوَلًا - نَصْلًا - في سيفي فأخذتُه ، وقد صاح عدوُّ الله صيْحةً ، فلم يبقَ حولنا حصنٌ إلّا أُوقدتْ عليه نارٌ . قال : فوضعتُه في ثُنَّته ثم تَحاملتُ عليه حتى بلغت عانته ، فوقع عدوّ الله ... وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهوديٌّ إلا وهو خائفٌ على نفسه »[(١)].

قال كعب بن مالك :

فغُودِرَ منهمُ كعبٌ صريعًا ... فذلّتْ بعد مَصرعِهِ النَّضيرُ
علَى الكفَّيْن ثمّ وَقدْ علتْهُ ... بأيدينا مُشَهَّرةٌ ذُكورُ
بأمْرِ محمدٍ إذْ دسَّ ليلًا ... إلى كعبٍ أخا كعبٍ يسيرُ
فماكره فأنزلهُ بمَكْرٍ ... ومحمودٌ أخو ثقةٍ جَسُورُ

يقول عباد بن بشر - وكان أحد الذين اشتركوا في قتل كعب بن الأشرف - :

صرختُ لهُ فلمْ يعرضْ لصوتي ... وأوفى طالعًا مِن فوْقِ خدْرِ
فعُدتُ لهُ فقال مَنِ المُنادِي ... فقلتُ أخوكَ عبّادُ بنُ بِشرِ
وهذي درْعُنا رهنًا فخُذْها ... لشهرٍ إنْ وفَتْ أوْ نصفِ شهرِ
فأقبلَ نحونا يسعَى سريعًا ... وقالَ لنا لقدْ جئتُمْ لأمرِ
فشَدَّ بسيفِهِ صلتًا عليهِ ... فَقَنْطَرَهُ أبو عبسٍ بنُ جَبْرِ
وكان اللهُ سادسَنَا فأُبْنا ... بأنعم نعمةٍ وأعزّ نصْرِ
وجاءَ برأسِهِ نفرٌ كرامٌ ... هُمُ ناهيكَ مِنْ صدقٍ وبرّ

---

(١) الإصابة لابن حجر ٤ / ١٩٥ .

قَتْلُ عبدِ الله بن عتيك بن قَيْس الأنصاري لمِلِك خيْبر أبي رافعٍ سَلَّام ابن أبي الحُقَيْق النضري :

كان سلّام من كبار مجرمي الحرب التي شنّها على المسلمين في المدينة - وبتدبيرٍ من يهودِ خيْبر - عشرةُ آلافِ مقاتلٍ مِن الأحزاب الوثنية المتحالفة : قريش ، وغطفان ، وأشجع ، وفزارة ، وأسلم .

فقد كان سلَّام في مقدمة وَفْدِ التحريض اليهودي الذي طاف بمضارب البدو ، وفي نجدٍ ، ومواطن القبائل في الحجاز لتحريضهم على غَزْوِ المسلمين ، وكان سلّام هذا مع حُييّ بن أخطب على رأْس القوة الضاربة .

وقبلها كان سلّام أحد أركان تلك المؤامرة الدنيئة التي كانت تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ ، والتي شرَع يهودُ بني النضير في تنفيذها عندما كان النبي ﷺ موجودًا في ديارهم . وانتدب النبي ﷺ خمسةً من الفدائيين الأنصار - وكلهم من الخزرج - لقتل أبي رافع ، وهم : **١** - عبد الله بن عتيك **٢** - مسعود بن سنان **٣** - عبد الله بن أُنيْس **٤** - الحارث بن رِبعيّ أبو قتادة **٥** - خُزاعي بن أسود .

« أخرج البخاري عن البراء بن عازب ، قال : بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهودي رجالًا من الأنصار فأمّر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع اليهودي يُؤذي رسول الله ﷺ ويُعينُ عليه ، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز ، فلما دنوْا منه وقد غربتِ الشمس وراح الناس بسرْحهم ، فقال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم ؛ فإني مُنطلقٌ ومتلطفٌ للبواب لعلّي أن أدخل . فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنّع بثوْبه كأنه يقضي حاجةً ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله ، إن كنتَ تريد أن تدخل فادخلْ ؛ فإني أريد أن أغلق الباب . فدخلتُ فكمنتُ ، فلما دخل

الناس أغلق الباب ، وكان أبو رافعٍ يُسمَر عنده ، وكان في علالي له ، فلما ذهب عنه أهل سَمَره صَعدتُ إليه ، فجعلتُ كلما فتحت بابًا أغلقت عليّ مِن داخل ، قلت : إن القوم إن نذِرُوا بي لم يخلُصوا إليّ حتى أقتله ، فانتهيتُ إليه ، فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عيالِه ، لا أدري أين هو من البيت ، فقلت : يا أبا رافع . قال : من هذا ؟ فأهويتُ نحو الصوت فأضربه ضربةً بالسيف وأنا دَهِشٌ فما أغنيت شيئًا ، وصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غيرَ بعيدٍ ، ثم دخلتُ إليه فقلت[1] : ما هذا الصوت يا أبا رافعْ ؟ فقال : لأُمِّك الويلُ ، إن رجلًا في البيت ضربني قبلُ بالسيف . قال : فأضربه ضربةً أثخنْتُه ولم أقتلْهُ ، ثم وضعتُ ضبيبَ السيف في بطنهِ حتى أخذ في ظهره ، فعرفتُ أني قتلتُه ، فجعلتُ أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجةٍ له ، فوضعتُ رجلي وأنا أرى أني قد انتهيتُ إلى الأرض ، فوقعتُ في ليلة مُقْمرةٍ فانكسرتْ ساقي فعصبْتُها بعمامةٍ ، ثم انطلقتُ حتى جلستُ على الباب ، فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلمَ أقتلتُه ، فلما صاح الديكُ قام الناعي على السُّور فقال : أنعى أبا رافعٍ تاجرَ أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاءَ ؛ فقد قتل الله أبا رافع . فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثتُه ، فقال لي : « ابسُطْ رجلَك » . فبسطتُ رجلي فمسحَها فكأَني لم أشتَكِهَا قطُّ » .

وعند ابن إسحاق : « فأَوْقدوا النيران واشتدوا في كلّ وجهٍ يطلبوننا ، حتى إذا يئسُوا رجعوا إليه ، فاكتنفُوه وهو يقضي . قال : فقلنا : كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات ؟ قال : فقال رجلٌ منا : أنا أذهب فأنظر لكم . فانطلق حتى دخل في الناس ، قال : فوجدتها - يعني امرأته -

---

(١) في رواية : وغيّرتُ صوتي .

ورجال يهود حوْله ، وفي يدها المصباح ، تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول : أما والله قد سمعتُ صوتَ ابن عتيكٍ ، ثم أكذبتُ نفسي وقلت : أنَّى ابنُ عتيكٍ بهذه البلاد ! ثم أقبلتْ عليه تنظر في وجهه فقالت : فاظ[1] وإلٰهِ يهود . فما سمعت كلمةً كانت ألذّ على نفسي منها » .

وفي رواية ابن سعد في « الطبقات » : أن النبي ﷺ لما رأى الفدائيين عائدين إلى المدينة قال : « أفلحتِ الوجوه » . فقالوا : أفلح وجهُك يا رسول الله[2].

ورجّح ابنُ إسحاق وأصحابُ الكتب الستة أنّ قاتل أبي رافع هو عبد الله بن أنيس ، ورجّح البخاري أنه هو عبد الله بن عتيك .

قال حسان بن ثابت :

للهِ دَرُّ عصابةٍ لاقيتَهُم	يا ابنَ الحُقَيْق وأنتَ يا ابنَ الأشْرفِ
يَسْرُون بالبِيضِ الخِفافِ إليكُمُ	مَرَحًا كأُسْدٍ في عَرينٍ مُغرفِ
حتَّى أتوْكُمْ في مَحلِّ بلادِكُمْ	فَسقَوكُمُ حَتْفًا ببيضٍ ذُفَّفِ
مُستنْصِرين لنَصْرِ دِينِ نبيِّهم	مُستصغرينَ لكلِّ أمرٍ مُجْحِفِ[3]

مُعاذ بن جبل مقدامُ العلماءِ ، الفارس البطل ، رضي الله عنه :

لله دَرُّه مِن شخصيةٍ متكاملةٍ !!

في الليل رهبانٌ وعند قتالِهِمْ	لعدُوِّهم منْ أشجعِ الفرْسانِ

كان رضي الله عنه قائد المَيْمنة في أجنادين ، « قام في أصحابه فقال :

(١) أي : مات .
(٢) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة - صُلْح الحديبية صـ ٩٠ .
(٣) البداية والنهاية ٤ / ١٤٠ .

يا معشرَ المسلمين ، اشروا أنفسَكم اليوم لله .. فإنكم إنْ هزمتموهم اليوم ، كانت لم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوانِ الله والثواب العظيمِ مِنَ الله » .

وإنْ شئتَ فسَلْ « فحل بيْسان»: مَن كان على ميْمنة المسلمين ؟ يجبْك : معاذ بن جبل .

« قال ثابت بن سهل بن سعد : كان معاذُ بن جبل يومئذٍ من أشدِّ الناس علينا حرصًا ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا ، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذْ أقبلتْ جنودُ الروم تحُوط عَسْكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : أيُّهَا الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدكم بالنصر وأيّدكم بالإيمان ، فانصروا الله ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامكم ، واعلموا أن الله معكم وناصركم على عَبَدَةِ الأوثان »[١] .

لله دَرُّ البطل .. يقول لوُجهاء الروم قبل معركة « فحل » - لما فاوضهم ورفض الجلوسَ معهم على البسط - : قمتُ إعظامًا للمشي على هذه البُسُط ، والجلوس على هذه النّمارق التي استأثرتُم بها على ضعفائكم وأهل ملّتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغُرورها ، وقد زهّد الله في الدنيا وذمَّها ، ونهى عن البغي والسَّرف فيها ، فأنا جالسٌ هاهنا على الأرض وكلّموني .

ولما قالوا له : « اذهب إلى أصحابك ، فواللهِ إنا لنرجو أن نفرّكم في الجبال غدًا . قال معاذ : أمَّا الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أوْ لنخرجنّكم من أرضكم أذلةً وأنتم صاغرون »[٢] .

ولله دَرُّ فارسنا ابن جبل قائد الميمنة يوم اليرموك ، حين يخطب

---

(١) الأزدي صـ ١٣٧ .

(٢) الطريق إلى دمشق أحمد عادل كمال صـ ٣١١ - ٣٢٣ .

صباح المعركة يقول للناس : « يا قرّاء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدى وأولياء الحق ، إن رحمة الله - واللهِ - لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني ، ولا يُؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم الله عز وجل ، ألم تسمعوا قول الله عز وجل : ﴿ **وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصالحاتِ ليَستخلفنَّهم في الأرض كما استخلفَ الذينَ مِنْ قبلهم** ... ﴾ الآية ، أنتم إن شاء الله منصورون ، فأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فرارًا من عدوّكم وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحدٍ منكم ملجأ من دونه ، لا متعززٌ بغير الله »[1].

ولما انقضّ الروم على الميمنة صاح معاذ بن جبل : يا عباد الله المسلمين ، إن هؤلاء قد تيسروا للشدة عليكم ، ولا والله لا يردّهم إلا صدْق اللقاء والصبر في البأساء . ثم نزل عن فرسه وقال : مَن أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذْه . وآثر بذلك أن يقاتل راجلًا مع المُشاة ، فوثب إليه ابنه عبد الرحمٰن بن معاذ بن جبل وهو غلام قد احتلم ، فقال : يا أبتِ ، إني لأرجو أن أكون أنا فارسًا أعظم غناء عن المسلمين مني راجلًا ، وأنت - يا أبتِ - راجلٌ أعظم منك فارسًا ، وأعظم المسلمين رجّالة ، وإذا رأوك صابرًا محافظًا صبروا - إن شاء الله - وحافظوا . فقال معاذ : وفقني الله وإيّاك يا بُنيّ »[2].

الأَزْدُ وما أدْراكَ ما الأَزْدُ .. ودَوْس وما أدراك ما دَوْس :

لله دَرُّهم مِن أبطالٍ ، حفروا بالنور أسماءهم في سجلّ التاريخ ...

---

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٤٧٢ .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٧٦ .

وما يزال التاريخ يُنشد مع سيّدهم الطفيل بن عمرو الدّوْسي - وهو يُضرم النار في « ذي الكَفَيْن » صنمهم - :

يا ذا الكَفَيْنِ لستُ من عُبَّادِكَا
ميلادُنَا أقدَم من ميلادِكَا
إني حشوْتُ النارَ في فُؤَادِكَا

وفي طريقه إلى اليمامة لحربِ مُسيْلمة يرى البطل رؤيا يُؤوّلها : إني لأرجو أن أُقتل شهيدًا ، ويطلب ابني الشهادة ، لكنها يدركها فيما بعد .

وفي اليمامة أبلى الطفيل أعظم البلاء حتى خرَّ صريعًا على أرض المعركة . وأما ابنه عمرو فما زال يقاتل حتى أثخنتْه الجراح ، وقطعت كفُّه اليمنى وسبقتْه - إن شاء الله - إلى الجنة .. وكان له ما أراد وتمنّى في يوم اليرموك .

وفي اليرموك .. اشتد القتال في الأزْد ، فأُصيب منهم ما لم يُقتل مِن غيرهم مِنَ القبائل .. واستشهد عمرو يوم اليرموك وهو ثابت ، وهو يقول : يا معشرَ الأزْد ، لا يُؤْتينَّ المسلمون من قِبَلكم . وأخذ يضرب بسيفه قُدُمًا وهو يقول[1] :

قد علمتْ دوْس ويشكرُ تعلمْ ... أني أخو البيضِ ليومٍ مُظْلِمْ
وأعزلُ الشّكيم شدّ الأَيْهَمْ ... كنتُ عزيزًا في الوغَى وضيْغَمْ

وقد قَتل من أَشدَّائِهم تسعةً قبل أنْ يُقتل .

---

(١) أوردها الأزدي صـ ٢٢٤ :

قد علمتْ أوْسُ ويشكرُ تعلمْ ... أني إذا الأبيضُ يومًا مُظْلِمْ
وعرَّد النكْسُ وَفرّ الأيْهَمْ ... أني عُفْرٌ في الوقاعِ ضَيْغَمْ

وثبت **جندب بن عمرو بن حُمُمَة** ورفع رايته وهو يقول : يا معشر الأزْد ، إنه لا يبقى منكم ولا ينجو من القتل والعدوّ والإثم والعار إلّا مَن قاتل . ألا وإن المقتول شهيدٌ ، والخائب مَنْ تولّى . يا معشر الأزد ، إنه لا يمنع الراية إلّا الأبطال .

يا معشـرَ الأزدِ احتذاذُ الأفيالْ هيهاتَ هيهاتَ ووقوفٌ للحـالْ
لا يمنعُ الرايةَ إلّا الأبطالْ

وقاتل قتالًا شديدًا حتى قُتل ، يرحمه الله .

وكان **أبو هريرة رضي الله عنه** مِن رؤوس الأزْد فصاح يقول : يا مبرور ، يا مبرور . فأطافت به الأزد .

يقول عبد الأعلى بن سراقة : انتهيتُ إلى أبي هريرة يومئذٍ وهو يقول : تزينوا للحُور العِين ، وارغبوا في جِوار ربِّكم عز وجلّ في جنات النعيم ، فما أنتم إلى ربكم في موطنٍ مِنْ مَواطِن الخير أحبّ إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وإنّ للصابرين فضلَهم . ثم اضطربوا - الأزْد والروم - فوالذي لا إلٰه إلا هو لرأَيْنا الروم وإنها لتدور بهم الأرضُ وهم في مجالٍ واحدٍ كما تدور الرَّحا ، يعني يدورون حول أنفسهم ، فما برحوا ولا زالوا - يعني الأزد - وركْبهم من الروم أمثال الجبال ، فما رأيتُ موطنًا قطُّ أكثَر قُحْفًا[1] ساقطًا أوْ معصمًا نادرًا[2] أو كفًّا طائحة مِن ذلك المَوْطن ، والناس يضطربون تحت القسْطل (التراب) وقد - واللهِ - أوْحَلناهم شرًّا وأوحلونا ، فنحن في ذلك ، وكان جلّ القتال في الميمنة ، وإنّ القلْبَ ليلقُون مثلَ ما نلقى ، ولكنَّ حمَّة القوم وحدهم ....

(١) القحفة : العظم الذي فوقَ الدِّماغ . وما انفصل من الجمجمة من عظْم .
(٢) زائلًا عن موضعه .

وحَرْدَهم[١] وَحَنَقَهم علينا ، وكنا في آخر الميمنة ، فقد لقينا مِن قتالهم ما لَمْ يلقَ مثلَه أحدٌ ، فواللهِ إنا لكذلك نقاتلهم وقد دخل عسكرَنا منهم نحوٌ مِن عشرين ألفًا مِن ورائنا فعصمَنَا الله من أن نزول »[٢].

جبالٌ تقارع جبالًا ...

كنَّا جبالًا في الجبالِ وربَّما سِرْنا عَلَى مَوْجِ البحارِ بحارَا

نعم ...

وكنَّا عظامًا فَصِرْنَا عظامًا وكنَّا نقوتُ فهَا نحنُ قوتْ

قَبَاث بن أُشيم قائد الميْسَرةِ في اليرموك :

أشار خالد بن الوليد على أبي عبيدة بن الجراح بتوليته قائدًا للميسرة في اليرموك ، وقاتَلَ قبّاثُ يومئذٍ قتالًا شديدًا ، وأخذ يقول :

إن تفقدوني تفقدُوا خيرَ فارسٍ لدَى الغَمَرَاتِ والرئيسَ المُحامِيَا

وذَا فَخْرٍ لا يَمْلأُ الهولُ قلبَهُ ضَروبًا بنصْلِ السيفِ أروعَ ماضِيَا

وكسر في الروم ثلاثةَ رماحٍ وقطع سيفين ، وكان كُلّما كسر رمحًا أو سَيْفًا يقول : من يُعير سيفًا أوْ رمحًا - في سبيل الله - رجلًا قد حبَس نفسه مع أولياء الله وقد عاهد الله لا يفرّ ولا يبرح ، يقاتل المشركين حتى يظهر المسلمون أو يموت . فكان مِن أحسنِ الناس بلاءً في ذلك اليوم[٣].

الأَشْتر مالك بن الحارث النخعي ، ملك العرب :

قال عنه علي بن أبي طالب : « مالكٌ ، وما مالك ؟! وهل موجودٌ

---

(١) غضبهم .

(٢) الأزدي ٢٢٥ ، وابن عساكر ١ / ٥٤٠ .

(٣) الطريق إلى دمشق صـ ٤٤٣ ، ٤٨٤ .

مثلُ ذلك ؟! لو كان حديدًا لكان قيدًا ، ولو كان حجرًا لكان صَلْدًا ، على مثله فلتبْكِ البواكي »[١].

« فُقِئَتْ عينه يوم اليرموك ، وقاتل قتالَ الأبطال .. وتعقب مع خالدٍ فلول الروم بعد موقعة اليرموك فأدركهم في غوطة دمشق ، وتقدم إليهم الأشتر في رجالٍ من المسلمين فإذا أمامهم رجلٌ من الروم عظيمٌ جسيم ، واتجه إليه الأشتر فوثب عليه ، واستوى هو والرومي على صخرةٍ مستوية فتبادلا الضرب بالسيف ، فقَطع الأشترُ كفَّ الرومي ، وضرب الروميُّ الأشترَ بسيفه فلم يضرّه . واعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه فوقعا على الصخرة ، ثم انحدرا والأشتر يردِّدُ ﴿ **قُلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين** ﴾ ولم يزلْ يردّدها حتى انتهى إلى مستوى في الجبل ، فلما استقرّ وثب على الرومي فقتله ، وصاح في المسلمين أن يجتازوا . فلما رأت الروم أن صاحبَهم قد قتل انسحبوا من الثَّنية وانهزموا ، وكان الأشتر ذا بلاءٍ حسنٍ في اليرموك ، قتَلَ ثلاثةَ عشر . وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحوَ الشرق ، وأشاعوا النكاية في الروم الفارّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشِّعَاب والسهول ، حتى انتهى إلى حمص »[٢].

عمرُو بن سعيد بنِ العاص شهيدُ « فحلٍ » وبطلُها :

استشهد البطل في معركةِ فحل ، « رُئِيَ وهو مضروبٌ على حاجبه بالسيف ، وقد ملأ الدمُ عينيْه ، وهو لا يستطيع أن يطرف ولا أن يفتح جفنَه من الدم ، وكان الروم قد حنقوا عليه لِمَا رأوْا مِن شدةِ قتاله ، فجرَّدوا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٤ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٦ / ١٩١ أ .
(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٩٥ .

له فريقًا ، فمشى إليهم بسيفه فضاربهم ساعة ، وثارَ بينهم الغبارُ ؛ فشدّ عليهم المسلمون ، وإذا الروم قد قطّعوه بسيوفهم ، ووجِد به أكثرُ من ثلاثين ضربة »[١] .

وما يضيره وقد مضى البطل إلى ربه ، ومنح الله إخوانه من المسلمين أكتاف الروم ، وقتلوا قائدهم سقلار (سكلاريوس) ، وقتلوا منهم زهاءَ عشرة آلافٍ .

قيس بن هبيرة قائد ميْمنةِ الفرسان في « فحل » وبطلٌ من اليرموك :

كان هذا البطل مِن سلاح الفرسان ، وقائد ميمنة الفرسان في قوات خالد في معركة « فحل » .

حمل على ميْسرة الروم ، فقصف بعضهم على بعضٍ ، وقد تكسّرتْ في يدِ قيْسٍ يومئذٍ ثلاثةُ أسيافٍ وبضعة عشر رمحًا ، وكان يقاتل وهو يقول :

لا يَبْعُدَنَّ كل فتى كَرَّارِ ماضي الجَنَانِ خشنٍ صبّارِ
حبوتُهم بالخيْل والإدبار يَقْدُمُ إقْدَامَ الشجاعِ الضَّاري[٢]

أين تدعون الجنة ..... وتأتون قرحًا والحِجْر ؟!

قبْل اليرموك أشار رجلٌ على أبي عبيدة بالرجوع ، وقال : أما إنك لو خرجت حتى تنزل قرحًا والحِجْر ، وانتظرنا مَدَدَنا هناك لكانَ منزلًا . وقد كانت قرحُ وحِجْر ثمود إلى الوراءِ كثيرًا قريبًا مِن المدينة . فقال قيْس ابن هُبيرة : لا ردّنا اللهُ إذنْ إليها إن خرجنا لهم عن الشام أكثر مما خرجنا لهم عنه .. أتدعون هذه العيون المتفجرة والأنهار المطّردة والزروع والأعناب

---

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٣٤٤ .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٥ .

والخُمُر والذهب والفضة والحرير وترجعون إلى أكل الضِّباب ، ولُبْس العناء ، والبؤْس والشقاء ، وتزعمون أن قتيلنا يدخل الجنة ويصيب نعيمًا لا يشاكله نعيم ! فأين تدعون الجنة وتهربون منها وتزهدون فيها ، وتأتون قرحًا والحِجْر ؟! لا صحب اللهُ مَن سار إليها ولا حفظه . قال أبو عبيدة : الحقُّ ما قُلت يا قيْس ، أتريدون أن ترجعوا إلى بلادكم وتدَعُوا لهؤلاء القوم حصونًا وديارًا وأموالًا قد فتحها الله عليكم ونزعها من أيديهم ، ثم تدعونها وتخرجون منها ، وترجعون إليها ثانية تقاتلونهم عليها ، وقد كفاكم الله مُؤْنة نزْعها من أيديهم . هذا والله رأي مضلل .

قال خالد : جزاك الله خيرًا يا قيْس ؛ فإن رأيك موافقٌ لرأيي ، ولسنا - واللهِ - بمرتحِلين ولا زائلين من هذه البلاد حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . وقال ميسرة بن مسروق : فقال لأبي عبيدة : أصلحك الله ، لا تبرح مكانك الذي أنت فيه وتوكل على الله ، وقاتل عدوَّك ؛ فوالله إني لأرجو أن ينصرك الله عليهم . عَلامَ تدعُ لهم البلاد وقد قاتلناهم عليها حتى نفيْناهم عنها ، وقتلنا بطارقتهم وفرسانهم فيها يوم أجنادين ويوم فحل ؟! قال أبو عبيدة : لستُ بارحًا وقد ولّيْتُ خالد بن الوليد ما خلْف بابي ، وأنا معكم لا أبرح الأرض حتى يحكم الله بيننا ، وهو خيرُ الحاكمين .

لله دَرُّكَ قيْسُ مِن مشمِّر للجنة مُرَغِّب فيها !

وقبل معركة اليرموك ، لما أراد الرومُ منعْ التموين عن المسلمين الذي يأتي إليهم من الأردن نازلهم خالدٌ في ألفيْ فارس ، وكان على خيْلِهِ قيس بن هبيرة ، فحمل قيسٌ على خيولِ الروم واقتتلوا اقتتالًا شديدًا ، وحمَل

---

(١) الأزدي ١٧١ .

قيسٌ في خَيْل المسلمين على خيلهم فهزمها ، حتى اضطرها إلى الرَّجَّالة الذين مع خالد .. وقال قيْس لرجلٍ من بني نُمير مرّ به البطريق - قائد قوات الروم - يركض منهزمًا : يا أخا بني نُمير ، لا يفوتنَّك البطريق ؛ فإني والله قد كددتُ فرسي على هذا العدو من هذا اليوم ، حتى ما عند فرسي مِن جريٍ . فحمل عليه النميري فركضَ في أثره ساعةً ، ثم إنه أدركه . فلما رأى البطريق أنه قد غشيه وأحرجه عطف عليه البطريق ، فاضطربا بسيْفيْهما ، فلم يصنع السيفانِ شيئًا ، واعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ، ووقعا على الأرض فاعتركا ساعةً ، ثم صرعه النميريُّ ، ووقع النميريُّ على صدْر البطريق فضمَّه البطريق إليه ، وكان مثل الأسد ، فجعل النميري لا يستطيع أن يتحرك ، وبصُر بهما قَيْسٌ فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : يا أخا بني نُميرٍ ، قتلتَ الرجلَ إن شاء الله ؟ قال : لا ، واللهِ ما أستطيع أن أتحرك ولا أضربه بشيءٍ ، ولقد ضمّني بفخذِهِ وأمسك يديَّ بيديْه . فنزل إليه قيسٌ فضربه فقطع إحدى يديْه ثم تركه وانطلق ، وقال للنميريّ : شأنك به . وقام النميري فضربه بسيفه حتى قتله ، ومرّ به خَالد بن الوليد فقال له : ما هذا يا قيس ، ومَن قتله ؟ فقال له قيس : قتله هذا النميري . ولم يخبرْه بما صنع هو[1] .

في اليرموك :

« وفي اليرموك كان لبطلنا الدورُ الرائع الذي زلزل قلوبَ الروم .. فقد خرج الروم وصفُّوا صفوفهم ، ورفعوا راياتهم ، وخرجوا بالصُّلبان ومعهم القسِّيسون والرهبان والبطارقة ، وأخرجوا إلى المسلمين خيلًا أضعافَ خيل المسلمين ، فلما تدانتْ خيلُهم من خيل خالد خرج بطريق من بطارقتهم

(١) الطريق إلى دمشق صـ ٤٤٠ - ٤٤١ .

وشُجعانهم يتعرض لخيل المسلمين ويطلب المبارزة ، فقال خالد : أما لهذا رجل يخرج إليه ؟ فأراد ميْسرة بن مسروق أن يخرج إليه ، فقال له خالد : أنت شيخ كبيرٌ وهذا الرومي شابٌّ ، ولا أحب أن تخرج إليه . وأراد عمرو ابن الطفيل أن يخرج إليه ، فقال له خالدٌ : يا ابن أخي ، أنت غلامٌ حديثُ السِّنِّ ؛ وأخاف ألا تقوى عليه . وأراد الحارث الأزدي أن يخرج إليه ، ولم يكن بارَزَ رجلًا قطُّ قبلَه ، فقال له خالد : فلا تخرج إليه . قال قيْسُ ابن هبيرة : يا خالد ، كأنك عليّ تحوّط ؟ قال له : أجَل ، فإني أرجو إنْ أنت خرجتَ إليه أنْ تقتله ؛ فإنْ أنت لم تخرج إليه لأخرجنَّ أنا إليه . وخرج قيسٌ وهو يقول :

سائِلْ نساءَ الحيِّ في حِجَالِهَا ألستُ يومَ الحربِ مِن أبطالِهَا
ومُقَعِّص[1] الأقْرانِ مِن رجالها

فلمّا دنا منه ضرب الروميُّ فرسه وحمل عليه ، فما لبث أن ضربه بالسيف على هامته فقطع ما عليه من السلاح (المغفر) ، وفلق هامته وسقط الروميُّ أمامَ فرسه قتيلًا ، وكبّر المسلمون . صاح خالد : ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احملْ عليهم يا قيس »[2].

لله دَرُّكَ يا قيس ، تفلق هامة البطريق العملاق الجسيم - ذي المنظر والمهابة - ومغفرَه بضربةٍ واحدةٍ أمام مائتي ألفٍ من الروم .. وقيسٌ نفسُه هو الذي يأمره خالد بالحمل على الروم ؛ لأنه الآن صاحب الرهبة في نفوس الروم ، بعد أن جنْدَلَ بطَلَهم بضربةٍ واحدةٍ .

---

(١) مُقَتِّل .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٥١ .

مَيْسرة بن مسروق العَبْسيُّ ، الشيخُ البطلُ :

كان مِن سلاح الفرسان ، وقائد قلبهم في معركة فحل بيسان .

ومع كِبَرِ سنِّه كان أسدًا ضرغامًا .. ويكفيه شهادةُ سيف الله خالدٍ : إنك ما علمتُ حسنُ البلاءِ عظيمُ الغناء .

وعن « فحل » يقول سالم بن ربيعة العبسي : حمل ميسرة بن مسروق العبسي يومئذٍ ونحن معه في الخيل ، فحملنا على القلْب ، وقد أخذ صفُّ الروم ينتقض من قِبَلِ مَيْسرتهم ومَيْمنتهم ، ولم ينته إلى الانتقاض إلى القلبِ بعدُ ، فثبتوا لنا ، وقاتلونا قتالًا شديدًا ، فَصُرِع[1] ميسرة عن فرسه وصُرِعتُ معه ، ويعتنق ميسرةُ رجلًا مِنْ الروم ، فاعتركا ساعةً فصرعه ميسرة فقتله ، ثم شدّ آخرُ على ميسرة فعانقه ، واعتركا ساعةً فَصرع ميسرة وجلس على صدره ، وأَشدُّ عليه فضربتُ وجهَ الرومي بالسيف فأطرتُ قحْفَ رأسِه ووقع ميتًا ، ووثب ميسرةُ ، وأقبل رجلٌ منهم فضربني ضربةً أدارني منها ، وبصُر به ميسرةُ فضربه فقتله[2].

أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ وابنُه يزيد :

أبو سفيان شيخ قريش وسيدها ، وصاحب المكيدة والرأي ، صاحب : « يا نصرَ الله اقتربْ » .

قبل معركة اليرموك .. « وكان أمراء الجيش مجتمعين في خباءِ يزيد بالجابية ، يسمعون الخبر من عَيْنٍ لهم مِن قُضاعةَ يخبرهم بكثرة الروم ونزولهم على نَهْر ....

(١) سقط .

(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٣٣٩ .

الرقاد[١] ومرج الجولان . وطاف بهم أبو سفيان فقال : ما كنت أظنُّ أني أبقى حتى أرى غِلْمةً مِن قريشٍ يذكرون أمْر حربهم ويكيدون عدوّهم بحضرتي لا يحضرونيه . فقالوا : هل لكم إلى رأي شيخكم ؟ قالوا : ادخل أبا سفيان . فدخل ، فقال : إن معسكركم هذا - بالجابية - ليس بمعكسر ؛ إني أخاف أن يأتيكم أهل فلسطين والأردن فيحُولوا بينكم وبين مَدَدِكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا أَذْرُعَات خلف ظهوركم يأتكم المددُ والخيرُ . فحدد لهم أبو سفيان مكان معركة اليرموك .. وقد كان هذا من براعة الفِكر الحربي عند المسلمين أنهم كانوا يختارون أرض المعركة حين يُتاح لهم ذلك ، خاصة إذا كانت المعركة هامّة وحاسمة .

قال أبو سفيان : إذا قبلتم هذا من رأيي فأمِّروا خالد بن الوليد على الخيول ، ومروه بالوقوف بها مما يلي الرقاد ، وأمّروا رجلًا على المرامية - الرُّماة - وأخرجوا إليهم كلّ نابضٍ بوترٍ ، ومُرُوه بالوقوف فيما بين العسكرْين وبين الخيول ، فإنه ستكون لرحيل العسكر من السَّحر أصواتٌ عاليةٌ تُحدثِ لعدوّكم فيكم طمعًا ، فإنْ أقبلوا يريدون ذلك لقيتْهم الخيول فكفّتْها »[٢]. وقبلوا ذلك منه وكان الأمر كما قدّر أبو سفيان .

وفي اليرموك كان بيتُ أبي سفيان في المعركة ، هو وولداه يزيد ومعاوية وزوجه هند بنت عتبة . فخرج أبو سفيان يومئذ يسير في المسلمين ، ويقف على أهل كلِّ رايةٍ وعلى كلّ جماعةٍ يحضُّهم ويعظهم ويقول : « إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دارِ العجم منقطعين عن الإبل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمدادِ المسلمين ، وقد - والله - أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثيرٍ

---

(١) من روافد نهر اليرموك .
(٢) تاريخ ابن عساكر ١ / ٥٣٢ .

عددُهم شديدٍ عليكم حَنَقُهم ، وقد وترتموهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وبلادهم ، فلا واللهِ لا يُنجّيكم منهم اليوم وتبلغون رضوانَ الله إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ، ألا إنها سُنةٌ لازمةٌ ، وإن الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارٍ وبرارٍ ، ليس لأحد فيها معقل ولا معقول إلا الصبر ورجاءُ ما وعد الله ؛ فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتقرّبوا بها إلى خالقكم ، ولتكنْ هي الحصون التي تلجأون إليها وبها تمتنعون »[١].

« وكان رضي الله عنه يسير فيقف على الكراديس فيقول : اللهَ اللهَ ؛ إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يومٌ من أيّامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك »[٢].

« وجاءتْ نساءُ المسلمين فوقفن على مرتفعٍ خلْف الصفوف ينظرنَ ما يكون من أمْر المعركة المرتقبة ، فرجع إليهن أبو سفيان ، وأمر بالحجارة فأُلقيتْ بين أيديهن ، ثم قال لهن : لا يرجع إليكنَّ أحدٌ من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة وقلتنّ : مَنْ يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله ، وعن النساء بأرض العدو ؟ فالله الله . ثم رجع إلى موقفه مِن صفوف المسلمين ونادَى : يا معشر أهل الإسلام ، حضر ما تَرَون ، فهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم . ثم وقف موقفه »[٣].

ما أجمل الإسلام .. يغيّر صناديد الشرك وقادته .. فيجعلهم قِمَمًا في سماءِ التوحيد !

---

(١) فتوح البلدان للبلاذُري صـ ١٦٠ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٩٧ .
(٣) تاريخ دمشق ١ / ٥٣٧ ، والأزدي ٢٢٠ .

« قال حبيب بن مسلمة : كان يزيد بن أبي سفيان من أعظم الناس غناءً ، وأحسنِهم بلاءً هو وأبوه جميعًا ، وقد كان أبوه مرّ به وهو يحرّض الناس ويعظهم ، فقال : يا بنيّ ، إنك تلي مِن أمر المسلمين طرفًا - ويزيد حينئذٍ على ربْع الناس - وإنه ليس بهذا الوادي رجلٌ من المسلمين إلا وهو محقـوقٌ بالقتال ، فكيف بأشباهك الذين وُلّوا أمورَ المسلمين ؟! أولئك أحقُّ الناس بالجهاد والنصيحة والصبر والتضحية ، فاتّقِ الله يا بُنيّ وأكرمْه في أمرك ، ولا يكوننَّ أحدٌ من أصحابك أرغب في الآخرة ، ولا أصْبر في الحرب ، ولا أشد نكايةً في المشركين ، ولا أجهدَ على عدوّ الإسلام ، ولا أحسنَ بلاءً عندهم منك . فقال : أفعلُ واللهِ يا أبت . فقاتل يزيدُ في الجانب الذي كان فيه قتالًا شديدًا ، وكان في الميسرة ممّا يلي القلب » ..

ولله دَرُّ هندٍ حين تقول : « قاتلوا فلستم ببعولتِنَا إن لم تمنعونا ... عَضّدوا الغلفان بسيوفكم »[1] ...

رضي الله عنكم أهل بيتٍ من بيوتِ قريشٍ .. بيتٍ سمَا وعلا بمصاهرة رسول الله ﷺ . ولا يزال بسمْع التاريخ صوتُ أبي سفيان اليرموك يجلجلُ حتى يُسمعَ الجيش : « يا نصر الله اقترب » .

القادسيَّة ... وما أدراك ما القادسية !

فالقادسيةُ ما يزالُ حديثُها ... عِبَرٌ تضيءُ بأطيبِ الألوانِ
تحكي مفاخِرَنا وتذكرُ مجدَنَا ... فتجيبهــا حِطّــينُ بالمنــوالِ
صفحاتُ مجدٍ في الخلودِ سطورُها ... دانَ الرجـال لهـا بغيْر جدالِ
وكأنني بابن الوليد وجنده ... وبكـلِّ كفٍّ لامعِ الأنصـالِ
نشرُوا على أرضِ الخليلِ لواءَهمْ ... فغـدَا يظلّلُ أطْهـرَ الأطـلالِ

---

(١) الأزدي صـ ٢٢٨ ، والبلاذري ١٦٠ .

وعن اليمينِ أبو عبيدةَ قد أتى ... وأتَى صلاحُ الدينِ صوبَ شِمالِ
يَسعىٰ إليهمْ قد شَرَوْا أرواحَهُمْ ... للهِ بعـــدَ تســـابقٍ لقتـــالِ
فَهُم الأعزَّةُ في كتابٍ خالدٍ ... ما بعـدَ قوْلِ اللهِ مِـنْ أقـوالِ

جوائِز مِنْ عُمَرَ لأُسْدِ القادسِية :

عُمر ... وما أدراك ما عمر !

انظر إلى شهادة الكفار في حقِّه : يقول رستم : « أكَلَ عمرُ كبدي ، أحرق الله كبده . وإنما هو عمر الذي يُكَلِّم الكلاب فيعلمهم العقل ، علّم هؤلاء حتى علمُوا »[1].

أرسل عمر مع رسولٍ خاصٍّ ثماني جوائز ، مكافأةً لمن يرى القائدُ سعد أنهم قد أبلوْا في الجهاد أحسنَ مِن غيرهم ، وهذه الجوائز هي أربعة سيوفٍ مِن أجودِ السيوف ، وأربعة أفراسٍ عربية أصيلة ، فسلّمها سعد إلى أحسن الناس غناءً عن الإسلام في القتال . وهؤلاء الثمانية ثلاثة منهم من بني أسد ، وخمسة من بني تميم .

أمّا الأسْدِيُّون الثلاثة فهم : طليحة بن خويلد الأسدي ، وحمَّال بن مالك الوالبي الأسدي ، والربيل بن عمرو بن ربيعة الوالبي الأَسْدي .

وأما الخمسةُ الذين هم من بني تميم فهم : القعقاع بن عمرو ، وأخوه عاصم بن عمرو ، ونعيم بن عمرو بن عتّاب ، وعتّاب بن نعيم بن عتّاب ، وعمرو بن شبيب بن زنباع .

فدعا سعدُ حمالَ والربيل وطليحة وعاصم فأعطاهم الأسياف؛لِمَا تفوّقوا به على غيرهم في القتال يوم أرماث ، ودعا القعقاع بن عمرو اليربوعيين

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٢ .

نعيم وعتّاب وعمرو بن شبيب ، فحملهم على الخيل لبسالتهم يوم أغواث . فأصاب ثلاثةٌ من بني أسد ثلاثةَ أرباع الأسياف ، وأصاب ثلاثةٌ من بني يربوع ثلاثة أرباع الأفراس . وفي ذلك قال الربيل بن عمرو :

لقد عِلم الأقوامُ أنّا أحقُّهم ... إذا حصلوا بالمرهَفَاتِ البَواترِ
وما فتئَتْ خيلي عشيةَ أرمثُوا ... يذودون رهوًا عن جموعِ العشائرِ
لدُنْ غدوةٍ حتَّى أتى الليلُ دونَهُمْ ... وقد أفلحتْ أخرى الليالي الغوابرِ

وقال القعقاع في شأْنِ الخيل :

لم تعرفِ الخيلُ العرابُ سَواءَنا ... عشيةَ أغواثٍ بجنبِ القوادِسِ
عشيةَ رُحْنَا بالرِّماحِ كأنَّهَا ... على القومِ ألوانُ الطيورِ الرسارِسِ[(١)]

طليحة بن خُويْلد بن نوْفل الأسدي ، البطل الكرّار صاحب رسول الله ﷺ ومَن يُضرب بشجاعته المثل :

« أسلم ثم ارتدّ وظلم نفسه ، وتنبّأ بنجد ، ثم ارعوى ، وأسلم وحسُن إسلامه لما تُوفي الصديق .

شهد القادسية ونهاوند ، وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص : أن شاوِرْ طليحةَ في أمْر الحرب ولا تُولِّهِ شيئًا .

قال محمد بن سعد : كان طليحة يُعدّ بألِف فارسٍ لشجاعته وشدَّته .

أبلى يوم نهاوند ثم استشهِد رضي الله عنه »[(٢)].

« في يوم أرماث أول أيام معركة القادسية ألقتْ فارس بثقلها على

(١) القادسية لأحمد عادل كمال صـ ١٥٨ طبع دار النفائس ، و« القادسية » لبشاميل صـ ٦٣٤ ، ٦٣٥ . والرسارس أي : النشيطة .
(٢) سير أعلام النبلاء ١ / ٣١٦ - ٣١٧ .

« بجيلة » أقوى جانب في مَصافّ المسلمين ، وكان قِوام الهجوم الفارسي اثنين وخمسين ألفِ مقاتلٍ تساندهم تسعة أفيالٍ ، وألقى الفُرْسُ حَسَكَ الحديد تحت سنابك خيلِ بجيلة لتتعطل عن الحركة ، وقصفوهم بوابل من نشاباتهم،وأدرك سعدٌ ما تعانيه بجيلة وكندة فأصدر أمره إلى أقوى وأشجع قبيلة تقع على ميمنة بجيلة ، وهي قبيلة بني أسد : ذُبُّوا عن بجيلة ومَنْ لافّها مِن الناس . فاستجابت أسد لأمر سعد ، وقام فيها فارسها المعلَّم - الذي يُعدُّ بألف فارسٍ - طليحة خطيبًا وقال : يا عشيرتاه ، إنّ المُنوّه باسمه الموثوق به ، وأن هذا - يعني سعدًا - لو علم أن أحدًا أحقُّ بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم .. ابتدئوا الشّدّة ، وأقدِموا عليهم إقدام اللّيوث الحربة .. فإنما سُمّيتم أسدًا لتفعلوا فعلة الأسد ، شدّوا ولا تصدّوا[1] ، وكِرُّوا ولا تفرّوا ، لله درُّ ربيعة ! أيّ فريّ يفرون ، وأيّ قرنٍ يفنون ! هل يُوصل إلى مواقفهم ؟! فأغْنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدُّوا عليهم باسم الله »[2] .

قال المعرور بن سويد - وكان ممّن شهد القادسية - : شدَّ بنو أسد على الفُرس ، واللهِ فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفيلة عنهم فأخرت ، وخرج إلى طليحةَ عظيمٌ منهم فبارز ، فما لبّثه طليحة حتى قتله. وخرج الجالينوس فاعترضه طليحة وجهًا لوجهٍ ، وضربه ضربةً على رأسه ، ولكنّ مغْفَره كان سميكًا فشقه السيف ولم ينفذ إلى رأسه ، فنجا من القتل ، فقال طليحة شعرًا :

أنا ضربتُ الجالينوسَ ضَرْبهْ حينَ جيادُ الخيلِ وسْطَ الكُبّهْ

وكان يوم أرماث هو يوم بني أسد بحقٍّ ؛ لأنهم لم يَبلُ في ذلك

---

(١) أي : لا تقفوا مدافعين .

(٢) القادسية ومعارك العراق صـ ٦١٨ - ٦١٩ لمحمد أحمد بشاميل ، وتاريخ الطبري ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

اليوم أحدٌ مثل بلائهم .. بقيادة طُليحة بن خُويلد فارسِها الذي يعدِل ألفَ فارسٍ ، وأظهروا بطولاتٍ كانت مثارَ إعجابِ كلّ المسلمين ...

يقول الأشعث بن قيْس الكندي - لما قام خطيبًا في قومه (كندة) - : يا معشرَ كندةَ ، للهِ درّ بني أسد ، أيّ فريّ يُفرون ، وأيّ هذٍّ يهذّون عن موقفهم ؟!

وفي يوم « عماس » من أيام القادسية : غامر طليحة - وكان مقدامًا لا يَهاب الموتَ ، ويعدل ألفَ فارس - وعبَر بمفردِهِ نحو الفرس فجاءهم من وراء العتيق ، حيث الجسر المردوم ، حتى صار خلف صفوفهم ، ومِن هناك كبّر ثلاثَ تكبيراتٍ ارتاع لها الفرس ، فظنُّوا أن جيش الإسلام جاءهم من ورائهم . وتعجّب المسلمون وكفّ بعضُهُم عن بعض ...

فلله درُّ رجلٍ يُرْعِب تكبيرُه الفُرسَ ... يخاطب طليحةُ الفُرس بعدهم قائلًا : لا تُعدموا أمرًا يضعضعكم .

قال طليحة :

طرقَتْ سُلَيْمَى أَرْحُل الرَّكْبِ ... أنّي اهتديتُ بسَبْسَبٍ سَهْبِ
أنّي كَلَفْتُ سلامَ بُعدكم ... بالغارةِ الشّعواءِ والحرْبِ
لوْ كنتِ يومَ القادسيةِ إذْ ... نازلتُهم بمهنّدٍ عضْبِ
أبْصرْتِ شَدّاتي ومُنْصرفي ... وإقامتي للطَّعْنِ والضَّرْبِ

وانظرْ - يربك - ما فعل هذا المغوار الذي يعدلُ جيشًا بأسْرِهِ قبل معركة القادسية :

« بعث سعدٌ طليحةَ بن خويلد وعمرو بن مَعْدي كَرِب الزبيدي في غير قوةٍ من خيْلٍ ، كالطليعة في « دَوْرِيَّةٍ » استكشافيةٍ ، فكان طليحةُ وحده مكلّفًا بعسْكرِ رُسْتم ، وكان عمرٌو في خمسةٍ من أصحابه مكلّفًا بعسكر

جالينوس ، وأمرهم أن يصيبوا له رجلًا منهم ليستخبره . فلمّا تجاوز طليحةُ وعمرٌو قنطرةَ القادسية لمْ يسيروا إلا فرْسَخًا وبعض فرسخٍ - حوالي سبعة كيلو متراتٍ - حتى رأوا خيلًا عظيمةً ، وقواتُ المجوس تتحرك بسلاحها قد ملئوا الطّفوف[١]. قال بعضهم : ارجعوا إلى أميركم فإنه سرحكم ، وهو يرى أنّ القوم بالنّجف ، فأخْبِرُوه بالخبر . وقال بعضُهم : ارجعوا ، لا ينذر[٢] بكم عدوكم . فقال عمرو : صدقتم . وقال طليحة : كذبتم ، ما بعثتم لتخبروا عن السّرح ، وما بعثتم إلا للخبر . قالوا : فما تريد ؟ قال : أريد أن أخاطر القومَ أوْ أهْلكَ . فقالوا : أنت رجلٌ في نفسك غدْرٌ ، ولن تفلح بعد قتْل عكّاشةَ بن محْصَن ؛ فارجع بنا . فأبى ، ثم فارقهم يريد معسْكَرَ رُستم في مغامرةٍ خطيرةٍ[٣].

« ومنذ فارق طليحة عمرًا وهو يعمل للدخول إلى قلْب معسكر رستم بمفرده ، مع العلم أنَّ معكسر رستم يضمُّ ثمانينَ ألفِ مقاتلٍ ، ومثلهم من الخدم والحرس الخاصّ ، ولكنها شجاعة وجرأةُ بطل الأبطال طليحة ، فقد مضى يعارض المياه المنبثقة من الأنهار حتى دخل عسكر رستم ، دخله في ليلةٍ مقمرةٍ ، وبات ليلةً يتخبّر ، وكان يحبُّ الخيل كعاشقٍ للفروسية فرأى فرسًا لم يَرَ مثلها في خيل رستم ، ورأى فُسطاطًا أبيض لم يَرَ مثله ؛ فامتشق حسامَه . فقطع به مِقْوَد ذلك الفرس ثُمَّ ربطه إلى مِقْوَد فرسه ، ثم مشى بفرسِهِ وخرج يعدو به ، وأحسَّ الفرسُ بما حدث فتنادَوْا ، وركبوا الصّعبة والذّلولَ ، وتعجّل بعضهم فلم يسرجْ فرسَه ، وخرجوا يجدّون في أثره . ولحِقه فارسٌ منهم مع الصباح ، فلما أدركه وصوّب إليه رُمْحَه

---

(١) ما أشرف على الأرض على ريف العراق .
(٢) نذر به : علِمَه فحذِره واستعدّ له .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٥١٢ - ٥١٣ .

ليطعنه عَدَل طليحة فرسَه ومال به عن تصويب الفارسي ، فانصبّ الفارسي بين يديْه وصار أمامه ، فكرّ عليه طليحة وطعنَه برمحه فقصمَ ظهره ، وانطلق يعدو بفرسه ، فلحق به أعجميٌّ آخرُ ففعل به مثلَ ما فعل بالأول وانطلق يعدو ، فلحق به ثالثٌ وقد رأى مصرعَ صاحبيْه ، وهما ابنا عمِّه فازداد حنَقًا ، فلما لَحِقَ بطليحةَ وبوّأ له الرمحَ ليطعنه عدَل طليحةُ فرسَه فانصب المجوسي أمامَه ، وكرّ عليه طليحةُ وقد شرع رمحه ودعاه إلى الأسر ، وأدرك المجوسي أنه مقتولٌ فاستسلم ، وكانا قد اقتربا من معسكر المسلمين ، فأمره طليحة أن يركُض بيْن يديْه ، وهو يسُوقه من خلفه برمحه ، وهو على فرسه فامتثل للأمر . وأقبل جمعٌ آخر من العجم يجدّون في آثارهما فرأَوْا فارسَيْهم وقد قُتِلا ، وشاهدوا الثالث يركض مُسْتَسْلمًا أمام طليحة ، وقد أوشكا على دخول معسكر المسلمين فأحجموا ونكَصُوا ، ثم عادوا من حيث أتوا . وجاء طليحة على فرسه يسحب وراءَه الفرس التي غنِم ، وأسيره يعدو بين يديْه ، ودخل عسكرَ المسلمين ففزعوا منه ، ثم أجازوه حين عرفوه ، فدخل على سعدٍ . قال له سعد : ويحك ، ما وراءك ؟ قال طليحةُ : دخلتُ عساكرهم وجُسْتُها منذ الليلة ، وقد أخذتُ أفضلهم توسُّمًا ، وما أدري : أصبتُ أم أخطأتُ ، وها هو ذا فاسْتخبره .

لم أرَ ولم أسمعْ بمثل هذا :

« استدعى سعد المترجم ليقوم بالترجمة بين الاثنين ، فقال الأسيرُ الفارسي: أتؤمِّنني على دمي إن صدَقتك ؟ قال سعد : نعم ، الصدق في الحرب أحبُّ إلينا من الكذب . قال الأسير الفارسي : أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمّن قِبَلي .. باشرتُ الحروبَ وغشيتُها ، وسمعت بالأبطال ولقيتُها منذ أنا غلامٌ إلى أن بلغتُ ما ترى ، ولم أرَ ولم أسمع بمثل هذا أنّ رجلًا قطع عسكريْن ، لا يجترئ عليهما الأبطال إلى عَسْكرٍ فيه سبعون ألفًا ، يخدم الرجل

منهم الخمسة والعشرة ، إلى ما هو دون ، فلم يرضَ أن يخرج كما دخل حتى سَلَب فارس الجُند ، وهتك أطنابَ بيته ، فأنذره فأنذرنا به ، فطلبناه فأدركه الأول وهو فارسُ الناس ، يعدل ألف فارسٍ فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيرُه فقتله ، ثم أدركته ولا أظنُّ أنني خلّفتُ بعدي من يعدِلني ، وأنا الثائر بالقتيلَيْن وهما أبناءُ عمّي ، فرأيتُ الموت فاستأسرتُ . ثم أخبر سعدًا عن أهل فارسٍ بأن الجند عشرون ومائة ألفٍ ، وأن الأتْباع مثلُهم خُدّامٌ لهم ؛ ورغب الأعجمي في الإسلام فأسلم بمحْض إرادته ، فسمّاه سعدٌ مسلمًا ، فكان يوم القادسية وغيرها من أهل البلاء ، فقد استفاد منه المسلمون لخبرته بأرضِ فارس ؛ ولأنه فارسيٌّ يعدِل بألف »[1].

مِن فرسان العربْ في الإسلام :

علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقّاص ، والزبير ، وطلحة ، ورجال الأنصار ، وعبد الله بن خازم السُّلمي ، وعمرو بن معد يكرب ، وعباد بن الحُصَين ، وعُمير بن الحُباب .

وقالوا : ما استحيا شجاع قطُّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم .

وقالوا : ذهبَ حاتم بالسخاء ، والأحنف بالحلم ، وخُزَيْم بالنعمة ، وعُمَيْر بن الحباب بالشّدّة .

فارسُ اليمن أبو ثور ، عمرو بن مَعْديكرب :

أبو ثور .. ومَن مثل أبي ثور !!

بعث عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرّن - وهو على الصائفة -

---

(١) القادسية لبشاميل صـ ٥٦٢ - ٥٦٣ ، والقادسية لأحمد عادل كمال صـ ٩٥ - ٩٧ .

أن استعنْ في حربك بعمرو بن معديكرب ، وطُليحة الأسْدي ، ولا تولّهما مِن الأمر شيئًا .

وبعث عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيْفه المعروف بالصَّمصامة فبعث إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فردّ عليه : إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به[1].

وفي سيف عمرو (الصَّمصامة) قال الشاعر ابن يامين :

سيفُ عمرٍو وكانَ فيما سمِعنَا ... خيرُ ما أُغمدتْ عليهِ الجفُونُ
أخضرُ المتنِ بينَ حدَّيْهِ نورٌ ... مِن فرنْدٍ تمتدُّ فيهِ العيونُ
أوقدتْ فَوقَه الصّواعقُ نارًا ... ثمَّ شابتْ بهِ الذُّعافُ المنونُ
وكأن المنونَ نِيطتْ إليهِ ... فَهْوَ مِنْ كلِّ جانبَيْهِ مَنونُ
نِعْمَ مخراقُ ذي الحفيظةِ في الهَيْـ ... ـجاءِ يسطو بهِ ونِعْمَ القرينُ
ما يُبالي مَنِ انتضَاه لضرْبٍ ... أَشِمالٌ سَطَتْ بهِ أمْ يَمِينُ

وقال رحمه الله :

أَعاذِلُ عُدَّتي بَزِّي ورُمحي ... وكلُّ مُقَلَّصٍ[2] سَلِس القِيادِ
أَعاذِلُ إنما أفنَى شبابي ... إجابتَي الصَّريخ إلى المُنادِي
مَعَ الأبطالِ حتَّى سَلَّ جِسمي ... وأقْرحَ عاتِقِي حَمْلُ النِّجَادِ
وَيَبْقَى بعدَ حِلْمِ القوْمِ حِلمي ... ويفنَى قبلَ زادِ القوْمِ زادي
وَمِنْ عجبٍ عجبتُ لهُ حديثٌ ... بديعٌ لَيْسَ مِن بدْعِ السّدادِ
تمنّى أنْ يلاقيني أبيٌّ ... وَدِدْتُ وأينما مني وِدَادي

---

(١) العقد الفريد ١ / ١٧٩ .

(٢) الفرس الطويل القوائم .

تَمنَّـاني وسـابغتي قميصي كأنَّ قتيرَها[١] حَدَقُ الجَرَادِ
وسيفٌ من لَدُنْ كنعانَ عندي تُخُيِّر نصْلهُ مِن عهدِ عـادِ
فلو لاقيتـني لَلقـيتَ ليْثًا هَصُـورًا ذَا ظُبًا وشَبًا حـدادِ
ولاستيقنتَ أنَّ الموت حقٌّ وصرّحَ شَحْمُ قلبِكَ عنْ سَوادِ
أريـدُ حياتـه ويـريدُ قتـلي عَـذِيرك مِن خليلِكَ مِـن مُرادِ

وقال رحمه الله :

تمنّـــاني عـــلى فـــرسٍ علــيهِ جالســـًا أَسَـــدُهْ
عـــليّ مُفاضـــةٌ كالنِّهـــي أخلص مـاءَه جُـدَدُهْ[٢]
فـــلو لاقيتَـــني لَلقيــت ليثـًا فوقـــهُ لِبَـــدُهْ
سَـبَنْتَى ضَيْغمـًا هَصِـرًا صِلَخْـدًا ناشـزًا كَتَـدهْ[٣]
يُسـامي القِـرْنَ إنْ قِـرْنٌ تيمَّمَـــه فَيَعْتَضِـــدُهْ
فيأخـــذُهُ فَـــيُرْدِيـــهِ فَيَخْفِضُـــهُ فَيَقْتَصِـــدُهْ[٤]
فَيَدْمَغـــهُ فَيَحْطِمُـــهُ فَيَخْضِمُـــه فَـــيَزْدَرِدُهْ[٥]

إي والله .. وأنت أكبر من هذا .

بطـل القادسـية :

وكان يومُ القادسية من أيامه العَطِرة .

« فقد خرج فارسٌ من الفُرْس يصيح : مَرْدٌ ومَرْدٌ . يعني : رجلٌ

---

(١) مسامير الدّرع التي تكون بين حلقاتها .
(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهي : الغدير من الماء ، والجدد : الأرض الصلبة .
(٣) السبنتى : الجريء المقدام ، والصلخد : الصلب القوي ، والناشز : المرتفع ، والكتد : ما بين الكتفين .
(٤) يقتصده : أي يقتله .
(٥) يدمغه : يصيب دماغه ، يحطمه : يكسره ، ويخضمه : يأكله ، يزدرده : يبتلعه .

لرجلٍ ، يطلب المبارزة ، وكان ذلك أمام القطاع الذي تشغله بجيلة وكِندة ، وكان عمرُو بن معديكرب الزبيدي يسير بفرسه بين الصَّفَّيْن يحرّض المسلمين ويُحمِّسهم ويقول : يا معشرَ المهاجرين[١] ، كونوا أسُودًا ؛ فإنما الأسد مَنْ أغنى شأنه ، إن الرجل من هذه الأعاجم إذا ألقى مزراقه[٢] فإنما هو ليثٌ . ووقف ذلك الأعجمي بين الصفَّيْن ، وكان من أساورتهم ، لا يكاد تسقط له نشابةٌ ، فرمى عَمْرًا بنشابةٍ ، فأصابت سِيَة قوْسِهِ وهو مُتنكّبها[٣] ، فالتفتَ إليه عمرو ، ثم حمل عليه فبارزه ، ثم اعتنقه وأمسكه من حزامهْ ، وسحبَه من فوق فرسه ، فحمله ووضعه بين يديْه[٤] على فرسه هو ، ثم عاد به إلى صفوف المسلمين ، فلما اقترب منهم كسَر عنقه ورماه على الأرض ونزل إليه فذبحه من حلقة السيف ، وأخذ سَلَبه سِوارَيْن من ذهبٍ ، ومنطقة من ذهب ، ويْلمقًا من ديباج ، وعاد يقول للمسلمين : هكذا فاصنعوا بهم . قالوا : يا أبا ثور ، مَن يستطيع أن يصنع كما تصنع[٥] !

وفي يوم « عماس » مِن أيام القادسية نظر عمرو بن معديكرب إلى فيل كان تجاهه ، وقال لمن معه مِن بني زبيد - في الميسرة - : إني حاملٌ على الفيل ومَن حوله ، فلا تدعوني أكثر من جَزْرِ جزورٍ[٦] ، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثورٍ ، وأنَّى لكم مثلُ أبي ثور ؟! فإنْ أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف . ثم حمَل عليهم ، فما انثنى عن عزْمه حتى ضرب فيهم ،

---

(١) أي : المجاهدين .

(٢) أي : إذا فقد قوْسَه .

(٣) معلقها في منكبه وراء ظهره .

(٤) وكأنه طفل .

(٥) الطبري ٣ / ٥٣٧ .

(٦) مقدار ذَبْح جملٍ .

وستره الغُبَارُ عن أصحابه ، فقالوا : ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاءَ أن تُدركوه ، وإنْ فقدتموه فَقَدَ المسلمون فارسَهم . فحملوا حملةً فانفرج الفرس عنه ، وقد أوقعوه وطعنوه وطعنوا فرسه ، وما زال سيفه في يده يضاربهَم به ، فلما رأى أصحابَه وقد مرّ به رجلٌ مِنَ العجم على فرسٍ له ، أخذ عمرٌو برِجْل الفرس ، فلما حرّكه راكبه اضطرب ، والتفتَ الفارس إلى عمرو فهمَّ به ، ولكنّ المسلمين حملوا عليه ، فنزل عن فرسه[1] وجرى نحو أصحابه ، قال عمرو : أَمْكِنُوني من لجامه . فأمكنوه منه ، فركبه بدلًا من فرسِهِ[2] .

أبطال مِنَ القَادسية وكلمات للحياة :

أرسل سعد إلى الذين تنتهي إليهم آراءُ الناس ، مثل : المغيرة بن شعبة ، وحُذيفة بن محصن ، وبُسْر بن أبي رهم ، وعرفجة بن هرثمة ، ورِبْعي بن عامر ، وقرفة بن زاهر ، ومذعور بن عدي ، والمضارب بن يزيد ، ومعبد ابن مرّة ، وطليحة الأسدي ، وقيس بن هبيرة الأسدي ، وغالب بن عبد الله الليثي ، وعمرو بن معديكرب ، والشماخ بن ضرار ، وأوْس بن مغراء ، وعَبدة بن الطبيب ، وقال لهم : انطلقوا **فقوموا** في الناس بما يحقُّ عليكم ويحقّ عليهم عند مواطن البأْس ؛ فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ، وأنتم **شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، فسيروا في الناس فذكِّروهم** وحرّضوهم على القتال . فساروا في المسلمين بما كُلِّفوا به .

قال قيس بن هبيرة الأسدي : أيُّها الناس ، احمدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدْكم ، واذكروا آلاءِ الله وارغبوا إليه في عاداته ؛ فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر ....

---

(١) الذي قيّد عمرٌو أقدامه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٥٥٤ - ٥٥٥ .

والظِّراب[١] الخُش والفلوات التي لا يقطعها الأدلة .

وقال غالب بن عبد الله : يٰأَيُّهَا الناس ، احمدوا الله على ما أبلاكم ، وسَلُوه يزدْكم ، وادعوه يجبْكم ، يا معشر مَعَدٍّ ، ما عِلّتكم اليوم وأنتم في حصونكم[٢] ومعكم مَن لا يعصيكم[٣] ، واذكرو حديث الناس في غدٍ ؛ فإنه بكم غدًا يُبدَأ عنده ، وبمَن بعدكم يُثنّى .

وقال ابن الهُذيل الأسدي : يا معاشرَ معدٍّ ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأُسودِ الأجم ، وتربّدوا لهم تربُّدَ النمور ، وادّرِعوا العَجاج[٤] ، وثقوا بالله ، وغضُّوا الأبصار ، فإذا كلّتِ السيوف فإنها مأمورة ، فأرسِلوا عليهم الجنادل[٥] ؛ فإنها يُؤذن لها فيما لا يُؤذنُ للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمدوا الله وصدّقوا قولكم بفعلٍ ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ، ووحّدتموه ولا إلٰه غيره ، وكبّرتموه وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكونَنَّ شيءٌ بأهون عليكم من الدنيا ؛ فإنها تأتي مَن تَهاوَنَ بها ، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم ، وانصروا الله ينصرْكم .

وقال عاصم بن عمرو التميمي : يا معاشرَ العرب ، إنكم أعيانُ العرب ، وقد صمدتم الأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ....

---

(١) الظّراب : جمع ظرب وهي الرابية الصغيرة . والخُشُّ : التل .

(٢) يعني : الخيل .

(٣) يعني : السيوف .

(٤) العجاج : الغبار ، والدخان : أيضًا ، والعجاج: كل ذي صوت من قَوْس وريح ونحوهما .

(٥) الحجارة .

ويخاطرون[1] بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحْوَط منكم على آخرتكم ، لا تُحْدِثوا اليوم أمرًا تكونوا به شَيْنًا على العرب غدًا .

وقال ربيعة بن البلاد السَّعدي : يا معاشرَ العرب ، قاتلوا للدِّين والدنيا ، وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضُها السمٰوات والأرض أُعدّتْ للمتقين ، وإنْ عظّم الشيطانُ عليكم الأمرَ فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهلٌ .

وقال ربعي بن عامر : إن الله قد هداكم للإسلام وجمعكم به ، وأراكم الزيادة ، وفي الصبر الراحة ، فعوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه ، ولا تُعوِّدوها الجزع فتعتادوه .

وقام عاصم بن عمرو في المجردة ، فقال : إنّ هذه بلادٌ قد أحلّ الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلَوْن والله معكم ، إنْ صبرتم وصدقتموهم الضَّرب والطَّعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإنْ خُرْتم وفشِلتم - والله لكم من ذلك جارٌ وحافظٌ - لم يُبقِ هذا الجمعُ منكم باقيةً مخافةَ أن تعودوا عليهم بعائدةِ هلاكٍ . اللهَ اللهَ .. اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها . أوَلا تروْن أن الأرض وراءكم بَسابسُ قفارٌ ليس فيها خمرٌ[2] ولا وَزَرٌ يُعْقل إليه ولا يمتَنع به ؛ اجعلوا الآخرة همَّكم .

وقام قيس بن المكشوح في الميسرة فقال : يا معشرَ العرب ، إن الله قد منّ عليكم بالإسلام وأكرمكم بمحمدٍ صلى الله عليهِ وآله وسلم فأصبحتم

---

(١) الخطر : السَّبق الذي يتراهن عليه ، يعني تسابقون على الجنة ويسابقون على الدنيا وصمدتم : يعني قصدتم .

(٢) غطاء .

بنعمة الله إخوانا ، دعْوَتكم واحدة وأمركم واحد ، بعدَ إذْ أنتم يعدو بعضكم على بعضٍ عَدْوَ الأسد ، ويتخطف بعضكم بعضًا اختطافَ الذِّئاب ، فانصروا الله ينصركم وتَنجَّزُوا مِنَ الله فتح فارسٍ ، فإن إخوانكم أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام وانتثال القصور الحُمْر والحصون الحُمْر .

وقال طليحة الأسدي لقومه بني أسد : ابتدئوهم الشّدة ، وأقدِموا عليهم إقدام اللّيوث الحرِبة ، فإنما سُمِّيتم أسدًا لتفعلوا فعْله ، شُدُّوا ولا تصدوا[1] وكِرّوا ولا تفرّوا .

وقام الأشعث بن قَيْس الكندي في أيام المعركة وقال : يا معشر العرب ، إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخَى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ولا تجزعُوا من القتْل ؛ فإنه أمانيُّ الكرام ومنايا الشهداء .

وقام دريد بن كعب النخعي - وكان معه لواءُ النخع - فقال لقومه في ميْسرة الجيش : إن المسلمين قد تهيَّئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلةَ إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحدٌ إلا كان ثوابُه على قدْر سبْقه ، نافسوهم في الشهادة وطيِّبوا بالموت نفسًا ؛ فإنه أنجى من الموت إنْ كنتم تريدون الحياة ، وإلَّا فالآخرة ما أردتم .

وقال الحارث بن سمي الهمداني :

أقدِمْ أخَا فهْمٍ على الأَسَاورهْ ... ولا تهـالنَّ لرؤوسٍ نـادرهْ
فإنمـا قصـرك مـوتُ السّاهرهْ ... ثم تعودُ بعدَهـا في الحـافِرهْ

ولما حمي وطيسُ المعركة بيْن المسلمين والفرس ، وأبلى بنو تميم

(١) أي : اهجموا ولا تقفوا مدافعين .

أحسنَ البلاء ، وقام ابن ذي البردين الهلالي وقيس بن عبد يغوث المرادي والأشعث بن قيس وعمرو بن معدي كرب وعبد الله بن ذي السهمين الخثعمي ، كلهم في الميسرة ، فقالوا : لا يكونن هؤلاء - يعني بني تميم - أجدَّ في أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء القُلْف[1] - يقصد المجوس - أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوها .

وقام رجال في ربيعة - بكر بن وائل وعبد القيس - فقالوا : أنتم أعلم الناس بفارس ، وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة !

أبطالٌ مِن القادسية يقاتلون الفِيَلَة :

للهِ دَرُّهم مِن رجالٍ صنعهم الإسلام .. يُقاتلون الفيلة ويصارعونها في أيام القادسية :

في يوم أرماث وجّه الفُرْسُ إلى المَيْمنة التي فيها بجيلة ثلاثَة عشر فيلًا ، هي كل جناحهم الأيمن ، بقيادة هرمزان وجالينوس ، وفُرِّقت الأفيال ما بين الكتائب ، فَنَفَرت خيول المسلمين ، وأرسل سعدٌ إلى بني أسد ، وهم ثلاثة آلافٍ على ميمنة بجيلة ، يقول لهم : « ذبُّوا عن بَجيلة ومَنْ لافَّها من الناس » . فخرج حَمَّال بن مالك الأسدي والرِّبيل بن عمرو ، وغالب بن عبد الله الليثي ، كلٌّ خرج من كتيبته نحو الفيلة ، فشدُّوا والله ، فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حَبَسْنَا الفيلةَ عنهم ، ورأى العَجَمُ ما يصنع بنو أسد بالأفيال . ونَشطت فيولُ المجوس على طول خطِّ القتال ، فحملت في الميمنة والميسرة على خيول المسلمين ، فكانت الخيل تخاف منها ، فتحْجم عنها وتحيد عن طريقها ، وكان فرسانها يَلحُّون على المشاة أن يمنعوا ظُهُورَ الخيل ويردُّوها

---

(١) القُلْف : جمع أقلف وهو من لم يُختن .

إلى الأمـام .

وأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو من يقول له : يا معشر بني تميم ، ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟! قالوا : بلى والله . ثم نادى في قومه ، فجمع أفضل من في بني تميم من الرُّماة ، وآخرين لهم مهارة وخفـةُ حركة في القتال ، ووضع خطته على أسـاس مُشَاغلة رُكْبان الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلةٍ منهم ، قال لهم : « يا معشر الرُّماة ذُبُّوا رُكْبان الفيلة عنهم بالنَّبْل . وقال : يا معشرَ أهل الثَّقَافَة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَها »[1] وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فشقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أسد ، والرَّحى تدور عليهم .

وفي يوم عماس استعمل الفرس الأفيال ، فوجَّهُوها ضدَّ كتائب الفرسان ، فعادت تفرِّقُها كيوم أرماث ؛ فلما رأى سعدٌ ذلك أرسل إلى الفرس الذين أسلموا وانضمُّوا إليه ؛ ضخم ومسلم ورافع وعَشنّق والرفيل وأصحابهم ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن الفيلة ، وهل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم ، المشافر والعيون ، لا يُنْتفع بها بعدها . وكان أكبرَ الأفيال فيلان ، وضعهما رُسْتم في القلب : أحدهما أبيض ، وكان أمام بني تميم ، والثاني أجرب وكان حيال بني أسد . وكانت جميع الفيلة الأخرى آلفة لهذين الفيلين ؛ تقلِّدهما وتتبعهما .

القَعْقَاع وعاصم ابنا عمرو للفيل الأبيض، وحَمَّال بن مالك والرِّبِّيل بن عمرو للفيل الأجرب :

أرسل سعد إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو : « اكفياني الفيل الأبيض » ، وأرسل إلى حَمَّال بن مالك - أمير المشاة - والرِّبِّيل بن عمرو : « اكفياني الفيل

(١) الوضين : الأحزمة التي تثبت توابيتها على ظهورها .

الأجرب » وأوضح لهم مَقَاتِلَ الأفيال . فأخذ القعقاع وعاصم رُمْحَين أصمَّيْن لِّنين ، ودبَّا في كتيبةٍ من خيل ومشاة ، وقالا لهم : « اكتنفوه لتحيِّروه » وهما معهم ، فأطافوا به ، وخالطوا حرّاسه ، والتحموا معهم ، وظلَّ الفيل متخبِّطًا ينظر يَمْنةً ويسرة وهو متحيِّر ، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بمن حوله ، ووضعا رُمْحَيْهما معًا في وقت واحدٍ وتنسيق في عينيه ، وجلس الفيل على يديه ورجليه ، ونفض رأسه ، فألقى سائسَهُ من فوقه ، ودلَّى خرطومه ، فنقل القعقاع رمحه إلى يُسْراه ، واستل سيفه ، فنفح الخرطومَ فقطعه ورمى به على الأرض ، ووقع الفيل على جنبه وقد أُعمي ، وسقط من كان في التَّابوت فوقه ، فقتلتهم كتيبةُ القعقاع وعاصم .

وفي نفس الوقت كان حمّال بن مالك والرِّبيل بن عمرو يقولان لبني أسد : يا معشر المسلمين ، أي الموت أشدُّ؟ قالوا : أن يُشَدَّ على هذا الفيل . فخرجا إليه في خيلٍ ومشاة ، حتى أطافوا بالفيل الأجرب عن يمينه وشماله ليحيِّروه ، وقال حمّال للربيل : اختر ؛ إما أن تضربَ المِشْفر بالسَّيف وأطعن في عينه بالرمح ، أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختار الربيل أن يضرب الخرطوم . وحملَا مع كتيبتيهما ، فلمّا تشاغل الفيل بملاحظة من أحاط به من المسلمين ، وانشغل سائسُه أيضًا ، لا يخاف إلّا على بطانه - أحزمته - فقد كان ما زال معقدًا من تقطيع أحزمة الأفيال يوم أرماث ، فكان مشغولًا بذلك ؛ ينظر إلى أجنابه وإلى خلفه في ملاحظةٍ مستمرة بأولئك الذين أحاطوا به ، إذ ذاك نَفَذَ حمّال والربيل ونزقا[1] فرسَيْهما ، حتى إذا قامَا على أطراف حوافرهما ضرباهما على الفيل ، وسدَّد حمال طعنةً برمحه إلى عين الفيل ، وفوجئ الفيل بالرّمح في عينه قد عوّره ،

---

(١) غَمَزَا .

فأقعى على استه مفترشًا رجليه . وناصبًا يديه ، ووطئ مَن خلفه مِن العجم ، ثم استوى واقفًا ، فنفح الربيل خرطومَه بسيفه فقطعه ، وبصر سائسُه بالربيل ، فضربه على وجهه وجبينه بالطبرزين[1] ضربةً منكرةً ، حطم بها أنفه ، غير أنه أفلت بها ، وبقي الفيل الأبيض - الذي أعماه القعقاع وعاصم ، وقطعَا خرطومه - مُتلدِّدًا بين الصَّفين ، كلَّما أتى صف المسلمين وَخَزُوه ، وإذا أتى صف المجوس نخسوه ، وهو يصيح صياحَ الخنزير ، وولَّى الفيلُ الأجرب الذي عوَّر حمال بن مالك والربيل وهو يصيح أيضًا ، فمرق غاضبًا بين صفوف الفرس يدوسهم ، وأثار صياحُه انتباه الأفيال الأخرى ، والتفتت إليه ، فرأته يثب في العتيق - النهر - فأتبعته كلُّها ، وخرقت صفوف الأعاجم ، وعبرت العتيق في إثره ، وظلت منطلقةً ، حتى بلغت المدائن في توابيتها ، وقد هلك من كان فيها .

لله دَرُّهم من أبطال .. بل من جبال .. تصارع وتُعمي الأفيال .

قال القعقاع بن عمرو :

حضَّضَ قومي مَضْرَحِيّ بن يَعْمرٍ فللَّهِ قومي حين هَزُّوا العَوَاليَا
وَما خام عنها يومَ سَارتْ جُمُوعُنا لأهلِ قُدَيسٍ يَمنعُون المَواليَا
فإنْ كُنتُ قاتلتُ العَدوَّ فَلَلْتُه فإني لَأَلقى في الحُروبِ الدَّوَاهِيَا
فيولًا أراها كَالبُيوتِ مُغِيرةً أُسَمِّلُ أعيانًا لها ومآقيَا[2]

هَاشم بن عُتبة بن أبي وقاص ، المِرْقال ، الأسد ، قاتل الأسود :

قال ابن حجر في الإصابة : « الشجاعُ المشهور ، المعروف بالمِرْقال ، ابن أخي سعد بن أبي وقّاص . قال الدُّولابي : لُقِّبَ بالمرقال؛لأنه كان يُرْقِلُ

---

(١) الفأس من السلاح ؛ وهو نوع من البلطة ، كان يتسلح بها سائِسُو الأفيال .
(٢) الطبري ٣ / ٥٥٦ .

في الحرب ؛ أي يسرع ، من الإرقال وهو ضَرْبٌ من العَدْو . أسلم يوم الفتح ، وحضر مع عمه حرب الفُرس بالقادسية ، وله بها آثار مذكورة ، وكانت راية عليّ في صِفّين مع هاشم »[١] .

قاتل هاشمُ المرتدين تحت لواء خالد ، فلما انتهت حروب الرِّدَّة ، وسار خالد بن الوليد نحو العراق ، كان هاشم معه في معاركه التي خاضها في العراق ، فلمّا توجه نحو أرض الشَّام كان هاشم من بين الذين انتخبهم خالد من جيش العراق . فشارك خالدًا في المعارك التي خاضها في طريقه إلى الشام .

وكان هاشم قائد مَيْسرةِ المسلمين في معركة فَحْل بيسان . يقول رحمه الله : « والله لقد كنَّا يومئذٍ أشْفَقْنَا على خيلنا أول النهار ، ثم إن الله نَصرَنَا عليهم ، فما هو إلا أن رأينا خَيْلنا قد نصرها الله على خيلهم ، فدعوت الناس إليَّ ، وأمرتهم بتقوى الله ، ونزلتُ فهززتُ رايتي ثم قلت : والله لا أردُّها حتى أركزها في صفِّهم ، فمن شاء فليتبعني ، ومن شاء فليتخلَّف عني ، فوالذي لا إلٰه إلا هو ما أعلم أن أحدًا من أصحاب رايتي تخلَّف عني ، حتى انتهيت إلى صفِّهم ، فنضَحُونا بالنُّشَّاب ، فجثونا على الرُّكب واتَّقَيْنَاهم بالدَّرْق ، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي : شدُّوا عليهم ، أنا فداؤكم ، فإنها غنيمةُ الدنيا والآخرة . فشددتُ وشدُّوا معي ، فاستقبلت عظيمًا منهم ، وقد أقبل نحوي ، فأوجزته الرُّمح فخرَّ ميتًا ، وضَارَبْنَاهم بالسيوف ساعةً في صفِّهم ، وحمل عليهم خالدُ بن الوليد من قِبَلِ مَيْمنتهم ، فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وَنَهَدَ إليهم أبو عبيدة بالرجَّالة والناس ،

---

(١) الإصابة في تراجم الصحابة لابن حجر ٣ / ٥٦١ - ٥٦٢ . دار الكتاب العربي .

وأمر الخيل التي كانت قِبَلَه من خيل خالد ، فحملتْ على المشركين ، وكانت هزيمتهم[١].

في اليرموك :

وفي اليرموك ولَّاه أبو عبيدة قيادة الرجَّالة وقال : « أوليها - إن شاء الله - من لا يخاف نُكوله ولا صُدُوره عند البَأْس ، أُوليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فقال له خالد : وُفِّقْتَ ورُشِدت »[٢].

« وفي معركة « اليرموك » برز هاشم فدائيًّا وقائدًا ، فقد انتخَب خالد فدائيِّين من أبطال المهاجرين والأنصار ، وعددُهم مائة فارسٍ فقط[٣] ، للتأثير على معنويات الرُّوم في ابتداء معركة اليرموك ، وكان هاشم أحدُ هؤلاء الفدائيين المُنتَخَبين . وبعد أن فعل هؤلاء الفدائيون الأعاجيب ، تولَّى هاشم قيادة مُشاة المسلمين ، في معركة اليرموك ، في رواية الواقدي[٤] ، وقيادة كُرْدُوس من مشاة المسلمين في رواية الطبري[٥]. وفي هذه المعركة فقد إحدى عينيه[٦] ، وقاتل الروم بشجاعة فائقةٍ ، كان لها أثرٌ ملموسٌ في انتصار المسلمين على عدوِّهم في هذه المعركة الحاسمة »[٧].

---

(١) الأزدي صـ ١٣٥ .

(٢) الحارث الأزدي صـ ١٨٨ .

(٣) فتوح الشام للواقدي ١ / ١٢٠ .

(٤) فتوح الشام للواقدي ١ / ١٣٤ .

(٥) تاريخ الطبري ٢ / ٥٩٣ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ .

(٧) قادة فتح الجزيرة والعراق لمحمود شيت خطاب صـ ٣٢٢ .

في القادسية :

أعاد عمر رضي الله عنه إلى العراق كلَّ الرجال الذين جاءوا مددًا إلى الشام ، وهم ستة آلاف ، وأمَّر على هذا الجيش هاشم بن عتبة ، وجعل على مُقدِّمته القعقاع بن عمرو التميمي ، وعجَّله أمامه كي يدرك سعدًا قبل فوات الأوان .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية ، وهو يوم « عماس » ، أدرك هاشم وجنودُه رجالَ القعقاع ، فجعل رجاله فِرَقًا ، وأمرهم أن يتلاحقوا دِراكًا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها . وسار هاشم على رأس الفرقة الأولى ، حتى إذا خالط القلب ، كبَّر وكبَّر المسلمون وهم في مصافِّهم . قال هاشم : أوَّلُ القتال المطاردة ثم المراماة . وأخذ قوسَه فوضع سهمًا على كبدها ، ثم نزع فيها ، فرفعت فرسُه رأسها فجأة – وكان لا يقاتل إلا على فرسٍ أنثى ، لا يقاتل على ذَكَرٍ – فقطع أُذنها ، فضحك وقال : « واسوأتاه من رميةِ رجل كلُّ من رأى ينتظره ، أين ترَوْن سهمي كان بالغًا لو لم يُصب أذنَ الفرس ؟ » قالوا : كان يبلغ كذا وكذا . [وفي رواية : أنه قيل : كان يبلغ العتيق] فأجال فرسه ثم نزَّقها ، وقد نزع السَّهم ثم ضربها حتى بلغت حيث قالوا ، ثم ضربها ، فأقبلت به تخرقهم حتى عاد إلى موقفه . وفي رواية أخرى : أنه أجال فرسه ثم نزل وتركه وخرج إليهم يضربهم ، حتى بلغ حيث قالوا . وما زالت قواته تصل تباعًا »[1].

لقد كان لقدوم قوات هاشم في الوقت المناسب أثرٌ حاسم في انتصار المسلمين على الفرس ، وكان هاشم « أبلى فيها بلاءً حسنًا ، وقام منه في ذلك ما لم يقم من أحد ، وكان سببَ الفتح على ....

(١) الطبري ٣ / ٥٥١ ، و« القادسية » لأحمد عادل كمال صـ ١٦٧ – ١٦٩ .

المسلمين »[(١)].

تُـرَىٰ : لو لم تَصِل قواتُ هاشم إلى ساحة معركة القادسية في الوقت المناسب ، فماذا كان يحدث للمسلمين في تلك المعركة ؟!

ولقد وصل أمرٌ من عمر بعد انتصار المسلمين في القادسية بالتوجُّه لفتحِ المدائن ، فعبَّأ سعد جيشه بقدمات : قَدَّم زهرة بن الحويّة ، ثم أتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم بشرحبيل بن السِّمط ، ثم بهاشم الذي جعله نائبًا عنه بدلًا من خالد بن عُرْفُطة ، الذي جعله على السَّاقة ، فسارت قواتُ المسلمين من نصرٍ إلى نصر ؛ انتصروا في بُرس ، وفي بابل ، وفي ساباط . وهنا لنا وقفة مع الأسد .

قَتْل أسد كسرى في مظلم ساباط :

تقـدَّم الجيشُ إلى ساباط على ثلاثين كيلو مترًا من المدائن ، بطريق بهرسير ، وفي مكانٍ اسمه مظلم بضواحي ساباط ، التقى المسلمون بقوةٍ مجوسية ، ذكرتها الأنباء على أنها « كتيبة كسرى » أو كتائب كسرى ، وحملت اسم : بوران [بنت كسرى أبرويز ، وهي عمَّة يزدجرد الثالث] ، وهي تمثل قوات الحرس الملكي .

« وبلغ هاشم إلى مظلم ساباط ، فوقف المسلمون حتى لحق بهم سعد ، وفي مظلم ساباط كانت بعضُ الحدائق الملكيَّة ، وكان كسرى قد اقتنى فيها بعضَ الأسود ، منها أسد اسمه المقرط ، كان كسرى قد اختاره من أسود المظلم واستأنسـه ، واجتمعت كتائب كسرى بوران في المظلم ، وكانوا يحلفون بالله كلَّ يوم : « لا يزول ملك فارس ما عشنا » ودارت المعركة ،

---

(١) الاستيعاب (٤ / ١٥٤٦) لابن عبد البر .

وبلغهم سعد وهي دائرة ، فأطلق المجوس أَسَدَهم المقرط على صفوف المسلمين . ونزل هاشم عن فرسه ، وتقدَّم إلى الأسد بقلبٍ لا يعرف الخوف ، كما تقدّم إخوانٌ له من قَبْل إلى الأفيال بالقادسية . وضرب هاشم الأسد بسيفه حتى قتله ، وسمَّى سيفه « المنن » ، وقَبَّل سعدٌ رأس هاشم ؛ تقديرًا له ولما فعل ، وانحنى هاشم حُبًّا واحترامًا لعمه وقائدِه حتىَ قبَّل قدم سعد »[(١)].

جـلولاء :

لم يكد المسلمون يستقرُّون في المدائن ، حتى علموا بأن قوات فارس **قد عسكرت بجلولاء ، وهي مدينة على طريق خراسان شمال المدائن ،** فكتب عمر إلى سعد : سَرِّح هاشم بن عتبة إلى « جلولاء » في اثني عشر ألفًا ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، **وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مرة** الجهني[(٢)].

وسار هاشم من المدائن أربعةَ أيامٍ ، حتى بلغوا جلولاء ، فأحاط بها وحاصر المجوس فيها وطاولوه ، فكانوا لا يخرجون من استحكاماتهم إلا إذا أرادوا . وكان المجوس يزاحفون المسلمين بأعدادٍ كبيرة وبجلَبَةٍ وأهاويل ، وقد وقع أثناء هذا الحصار ثمانون زحفًا ، كان الظَّفر فيها جميعًا للمسلمين ، ويعود العَجَمُ إلى ما وراء خنادقهم ، واستمر الحصار على هذه الحال سبعة أشهر أو يزيد . وكان يزد جرد **يحشد من أهل الجبال من حول حلوان ، ويمدُّ قواته** في جلولاء بأمدادٍ جديدة في كل يوم ، وكانت استحكامات الفرس عبارة

---

(١) « سقوط المدائن » لأحمد عادل كمال صـ ٢٠ - ٢١ ، دار النفائس .

(٢) الطبري ٣ / ١٢٢ .

عن خندق كبير متسع وعميق ، حَفَره المجوس حول مواقعهم ، يحوطه حزام من حَسَك الخشب . وهي خوازيق من الخشب ، قد نصبوها كموانع لاندفاع الخيل ، وبين الخندق ونطاق الحسك مجالٌ خالٍ ، ثم جعلوا بعد ذلك حسك الحديد . وخرج المجوس في زحفٍ كبير من العَدد والعُدة ، وكان هو الأخير ، فقام هاشم في جنده وخطبهم فقال : « إن هذا المنزل منزل له ما بعده ، أبلوا الله بلاءً حسنًا يتمّ لكم عليه الأجر والمَغْنم ، واعملوا لله » .

وكان الالتحام شديدًا ، لم يَقْتتلوا مثله ؛ رميًا بالنَّبْل ، وطعنًا بالرماح ، حتى تقصَّفت ، فاستلُّوا السُّيوف وتجالدوا بها حتى انثنت ، وانهزم المجوس ، وتراجعوا ، فتبعهم المسلمون يشدِّدون من ضغطهم عليهم ، حتى غلبوهم على خوازيق الخشب ، وهم يقتلونهم قتلًا ذريعًا ، حتى حجزهم الليل ، والتحم مرة ثانية مع المجوس ، بعد أن أَلقوا أمام خندقهم حسك الحديد ليغرز في أقدام خيل المسلمين ، والتحم الفريقان واقتتلوا اقتتالًا شديدًا ، والظلام يسحب رداءه على الميدان ، قتالًا لم يقتتلوا مثله إلَّا ما كان ليلةَ الهرير ، وبلغ القعقاعُ وجنده مدخل الخندق فأخذ به ، وقد انعزلوا عن سائر المسلمين ، فأمر مُنادِيَه فنادى : « يا معشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به ، فأقبلوا إليه لا يمنعكم مَنْ بينكم وبينه من دخوله » ولم يَعُد المسلمون يشكُّون في أن هاشمًا في الخندق ، فكيف يتركونه بين المجوس ، وحمل المسلمون حملةً صادقة عنيفة ، لم يصمد لها العجم ، حتى أدركوا القعقاع ، وهو آخذٌ بمدخل الخندق ، يمنع المجوس من الانسحاب إليه .

وبدأت هزيمة المجوس ، وأصاب حَسَكُ الحديد خيولهم ، فنزلوا عنها وقاتلوا مشاةً ، ولكن أيّ مشاة ؟! مشاة مشتتة ، وتعقَّبهم المسلمون ،

فلم يفلت منهم إلَّا من لا يُعَدُّ . يقول الرواة : إن قتلى المجوس بلغوا مائة ألفٍ ، فجلَّلت المجال وما أمامه وما خلفه ؛ ولذلك سمِّيت جلولاء ؛ بما جلَّلها من قتلاهم . وكان مِهرانُ قائد قوات الفرس من بين القتلى ، وفرَّ فيرزان إلى المرتفعات الوعرة .

وقد قُوِّمت غنائم جلولاء بثلاثين مليون درهم ، وبلغ سهم الفارس بجلولاء مثل سهمه بالمدائن .

وفي رواية أخرى : في جلولاء اقتسم على كل فارس تسعة آلاف درهم ، وتسعة من الدواب .

وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء ، وبنزول القعقاع حلوان ، فلما قدموا على عمر كلَّمه زياد بن أبي سفيان ، ووصف له ، وأفاض في طلاقةٍ أعجبت عمر ، فقال له : « هل تستطيع أن تقومَ في الناس بمثل الذي كلّمتني به ؟ » قال : والله ما على الأرض شخصٌ أهيب في صدري منك ، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك . وقام زياد في الناس ، فحكى لهم عما أصابوا ، فقال عمر : « هذا الخطيب المصقع » فقال زياد قولته الندية : « إن جُنْدَنا أَطلقُوا بالفَعَال لِسَانَنا » .

رضي الله عن المِرْقال هاشم ، فاتح محور ديالي ، من المدائن إلى جلولاء ، الذي شَّيبَته المعارك فقال :

يَومَ جلولاءَ ويوم رستمْ ويوم زحفِ الكوفة المُقَدَّمْ
ويوم عرض النهر المحرَّم من بين أيامٍ خَلون صُرَّمْ
شيَّبْن أصداغي فهنَّ هُرَّمْ مثل ثَغام البلد المَحرَّمْ[1]

---

(١) سقوط المدائن لأحمد عادل كمال ، وقادة فتح العراق والجزيرة .

أبو مِحْجَن بن حَبيب الثَّقفي :

فارسٌ من فرسان القادسية ، وبطلٌ من مَغاويرها ، حَبَسه سعد فيمن حبس لاعتراضهم على خالد بن عُرفُطة .

ولما علا صليلُ السيوف وأصواتُ المعركة ، بلغتْ مسامعَ الذين حبسهم سعد في القصر مقيَّدين ، فصعد أبو محجن الثقفي بعد أن دخل الليل إلى سعد ، وهو مشرف من فوق القصر ، يستعفيه ويسترضيه ، ويَسْتميحه أن يفكَّ قَيْدَه ويسمح له بالقتال ، فزجره سعد وردَّه إلى مَحْبسه ، فنزل إليه ، ثم جاء إلى امرأة سعد فقال : يا سلمى ، يا بنت آل خصفة ، هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : « تُخَلِّين عني وتُعيرينِي البَلْقاء ، فللَّهِ عليَّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك ، حتى أضع رجليَّ في قيدي » . فقالت : وما أنا وذاك . فرجع إلى مكانه يَرْسُف في قيوده ويقول :

كفى حزنًا أن ترتدي الخيلُ بالقَنَا ... وأُتركُ مشـدودًا علـيَّ وثاقـيَا
إذا قمـتُ عنّاني الحـديدُ وغُلِّقَتْ ... مصارعُ دوني قد تُصمُّ المُناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ... وقد تركوني واحدًا لا أخا لِيَا
وقد شفَّ جسمي أنني كلَّ شارقٍ ... أعـالجُ كَبْلًا مُصْمتًا قد بَرَانيَا
فللَّه دَرِّي يـوم أُتـرك مُوثقـًا ... ويذهـل عـني أُسْرتي ورجـاليَا
حُبِسْنَا عن الحرب العَوانِ وقد بدتْ ... وأعمالُ غيري يوم ذاك العواليَا
فللَّه عهـدٌ لا أخيسُ بعهـده ... لئن فُرِّجتْ أن لا أزور الحَوَانيَا

فراجعتْ سلمى نفسها : إني استخرت الله ، ورضيت بعهدك . فأطلقته وقالت : أمَّا الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها ، فاقتاد أبو محجن الفرس ، فأخرجها من الباب الخلفي للقصر المواجه للخندق - وكان يُقال لها : البلقاء - فركبها ثم دبَّ عليها ، واتجه إلى الميمنة حيث قومه من بني

ثقيف ، فكبَّر ، وحمل على ميسرة الفرس ، يلعب برمحه وسيفه بين الصَّفين [قال بعضهم : إن البلقاء كانت بسَرْجها ، وقال آخرون : بل كانت عُريًا] ، ثم رجع من خلف المسلمين ، واتجه إلى الميسرة ، فكبَّر وحمل على مَيْمنة المجوس ، يلعب بين الصَّفين برمحه وسلاحه ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب ، فبرز أمام الناس ، فحمل على العجم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه ، فكان يقصف المجوس لَيْلَتَئِذٍ قصفًا منكرًا ، ولا يحمل على رجل إلَّا قتله ، ودقَّ صلبه ، والناس منه في أشد العجب ، وهم لا يعرفونه ، ويغلب على ظننا أنه كان مُلَثَّمًا ، إذْ لو كان حَاسرَ الوجه لعرفوه ، ولم يكن أحدٌ قد رآه بالنهار ، فقال بعضُهم : لعله أوائل أصحاب هاشم بن عتبة ، أو لعلّه هاشم نفسه . وظلَّ أبو محجن يحمل على العجم ، فلا يقف بين يديه أحدٌ ، لقد كان فارسًا شديدًا مغوارًا ، ولعلَّ حَبْسه يوم أرماث ويوم أغواث قد حال دون إجهاده ، فكان جَمَّ النشاط ، موفورَ القوة ، والناس متعبون . وكان سعدٌ من أحدِّ الناس بصرًا ، فجعل ينظر إليه في ظلام الليل وهو مشرفٌ مكبٌّ من فوق القصر ويقول : « من ذلك الفارس ؟ الضَّبْرُ[١] ضَبْرُ البلقاء ، والطَّعْنُ طعن أبي محجن ، وأبو محجن في القيد ، والله لولا محبس أبي محجن لقلت:هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء » وقال بعضهم : لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : ملك يُثبِّتنا،ولا يذكر الناس أبا محجن ، ولا يأبهون له ، لعلمهم أنه بات في محبسه .

وانتصف الليل ، فتحاجز العجم وتراجع المسلمون ، وأسرع أبو محجن فأقبل حتى دخل من حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دابته ، وأعاد رجلَيْه في قيده ، وأنشد وهو مغتبطٌ سعيد :

---

(١) إذا جَمَعَ الفرسُ يداه ، فوثب فوق ، مجموعةً يداه ، فذلك الضَّبْر .

لقد علمتْ ثقيفٌ غير فخر بأنّا نحن أكْرَمُهم سُيوفَا
وأكثرهم دُروعًا سابغاتٍ وأصْبرهم إذا كرهوا الوُقوفَا
وأنّا وَفْدهم في كلِّ يومٍ فإنْ عَمِيوا فَسْل بهمُ عَرِيفَا
وليلة قادسٍ لم يشعروا بي ولم أُشعِرْ بمخرجيَ الزُّحوفَا
فإنْ أُحبس فذلكمُ بلائي وإنْ أُتركْ أذيقهمُ الحُتُوفَا

وفي الثاني : أتت سلمى سعدًا وأخبرته خبرها ، وخبر أبي محجن ، فسامحه سعد ، ودعا به فأطلقه[1].

يرحم الله الفارسَ الملَثم والبطل أبا محجن القائل :

اليوم أعلمُ أني من سَراتهمُ إذا تطيشُ يدُ الرِّعْديدةِ الفَرِقِ[2]
قد أركبُ الهَولَ مَسْدولًا عَسَاكره[3] وأكتم السرَّ فيه ضربة العُنقِ[4]
أُعطي السّنان غداة الروع حصَّته وعامل الرمح أَرْويه من العَلَقِ[5]

ضِرَار بن الخطَّاب القرشي ، فاتح ماسبذان بإيران :

كان رضي الله عنه من فرسان قريش وشجعانهم .. وقاتل المسلمين أشدَّ القتال يوم أُحُد ؛ فقد اختلَف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم

(١) القادسية لأحمد عادل كمال صـ ١٥٩ - ١٦٥ . وفي رواية الطبري ٤ / ١٣٩ أن قصة أبي محجن كانت مع الزّبراء ، وتذهب إلى أن سعدًا نزل من رأس الحصن ، فرأى فرسه تعرق ، فعرف أنها قد رُكبت ، فسأل زبراءِ أم ولده عن ذلك ، فأخبرته خبرَ أبي محجن ، فخلّى سبيله .
(٢) الخائف .
(٣) كثيرة لا تخترق .
(٤) أكتم سرَّ من أمامي بضربي عنقه ، فلا ينطق بسره .
(٥) عامل الرمح : نَصْل سِنِّه . العلق : الدَّم .

أحد ، فمرَّ بهم ضرار فقالوا : هذا شَهِدَها ، وهو عالم بها ، فسألوه عن ذلك فقال : « لا أدري ما أَوْسكُم مِنْ خزرجكم ، ولكنّي زَوَّجتُ منكم يوم أُحُدٍ أَحَدَ عشر رجلًا من الحُور العين »[١].

وفي يوم الخندق كان أَحَدَ الأربعة الذين وَثَبوا الخندق ... وكان أَحَدَ قادة قريش يوم الخندق ..

قال ضرار يومًا لأبي بكر الصديق : « نحن خيرٌ لقريش منكم ؛ أدخلناهم الجنة ، وأنتم أدخلتموهم النار »[٢] يريد أنه قَتَل المسلمين فدخلوا الجنة ، وقتل المسلمون الكفار من قريش فأدخلوهم النار .

وأسلم يوم فتح مكة وحَسُنَ إسلامه .

وشهد ضرار يومَ اليمامة تحت راية خالد بن الوليد ، وشهد كلَّ معارك العراق التي خاضها خالد هناك ، وكان هو الذي حاصر قصر « الغَرِيِّين » في فتح الحيرة[٣] ، ولمَّا تحرك خالد إلى أرض الشَّام كان معه ، وشهد تحتَ لواء خالد كافة معارِكِه في طريقه من العراق إلى أرض الشام ، وشهد معه معركة اليرموك ، وشهد مع أبي عبيدة فتح الشام .

وعاد ضرار إلى العراق مع هاشم بن عتبة الزهري فشهد القادسية ، وفي هذه المعركة غنم ضرار عَلَم الفُرْس الأكبر ، فَعُوِّض منه ثلاثين ألفًا ، وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف[٤].

---

(١) أسد الغابة ٣ / ٤٠ ، والاستيعاب ٢ / ٧٤٩ .
(٢) الإصابة ٣ / ٢٧٠ ، والاستيعاب ٤ / ٧٤٩ .
(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٩ .
(٤) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

وشهد ضرار فتح المدائن القديمة على الضفة الغربية من النهر ، فلما رأى ضرار من المدائن القديمة إيوان كسرى في الضفة المقابلة من النهر ، نادى بأعلى صوته : « الله أكبر ! هذا أبيض كسرى .. هذا ما وعد اللهُ ورسولُهُ » وكبَّر ضرار ، وكبّر الناس معه[1].

وشهد ضرار معركة « جلولاء » فلما رجع هاشم منتصرًا من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعد بن أبي وقاص أن الهُرْمزان قد جمع جمعًا من قواته في سهل « ماسبذان » فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب عمرُ : « ابعث إليه ضرار بن الخطاب في جندٍ ، واجعل على مقدمته الهُذيل الأسدي ، وعلى مَجْنَبتيه عبد الله بن وهب الراسبي والمضارب بن فلان العجلي »[2] فخرج ضرار بمن معه حتى انتهى إلى سهل « ماسبذان » والتقى بالفُرْس ، وأسرع المسلمون في الهجوم على الفرس ، وأخذ ضرارُ قائدَهُم آذين سَلَمًا ، فأسره فانهزم عنه جيشه ، فقدَّمه فضرب عنقه ، ثم خرج في الطَّلب ، حتى انتهى إلى السيروان ، فأخذ ماسبذان عَنْوة ، وتطاير أهلها في الجبال ، فدعاهم فاستجابوا له .

وفي معركة ماسبذان قال ضرار يَذْكُر أَسْر آذين :

ويوم حَبَسْنَا قومَ آذين جنده ... وقطراته عند اختلاف العواملِ
وزردَ وآذينًا وفهدًا وجَمْعَهم ... غداةَ الوَغى بالمرهفاتِ الصَّواقلِ
فجاءوا إلينا بعد غبٍّ لقائنا ... بماسبذانَ بعد تلك الزَّلازِلِ[3]

* * *

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٧ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ١٤٣ .
(٣) قادة فتح بلاد فارس (٩٣) عن معجم البلدان ٧ / ٣٦٤ .

نُعيم بن مُقرِّن المزني ، فاتح همذان والرَّيّ :

قَدَمَ نعيم بن مُقرِّن مع أخوته ، ومنهم النّعمان بن مُقرِّن ، على رأس أربعمائة فارس من مُزَيْنة على النبي ﷺ ، وشهد مع الرسول ﷺ غزوة الخندق وغزواته الأخرى .

وقاتل تحت لواء أبي بكر الصديق مانعي الزكاة من الأعراب ، عندما هاجموا المدينة ، وقاتل تحت لواء خالد بن الوليد في العراق ، وتحت لواء سعد بن أبي وقّاص في القادسية ، وأبلَى في ذلك أعظم البلاء .

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص : « استنفر من أهل الكوفة مع النُّعمان كذا وكذا ، فإني قد كتبت إليه بالتوجّه من الأهواز إلى « ماه » فليوافوه بها ، وليَسِرْ إلى « نهاوند » وقد أمَّرت عليهم حذيفة بن اليَمَان ، فإن حدث بحذيفة حدثٌ فعلى الناس نُعيم بن مقرّن ، وفي معركة نهاوند كان نعيم في المقدمة ، ولما نشب القتال في نهاوند قاتل نعيم تحت لواء أخيه قتالَ الأبطال ، فلما استشهد النعمان تناول نعيم الرَّايةَ من يد أخيه قبل أن تقع ، وسجَّى النعمانَ بثوبٍ ، وأتى حذيفة بن اليمان بالراية فدفعها إليه ، ولما انتصر المسلمون طارد نعيمٌ والقعقاع بن عمرو فُلولَ المنهزمين من الفرس ، حتى وصلوا إلى همذان ، فلما رأى قائدها ألّا فائدة تُرجى من المقاومة استأمنهم على الجزية ، فراسلوا حذيفة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

في همذان :

أعاد الفُرْس تحشيد قواتهم في منطقة الرَّيِّ ، فشجَّع ذلك أهل « همذان » ، ونقضوا الصلح الذي عقدوه مع المسلمين . وبلغت عمر بن الخطاب أنباء انتقاض الفرس في « همذان » فأمر نُعيم بن مقرن أن يسير إليها ، وأن يدخلها عَنْوة ؛ عقابًا لأهلها ، حتى لا يعودوا لمثلها أبدًا . قال عمر في كتابه لنعيم :

« فإن فتح اللهُ على يديك همذان فإلى ما وراء ذلك في وجهك ذلك ، إلى خراسان »[١].

وسمع أهلُ « همذان » اسمَ نعيم ، وعرفوا سَيْرَه إليهم ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتولَّاهم الرُّعب ، وزاد جَزَعُهم حين علموا باستيلاء نعيم على ما حول « همذان » من البلاد ، فلما انتهى إليهم نعيم وحاصر مدينتهم ، بعثوا إليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وقبِلَ منهم الجزية على المنعةِ[٢].

في واج روذ :

وبينما كان نعيم في « همذان » على رأس اثني عشر ألف جندي ، سمع بمكاتبة الديلم وأهل « الرَّي » وأهل « أذربيجان » ، وحركة قواتهم إلى « واج روذ »[٣] ، تحرّك الدَّيلم ، وعلى رأسهم أميرهم « موتا » ، وتحرَّك أهل الري وعلى رأسهم « الزينبى »[٤] أبو الفرخان ، وتحرَّك أهل أذربيجان بقيادة « اسفنديار » أخو رستم ؛ فاستخلف نعيم على همذان ، وخرج بجيشه لمواجهة تحشُّد قوات فارس في « واج روذ » ، فلما وصلها نزل بقواته قبالة قوّات الفُرس وحلفائهم ، التي لم تمهل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن هاجمتهم هجومًا شديدًا ، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت وقعة عظيمة تعدل « نهاوند » ولم تكن دونها[٥] ، وصمد المسلمون صمودًا عنيدًا ، وقُتل من

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٢٢ .

(٢) الطبري ٣ / ٢٢٩ .

(٣) موضع بين همذان وقزوين .

(٤) الاسم الفارسي (الزنبدى) أو (الزبندى) ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم « الزينبى » .

(٥) الطبري ٣ / ٢٣٠ .

المجوس عددٌ كثير لا يُحصى ، واستطاع اسفنديار أن يفرَّ ببعض قواته مع حلول الظلام . وكان نعيم قد أخبر عمر باجتماع هذا العدد الضخم من قوات فارس وحلفائهم لقتاله ، فاهتمَّ عمر بذلك اهتمامًا بالغًا ؛ ولكن لم يفجأ إلا البريد بالبشارة مع عروة بن زيد الخيل ؛ فقد كان عمر متلهفًا لسماع أخبار المسلمين ، وهو أشدُّ ما يكون إشفاقًا عليهم ، وإنه لكذلك إذ قدم عروة ، وكان قدم عليه من قبل بنبأ كارثة موقعة « الجسر » وانهزام المسلمين ، فلما رآه عمر قال : « بشيرٌ ؟ » وأجاب الرجل : « بل عروة » ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عند ذلك فطن عروة فقال : بل احمد الله ، فقد نَصَرَنَا وأظهرنا[1].

قال عروة في فتح « واج روذ » :

فلما أتاني أنّ (مُوتا) ورهطَهُ ... بني باسلٍ جرّوا جنودَ الأَعاجِمِ
نهضْتُ إليهمْ بالجنودِ مُساميًا ... لأمنعَ منهمْ ذمَّتي بالقَواصِمِ
فجئْنَا إليهمْ بالحديدِ كأنَّنَا ... جبالٌ تراءى من فروعِ القلاسمِ[2]
فلمَّا لقيناهمْ بها مُستفيضةً ... وقدْ جعلوا يسمونَ فعْلَ المساهمِ
صدمناهم في واجَ روذ بجمْعنا ... غَداةَ رميْناهم بإحدى العظائِمِ
فما صبروا في حوْمةِ الموتِ ساعةً ... لحدّ الرماح والسيوفِ الصَّوارِمِ
كأنّهم عندَ انبثاثِ جُموعِهِمْ ... جدارٌ تشظّى لبنُهُ للهوادِمِ
أصبنا بها (مُوتا) ومَن لفّ جمعهُ ... وفيها نهابٌ قسْمُه غيرُ غانمِ
تبعناهم حتى أوَوْا في شعابِهِمْ ... نقتّلهم قتْلَ الكلابِ الجَواجِمِ[3]

---

(١) الطبري ٣ / ٢٣٠ .
(٢) القلاسم : الجبال .
(٣) الجواجم : السائبة .

كأنَّهم في واجَ روذَ وُجوهُهُمْ ضِئِين[١] أصابَتْهَا فروجُ المخارمِ[٢]

وقدم وفدٌ من الجيش بالأخماس إلى عمر ، فيهم سِماك بن مَخْرمة ، وسماك بن عبيد ، وسِماك بن خَرَشَةَ ، فذكروا أسْماءهم سماك وسماكِ وسِماك ، فقال عمرو : بارك الله فيكم ، اللهم اسمكْ بهم الإسلام (أَيِّدْ بهم الإسلام) وأيّد الإسلام بهم .

فتح الري :

« كتب عمر بن الخطاب إلى نُعيم : سرْ حتى تقدم الري وتلقَى جمعهم ، ثم أقمْ بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد . فأخرب نعيمُ بن مقرن « واج روذ » ، ثم خرج منها في جيشه إلى « دستبي » ومنها اتجه نحو الري ، حتى إذا كان في « قها » لقيه جيشٌ فارسيٌّ بعث به « سياوخش » بن مهران بقيادة زنبدى « الزينبى » ، وقد كُلّف بالتصدي لنُعيم ، فاستسلم زنبدى لنعيم دون قتالٍ وسالمه ، وسار معه إلى الري .. وقد كان الزينبى رأى حُسْنَ وفاءِ المسلمين معه وسوءَ معاملةِ سياوخش له .

واستمد « سياوخش » الأقاليم المجاورة مثل « دنباوند » و« طبرستان » و« قومس » و« جرجان » ، وقال لهم : قد علمتمْ إنْ هؤلاءِ حلّوا بالري أنه لا مُقامَ لكم فأمدّوه واحتشدوا له ، وقاد « سياوخش » هذه القوات ، فالتقوا بنعيمٍ على سَفْحِ جبل « الري » بجانبِ مدينة الري ذاتِهَا ، ودارتْ بينهما المعركة . فقال زنبدى لنعيم : إن القوم كثيرٌ وأنت في قِلّةٍ ، فابعثْ معي خيلًا أدخل بهم مدينتهم في مدخل لا يشعرون به وناهِدْهم أنت ؛ فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك . وفي الليل بعث نعيم خيلًا من جيْشهِ عليها

---

(١) ضئين : جمع ضأن .
(٢) ومخارم : جمع مخرم ، وهو الأبرق .

ابنُ أخيه المنذر بن عمرو بن مقرن ، فساروا مع زنبدى متسلّلًا خلال ما يعرف من المسالك ، حتى دخل بهم مدينة الري ، و« سياوخش » وجيشه لا يشعرون ، في حين شنّ نعيم بجيشه هجومًا ليليًّا عنيفًا ، فصمدوا له وصبروا في القتال حتى سمعوا تكبير المنذر في جنده مِن خلفهم ، فانهزموا وكثر القتْل فيهم . يقول الرواة : فَقُتِلوا مقتلةً عُدُّوا بالقَصَبِ فيها . وكانت غنائم المسلمين بالري قريبًا من غنائمهم بالمدائن ، وأخرب نُعيم مدينة « الري » العتيقة ، وأمر زنبدى فبنى مدينة « الري » الحديثة ، وجعل زنبدى مرزبانًا عليهم .

وقد كان « الري » عاصمة فارس الشمالية ، فما إنْ سقطتْ ، حتى فتح سويد بن مقرن « قومس » سِلْمًا ، وصالح نعيمٌ أهلَ دبناوند ، وبفتْح الري وتسليم هاتيْن المدينتيْن الكبيرتين لم يبقَ بين المسلمين وبين شواطئ بحر قزوين من أرض فارسٍ غير « جرجان » و« طبرستان » و« أذربيجان » ، وقد سُلّمتْ « جرجان » و« طبرستان » لسويد بن مقرن صلحًا ، كما فتح المسلمون « أذربيجان » بعدَ مناوشاتٍ لا ترقى إلى درجة الحرب »[1] .

البراءُ بن عازب الأوْسي الأنصاري ، فاتحُ قزوين :

قال رضي الله عنه : استصغره رسول الله ﷺ هو وابن عمر فردّهما يوم بدرٍ ، ولم يشهد أُحدًا لصِغرِ سِنّه .. وأجازه النبي ﷺ يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنةً ، وقاتل مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوةً .

وكان للبراء نصيب في مقاتلة المرتدين ، وشهد فتح « تُسْتَر » مع أبي موسى الأشعري .

---

(١) قادة فتح بلاد فارس صـ ١٢٧ ، وسقوط المدائن – لأحمد عادل كمال صـ ٢٣٥ – ٢٣٧ .

وسار البراء إلى قزوين ... فأتى « أبهر » وكانت محصنةً ، فحاصرها وقاتله أهلها ، ولكنّهم طلبوا الأمان بعد ذلك فصالحهم البراء[١] ودخلها المسلمون .

ثم غزا البراء أهل حصن « قزوين » ، فلما بلغهم قصْدُ المسلمين لهم طلبوا من حلفائهم الدَّيْلم معاونتهم فوعدوهم خيرًا ، ولكنهم لم يبرُّوا بوعدهم ، فلما رأى أهل « قزوين » ذلك طلبوا الصُّلح فصالحهم البراء ، ودخلها المسلمون أيضًا[٢] .

وفي ذلك يقول أحد رجال البراء :

قَدْ عَلِمَ الدَّيْلمُ إذْ تُحارِبْ ... حينَ أتى في جيشهِ ابنُ عازبْ

بأنّ ظنّ المشركين كاذبْ ... فكمْ قطعنا في دُجَى الغياهبْ

مِنْ جبلٍ وعْرٍ ومنْ سَبَاسِبْ

إذْ كانت المنطقة جبليةً وعرة لم يألفِ العربُ مثلها من قبلُ ؛ لأنهم من سكّان السهول والصحاري ، ومع ذلك استولوْا عليها .

وغزا البراءُ « الدّيلمَ » حتى أدّوْا له الإتاوة ، وغزوا منطقة « جيلان » ، وفتح « زنجان » عُنْوةً[٣] .

رضي الله عن البراء فقد كانتْ مهمته صعبةً للغاية ، ومَن لها سواه مِن شجاعٍ ومقدامٍ ، صاحب إرادة لا تزعزعها المخاطر والأهوال ، لقد كان البراء أمةً في رجلٍ .

---

(١) فتوح البلدان - للبلاذري صـ ٣١٧ .

(٢) البلاذري صـ ٣١٧ .

(٣) قادة فتح بلاد فارس صـ ١٣٠ - ١٣٤ .

ذو النُّورِ عبد الرحمٰن بنُ ربيعة غازي التُّرك ، الذي تمنعه الملائكةُ مِنَ الموت :

أدرك النبيَّ ﷺ ولم يسمع منه ولا روى عنه .

كان من أبطال المسلمين بالقادسية .

وبعد انهيار جيش رستم حاولت بضعٌ وثلاثون كتيبةً منهم أن تصمُدَ فتصدّى لهم بضعٌ وثلاثون كتيبةً من المسلمين ، فكان ابن هربذ أمام عبد الرحمٰن ابن ربيعة ، فأباد عبد الرحمٰن جندَه بخيلِهِ وقتل ابن هربذ .

وأمره عمر بن الخطاب بغزْوِ الترك فسار عبد الرحمٰن بجيشه حتى اجتاز الباب ، فقال له ملك الباب شهربراز : ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أريد « بلنجر »[١]. قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب . قال : لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وتاللهِ إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان ، لبلغتُ بهم الروم . قال شهربراز : وما هم ؟ قال عبد الرحمٰن : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنيَّةٍ ، كانوا أصحاب حياءٍ وتكرُّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرُّمُهم ، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَنْ يغلبهم ، وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيّرهم .

فغزا عبد الرحمٰن « بلنجر » في عهد عمر دون أن تُصاب قُوَّاته بأية خسائر ، حتى قال عنها الرواة : إنها غـزاةٌ لم تئم فيها امرأة ولم يُيَتّمْ فيها صبيٌّ . وأوغل عبد الرحمٰن في أرض التُّرك ، حتى بلغتْ خيلُه « البيضاء » على مسافة مائتي فرسخ من « بلنجر » – أي أكثر من ألف ومائة كيلو

---

(١) من مُدن بحر « قزوين » .

متر - وكانت العوامل النفسية من أسباب نجاح المسلمين في ذلك الغزو ، وكانت نفسيَّات الترك على النقيض .

قال سلمان بن ربيعة - أسد القادسية - عن غزو الترك : لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه ، وقالوا : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلّا ومعه الملائكة تمنعه من الموت . فتحصّنوا منه وهربوا ، فرجع بالغُنْم والظفر ، وذلك في إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات من زمن عثمان ، فظفر كما كان يظفر ... وتذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم - المسلمون - لا يموتون . قال : انظروا . وفعلوا ، فاختفوا لهم في الغياض ، فرمى رجل منهم رجلًا من المسلمين على غرّةٍ ، فقتله وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك .. فاقتتلوا فاشتد قتالُهم ، وقاتل عبد الرحمن حتى قُتل ، وانكشف الناس ، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة ، وخرج بالناس ومعه أبو هريرة على « جيلان » ، فقطعوها إلى « جرجان »[1] .

وقد أثبتت هذه الحادثة للترك أن وهمهم الأول كان خاطئًا ، وأن المسلمين بشرٌ يموتون كما يموت البشر . وإن دلَّت هذه فإنما تدل على بطولةِ فارسنا ذي النور عبد الرحمن الذي يغزو الغزوَة تلو الغزوة ، فلا يموت أحدٌ من جنده حتى يتوهّم الترك أن المسلمين لا يموتون .

سلمان بن ربيعة الباهلي ، سلمان الخيل :

ذكره البخاري في الصحابة ، وكان يلي أمر الخيول - الفرسان - أيامَ عمر .

---

(١) الطبري ٤ / ١٥٨ ، وسقوط المدائن صـ ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

وقد شهد فتوح الشام مع أبي أمامة الباهلي .

وفي القادسية حاول بضعٌ وثلاثون كتيبة من المجوس أن تصمد للمسلمين ، فتصدى لهم أمثالُهم ، وكان « كناري » قائد فرسان « رستم » أمام سلمان فقتله سلمان ، وأبصرهم تحت رايةٍ لهم قد حفروا لهم وجلسوا تحتها ، وقالوا : لا نبرح حتى نموت . فحمل عليهم فقتل مَن كان تحتها وسلبهم(١) .

وكان سلمان حقًّا فارس الناس بالقادسية ، فكان يُقال لسلمان : لَسلمانُ أبصرُ بالمفاصل من الجازر بمفاصلِ الجزور(٢) .

وفي ٢٤ هـ جاشت الروم ، فأمدّ عثمان أهل الشام بثمانية آلافٍ من العراق عليهم سلمان بن ربيعة ، فدخلوا أرض الروم ، وشنّوا الغارات وسَبَوْا ، وافتتحوا الحصون .

لله دَرُّكَ يا سلمان حين تقول : قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم ، كلهم يعبد غير الله ، ما قتلت رجلًا منهم صبرًا .

وولي غزو « أرمينيا » في زمن عثمان فاستُشهد حوالي عام ٣٠ هـ بـ« بلنجر » من بلاد أرمينيا .

الحارث بن قموم البهزي ، بطل بني سُليم في القادسية :

كان سعد يعدّد على عمر فرسان القادسية « فكان مما ذكر سعد لعمر أن وصف الحارث بن قموم بالشجاعة وقال : لم أرَ راكبًا مثل الحارث ابن قموم ؛ إنه جلّل بعيرَه وبرقعه ، ثم ركب الفراديس ففرّق بينها ، فإذا

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٩ ، وفتوح البلدان ٦٤٤ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٦٩ وهذا القول للشعبي .

بصُر بفارسٍ انحطّ عليه فعانقه ثم قتله ، ثم وثب على بعيره من قيام »[١].

يعفور بن حسّان الذهلي ، مِن أبطال القادسية :

وكذا وصف سعدٌ لعمرَ يعفور بن حسّان الذهلي فقال : « لم أرَ رجلًا مثل يعفور ؛ إنه قد جاء في يوم بخمسة فوارس ، يختل الرجل منهم حتى يرميه ، ثم يغلبه على عنايته حتى يأتي به مسلمًا »[٢].

غالب بن عبد الله الأسدي :

« خرج رحمه الله أمام صفوف بني أسد وهو يُنشد يوم القادسية :

قد عَلِمتْ واردةُ المسالحْ   ذاتُ اللّبان والبنان الواضِحْ

أني سَمامُ البطل المُشايحْ   وفارجُ الأمرِ المهمِّ الفادِحْ[٣]

فخرج إليه هرمز وكان من ملوك الباب على رأسه تاج ، فأسره غالب أسرًا فجاء به سعدًا فأدخله عليه ، وانصرف إلى مبارزة جديدةٍ »[٤].

علباء بن جحش العجليّ ، يقاتل بعد خروج أمعائه :

وهذه قصةٌ في البذْل لا تُنسى :

في معركة القادسية « برز رجلٌ من المجوس أمام صفوف بَكر بن وائل فنادَى : مَنْ يبارز ؟ فخرج له علباء بن جحش العجلي ، فنفحه[٥] علباءُ

---

(١) الإصابة ١٩٢٥ .

(٢) الإصابة ٩٤٢٧ .

(٣) المسالح : مواقع السلاح . اللّبان : الصّدر . البنان : استعارة لقوائم الخيل . سمام :الذي أتى بالسموم .

(٤) فتوح البلدان ٦٤٦ .

(٥) النفح : الضرب إلى خارج اليمين .

فأصابه في صدره وشقّ رئته ، ونفحه الآخر فأصابه في بطنه وانتشرت أمعاؤه ، وسقطا معًا إلى الأرض . أمَّا المجوسي فمات من ساعته ، وأما علباء فلم يستطع القيام ، وحاول أن يُعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأتَّ له ، ومرّ به رجلٌ من المسلمين ، فقال له علباء : يا هذا ، أعِنِّي على بطني . فأدخل له أمعاءه ، فأخذ بصفاقيه ، ثم زحف نحو صفِّ العجم دون أن يلتفت إلى المسلمين وراءه ، فأدركه الموت على ثلاثين ذراعًا من مَصْرَعِه وهو يقول :

أرجُو بها من ربِّنا ثوابَا قد كنتُ ممَّنْ أحسنَ الضِّرابَا

وفاضت نفسه »[1] .

هلال بنُ عُلّفَة التيمي ، قاتلُ رستم :

أمّا رستم فهو قائد قوات الفرس ، الشيخ أبو مرةَ الفرس ؛ أي شيطانهم . عندما قربتْ ساعة الصفر للقتال في القادسية أسرجوا له فرسَه ، فقفز قفزةً واحدةً استوى بعدها في السَّرج على ظهر الجواد دون أن يمَسَّ حتى الركاب ، وهذا أكبر دلّيل على فروسيته وحيويته وتمُّرسه بالحرب ، فقد كان محاربًا ممتازًا وخبيرًا عسكريا مجرِّبًا ... قال لجنده عن المسلمين : غدًا ندقّهم . فقال له رجل : إن شاء الله . فردَّ عليه رستم في كبرياءَ فارسيةٍ مَقِيتةٍ ، وكفرٍ مجوسيٍّ مُلحِدٍ : وإن لم يشأ ؛ إنما ضعا الثعلب حين مات الأسد[2] ، قد خشيت أن تكون هذه سنة القرود .

« وفي المعركة .. كانت أول وحدةٍ من جيش الإسلام تصل إلى حيث يوجد رستم؛وحدة من بني تيمٍ من الرباب ، وعلى رأسها فارسها القعقاع ،

---

(١) الطبري ٣ / ٥٤٦ .
(٢) الطبري ٣ / ٥٢٩ ، ويعني بالأسد : كسرى برويز .

وعثرت الوحدة على سرير رستم ، ولكنهم لم يعثروا عليه فوقه ، واقترب هلال بن علقمة من البغل الذي يستظل بظلّه رستم ، وهلال لا يعلم بوجود رستم ، فضرب علقمة الجبال التي تشـدُّ العدْلين إلى ظهْر ذلك البغل فقطعها ، فوقع أحدُ العدْليْن فوق « رستم » ، وكان العدل ثقيلًا جدًّا ، لذلك أصاب رستم إصابةً بالغةً أدَّتْ إلى إزالةِ فقرةٍ من فِقار ظهْر رستم ، وعاد الفارس هلال يضرب حِمْلَ البغل ، فانبعثت منه رائحة المسك . وتسلل رستم هاربًا نحو العتيق ، فأبصر به هلالٌ وعرفه فتوجّه نحوه ، فرماه رستم بنشابةٍ أصابتْ قدمه ، وشكّتها إلى ركاب سرجه ، وكان ركاب فرس هلال من الخشب ، وكان رستم - حين رمى النشاب - يصيح بالفارسية : بيايه ؛ أي كما أنت . وأوغل رستم في الهرب نحو نهر العتيق ، وصار يُخفّف مما عليه من عُدة الحرب ، فألقى عنه درعه ورمى بسيفه ، وقذف بنفسه في نهر العتيق ، ولم يترك له هلالٌ فرصةَ النجاة إذ اقتحم النهر خلفه ، وقد عام رستم في الماء ، ولم يشعر رستم إلّا بهلالٍ قد أدركه ، إذْ رآه واقفًا إلى جنبه على قدميْه ، وفي الحال أخذ هلال برجْل رستم ، ثم جذبه وأخذ يسحبُه حتى خرج به إلى البر ، وهناك ضرب جبينه بالسيف ففلق هامته وضرب أنفه ، فقتله ، ثم سحب جُثّته »[1] ، حتى رمى بها بين أرجُل البغال ، ثم صعد على سرير رستم ، ونادى بأعلى صوته : قتلتُ رستم وربِّ الكعبة . ثم نَادى الناس قائلًا : إليّ . فأطافوا به وهم لا يرون السرير ولا يحسُّون به ، وعندما علموا بمصرع رستم كبّروا من فوق سريره ، وتهدّم قلب جيش الفُرْس وعمّتهم الهزيمة ..

فللَّه دَرُّكَ يا هلال .. وبوركت يمينُك !

---

(١) الطبري ٣ / ٥٦٤ .

وداعيةٍ بفارسَ قد تركْنَا ... تُبكّي كلّما رأتِ الهلالَا
قتلْنا رستمًا وبنيهِ قسْرًا ... تثيرُ الخيلُ فوقَهُمُ الهيَالا
تركْنا منهمُ حيثُ التقينا ... قيامًا ما يريدونَ ارْتحالَا

قتل الفُرْس وذلُّهم ونزولُ رايتهم « درفش كابيان » إلى الأبد :

بعد مصرع رستم حاول قادة الفرس المنهزمون - وعلى رأسهم الجالينوس قائد القلْب - أنْ ينسحب بقيةُ الجيش بانتظام ، فوقف الجالينوس على قنطرة الردم على العتيق ، ونادى الفرس ليعبروا النهر على القنطرة الترابية ، وكان معه الهرمزان ، ولكنّ زهرة بن الحويّة خاض النهر بفرسه واصطدم بالجالينوس ، فاختلفا فقتله زهرة وأخذ سَلَبَه[1] ، وهكذا بقي العجم بدون قائدٍ ماهرٍ ينظِّم ، حتى انسحابهم ، فصار همّهم النجاة بأنفسهم فقط . وكان هناك ثلاثون ألفًا من مغاوير الفرس وطّنوا أنفسهم على الموت ، فاقترنوا بالسلاسل كي لا يفرّوا ، وعندما حاقتِ الهزيمة بجيش رستم تهافت هؤلاء المقترنون في النهر جميعًا ، يجرّ بعضُهم بعضًا ، فقتلهم المسلمون وَخْزًا بالرماح ، فلم ينجُ منهم أحد ، بل قُتلوا جميعًا .

قال الطبري في تاريخه (٣ / ٥٦٩) - يصف إبادة الثلاثين ألفًا مِن الفرس المقترنين في السلاسل -: فأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العتيق ، فوخزهم المسلمون برماحهم ، فما أفلت منهم مخبّر ، وهم ثلاثون ألفًا .

ضرار بن الخطاب القرشي مُسْقِطُ راية الفُرْس إلى الأبد :

لله دَرُّه ..

وصل ضرار بن الخطاب القرشي إلى ساري راية الفرس الكبرى « دِرَفش

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٥ .

كابيان » فأنزلها من عليائها لآخر مرة ، فلم ترتفع بعدُ أبدًا ..

هذه راية فارس الكبرى التي رآها المسلمون مرة واحدة قبل هذه ، فهي التي كان يرفعها « بهمن جاذويه » في يوم الجسر ، هذه الراية الحمراء ذات الشمس البنفسجية والقمر الذهبي « درفش كابيان » أشهر راية في التاريخ .

راية كسرى « دِرَفش كابيان » ، أوْ « دِرَفْش كاوْيان » ، وكانت من جلود النمر ، عرض ثمانية أذرع في طُول اثني عشر ذراعًا – أربعة أمتار في ستة أمتار – ، وكان يُضاف إلى زينتها بعض الجواهر بعد كلّ انتصار ، ووشوها بِقِطَع الذهب والفضة والجواهر واللآلئ ، وتبرّك بها ملوكُ الفرس ، وصارت على الأيّام يتيمة الدّهر ، وكريمة العمر ، وبِكْر الفلك ، ونكتة الحِقب ، يحملها « السالار » رئيسهم المقدم ، يعينه عليها خمسةٌ من الموابذة – كبار رجال الدين – ليحملوه أمام الجيش ... أسقطها البطل ضرار بن الخطاب فعُوّض عنها بثلاثين ألف درهم ، وكانت قيمتُها ألفي ألفِ دينار .

فَبُورِكَ زندُك يا ضرار ... وبوركَتْ يمينك .

على ترانيمِ تكبيراتنا سقطتْ راياتُ كسرَىٰ وذاق الموتَ سَاسَانُ

وسقط مُلْك بني ساسانَ على يد الأُسُودِ الموحدين :

ركب الذلُّ والهوانُ الفرسَ بعد القادسية .

« قال رجلٌ من بني عبس : أصاب أهل فارس يومئذٍ بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم ، قُتلوا حتى إنْ كان الرجل من المسلمين ليدعُو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديْه فيضرب عنقه ، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدَهما بصاحبه ، وكذلك في ....

العِدّة »[١]، يعني يأمر العدد منهم فيقتل العدد .

ولقد شهد شقيق بن سلمة الأسدي القادسية غلامًا بعد ما احتلم ، يروي فيقول : « فهزمهم الله ، فلقد رأيتُني أشرتُ إلى إسوارٍ منهم ، فجاء إليّ وعليه السلاح التامُّ فضربتُ عنقه ، ثم أخذتُ ما كان عليه »[٢].

قال الأسود النخعي : « شهدتُ القادسية ، فلقد رأيتُ غلامًا منّا مِن النخْع يسوق ستينَ أو ثمانين رجلًا مِن أبناء الأحرار ، فقد أذلّ الله أبناء الأحرار »[٣].

لا صلح أبدًا حتى نأكلَ عسلَ إفريذين بأُتْرُجِّ كوثى :

وإفريذين على بحر قزوين ، وكوثى : بيْن دجلة والفرات ، والأُتْرُجُّ : نوع من التمر .

ولهذا قصةٌ لا تُنسى : لما وقعتِ القادسية ومُني الفرس بأنكر هزيمة وقُتِل بها رستم ، وتقدم جيش المسلمين نحو المدائن .. حتى حاصروا « بهرسير » وكانت على الشاطئ الأيمن لدجلة ، وهي أولى المدائن السَّبع التي تتكون منها العاصمة « المدائن » ، واستمر حصار المسلمين لها شهرين ، وقال بعضهم : ستة أشهر ، حتى أكل الفرسُ الكلابَ والسنانير . وذكر المؤرخون أن المسلمين ضربوا « بهرسير » بالمنجنيق والعرادات ، وعرض « يزدجرد » ملك الفرس على المسلمين أن يصالحوه ، شريطة أن يقِفُوا حيث هم ، ويكون لهم كلُّ ما فتحوه في العراق غربيّ دجلة حتى حدود بلادهم ، ويكون نهر دجلة الحدود الفاصلة بين العرب والفرس .. حتى جاءه الردُّ الذي اضطره إلى الفرار .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٦٩ .

(٢) الطبري ٣ / ٥٢٥ .

(٣) الطبري ٣ / ٥٦٨ .

ذكر الطبري في « تاريخ الرسل والملوك » (٤ / ٧) عن أنس بن الحليس قال : قال : بينا نحن محاصرون « بهرسير » بعد زحفهم ، أشرف علينا رسولٌ فقال : إن المَلِك يقول لكم : هل لكم إلى المصالحة على أنّ لنا ما يلينا مِن دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ! فبدر الناسَ[١] أبو مفرّز الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن ، فرجع الرجل[٢] ، ورأيناهم يقطعون[٣] إلى المدائن . فقلنا : يا أبا مفرز : ما قلتَ للرسول ؟ فقال : لا ، والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما هو ، إلّا أنّ عليّ سكينة ، وأنا أرجو أن أكون قد أُنْطِقتُ بالذي هو خير . وانتاب الناس يسألونه[٤] ، حتى سمع سعدٌ بذلك فجاءَنا ، فقال : يا أبا مفرز ، ما قلت ، فوالله إنهم لهرّابٌ ؟! فحدثه بمثل حديثه إيانا ، فنادى - سعدٌ - في الناس ثم نهد بهم ، وإن مجانيقنا لتخطر عليهم[٥] ، فما ظهر على المدينة أحدٌ ، ولا خرج إلينا إلّا رجلٌ نادى بالأمان فأمّناه ، فقال : إنْ بقي فيها أحد[٦] فما يمنعكم[٧] ؟! فتسوّرها الرجال وافتتحناها ، فما وجدنا فيها شيئًا ولا أحدًا إلّا أُسارى أسرناهم خارجًا منها وذلك الرجل ، فسألناه : لأيّ شيءٍ هربوا ؟ فقال : بعث الملك

(١) أي : سبقهم .
(٢) أي رسول كسرى .
(٣) أي : يعبرون النهر .
(٤) في تعجُّبٍ كيف أن كلمةً واحدةً قالها جعلت حامية « بهرسير » تترك المدينة خالية .
(٥) أي تقصفهم بحممها .
(٦) يعني : لم يبقَ فيها أحد .
(٧) أي : ما الذي يحول بينكم وبين دخول المدينة .

إليكم يعرض عليكم الصُّلح فأجبتموه بأن « لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريذين بأترجّ كوثى » . فقال الملك : واويله ، ألا إن الملائكة تكلَّم على ألسنتهم تردّ علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ، ما هذا إلا شيءٌ ألقي عليّ في هذا الرجل لننتهي ، فأُرْزُوا إلى المدينة القصوى »(١) .

رضي الله عنك أبا مفرّزٍ ! ألست القائل يا سيدي بعدَ انتصاركم في اليرموك :

وكَمْ قدْ أغرْنا غارةً بعدَ غارةٍ ... ويومًا ويومًا قد كشفنا أهاوِلَهْ
ولولا رجالٌ كان حشوَ غنيمةٍ ... لدى مَأْقِطٍ رُجّتْ عليهم أوائِلُهْ
كفيناهُمُ اليرموكَ لما تضايقتْ ... بمنْ حلّ باليرموكِ منْهُ حمائَلُهْ
فلا يَعْدِمَنْ منّا هرقلُ كتائبًا ... إذَا رامها رامَ الذي لا يحاولُهْ(٢)

وفي القادسية كنتَ شاعرَهم ومن أبطالهم ، تقول :

ألا بلّغا عني الغريبَ رسالةً ... فقدْ قُسِّمَتْ فينا فيوءُ الأعاجمِ
وَرُدّتْ علينا جزيةُ القومِ بالذي ... فككْنَا به عنهُم وُلاة المعاصمِ

أبو نباتة نائِل بن جعشم قاتل قائد الجيش الفارسي في « كوثى » « شهريار » :

« لا يقتلك إلا عبد » :

« بعد أن تمت سيطرةُ المسلمين على مدينة بابل أقاموا بها عدةَ أيام .. بعدها أمر سَعْدٌ قائد المقدمة زهرةَ بن الحويّة أن يزحف نحو بلدةِ « كوثى » ، وكان عليها دهقان الباب الفارسي شهريار ، وهو من أشدّ فرسان فارس .. وتكامل

(١) أي : انحازوا إلى « اسبانير » و « طيسفون » .
(٢) الطريق إلى دمشق صـ ٤٩٦ – ٤٩٧ .

جيش المسلمين الذي أتت كتائبه على شكل موجاتٍ ، وفي ضواحي كوثى لَحِقَتْ خيل المسلمين بقوات شهريار فاصطدمت بها ، وهنا خرج قائد الجيش الفارسي شهريار- وكان متكبرًا - إلى ما بيْن الصَّفيْن وعليه درعه وفي يده رمحه ومعتقِلا سيفه ، فنادى : ألَا فارسٌ منكم شديدٌ عظيمٌ يخرج إليّ حتى أنكّل به ؟ فناداه القائد زهرة : لقد أردتُ أن أبارزك ، فأما إذْ سمعتُ قولَك فإني لا أُخرج إليك إلّا عبدًا ، فإنْ أقمتَ له قتلَك إن شاء الله ببغيك ، وإن فررتَ منه فإنما فررتَ منْ عبدٍ . فغاظه زهرة بذلك ، ثم أمر أبا نباتة بن جعشم الأعرجي ، وكان من شجعان بني تيم ، فخرج إليه عليه دِرْعٌ ، وبيده رمحٌ أيضًا ، وكان كلاهما جسيمًا (وثيق الخلْق) ، ويبدو أنّ شهريار كان أجسم . يقول الرفيل :... إلا أن شهريار مثل الجمل . فلما رأى نائِلًا ألقى الرمح ليعتنقه ، وألقى نائلٌ رمحَه ، وانتضيا سَيْفَيْهِمَا فاجتلدا ، ثم اعتنقا - تصارعا - فخرّا عن فرسيهما ، ووقع شهريار على « نائل » كأنه بيت ، فضغطه بفخِذِه وأخذ الخنجر وأراغ[1] حَلّ أزرار درعه ، فوقعتْ إبهامه في فيّ نائل - فمه - فحطّم عظمها ، ورأى منه فُتُورًا فثاوره - ثار به - فجلد به الأرض ، ثم قعد على صدره ، وأخذ خنجره ، فكشف عن بطنه فطعن في بطنه وجنبه حتى مات ، فأخذ فرسه وسَلَبَه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد . وأقام زهرة بكوثى حتى قَدِمَ عليه سعدٌ فأتى به سعدًا ، فقال سعد : عزمت عليك يا نائل بن جعشم لمَا لبستَ سواريْه وقباءه ودرعه ، ولتركبنّ بِرْذَوْنه . وغنّمه ذلك كلَّه ، فانطلق فتدرّع سَلَبَه ، ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلعْ سواريْك إلّا أن ترى حربًا فلْتلبسهمَا . فكان أوَّلَ رجلٍ من المسلمين سُوِّر بالعراق[2] » . ا هـ .

---

(١) أي : أراد .

(٢) سقوط المدائن - لأحمد عادل كمال صـ ١٧ - ١٩ .

في بلدة « كوثى » حيث جلس إبراهيم الخليل وحُبس .. انتصر أهل مِلَّته على عبدة الأوثان والنيران ، وقتل أبو نباتة قائدهم شهريار ﴿ **وتلكَ الأيامُ نداولها بَيْنَ الناس** ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٠] .

النُّعْمان بن مُقَرِّن المُزني ، قائد فتح الفتوح :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن للإيمان بيوتًا وللنِّفاق بيوتًا ، وإن من بيوت الإيمان بيت ابن مقرِّن » .

وكان لابن مقرن عشرة إخوة من الفرسان : سنان وسويد وعبد الله وعبد الرحمٰن وعقيل ومعقل والنعمان ونعيم ومرضي وضرار ، كلهم صحب الرسول ﷺ ، وليس ذلك لأحد من العرب غيرهم ، نزلت فيهم الآية الكريمة : ﴿ **وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخر** ... ﴾ [التوبة : ٩٩] الآية ، وكانوا من جلَّة الصحابة .

قدم النعمان مع إخوته على رأس أربعمائة فارسٍ من مُزَيْنَة ، وشهدوا مع الرسول ﷺ غزوة الخندق ، وكان مع النعمان لواء مزينة في غزوة فتح مكة .

وكان له جهاده المُشَرِّف في حروب الرِّدة ، ولما أغار المرتدون على المدينة عَبَّأَ الصـديقُ النَّاسَ ، ثم خرج بهم في الثلث الأخير من الليل ، وعلى مَيْمنتهِ النعمان ، وعلى ميسرته أخوه عبد الله بن مقرن ، وعلى السَّاقة أخوه سويد بن مقرن ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين هَمْسًا ولا حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوفَ قبل شروق الشمس ، فلم تشرق الشمس حتى انهزم المشركون ، فطاردهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة ، حيث وضع فيها حاميةً من المسلمين بقيادة النعمان ، وعاد إلى المدينة[١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٤٧٨ .

ولما نَشَبَ القتال في القادسية أبلى فيها النعمان بلاء الأبطال .

ولما حَضَّ يزدجرد أهل فارس للدفاع عن بلادهم ، وأثمرت محاولاته توحيد جهود الفرس وأهل الأهْواز في سبيل صدِّ عدوِّهم المشترك ؛ فأخبر قادةُ المسلمين في الأهواز عمرَ بن الخطاب ، فكتب عمر إلى سعد : « ابعثْ إلى الأهواز جُندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن وعجِّلْ ، فلينزلوا بإزاء الهُرْمزان ويتحققوا أمره »[1].

وتحرك النعمان بأهل الكوفة إلى الأهواز على البغال يجنبون الخيل ، فلما وصلها بادر إلى مهاجمةِ جيش الهرمزان في « رام هُرمز » ، فهزم الفُرسَ ، وفتح المدينة ، ولجأ الهرمزان إلى مدينة « تُسْتَر » ، فسار النعمان بقوات الكوفة إليه ، وسارت قوات البصرة إلى « تستر » أيضًا ، وأمدَّهم عمرُ بأبي موسى الأشعري ، وجعله على أهل البصرة ، وجعل أبا سبرة بن أبي رَهْم قائدًا عامًّا على الجميع ، فاستولى عليها بعد حصارٍ دَامَ أكثر من شهر . أما الهرمزان ، فالتجأ إلى قلعة المدينة وتحصَّن بها ، لكنه سلّم نفسه للمسلمين ، على أن يقرر مصيرَه عمرُ بن الخطاب بنفسه .

وحاصر النعمان « السوس » حتى جاء أَمْرُ عمر بالحركة إلى « نهاوند » .

في نهاوند :

وكان ما حدث للهرمزان حافزًا لأمراء الفرس أن يُوَحِّدوا كلمتهم ، فتكاتفوا وتجمعوا في « نهاوند » حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفًا ، اجتمعوا بإمرة الفيرزان ، وقرر عمرُ أن يَسيرَ بنفسه لمعالجة هذا الخطر الداهم ، ولكن أصحاب الشورى نصحوه بأن يبقى في المدينة ، ويرسل قائدًا يعتمد عليه ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ٣١١ .

ليفرق شمل القوات الفارسية ، فقال : « واللهِ لأُوَلِينَّ أمرهم رجلًا يكون أول الأَسِنَّةِ إذا لقيها غدًا .. هو النعمان بن مقرن » . فقالوا : هو لها[١].

وكتب عمر إلى النعمان : « بسم الله الرحمـٰن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن : سلامٌ عليك ، فإني أحْمَدُ إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، أمَّا بعد : فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فَسِرْ بأمر الله ، وبعون الله ، وبنصر الله ، بمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعْرًا فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقّهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غَيْضَةً[٢] ، فإن رجلًا من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار ، والسلام عليك »[٣].

وهبَّ النعمان بجيشه للقاء العدو ، وأرْسل أمامه طلائع من فرسانه ؛ لتكشف له الطريق ، فوجدوا أن العجم قد نثروا في الدروب المؤدية إلى « نهاوند » حَسَكَ الحديد ؛ ليعوقوا الفرسان والمشاة عن الوصول إليها . وأخبر الفرسانُ النعمانَ بما رأوا ، وطلبوا منه أن يمدهم برأيه ، فأمرهم بأن يقفوا في أماكنهم ، وأن يوقدوا النيران في الليل ليراهم العدو ، وعند ذلك يتظاهرون بالخوف منه ؛ ليغروه باللحاق بهم ، وإزالة ما زرعه من حسك الحديد ، وجازت الحيلة على الفرس ، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم ، حتى أرسلوا عمالهم فكنسوا الطرق من الحسك ، فكرَّ عليهم المسلمون ، واحتلُّوا تلك الدروب .

وتحصَّن المشركون بحصونهم وخنادقهم ومدائنهم في مائة وخمسين

---

(١) ابن الأثير ٣ / ٣ .

(٢) مغيض : ماء يجتمع فيه الشجر .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٣ ، ٣ / ٢١٣ .

ألفًا ، وأمامهم ثلاثون ألفًا من المسلمين .

وقال طليحةُ الأسدي للنعمان : أرى أن تبعث خيلًا مؤدية فيحدقوا بهم ، ثم يرموهم لينشبوا القتال ويُحمّسوهم ، فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ، أرزوا[1] إلينا استطرادًا[2] ، فإنا لم نَسْتطردْ لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ، ورأوا ذلك منا ؛ طمعوا في هزيمتنا ، ولم يشكوا فيها ، فخرجوا فجادُّونا ، وجاددناهم ؛ حتى يقضي الله فيهم وفينا ما يحبّ .

وقالوا للنعمان : « انتقلْ من منزلك هذا ، حتى يروا أنك هارب منهم فيخرجوا في طلبك »[3].

ولقي هذا الرأْيُ القبول ، وفي حينها وكل النعمان تنفيذ دور الفرسان إلى القعقاع بن عمرو ، وأَنْشبَ القعقاعُ القتالَ ، وتحرَّش بهم ، ورماهم بعد احتجازٍ من العجم فأخرجهم ، فلما خرجوا واقتتلوا ، جعل يتراجع ويتراجع ويتراجع ، وكأنه انهزام .... ورمى المجوسُ المسلمين بالنبل ، والمسلمون يستترون بالحجف ، لا يتحركون ، حتى أكثروا فيهم الجراح ، وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك ، ثم قالوا للنعمان : « ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما لقي الناس ، فما تنتظر بهم ؟! ائذن للناس في قتالهم » ... فيجيبهم النعمان تلميذ سعْد : « رويدًا رويدًا » وأعادوا عليه القول وهو يجيبهم : « رويدًا رويدًا » .

قال المغيرة بن شعبة - وقد رأى كثرة جيوش العجم وما تفعل - :

---

(١) أي : لجئوا .
(٢) مبارزة على الخيل بالكرِّ والفرِّ .
(٣) الطبري ٤ / ١١٥ .

« لم أر كاليوم فشلًا ، إن عدونا يُتركون يتأهبون ولا يُعجلون !! أما والله لو أن هذا الأمر إليَّ ، لكنت قد أعجلتهم وعلمت ما أصنع ، ولو كنت بمنزلتك باكرتهم القتال » .

قال النعمان : « رويدًا ترى أمرك ، وقد كنتَ تلي الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحثِّ ، ربما باكرت القتال ثم لم يسوّد الله وجهك ، فالله عز وجل يشهدك أمثالها ، فلا يحزنك ولا يعيبك موقفك ، إنه والله ما منعني من أن أُنَاجِزَهُمْ إلا شيءٌ شهدته من رسول الله ﷺ ؛ إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجلْ حتى تحضر الصلاةُ ، وتهب الأرواحُ ، ويطيب القتالُ ، فما منعني إلا ذلك »(١) .

نعم إنه المغيرة القائل لبندار قائد جيوش الفرس في نهاوند : « فوالله ما زلنا نتعرّف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنَّا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبدًا حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نُقتل بأرضكم » . يقول المغيرة : « فقمت ، وقد والله أَرْعَبْتُ العِلْج جهدي » ... وإنه النعمان تلميذ سعد يفعل فعل سعد يوم أرماث ، ويوم أغواث ، ويوم عمواس بالقادسية .

لله دَرُّكَ وصبرك يا نعمان ! جيوش الفرس تأتي - كما يقول جُبير -: « لم أر والله مثل ذلك اليوم ، إنهم ليجيئون كأنهم جبال حديد ، قد تواثقوا أن لا يفروا من العرب ، وقد قرن بعضهم بعضًا ، كل سبعة في قران ، وألقوا حسك الحديد ، وقالوا : مَنْ فرَّ منا عقره حسك الحديد »(٢) .

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ .
(٢) الطبري ٤ / ١١٩ .

ووقف النعمان وقال لجيشه :

« قد علمتم ما أعزَّكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله مُنْجزٌ وَعْدَهُ ، ومتبع آخر ذلك أوله ، واذكروا ما مضى إذْ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزّة ، فأنتم اليوم عباد الله حقًّا وأولياؤه . وقد علمتم انقطاعكم عن إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلّكم . وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم ؛ فأمّا ما أخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هذا السَّواد ، وأمَّا ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحمى منكم على دينكم . واتقى اللهَ عبدٌ صَدَقَ اللهَ ، وأبلى نفسه فأحسن البلاء ، فإنكم بين خَيْرَينِ ، منتظرين إحدى الحُسْنَيَينِ ، من بين شهيدٍ حيٍّ مرزوقٍ ، أو فتح قريب ، وظفْرٍ يسيرٍ ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم يَكِلْ قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه ، وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مُسَلَّطٌ على ما يليه . فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإني مكبرٌ ثلاثًا ، فإذا كَبَّرتُ التكبيرة الأُولى ؛ فشدَّ رجلٌ شسعه ، وأصلح من شأنه ، وليتهيأْ مَنْ لم يكن تهيّأ . فإذا كبرت الثانية ؛ فشدَّ رجلٌ إزاره ، وليشدَّ عليه سِلاحه ، وليتأهب للنهوض ، ويتهيأ لوجه حملته . فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معًا . اللهم إني أسألك أن تُقِرَّ عيني اليوم بفتحٍ يكون فيه عزّ الإسلام ، وذُلٌّ يُذَلُّ به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ، ونصر عبادك . أمّنوا يرحمكم الله »[١].

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١١٩ .

فأمّن المسلمون وبكوا .

وحمل النعمان مع التكبيرة الثالثة ، وهو يحمل الراية وقد رآها المسلمون تنقضّ نحو الأعاجم انقضاض العقاب ، وكان النعمان مميَّزًا بقباء أبيض ، وقلنسوة بيضاء ... يقول جبير : « فوالله ما علمت من المسلمين أحدًا يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر ، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا ، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد على الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة ، فلما رأوا صَبْرَنَا وأنّا لا نبرح العرصة انهزموا ، فجعل يقع الواحدُ فيقع عليه سبعةٌ ، بعضهم على بعض في قياد فيُقتلون جميعًا ، وجعلوا يعقرهم حَسَكُ الحديد الذي وضعوه خلفهم » .

واقتتلوا بالسيوف قتالًا شديدًا ، يصفه الرواة بقولهم : « لم يسمع السامعون بوقعة قط كانت أشدّ منها » واستمرّ القتال من انتصاف النهار حتى هبوط الظلام ، وكثر قتلى الفرس حتى طبق أرض المعركة دمًا يزلق فيه الناس والدواب ، فانزلق فيه من خيول المسلمين وأصيب فرسانهم ، وزلق فرس النعمان فلقي النعمان مصرعه . وفي رواية ابن إسحاق وجبير : أنه رُمي بنشابة فأصابت خاصرته فقتلته ، وكان أخوه نعيم بن مقرن قريبًا منه ، وأسرع نعيم - وفي رواية جبير : معقل بن مقرن - وسجّى النعمان بثوب ، ثم أتى حُذيفةَ بن اليمان في مَيْمَنَتِهِ فدفع إليه الراية باعتباره خليفة النعمان . وكتموا مصاب النعمان عن الجيش لكيلا يهن الناس .

واستمرَّ القتالُ حتى إذا أظلم الليل ، انكشف العجم وتراجعوا ، والمسلمون ملتحمون بهم ملتبسون فيهم لا يرفهون عنهم ، فاختلط عليهم طريق التراجع وعمي عليهم قصدهم فخرجوا عنه ، واتجهوا نحو اللَّهب[1]

---

(١) جرف من خندقٍ أَوْ وادٍ عميق .

الذي كانوا دونه « بأسبيذهان » فوقعوا فيه ، فكان لا يهوي منهم أحدٌ إلا صرخ بالفارسية : « وايَهْ خُرْد » ، وبذلك سُمِّي المكان ، فمات فيه منهم مائة ألفٍ أو يزيدون ، وفي رواية : أنه قُتل في اللَّهب ثمانون ألفًا ، وفي المعركة ثلاثون ألفًا ، مقترنون في السَّلاسل سوى من قُتِل في المطاردة[1].

واجتمع المسلمون بعد المعركة فتساءلوا : « أين أميرنا ؟ » ، قال معقل بن مقرن المزني : « هذا أميركم ، قد أقرّ اللهُ عينه بالفتح ، وختم له بالشهادة » .

وفي رواية عن معقل بن يَسَار قال : « فأتيت النعمان وبه رَمَقٌ ، فغسلت وجهه من إدَاوَةِ ماءٍ كانت معي . فقال : من أنت ؟ قلت : معقل ، قال : ما صنع المسلمون ؟ قلت : أبشر بفتح الله ونصره . قال : الحمد لله ، اكتبوا إلى عمر . ولم يفلت إلا الشريد ، فكان منهم فيرزان ، ولما أُتي عمر بغنائم « نهاوند » ، فقال : ما وراءك يا سائب ؟ فقلت : خيرًا يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح ، واستشهد النعمان بن مقرن رحمه الله ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليهٍ راجعون ، ثم بكى ، فنشج حتى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده ... ونشج كأنما أصيب بأعزِّ إنسانٍ لديه ... وكاد الحزن على النعمان يُنْسِي عمر فرحة الفتح بهذا النصر الكبير الذي سُمِّيَ في التاريخ بفتح الفتوح . فقال : ومن ويحك ؟! فقال : فلان وفلان ، حتى عددت له ناسًا كثيرًا ، يقول السائب : فلمَّا رأيت ما لقي ، قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجلٍ يُعرف وجهه ، فقال عمر وهو يبكي : المستضعفون من المسلمين [لا يضرّهم ألا يعرفهم عمر] لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر بن

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٦ .

أم عمر[١] ؟

الجرّاحُ بن عبد الله الحكمي ، مقدم الجيوش ، وفارس الكتائب :

« أبو عقبة : وَلِيَ خُرَاسَـانَ وسِجِسْتانَ لعمر بن عبد العزيز ، وكان بطلًا شجاعًا ، مهيبًا طُوالًا ، عابدًا قارئًا ، كبير القدر .

قال الوليد بن مسلم : كان إذا مرَّ في جامع دمشق ، يُميل رأسه عن القناديل مـن طوله . وكان رحمه الله على خراسان كلها ؛ حربها وصلاتها ومالها .

قال ابن جابر : وفي سنة اثنتي عشرة ومائة غزا الجراح بلاد الترك ورجع فأدركته الترك ، فقُتل هو وأصحابه .

وقال سُليم بن عامر : دخلتُ على الجرَّاح ، فرفع يديه ، فرفع الأمراء أيديهم ، فمكث طويلًا ، ثم قال لي : يا أبا يحيى ، هل تدري ما كنا فيه ؟ قلت : لا ، وجدتُكم في رغبة ، فرفعت يدي معكم ، قال : سـألنا الله الشهادة . فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة إلا استشهِد .

قال خليفة : زحف الجراح من بَرْذعة[٢] سنة اثنتي عشرة إلى ابن خاقان ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، فقُتل الجراح في رمضان[٣] .

قال الواقدي : كان البلاء بمقتل الجرّاح على المسلمين عظيمًا ، بَكَوْا عليه في كلِّ جندٍ »[٤] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٦ ، والخراج صـ ٤١ .

(٢) قصبة أذربيجان .

(٣) تاريخ خليفة صـ ٣٤٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥ / ١٨٩ - ١٩٠ .

الأميرُ الكبيرُ ، رأس الشجعان والأبطال ، أبو محمد عبد الله البطّال :

كان شاليش[١] الأمير مسلمة بن عبد الملك ، وكان مقرّه بأنطاكية ، أوطأ الروم خوفًا وذلًّا .

ولما عقد عبد الملك بن مروان لابنه مسلمة علي غزو بلاد الروم ، وَلَّى على رؤساء أهل الجزيرة والشّام البطال ، وقال لابنه : سيِّره على طلائعك ، وآمرْه فليعس[٢] ، فإنه أمين ، أمير ثقة مقدم شجاع ، فقدّم مسلمةُ البطالَ على عشرة آلافٍ ، يكونون بين يديه ؛ ترسًا من الرُّوم أن يصلوا إلى جيش المسلمين .

قال أبو مروان – شيخٌ من أهل أنطاكية – قال : كنت أغازي مع البطال ، وقد أوطأ الروم ذلًّا . قال البطال : فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري في مغازيّ فيهم . فقلت له : خرجت في سريَّةٍ ليلًا ، فدفعنا إلى قرية ، فقلت لأصحابي : ارخوا لجم خيلكم ، ولا تحركوا أحدًا بقتلٍ ، ولا بشيءٍ حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا في أزقتها ، فدفعت في أناس من أصحابي إلى بيتٍ يزهر سِرَاجُهُ ، وإذا امرأة تُسَكّت ابنها من بكائه ، وهي تقول له : لتسكتن أوْ لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتشلته من سريره ، وقالت : خذه يا بطّال ، قال : فأخذته[٣].

إن النساء في عصرنا ، وفي كل عصرٍ يسكتن أطفالهن بالشيء المرعب ، أو عفاريت الجن ... فلك الله يا بطاْل ، من جنٍّ أنت أم إنس ؟! طارت

---

(١) مقدم الجيش .

(٢) يطوف بالليل .

(٣) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، والبداية والنهاية ٩ / ٣٤٥ .

بذكرك الرّكبان ، وتُسَكِّت باسمك نساءُ العدوِّ فزعًا الصبيان .

عن أبي مروان الأنطاكي عن البطّال قال : انفردت مرةً ليس معي أحدٌ من الجند ، وقد صمدت خلفي مِخْلَاةً فيها شعيرٌ ، ومعي منديلٌ فيه خبزٌ وشواءٌ ، فَبَيْنَا أنا أسير لعلّي ألقى أحدًا منفردًا ، أو أطّلع على خبرٍ ، إذا أنا بِبُسْتَانٍ فيه بُقُولٌ حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البَقْلِ بالخبز والشواء مع البَقْل ، فأخذني إسْهَالٌ عظيم قمت منه مرارًا ، فَخِفْتُ أن أضعف من كثرة الإسهال ، فركبت فرسي والإسْهَالُ مستمرٌّ على حاله ، وجعلت أخشى إنْ أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بي الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهي ، لا أدري أين يسير الفرس بي ، فلم أشعر إلا بِقَرْع نعاله على بلاطٍ فأرفع رأسي ، فإذا دَيْرٌ ، وإذا قد خرج منه نِسْوَةٌ بصحبةِ امرأةٍ حسناء جميلة جدا ، فجعلتْ تقول - بلسانها - : أنزلنه . فأَنْزَلْنني ، فَغَسَلْن عنِّي ثيابي وسَرْجي وَفَرَسي ، ووضعنني على سريرٍ ، وعملن لي طعامًا وشرابًا ، فمكثْتُ يومًا وليلة مسْتويًا ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلّي حالي ، فبينا أنا كذلك ، إذ أقبل البطريق[1] ، وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي ، فحوِّل وعلِّق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لِخطْبَتِهَا ، فأخبره من كان هناك بأن هذا البيت فيه رجلٌ ، وله فرس ، فهمَّ بالهجوم علَّي ، فمنعَتْهُ المرأة من ذلك ، وأرسلتْ تقولُ له : إنْ فُتِحَ عليه الباب لم أَقْضِ حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم علّي ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه ، وركب معه أصحابه وانطلق ، قال البطال : فنهضتُ في أثرهم ،

(١) البطريق في لغة الروم : الأمير الكبير في الجيش .

فهمّتْ أن تمنعني خوفًا عليَّ منهم ، فلم أقبلْ ، وسُقتُ حتى لحقتهم ، فحملتُ عليه ، فانفرج عنه أصحابُه ، وأرادَ الفرارَ،فألحقُهُ فأضرب عنقه ، واسْتلبْتُهُ ، وأخذت رأسه مسمطًا على فرسي ورجعت إلى الدَّيْر ، فخرجْنَ إليّ ووقفن بين يديّ ، فقلت : ارْكَبْنَ ، فركبنَ ما هنالك من الدَّوابِّ ، وسُقت بهنَّ حتى أتيتُ أمير الجيش فدفعتهن إليه ، فنفلني ما شئتُ منهنَّ ، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها فهي أُمُّ أولادي ، وكان أبوها بطريقًا كبيرًا فيهم - يعني : تلك المرأة - وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويُهَادِيهِ .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولّاهُ المصِّيصَة بعث البطَّالُ سريةً إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرُها ، فلم يَدْرِ ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له ، وسار حتى وصل « عَمُّورِيَّة » فطرق بَابَهَا ليلًا ، فقال له البواب : مَنْ هذا ؟ قال البطال : فقلت : أنا سيّاف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذ لي طريقًا إليه ، فلمَّا دخلت عليه إذا هو جالسٌ على سرير ، فجلستُ معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئتك في رسالة فمُرْ هؤلاء فلينصرفوا ، فأمر مَنْ عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة علي وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترطت سيفي ، وضربت به رأسه صَفْحًا ، وقلت له : أنا البطال ، فاصْدُقْني عن السريَّة التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربتُ عنقك الساعة ، فأَخْبِرْني ما خبرها ؟ فقال : هُمْ في بلادي ينتهبون ما تهيَّأً لهم وهذا كتابٌ قد جاءني يُخْبِرُ أنهم في وادي كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان.فأعْطاني الأمان ، فقلت : ائتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاءوا بطعامٍ فوُضِعَ لي ، فأكلتُ فقمتُ لأنصرف ، فقال لأصحابه : اخرجوا بين يديْ رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يديْ ، وانطلقت إلى ذلك الوادي الذي ذكر ، فإذا

أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى « المصيصة » . فهذا أغرب ما جرى .

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطّال وهو قافلٌ من حجَّته ، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائمًا الحج ثم الشهادة ، فَلَمْ يتمكن من حجة الإسلام إلَّا في السَّنَةِ التي استشهد فيها رحمه الله .

وكان سبب شهادته أن ليون - ملك الروم - خرج من القُسْطَنْطِينيَّةِ في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذي البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطّالِ يخبره بذلك ، فأخبر البطالُ أميرَ عساكر المسلمين بذلك - وكان الأمير مالك بن شبيب - وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة « حران » ، فنكون بها ، حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، والأبطال تحوم بين يدي البطال ، ولا يتجاسر أحدٌ أن يُنوِّه باسمه خوفًا عليه من الروم ، فاتَّفق أَنْ ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطًا منه ؛ فلمّا سمع ذلك فرسان الروم ، حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم ، فألقوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتَلون ويؤسَرون ، وقُتِل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصَّنوا فيها ، وأصبح ليون ، فوقف على مكان المعركة ، فإذا البطَّال بآخِرِ رَمَقٍ ، فقال له ليون : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تُقتَل الأبطال ، فاستدعى ليون الأطباء ليداووه ، فإذا جِرَاحُهُ قد وصلت إلى مقاتلِه ، فقال له ليون : هَلْ من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم . فأمُرْ مَنْ معك من المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة عليّ ودفني ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين

تحصَّنوا فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذْ جاءتهم البُرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، ففرَّ ليون في جيشه الخبيث هاربًا راجعًا إلى بلاده ، قبّحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصّن بها .

قال ابن كثير : « وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة إلى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة فكذب وافتراء ، ووضع باردٌ وجهل ، وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلّا على غبيٍّ أو جاهل رديءٍ »[(١)].

قال الذهبي في « السيرة / ٢٦٩ » : « كُذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة » .

فارس المغرب ابن فتحون :

قال الطرطوشي عن ابن فتحون : « كان خال والدتي ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين بن المقتدر بالله يرى ذلك له ويعظمه ، وكان يُجري له في كل يوم خمسمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه ، فيُحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه فلم يشرب ، يقول له : اشرب أوَ ابن فتحون رأيت في الماء »[(٢)].

حتى الخيول تهابهم .... وتظن أن في الماء خيالهم ، وسرى الخوف من بطلنا في دماء فرسان العدو وأوضالهم .... والله لا تموت الأمة يا ابن فتحون إلا بموت مثلك ... فللّه دَرُّ أم درت عليك . وإن شئت أخي أن تسمع الأعاجيب من سيرة بطلنا فاسمع الآتي :

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس ٢ / ١٠٠٥ طبع در البشائر الإسلامية .

« قال الطرطوشي : حسده نظراؤه على كثير العطاء ومنزلته من السلطان ، وما زالوا حتى غيّروه عليه ، فغزا المستعينُ بلادَ الرُّومِ ، فتواقف المسلمون والمشركون صفوفًا فبرز عِلْجٌ وسط الميدان ينادي : هل من مبارزٍ ؟ فخرج إليه فارسٌ،فتجاولا ساعة فقتله الرومي ، فصاح الكفار سرورًا ، وانكسرتْ نفوس المسلمين ، ثم برز له آخر فقتله ، وآخر فقتله ، فجعل الروميُّ يكرّ بين الصفين ويقول : هَلْ من مبارزٍ واحد لاثنين ، واحد لثلاثة ، ثلاثة من المسلمين لواحد من الفرنج ، فضجّ المسلمون واضطربوا ، ولم يتجرأ أحدٌ من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقي النَّاسُ في حيرةٍ ، فقيل للمستعين : ما لها إلا أبو الوليد ابن فتحون ، فدعاه وقال له : ما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال : هو بعيني . قال : فما الحيلة فيه ؟ فقال أبو الوليد : ماذا تريد ؟ قال : أن يُكفى المسلمون شره . قال : الساعة يكون ذلك إن شاء الله ، فلبث قميص كتان واسعَ الأكمام ، وركب فرسًا بلا سلاحٍ ، وأخذ بيده سوطًا طويل الطرف ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم بَرَزَ إليه ، فعجب النصراني منه ، وحمل كل منهما على صاحبه ، فلم تخطئ طعنة النصراني سرج ابن فتحون ، فتعلَّق ابن فتحون برقبة فرسه ، ونزل الأَرْض ، لا شيء منه في السرج ، ثم استوى على سرجه وحمل عليه ، فضربه بالسوط على عنقه ، فالتوى على عنقه ، وأخذه بيده من السرج ، فاقتلعه وجاء به نحو المستعين ، فألقاه بين يديه ، فعلم المستعين أنه أخطأ في صنعه معه ، فأكرمه وردَّه إلى منزلته ، وزاد في عطائه »[1].

لله دَرُّكَ يا ابن فتحون .. تنزل في الميدان إلى أعظم الفرسان ، الذي جندل قبلك الأبطال ، وأشاع الرعب في صفوف المسلمين .. فلا ترضَى

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ١٠٠٥ - ١٠٠٦ .

بأن تنزل إليه بسلاحٍ أو بسيفٍ ، وإنما بسوطٍ وكأنه من العبيد لا يُربّى إلا به ، وتأتي به تَجُرّهُ والسوط في عنقه غلّ ... فبوركت يمينك ... وبورك سوطك .

ابن الجزري :

« في أثناء حصار الرشيد لحصن « هرقلة » بأرض الروم ، خرج رجلٌ من أتم الرجال في أكمل السلاح ، على أجود الخيل ، ونادى بلسانٍ فصيح : يا معشر العرب ؛ ليخرج إليّ من فرسانكم عشرون مبارزة ، فلم يخرج إليه أحدٌ لنوم الرشيد ، وجال الرومي بين الصَّفَّيْنِ وهو ينادي بذلك ، فضجَّ المسلمون واضطربوا ، وعاد إلى الحصن مسرورًا يضحك هو وأصحابه ، وكثر ضَجِيجُهُم ، فلمَّا استيقظ الرشيدُ أُعْلِمَ بذلك ، فَتَألَّم وقلق وقام وقعد ، وقال : هلَّا أَيْقَظتموني ؟! وما بال أحدكم لم يخرج إليه ؟ فقال له بعض الحاضرين : إنَّ غرَّته ستحمله على الخروج في غد ، فما نام الرشيد تلك الليلة ، فلمَّا أصبح خرج الرومي ، وقال ما قاله بالأمس ، فقال الرشيد : ليخرج إليه عشرون فارسًا ، فقال ابن مخلد : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما يخرج إليه غير واحد ، فإن ظفر به فالحمد لله ، وإن قتله كان شهيدًا ، ولا تسمع الروم أن فارسًا روميًّا خرج إليه عشرون من المسلمين ، فقال : صدقت ، وكان في عسكر المسلمين رجلٌ يعرف بابن الجزري ، معروفٌ بالنجدة موصوفٌ بالشجاعة ، فقال : أنا أخرج إليه وأستعين بالله عليه ، فأمر له بفرسٍ وسلاحٍ ، فقال : لا أريد شيئًا ، فانحدر إليه بعد أن ودَّعه الرشيد ودعا له ، ونزل معه عشرون فارسًا ليودِّعوه . فلما صاروا في بطن الوادي ، قال الرومي : غدرتم يا مسلمين ، طلبت عشرين ، نزل واحدٌ وعشرون ، فقالوا : ما يبارزك غير واحد ، ونحن مودعوه وراجعون . فقال العلج : سألتك بالله أنت ابن الجزري ؟ قال : نعم . قال : كفؤ كريمٌ . فرجع

المسلمون ، وتطاعنا حتى كَلَّا ، واشتد الحرُّ عليهما ، والمسلمون والمشركون ينظرون إليهما ... فولَّى ابنُ الجزري منهزمًا ، فعطعط[(١)] المشركون ، وضجَّ المسلمون ، والعلج في أثره ، ثم عطف ابن الجزري على العلج ، فاختطفه من سرجه ، وما أوصله إلى الأرض إلَّا بعد مفارقة رأسه لجسده ، فكبَّر المسلمون تكبيرةً واحدةً كادت الجبال تتدكدك منها ، وانكسر المشركون ، وجدَّ المسلمون في القتال ، فَفُتِحَ الحصْنُ عنوةً ، وقتلوا وأسروا ، ولما صعد ابن الجزري إلى الرشيد أجلسه ، وأمر بِصَبِّ الأموال عليه حتى عجز عن النهوض ، وأفرِغت عليه الخلع حتى لم يُطِقْ حملها ، وصار يسأل الإعفاء »[(٢)].

شيخ الإسلام ، بقي بن مخلد :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٣ / ٢٩٦) :

« من مناقبه أنه كان من كبار المجاهدين في سبيل الله ، يقال : شهد سبعين غزوة » .

المنبجي : الإمام المحدِّث ، أبو بكر عمر بن سعيد :

« حدث عنه الطبراني ، وأبو حاتم بن حبان .

قال ابن حبان : كان قد صام النهار ، وقام الليل ثمانين سنة ، غازيًا مرابطًا ، رحمة الله عليه »[(٣)].

* * *

---

(١) العطعطة : حكاية الصوت ، يقال : عطعط القوم : إذا قالوا : عيط عيط .
(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ١٠٠٠ - ١٠٠٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٢٩٠ .

الإمام الزاهد شيخ خراسان ، أبو علي شقيق البَلْخي :

كان شقيق مع تألهه وزهده رأْسًا من رؤوس الغزاة .

قال حاتم الأصم : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافوّ الترك ، في يوم لا أرى فيه إلا رؤوسًا تندر[١] ، وسيوفًا تقطع ، ورماحًا تقصر ، فقال لي شقيق - ونحن بين الصَّفَيْنِ - : كيف ترى نفسك يا حاتم ؟ تراه مثله في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك ؟! قلت : لا والله ! قال : لكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفَّت فيها امرأتي ، قال : ثم نام بين الصفين ودَرَقَته تحت رأسه ، حتى سمعت غطيطه ، قال حاتم : ورأيت رجلًا من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي ، فقلت : ما لك ؟ قال : قُتل أخي . قلت : حَظٌّ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه . فقال لي : اسْكُتْ ، ما أبكي أسفًا عليه ولا على قتله ، ولكنِّي أبكي أسفًا أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السَّيف به . قال حاتم : فأخذني في ذلك اليوم تُركِّي فأضْجَعَنِي للذَّبح ، فلم يكن قلبي به مشغولًا ، كان قلبي بالله مشغولًا ، أنظر ماذا يأذن الله له فيَّ ، فبينا هو يطلب السكين من جفنة إِذْ جاءه سهمٌ غابرٌ فذبحه فألقاه عني[٢] .

لله دَرُّكَ أبا علي ... عرفت فالزم ... هذا طريقٌ سار من قبلك عليه أبو سليمان خالد بن الوليد ... بل قال قولًا أَحْلَى من قولك .. وإن أمةً تعي مثل قولك ، وتفرح بالجهاد والشهادة مثل فرحك لا تموت ، إنما تموت إذا فرحت بالدِّرْهَمِ والدِّينَارِ والقَطِيفَةِ والخَمِيصَةِ ، وتبايعتْ بالعِينَةِ،وتبعتْ أَذْنَابَ البَقَرِ .

---

(١) تسقط .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٦٤ .

فارس الإسلام ، الإمام العابد المجاهد ، أبو إسحاق أحمد بن إسحاق السُّرْمَاري :

شيخ البخاري ... وبشجاعته يُضْرَبُ المثل .

قال إبراهيم بن عفّان البزّار : كنت عند أبي عبد الله البخاري ، فجرى ذكر أبي إسحاق السُّرْمَاري ، فقال : ما نعلم في الإسلام مثله ، فخرجْتُ ، فإذا أحيد - رئيس المطوّعة - فأخبرته ، فغضب ودخل على البخاري وسأله ، فقال : ما كذا قلتُ ، بل ما بلغنا أنه كان في الإسلام ولا الجاهلية مثله .

قال إبراهيم بن شماس : كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري فكتب إليَّ : إذا أردت الخروج إلى بلاد الغُزِّيَّة ، في شراء الأسرى فاكتب إليَّ ، فكتبت إليه ، وقدم سمرقند ، فخرجنا ، فلما علم جَعْبَوَيْه استقبلنا في عِدَّةٍ من جيوشه ، فأقمنا عنده ، فعرض يومًا جيشه ، فمرَّ رجلٌ فعظَّمه وخلع عليه ، فسألني عنه السرماري ، فقلت : هذا رجلٌ مبارزٌ ، يُعَدُّ بألف فارسٍ . قال : أنا أبارزه . فسكتُّ . فقال جعبويه : ما يقول هذا ؟ قلت : يقول كذا وكذا . قال : لعلَّه سكران لا يشعر ، ولكن غدًا نركب . فلما كان الغد ركبوا ، فركب السرماري معه عمودٌ في كُمِّهِ ، فقام بإزاء المبارز فقصده ، فهرب أحمد حتى باعده من الجيش ، ثم كرَّ وضربه بالعمود فقتله ، وتبع إبراهيم بن شماس لأنه كان سبقه ، فلحقه ، وعلم جَعْبَوَيْه فجهّز في طلبه خمسين فارسًا نقاوةً ، فأدركوه ، فثبت تحت تَلٍّ مختفيًا ، حتى مرُّوا كلُّهم واحدًا بعد واحدٍ ، وجعل يضرب بعموده من ورائهم إلى أن قتل تسعةً وأربعين ، وأمسك واحدًا قطع أنفه وأذنيْه ، وأطلقه ليخبر ، ثم بعد عامين تُوفيَّ أحمد ، وذهب ابن شماس في الفداء ، فقال له جعبويْه : مَن ذاك الذي قتل فرساننا ؟ قال : ذاك أحمد السرماري ، قال : فلِم لم تحمله معك ؟ قلت : تُوفي . فصك في وجهي ، وقال : لو أعلمتني أنه هو ؛ لكنت أعطيه

خمسمائة برذون ، وعشرة آلاف شاة .

قال محمد المُطَّوِّعي : كان عمود المطوعي السرماري وزنه ثمانية عشر مَنًّا[(١)] ، فلما شاخ جعله اثني عشر مَنًّا ، وكان به يُقاتل ، قال عُبيد الله بن واصل : سمعتُ أحمد السرماري يقول ، وأخرج سيفه ، فقال : أعلم يقينًا أنِّي قتلت به ألف تركيٍّ ، وإن عشتُ قتلت به ألفًا أخرى ، ولولا خوفي أن يكون بدعةً لأمرت أن يدفن معي[(٢)] .

السُّرْمَارِي من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ منه .. لقد قتل جُلَيْبِيبُ سَبْعَةً ، فقال رسول الله ﷺ : « قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، هذا مني وأنا منه » فكيف لو رأى رسولُنا ﷺ قَاتِلَ الألفِ ... إنَّ أيامنا وواقعنا المخزي يحتاج لِشسْعِ نَعْلِ السرماري .

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِنْهُ يا لِئَام ... يَفُوقُ الْهَامَ مِنْكُمْ والجَبِينَا

قال محمود بن سَهْلٍ الكاتب : كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكانًا ، ورئيس العدوِّ قاعد على صُفَّة[(٣)] ، فرمى السرماري سَهْمًا فغرزه في الصفة ، فأومأ الرئيس لينزعه ، فرماه بسهمٍ آخر خَاطَ يده ، فتطاول الكافر لِيَنْزَعَهُ من يده ، فرماه بسهمٍ ثالث في نَحْرِهِ ، فانهزم العدوُّ وكان الفتح .

قال الذهبي : « وأخبار هذا الغازي تَسُرُّ قلب المسلم » .

قال الحافظ أبو القاسم الدمشقي : كان مع فرط شجاعته من العلماء

(١) المَنّ : زنة رطلين .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٨ - ٣٩ ، وتهذيب التهذيب ١ / ١٤ .
(٣) الصفّة : الظلة والبهو الواسع العالي السقف .

العاملين العُبَّاد .

فأين هذا ممن يُسمون أنفسهم - من قرَّاء السُّوءِ وعلمائه - : بالقرّاء إنهم الخرّاء .. أكلوا كثيرًا ، وذهبوا إلى الخلاء كثيرًا .. وناموا كثيرًا .. بِئْسَ حملة القرآن والعلم هم .

« قال أحمد بن إسحاق : ينبغي لقائد الغزاة أن يكون فيه عَشْرُ خِصَالٍ :

أن يكون في قلب الأسد لا يَجْبُن .

وفي كِبْرِ النّمر لا يتواضع .

وفي شجاعة الدُّبِّ يقتل بجوارحه كلها .

وفي حملة الخنزير لا يولِّي دبره .

وفي غارة الذئب إذا آيس من وجه أَغَارَ من وجه .

وفي حمل السلاح كالنَّمْلة تحمل أكثر من وزنها .

وفي الثبات كالصَخْر .

وفي الصبْرِ كالحِمَارِ .

وفي الوقاحة كالكلب ، لو دخل صيده النَّار لدخل خلفه .

وفي الْتماس الفرْصة كالدِّيك »(١).

وكلها كانت في السرماري .. فإن لم تكن فيه ، ففي من ؟!

الإمام الحافظ ، أبو أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي الغازي المجاهد المعروف بالقصّاب :

قال الذهبي في السير (١٦ / ٢١٣) : « وَعُرِفَ بالقصَّاب؛ لكثرة ما قتل في مغازيه » .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٧ - ٣٨ .

الأمير عبد الوهاب بن بخت :

« قتِل شهيدًا مع البطّال .

قال مالك : كان كثير الحجِّ والعمرة والغزو حتى استُشْهِدَ ، ولم يكن أحق بما في رحله من رفقائه .

لقي العدوَّ ففرّ بعض المسلمين ، فجعل ينادي ويركض فرسه نحو العدو أن : هلمّوا إلى الجنة ، وَيْحَكُمْ ! أفرارًا من الجنة ؟! أتفرّون من الجنة ؟! إلى أين ويحكم ؟ لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء !! ثم قاتل حتى قُتل »[1].

محمد بن عبد الله بن حوذان :

قُتِلَ هذا البطل المغوار في سنة اثنتي عشرة ومائة ، في وقعة الجنيد مع التُرْكِ ورئيسهم خاقان بالشعب .

يقول ابن جرير الطبري : « قاتل يومئذ محمد بن عبد الله بن حوذان وهو على فرسٍ أشقر ، عليه تجفاف مذهَّب ، فحمل سبع مرات يقتل في كلّ حملة رجلًا ، ثم رجع إلى موقفه ، فهابه من كان في ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو : يقول لك الملك : لا تقبل وتحوّل إلينا ، فنرفض صَنَمَنَا الذي نعبده ونعبدك ، فقال محمد : أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده . فقاتل واستشهد »[2].

لله دَرُّه ! كيف كان قتاله حتى يقولوا له من إعجابهم وذهولهم مقالتهم هذه الشنيعة له .

وفي هذه الموقعة قُتِل :

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٩ ، ١٤١ .

النضر بن راشد العبدي :

وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون ، فقال لها : كيف أنت إذا أُتيت بأبي ضمرة في لبد مُضَرَّجًا بالدماء ؟ فشقّت جيبها ودعتْ بالويل ، فقال : حسبك ، لو أعولت عليّ كل أنثى لعصيتها شوقًا إلى الحور العين ؛ ورجع فقاتل حتى استشهد ، رحمه الله[١].

لكنّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم :

نعم .. كم في الإسلام من مَغَاوِيرَ وأسْدٍ لا نعرفهم .. وما ضرهم أن لا نعرفهم .. ولكنّ الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم .

عن عبد الله بن قيس ، أبي أميَّة الغِفاري قال : كنا في غزاةٍ لنا . فحضر عَدُوّهُم فَصِيحَ في الناس ، فهم يثوبون إلى مصافّهم،إذا رجل أمامي ، رأسُ فَرسي عند عَجُز فَرسِه ، وهو يُخاطب نفسه ويقول : أيْ نفس ، ألم أشهد مشهدَ كذا وكذا ؟! فقلتِ لي : أهلك وعيالك ، فأطعتُك ورجعتُ ؟! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت : أَهلُكَ وعيالُكَ فأطعتك ورجعت ؟! والله لأعرضنَّكِ اليوم على الله ، أخذَكِ أو تَركك . فقلتُ : لأَرمُقنَّه اليوم . فرمقته فحمل الناسُ على عدوّهم ، فكان في أوائلهم . ثم إن العدوّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم ، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدوّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم . قال : فوالله ما زال ذلك دأْبَه حَتَّى رأيْته صريعًا . فعدَدْتُ به وبدابته ستِّين ، أو أكثر من ستِّين طَعنةً[٢].

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٤١ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ٤٢١ .

حسن أولوبادلي ، أوّل مسلم وطئ أرض القسطنطينية :

« في حصار السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية ، في محاولة فتحها ، تكلم الجنود عن أسوار القسطنطينية التي أُحْكِمَ تحصينها ، والزيت المغلي الذي يصبونه على المسلمين فيهلكهم ، وإذا بصوتِ شابٍّ في مقتبل العمر من « أولوباد » يُسمى « حسن أولوبادلي » يرتفع ويقول : « وهل جئنا إلى هنا إلا لنهلك في سبيل الله عز وجل ؟! يا إخوتي ؛ كيف نخاف من زيت الكافرين المغلي إذا كنا مجاهدين حقًّا ؟! وهل تركنا قريتنا ، وأهلنا ، وأحبابنا إلا من أجل لقاء ربنا عز وجل شهداء في سبيله ؟! » .

وأقبل الجند يبايعون حسنًا على أن يكونوا أول من يجيب نداء قائدهم المجاهد في الغد ، وتواعدوا أن يكون هدفهم الثغرة التي أحدثتها مدافع الإسلام قريبًا من بابٍ في الجهة الشمالية للقسطنطينية . ولما اشتد القتال ، واستمر الكرّ والفر ، وقوافل الشهداء تزداد لحظة بعد لحظة ، في تلك الأثناء ، كان المجاهد حسن ، وثلاثون من أبناء قريته « أولوباد » يتقدمون بخفةٍ وحذر نحو الثغرة التي حددوها هدفًا لهم في ليلتهم السابقة ، وتمكن حسن وعددٌ من إخوانه المجاهدين من النجاة من السهام المنهمرة من السماء ، حتى إذا بلغوا الثغرة اندفعوا إلى داخل المدينة مكبرين مهلّلين ، فتلقفتهم مئات السيوف والرماح ، وانهمرت على أجسادهم مئات الأسهم ، واندلقت فوق رؤوسهم قدور الزيت المغلي ، ولكن حسن وإخوانه لم يَأْبَهُوا لكلّ هذا العناء ، فقاتلوا قتالًا لا يقدر عليه إلا رجالٌ صنعهم الإسلام ، وتمكنوا بعونِ الله وقوته من الوصول إلى أحد أبواب القسطنطينية ففتحوه . وبينما كان جند الإسلام يندفعون إلى داخل القسطنطينية ويتواثبون إلى

أعالي سورها يزيلون رايات الكفر البِيزنْطِيَّة من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات الإسلامية ، كان حسن أولوبادلي وإخوانه يُستشهدون واحدً إثْر واحدٍ عن بكرة أبيهم ، وَصَدى تكبيراتهم لا يفتأ يزلزل الأرض من تحت أقدام أعداء الإسلام .

وسجل التاريخ في صفحاته البيضاء ، بمداد من نور أن حسن أولوبادلي ، كان أول مسلم وطئت قدماه أرض القسطنطينية .

فبوركت يا حسن ، وبوركت روح كل شهيد جعل من جسده جِسْرًا يعبر من فوقِهِ إخوانه المجاهدون إلى القسطنطينية ليرفعوا من فوق أسوارها راية الإسلام الخالدة »[1].

الشيخ سعيد مَلَّا الكردي :

« يا جنرال سوف نصفّي حسابنا يوم الحساب الأخير »

« كجبلٍ شامخٍ من جبال الأناضول ، قلعة الإسلام في تركيا ، يبرز اسم الشيخ المجاهد سعيد ملا الكردي - شيخ أكبر القبائل الكرديَّة - الذي تصدى لمؤامرات الرِّدَّة التي قادها العلماني أتاتورك .

أسَّس في عام ١٩١٩ م حزبًا أطلق عليه « حزب انبعاث وحدة الإسلام » ليقف أمام محاولات التغريب ، وشتّت أتاتورك أعضاءه ، وحين أعلن أتاتورك إلغاء الخلافة في ١٩٢٤ م ثار ضده الشيخ سعيد ملا سنة ١٩٢٥ ، واندفعت معه الجماهير المسلمة تحت راياته الخضراء التي كُتب عليها : « لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله » وكوَّن الشيخ جيشًا من الأكراد ، وتمكّن من السيطرة على مناطق شَاسِعَةٍ ، حتى وصل إلى « ديار بكر »

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام . لزياد أبو غنيمة صـ ٢١ - ٢٥ - دار التوزيع والنشر الإسلامية .

فحاصرها ، وكاد يسيطر عليها ، لولا أن أتاتورك سارع فقذف بكل ما لديه من قوات زاد تعدادها عن ثمانية فرق عسكرية كاملة التجهيز ، واستعملت في تقدُّمها أبشع أساليب البطش والتنكيل ، واضطر الشيخ سعيد ملا - أمام هذه القوة الغاشمة - إلى التراجع إلى الجبال الوعرة ؛ ليبدأ من هناك شن حرب عصابات ضد قوات أتاتورك ، فأحكم أتاتورك الحصار حول الشيخ ، ومنع وصول أية إمدادات أو مؤن إليه .

وفي ميدان ديار بكر الرئيسي ، انعقدت محكمة الطغاة ؛ لمحاكمة الشيخ سعيد ملّا وإخوانه ، فحكمت بإعدامه مع عددٍ كبيرٍ من إخوانه ، وَأَمَرَ أتاتورك بأن تبقى أجسادهم الطاهرة معلقة على أبواب مسجد ديار بكر الكبير .

وكان الشيخ سعيد ملّا قد أظهر أثناء المحاكمة رباطة جأشٍ لا يقدر عليها إلَّا الأبطال ، ولقد ظلَّ - رحمه الله - محتفظًا برباطة جأشه حتى آخر لحظةٍ من حياته ، وتوجه إلى رئيس المحكمة العسكرية التي حكمت بإعدامه قائلًا : « سوف نُصَفِّي حسابنا يوم الحساب الأخير » ، ثم توجَّه إلى قائد الحملة العسكرية التي هزمته قائلًا : **يا أمير اللواء ، تعالَ ودِّع غريمك** ، ثم تقدم من منصة الإعدام ، وأمسك حبل المشنقة بيديه ، وساعد الجلّادَ في وضعه حول عنقه ، وأجمعت المراجع التركية ، التي وصفت تنفيذ حكم الإعدام بالشيخ الملّا ، أن صوته شقَّ عنان السماء مردِّدًا بشموخٍ : « لا إلٰه إلا الله محمدٌ رسول الله » . وتدلَّى الجسد الطاهر على أبواب مسجد ديار بكر شاهد صدقٍ على أن جماهير الشعب التركي المسلم قدّمت القوافل المتتالية من الشهداء ؛ دفاعًا عن دينها ووفاءً لعهدها مع الله »[1].

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام صـ ٤٤ - ٤٨ .

الشيخ بديع الزَّمَان ، سعيد النورسي :

كوَّن - رحمه الله - سنة ١٩٠٨ جمعيَّة إسلامية ، تسمى « الاتحاد المحمدي » ، وانتشرت فروعها في جميع أنحاء تركيا ، وأصبحت في فترةٍ وجيزةٍ شوكة في حلوق زعماء الاتحاد والترقي ، الماسونيين ، الذين أدركوا أن هذه الجمعيَّة ستكون السَّدّ المنيع ، الذي ستتكسر عليه كلّ سهام تآمرهم ومكائدهم ضد الإسلام في تركيا .

واندفعت جماهير الشعب المسلم في « إسلام بول » في يوم ٣١ آذار سنة ١٩٠٨ م ، يتقدمها العلماء ، وطلّاب الشريعة ، وأعداد غفيرة من العسكريين ، تعلن غضبها ضد تسلط جمعية الاتحاد والترقِّي ، وترتفع هتافاتها تشقُّ عنان السماء :« الشريعة في خطر ، نريد حكم الشريعة » .

ولم تتوقف هذه الانتفاضة إلا بعد أن تخلَّتْ جمعيَّة الاتحاد والترقي عن الحكم مرغمةً ، وتسلل زعماؤها إلى مدينة « سلانيك » ، فرارًا من غضب الجماهير المسلمة حتى شكلوا جيشًا من صنائعهم بقيادة اللواء محمود شوكت باشا ، يعاونه نفرٌ من الضباط ، كان أتاتورك من أبرزهم .

وتسلَّل جيش الخلاص نحو « إسلام بول » ، وحين دخل جيش الخلاص إلى إسلام بول ، خرجت شراذم عصابات الاتحاد والترقي من جحورها لتنضمَّ إلى جيش الخلاص،وتمكن أعداء الله من قمع المقاومة الإسلامية بكلِّ عنفٍ وقسوةٍ ، وعزلوا السلطان عبد الحميد الثاني ، وصبُّوا جَامَّ غضبهم ضد الشيخ النورسي وإخوانه ، وكان أول حصاد محكمة خورشيد باشا الماسوني الحكم بإعدام خمسين مجاهدًا ، وما هي إلا دقائق إلا وكانت أجسادهم الطاهرة تتدلَّى من فوق أعواد المشانق .

وجيءَ بالشيخ المجاهد سعيد النورسي ليمثل أمام خورشيد باشا ، فسأله

خورشيد – وهو ينظر إلى الأجساد التي تتأرجح في الهواء – : وهل أنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يا شيخ سعيد ؟ فأجابه – وهو ينظر إلى أجساد إخوانه الذين أكرمهم الله بالشهادة –: « اعلم يا خورشيد أنه لو كان لي ألف روحٍ لما ترددت أن أجعلها كلها فداءً لحقيقةٍ واحدةٍ من حقائق الإسلام ، واسمعْ منّي جيدًا يا خورشيد ، إنني لا أَخْشى حكمكم بإعدامي ، فقد هيَّأْتُ نفسي بشوقٍ عظيمٍ للذهاب إلى الآخرة ، لألحق بإخواني الذين سبقوني إلى أعواد المشانق لينالوا الشهادة في سبيل الله » .

واكتفى الطغاة بسجنه ، ومضى – رحمه الله – في قيادة مسيرة الحركة الإسلامية الممتحنة في تلك الأيام العصيبة .

أرسل إلى أعضاء مجلس النواب في تركيا وكانوا يُسمَّوْن « المبعوثون » : « أيها المبعوثون .. إنكم مبعوثون ليومٍ عظيمٍ » ، وكان من بركة هذا البيان أن أعلن ستون نائبًا ممن كانوا قد خُدعوا بأتاتورك توبتهم واستقاموا على أداء الصلاة .

وناظر النورسي أتاتوركَ أمام مجلس النواب ، وقال أتاتورك للشيخ غاضبًا : « لقد دعوتك إلى هنا لأستفيد من آرائك المهمة ، ولكنك بدلًا من ذلك لم تتحدث إلا عن الصلاة » ، فجاءه جواب الشيخ النورسي حممًا تلفح وجه الزنديق : « اعلم يا باشا ، أن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي الصلاة ، وأن الذي لا يصلي خائن ، وحكم الخائن مرفوض »[1].
هكذا الرجال ، وإلا فالقبر أولى .

وبعـد :

فهذه بطولات تحتاج إلى ....

---

(١) مواقف بطولة من صنع الإسلام صـ ٤٩ – ٥٦ .

مجلدات[١]... وسيذكر التاريخ أن الإسلام أتى على قومٍ لا شأن لهم في الأرض ولا ذكر لهم في السماء ، فغيّرهم وصنع بهم تاريخًا وأمجادًا وأيامًا لا تُنسى .. وإن نسي التاريخ فلن ينسى أنه يومًا من الأيام نودي في دمشق على الأسرى بعد حطين « وبيع فيها الأسير بدينار ، وباع بعض الفقراء أسيرًا بنعلٍ ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردت هوانهم ، وحكى بعضهم أنه لقي بـ « حوران » شخصًا واحدًا ، ومعه طنب خيمة وفيه نيف وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ؛ للخذلان الذي وقع عليهم »[٢].. هذه أيامهم أيام تمسّكوا بدينهم .. فكن على طريق القوم فإن أمير القوم يرعى القافلة .. علك تسمع صوت حاديهم :

مَلَكْنَا هٰذِهِ الدنْيا القُرُونَا ... وَأَخْضَعَهَا جدودٌ خالدُونَا
وسَطَّرْنَا صَحَائِفَ مِنْ ضِياءٍ ... فما نَسِيَ الزَّمَانُ ولا نَسِينَا
وكنَّا حِينَ يأخذنا ولِيٌّ ... بطُغْيَانٍ نَدُوسُ لَهُ الجَبِينَا
تَفِيضُ قُلوبُنَا بالهَدْيِ بَأْسًا ... فَمَا نُغْضِي عَنِ الظُّلْمِ الجُفُونَا
بَنَيْنَا حُقْبَةً في الأَرْضِ مُلْكًا ... يُدعِّمُهُ شَبابٌ طَامِحُونَا
شَبَابٌ ذَلَّلوا سُبُلَ المَعَالِي ... وَمَا عَرَفوا سِوَى الإِسْلَامِ دِينَا
تَعَهَّدَهُمْ فَأَنْبَتَهُمْ نَبَاتًا ... كَرِيمًا طَابَ في الدُّنْيَا غُصُونَا
إِذَا شَهِدُوا الوَغَى كَانُوْا كُمَاةً ... يَدُكُّونَ المَعَاقِلَ والحُصُونَا
شَبَابٌ لَمْ تحطِّمْهُ اللَّيَالِي ... وَلَم يُسْلِمْ إلى الخَصْمِ العَرِينَا
وَإِنْ جَنَّ المَسَاءُ فَلَا تَرَاهُمْ ... مِنَ الإِشْفَاقِ إِلَّا سَاجِدِينَا

---

(١) تحت الطبع كتابي « فرسان النهار » في أكثر من مجلد،فيه - والحمد لله - جمع وافر عن أبطال المسلمين .

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ٢ / ٩٣٥ .

كَذَلِكَ أَخْرَجَ الإِسْلامُ قَوْمِي شَبَابًا مُخْلِصًا حُرًّا أَمِينَا
وَعَلَّمَهُ الكَرَامَةَ كَيْفَ تُبْنَى فَيَأْبَى أَنْ يُقَيَّدَ أَوْ يَهُونَا
وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا
وَأَصْبَحَ لَا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتَهُ سِنِينَا
وَآلَمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ سُؤَالُ الدَّهْرِ أَيْنَ المُسْلِمُونَا
ترى هَلْ يَرْجِع الماضي فإني أذُوبُ لِذَلِكَ الماضي حَنِينَا
دَعُوني مِن أمانٍ كَاذِبَاتٍ فَلَمْ أَجِدِ المُنَى إِلَّا ظُنُونَا
وَهَاتُوا لي مِن الإيمانِ نورًا وقوُّوا بَيْنَ جَنبيَّ اليَقِينَا
أَمُدُّ يَدِي فَأَنْتَزِعُ الرَّواسي وأَبْني المَجْدَ مؤْتلفًا مَكِينَا[1]

وبعد .. فما أشدَّ شوق البلاد والعباد إلى فارس الأُمَّة المنتظر ، شبيه خالد ، وابن زنكي ، وصلاح الدين ، لِيَضْمِدَ جراح الأُمَّة !. وفي ثنايا الشَّوْق تمرُّ أطياف مَنْ سبقوه مِنَ الأبطال الذين غيَّروا وجه التاريخ .

زَمَانُكَ بُسْتَانٌ وَعَصْرُكَ أَخْضَرُ وَذِكْرَاكَ عُصْفورٌ من القلبِ يَنْقرُ
دَخَلْتَ على تَاريخنَا ذاتَ لَيْلَةٍ فَرَائِحَةُ التَّارِيخِ مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
وكنتَ فكانت في الحُقُولِ سَنَابِلٌ وكانت عَصَافِيرٌ وَكَانَ صنوبَرُ
لمسْتَ أمانِينَا فصارَتْ جَداولًا وأمطَرتَنا حُبًّا ولا زلت تمطرُ
تأَخَّرْتَ عن نَقْعِ الوَغَى يا حبيبنا وما كُنْتَ عن نَقْعِ الوَغَى تتأخرُ
سَهِدْنَا وفكَّرْنا وشاختْ دُمُوعُنَا وشابَتْ ليَالِينَا وما كنتَ تحْضرُ
تُعَاوِدُني ذِكْرَاكَ كلَّ عشيَّةٍ ويُورِق فِكْري حين فيك أُفكِّرُ
وتأْبَى جراحي أَنْ تَضُمَّ شِفَاهَهَا كأنَّ جِرَاحَ الحبِّ لا تتخَثَّرُ

(١) القاصيدة لهاشم الرفاعي مع تقديم وتبديل لبعض مواضع الأبيات . انظروا ديوان الرفاعي .

تأخَّرْتَ يا أغْلى الرِّجَالِ فليلُنا ... طويلٌ وأضواءُ القناديل تسهـرُ
تأخَّرْتَ فالساعات تأكُلُ نَفْسَهَا ... وأيامُنَـا في بَعْضِهَـا تتعـثَّرُ
أَتسْأَلُ عَنْ أَعْمَارِنَا أَنْتَ عمرنا ... وأنت لنا الآمالُ أنت المحرِّرُ
وأَنْتَ أَبو الغَمَرَاتِ أنت وَقُودُهَا ... وأنتَ انْبعَاثُ الدِّينِ أنت التغيُّرُ
تأخَّـرت عنَّـا فالجِيادُ حـزينة ... وسيفُكَ من أَشْوَاقِهِ كاد يُنحرُ
حصانك في سيناء يَشْربُ دَمْعَه ... ويا لعَـذَابِ الخـيلِ إِذْ تتذكَّرُ
وراياتُكَ الخَضْراء تَمْضُغُ دَرْبَهَا ... وَعَلَـيْكَ آمـال الثُّغُـورِ تقصـرُ
نسـاءُ فلَسْطينَ تكحَّلْنَ بالأَسَى ... وفي بيتِ لَحْمٍ قاصِراتٌ وقُصَّرُ
وَلَيْمُـونُ يافا يابسٌ في حقولِهِ ... وهلْ شجرٌ في قبضةِ الظُّلْمِ يُزهِرُ
رَفِيقَ صلاح الدين هَلْ لَكَ عوْدةٌ ... فَإِنَّ جيوشَ الرُّوم تَنْهَى وتَأْمُرُ
رِفَاقُكَ في الأَغْوَارِ شَدُّوا سُروجَهُمْ ... وجندُكَ في حِطِّينَ صلُّوا وكبَّروا
تغني بك الدُّنْيَا كأنَّك طَـارِقٌ ... على بركاتِ اللهِ يَرْسُو ويُبْحِرُ
تناديك من شـوقٍ مآذنُ مكةَ ... وتبكيك بدرٌ يا حبيبي وخَيْبَرُ
ويبكيك صفْصافُ الشَّآمِ ووردُها ... ويبكيك زهر الغُوطَتَيْنِ وتدْمُرُ
تعـالَى إلينا فالمـروءَاتُ أطرَقَتْ ... وموطـنُ آبائي زُجـاجٌ مُكَسَّرُ
هُـزِمْنَا ومـا زلنـا شـتات قبائلٍ ... تعيش على الحِقْدِ الدَّفينِ وتَزْأَرُ
يُحَاصِرُنَا كالموْتِ بليون كَافِرٍ ... فَفِي الشَّرْقِ هولاكو وفي الغرب قيصرُ
أَيَا فـارسًا أشْكـو إليهِ مَواجِعِي ... ومثلي له عُـذْرٌ ومثلك يَعْـذُرُ
أنا شَجَرُ الأَحْزَانِ أَنْزِفُ دائمًا ... وفي الثلْج والأنوارِ أعطي وأُثْمِرُ
وأصرخ يا أَرْض المروءَاتِ احْبَلي ... لعلَّ صَلَاحًا ثانيًا سوفَ يظهرُ

* * *

لا تُهيِّئْ كَفَنِي يا عاذلي فأنا لي مَعَ الفَجْرِ مَواثِيق وعهْدُ

لنا الفجْر الآتي ... مثلما كان لنا الماضي الزَّاهر ... فَهَل تعقل الصليبيَّة .

أنا جـوادٌ عصيٌّ لا يطـوِّعهُ بوحُ العَنَاقِيدِ أو عِطْرُ الهُنَيْهَاتِ
أَتيتُ أَرْكُضُ والصَّحراءُ تَتْبَعُني وأحرفُ الرَّمْل تجري بين خطواتي
أتيتُ أَنْتَعِلُ الآفاق ... أمنحها جرحي ... وأَبْحَثُ فيها عَنْ بداياتي

* * *

يا أَنْتِ لو تَسْكُبينَ البَدْرَ في كَبدي أَوْ تشْعلين دِمَاءَ البَحْرِ في ذاتي
فَلَنْ تُزيلي بقايا الرَّمْلِ عَن كتفي ولا عبير الخزامى من عَباءاتي
هذِي الشُّقوق التي تَخْتَالُ في قَدَمِي قَصَائِدٌ صَاغَهَا نَبْضُ المَسَافَاتِ
ماذا ترين أمْريكا إن في غدنا عُرْسُ اللَّيالي .. وأفْراحُ السَّمٰوات
وهل عَلِمْتِ بنيرانٍ مُؤَجَّجةٍ ومارِدٍ يحتويه الموسمُ الآتي ...؟

أمَّا الواقع المرّ والوحل الذي نعيشُ فيه وسط الوحل دنيء الهمم..

تراني أُحِبُّكَ

يا وطن الموتِ في نشرةِ التاسعة ؟

كيف أحبّك

لا شيء غير الجفُونِ ...

الشجُونِ ...

الجراحِ ...

لَهْوِ الطَّواويس ؟

لَغْوِ القواميس ؟

أَحْبُولةِ العنكبوتِ ؟
وتعْويذةِ الانْشراحِ[١]

نعم .. لَهْوُ الطَّواويس : ما يدور في الاسْتِعْرَاضاتِ العسكرية عبر هذه الأمة .

أفي السَّلام أعيار جفاء وغلظة   وفي الحرْبِ أشْباه النِّساءِ العَوارِك

وأمَّا لَغْوُ القَوَامِيسِ : فهو كلام السَّحَرَةِ الَّذين يحوِّلون « الهزيمة » إلى « نصر » والرضوخ إلى سلام الشجْعان .

وأما أحبولة العنكبوت : فهو كيدنا الضعيف .

وأما تعويذة الانشراح : فهي الأغنيَّة الشبابية للفسَّاقِ والمارقين ، التي تعيش عليها الأمة وتصحو .

أمَّا الغد ..
لَكَ الآن أَنْ تعبر الموْت نحوك ..
تعتَنِقَ الحُلْمَ ..
تفتح للصوت طَاقَاته المطْلَقةِ
على قمة الصُّبحِ تبصره يتمادَى ..
اغترفْ منه فاتحة الفَجْر ..
كَيْ تتوضأ مغتسلًا مِنْ هُمُومِكَ ..
قِف الآن محتفلًا بقدومِكَ ..
لك الشرْق شمسٌ وَفَجْرٌ ووعدٌ

---

(١) أين اتجاه الشجر – للشاعرة ثريا إبراهيم العريض .

لك الغرب أرجوحة للمساءِ الرقيقِ
لك الذاريات شمالًا جنوبًا ..
وكلُّ التْماعِ الأهلّة ..
وكلُّ امتداد الطريقِ
فاترك الآن مَوْتَك واستقبل الذاريات
ارْتجلْ موسِم الأَجْنِحَةِ »[١].

لَنَا الفَجْرُ الآتي :

في سبيل اللهِ أمْضي
وَعَلى هَدْي كتابِ اللهِ قد أحْكمتُ نَبْضِي
أرتدي الفَجْرَ وأَمْضي في سبيلي
.. فإذا الشمسُ دَليلي
وإذا الأنجُمُ في قلبي .. وأعْراسُ النخيلِ
وسُطورًا من رحيقِ الذكرِ
.. أَتْلُوها .. فيسْتيقظُ سَيْفُ الحقِ
.. أتْلُوها .. فيصْحو الشرقُ
.. أتْلُوها فتجْري للينابيعِ طُيورِي
وَعَلَى هَدْي كتابي
.. أكتب الفصل الذي يأْتي
.. وأخطو فَوْقَ حدِّ الشَمْسِ استنطق عُرى البرقِ
كي أنقذ آلافَ الرِّقَابِ
قَدْ تقولون بِأنَّ السَّيف في كَفِّي أَقَالَتْه المعَارِكْ

(١) أين اتجاه الشجر – لثريا إبراهيم العريض . المجلة العربية – العدد ٢٢١ .

.. وبأنَّ الليلَ هَالِكْ
وبأنِّي لم أعُدْ أُتْقِن شدَّ القَوْسِ .. تغريد النبالْ
والفتوحاتُ التي أدْمنَهَا العُشَّاقُ في السَّبْع الطوالْ
قد تقولون ..
.. « وإفْكًا ما يقول الزَّيف » .. ضَرْبٌ مِنْ خيالْ
قد تقولون محالْ
.. أين يجيءُ السَّيل دَفّاقًا
.. وأن تجري مع السَّيل التِّلالْ
قد تقولون ..
.. ولكنِّي أقولْ
وأنا أَقْرأ فاتحةَ العَصْرِ .. وأشواقَ الحقولْ
إنَّ في الدَّرْبِ الخيولْ
.. وعلى وَقْع التِّلاواتِ ستخضرُّ الفصولْ
ولنا اليومُ الجميلْ
.. ولنا التكْبيرةُ الأولى
لنا الأُفْقُ
لنا الرَّاياتُ والصَّوتُ البديلْ
ولنا السَّيف الذي خبَّأه البرقُ إلى اليوم الثَّقيلْ

أمَّا مَنْ سفُلتْ هِمَّته ..عابدو التراب .. أصْحابُ القوميات :

هـذا يُشَـرِّقُ إن الشَّـرْقَ كَعْبتُه. وذا يُغَـرِّبُ إلَّا أَنـه الذَّنَـبُ
الزَّارُ والعَـارُ والأَوْتَـارُ تعـرِفُهُمْ والعَزْفُ والقَصْفُ والإِدْبَارُ والهربُ
مَهْمَا دَجَا الليلُ فالتاريخُ أنْبأني أن النهـارَ بأَحْشـاءِ الدُّجَى يَثبُ
مُستَمسـكٌ بكتابِ اللهِ مُعتَصمٌ والرِّيحُ حَوْلي والأَوثانُ والنُّصُبُ

إني لأَسْمَعُ وَقْعَ الخيل في أُذُني   وأُبصرُ الزمَنَ الموْعودَ يقتربُ
وَفِتْيَة في رياض الذكرِ مَرْتَعُهم   للهِ مَا جَمَعُوا للهِ مَا وَهَبُوا
إِذَا نظرتُ إليهمْ خِلْتُ أَنَّهُمُ   جاءوا من الخلدِ أَوْ للخلْدِ قَد رَكِبُوا
هُمُ الَّذين على سِيمَائِهمْ رَكَضَتْ   أَغْلى النجومِ وَشَعَّ الموسمُ الخَصِبُ
تأبى الأَعِنَّة إلا في أَكُفِّهمُ   والخيلُ إلَّا إذا ما فَوْقها رَكِبُوا
جاءوا على قَدَرٍ واللهُ يحرسهُم   وشِرْعةُ اللهِ نعْمَ الغاي والنَسَبُ[1]

* * *

(١) إنها الصحوة إنها الصحوة . ديوان محمود مفلح - دار الوفاء للطباعة والنشر .

الفصْـــلُ الـرَّابِــع

عُـلُوّ هِمَّــةِ الْقَــادَةِ

أَيْنَ سَعْـدٌ وَخـالِدٌ والمثـنَّى   كلُّهـم بالدِّمـاءِ يَنْصـرُ دِينَـهْ
والسَّـرايا يقـودُها ابنُ زيادٍ   رَكِبَ البَحْرَ لا يَهَابُ سفينَهْ
وصـلاحٌ كغُرَّةِ الصُّبحِ يَرجو   أن تُعـيدُوا وتبْعثُوا حطينَـهْ
هَلْ تسيلُ الدماءُ حتى ترَوِّي   صَخْرةَ القدسِ والقبابَ الحزينهْ



□ عُلوُّ هِمّـة القَـادة □

تُشْرِقُ وتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإسْلام أسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ .. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً .. لا بألف .. بل واللهِ أمَّة .. قادوا جيوشَ الإسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ .. فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد ، ولله دَرُّ أبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقَّاصٍ ، والمثنى بن حارثة ، وعمرو بن العاص ، والقعقاع بن عمرو التميمي ، وعاصم ، وزهرة ، وعتبة المرقال ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقتيبة بن مسلم ، ومَسْلمة بن عبد الملك ، رهبان الليل وفرسان النهار ... ملأوا المحاريب طاعةً وسجودًا ، والميادين بطولة تأخذ بالألباب .

أما واقِعُنا .. ويا بُؤْسَ واقعنا ، فكما يقول الشاعر :

يا بلادًا عزّ الفوارسُ فيها ... وتخلَّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإسْلامُ لغَيْبة فُرْسانِهِ ، وعلا الصوتُ « وامثناه » ... ولا مثنَّى للخيل ، « وامعتصماهُ » .

رُبَّ « وامعتصماهُ » انْطَلَقَتْ ... مِلْءَ أفْواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها ... لمْ تصادفْ نَخْوةَ المعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة :

كَسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالهْ ... وَحَطَّمْنَا بلا وَعْيٍ نِبَالَهْ
فمزَّقَنا العدوُّ ولا جهادٌ ... وشرَّدَنا الطُّغَاةُ ولا عَدالهْ
وباتتْ أُمَّةُ الإسلامِ حَيْرَى ... وبات رُعَاتها في شَرِّ حالهْ
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحَزْمٍ ... ولا الفاروقُ يُورِثُهَا فِعَالَهْ

ولا عُثمانُ يمنحُها عطاءً ... ويُرخِصُ في سبيلِ اللهِ مالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ ... يُفَيِّئُنا إلى « عَدَنٍ » ظِلالَهْ
ولا زيدٌ يقودُ الجَمْعَ فيها ... لحَرْبٍ أو يُعِدُّ لها رجالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا ... فتخشى ساحةُ الهَيْجا نِزَالَهْ
ولا حطينُ يصنعُها صلاحٌ ... طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلاَلَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا ... وقد فقدتْ مآذِنُنا بلالَهْ
وأَقْصانا يُدَنِّسُه يهودٌ ... ويَعْبَثُ في مَرابعه حُثَالَهْ
نَشُد رِحَالنا شرْقًا وَغَرْبًا ... وأولى أن نشدَّ له رحالَهْ
وَشَعْبٌ ضائعٌ في كلِّ أرضٍ ... وجُلُّ مناهُ أنْ يُرضي « جَمَالَهْ »
وراعي الشعب سجّانٌ غشومٌ ... وسفّاحٌ يَسِنُّ له نِصالَه
وحادي الركبِ بومٌ أو غرابٌ ... وقد قادَ الجموعَ « أبو رغالهْ »
يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا ... ويلعَقُ من كؤوسهم الثُّمالَهْ
يقبِّل راحةَ الطاغوتِ حينًا ... ويلثمُ دونما خجلٍ نِعَالَهْ
فيرْتعُ في مرابعنا دخيلٌ ... يُطارِد في حضارتنا الأصالهْ
إذا سألَ الزعيمُ مزيدَ ذُلٍّ ... لشعب لا يَرُدُّ لَهُ سُؤالَهْ
وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ ... ولا قلبٌ يَعِي صِدْقَ المَقالهْ
وَهَمُّ الشعبِ ثوبٌ أو رغيفٌ ... و« صَكٌّ » من رصيدٍ أو « حوالَهْ »
وألقاب يتيه بِهَا قرودٌ ... وليس لها مَعَانٍ أو دلالهْ
« سعادته » شَقَاءٌ في شقاءٍ ... وقد رَفعتْ « معاليه » السَّفالَهْ
« سيادتُه » يقيمُ على هوانٍ ... « سماحتهُ » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيلٌ ليس يدري ... بأن النَّاسَ قد فضحوا هُزالَهْ
و« دولَتُهُ » يعيش مع الأماني ... ويخشى أن تُفاجئَه الإقالهْ
مَضَغْنا قلبَ حَمْزةَ وانْثنينا ... نذوقُ المرَّ أَوْ نجني وَبَالَهْ

مُؤامـرةٌ يُدَبِّرُهَـا يَهـودٌ ... ويرعاها عميلٌ لا أَبَا لَهْ[١]

أبو عبيدة بن الجراح ، أمين هذه الأمَّة ، وفاتح بلاد الشام :

أمين الأمة ، أول من لقب بـ : « أمير الأمراء » ، مَنْ أَمَّره رسولُ الله ﷺ في حياته ، على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غِزوات ، على جيشٍ فيه أبو بكر وعمر .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لكلِّ أمة أمينًا ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء أهلُ نجران إلى النبي ﷺ فقالوا : ابعث لنا رجلًا أمينًا . فقال : « لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين » ، فاستشرف له الناسُ ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح »[٤].

« وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا ، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا .. يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهلَ الأرضِ لو اغترفوا منها

---

(١) قصيدة « ضلال وخبال » من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٢٠٧ - ٢١١ - المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي في فضائل الصحابة ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي في الفضائل ، وأحمد ، والطيالسي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة .

(٤) حسن : رواه ابن سعد في الطبقات .

جميعًا »[١].

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه ، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر .

ولقد ساد تحت راية الإسلام أنّى سارت جنديًا ، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير .. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين .

ولّاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام ، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك ، ولكنّ أبا بكر أصرَّ على رأيه ، فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك ، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة في الشام بدلًا من أبي عبيدة الذي بقي على جند حمص ، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر ، وكان يقول عنه: « لا أمير على أبي عبيدة » .

وصيّر خالدًا موضع أبي عبيدة ، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق ، الذي لم يتم فتح دمشق فيه ، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه ، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطن ، أمين .... حتى انتهت المعركة . وعلم خالد بأمر عزله ، فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة ، فقال : « يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمْني ، وأنت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ؟! » فقال أبو عبيدة : « وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنتُ أعلمك إن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوالٍ وانقطاعٍ ، وإنما

---

(١) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد صـ ٢٦٢ دار الريان للتراث .

نحن إِخْوانٌ وقوّامٌ بأمر الله عز وجل ، وما يضرّ الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة ؛ لما يعرض من الهلكة إلّا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم » .

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره .

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده : « إني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله ، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلكهم الله أو نموت عن آخرنا » وينضم إلى جيش أبي عبيدة ، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ، ولما يُسأل عن ذلك يقول : « ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته ، وهذا أحبّ إليّ من ابن عمي في دينه ، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم ، وأنا أشَدُّ استئناسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره » .

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد .

يقول أبو بكر لهاشم : « يا هاشم ، إنا إنما كنا نَنْتَفِعُ من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر » ، فقال هاشم : « إنْ يُرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أقْتُل ثم أُقْتَل إن شاء الله » . قال أبو بكر : « يا هاشم إن من سعادة جدّك ، ووفاء حظّك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين ... وقد بعث إلَيَّ المسلمون يستنصرون على

عدوهم من الكفار ، فسرْ إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناسَ مَعَكَ ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد » . قال هاشم : « بل على أبي عبيدة » .

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام .. ويصير تحت إمْرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرْضًا .. عتادًا وعددًا .. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه ، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا ؛ قام فيهم خطيبًا ، فقال لمن يفتنون بقوته ، وعظمته وأمانته : « يَٰأَيُّهَا الناسُ .. إني مسلم من قريش .. وما منكم من أحدٍ - أحمر ولا أسود - يفضلني بتقوى إلا وددتُ أني في إهابه ، أو مسلاخه » .

حيّاك الله أبا عبيدة .. وحيّا الله دينًا أنْجبك ، ورسولًا علّمك .

و« لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحرْبيَّة سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام ، فتحدّث عنها العدو والصديق ، فإن شهرة أبي عبيدة في الحِلْم والرِّفْق ، وسعة الصدْر ، والأمانة والصدقة ، وحب السلام ، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام ؛ لذلك أحبوه ويسّروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا ، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء ، واطمأنتْ كثيرٌ من النفوس .

لقد كان أبو عبيدة قائدًا مكيثًا ، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجلُ المكيثُ ، كما يقول عمر بن الخطاب[1] . وكان قائدًا مُتَّبعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُهَا بكل أمانةٍ وإخلاصٍ ، وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[2] ؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبي عبيدة ،

---

(١) الطبري ٢ / ٦٣١ .

(٢) الطبري ١ / ٥٩٩ .

وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى » .

ولعلّ هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقْدام على خوض معركة من معاركه ، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان ، فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهْل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ، ورجَّح خالد بن الوليد ، فغضب مُعاذٌ وقال : « أَبِأَبي عُبَيْدَةَ يُظَنُّ ؟! واللهِ إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[1] وسمع معاذ رجلًا يقول : « لو كان خالد بن الوليد ، ما كان البأس ذو كون » وذلك في أيام حصار أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ:« فإلى أبي عُبيدة تضطر المعجزة ؟! لا أبا لك ؟ والله إنه لَمِنْ خير مَنْ على الأرض »[2].

ولقد كان رضي الله عنه من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها ، وعندما تحشّد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص ؛ أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية .

وكان رضي الله عنه مهيبًا ؛ مؤثرًا في نفوس رجاله حين كان يتجوَّل في معسكراتهم وهو يقول : « ألَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنّسٌ لدينه ، ألا رُبّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا ! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات » .

وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار ، فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده ، فكتب إليه : « سلامٌ عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٤ .

أن أشافهك فيها ، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألَّا تضعه من يدك حتى تُقبِل » فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين ، لا أجدُ بنفسي رغبة عنهم ، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » فلما قرأ عمرُ هذا الكتابَ بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »[1].

لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية - استراتيجية - ممتازة ، فقد بعث بعضَ القوات لمشاغلة قوات الروم في « فَحْل » ، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ، ثم قصد « فحل » بقواته كلها ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في « فحل » و« دمشق » على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد .

كما أرسل خالدًا على رأس جيش ؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق ، مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته ؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحد ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان ، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد .

ولله دَرُّ القائد المكيث الذي يباغت قوات عدوه ... وسلوا « اللَّاذِقيَّة » تجبْكُم ؛ فقد سار أبو عبيدة إلى « اللَّاذقية » وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه ، إلّا بجماعةٍ كبيرةٍ من الناس ، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها ، ثم أَمَرَ فحُفرتْ حفائر عظيمة ، تَسترُ الحفرة منها الفارِسَ راكبًا ، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا ، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر ، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا

---

(١) ابن الأثير ٢ / ٢١٦ .

عنهم ، فأَخْرجوا سَرْحَهُمْ وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يَرُعْهم إلَّا والمسلمون يصيحون بهم ؛ ودخلوا معهم المدينة ، ففتحوها عنوةً[(١)].

ولقد كانت معارك التطهير ، واستثْمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذّة « فقد فضّل أبو عبيدة التخلِّي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد ، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولِّي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزة عسكرية ، إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم السَّاحِق على المسلمين ، وسرعة إنجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها »[(٢)].

للهِ دَرُّ أبي عبيدة ... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم ... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ .

للهِ دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا ، يرسل إليه عمرُ بن الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال لرسوله : « انظرْ ما يصنع » ، فقسّمها أبو عبيدة ، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »[(٣)].

ولما قدم عمرُ الشامَ ، تلقّاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : مَنْ ؟ قال : « أبو عبيدة » . قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْـلٍ ، فسلّم عليه ، فقال عمر

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٠ ، وفي البلاذري صـ ١٣٧ : أن الذي فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت . ولكنه بأمر أبي عبيدة ومشورته ، أو تحت قيادته .
(٢) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٨٠ دار الفكر .
(٣) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٣ .

للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه ، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذْت متاعًا » - أَوْ قال : شيئًا - فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلّغنا المقيل »[(١)].

وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عُبيدة » فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا ، فقال : أين متاعُك ؟ لا أرى إلا لبدًا ، وصفحةً ، وشنًّا[(٢)] وأنت أمير !، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[(٣)] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قلتُ لك : إنك ستعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل !! فقال عمر : « غيّرتنا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » !

رضي الله عن أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك .. ومطهِّر الشام من دنس الروم : مرج الصفر .. فحل ، حمص ، بعلبك ، حماة ، شيرز ، معرة حمص ، اللاذقية ، وحلب ، أنطاكية ، يوقا ، الجومة ، وشرْمين ، ومرتحوان ، وتيزين ، وأنطاكية ، وقورس ، وتل عزاز ، ومنبج ، ودلوك ، ورعبان ، ودمشق ؛ كلها تعرف أبا عبيدة ؛ فاتحًا لَهَا ، إما عنوةً وإمّا صلحًا .

« كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ، ثم عاد مخلفًا سوريًّا ظاعنًا في أرض الروم ، التفت إلى سورية - وقال : « عليك السَّلام يا سورية ، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد » . أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف . فما خرج من شمشاط وحاذى سورية ،

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ ، وأسد الغابة ٣ / ٨٦ .

(٢) القربة الخلق .

(٣) السلة المستديرة .

وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال : « قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر ، أما اليوم ، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا ، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا ، حتى يولد المولود المشئوم ، وليته لم يولد ، عليك يا سورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو »[١].

ومسك الختام فلسطين « إيلياء » بيت المقدس ، حاصرها حتى طلب أهلُها من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام ، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْح عمرُ بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر وفتح بيت المقدس .

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة ... لكأنِّي به ينادي من وراء الغيب : هلْ فَتَحْنَا فلسطينَ ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود ؟ واحسرتاه ! واأسفاه .

مات القويُّ الأمين ... مات فوق الأرض التي طهرها من الروم ، وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيِّسين والنواقيس .

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن يثوي رُفَات نبيل ، كان مُسْتَقرًّا لِرُوح خيّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ .

أما في واقعنا فَسَلْ ملوك الهرولة إلى التطبيع ، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب : « لا أهرول بل أركض ركضًا » ، قالها الملك الذي يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين .

نعم يا أبا عبيدة ، هذا زماننا ... يقول ياسر عرفات : رابين ابن عمي ... رابين قائد شجاع .

---

(١) سقوط دمشق صـ ٥٢١ ، الطبري ٣ / ٦٠٣ ، والبلاذري ١٦٢ ، الأزدي ٢٣٤ .

رابين يتساءل إن كان عرفات يهوديا :

« في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ م أثناء توقيع اتفاق توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في العاصمة الأمريكية واشنطن ... وخلال حفل استقبال في أحد متاحف واشنطن بعد توقيع الاتفاق ، بدأ رابين ملاحظته متوجهًا إلى من حوله من الضيوف والمراسلين ، فقال : « في تراثنا اليهودي قولٌ مأثور يرى أن رياضة اليهود هي فنُّ الخطابة ، ثم تابع بعد فترة من الصمت ، وبكثير من الجدية مخاطبًا عرفات : « بدأتُ أعتقد أيُّها الرئيس عرفات أنك قد تكون يهوديًّا ... » وفي حينها ضجَّ الجميع بالضحك ، وصفقوا طويلًا !!! »[1].

في موقف العشق يا قدسُ :

سافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبي
يُقاومُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ
نَصَبوا الحَواجِزَ في طَريقِ العِشْقِ
واسْتَدعُوا الخَفَرْ
حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلافَ الحُفَرْ
وَتَصَيَّدوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تراجعَ أو تَردَدَ أو كَفَرْ
يا عِشْق قَلْبِي مُنْذُ ما قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ ما بعدَ الذي
لا قَبلَ قَبْلَكِ حَيْثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَما

(١) الوعي الإسلامي العدد ٣٥٨ جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ صـ ٧٢ .

أنتِ العَشيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والوَتَرْ
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
وَتَسْجنُ فَجْرِيَّ الآتي وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللّاتِ والعُزى
لِيَبْرقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَناجِرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشْرَّعاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيلِ
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ
بل يَطْويهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحْمِلُني وَيُسْلِمُني لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأَنَا بِهٰذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ فِي لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المُرصَعِّ بِالضِيَّاءِ وبالسَّناء وَبِالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافي
وَسَيَّافي

وَجَلَّادي الأَشِرْ

العِشْقُ أَشْرِعَتي وَصَوْمَعَتي

وَنَاقُوسُ الخَطَرْ

دُقّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ

لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي

فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ

ظَهْرِي تَخَلَّى بَاعَني

هٰذي ضُلُوعِي

تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ

وَتَذُودُ عَنْكِ الريحَ والإِعْصَارَ

في لَيلٍ تَدَثَّر بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَورْ

هٰذِي ضُلوعي تَلْطِمُ المَوْجَ المُعَرْبِدَ

في بِحارِ الجُبْن والتَّدلِيسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ

هٰذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ

حَتَّى يَنْتصِرْ

سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْلِ آلافِ القرونْ

سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرونْ

قَد كُنْتُ في الأُولى بحَشْدٍ مِنْ ذَراري

عاهَدتُ عَهْدَ الحَنينْ

عهدًا بلا شَكٍ يَمورُ ولا ظُنونْ

عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنْتِ أنتِ ... وأنتِ كُنْتِ لكي نَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ القيْدِ
نَفْسَ النَفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنونْ
فَحَملت دربي فوقَ كتْفي
وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسنونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصنَّفٌ بعض الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ ... هو النعيمُ المُنتظرْ
سافرت فيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يزلْ
قَدَري المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصابِرْ
لَستُ المُغامِرَ إنما عِشْقِي على دَرْبي يُعلمني ويلهِمُني
وَينْبِتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحاصرُ في الشعابِ وفي المَوانِئ والمَغاورْ
عِشْقِي المُقيدُ في السطورِ وفي الصُدورِ وفي الحَناجِرْ

عِشْقي المُكَبَّل يُرعِبُ السَّيافَ
والهَتَّافَ
والشَّبَقَ المُقامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَومًا
ولا القَمَرُ المُثابِرْ
وسُراقةُ المخدوعُ لَنْ يُثني جِمالي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ
جَاءتْكِ فَوقَ خُيولِهِمْ
جاءتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ
جاءتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ
جاءتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخطرْ
سَافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزلْ
سَفَرِي يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ
سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ
سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ
لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ
لا فَرْعَ أُمّكِ هَابِطٌ
لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبَنْ
يا عِطْرَ كُل الأَنْبياءِ المُخْلِصِينْ
يَا زَهْرَ كُلِّ الأولياءِ المتَّقِينْ

مَنْ قَالَ إِسْمُكِ مُمتَهَنْ
مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ
هٰذا حَدِيثُ الإِفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ
لِتَشْتَعِلِ الفِتَنْ
قِديسَةُ الآباءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ
والفَرْعِ الحَسَنْ
قِديسَةُ التُّربِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِديسَةُ الرُؤيا الجلِيلَةِ والأَمَانِي والصُورْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأَنَا رَفِيقُ رِكابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفي الجنوب
وفِي البَوادِي والحَضَرْ
وَفَوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقاصٍ وَخَالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإِعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظيمِ تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ

أَوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْري
وَمُهْرِي فَوْقَ ساحِكِ لا يُبالي
بالجنودِ وبالقرودِ وبالذئابِ وبالْحُمُرْ
هٰذَا يَميني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعَهدًا
لَنْ يُزَعْزِعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفَرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنَا
ينمو علي لهبِ الطهارةِ والغضبْ
ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ
ولستِ زانِيَةَ العَربْ
إني أُعيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ
فَكُنْتِ جَوْهَرَةَ الزَّمان المُرتَقَبْ
إني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ
تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ
إني أُعيذُكِ أن تَهُزي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ
لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ
هٰذي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقربيها
وارقُبيها عَنْ كَثَبْ
فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِل العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ
فإلى مَتى ؟!

تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى ؟!
لا تَسأليني فَالعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قَابَ قوسٍ واقتربْ
فَلْتُرضِعيهِ مِن الشرايينِ التي
لَمْ تَأكل الثَّمَرَ المُحَرَّمَ
لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ
فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي
ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ
ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي
ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ
ولم تُدَنْ للمستبدِ أبي لَهَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرابِ
وَلَمْ تُلَقَّنْ مِن مُسَيْلمَةَ الكَذِبْ
فَلتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي
ذَبَحَ الحسينَ
وَلَمْ تَنم في صَدْرِهَا
نَارُ الجراحِ العاصفاتِ ولا الغضَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ
لِبني قُرَيْظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا
أو أهل يَثْرِبَ أو صَبَاحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسألِيني فَالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقتَربْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هٰذي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السفرْ[١].

الأمير أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقَّاص ، خال رسول الله ﷺ ، بطل القادسيَّة ، وفاتح « المدائن » ، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد :

سعدُ بنُ مَالك لَيْثٌ في براثِنِهِ قَدْ قَالَ عمرُ إنَّه الليثُ غَادِيَا

عن جابر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ ، فأقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال النبي ﷺ : « هذا خالي ، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه »[٢].

وهو أول من أراق دمًا في الإسلام ؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْيِ جملٍ فشجَّه .

وهو البطل أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله .

قال سعد رضي الله عنه : إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني

(١) قصيدة في موقف العشق ، لسعيد المزين ٣٠ يناير ١٩٨٦ المنشورة بمجلة ديوان القدس ، العدد الثاني رجب ١٤٠٦ - مارس ١٩٨٦ ص٥٨ - ٦١ .

(٢) إسناده صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

على الإسلام ، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي . وكانوا وَشَوْا به إلى عمر ، قالوا : لا يُحسن يصلي[١] .

قال سعد :

ألا أبلـغ رسـولَ اللهِ أَني حَمَيْتُ صَحابتي بصدور نُبلي
أَذودُ بها عـدوَّهُم ذيادًا بكلِّ حـزونة وبكلِّ سهـلِ
فَمَا يُعتـد رامٍ مِـن معـدٍ بسهْمٍ يا رسول الله قَبلي[٢]

وهو البطل الذي جمع له رسول الله ﷺ أباه وأُمَّه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرِّجال[٣] .

وعن سعد أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه ، قال : كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « ارم فداك أبي وأمِّي » فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل ، فأصبت جبهته ، فوقع وانكشفتْ عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٤] .

فداك أبي وأمي سعد في يوم « تقذف المشركين بألف سهم »[٥] .

وفي الإصابة لابن حجر (٤ / ١٦٣) : قال أبو إسحاق : أَشد

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي في « الفضائل » ، وأحمد في « فضائل الصحابة » وأبو نعيم .
(٢) الإصابة : (٣ / ٨٥) ، والاستيعاب : (٢ / ٦٠٧) . والحزونة : هي الوعر من الأرض .
(٣) طبقات ابن سعد : (٣ / ١ / ١٠٠) .
(٤) أخرجه مسلم ، والطبراني في الكبير .
(٥) « أحد » لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٣٨ .

الصحابة أربعة : عمر ، وعلي ، والزبير ، وسعد .

بأبي وأمي من كان له سلاحان : رمحه ، ودعاؤه ؛ فقد كان مستجاب الدعوة .

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال : سمعت سعدًا يقول : قال رسول الله ﷺ : « اللهم استجب له إذا دعاك »[١] .

ولما تجهز الفُرسُ لقتال العرب ، قال عمر بن الخطاب : « واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب » وكتب عمر إلى عماله : « لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إليّ ، والعَجلَ العَجلَ »[٢]. وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش ، فصرفه عن ذلك أهل مشورته ، فجمع عمر الناس ، وقال لهم : « إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا ، فأشيروا عليَّ برجل » ، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن ، فلما وصل كتاب منه – حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه – فقال عمر : وجدته ! قالوا : مَنْ هو ؟ قال : « الأسدُ عاديًا سعد بن مالك »[٣] وقال : « إنَّه شجاعٌ رامٍ »[٤].

وقال عبد الرحمٰن بن عوف : « الأسد في براثنه : سعد بن مالك الزهري » .

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن حبان والترمذي والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الطبري : (٢ / ٦٦٠) ، وابن الأثير : (٢ / ١٧٢) .

(٣) الطبري : ٣ / ٤ .

(٤) البلاذري : صـ ٢٥٥ .

ويستدعي عمر سعدًا ويقول له : « إنِّي قد ولّيتك حرب العراق ، فاحفظ وصيَّتي ، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا ، وعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما أصابك »[(١)].

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش ، وعبَّأه للحَرب ، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا ، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة ، وولَّى الحروب رجالًا ، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها ، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ ، حتى يحول دون مباغتة العدوّ لقواته .

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية في جيشه ، فعيَّن مسئولًا عن القضاء ، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا ، وعيَّن مسئولًا عن الوعظ والإرشاد ، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية .

ووصل جيش المسلمين القادسية ، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس ، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة ، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة ، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم ، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين : الإسلام ، أو الجزية ، أو السَّيف ، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم .

وتهيَّأ الفريقان للقتال ، وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس ، ليحرِّضوهم على القتال ، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال ، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم

---

(١) تاريخ الطبري : ٣ / ٤ - ٥ .

وعرفوا السكينة مع قراءتها[1].

ونادى منادي سعد في جيشه : « أَلَا إِنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر اللهِ يَـٰأَيُّهَا الناس ، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد » .

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد ، فأصابته بِعِرْق النَّسَا ، وبحبون ودماميل منعته من الركوب ، بل حتى من الجلوس ، فلم يستطعْ أن يركب ولا أن يجلس فاعْتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس ، وأسفل منه في الميدان خليفتُه ؛ خالد بن عرفطة ، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه ، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[2].

وأكبّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه ، فخطبهم وقال : « إن الله هو الحق ، لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف قال جلَّ ثناؤه : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحون** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كلّ قبيلة وعزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم » . ثم قال : « إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون ، فإني

---

(١) الطبري : ٣ / ٤٧ ، وابن الأثير : (٢ / ١٨١ - ١٨٢) .

(٢) الطبري ٣ / ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٧٣ .

مكبٌّ على وَجْهي ، وشخْصي لكم بادٍ ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمري ، ويعمل برأيي » .

قال الطبري : « فَقُرِئ على الناس فزادهم خيرًا ، وانتهوا إلى رأيه ، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة ، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع »[1].

لك الله أيها « الليث في براثنه » تدير أشرس المعارك .. المعركة الفاصلة ، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك ، وباب دارك مفتوح ، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًّا أو ميتًا .

دماملك تنبح وتنزف ، وأنت عنها في شغلٍ ، فأنت من الشرفة تكبّر ، وتصيح أوامرك لجنودك : « الزموا مواقفكم ، لا تحرِّكوا شيئًا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً ، فكبِّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم ، فإذا كبرتُ الثانية فكبّروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم ، فإذا كبّرت الثالثة فكبّروا ، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فشدّوا النواجذ على الأضراس ، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم ، وقولوا : (لا حول ولا قوة إلا بالله) » .

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذبابِ المترنح .. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار ..!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية ، فلقد

(١) الطبري ٣ / ٥٣٢ .

صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم ، وأظهروا قدرة قتالية فائقة ، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام ، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قوّاتهم .

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر ، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته ، وما إقامته بالقصر مع ما به من علَّة تمنعه من مباشرة القتال إلّا إفراطًا في الشجاعة ، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي : « ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمّته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه » .

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس ، فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي ؟ وهي تقول :

حيّيتِ عنّا عكرم ابنة خالدٍ وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتك عنّي عُصْبةٌ نخْعيّة حِسان الوجوهِ آمَنوا بمحمدِ
أَقاموا لكسْرَى يَضْرِبُون جنودَه بكلِّ رقيقِ السفْرتين مهنّدِ
إِذَا ثوَّبَ الدَّاعي أَناخُوا بِكَلْكَلٍ من الموتِ تسودّ الغياطل مجردِ

وسمع أهلُ اليمامة مجتازًا يغنّي بهذه الأبيات :

وجدْنا الأكثرين بَني تميمٍ غداة الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالَا
همُ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ إلى لجبٍ فزرتهم رعالَا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ كأسْدِ الغَابِ تحسبُهم جِبالَا
تَرْكَن لَهُم بقادِس عزّ فخر وبالخِيفَيْنِ أيّامًا طِوالَا

....

مقطَّعـــةٌ أكُفّهـــم وســـوقٌ   بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[١]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس فقال : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتالٍ طويلٍ ، وزلزالٍ شديدٍ ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سُلِبُموه ، ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج ، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ ، وفلان وفلان ، ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوُّون بالقرآن - إذا جنّ الليل - دويَّ النَّحْل ، وهم آساد النَّاس ، لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشّهادة إذ لم تُكتب لهم »[٢] .

هَلْ دَحَرْنَا في القادسيَّة جَيْشًا   بِخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَـرْ
أَمْ بِجَيْشٍ شِعَارُه دون خَـوفٍ   لا يَهابُ الحِمامَ « اللهُ أكبرْ »
مَـزَّقَ الظُّلـمَ زحفُه يَتَحـدَّى   جَحْفلَ الظُّلْمِ بالعَقيدةِ يَزْخَرْ
عَلَّمَ الفُرْسَ والعروش تهاوى   أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[٣]

نعم :

سَلوا فخامة كِسْرَى عن كتائبنا   وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا   وَكُسِّرَتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[٤]

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٣) من قصيدة جواب لسؤال من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٦٤ .
(٤) من ديوان « لحن الخلود » لعائض القرني صـ ٨٣ - طبع هجر .

نعم يا أخي :

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأُسارى

فتح البيت الأبيض :

عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيضَ ؛ بيت كسرى » . رواه أحمد ومسلم .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لتفتحنّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْز آل كسرى الذي في الأبيض » .

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة ، وكاتبَ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيما يفعل ، فكتب إليه عمر بالمسير إلى « المدائن » عاصمة كسرى . وتحرّك الجيش المنتصِر باتجاه المدائن ، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في « برس » وفي بابل وفي « بهرسير » . وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة للمدائن ، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن ، فلم يقدر على شيء منها ؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[1] . وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء ، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه ، وموجُه متلاطِم ، وزاد المدُّ فيه ، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا ، وفي ليلةٍ من ليالي سعد ، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة وعبرتْ ، وقد أقبلتْ من المدّ بأمرٍ عظيم .

عبور لا مثيل له في التاريخ :

فصدّق الرؤيا ، وعزمَ على عبور النهر ، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا ،

(١) الطبري ٣ / ١١١٩ .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليه معه ، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوِشُونَكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتَوْا منه ، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام ، وعطَّلُوا ثغورهم ، وأفنوْا ذادتهم ، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعًا : عزمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشد ، فافعل »[١] .

وندب سعد الناس للعبور ، ثم قال : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض[٢] لكيلا يمنعونا من العبور » . فانتدب عاصم بن عمرو التميمي ، وانتدب معه ستمائة من أهل النّجدات ، فعبر هؤلاء المغاوير ، وعبر سعد مع جيشه بعدهم ، ففاجأوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في حسابهم .

سبحان الله !! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون .

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم »[٣] .

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون ، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض .

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون ، نجاحًا أذهل سعدًا

---

(١) الطبري ٣ / ١١٩ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ ، وفتوح الشام للواقدي ٢ / ١٢٧ .

(٢) الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر .

(٣) الطبري ٤ / ٤٨ .

نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة « سلمان الفارسي » . « عامت بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليّه ، وليُظهرنّ الله دينه ، وليهزمنّ الله عدوّه ، إن لم يكن في الجيش بغيٌّ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات » . فقال له سلمان : « الإسلام جديد ، ذُلِّلتْ لهم والله البحور ، كما ذُلِّلَ لهم البرُّ ، أما والذي نفسي بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا . لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ »[1]. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه ، فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئًا ، ولم يغرق منهم أحد ، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة زال عن ظهر فرسٍ له شقراء ، قال أبو عثمان النهدي : كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه ، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقي - وكان من أشدّ الناس - : عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع . وكان للقعقاع فيهم خؤولة .

يوم الجراثيم :

روى أبو جعفر في تاريخه ، أن سعدًا لمّا أقحم الناس في دجلة ، اقترنوا - أي صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور - فكان سلمان الفارسي قرين سعد إلى جانبه يُسايره في الماء ، فقال سعد : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، والماء - لشدّة جريانه - يطمو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا ، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً فيستريح عليها كأنه على الأرض ، فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدعى يوم الجراثيم . ومن عناية الله تعالى بالجيش المجاهد ، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١١ .

إلّا جرثومة يريح عليه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : خُضنا دجلة وهي تطفح ، فلمّا كُنّا في أكثرها ماءً ، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه ، قال المسلمون : ما تنتظرون بهذه النطفة ؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس ، فما غرق منهم إنسان ، ولا ذهب لهم متاع[1] .

تموت المبادئ في مهدها ... ويبقى لنا المبدأُ الخالدُ
مراكبُ أهلِ الهوى أُتخمتْ ... نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرّافةٍ ... وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ ... وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم ... فنحن لنا ربّنا الواحدُ[2]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ ، إلّا قَدَح كانت له علاقة رثَّة فانقطعتْ ، فذهب به الماء ، فقال صاحبه : والله إني لعلى جديلة ، ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر . فلمّا عبر ، قذفتِ الرياحُ والأمواج قدحه فأخذه .

ما تُقاتلون إلَّا الجِنَّ :

نظر جنود « يزدجرد » إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة ، وجعلوا يردِّدون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض : « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن » .

قال أبو عثمان النهدي : « طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ حتى ما يرى

---

(١) القادسية لمحمد أحمد بشاميل ٧٤٤ - ٧٤٦ .

(٢) قصيدة موقف من ديوان « شموخ في زمن الانكسار » لعبد الرحمٰن صالح العشماوي صـ ٥ طبع مكتبة الأديب بالرياض .

الماء من الشاطئ أحد ، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها ، لها صهيل ، فلمّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء » .

وفزع يزدجرد ملك الفرس ، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات ..... فدلّاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل .. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طبّاخ وألف فهّاد وألف بازيار .

إي والله ، في زنبيل !! هذه نهاية الطواغيت .

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله ؛ فقد جاء في تاريخ الطبري (٤ / ٥٣) : « أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس ، وفيهم فارس منهم يعترض على طريقٍ من طرقها ، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم ، وهو يضرب فرسه للإقدام فيُحجم ، ثم يضربه للهرب فيتقاعس ، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف ، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه . ودخل سعد المدائن ، وانتهى إلى إيوان كسرى ، فأقبل يقرأ قوله تعالى : ﴿ **كم تركوا من جناتٍ وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكِهين * كذلك وأورثناها قومًا آخرين** ﴾ [الدخان : ٢٥ : ٢٨] »[1] .

الفـاتح العظـيم :

وجّه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي ، فانتصر هاشم في معركة جلولاء ، وفتح القعقاع وجرير بن عبد الله البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين .

---

(١) الطبري ٤ / ١٦ .

كما وجّه عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة ، ففتح عبدُ الله بن المعتم تكريت ، وفتح ربعيٌّ ابن الأفكل الموصلَ ، ولمّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعدًا أن الفرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان ، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر المسلمون على الفرس ، وفتح ضرار ماسبذان .

ووجّه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، ففتحا هذه المنطقة .

كما وجّه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق ، ففتح منطقة البصرة والأهواز .

كما وجّه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان ، ففتح تلك المناطق .

ووجّه سعدٌ عياضَ بن غنم وسهيلَ بن عدي وعبدَ الله بن عبد الله ابن عتبان لفتح الجزيرة ، ففتحوا منطقة الرّقّة ونصيبين وحرّان والرّها .

فالفتوحات الإسلامية إذن التي جرت في العراق ، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية ، فتحها سعدٌ بنفسه ، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها ، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد ، ولكن فَتْحهَا جرى بعد عزله .

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا . لقد فتح سعد العراق ، وأكثر بلاد فارس ، وأذربيجان ، والجزيرة وبعض أرمينية ، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث ، وأكثر إيران بحدودها اليوم ، وفتح

القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإيران ، والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحدّ روسيا . وفوق ذلك مَصَّر الكوفة وكوَّفها ، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله ، وأمدّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين .

فرضي الله عن سعد الفاتح العظيم .

وأخيرًا تبقى كلمة :

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[١] ، أسد في تاموره[٢] ؛ يعدِل في القضية ، ويقسم بالسَّوِيَّة ، ويبعد في السَّرِيَّة ؛ يعطف علينا عطف الأُمِّ البَرَّة ؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة »[٣].

خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، سيف الله تعالى وفارس الإسلام ، وَلَيْثُ المَشاهِد ، السيد الإمام الكبير ، قائد المجاهدين ، أبو سليمان :

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأُصيب ، ثم أخذ جعفر فأُصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم »[٤].

---

(١) كساء فيه خطوطٌ بيض وسود ، تلبسه الأعراب .
(٢) التّامور : هو عرين الأسد ، وهو بيته الذي يأوي إليه .
(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٩٢ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٦٨ .
(٤) رواه البخاري والنسائي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي .

« عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أُصيب فجعفر ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري » . فوثب جعفر فقال : بأبي أنت يا نبي الله وأمي ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليَّ زيدًا ! قال : « امضوا ، فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » . قال : فانطلق الجيش ، فلبثوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله ﷺ صَعِدَ المنبر وأمر أن يُنادى : الصلاة جامعة ، فقال رسول الله ﷺ : « ثاب خبر - أو ثاب خبر . شكَّ عبد الرحمٰن - ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؟ إنهم انطلقوا حتى لَقُوا العدوَّ ، فأُصيب زيدٌ شهيدًا ، فاستغْفِرُوا له » فاستغفر له الناسُ « ثم أخذ اللواءَ جعفرُ ابن أبي طالب ، فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيدًا أشهدُ له بالشهادة ، فاستغفِرُوا له . ثم أخذ اللِّواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا ، فاستغفروا له . ثم أخذ اللِّواء خالد بن الوليد ، ولم يكُن من الأمراء ، وهو أمَّر نفسه » فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال : « اللهم هو سيفٌ من سيوفك فانصُرْهُ » . وقال عبد الرحمٰن - مرةً - : « فانتصر به » . فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « انفروا فأَمِدُّوا إخوانكم ، ولا يتخلفنّ أحد » . فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا »[1].

لمَّا أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ : « ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها » . وقال النبي ﷺ : « اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك » .

قال خالد : فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بي

---

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد ، والنسائي في فضائل الصحابة .

أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه .

وفي رواية : فيما كان حَزَبَه . وفي رواية عمرو : في أمرِ حَرْبِهِ[١] .

في مؤتة :

كانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه ، وبعد قتْل قادة الجيش الثلاثة ، وانكشاف صفِّ المسلمين ، دَفَعَ ثابتُ بن أقرم اللِّواء إلى أبي سليمان خالدٍ قائلًا : « خذ اللواء يا أبا سليمان ، فأنت أدْرَى بالقتال مني ، والله ما أخذتُه إلا لك » .

تلقَّى خالد اللواء ، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف .. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة .. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل ، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه ، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا ، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب .

« واعتلى العبقري جواده ، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام ، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح ، على طريق طويل لَاحِب سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته ؛ حتى تبلُغ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا »[٢] .

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة ... فقد قام بتبديل كلِّي في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه ، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة ، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة ، كما استبدل

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ / ٢٥٢ ، ٧ / ٣٩٤ .

(٢) رجال حول الرسول صـ ٣٠٩ .

رجال القلب برجال آخرين ، كل هذا في ظلام الليل ، وجعل مقدمة الجيش ساقةً ، وساقته مقدمةً ، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة ، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب ، نَشَر هذه الساقة ليحتلّ فرسانها مساحةً شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية ، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة . كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا ، قد جاء لجيش المسلمين . هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذّ ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقق . فقد وجد الرومان أنفسهم – أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع – أمام قادة وجنود وهيئات وراياتٍ غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأُولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية . ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد ، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي ، ودوَّتْ أصوات التهليل والتكبير ، منبعثةً من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق ، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان ، تتبع إحداهما الأُخرى في تنسيقٍ وإحكامٍ راكضةً نحو المسلمين في مؤتة ، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة ، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير ، واهتزّ معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير . ودبّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج ، ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة ، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد ؟!

نعم ، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة ، هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة .

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ ، نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة ، فاغتنمها فرصةً ،

فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان ، وبأسلوب عامّ صاعِق كاسِح فتمَّ له ما أراد .

« وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية ، وركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة ، كانت بكل معاني الكلمة « مذبحة » وَصَفَهَا الواقدي في كتابه « المغازي » بقوله : « فرُعِبوا فانكشفوا منهزَمين ، فقتلوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ »[١].

وقال ابن سعد في طبقاته : « ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتُها[٢] قطُّ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا »[٣].

كان القتال ضاريًا ، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ ، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية »[٤].

لله دَرُّك يا خالد ، تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك !! ومن أوْلى منك بهذا .

أناضل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ   عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا

---

(١) مغازي الواقدي ٢ / ٧٦٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس - طبع جامعة أكسفورد .

(٢) الرواي هنا أحد الصحابة وهو أبو عامر .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ١٣٠ ، مؤتة لمحمد أحمد بشاميل صـ ٢٠٧ .

(٤) رواه البخاري ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك .

ومُمْتَثِــلٍ لله أسْــلَمَ وجهَــهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالدُ سيفُ الله أسلم وجهَهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي ... بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فلم أرَ يومًا كالتقــدُّم لــذَّةً ... ولم أرَ عيشًا كالتقــدم هانـيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي ... وتحـت روابيها تصـبّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام ، فقد انسحبت قوات القسم الأكبر[1] من المسلمين ، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا ، وذهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة ، وما استطاعوا أن يتعقّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل ، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة ، فلمّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة (الجرف) ، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش « يا فُرّار .. فررتم » ... ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب . وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ليسوا بفُرَّار ، ولكنهم الكرّار في سبيل الله » . وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة .

ثم علم المسلمون بعدُ قدْر تضحية خالد وبذْله ، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان .. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع ، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا ، وأروع عبقريةً وأنْفَذ بصيرةً ؟!

في فتح مكة :

قال النبي ﷺ للزبير وخالد : « لا تقاتلا إلَّا من قاتلكما » . وكان خالد على ميمنة قوات المسلمين ، وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها

---

(١) القلب والميمنة والميسرة والمقدمة كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب .

من « اللِّيط » ، إلّا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة ؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة ، وكما قال خالد : « بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنَّبل ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففتُ ما استطعتُ ،ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم ، فظفَّرَنا الله بهم ، فهربوا من كل وجه »[1]. وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا .

يقول ابن حماس الدّيلي فارسُ مكة ، لما عاتبتْه زوجُه على فراره في الخَنْدَمة :

وأنتِ لو شهدتِنا بالْخَنْدَمَهْ — إذ فَرَّ صفوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ كالعجُوزِ المُؤْتِمَهْ[2] — إذ يلحقونا بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ — ضَرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ
لهمْ زئيرٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ — لم تَنْطِقِي في اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[3]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصّاهلة ، وتحت رايات الإسلام الخافقة ، وتكبيراتهم الصّادِعة الرائعة ، ترجّ مكة رجًّا ، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة ، يبدو الكون معها ، وكأنه كلّه في عيد .

خالد يقتل العُزَّى ويهدمها :

وهذا البطل مرة أخرى يستبدّ به تَوْقٌ عارِم إلى هدم عالمه القديم كله ، ومظاهر الشرك ، فعن أبي الطُّفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٩ .
(٢) هي المرأة التي قُتل زوجها فبقي لها أيتام .
(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٥٠ ، ومغازي الواقدي ٢ / ٨٢٧ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٩٧ .

وآله وسلم مكة بعث، خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العُزَّى ، فأتاها خالد بن الوليد،وكانت على تلال السَّمُرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع فإنك لم تصنع شيئًا » . فرجع خالد ، فلمّا نظرتْ إليه السَّدَنةُ - وهُمْ حُجَّابُها - أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عُـزَّى خَبِّليه ، يا عزى عَوِّرِيه ، وإلَّا فموتي برغم . قال : فأتاها خالد ، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تحثو التراب على رأسها ، فعمَّمها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره قال : « تلك العزى »[١].

وفي رواية : فلما سمع سادِنُها بمسير خالدٍ إليها ، علّق عليها سيفه ، والتجأ إلى الجبل الذي هي فيه وهو يقول :

أيا عُزّ شدّي شدّةً لا شوًى لها[٢] على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تنصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عُـزّ كُفـرانك لا سبحانكْ إني رأيـتُ الله قـد أهـانكْ

وعند الطبري (٣ / ٦٥) :

يا عُزّ شُدِّي شدَّةً لا سِواكِها على خالدٍ أَلقِي الخمارَ وشَمِّرِي
فإنَّك إن لا تَقْتُلي المرءَ خالدًا تبوئي بذنبٍ عاجـلٍ وتُقَصِّرِي

فشد خالد عليها ، فقتلها ، وقال : ذهبت العزى ، فلا عزى بعد اليوم .

---

(١) حسن . رواه أبو يعلى في مسنده (٢ / ١٩٦) . وهو حسن .
(٢) أي لا تُبقي على شيء .

هَدم خالدٍ لِوُدّ :

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام ، فقد « بعث النبي ﷺ خالدًا لهدم « ود »[(١)] في دومة الجندل ، وقد بعثه من غزوة تبوك ، فحالتْ بنو عبد ودّ وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم خالد ، وبعد دحرهم هدمه وكسّره جذاذًا »[(٢)].

أسْرُه لأُكَيْدِر صاحب دومة الجندل :

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك ، أرسل خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبد الملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب « دومة الجندل » ، وكان أُكيدر قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان ، فهاجمته خيل خالد ، فاستأسر أُكيدر ، وامتنع أخوه وقاتل حتى قُتل ، ثم هرب من كان معهما ، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ ، على أن يفتحوا له دومة الجندل ، فدخلها المسلمون ، وصالحه خالد على ألفيْ بعيرٍ وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه « مصاد » قافلًا إلى المدينة ، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ، ودم أخيه ، وخلّى سبيلهما ، وكتب له كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه .

لله دَرُّ خالدٍ .. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات ، بينما قاتل شمالًا على حدود أرض الشام ، وجنوبًا في اليمن ، وشهد أحد عشر مشهدًا ، قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء

---

(١) تمثال رجل كبير الجسم ، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل .

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٠ ، نقلًا عن « خالد بن الوليد » لأبي زيد شلبي صـ ٨٦ - ٨٨ .

الرسول القائد ﷺ ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًّا ، ولم يُقاتل في خمسة مشاهد منها ، بل أنجز واجبه سلمًا ، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال !!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ ، وكانت له قابليّات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة لا يجود بها الزمان إلا نادرًا ، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه : « نعم عبد الله وأخو العشرة ، وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين »[١] .

خالد وحروب الرِّدَّة :

لقد كانت حروب الردة – التي استمرت ملتهبةً حوالي سنةً كاملة – أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري ، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال ، وخالد بن الوليد لم يقم أي محاربٍ مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم ، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة « بزاخة » ببلاد بني أسد ، ومنطقة البطاح في ديار بني تميم ، ومنطقة اليمامة موطن بني حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد في حياته .

مع طليحة في بزاخة :

التقى خالد مع طليحة الأسدي في بزاخة ، فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا ، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه ، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : « يا معشر فزارة ، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته ، فليفعل » . وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة . ولقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبني عامر وسُليم وهوازن ، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام ،

(١) الاستيعاب ٢ / ٤٢٩ ، وقادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٤ ، ٩٥ .

ولم يقبل منهم إلَّا أن يأتوه أوّلًا بالذين حرّقوا ومثّلوا وَعَدَوْا على الإسلام ، فأتَوْا بهم ، فمثّل بهم وحرّقهم ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار[١] .

في اليمامة مع مسيلمة الكذّاب :

بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيلُ بن حسنة في القضاء على المرتدين في اليمامة ، سار إليها خالد ، فلمّا كان على بُعْد ليلةٍ من معسكر مسيلمة ، هجم على مفرزة من بني حنيفة بإمرة « مجاعة بن مرارة الحنفي » قوّتُها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا ، فأسرهم وقتل أصحاب « مجاعة » ، واستحياه رهينةً لشرفه في بني حنيفة . والتقى الجمعان في عقرباء ، واشتدّ القتال ، وتكسّرت في يد خالد تسعة سيوف ، واشتدّ القتال بشكلٍ لم يسبق له مثيل ، وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد ، ولكنّ المسلمين عادوا فاستقتلوا ، فقال خالد : « يَـٰأَيُّـهَا الناس ، امتازوا ؛ لنعلم بلاء كلِّ حيٍّ ولنعلم من أين نُؤتى » . وكان النصر بعد جهدٍ جهيدٍ لأنصار دين الله ، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر ، وقُتل من بني حنيفة في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا ، وقُتل منهم في الطلب سبعة آلاف[٢] ، وقُتل عدو الله مسيلمة ، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار ، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة ، وثلاثمائة من التابعين ، وقتل من القُرّاء خمسمائة ، فكان جملة من قتل من المسلمين ألفًا ومائتي شهيد ، أي أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط ، وهذا يعدُّ من أروع الانتصارات .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٣ .

(٢) الطبري (٢/ ٥١٦) ، وابن الأثير (٢/ ١٤٠) .

فللَّه درُّك يا خالد وأنت تريد قتل مسيلمة ، وما تطلب من الفرسان حين تشدُّ عليه إلّا حماية ظهرك فقط ، وتقول : « لا أُوتينّ من خلفي » . فلا يثبت لك الكافر .

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا .. ولله دَرُّ أبي بكر حين قال فيك : « ما كنتُ لأَشِيمَ سيفًا سلَّه الله على الكافرين »[1].

هازم الفرس في أرض العراق :

« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد » . [الصديق أبو بكر] .

لقد كان خالد قائدًا لا يُجارَى ولا يُبارى في خططه وأسلوب قتاله وشجاعته ، وأُقسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال ، وله في كل معركة ذكْر ونبأ تطير بذكره الرّكبان .

كاظمة ميدان المعركة الأولى مع الفرس :

وفيها كان قائد قوات الفرس « هرمز » ، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه « ازاذبة » وكان نص رسالة خالد الخالدة : « أمّا بعد ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّة وأقرر بالجزية ، وإلّا فلا تلومنّ إلّا نَفْسَكَ ، فقد جئتُك بقومٍ يحبّون الموتَ كما تحبون الحياة » . وفي رواية : « جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ كما تحبون شُرب الخمر » . قد كان ابن الوليد قمة في سياسته العسكرية ، وقدرته على المناورة وخداع العدو ، لإنزال الهزيمة به بأقلّ خسارة ممكنة في جيش الإسلام ، فتوقّع هرمز أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى كاظمة في أول الأمر ، فوجّه كافة قواته إلى كاظمة ، واستعدّ جندُه وحفروا الخنادق ، ولكن خالد الذي قسم جيشه وفرّقه إلى ثلاث فرق ،

---

(١) الطبري (٢ / ٥٠٣) ، وابن الأثير (٢ / ١٣٧) .

لم يحملهم على طريق ليُعمِّي وجهته عن عدوه ، فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة ، وأربك خالد القائد الفارسي وفتّت أعصابه ، فتخطّى كاظمة ، واتجه نحو الحفير الواقعة شمال كاظمة وغربي الأبلَّة . وعندما لم يجد هرمز أي أثرٍ لخالد في كاظمة ، وأنه تخطَّاها نحو الحفير ، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد ، وأمر هرمز قواته بأن تُجهد نفسها في التّحرّك ؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير ، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذُّ خالدٌ ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة ، وعن عمدٍ تباطأ خالد بجيشه في السير نحو الحفير ليسبق إليها القائد هرمز ، وفعلًا وصل هرمز الحفير على عجلٍ ليسبق إليها خالدًا ، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير استعدادًا لمواجهة خالد ، ولما تلقّى خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال ، عطف بجيشه راجعًا إلى كاظمة ، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس - بعد حفر الخنادق في الحفير - قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل ؛ توطينًا لأنفسهم على الموت ، أو إحراز النصر ، ولما أبلغتْ هرمز استخباراتُه أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو الكاظمة راجعًا ، استشاط غضبًا وتوتّرتْ أعصابه للغاية ، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو كاظمة ، وهناك وجد خالدًا في انتظاره ، قد عبَّا جيشه للقتال ، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين ، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات ، ومنعوهم الماء ، فقال خالد كلمته الخالدة : « ألا انزلوا وحطّوا رحالكم ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصْبر الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن »[1]. ودعا هرمز خالدًا للبِراز ، وسرعان ما أجابه خالد ، ولكن هرمز الخبيث - الذي ضُرب به المثل فيه فقيل : أخْبَثُ من

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٤٩ .

هرمز ، وأكفر من هرمز - قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد ، فلما نزل خالد نزل هرمز ، ومشى إليه خالد ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتيْن ، واحتضنه خالد ، وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ ، **فاسْتلْحموا**[(١)] خالدًا ، فما شغله ذلك عن الهرمزان ، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز ، فأبادها جميعًا ، أمَّا خالد فقد تمكّن في الحال من ذبْح هرمز ذبح النِّعاج ، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم ، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل ، ولم ينجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن ، وجمع خالد الرثاث[(٢)] وفيها السلاسل ، فكانت وقر بعير ؛ ألف رطل ، فسُمِّيَتْ « ذات السلاسل » ونفَّل أبو بكر خالدًا قلنسوةَ هرمز ، وكانت قيمتها مائة ألف . وقدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس إلى المدينة ، فطيف به في المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن : أَمِنْ خلْق الله ما نرى ؟! وردَّه أبو بكر مع زر .

وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك :

نعم ، الإسلام رفع من شأن العرب ، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً ، لا شأن لهم في الأرض ، ولا ذِكْر لهم في السماء ، أذلَّهم الفرس ، حتى إنَّ سابور الثاني والملقّب بذي الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب ، فيقتلهم عن طريق نَزْع أكتافهم ، فنزع أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل ، حتى قالت له عجوز عربية : « إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين » . الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب ، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس ، يُذِلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم ...

---

(١) تبعوه .

(٢) المتاع .

حتى صار ذِكْره يُقضُّ مضاجع الفرس .. ويبدو هذا في معركة الأُبلّة .

معركة الأُبلَّة ، وفرار الفرس من اسم خالد :

سار خالد بجيشه إلى الأُبلَّة ، وفيها جيوش كثيفة للفرس ، وسبق سويد بن قطبة الذهلي - وكان من جيش خالد - في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه الأبلة ، وعسكر حولها ، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم ، وجد سويدًا يتعقّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه ، فيُقاتلهم خارج مدينتهم ، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه ، وأنهم سيظلّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر ، فقال سويد لخالد : إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك ؛ أي خوفًا منك . وهناك رسم خالد بالاتفاق مع سويد خُطّة يخدعون بها الفرس ، حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد ، وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله هرمز ، قد ترك معسكر سويد ، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط ؛ فقال خالد لسويد : فالرأْيُ أخْرُجُ من المعسكر نهارًا ، ثم أعود إليه ليلًا ، فأدخل بأصحابي ، فإن صبّحوك حاربناهم ، ونفّذ خالد خطّته لتضليل حامية الأُبلَّة الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد ، فتوجّه خالد بمعظم قوّاته في وضح النهار في اتّجاه الحيرة ، فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان ، وعاد - رضي الله عنه - بقواته إلى المعسكر ليلًا ، فلمّا خرجت جيوش الفرس من الأُبُلَّة قاصدين مهاجمة سويد ، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد ، حتى رأوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد ، فأُسقط في أيديهم لمَّا علموا بوجود خالدٍ في المعسكر ، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد ، وما كان همّهم إلَّا الفرار للعودة إلى الأُبلَّة المحصَّنة ، فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة ، ولكنّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك ، وانفرط عقد جيش

الأُبُلَّة ، وتمزّق شملهم ، وكثُر القتل فيهم ، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالدٌ معقل بن مقرن المزني إلى الأُبُلَّة التي كانت خاليةً من المحاربين ، فسيطر عليها بدون قتال ، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة .

الخـــربية :

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها : الخريبة ، وكانت من مسالح العجم ، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ، لمّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم ، وأدرك الرعب المسيطر عليهم : « احملوا عليهم ، فإني أرى هيئة قومٍ ألقى الله في قلوبهم الرعب » . فحملوا عليهم ، فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرق طائفة منهم في دجلة .

الجولة الثالثة : معركة المذار وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة :

جهّز شيرويه ملك الفرس جيشًا جرّارًا ، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قـائد من قـوّاده وهو « قارن بن قرباس » يسـانده قائدان كبيران وهما : «الأنوشجان » و« قباذ » ، وكان هذا الجيش يضم أيضًا فلول الأُبُلَّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل ، وتعاهدوا بعدم الفرار .

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا ، بينـما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا . وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة قارن إلى البزار ، فاستبق إليه اثنان من المسلمين : خالد بن الوليد ، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي ، فسبق معقل على فرسه خالدًا ، وبارز قارنًا فقتله في الحال . وهجم عاصم بن عمرو على الأنوشجان فقتله في الحال ، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد قباذ فقتله ، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن ، وكان شرف قارن قد انتهى ؛ أي

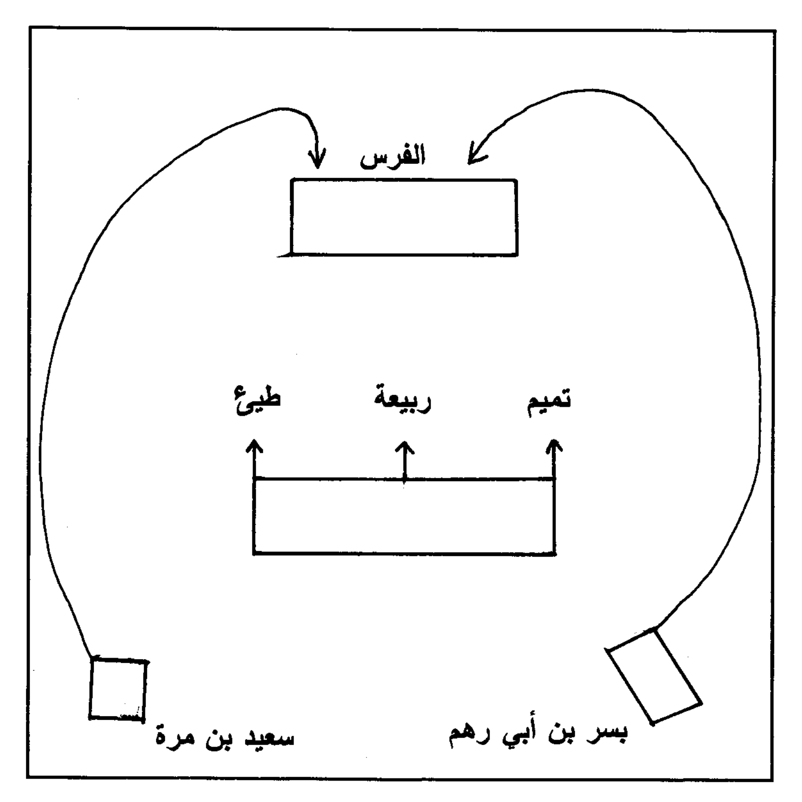
أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس . وقُتل من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا ، سوى من غرق في دجلة بحديده . « ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم ، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة »[1].

الولجة أو (واترلو الفرس) :

أقام خالد - رضي الله عنه - بمنطقة المذار يجمع المعلومات ويرقب اتجاه مسارات العدو ، وعلم أن القيادة العامة في المدائن أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مجرّبيْن وهما : « الأندرزغِر » و« بهمن جاذويه » . وأراد بهمن جاذويه أن يوقع خالدًا بين فكّيْ كماشةٍ ، إن هو اتّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا : بين جيش الأندرزغر الذي يعسكر غربًا في الولجة ، وبين جيش بهمن الذي يتحرك في السواد شرقًا ، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة ، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين . وفكر خالد - وهو الألمعي - في اتّباع أسلوبٍ يجعله يتصل بالأندرزغر في الولجة ، دون أن يوقع بجيشه في كمّاشة ، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة ، حتى إذا ما وصل الأُبُلَّة عَبَرَ نحو الغرب ، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو الولجة غربي الفرات حيث يعسكر الأندرزغر . لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم ، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها ، ورغم أنه محارب جريء ممتاز ، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور ، وكان شديد التّيقُّظ والحذر ، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم . ولكي يختصر خالد المعركة ، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله ، أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينيْن من خيرة رجاله ، كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه بسر بن أبي رهم الجهني ، وكمين من يسار الفرس وجعل على

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٥٢ .

قيادته سعيد بن مرة العجلي ، وأخفى الكمينيْن ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس ، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينيْن تجعل جيش فارس بين فكّيْ كمَّاشة ، مع انشغاله بالرمح المُشْرَع في صدره وهو جيش خالد ، وأُعْطِيت الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما



يحتدم القتال ، وتظهر بوادر الوهن على الفرس . واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات « أندرزغر » في قتالٍ ضارٍ عنيفٍ ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقّى أحدهما مدده قبل الآخر ، واشتدّ القتال في الولجة ، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة ، وظنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه ،

فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب ، ثم شكَّلا رأس حربتين إذ انقضّا على جيش الفرس من وراء ظهره ، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق ، ينتظر أن يظهر عليه بهمن جاذويه فينقذه . وأُسقط في يد الفرس ، وانتابهم الذعر ، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس ، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه ، ومضى الأندرزغر في هزيمته إلى مجاهل الصحراء فمات عطشًا .

وتعلّم الغرب من خالد .. فهذه معركة « واترلو » التي دارت في بلجيكا بين نابليون بونابرت ، وبين قائد جيوش الحلفاء « ولنجتون » الإنكليزي عام ١٨١٥ ، وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد « بلوخر » وجيشه ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنىٰ من النصر ، واستقال من منصبه ، ودخل الحلفاء باريس ، ولجأ نابليون إلى انجلترا ، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا ، بل عدّته أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة .

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة ، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات ، فقال : « ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب(١) ، وبالله لو لم يُلزمنا الجهادَ في الله والدعوة إلى الله عزّ وجلّ إلَّا المعاشُ ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونُولّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه ممَّن اثّاقل عمّا أنتم عليه »(٢).

معركة أُلَّيْس أو « نهر الدم » ؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس :

حَقَدَ نصارى العرب وهم من تغلب وبكر بن وائل على المسلمين بعدما أصابهم في الولجة ، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدّهم بجيش فارسي ؛

---

(١) أي كثير التراب .

(٢) تاريخ الطبري (٢ / ٥٥٩) ، وابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه ، وكان على العرب في أُلَّيْس عبد الأسود العجلي ، ووصل « جابان » على رأس جيش كثيفٍ من الفرس ، وتولّى جابان القيادة العامة ، وكان عبد الأسود قائد خليط نصارى العرب ، وهم من بكر بن وائل وبني عجل ، وتيم اللّات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية . وصل خالد بجيشه ، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء ، وقد وُضع الطعام الفاخر على البُسُط ، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب ، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا ، فلم يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم ، فقال لهم قائدهم جابان : « اتركوا الطعام ، واستعِدُّوا للصدام » . فلمّا عصوْه قال : « إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام ، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلًا منكم » . فعصوه ، وبسطوا البُسُط ، ووضعوا الأطعمة ، ودعا بعضهم إلى بعضٍ ، وتوافوا إلى البُسُط ، وزحف خالد والمسلمون ، فأجبروا الفرس على القيام عنه ، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه . ودعا خالد للبراز ونادى « أين أبجر بن عبد الأسود ، أين مالك بن قيس ؟ » . فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس ، فإنه خرج إلى خالد ، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتَقِرًا : « يا ابن الخبيثة ، ما جرَّأك ؟! لستَ لي عليّ من بينهم ، وليس فيك وقاء » . أي أنك لست لي بكُفْءٍ . ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال . ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق ؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالدٍ ؛ لقتله ابْنَي زعيميْهم في الولجة ، وصبر الفرس صبرًا شديدًا ، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً ، حتى شقَّ عليهم الأمر ، قال خالد : « ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس ، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس » . ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا

من دمائهم إنْ مَنَحَهُ الله النصر عليهم ، فقال : « اللهم إنّ لك عليّ إن منحتَنا أكتافهم ، ألَّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم » . وانتاب الفرس والنصارى الذعرُ والخوفُ عندما رأوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم ، وركنوا إلى الفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، ونادى منادي خالد حتى يفيَ بنذره : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلَّا مَنْ امتنع . فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام ، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر ، فوكَّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً ، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم ، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ : لو أنك قتلتَ أهل الأرض ، لم تُجْرِ دماءهم ، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ ، فيجري النهر دمًا لتبرّ بيمينك . فعمل خالد بمشورة القعقاع ، وأُعيد الماء إلى النهر ، فجرى أحمر قانيًا ، فسُمِّي لذلك : نهر الدم ، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة . قالوا : وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء ، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا - أو يزيدون - ثلاثة أيامٍ ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط ، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا ، أكثرهم من أهل « أمغيشيا » ، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق ، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات ، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ ، فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته ، ولا نظير له في عسكريته .

أَعَجَزَتِ النِّساءُ أن يُنشِّئن مِثْلَ خالدٍ :

قال الصِّدِّيق في خالد - وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس -: « يا معشر قريش ، عدا أسَدُكم على الأسدِ ، فَغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء

---

(١) أطايب اللحم المقطّع الوافر ، وخردل وخرذل بمعنى واحد .

أن يُنشّئن مثل خالد !! » .

« يوم أمغيشيا » نصَرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب :

كانت أمغيشيا أعظم وأهمّ من أُلَّيْس ، وكانت على بُعْد أربعين كيلو مترًا من أُلّيْس ، فتملّكهم الرعب ، وفرَّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد ، وتركوا وراءهم كل شيء قال ابن جرير : « لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس ، نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عمّا فيها ، وقد هرب أهلُها ، وتفرّقوا في السَّواد ، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها ، وكانت مِصْرًا كالحيرة . ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا ؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء » .

معركة المقر واستسلام الحيرة :

قدّر صاحب الحيرة ومَرْزُبانُها (أزاذيه) أن خالدًا لن يتركه ، وأنه سيركب إليه النهر ، فقدَّم ابنه ، وأمره أن يسدّ قناطر الفرات ، ويفتح للروافد التي تمدّه مسالك جديدة ، حتى يجفّ النهر وتتوقّف السفن عن الحركة . وكان خالد قد قسّم جيشه إلى قسمين ؛ القسم الأول : وهم المشاة تحملهم السفن مع المُؤَن . والقسم الثاني : وهم الفرسان وراكبوا الإبل . وسارت السفن شمالًا ، ولم يَفْجَأ المسلمين إلا السفن جوانح ، ولم تفُتّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون : أن الفرس قد فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة ، فباغتَ خيلَهُ وهم على فم العتيق – مَصَبّ الفرات الأصلي – وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة ، فاقتتلوا بموضع المقر – فم العتيق – حتى هزمهم بعد أن قتل ابن صاحب الحيرة ، وأعاد الماء يجري في النهر ، فعادت سفن المسلمين إلى المسير ، وقصد خالد الحيرة ، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها،بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها ، فعسكر خالد بين

« الغريين »[1] والقصر الأبيض ، وأجال خيله في عَرَصَاتهم ، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدّيرات ، وأكثروا القتل ، فنادى القسّيسون والرّهبانُ أهلَ الحصون : يا أهل القصور ، ما يقتلنا غيركم !! فنادى أهلُ القصور : يا معشر العرب ، قد قَبِلنا واحدةً من ثلاثٍ فكفُّوا عنّا . وفاوضوا خالدًا ، وأقروا بدفْع الجزية مائة وتسعين ألف درهم ، تُقبل كل سنة ، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولِيُّ اللهِ خالدٌ يشرب السُّمَّ فلا يضرُّه ، ويتعجَّب منه ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب :

عن قيس : أُتِي خالدٌ بِسُمٍّ فقال : ما هذا ؟ قال : سُمّ . فَشَرِبَهُ[2].

وفي أُمّهات كتب التاريخ : أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب ، ومعمّرهم وأرجح قومه عقلًا ، لمّا دخل على خالدٍ ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه ، فتناوله خالد وقال : ما في هذا الكيس ؟ ونشر ما فيه في راحته ، ثم قال : ما هذا يا عمرو ؟ فقال عمرو : هذا والله سُمُّ ساعةٍ . فقال خالد : وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ ؟- وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة - قال عمرو : خشيتُ أن تكون على غير ما رأيتُ من العَدْل ، وقد أتيتُ على أجلي[3] ، والموت أحبُّ إليَّ من مكروهٍ أُدخله على أهل قريتي . فأخذ خالد السُّمّ المذكور ، وتلا هذا الدعاء : « إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض والسماء ، الذي لا يضرّ مع اسمه داء ، الرحمٰن

---

(١) بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة .

(٢) صحيح . رواه أحمد في « فضائل الصحابة » ، والطبراني في الكبير .

(٣) وكان سِنُّه عند التفاوض ثلاثمائة وخمسون سنة .

الرحيم » . ثم وضع السم في فمه ، وبادروه ليمنعوه ، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه ، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا ، فمضت ولم يضرّ السم خالدًا ، كيف لا وهو من أكابر أولياء الله المتقين ، وسيد المجاهدين في الشام والعراق ، فقال عندها ابنُ بقيلة : « والله يا معشر العرب لتملكُنَّ ما أردتم » .

أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية :

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة ، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين ، خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين .

إعجاز عسكري : فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا :

لله دَرُّكَ يا خالد .. تمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال أربعين يومًا عام ١٢ هـ ، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول ، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش ، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات ... فَبُورِكَ زَنْدُكَ وبورك ساعدُك ، وبورك سيفك ورمحك ، وبورك جوادك ، وبوركتْ همَّتُك أعلى الهِمَم وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها .

معركة الأنبار وفَقْءُ ألفِ عَيْنٍ من الكفار :

سار خالد إلى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وكان من شجعان البادية ، فلمّا بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها ، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا ، وأشرفوا من حصونهم ، فأنشب خالدٌ القتال ، وكان قليل الصبر عنه ، وتقدَّم إلى رماته ، فأوصاهم قائلًا : « إني أرى أقوامًا لا علْم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ، لا توخّوا غيرها ، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تابِعُوا » . وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها ، ثم

تتابعَ الرَّمْيُ ، فأُصيب الرّماة من العدوّ الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ ، إذ فقأتْ سهام المسملين منهم ألفَ عينٍ ، ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار « ذات العيون » . واضطرب أهل الحصن وماجوا متصايحين : ذهبت عيون أهل الأنبار . وراسل مَرْزُبان الأنبار « شيرا زاد الفارسي » خالدًا بشروطه التي رفضها خالد ، وقرر خالد أن يردم الخندق ، ولكن بماذا ؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف ، ويقذفوا بها في نقط الخندق الضيِّقة حتى تطمرها ، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة ، ونجحت الحيلة ، واستقام الجسر اللحمي ، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار ، واستسلمت الأنبار لخالد .

خالد يختطف القائد العامَّ للنصارى من قلبِ صَفِّهِ في معركة عين التَّمْر ويأسره أوَّلَ المعركة :

كان على عين التمر « مهران الفارسي » في جمعٍ عظيم من العجم والعرب ، وكان على العرب عقَّة بن أبي عقة ، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم ، قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فَدَعْنَا وخالدًا » . قال : « صدقت ، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب » . وكانت قوات عقّة في العراء ، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد على تعبيةٍ ، فقال لمجنبتيْه : « اكفوني ما عنده فإني حاملٌ عليه » . ووكّل بنفسه حوامي ، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله ، ولكنْ بأخْذه أسيرًا ؛ كي يفهم ذلك المغرور أيّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون ، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم .

قد كان المتّبع في الحروب المبارزة ، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة ؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه . وانقضَّ خالد على عقّه كما ينقضُّ الصقر على فريسته ،

وعقّة مشغولٌ بتسوية صفوف جيشه ، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم ، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة !! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم ، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه ، ثم يحمله ويعود به حيًّا - كالبرق - أسيرًا إلى صفوف المسلمين . وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي ترى انتزاعَ خالدٍ لعقّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ ، ما كان أحدٌ يتوقّعه ، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه كأنه طفل رضيع ، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة ، واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه ، فلاذوا بالفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، وقد كثُر من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة ، وهرب الباقون ودخلوا حصن عين التمر ، ونجا القائد الفارسي مهران ، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة . وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا . وفتح خالد عين التمر بعد أن نزلوا على رأي خالد ، فقتل خالد مُقاتلتهم ، وبدأ بعقّة فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر ليكون عبرةً لغيره ، ثم أعدم نائبه ، وعمرو بن الصعق ، ثم نفّذ حكم الإعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه ممَّن تحصَّن بعين التمر ، وسَبَى النساء والذَّرارِي .

لله دَرُّكَ يا خالد .. « لا أَحَدَ أيْمَنُ طائرًا منك ، ولا يرى قومٌ وجه خالد - قلُّوا أو كثُروا - إلَّا انهزموا أمامه » . هذا قول ملك دومة الجندل أُكيدر ... والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

ولله دَرُّ فارسنا حين يبعث إلى عياض بن غنم : « من خالد إلى عياض ، إياك أريد » .

لَبِّثْ قليلًا تَأْتِكَ الحَلَائِبْ　　　يَحْمِلْنَ آسادًا عليها القاشبْ
كتائب تتبعُها كتائِبْ

خالد صاحب المفاجآت ومعاركه اللَّيْلِيَّة :

قد كان خالد من طرازٍ نادر ، فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك ، إلا أنه يمتاز أيضًا بسرعة التنفيذ وحُبّ المخاطر ، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليب مُفاجِئة للعدو ، ولا أضَرَّ على الجيوش - وإن كانت عظيمةً - من أن تتعرَّض للهجوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ وهي على غير استعداد . فمشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، كانوا ينفرون من القتال الليلي ، ويذهبون إلى عدم جدواه ، ويقرّر « فردريك الأكبر » أنه يستبعِد دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود ، نتيجة لتعذُّر الرؤية بين الضُّبّاط ورجالهم ، ويقرر « بلوفر » أنه يخشى العمليات الليلية .

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر . ولكنَّ خالدًا هو خالد .

معركة المصيّخ :

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة ، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على جنودهم ، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين ، فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل ، وقبل طلوع القمر وفي غَلَس الظلام ، قام خالد بتطويق المصيّخ على شكل دائرةٍ ، دون أن يشعر بوجودها أهل المصيّخ الذين كانوا نيامًا ، وَمَنْ ظلّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عرس حرقوص بن النعمان أحد زعمائهم . وقال لهم حرقوص : « اشربوا شراب وداعٍ ، فما أرى أن تشربوا بعدها ، هذا خالد في عين التمر ، وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جَمْعُنا وليس بتاركنا » . ولم يعلم

أن جيوش خالد قد طوّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر . ثم أنشد حرقوص :

أَلَا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظَّهْرِ ... بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدَّثْرِ

وَقَبْلَ منايانا المُصيبةِ بالقـدْرِ ... لِحِينٍ لَعَمْرِي لا يزيد ولا يحْرِي

ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرٍ ... لعلَّ منايانَا قريبٌ ولا ندري

أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ... ستطْرُقُكم عند الصباحِ على البشْرِ

فهل لكمو بالسير قَبْلَ قتالهمْ ... وقبل خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ

أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني ... أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال ، فعندما غمر القمر بنوره الأرض ، شَنَّ خالدٌ وقادته الهجوم الصاعق من جميع الجهات ، وكان حرقوص أوّل الذين قُتلوا ، فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران ، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها ، وقُتل جميع أبنائه ، وصحا النائمون من أهل المصيّخ على وقع السيوف ، وانهزم وقُتل الذين استعدّوا للقاء خالد ، وكانت غارة موفّقة ، وأُبيد أكثرُ أهل المصيّخ ، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل .

الثني والزميل :

وبعدها بأربع ليالٍ ، طَبَّق خالدٌ نفس خطته في المصيخ على الثني ، فأباد رجال الثني عن آخرهم وسبوا كلَّ النساء . وفعل بالزميل ما فعل بالثني والمصيّخ ، وقسم جيشه فرقًا ثلاثًا ، وأحاط بالزميل من جهاتها الثلاث ، وباغتهم عند بزوغ القمر ، وأوقع المسلمون فيهم السلاح ، فأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً لم يقتلوا مثلها ، ونجا مَنْ أفلت من الموت تاركين نساءهم وأطفالهم غنيمة للمسلمين .

* * *

خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشرة هجرية :

اتَّحد النقضيان الفرس والروم لقتال خالدٍ ، فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين ؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد ، واحتشد الجميع في جيشٍ لا يقلّ عدده عن مائة وخمسين ألفًا ، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في الفِراض بحدود الشام ، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا وقالوا لهم : « احتسِبُوا ملككم !! هذا رجل يقاتل عن دينٍ وعقلٍ وعلمٍ ، والله ليُنصرنّ ولتُخذَلُنَّ » . وخيّر الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم ، أو يخلّي عنهم فيعبروا هم الفرات ، فقال لهم : « بل اعبروا إلينا » . فطلبوا من خالد أن يتنحَّي عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحّى . فقال خالد : « لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفلُ منا ، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور » . ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبة حتى تكون الصحراء خلف ظهره ، وتصاعد لَهَبُ القتال ، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة ، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإسلامي ، ولحظ خالد ذلك ، فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم ، فصاح فيهم : « ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم » . فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا ، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوبٍ رائع في القتال ، إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفَاء بالرِّماح ، فإذا جمعوهم ، قتلوهم عن آخرهم ، ثم عمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة ، فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ ، فقتل المسلمون منهم يوم الفِراض - في المعركة وفي المُطاردة بعدها - مائة ألفٍ ، في روايات جميع المؤرِّخين . وكانت معركة الفراض خاتمة معارك خالد في العراق .. وما أحلاها من خاتمة .

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة :

لقينا بالفِراضِ جموعَ رومٍ ... وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا ... وبيَّتْنَا بِجَمْعِ بني رزامِ
فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى ... رأينا القومَ كالغَنَمِ السَّوَامِ

قال أهلُ التاريخ عن خالد : « كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً ، وكان خالدٌ إذا نزل ، نزل عذابًا من عذاب الله عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ » .

وأمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق ، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا ؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فَدَعِ العراق وخلّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه ، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق ، حتى تأتي الشام ، فتلقَى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام » . وعند الطبري : « أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشْجَوْا ، وإياك أن تعود لمثلها[1] ، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس - بعون الله - شجاك ، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك ، فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة ، فأَتْمِمْ يُتمم الله لك ولا يَدْخُلَنَّكَ عُجْبٌ فتخسر وتخذل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ فإن الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجزاء »[2].

خالد قمّة في الطاعة والانضباط العسكري :

لله دَرُّكَ يا خالد .. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك ، ويذيع صِيتُكَ بين أعداء الله الفُرس ويرهبون اسمك .. وبينك وبين المدائن التي تتوّج نصرك

---

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٨٤ .

قاب قوسين أو أدنى ، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْك العراق ، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه ، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم دسين العجلي : « أصلحك الله ، والله ما جعل الله في الشام من العراق خلفًا للعراق ، أكثر حنطةً وشعيرًا وديباجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا ، وأوْسَع سعةً وأعْرَض عرضًا ، والله ما الشام كلّه إلا كجانبٍ من العراق » . فرردت - لله دَرُّك - وما تُريد إلَّا عزَّ الإسلام : « إن بالشام أهل الشام ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرت ، فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَد ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها ، فإن نفرغ ممَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا ، عجلْنا لكم ، وإن أبطأتُ ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنوا ، وليس خليفة رسول الله ﷺ بتاركٍ إمدادكم بالرجال حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد ، إن شاء الله تعالى » .

حرب المفاجآت :

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس ، فنكاد نجزم بأخْذ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التّكتيكيّة فأربكتْ صفوفَ أعدائه ... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من كاظمة إلى الحفير ، إلى كاظمة مرة ثانية ، ثم مفاجآته لعدوه في كمين الولجة ، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف ، وفي مفاجأة « عقّة » في عين التمر باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا . فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا ، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوّه وكسبه في المصيّخ وفي الثني وفي الزميل ، في سرعةٍ وخفَّةٍ ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال . رضي الله عن خالد ، لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسُّد ، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة ، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة . « بارز خالد يوم « الولجة » رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ فقتله ، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا ....

بغدائه »[١].

ورضي الله عن عمرو بن العاص ، القائل في مدح خالد : « له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد »[٢].

وفي واقعنا المعاصر :

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر :

ينقل الدكتور عبد الله عزام في إحدى رسائله ، عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في ٦٧ وكان يهوديًّا ولا يعرفون .. وهو صاحب كتاب « وتحطَّمت الطائرات عند الفجر » وقد طُبع بأكثر من لغةٍ : « كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ، ليلة الخامس من يونيو ٦٧ ، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي ، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي ... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى ، واستمرَّت إلى قُبيل الفجر ، وعند الفجر كان ضرب المطارات لمَّا نام العصاة في وحلهم ، وبعد أن تمَّ له ما أراد ، هرب اليهوديُّ مع أَول طائرة » .

في الطريق إلى الشام : قطع البرية السماويَّة في خمس ليالٍ :

قال الذهبي عن خالد بن الوليد : « تأمَّر في أيام النبي ﷺ ، واحتبس أدراعه ولَأْمته في سبيل الله ، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة ، وغزا العراق ، واستظهر ، ثم اخترق البرية السماوية ، بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه ، وشهد حروب الشام ، ولم

---

(١) الطبري ٢ / ٥٦٠ .

(٢) اليعقوبي ٢ / ١٠٨ .

يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء »[١].

فعدَّ من مناقبه وأعماله قطْع البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في خمسِ ليالٍ .

أرسل خالد قبل قطْعه المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة ، وكان من قوله « ..... إن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرتُ وانكمشتُ[٢] ، وكأنّ خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحُسن ثوابه . عصمنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبَّتنا وإيَّاكم على الإسلام ، ورزقنا وإيّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم » . وكتب إلى أبي عبيدة : « بسم الله الرحمٰن الرحيم . لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو . أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتَّولِّي لأمرها ، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردتُه ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها ، لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمرٌ دونك ، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلُك ولا يُستغنى عن رأيك ، تمَّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » . فقال أبو عبيدة : « بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيًّا خالدًا بالسلام » .

سلك خالد أقصر طريق أمين ؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) أسرعت .

كبيرة فيه ، وهو طريق الحيرة - دومة الجندل - وادي سرحان - قراقر - وهناك استشار أصحابه قائلًا : « كيف لي بطريقٍ أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها ، حبستني من غياث المسلمين ؟! » . فأجابوه : لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذُّ الراكب ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين . فعزم عليهم ، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي ، على تهيُّبٍ شديد ، فقام خالد في أصحابه وقال : « لا يختلفنّ هَدْيُكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة ، والأجر على قدر الحِسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة الله له » . فكان رد أصحابه عليه : أنت رجلٌ قد جمع الله لك الخير ، فشأنك[1]. فقال خالدٌ لدليله رافع : « انطلق بالناس » . فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال ، والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء . فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء ، وأمر صاحب كل خيل أن يعدّ لها الماء بقدْر ما يسقيها ، وجمع عددًا من الإبل السِّمان ظمَّأها ، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[2] ، فلمَّا امتلأت صرَّ آذانها وشدَّ مشافرها لئلا تجترّ[3]. وانطلق خالد بالجيش ، ينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون ممَّا معهم من الماء ، ثم يشُقُّون بطون عشرة من الإبل ، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ ، حتى اليوم الخامس ، حيث أدركوا الرّيّ . لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ، ما عندك ؟ » . وكان رافع أرمد ، فأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم قال : أيها الناس ، انظروا علمين

---

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٦٠٣) ، والكامل لابن الأثير (٢ / ١٥٦) .
(٢) العَلَل : الشَّرْبَة الثانية ، والنَّهَل : الشربة الأولى .
(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٦٠٣ ، والكامل ٢ / ١٥٦ ، وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٤ .

كأنهما ثديان . فلمّا أتوهما ، وقف رافع عليهما وقال : انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : ما نراها . فأمرهم بالتفتيش عليها ، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها . فحفروا ، فنبع الماء من عينٍ ، فشرب الناس حتى رووا ، فقال رافع : والله ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرّةً واحدة مع أبي وأنا غِلام[1].

لله دَرّك يا خالد .. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي ، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيّب عنه الأدِلَّاء .. فللَّه بركتك .. ولله دَرّك من سيِّدٍ من ساداتِ أولياء هذه الأمة .

خالدٌ لها ، والله لأُنْسِيَنَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد :

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام ، وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة ، التي بلغت ربع مليون مقاتل ، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا ، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق : « وبعد ، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد أجمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة ، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك » . فقال الصِّدِّيق : « خالدٌ لها ، والله لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[2].

فتح تَدْمُر :

مرّ خالد في طريقه بتدمر ، فتحصَّنوا منه ، فأحاط بهم من كل جانبٍ ،

---

(١) أسد الغابة ٢ / ١٥٥ ، والاستيعاب ٢ / ٤٨٢ ، والطبري ٣ / ٦٠٣ - ٦٠٤ ، وابن الأثير ، ٢ / ١٥٦ .

(٢) الطبري ٢ / ٦٠٢ .

وأخذهم بكل مأخذ فلم يقدر عليهم ، فقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب ، لاسْتَنْزَلْنَاكُم ، ولَظَهَرْنَا عليكم ، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا ، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا ، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم » . ثم ارتحل عنهم فمضى ، واجتمع عظماؤهم ، فقال بعضهم لبعض : « لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم ، هم الذين كنّا نتحدّث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم وصالحوهم » . فبعثوا في إثر خالد ، فرجع إليهم ، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه .

أيّ عزٍّ عزُّك يا خالد !! ترحل ماضيًا عنهم ، فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك ؛ خوفًا منكِ ومن تهديدك .

فتح القريتين وحوارين :

وأتى خالد القريتين ، فقاتله أهلها فظفر بهم ، وغنم منهم . ثم مرَّ على حوارين فخافه أهلها وهابوه ، وتحرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا ، فأغار عليهم واستاق مواشيهم ، وقتل رجالهم ، وأقام عليها أيامًا ، فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان ، أحدهما من بَعْلَبَك ، والآخر من بُصرى ، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين ، فلمَّا رآهم خالدٌ ، صفَّ صفوفه ، ثم خرج في مائتين من الفرسان ، فحمل على مدد بعلبك ، فقصف بعضهم على بعض ، وأثخن فيهم قتلًا ، فما صمدوا ساعة حتى انهزموا ، وحمل على أهل بُصرى فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة ، وخرج أهل حوارين فرموا المسلمين بالنّشاب ، فحمل عليهم خالد ، وأعادهم إلى حوارين منهزمين ، ورجع عنهم ذلك اليوم . فلمَّا كان اليوم التالي ، خرج أهل حوارين ليقاتلوا المسلمين ، فهاجمهم خالد فهزمهم ، فلمَّا رأوْا أنهم لا طاقة لهم به ، صالحوه . قال علج من أهل حوارين – وكان من شجعانهم وأشدّائهم – : « والله لخرجنا إلى خالد بعدما

جاءنا مدد بعلبك وأهل بُصرى بيوم ، فخرجنا إليه ، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعفاهم ، فما هو إلَّا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأُسْد ، فهزمونا أقبح هزيمة ، وقتلونا أشدّ القتل ، فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم . وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل ، وكان يقول : لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه . فلمَّا رأى خالدًا قال له أصحابُه : هذا خالدٌ أمير القوم . فَحَمَلَ عليه العِلْجُ ، وإنّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالدٌ فرسه ، فقدمه عليه ، وكان خالد إذا كان عند الحرب ، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه ، فاستقبل العلجَ فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ ، فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه فقتله . وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم » .

مَرْج رَاهِط :

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسّان النصارى ، قد اجتمعوا بمرج راهط وعليهم الحارث بن الأيهم - أخو جبلة بن الأيهم - فانقضَّ عليهم خالد ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ، وسبى منهم يوم فحصتهم[1] ، ونزل بالمرج أيامًا ، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية ، فالتقيا ومضيا معًا بِجُنْدَيْهما إلى بُصرى .

فتح بُصْرَى :

جِزْية بصرى أوَّل جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق :

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد ....

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٠ ، وتاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٨ ، وفتوح البلدان للبلاذري ١٣٢ .

لبُصرى[١] : « كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام ، فأقبل حتى نزل بُصرى من أرض حوران وهي مدينتها ، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم ، فأقبل إلينا ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلّا أنَّا في أكُفِّهم ، فخرج خالد فصفَّنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور ، وعلى الرجال عبد الرحمـٰن بن حنبل الجُمحي ، وقسّم خيله ؛ فجعل على شطرها المسيّب بن نجبة ، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل ، فظننتُ أنه مذعور العجلي ، فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما ، أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال ، ثم ينصبَّا على القوم[٢] ، فانطلقا ففعلا ذلك . ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله ما نحن إلَّا ثمانمائة رجل وخمسون رجلًا ، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاعة ، فكُنّا ألف رجلٍ ومائتي رجل ونَيِّفًا ، وكنّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم ؛ لجُرأته عليهم وشدّته ونجدته . ثم دنونا منهم ، فبدءونا بالحملة علينا ، فشدُّوا علينا شدَّتَيْن ، فلم نبرح مواقفنا ، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عالٍ فقال : « يا أهل الإسلام ، الشدَّة الشدة ، احْمِلُوا - رحمكم الله - عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم مُحتسِبِين ، تريدون بذلك وجه الله ، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً » . ثم إن خالدًا شدّ عليهم وشددْنا معه ، فوالله الذي لا إلـٰه إلا هو ، ما ثبتوا لنا فُواقًا حتى انهزموا ، فقتلْنا منهم في المعركة مقتلةً عظيمة ، ثم أتْبَعنَاهم نَكْرُدُهم[٣] ونقتلهم ، ونُصيب الطرف منهم ونقطعهم عن أصحابهم

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد .

(٢) مِثْل كَمِينَي الوجلة .

(٣) أي نطردهم .

ثم نقتلهم ، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بُصرى ، فأغلقوا أبوابها وتحصَّنُوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا ؛ أهلُ بصرى ، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون ، وسألونا الصلح فصالحناهم » . وكانت جزية بُصرى أوَّل جزية بالشام في عهد أبي بكر .

ولمّا جاءت الأنباءُ هرقل ، قال لجلسائه : « ألم أقُل لكم : لا تُقاتلوهم ؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم ؟!! إن دينهم جديد يجدِّد لهم ثِبارهم[١] ، فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى » . فقالوا : « قاتل عن دينك ولا تُجبِّن الناس واقضِ الذي عليك » . قال : « وأيّ شيءٍ أطلب إلّا توفير دينكم » .

أجنادين ... يَوْمٌ من أيّامِ خالد :

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين ، وأن نَصَارىٰ العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه . وقام خالد في جيشه خطيبًا ، وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ : « أما بعد ، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين ، وأنهم استعانوا بأناسٍ - وَهُمْ قليل - من أهل البلد ، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا . واللهُ - إن شاء الله - جاعلُ الدَّبَرة عليهم وقاتلهُمْ كلّ مقتلة ، فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان ، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين مِن البلقاء ، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين » . وكتب إلى « شرحبيل » وسائر الأمراء :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد ، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ،

---

(١) مواظبتهم عليه .

ولا قوة ، واللهُ قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم . وقد شخصتُ إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رحمكم الله - في أحسن عدَّتكم وأصحّ نيّتكم ، ضاعفَ الله لكم أجوركم وحطّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وصلت جيوش المسلمين وتوافت جموعهم في أجنادين ، وجاء « وردان » بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين ، وانضمّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم ، حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مائةِ ألفٍ ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا ، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرى ، هي الأولى في حجمها في حرْب الشام ؛ يقول ابن إسحاق : « لمّا تدانى العسكرانِ بعث « القُبُقْلار » رجلًا عربيًا من قضاعة ، يقال له : « ابن هزارف » ، فقال : ادخل في هؤلاء القوم ، فأقمْ فيهم يومًا وليلةً ثم ائْتني بخبرهم . فدخل في الناس .. رجل عربي لا يُنكر ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه ، فقال له : ما وراءَك ؟ قال : بالليل رهبانٌ وبالنهار فرسانٌ ، ولو سَرَق ابن ملكِهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجم ، لإقامة الحقّ فيهم » . فقال له القبقلار : لئن كنتَ صدقتني لَبطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها ، ولَوَددتُ أنّ حظي من اللهِ أن يُخلّي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

خرج خالد فصفَّ قواته ، فجعل أبا عبيدة على المشاة ، وجعل معاذ ابن جبل على الميمنة ، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة ، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل ، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين ، لا يستقرّ في مكانٍ واحد ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم ، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستغثْنه ، وكلما مرّ بهنّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن ، وقُلن له : قاتلوا دون

أولادكم ونسائكم . كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنّ . وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة ويقول : اتقوا الله عباد الله ، قاتلوا في الله مَنْ كفر بالله ، ولا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تهنوا من عدوكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ ، فقد أبيْتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ، ولا يَهُولنَّكم ما ترون مِن كثرتهم ؛ فإن الله مُنزِلٌ عليهم رجزَه وعقابَه ، ثم قال : أيها الناس ، إذا أنا حملتُ فاحملوا . وكان خالد أولَ مَن حمل على صفوف الروم ، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين ، وقال لهم : احملوا - رحمكم الله - على اسم الله . وحمل خالد على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفّ ، فقد سئموا الوقوف ، وكانت معنوياتهم مرتفعةً ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرَّتَيْن ... ثم صبروا لرشْق نبالهم ، والآن صَدَرَ الأمرُ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت ، فما صبر الروم له فُواقًا - على حدِّ تعبير الرواة - وانهزموا هزيمةً شديدةً ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وأصابوا معسكرهم وما حوَىٰ .

وعند ابن إسحاق : « لما رأى القبْقلار - قائد الروم - ما رأى مِن قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثوبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه ! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا . فاحتزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لملفَّفٌ » ، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى « هِرقل » فنُخب قلبُه وأُسْقِطَ في يده ، ومُلِئ رُعْبًا .

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف ، وفرّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو « إيلياء » و« قيسارية » و« دمشق » و« حِمْص » ، وتبعهم المسلمون يطاردونهم ، فيقتلون منهم ويأسرون . وكتب خالد إلى

أبي بكر رضي الله عنه :

« لِعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ مِن خالدٍ بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، أمَّا بعد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إلٰه إلا هو . أما بعد : فإني أخبرك أيها الصديق أنّا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعًا جمّة كثيرةً بأجنادين ، وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكِّلين على الله ، فطاعنَّاهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف ، فقارعناهم في كلّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ ، فأحمد الله على إعزاز دينه ، وإذلال عدوِّه ، وحسْن الصنع لأوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فلما قرأ الرسالة فَرِحَ بها وأعجبتْه ، وقال : « الحمد لله الذي نصر المسلمين ، وأقرّ عيني بذلك » .

مـرج الصفـر :

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[1] ، كانوا من أهل القوّة والشدّة ، ليُغيث حامية دمشق ، وانضمّ إليهم عدد كبير من حامية حمص ، فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في مرج الصفر جنوب دمشق ، وصفّ خالدٌ جيشه ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم ابن عتبة ، وعلى الفرسان سعيد بن زيد ، وعلى المشاة أبا عبيدة ، ثم سار خالد فوقف في أوَّل الصف ، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم ، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره ، فبادره الروم بالهجوم . وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله ، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم ، فحملتِ الروم تجاهه بثقلهم ، فصمد لهم سعيدٌ ونازلهم في فرسانه ،

---

(١) رتبة لقائد ، وليست اسم شخص .

وتحرَّكتْ صفوف المسلمين ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة ، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة(١) .

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم ، وقتلوا منهم كثيرًا وتبددت فلولهم شراذم ، فمنهم من دخل دمشق مع أهلها ، ومنهم من رجع إلى حمص ، ومنهم من لحق بهرقل ، ومنهم من فرّ إلى بيت القدس . وقتل من الروم خمسمائة في المعركة ، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمسمائة آخرين .

وفاة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وَعَزْل عمر لخالد من قيادة الجيش :

توفي الصديق رضي الله عنه ، وتولّى عمر الخلافة ، فعزل خالدًا أثناء حصار المسلمين لدمشق ، وهو الحصار الذي لم يتمّ فتح دمشق فيه .

وعند الطبري (٢ / ٥٩٥) ، وابن الأثير (٢ / ٨٥) : أنّ عَزْل خالد كان أثناء معركة اليرموك .

خالد في معركة فحل بيسان حديث ومَثَل لمن حضره :

كانت هذه المعركة من المعارك الهامّة ضِمْن فتح الشام ، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا ، هم جُنّة الروم وجيش الدفاع ، وإليهم ينظرون ، والشام بعدهم سلم ، وكان القائد سَقِلّار بن مخراق أو « سكلاريوس » . وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المُشاة سعيد بن زيد بن عمرو ، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خالد بن الوليد . تقدَّم خالد بالخيل ، فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة ، وكان قيس بن هبيرة من أشدّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرةً لهم ، فقال له خالد أن يخرج إليهم ، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه ،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ ، وابن عساكر ١ / ٤٨٢ .

فقاتلهم قتالًا شديدًا . ثم خرجت خيل أُخرىٰ عظيمة للروم ، فقال خالد : اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق . فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وحمل عليهم وحملوا عليه ، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرىٰ من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين ، يقودهم بِطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم ، فقسَّم فرسانه قسمين ، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه ، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح ، ثم أمر البطريق الثاني ، فحملوا أيضًا على خالدٍ ، فصمد لهم ، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا ، تراجعوا وانصرفوا ، فقال خالد لفرسانه : « إنه لم يبق من جدّ القوم ولا حدّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم ، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتّبعوهم ولا تغفلوا عنهم ، رحمكم الله »[١]. وحمل خالد بمن معه ، فاكتسح مَنْ أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم فهزمهم ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم ، ويقصفون بعضهم على بعض ، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم . وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر . وفي اليوم التالي ، قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ، ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين ، فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره ، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يُخالطهم ، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم ويهزمهم ، ويُكثر القتل فيهم ، قَتَل في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم ، وأشدَّائهم وأهل الشجاعة منهم ، وكان يقول :

أَضْـرِبُهُمْ بصـارِمٍ مُهَنَّـدِ ضَرْبَ صَلِيبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِنِ القولِ ولا مُفَنَّدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشـدّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ ، وقد طوىٰ

---

(١) تاريخ فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي ص٩٦ .

المسلمون جناحَيْ جيش الروم ، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل ، وانهزم الروم وهم حيارىٰ ، وقد قُتل في هذه المعركة قائدهم « سقلار » والذي يليه « نسطورس » ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ ، وذهب البلاذري إلى أن قتلىٰ الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف .

قَتْلُ خالدٍ للبِطْرِيقِ الرُّومي توذرا :

بعث هرقل بطريقًا يُدعىٰ « توذرا » حتى نزل بمرج دمشق وغربها ، وكان خالد تجاهه ، وباتوا ليلتهم ، فلمّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[1] من توذرا ، وعلم خالد أنه قد رحل نحو دمشق ، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان . وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق ، فبلغه مسير توذرا إليه فاستقبله ، فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون ، فأخذهم مِن خلفهم ؛ بين قوّاته وقوات يزيد ، وقُتل الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقتل خالدٌ توذرا ، فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم ، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول :

نحـنُ قتلْنـا تَوْذرًا وشَـوْذَرا   وقَبْلهمـا قـد قتلْنا حَيْـدَرَا
نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

فتح دمشق : خالد لا ينام ولا يُنيم :

حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر ، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حوت عَنْوَةً . نزل أبو عبيدة على باب الجابية غربي المدينة ، ونزل يزيد على الباب الصغير ، إلى باب كيسان ،

---

(١) يعني خاوية .

أمّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبر وأهم هذه الأبواب جميعًا . وطال الحصار على أهل دمشق وازداد التوتر بينهم ، فبعث بطريق الروم رجُليْن يندسّان بين المسلمين ؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم ويريا أحوالهم ، وكان رجلان من غسّان دخلا دمشق يتسوّقان منها قبل حصارها ، فبعث إليهما البطريق ، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين ليأتيه بخبرهم ثم رجع ، وقيل : كانوا عيونًا فسألهم عمّا رأوا ، فقالوا : أمّا الليل فطولُ قيامٍ ، وأمّا النهار فالخير الظّاهِر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلًا أو كبّة شعرٍ أو غزلًا ، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم ، فإذا قال صاحب المقسم : ما هذا ؟ قالوا : لا نستحلّه إلّا بحِلِّه . فلمّا سمع بطريق الروم ذلك قال : ما لنا بهؤلاء طاقةٌ ، ولا لنا في قتالهم خير .

كان أبو عبيدة أَحَبَّ إلى الروم من خالد ، وكان خالدٌ أَفَظَّهما وأَغْلَظَهما عليهم ، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهما وأَقْرَبَهما استماعًا إليهم ، فكان أحبّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة . حصر المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا ، وأهلها معتصمون بأسوارها يرجون الغياث ، وهرقل بحمص . وولد لبطريق الروم « نسطاس بن نسطورس » مولودٌ ، فاحتفل بذلك ، وأَوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة ، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلّا ما كان من خالد ؛ فإنه كان لا يغمض له جفن ، « ولا ينام ولا يُنيم ، ولا يبيت إلّا على تَعْبِيَةٍ ، ولا يخفى عليه من أمر عدوّه شيءٌ ، عيونه ذكيّة ، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم »[1] . وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢٦ .

والأبواب مغلقةٌ . وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة[١] - فلمّا أمسى من ذلك اليوم ؛ الأحد الخامس عشر من شهر رجب ١٤ هـ ، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال ، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي جاء به من العراق ، واقترب بهم من السور ، ثم تقدم هو والقعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي العجلي وأمثالهم من أبطاله الأشدّاء ، وكانت تعليماته لسائر قوّاته : « إذا سمعتم تكبيرنا فارقَوْا[٢] إلينا ، وانهدوا للباب » . وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَب المنفوخة بالهواء ، حملوها على ظهورهم ، وعبروا بها خندقهم سباحةً ، وقذفوا بأوهاق الحبال ، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه ، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور ، ومعهما باقي السلالم الحبال ، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور ، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحْصَنَ موقعٍ بدمشق كلها ، أكثره ماءً ، وأعْرَضه خندقًا ، وأشدَّه مدخلًا ، فلم يبق من قوّته كلها أحد إلا تسلَّق السلالم أو اقترب من الباب ، حتى إذا استقرّوا بأعلى السور ، حَدَر أكثرهم داخله ، وانحدر معهم خالد ، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر ، هذا وحامية دمشق في سُكرها ، مشغولة بالطعامِ والشراب والاحتفال بالمولود ، لا يشعرون بشيءٍ ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّروا ، وانقضَّ من كان ما زال خارجًا على الباب ، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال ، يتسلقونها من الخارج ويهبطون إلى الداخل ، وهاجم خالد بسرعة أوّلَ قوة وجدها ففرغ منها ، وانصبّ إلى الباب فقتل حُرّاسه - وكانوا رجلًا أو رجلَيْن - وثار أهل المدينة ، وفزع الناس ،

---

(١) حلقة .

(٢) أي اصعدوا .

وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه ، ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، واستغلّ خالدٌ أثر المفاجأة ، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه ، فتدفَّقتْ قوّاته من خلاله ، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب ، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع ، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوّة في ذلك القطاع ، إلَّا فرغ منها خالد ، وذلك مع طلوع الشمس . وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب ، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوّاد المسلمين ، وفوجئ هؤلاء القُوّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم ، في حين كان خالد يدخل غازيًا ، يعمل السيف في جنود الروم ، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا ، فينقذ الصلح الموقف ، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم . وصارت دمشق صلحًا كلها ، وفُتحت أبواب المدينة ، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عَنْوَة ، واستولى على ألف مترٍ طُولًا منها بالقتال ، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها ؛ وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة ٥٠٠ - ٥٦٠ مترًا ، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية .

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل .. لا ينام ولا يُنيم .. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار .. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم .

اليرموك .. خالد يشرب من دم الروم :

أرسل هراكليوس « هرقل » إلى بيزنطة عاصمة دولته ، وإلى من كان على دينه من جنوده ، ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية ، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحلم من أهل امبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني ، في تجنيد إجباري ، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية

الرومانية الغربية ، وهي لم تكن تحت سلطانه ، في أكبر محاولةٍ له ، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته لدفْع خطر المسلمين الداهم . يقول الرواة : فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض . وكان عدد الروم مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم وهو « باهان » ، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦,٠٠٠) ، منهم ألف رجل من الصحابة ، فيهم مائة بدري . وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى اليرموك ، فقال : « يا معشر الروم ، إن العرب قد ظهروا على سورية ، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم ، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرّ والشعير والذهب والفضة ، حتى يَسْبُوا الأخوات والأُمّهات والبنات والأزواج ، ويتّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا ، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم » . ثم سيّرهم إلى المسلمين . وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن « الروم قد توجّهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطُّ كانت قبلنا » . وقال أيضًا في كتاب آخر : « إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا ، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح ، إلَّا جاشوا به علينا ، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحوٌ من أربعمائة ألف رجل ، قد جاء المسلمين ما لا قِبَل لهم به ، إلَّا أن يُمدَّهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَلِه ، والسلام عليك » . وأرسل عمر إليهم : « يا أهل الإسلام اصدقُوا اللقاء ، وشدّوا عليهم شدّ اللُّيُوث ، واضربوا هامتهم بالسيوف ، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ ، فإنا قد كُنّا علمْنا أنكم عليهم منصورون » .

البطل يُؤمِّر نفْسَه :

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية ، قال خالد : « أرى

والله إن كُنّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منّا وأقوى ، وما لنا بهم إذن طاقة . وإن كُنّا نُقاتلهم بالله ولله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا ، أنهم تُغني عنهم شيئًا » . ثم غضب وقال لأبي عُبيدة : أتُطيعني أنت فيما آمرك به ؟ قال له أبو عبيدة : نعم . قال خالد : « فولِّني ما وراء بابك ، وخَلِّني والقوم ، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم » . قال : قد فعلت . وهكذا تولّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم اليرموك . وجمع باهان جنده وقال لهم : « أنتم عدد الحصى والثّرى والذّرّ ، فلا يهولنّكم أَمْرُ هَؤلاءِ القوم ؛ فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجلّهم حاسِر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك ، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوّة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم » . وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان] : « إنّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلُمّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها » . فقال خالد : « إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنّا قومٌ نشرب الدِّماء ، وأنه بَلَغَنَا أنه لا دم أطْيَب من دم الروم ، فجئنا لذلك » . فقال أصحاب ماهان : هذا والله ما كُنّا نتحدّث به عن العرب[1] .

الله الله يا خالد .. عِزُّ الإسلام يتكلَّم .. لله دَرُّكَ ، كم خلَّدت هذه الكلمة : « أنّا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك » .

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩ - ١٠ .

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة ، قبل معركة القادسية :
« كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السنة ، استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم ، فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم بظلالنا ، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم ، وإنَّا ومثلكم مثلُ رجلٍ كان له حائط من عنب ، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا فقال : ما ثعلب واحد . فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط . فلمّا اجتمعن فيه ، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه ، ثم قتلهن جميعًا . وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم ، فارجعوا عنّا عامكم هذا ، فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ، ونحن نوقر[1] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا ، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين ، وتنصرفون عنّا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم ، فارجعوا عنّا ، عافاكم الله » .
فقال له المغيرة فيما قال : « فكان مما رزقنا الله على يديه[2] حبة تنبت في أرضكم هذه ، فلمّا أذقناها عيالنا قالوا : لا صبر لنا عنها ، فجئنا لنُطعمهم أو نموت » .

هكذا يُرَدّ على الصَّلَف بعز الإسلام،لله دَرُّ المغيرة :

حيَّةٌ في الوجَار أرْبَد لا يَنْفَعُ   منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقي

لما جاءت جموع الروم كالسَّيْل والليل ، وهم يجرُّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعاتٍ ، ومعهم صُلُبُهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة . وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العرب من قبل ، إذ نظم

---

(١) الوقر : الحمل الثقيل .
(٢) أي رسول الله ﷺ .

جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا[1] إلى الأربعين ، وقال : « إن عدوّكم قد كثُر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس » . ثم جعل للقلب كراديس ، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان على الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة قبّاث بن أَشْيَم ، وعلى الرَّجَّالة : هاشم بن عتبة ، وكان خالد على الخيل . وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد : « أما والله إن أطعتموه ، لتطيعُنّ مباركَ الأمرِ ، ميمون النقيبة ، عظيم الغناء ، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة » . وقال معاذ عن خالد : « أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدّته عليهم وجهاده إياهم ، مع حُسن بصيرته وحسن نِيَّتِهِ وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا » . وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم ، والقاصّ الذي يتولّى تحميس المسلمين أبا سفيان ، وعلى الأقباض – وهي الغنائم – عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ؛ قرأ على الناس الأنفال . وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية ويقول : « يا أهل الإسلام ، إن الصبر عِزّ ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تُنصرون ، فإن الصابرين هم الأعْلَوْنَ ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطِل الضعيف ، وإن المُحِقّ لا يفشل ، يعلم أن الله معه ، وأنه عن حرم الله يَذُبّ وعنه يقاتل ، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين » . وجمع خالد فرسان المسلمين ، فقسمها أربع فِرَقٍ ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي ، وكان يساعده ويوافقه ، ويشبهه في جلده وشدّته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ، فقال له

---

(١) الكردوس : مفرد كراديس ؛ وهو كتلة من الجنود يتألَّف من ألف مقاتل . وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية ، العريف يقود عشرة رجال ، وآمر الأعشار يقود مائة رجل ، ولكل كردوس قائد له راية .

خالد : « أنت فارس العرب ، وقلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي ، فاخرج معي في هذ الخيل » . وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل ، وجعل كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين . وجندل قيس بطريقًا من بطارقتهم ، فصاح خالد : « ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احمل عليهم يا قيس ، احملوا عليهم ، فوالله لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب » . فحمل المسلمون عليهم ، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال ، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف ، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ ، فقال للمسلمين : « قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة ، فاثبتوا لهم ساعةً ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم » . وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه جرجة ، فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين .

« يا خالد ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه ؟! » :

كلمات عطرة تحفر مِن نور في التاريخ قالها جرجة عند إسلامه لخالد : « يا خالد ، اصدُقني ولا تكذبني ؛ فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تُخادعني ؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه ، فلا تسلُّه على قومٍ إلَّا هزمتهم ؟ » . قال : « لا » . قال : « فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول ؟ » . فقال له خالد فيما قال : « إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا منه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين » ودعا لي بالنصر ، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين » . قال : ....

« صدقتَني »[١]. ثم أسلم جرجة . وخرج باهان في جيشه وعلى ميسرته الدرنجار ، وزخف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا ، قد رفعوا الصُّلبان . فقال رجل : ما أَكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين[٢]. فقال خالد : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال . أبالروم تُخوِّفني ! والله لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيه[٣] وأنهم - يعني الروم - أضعفوا في العدد » . وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له : « إن هؤلاء قد أقبلوا بعددٍ وجِدٍّ وحَدٍّ وزجل ، وإن لهم شدة لا يردّها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدّة خيلهم ورجالهم أبدًا ، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي ، فأكون في إحدى الخيلَيْن وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حملوا على الناس ؛ فإن ثبت المسلمون ، فالله ثبَّتهم وثبّت أقدامهم ، وإن كانت الأُخرى ، حملْنا عليهم بخيولنا وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم ، وقد انتهت شدّة خيلهم وقوتها ، وتفرَّقتْ جماعتُهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرًا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يُظفرنا الله بهم ، ويجعل دائرة السوء عليهم ، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا ، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنةٍ ، في مائتين أو ثلاثمائة ، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين » . وقبل منه أبو عبيدة وقال له : « افعل ما أراك الله ، وأنا فاعلٌ ما أردتَ » .

رضي الله عن خالدٍ ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَل في صفوف عدوه ، فيهجم .

---

(١) الطبري ٣ / ٣٩٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١ / ٥٤٧ .
(٢) الطبري ٣ / ٣٩٧ وابن عساكر ١ / ٥٥٠ .
(٣) الأشقر هو فرس خالد ، والتَّوَجِّي أن يشتكي الفرس بطن حافره .

عندما اشتدّ هجوم الروم ، نادى خالد : « يا أهل الإسلام ، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلَّا ما قد رأيتم ، فالشدّة الشدّة ، فوالذي نفسي بيده ليعطينّكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم » . كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن ، في حين كان قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر ، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم ، زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف ، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألفٍ ، فحمل عليهم ، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ ، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمعهم ذلك . قال عبد الأعلى بن سراقة : « وشددْنا على من يلينا من رجّالتهم فانكشفوا ، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا ، ما يمتنعون من قبل ميمنتنا بميسرتهم » . ذهل درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره ، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم ، وقتلتْ منهم ستة آلاف (٦,٠٠٠) في رواية ، أو عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) في رواية أُخرى ، وارتدّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى ، ما يمتنعون من القتل . وقال الدرنجار لأصحابه : « لفّوني بالثياب ، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم » . فلفّوه في الثياب وهو يقول : « لوددتُ أن الله عافاني من حرب هؤلاء ، ولم أرهم ولم يروني ، ولم أنصر عليهم ولم يُنصروا عليَّ ، وهذا يوم سوء » . وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتل . وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا ، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب ، وكان صوت أبي سفيان يكاد يملأ المعسكر : « يا نصر الله اقترب ، الثبات يا معشر المسلمين » . وتراجع الروم ، ودفعهم خالد إلى الواقوصة[1] ، والواقوصة أحد حدوده

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك .

لِهْب[1] لاج في الأرض ، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم ، فتهافت في الواقوصة مائة وعشرون ألفًا (١٢٠,٠٠٠) منهم ثمانون ألفًا (٨٠,٠٠٠) مقترنون بالسلاسل ، وأربعون ألفًا (٤٠,٠٠٠) مطلقون ، سوى من قُتل بالمعركة من الخيل والرجال ، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب « الواقوصة » ؛ لأنهم وُقِصوا فيها ، وأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم ، وقُتل صناديد الروم ورؤساؤهم ، وقُتل أخٌ لهرقل اسمه « تيودورس » . فلما أصبح خالد ، خرج في الخيل يتعقّب الفلول الهاربة ، ويقتلهم في كل وادٍ وفي كل شِعْب ، وفي كل جبلٍ وفي كل ناحية ، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهىٰ إلى دمشق ، ثم انطلق في آثار الروم ، ومضى يتعقّب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب ، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق ، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول ، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص .

وانتهت قصة الروم في أرض الشام ، أتوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا ، ما قُوتل المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبل وسهل .

قِنَّسْرِين وكلمات خالدٍ الخالدة : « لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا » :

بعث أبو عبيدة - رضي الله عنه - خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية - فلمّا نزل خالد بالحاضر قاتلوه ،

---

(١) هاوية .

وزحف إليه الروم بقيادة « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فقُتل ميناس ، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا ، لم يبق منهم أحد ، ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم ، فتحصّنوا منه ، فقال لهم خالد : « لو كنتم في السحاب ، لَحَمَلَنَا اللهُ إليكم ، أو لَأَنْزَلَكُم إلينا » . فنظروا في أمرهم ، وذكروا ما لقي أهل خمص ، فطلبوا صُلْحًا مثل صلح حمص . يقول البلاذري : إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص ، وتقول رواية سيف : إن خالد بن الوليد أبىٰ إلّا أن يُخَرِّب المدينة ، فأَخْرَبَهَا .

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقِنَّسْرِين فقال قولته العظيمة : « أمَّر خالدٌ نَفْسَهُ ، يرحم الله أبا بكرٍ ، هو كان أعلم بالرجال مني ، إني لم أعزله عن ريبة ، ولكنّ الناس عظّموه ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليه »[1].

خالد المطيع لقائده :

كان خالد مضيافًا كريمًا ، قصده الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف ، فسمع بذلك عمر ، فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد ، فجمع أبو عبيدة الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام صاحب البريد ، فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث ، فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا ، فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال : « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ». ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته ، وقال : « من أين أجزتَ الأشعث ؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا ؟ » . فقال : « بل من مالي » . فأطلقه ، وأعاد قلنسوته ، ثم عمَّمَهُ بيده وقال : « نسمع ونُطيع لولاتنا ، ونُفخِّم ونخدم ....

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠١ .

موالينا »[١]. ولمّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله قال خالد : « ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين »[٢].

ولله دَرُّه حين عُزل وهو في المعركة ، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا ، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا ، أو قائدًا مرؤوسًا أو رجلًا من المسلمين . هذه والله العظمة الإنسانية في أبهىٰ مشاهدها ، خالد يستلّ النصر من بين أنياب الروم ، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم ، وسيف الله المسلول على قوىٰ التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة !! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال . يقول الأستاذ خالد محمد خالد في « رجال حول الرسول » (٣٢٥) : « ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصِدقه الوثيق مثل هذا الموقف » .

خـالد القـائد :

لقد رفع خالد معنويّات المسلمين ، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس ، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذّروة ، فكان خالد قائد القادة ومطمح الأنظار ومعقل الآمال ، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا .

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدّه وجهاده .. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات .. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ ، لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ .. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب ، بل يمثل مجدًا وفكرة ، مجد عبقرية العرب في القيادة ، وفكرة الفتح

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٢ ، والإصابة ١ / ٥٠ ، وأسد الغابة ١ / ٩٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٢٥ .

الإسلامي ، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب ، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ .

خالد يحتبس أدراعه وأعتُدَهُ في سبيل الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة . فقيل : منع ابنُ جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « ما ينقم ابنُ جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله ، وأمّا خالد فإنكم تظلمون خالدًا ، قد احتبس أدراعه وأعْتُدَهُ في سبيل الله ، وأمّا العباس ابن عبد المطلب فَعَمُّ رسول الله ﷺ فهي عليه صدقة ومثلُها معها »[1].

عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه ، أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها . فلم يجدوها ، ثم وُجِدَتْ فإذا هي قلنسوة خَلَقَة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ ، فحلق رأسه ، فابتدر الناس شعره ، فسَبَقتهُم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلّا رُزِقتُ النصر[2].

وعن مولى لآل خالد بن الوليد ، أن خالدًا قال : ما من ليلةٍ يُهدى إليَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ ، أحبّ إليَّ من ليلةٍ شديدة البرد ، كثيرة الجليد ، في سريةٍ أُصبِّح فيها العدو[3].

وفي رواية : ما من ليلة يُهدىٰ إليَّ فيها عروس أنا لها مُحِبّ ، أو أُبشَّر فيها بغلامٍ ، أحبّ إليَّ من ليلةٍ شديدة الجليد ، في سريةٍ من المهاجرين ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الحاكم ، والطبراني وأبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح . وقال البوصيري : رواه أبو يعلى بسند صحيح .

(٣) أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

أُصبِّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد .

وقال رضي الله عنه : ما أدري من أي يوميَّ أفِرُّ : يوم أراد الله أن يهدي لي فيه شهادة ، أو يوم أراد الله أن يُهدي لي فيه كرامة .

وقال قيس بن أبي حازم : سمعت خالدًا يقول : منعني الجهاد كثيرًا من القراءة ، ورأيتُه أُتي بسُمٍّ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سم . قال : باسم الله . وشربه .

قال الحافظ الذهبي : هذه والله الكرامة ، وهذه الشجاعة(١) .

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ ... مِ إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ قال : لقد طلبتُ القتل مظانّه ، فلم يُقَدَّر لي إلَّا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس ، والسماء تهلّني ، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار . ثم قال : إذا متُّ ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عدّة في سبيل الله ، فلمَّا تُوفي ، خرج عمر على جنازته فذكر قوله : ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن ، ما لم يكن نقعًا ولا لقلقة(٢) .

وفي رواية : وما عليهن أن يبكين أبا سليمان .

وقال عمر لخالد في حياته : يا خالد ، والله إنك لكريم عليَّ ، وإنك لحبيبٌ إليَّ . وبعد موته قال عمر : قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق . وقال فيه أيضًا : كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة .

---

(١) السير ١ / ٣٧٦ .

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ونسبه إلى ابن المبارك في الجهاد ، وإسناده حسن . والنقع : التراب على الرؤوس ، واللقلقة : الصراخ .

وعن أبي العجماء السلسي قال : قيل لعمر : لو عهدتَ يا أمير المؤمنين . قال : لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولَّيْتُه ثم قدمتُ على ربي ، فقال لي : لِمَ استخلفْتَهُ ؟ لقلتُ : سمعتُ عبدك وخليلك يقول : « لكل أُمَّةٍ أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة » . ولو أدركت خالدًا ثم ولّيته فقدمتُ على ربي ، لقلتُ : سمعت عبدك وخليلك يقول : « خالدٌ سيف من سيوف الله ، سلَّه الله على المشركين »[(١)].

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ في الثّناء على خالد من عمر وكَفَىٰ .

« لقد خُلق خالد ليكون قائدًا ، فعاش قائدًا ومات قائدًا ، فغاب جسده ، ولكن بقي حيًّا في النفوس ، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقىٰ معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام ، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان »[(٢)].

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ
أجَوَادٌ فأنت أجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غَامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى ، وقال : لقيتُ كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم ، وها أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعْيُنُ الجبناء .

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا ، حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسِنَّة ، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة .

---

(١) رواه الشاشي في مسنده ، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء ، فإنه مختلف فيه ، وثقه ابن معين والدارقطني وابن حبان ، وقال البخاري : في حديثه نظر .
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٢٣١ .

لكأني بفرسك جاءتْ ، لها صهيلٌ يصدح .. يقودُها عبيرُك وأرِيجك ، هذه التي وَقَفْتَهَا في سَبيل الله .. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا .

« هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد ؟! وهل ستُذَلِّل ظهرَهَا لأحدٍ سواه ؟! إيه يا بطل كلِّ نَصْر .. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْل .. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » حتى ذهبت عنك مَثَلًا ... وها أنت ذا قد أتممتَ مسراك .. فلصباحك الحمد ، ولذكراك المجد ، والعطر ، والخلد ، يا خالد »[1] .

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويا لعذابِ الخيلِ إذْ تتذكَّرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجَهم ... لِفَقْءِ عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونهر الدَّمِ يبكيك لون دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صلُّوا وكبَّروا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحْب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَزَّ له الأحنافُ رأسًا يُنَدَّرُ
مقالُك للرُّومانِ عِزٌّ وَرِفْعَةٌ ... وكم صيَّر العملاق « ماهان » أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهى وأعْطَرُ
تُرَدِّدُهَا الأجيالُ دومًا لخالدٍ ... لآلىء عزٍّ تَبْقَى تَبْقَى وتُزْهِرُ

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبضِ سيفٍ
كي يملِكَ ناصيةَ الكلمةِ في هذا الزَّمنِ المخبول

---

(١) رجال حول الرسول صـ ٣٣٢ بتصرف .

أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِك
كي أتملَّاكَ ... وعلِّمْني كيف أصُول

❊ ❊ ❊

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً .. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جِلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

❊ ❊ ❊

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرْمِ
بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى .. لو أكتُبُ عنك بأيّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

❊ ❊ ❊

....

يا خالدُ .. عقلُكَ عقلُكْ(١)
دينُكَ دينُكْ .. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثلُك يَخْفَىٰ النُّورُ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيفَ يَريشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلَألأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ .. وملعونٌ مَنْ كابرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا .. وعتيدًا
يا جارَ الماحِلِ والمائلِ .. والمنقطعِ
ويا عزَّ المستضْعَفِ فيها

* * *

ودرجتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أسمعتَ الأرضَ أناشيدَ رِماحِكْ
وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ اللهِ بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفَعَ بشَكَائِمِهَا

---

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام ، وقال له : يا خالد ، عقلك عقلك ، سألني عنك رسول الله ﷺ .

وتُنَازِلَ بحوافِرها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

* * *

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَقَ فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ المَحْتِدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ .. اللهَ عليكْ
علّمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النَّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداءِ الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كفَّيْكْ
يا خالدُ
لا يُبصِرُ قومٌ وجهكَ .. قلُّوا أم كثُروا إلّا انهزموا عنكَ
فلا أحدٌ أيمنَ طائرَ منكَ
ولم تعرف هذي البيداءُ أحدَّ عليها مِن سيفكَ
فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ
وَقدِمَ الرَّكبُ المكيُّ الفارِغُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ
لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ .. بِعُمقِ الأرضِ
الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ
فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشيَّة عانَقَها أَلَقُ الدِّينْ
وحباها اللهُ مِن النُورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ

يا خالدُ
مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيلِ
أخَالُكَ لا تأكُلُ إلَّا بالسيفِ
تلوتَ كتابَ الله على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفا
ودخلتَ الإسلامَ كبيرًا
وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ .. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحِيلةِ
يا جَبَلا أمجادِ قُريشْ
لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ
وكأنّ مكانكَ في الإسلامِ يُناديكَ
وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ
يا خالدُ
يا صاحِبَ «ناصيةِ رسولِ اللهِ»
ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا
تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإسلامِ وتدفعُها
في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشَّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ .. أتقعُ على الموتْ

أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستَقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تمُرُّ إلى الجنّاتِ بإذنِ اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإسلامِ .. ويا فاتحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ الله مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في الله إلى مرماهْ
علّمْني أنَّ المَوْلدَ في الموْتِ حياهْ
« لا نامتْ عينُ الجُبنَاء » .. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجِفْنُ المُغْمَضُ .. لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ
مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروق على أسْمالِكْ
مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلِعُ كُلَيْماتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً .. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزيِ .. المُنْخَنِسِ الضّائعِ
معذرةً .. ما شرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ
أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ
هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ
لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبِلِ إن شاء اللهْ
هل تأذنُ بإعارة سرجِ جوادِكَ يومًا
كي يعرفَ حاكمُنا المُطَهَّمُ
ما معنى الخيلِ المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ
يا خالدُ
لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ .. لكانتْ رايتُنَا أعْلَى
لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ .. لكانت حُجَّتُنَا أجْلى
لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ .. لكانت كلمتُنَا أحلى
لو كان لدينا وتدٌ مِن خيمتِكَ الآنَ
شكيمةُ فَرَسِكَ .. دِرعُكَ
لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ .. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنَسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ .. وقال : قد أمَّر خالدُ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا

فِي سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبّارِينَ أَبَتْ أن تُقطفَ إلَّا بهْ
وتلوتَ على النّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللهَ عليك .. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذِ الميدانُ يؤزُّ .. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرَفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

* * *

يا خالدُ
علَّمَك الله بأنْ تضربَ فوقَ الأعناقِ
وأن تَضرِبَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمهْ
« واللهِ .. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُنِي الله إليه .. أو يُنزِلهُ الله إليّ »

* * *

اللهَ عليك وأنت بِحِمْصَ تفوحُ كزَهْرِ الشّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشّامْ
والناسُ حواليْك تَدورُ .. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

* * *

اللهَ عليك .. وسيفُك يجتثُّ العُزَّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ .. ويا قامعَ مَنْ بَدَءُوكْ
أميرًا كنتَ .. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ
ويا قامعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ
« إذا دُعِي أجابَ »
« وإن نُودِيَ لَبَّى »
« وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها »
لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ
الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ
فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ
في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ
كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو
وجنودُ اللهِ بدُونِكَ تكبو
في وقتٍ كنتَ تُعيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ
﴿ **ومزقناهم كلَّ ممزق** ﴾
وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ
وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَخْبُو

لكنّك تسمعُ وتطيعُ .. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًّا
ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ
في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ
ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ
وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ
ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مِثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغَلْغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
« في خالدٍ .. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ »
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُمليَ هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ « نهر الدمِ » وقامِعَ رأسِ « الرِّدَّةِ »
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾
﴿ **واجتنبوا قولَ الزور** ﴾

يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِرِ ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ .. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

* * *

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السّابِغُ من هذا البدرِ أنار مَجَاهِيلَ الكوكبِ
أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

الله عليكَ وأنت تَمِيدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعِمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مالِ اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ

فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ تُقاسِمُهُ المالَ مُناصَفةً
حتى نَعْلَيهْ
فابستمَ الناسُ وقالوا : هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بِلالُ إليكَ
ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ
وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها
اللهَ عَليكَ
وأنت ذَلُولٌ .. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ
بل تبسطُ وجهكَ لبلالَ وتُعربُ
« نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْرْ »
وأنتَ الفاقِهُ معنى الطاعةِ
كان جوابُكْ •
ما أنا مِمَّنْ يعصي
فاصنعْ ما يبدو لكْ
يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ
يا خالدُ
« إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ »
« وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ »
« ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا »
يا تمرًا أَيْنَعَ في شجرِ النُّصْرَةِ
والفتحِ الأعظمِ .. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ

يا خالدُ
كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ .. وعرضِ الأرضِ
وعُمقِ الأرضِ
وكنتَ بفضلِ الله مَهِيبًا
كنت تودُّ بأنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ .. فوقَ جوادِكَ
في معمعةٍ تشهدُ أنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقَي بجسمِكِ موضعُ
إلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهِيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ .. تُرفرفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى الله مُنِيبًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك .. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ

تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينزِفُ فوقَ الثَّلجِ
ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ .. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتِي فاجعةٌ جدًّا
لا أذْرُعَ فيها .. لا قلبَ .. ولا سِيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجّاةٌ .. تُحْتَضَرُ الآنْ
قتلانا من غير قبورٍ
أبدانٌ من غير رؤوسٍ .. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ

في سيفِك بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا
لا نملكُ ثَمَنَ الأكفانْ

* * *

يا خَالِدُ
يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ
وأختطفُ حروفًا مِن رَهَج الخيلِ
ولا أعرفُ كيفَ أصُولْ
سامحني
لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ
لا أعرفُ كيف أُميِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ
قد أضحتْ كلُّ خياناتِ الأرضِ بأرضي فاكهةً
سامحني .. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ
يا خَالِدُ
في هذا الزمنِ المخبولْ
أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروقِ على أسْمالِكْ
مِن أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً
ما حيلةُ منْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْي
المُنْخَنِسِ الضّائعِ

ما شَرُفَ المِيدانُ بحافِرِ خيلِكَ .. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ
فاسْمَحْ لِي
أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلِكَ لتصيرَ شِعَارًا
لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبِلِ إنْ شاءَ اللهُ(١)

الصحابي المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْباني ، البطل الذي جرَّأ المسلمين على قتال الفُرس :

وامُثَنَّاه ! ولا مثنّى اليوم للخيل .. وامُثَنَّاه ! ولا مثنّى للمسلمين اليوم :

يذكر التاريخ للمثنى أنه « كان أول مسلم هاجم الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها »(٢) ، فحمل عن المسلمين عِبئًا لم يحمله غيره ، وهو الذي جرَّأ المسلمين على محاربة الفرس ، ورفع معنويات العرب وحطّم معنويات الفرس ، وكانت أعماله العسكرية في العراق مقدمةً لفتحه فيما بعد ، وكانت معركة « البويب » تمهيدًا لمعركة « القادسية » وإيذانًا بانهيار الإمبراطورية الفارسية ، وقد كان شجاعًا إلى أقصى حدود الشجاعة ، مقدامًا إلى أقصى حدود الإقدام ، وقد « أبلى في حروب العراق بلاءً لم يُبْلِه أحد »(٣).

في حروب الرِّدَّة :

عندما ارتدَّتْ ربيعة وكانت في البحرين ، ثبت المثنى على الإسلام مع من ثبت من قومه ، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل - ومنهم المثنى - أن يُعينوه على مكافحة المرتدّين حتى يعودوا إلى الإسلام ، فكان المثنى على رأس الذين أعانوا العلاء في مهمته الشّاقّة ،

---

(١) قصيدة « رسالة إلى سيف الله المسلول » لمحمود خليل - دار الصحوة .

(٢) جمهرة أنساب العرب صـ ٣٠٥ .

(٣) الإصابة ٤ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

وضيّق المثنى الخناق على مَنْ قِبَلَه من المرتدين ، وكان لهم الضربات المميتة ، وأخَذَ الطريق عليهم ، ولم يَكْتَفِ بذلك ، بل تابع السير شمالًا على شاطئ الخليج العربي ؛ ليقاوم دسائس الفرس الذين شجَّعُوا المسلمين في منطقة الخليج على الرِّدَّة ، ويقضي على أنصارهم من القبائل والأبناء[١] .

في الفتح :

تقدَّم المثنّى بقواته شمالًا من منطقة البحرين ، فقضى على الفرس وعمّالهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين ، حتى وضع يده على « القطيف » و« هجر » وحتى بلغ في تقدُّمه مَصَبَّ دجلة والفرات في الخليج العربي . وتساءل الناس عن هذا القائد الذي يسير من نصرٍ إلى نصرٍ ، وتساءل الصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه قائلًا : « مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعُه قَبْل معرفة نَسَبِه ؟ »[٢] . فأجابه سيد أهل الوبر قيس بن عاصم المنقري : « هذا رجل غير خامِلِ الذِّكْر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة »[٣] .

أمُهَجِّنَ الشجعانِ والمُزْرِي بهمْ ... وتَرُوكَ كلِّ شجاعِ قومٍ عَاتِبَا
شادوا مناقِبَهم وشِدْتَ مناقبًا ... وُجِدَتْ مناقِبُهُمْ بِهِنَّ مَثالِبَا
خُذْ من ثنايَ عليكَ ما أسْطِيعُهُ ... لا تُلْزِمَنِّي في الثَّنَاءِ الواجبَا
فَلَقَدْ دَهِشْتُ لما فَعَلْتَ ودُونَهُ ... ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتِبَا
قد عسكرتْ مَعَكَ الأُسودُ عساكرًا ... وَتَكَتَّبَتْ معك الرِّجالُ كتائِبَا
أسْدٌ فرائِسُهَا الأسود يقودُها ... أَسَدٌ تصير له الأُسُودُ ثعالِبَا[٤]

---

(١) قوم من العجم سكنوا البلاد العربية ، واختلطوا بالعرب بالمصاهرة فتعلَّمُوا لغتهم .

(٢) الإصابة (٦ / ٤١) .

(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ ، وفتوح البلدان للبلاذري صـ ٢٤٢ .

(٤) من ديوان المتنبي بتصرف .

وجاء المثنى إلى المدينة المنورة لمقابلة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وسأله أن يُؤمِّره على رجاله ليُهاجم بهم الفرس في العراق قائلًا : « يا خليفة رسول الله ، استعمِلْني على قومي ، فإن فيهم إسلامًا ، أُقاتِل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو »(١). فكتب له أبو بكر رضي الله عنه بذلك عهدًا ، فهو الذي « أطمع أبا بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - والمسلمين في الفرس ، وهوَّن أمر الفرس عندهم »(٢).

لله دَرُّه ، فهو بحقٍّ ، كما يقول عنه عمر بن الخطاب : « مؤمِّر نَفْسِهِ »(٣).

واستمر المثنى - رضي الله عنه - على مُهاجمة أهل السواد ، ثم بعث أخاه مسعودًا إلى أبي بكر يسأله المدد ، فأمدّه بخالد بن الوليد ، على أن يتولّى خالد القيادة العُليا ، فلمَّا وصل خالد العراق ، كتب إلى المثنى ليأتيه « فانقضَّ إليه جوادًا حتى لحق به »(٤). وهكذا تُسارع الرجولة إلى الطاعة !

وعندما وصل خالد إلى العراق ، أُعجِبَ بالمثنى ومقدرته الحربية الفائقة ، فكان خالد يعتمد على المثنى في حرب العراق كلَّ الاعتماد ؛ بصفته من أشجع الرجال أولًا ، وبصفته من أعلم الناس بالفرس ؛ لأن قبيلته من مواطني العراق أيامَ الحكم الفارسي ، زد على ذلك أن المثنى كان أوَّل من خاض المعارك مع الفرس ، فعلم كثيرًا من أحوالهم وأساليبهم ونفسيّاتهم ،

---

(١) الإصابة ٦ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٢ .

وكان المثنى قبل الإسلام حكيم قومه .

مـع خـالد :

قَاتَلَ المثنى تحت لواءِ خالدٍ في كلّ معاركه التي خاضها في العراق ؛ تارةً تحت قيادة خالد المباشرة ، وتارة قائدًا مستقلًّا . فبعد معركة « كاظمة » التي انتصر فيها المسلمون على الفرس ، أمر خالدٌ المثنى أن يُطارد المنهزمين من الفرس ، فطاردهم المثنى مطاردةً حاسمةً ، كأنّما يريد ألَّا يتركهم قبل أن يبلغ المدائن(١) . وكان رضي الله عنه مع خالد في معركة المزار ، وهو الذي راقب الجيش الفارسي ورصدَ حركاته لخالد . وبعد فتح الحيرة والأنبار ، أرسله خالد لمهاجمة « سوق بغداد » فأغار عليه وهزم المدافعين عنه(٢) . ولمَّا ورد أمْر أبي بكر إلى خالد بالحركة إلى أرض الشام لمقاتلة الروم ، وأن يأخذ نصف الناس ، ويستخلف المثنى على العراق في نصف الناس ، أحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه ، واستأثر بهم لنفسه ، تاركًا للمثنى مِثْل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صُحبة ، واستأثر لنفسه أيضًا بمن كان قدم على النبي ﷺ وافدًا ، فأبى المثنى وقال : « والله لا أُقيم إلَّا على إنفاذ أمر أبي بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ » . فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه(٣) .

المثَّى القائد العام :

الصديق أعطى القوسَ باريها :

كان الموقف العسكري في العراق عند مغادرة خالد له خطيرًا للغاية ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٨ .
(٢) الطبري ٢ / ٥٨٤ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٥٦ ، والطبري ٢ / ٦٠٥ .

فقد كانت قوات المثنى قليلة بالنسبة لقوات فارس ، وكانت خطوط مواصلاته بعيدةً بالنسبة لخطوط مواصلات الفرس ، أمّا المشاكل الداخلية في بلاد الفرس ، فقد أصبحت أقلّ من السابق بعد اتفاق الفرس على رفع « شهر براز ابن أزدشير » إلى العرش ، فلمّا اطمأنّ الأمر له ، كان إجلاء المسلمين عن العراق أوّل ما استقرَّ عليه عزمه . ولعلّ شعور خالدٍ بخطورة الموقف في العراق ، هو الذي دفعه إلى ترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة ، قبل سفره إلى الشام . وبلغ المثنى أنباء حشْد فارس لمهاجمة قواته ، فسار حتى بلغ بابل ، وانتظر هناك عشرة آلاف مقاتل فارسي يقودهم « هرمز جاذويه » .

معركة بابل أواخر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة هجرية ، المثنّى قاتل الفيل :

كتب ملك الفرس « شهر براز » إلى المثنى رسالة قبل المعركة ، تدلّ على كبرياء سخيفة ممقوتة ، تحمل كل معاني الاستخفاف بالمثنى وجيشه ، ونسي أن هذا الجيش ، على قلَّة عدده هو الذي أنْزَلَ أشنع الهزائم بما يقرُب من نصف مليون مقاتل فارسي في معارك متفرِّقة ، وهو في كل معركة لا يزيد على عشرين ألفًا ، فكتب ملك الفرس إلى المثنى : « من شهر براز إلى المثنى ، لقد بعثتُ إليك جندًا من وخش[1] أهل فارس ، إنما هم رُعاة الدّجاج والخنازير ، ولست أُقاتلك إلّا بهم » . فردَّ عليه المثنى : « من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحَدُ رجُلَيْن ، إمّا باغٍ ، فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا ، وإمَّا كاذبٌ ، فأعْظَمُ الكذَّابين عقوبةً وفضيحةً عند الله في الناسِ الملوكُ ، وأمَّا الذي يدلُّنا عليه الرأي ، فإنكم اضطررتم إليه ، فالحمد لله الذي ردَّ

(١) أي من أسقاطهم وأراذلهم .

كيدكم إلى رُعاة الدّجاج والخنازير »[١] . وتشاءم الفرس من جواب المثنى وقالوا : إنما أُتي « شهر براز » من شؤم مولده وشؤم منشئه ، وقالوا له : جرّأتَ علينا عدوَّنا ببعْث الكتاب إليه . وجعل المثنى على ميمنة جيشه أخاه المعنّى بن حارثة ، وعلى ميسرته أخاه مسعود بن حارثة ، وكان أكثر جنده من قومه شيبان وبكر بن وائل ، فاستماتوا في القتال . وكان جلُّ اعتماد الفرس لتمزيق صفوف المسلمين على الفيل المدرَّب على القتال ، وبدأت المعركة عنيفةً فاشيةً شديدةً ، وكان الفيل مدرّبًا أحسن تدريب على القتال ، وفرّق صفوف المسلمين ، وكان لا يقف في وجهه شيءٌ ، فخشي المثنى أن يكون لمساندة هذا الفيل لجيش فارس تأثيرٌ سيِّئ خطير على جند الإسلام ، الذي أربك هذا الفيل صفوفه ، فسارع المثنى نفسه وفئة من المغاوير إلى الفيل ، حتى أصابوا من الفيل مقتلًا ، فخسر الفرسُ – والمعركةُ على أشدّها – أهمَّ مُسانِدٍ لهم ضد المسلمين ، ولم يكد الفيل يقع على الأرض حتى جزع الفرس جزعًا شديدًا ، ثم تحوّل جزعهم إلى هزيمةٍ كاملة ، فشرعوا في الهرب وسيوفُ المسلمين تأخذهم من كل جهة . واستطاع المسلمون أن يُبيدوا المشاة عن آخرهم ، أمّا الفرسان من الفرس فقد أركضوا خيلهم هاربين ، فطاردهم فرسان المسلمين ، فصاروا يأسِرون ويقتلون مَنْ يقدرون عليه ، وطالت مطاردة المثنى لهم ، حتى وصل في مطاردتهم أبواب المدائن ، وفرَّ « هرمز جاذويه » من الميدان ، وشاع خبر موت الملك « شهر براز » في أثناء هزيمة الفرس ، فزادهم خبالًا على خبال . قال عَبْدَةُ بن الطَّيب عن هذا اليوم :

حلَّتْ خُوَيْلَةُ في حيٍّ عهدتُهُمُ ... دونَ المدائِنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ
يُقارِعون رؤوسَ العُجْمِ ضاحيةً ... منهمْ فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٦٠ .

وقال الفرزدق مُثنيًا على المثنى :

وبيتُ المُثنّى عاقِرِ الفيلِ عَنْوَةً ... بِبَابِلَ إذْ في فَارِسٍ مُلْكُ بابِلِ

وكتب المثنى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بانتصاره ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الرِّدَّة ، بل غادر المثنى العراق إلى المدينة ليُخبر الصِّدّيق خبر المسلمين والفرس ، فوصل إليها قبل موت الصّدّيق بيومٍ واحد ، وأوصى الصِّدّيقُ عمرَ بن الخطاب بأن يندب الناس مع المثنى . ولمَّا مات الصِّدّيق ، أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه ، فاستنفر الناس للانضواء تحت لواء المثنى ، وأحجم الناس عن قتال الفرس ، وكان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب ؛ لِمَا عُرفوا به من عنادٍ وصبرٍ في القتال ، ولشدّة سلطانهم وعزِّهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم . وقام المثنى يهوِّن من أمر الفرس ، فقال في مسجد رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، لا يعظُمَنَّ عليكم هذا الوجه - أي الفرس - فإنَّا قد بَحْبَحْنَا رِيفَ فَارس ، وغلبناهم على شقّي السّواد ، وشاطرناهم ونِلْنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبَلنَا عليهم ، ولها ما بعدها إن شاء الله »[1]. فتوالى المتطوِّعون حتى بلغوا ألف رجُلٍ من المدينة المنورة فقط ، وعاد عمر إلى نَدْب الناس إلى العراق قائلًا : « أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود الله ؟! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثكموها ؛ فإنه قال : ﴿ **لِيُظهره على الدِّين كله** ﴾ [التوبة : ٣٣] . والله مظهر دينه ومعزّه وناصره ، ومُوَلِّي أهله مواريث الأمم ، أين عبادُ الله الصالحون ؟! » . وهنا قام أبو عبيدة ابن مسعود الثقفي فقال : أنا لها . وقال عمر : « والله لا أُؤمِّر عليكم إلَّا أوَّلهم انتدابًا » . فأمَّر أبا عبيدة على المثنى ومن معه ، فسمع المثنى وأطاع

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣١ ، والكامل ٢ / ١٦٦ .

بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ صافٍ . قال عمر بن الخطاب : « يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعْلَم بالرِّجال مني » . وقد كان عَـزَلَ خالد بن الوليد والمثنى وقال : « إني لم أعزلْهما عن ريبةٍ ، ولكنّ الناس عظَّموهما ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليهما »[1] .

كان الصِّدِّيق معجبًا بالمثنى إعجابه بخالد بن الوليد ، وكان يراه لا يقلّ عن خالدٍ في كفاءته الحربية ، وبلغ المثنى الذّروة من المجد وعلوّ الصِّيت ، وكان كخالدٍ ؛ لم ينهزم في معركةٍ واحدة ، ولم تنكَّس له راية .

رجل العراق الأوّل يُفوِّت على الفرس إبادة المسلمين ، وينسحب منه دون علمهم :

وصل إلى المثنَّى من استخباراته أن « رستم » قائد الفرس يؤلِّب أهل العراق والفرس ، من أعالي الفرات إلى مَصَبِّه ، وأن السّواد بعد اشتعال ثورته ضد المسلمين سيطوِّق جيش المسلمين ، ويُبيده بالتعاون مع ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس ، وكان هدف رستم قطْع خطوط الرَّجعة على المسلمين ، واحتلال الحيرة ثم إبادتهم ، ولا سيّما أن قوات المسلمين مبعثرة في نواحي العراق ، وكانت خطة رستم تقضي بالإيعاز إلى أهل كل بلدةٍ أو موقعٍ ، من الفرس أو العرب المُتَنَصِّرة ، بأن يشغبوا ويثوروا على حاميات الإسلام ، وَوَعَدَهم بالمدد السريع من الجيش ليُبيدوا هذه الحاميات ؛ كل حامية على حدةٍ ، ولكن المثنَّى العبقري أفسد على رستم خُطّته ، فقد أرسل البريدَ العاجل خفيةً أمرًا إلى جميع المسالح والحاميات والمواقع وفصائل الاستخبارات خارج الحيرة ، بأن تترك مواقعها وتتحرك بأسرع ما يمكن إلى الحيرة ، ودهش رستم عندما وجد اللّيث الهَصُور والعبقري الخبير « المثنَّى » قد سبقهُ ، وسَحَبَ كل جندي

(١) الكامل ٢ / ١٩١ .

إلى الحيرة ، ثم انسحب من الحيرة بكامل جيشه إلى حدود شبه الجزيرة ، دون أن تعلم مخابرات الفرس إلَّا بعد أن وصلها أن المثنى أنهى انسحابَهُ إلى خفان دون أن يخسر مقاتلًا واحدًا ، فتألّم رستم ، وعلم أنه أمام قائد من أعظم قادة العالم . ولما وصل أبو عبيدة إلى خفان ، وأقرَّ المثنَّى على ما صنع ، عَلِمَ أن الفرس نزلوا « النمارق » فسار إليهم بقوات المسلمين ، وجعل المثنى على الخيل ، فاقتتل الطرفان قتالًا شديدًا ، وانهزم الفرس أمام المسلمين ، ووقع قائدهم « جابان » أسيرًا .

مائة ألف لا يصمدون أمام تسعة آلاف .. يا لله !!

والتقى المسلمون بالفرس بعدها في معركة « السقاطية » فانتصر المسلمون بعد قتالٍ شديد ، فأقام أبو عبيدة بناحية « كسكر » وسرَّح المثنى إلى « باروسما » وسرّح غيره من القادة يُغيرون على تلك النواحي ، ويُخضعونها للمسلمين . والتقى الطرفان في معركة « الجالينوس » فانهزم الفرس أيضًا ، وقدم المثنى الحيرة ، واستقرَّ بها . ووجَّه أبو عبيدة المثنى إلى « زندورد » فوجدهم قد نقضوا فحاربهم وانتصر عليهم .

معركة الجسر ، وتُعرف أيضًا بالمروحة ، والقرقس ، وقس الناطف :

حشد الفرس جيشًا عظيمًا بقيادة « بهمن جاذويه » فعبر إليه أبو عبيدة بجيشه ، مُخالِفًا من كان معه من قادة الجيش ، وقبل نشوب القتال بين الطرفين ، عيَّن أبو عبيدة الأمراء الذين يتولّون قيادة المسلمين من بعده إذا استشهد ، وكان من بين الذين عيَّنهم : المثنَّى ، فلمّا استشهد أبو عبيدة ، واستشهد الذين تعاقبوا على اللواء حَسَب وصيَّته من بعده ، تولَّى المثنى ، وكانت معنويات الناس حينذاك قد انهارت ، فارتدّ كثير منهم إلى الجسر ، يريدون النجاة بأنفسهم ، وغرق في النهر حوالي ألفين استشهدوا كلهم غرقًا . وأقدم عبد الله بن مرثد الثقفي على قطْع الجسر ، وخرَّبه ، ووقف

عند الجسر يمنع المسلمين من محاولة العبور على ما تبقّى من الجسر، وقال: « أيها الناس، موتوا على ما مات عليه أُمراؤكم، أو نظفر ».

فضربَهُ المثنى؛ إذ كان في نسْف الجسر إبادةٌ كاملة لجيش المسلمين.

وحدث فعلًا ما يُشبه المعجزة، وسارع البطل المغوار، الذي لا تعرف نَفْسُه الجزع « المثنى » ومعه أبطالٌ من المسلمين لإصلاح الجسر، ومقاتلة الفرس الذين احتشدوا بقصد منْع إصلاحه، وكان معه: عروة بن مسعود، وعاصم بن عمرو، ومذعور بن عدي، والكلج الضَّبّي، وعروة بن زيد الخيل، وسليط بن قيس الأنصاري، وطَلَبَ المثنى من هؤلاء أن يكونوا إلى جانبه؛ لمقاتلة الفرس الذين أوكل إليهم « بهمن جاذويه » منْع المسلمين من العبور، إن هم تمكّنوا من إصلاح الجسر. ونادى المثنى الذين تمكّنوا من العبور إلى الشاطئ الغربي، أن يأتوا في الحال بخبراء من الفرس ممن هم في ذمتهم وصُلْحهم؛ لإصلاح الجسر، فأُحضروا في الحال، فقام هؤلاء العجم في الحال بإقامة الجسر، وفي الوقت نفسه كان المثنى ومن معه من الأبطال، الذين اختارهم حماة له، يقاتلون الفرس الذين كلَّفهم « بهمن جاذويه » بمنْع المسلمين من العبور، فقد قاتلهم المثنى ورجاله في شجاعةٍ تفوق الخيال، فأعملوا فيهم السيوف باستماتةٍ حتى دحروهم، وأفسحوا المجال للمنسحبين أن يعبروا إلى الشاطئ الغربي، وسقط كثيرٌ من مفارز الحماية الأبطال، الذين كانوا يحمون المثنى وهو يُشرف على إصلاح الجسر، وجرح المثنى نَفْسُه جرحًا مميتًا عند الجسر، ولكنّه رَبَطَه، وبرز البطلُ الأسد الهصور الجريح على صهوة جواده عند الجسر كالطّود، ودمه الطاهر يسيل، وقف يصيح بالمسلمين؛ يطلب منهم الانسحاب عبر الجسر: « أيها الناس، أُناديكم فاعبروا على هيِّنتكم[1]،

---

(١) على مهلكم.

ولا تدهشوا ، فإنَّا لن نُزايل[1] حتى نراكم في الجانب الآخر » . وهكذا بفضل الله ، ثم بشجاعة وثبات وتدبير المثنى ، تمَّتْ عملية عبور الجيش المسلم ، ونجا ستة آلاف من موتٍ كان محقَّقًا لو لم يوفِّق اللهُ المثنى لإصلاح الجسر والثبات عنده ، الذي دفع حياته الغالية ثمنًا لإصلاحه والثبات عنده ، فقد مات رضي الله عنه بعد أكثر من شهرين ، متأثِّرًا بجرحه الخطير ، ولكن قبل موته منَّ الله عليه بالنصر وشفى غليله من الفرس .

بعد معركة الجسر ارفضَّ عن المثنى ألفان ، واصلوا هزيمتهم حتى وصلوا المدينة ، وخجل ألفٌ من أبناء البادية ، فاختفوا خجلًا في باديتهم ، وبقي مع البطل الجريح « المثنى » ثلاثة آلاف . وفي اليوم الثاني لمعركة الجسر ، ظنَّ الفرس أن معركة الجسر ساحقة ماحقة ، وما دروا أن الأسد كامِنٌ في مربضه ، وخرج الفرس يتنزَّهون ، ولما علم المثنى بذلك ، خرج في جريدةٍ من الخيل ، في اتّجاه « أُلَّيْس » حيث المكان الذي يتنزّه فيه اثنان من كبار قُوّاد فارس « جابان ومرادنشاه » في حرسهما ، وهجم عليهما المثنى ، فلم يُفيقا من صدمة الدهشة إلَّا وهما أسيران في يد المثنى ، وقتلهما وهو يقول لهما : « أنتما غرّرتُما بأميرنا وكذبتماه واستفززتماه » . وضربَ أعناق حرسهما جميعًا .

معركة البويب ثالث عشر من رمضان ، وقتْل مائة ألف فارسي فيها :

تتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، وحشد المثنى جيشه في « البويب » وكانت عدَّة الجيش اثني عشر ألفًا ، بينما جَمَعَ « رستم » جيشًا عظيمًا ، جَعَلَ قيادته لمهران بن باذان ، وكان قائدًا محنَّكًا شجاعًا ماهرًا ، وكانت عدّة جيش الفرس مائة ألفٍ من الفرسان ، وخمسين ألفًا من المشاة .

---

(١) أي لن نتحرك من أماكننا حتى نحمي عبوركم .

ونزل ببَسُوسْيَا فقال المثنى : « أكْدَى مهران وهلك ، نزل منزلًا هو البسوس » .
وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إمّا أن تعبروا إلينا ، وإمّا أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : « اعبروا أنتم » . فعبر مهران بجيشه ، وعبّأ المثنى أصحابه ، وكان الوقت رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم ؛ فأفطروا وخرج المثنى على فرسه « الشّموس » ، وكان لا يركبه إلا لقتالٍ ، وطاف راكبًا بين الصفوف ؛ يَحُضُّهم ويُحرِّضهم ، ويهزُّهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً ، ويقول : « إني لأرجو ألَّا تُؤتى العرب من قِبَلِكم ، والله ما يسرُّني اليوم شيء لنفسي إلا وهو يسرُّني لعامّتكم »(١). ولقد أنصفهم في القول والفعل ، وخالط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال المثنّى : « إني مكبِّرٌ ثلاثًا ، فَتَهَيَّئُوا ، ثم احملوا مع الرابعة » . ولكنّه ما كاد يكبِّر التكبيرة الأُولى ، حتى أعجل الفرس المسلمين وعاجلوهم وشدُّوا عليهم ؛ فاختلَّتْ بعض صفوف المسلمين من بني عجل ، فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا المسلمين اليوم » . فاعتدل بنو عجل ، وهاجموا قوات فارس ، واشتبك الطرفان في قتالٍ مرير ، ففكّر المثنى بأن يحمل بنفسه على قائد الفرس ، فيُزيله عن مكانه أو يقتله ، فحمل على « مهران » حملةً صادقةً حتى دخل ميمنته ، ورأى الفرس ما حدث ؛ فاندفعوا لحماية قائدهم ؛ وعندما انكشف الغبار ، رأى المسلمون تراجُعَ قلبِ الفرس ، فحملت ميمنةُ المسلمين وميسرتُهم ، فسارع الفرس إلى التَّراجُع نحو النهر ؛ خوفًا من التطويق ، يريدون النجاة بأنفسهم .

---

(١) الطبري ٢ / ٦٤٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

لقد كان المثنَّى قائدًا عميقًا في علم النفس العسكري ، قبل أن يخُطَّ أي أستاذٍ متخصِّص في هذا العلم بقرون ، فيقول - رحمه الله - لجنده محرِّضًا ، لَمَّا رأى ما رأى من الفرس : « عاداتكم في أمثالهم : انصروا الله ينصركم » . ثم سابَقَ المثنى الفرس المنسحبين إلى الجسر ، فسبقهم إليه وقطعه ، وبذلك قطع خطَّ رجعتهم الوحيد ، وكبّدهم مائة ألف قتيل ، وترك المثنى أخاه مسعود بن حارثة شهيدًا ، فقال المثنى : « أيها الناس ، لا يَرُعْكم مصرعُ أخي ؛ فإن مصارع خياركم هكذا . والله إنه ليهوِّن عليَّ وجْدي أن شهدوا « البويب » . أقْدَمُوا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان في الشهادة كفّارة لتجوز الذنوب »[(١)]. وقال المثنى بعد المعركة : « قد قاتلتُ العرب والعَجَم في الجاهلية ، واللهِ لمائةٌ من العجم في الجاهلية ، كانوا أشدَّ عليَّ من ألفٍ من العرب ، ولمائةٌ اليوم من العرب أشدّ عليَّ من ألفٍ من العجم ، إن الله أذْهَبَ بأسهم ووهَّن كيدهم ، فلا يَرُوعَنَّكم زهاء[(٢)] ترونه ، ولا سوادٌ[(٣)] ولا قسيّ فجّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهتْ »[(٤)].

لله دَرّك يا مثنّى وأنت تقول عن الفرس : إنهم « كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهت » . لله دَرُّك وأنت تقول لرجالك في المعركة ، لما أتى الفرس وصيحاتهم في المعركة تهدر : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وَأْتَمِرُوا همسًا » .

واستمـرَّتْ مطاردةُ المسلمـين فلولَ المنهزمـين يومًا وليلةً ، وترك

(١) الطبري ٢ / ٦٥٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

(٢) منظر .

(٣) كثرة .

(٤) الطبري ٢ / ٦٥٠ - ٦٥١ .

الفرسُ مائة ألفٍ ، حتى صاروا جثثًا « فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمّةً منها . وحدّثني بعض من شهدها : والله إنّا كُنّا لنأتي البويب ، فنرى فيما بين موضع السكون عظامًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يُعْتَبَر بها »(١). وقال عطية بن الحارث : « وأفعموا جنبتي البويب عظامًا حتى استوى ، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة ، وما يُثار هناك شيء إلا وقعوا منها على شيء » . وأمر المثنى رجاله بالاندفاع في مطاردة الفرس ، ففتحوا السّواد كله حتى بلغوا ساباط ، وقُتل في المعركة قائد الفرس مهران ، وقُتل صاحبُ خيله « شهر براز » .

يقول الأعور العبدي يذكُر معركة البويب :

هاجتِ الأعورَ دارُ الحيِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعدَ عبدِ القيسِ خفَّانا
وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجتمِعٌ ... إذْ بالنَّخيلة قتلى جُندِ مهرانَا
أزْمَانَ سار المُثَنَّى بالخيولِ لهمْ ... فَقَتَّلَ الزَّحْفَ من فُرسٍ وجيلانَا
سما لمهرانَ والجيشِ الذي معه ... حتى أبادهموا مثنًى ووُحْدانَا
ما إنْ رأيْنا أميرًا بالعراق مضى ... مِثْلَ المثنَّى الذي من آلِ شَيْبَانَا
إن المُثَنَّى أميرُ القومِ لا كَذِبٌ ... في الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفَّانَا

لقد كان نصر المسلمين في البويب ، مثل انتصار المسلمين في اليرموك في الشام ، يعادله تمامًا كما قال ابنُ كثير ، وهو العامل الأكبر الذي أدَّى إلى انتصار المسلمين في القادسية ومهّد له . لقد أدَّى انتصار اثني عشر ألفًا من الأبطال ، وإبادتهم لأكثر من مائة ألفٍ من الفرس ، كلهم تقريبًا من الفرسان - إلى شحن نفوس زعماء الفرس بالاحتقار والحقد للقادة الكبار ، إلى درجة أنهم هدّدوا هؤلاء القادة بعد البويب بقتلهم ،

(١) الطبري ٣ / ٤٦٧ .

إن لم يبدِّلوا أسلوبهم في مُقاتلة المسلمين .

بين البويب والقادسية :

يرى المعلِّقون العسكريون أنه بالنظر من الوجهة العسكرية المجرَّدة ، أن رجال البويب أتوا بأعظم مما أتى به رجال القادسية . فجيش الإسلام يوم البويب كان اثني عشر ألفًا ، ويوم القادسية ثلاثين ألفًا ، دعَّمهم وصول المدد المتعاقِب ، على رأسه هاشم والقعقاع . وكان معظم جيش الفرس في البويب من الفرسان لا المشاة ، وتمكَّن جيش المسلمين من إبادة مائة ألف من الفرس وأكثر في البويب ، بينما في القادسية أبادوا ثلاثين ألفًا .

وممّا أدّى إلى اشتهار القادسية : أنها كانت بقيادة « رستم » الرجل الأوَّل للفرس ، وقُتِل فيها ، وعنفُ المعركة واستمرارها بدون انقطاعٍ ثلاثةَ أيامٍ متوالية ، وتمكُّن العرب بعد القادسية من تطهير العراق العربي نهائيًّا من العنصر الفارسي بعد سقوط المدائن ، ونَقْل المعركة إلى بلاد فارس ، ولم تقُم للفرس قائمة بعد « نهاوند » .

الغارة على أسواق الفرس في الخنافس وبغداد :

كانت الغارة على الأسواق شمالي العراق استغلالًا رائعًا لمعركة البويب ، لم يكن المثنى قد قرأ عن مبدأ المطاردة ، ولكنّه وضع لنفسه المبدأ كقائد ، وبذلك يُعتبر المثنى من واضعي هذا المبدأ في علم الحرب ، وقد استطاع بكفاءته أن ينفّذه في قوةٍ وعُمقٍ ، بلغ حوالي أربعمائة كيلو مترًا أو يزيد شمالًا ، خلاف ما تبحبحوا به شرقًا وغربًا وجنوبًا .

لقد فتح المثنى على العجم أبعادًا ثلاثة للحرب القائمة بينه وبين الفرس ؛ البُعد الأول هو خطّ المواجهة ، والبعد الثاني هو ما امتدَّ إليه هذا الخط ، فجعله يتَّسِع ويستطيل للحصول على التموين لقواته ، وتشتيت العدو وإرباكه ،

وللتأثير على قادة جيش فارس وشعب فارس . فأغار المثنى في هجومٍ خاطف على هذه الأسواق ، وكان فيها أموال غالية الثمن ، يزيد على ما في خزانة بيت مال كسرى ، وأصاب المسلمون فيها من الذهب والفضة ما كان غَناءً للمسلمين ، وقوَّةً لهم على عدوّهم دهرهم . وقال أحد جنود المثنى : ما أسرع القوم في طلبنا ! فقال الرجلُ القمة ، أستاذُ الحروب لأبطاله - بعد أن أغاروا على سوق الخنافس وبغداد وعادوا في يومٍ واحدٍ ، وبعد أن أوغلوا في غاراتهم حتى العُمق ، وكان بينهم وبين المدائن ثلاثون كيلو مترًا - : « تناجوا بالبرّ والتقوى ، ولا تناجَوْا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدِّروها ثم تكلَّموا ، إنه لم يبلغ النّذير مدينتهم بعدُ ، ولو بلغهم لَحَالَ الرُّعب بينهم وبين طَلَبِكم . إن للغارات روعاتٍ تنتشر عليها يومًا إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ، ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف البطاء ، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم . ولو أدركوكم لقاتلتُهم لاثنين : التماس الأجر ، ورجاء النصر . فثِقُوا بالله وأحْسِنُوا به الظَّنّ ، فقد نصركم في مواطن كثيرة وهم أَعَدُّ منكم ، وسأُخبركم عني وعن انكماشي والذي أُريد بذلك ، إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلِّل العرجة ، ونُسرع الكرَّة في الغارات ، ونُسرع في غير ذلك الأَوْبَةَ » .

يقول المثنى :

صبَّحْنَا بالخنافسِ جَمْعَ بكرٍ ... وَحَيًّا من قُضاعةَ غير مِيلِ
بفتيانِ الوَغَى من كلِّ حيٍّ ... تَبَارَى في الحوادثِ كلَّ جِيلِ
أَبَحْنَا دَارَهُمْ والخيلُ تَرْدَى ... بكلِّ سَمَيْدَعٍ سامي التّلِيلِ

ورأى المثنَّى أن لا يعود إلى مقر قيادته في الحيرة ، إلَّا بعد أن تشمل غاراته شمال العراق ، وأن يؤدِّب بني تغلب في الكباث في شمال العِراق ،

وأكثر المسلمون فيهم القتل . لقد نجح - رضي الله عنه - في غاراته على الشمال ، حتى وصل في فتوحاته إلى ما لم يصل إليه القائد العظيم خالد . وزيادةً في التنكيل بأعداء الله وأولياء الفُرس ، أغار في صفّين على أحياء من عرب تغلب والنمر والنصارى ، فلمّا اقتربوا من صفين هرب أهلها ، فتبعهم المسلمون ، حتى رموا بأنفسهم في مياه الفرات وغرقوا ، فجعل المسلمون يقولون لهم : « تغريقٌ بتحريق » . فصارتْ مَثَلًا .

هذا هو المثنى بطل المعارك ، وبطل حروب الاستنزاف بعد المعارك ، أعظم أساتذة الحرب في العالم - وُلد ونشأ وترعرع في العراب بين مضارب البادية ، على متون الخيل بين المضارب والخيام تعلّم ، ولكنّ أستاذ الحرب البدوي علّم الدنيا بأسرها : وُلد المثنَّى بالبادية ، ومات في البادية ، وطواه لَحْدٌ تحت رمال البادية ، غازيًا للدنيا بسيفه ، عَزُوفًا عنها بقلبه ، ليس له إلَّا « الشموس » جواده ، لا يركبه ويُذلِّله غيرُهُ ، ولا يركبه إلا للغزو

هذا جوادُكَ في الميدانِ مُنطلِقٌ ... وبينَ عَينَيْهِ مِن إصرارِهِ ألَقُ
صَهيلُهُ نَغَمٌ يُصغي الزَّمَانُ له ... وَنَقْعُهُ لحجابِ الشّمسِ يخترقُ
وَسَرْجُهُ همهماتٌ لا يُخالطها ... زَيْفٌ ولا يَرتمي في حِضْنِهَا نَزَقُ
تشدو حوافِرُهُ لَحْنًا يَهشُّ له ... قلبُ التّرابِ وتسترخي له الطُّرُقُ
يُسابِق الرِّيحَ في دَرْبِ الإباءِ وَكَمْ ... خَيل سِوَاهُ إلى الأهواءِ تستبِقُ
هذا شَمُوسُك يجري النُّورُ في دمِهِ ... وتَشْـرَئِبُ إلى غَـارَاتِهِ العُنُقُ
تَكُفُّ عن وجهِهِ الصَّحْرَاءُ ما حملتْ ... من سيفِهَا ويُناغِي رَكْضَةَ الشَّفَقُ
يُقِضُّ مضجعَ كلِّ الصافناتِ إذا ... ثار الغُبَارُ وطارتْ نحوَهُ الحَدَقُ
مسافرٌ والأماني البِيضُ لاهِثةٌ ... وراءَهُ وبحارُ الشَّوقِ تصطفِقُ
إذَا تَلَفَّتَ غَنَّى فَجْرُ غُـرَّتِهِ ... لَحْنَ الضِّياءِ وأرخى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبَهُ ... فَجْرٌ تحفَّزَ لاستقبالِهِ الأُفُقُ

يا مُورِيَ القَدْحِ آمالي بك انبثقَتْ ... يومَ البويبِ والآمالُ تنبثِقُ
مراكبُ الفرس نامتْ وَهْيَ واقفةٌ ... والرّاكبون عليها من أهوالِكَ انسحقوا
يستأسِدُون عليها وَهْيَ واقفة ... لَمَّا ظهرت جَثَوْا وغارتْ منهمُ الحَدَقُ

انسحب المثنى بقواته إلى تُخُوم الجزيرة العربية ، فنزل بذي قارٍ حتى يأتيه سعد بن أبي وقّاص على رأس المدد لمهاجمة الفرس وإبادتهم . ولكنْ عاجلتْه المنيَّة .. وما نسي البطل الصالح العهدَ إلى سعدٍ وتوصيته ، وما أَشبَهَ لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة لأبي بكر رضي الله عنهما ، كلاهما ترك الدنيا وهو يفكِّر للمسلمين في هذه الفتوح ويوصي بها .

وترك المثنى وصية غالية لسعد : « ألا يقاتل عدوّه وعدوهم من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وماؤهم في عقر دارهم ، وأن يُقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجرٍ من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العَجَم ؛ فإن يُظهر الله المسلمين ، فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأُخرى ، رجعوا إلى فئةٍ يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم ، إن يرد الله الكرَّة عليهم »[1]. وأشار المثنَّى على سعدٍ : « أن يُحارب العدو بين القادسية والعذيب »[1]. ومات المثنى قبل أن يرى سعدًا .

وهكذا انطفأ سراجٌ من أشدّ السّرج توهُّجًا ، وأفلتْ تلك الشمسُ المشرقة التي غمرت العراق دفئًا ونورًا .

كالبدرِ من حيثُ التفَتَّ رأيتَهُ ... يُهدي إلى عَيْنَيْكَ نورًا ثاقبًا
كالبحر يقذفُ للقريبِ جَوَاهرًا ... جُودًا ويبعثُ للبعيدِ سَحائبًا
كالشمسِ في كَبِد السماءِ وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى البلادَ مشارقًا ومغاربًا

---

(١) الطبري ٣ / ١٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٤ .

ولا غرو عندما حمي الوطيس ، واستكلَبَ الموت على الأبطال في القادسية ، هتفتْ سلمى زوجُ سعدٍ - وكان سعد قد تزوَّجها بعد موت زوجها المثنى - حين لم تجد المثنى يسود الأجناد والفرسان للجلاد ، قائلة: «وامثنّاه! ولا مُثنَّى اليوم للخيل»[١]. « وامثنّاه ! ولا مثنَّى للمسلمين اليوم »[٢] ، « القوم أقران ، ولا مثنى لهم »[٣].

ما زال يروي لنا التاريخُ قصَّتَهُ ... فكم حديثٍ على شوقٍ رَوَيْنَاهُ
وكم حديثٍ عن الأحبابِ أطْرَبَنَا ... وزادَنَـا طَـرَبًا لَمَّـا أعَـدْنَاهُ
وَقْـعُ الحوافـر يا بغـدادُ أُغْنِـيَةٌ ... ثـراكِ يُنشـدها والرَّمْـلُ أفـواهُ
وحمحماتُ خيولِ النَّصْرِ تُطربني ... الحـربُ دائـرةٌ والنّاصـرُ اللهُ
صهيلُها في دروبِ الحقِّ يملكني ... فكم أذوبُ به وجْـدًا وأهـواهُ
هذا المثنى يُرَوِّي الأرض من دَمِهِ ... والعينُ في رؤيةِ الأحداثِ عيناهُ
لم يَسْتَعِر مُقلةً أخرى ولا شَفَةً ... أخرىٰ ولـم تُصغِ للتَّضليلِ أُذْنَاهُ
كيانُكِ الضَّخْمُ يا بغدادُ حصَّنَهُ ... سيفُ المثنى ونورُ الحقِّ جَلَّاهُ
النّورُ فوق ذراعِ الشَّمْسِ صبَّحَهُ ... والنّورُ فوق ذراعِ البدرِ مسَّاهُ[٤]

القعقاع بن عمرو التميمي فاتح خانقين وحلوان وهمذان :

لا يُهزم جيشٌ فيه مِثْلُ القعقاع . [أبو بكر الصديق] .

الصحابي الجليل ، والفارس المغوار النبيل ، حيدرة الأسود رضي الله عنه .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١ .
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٣) المعارف صـ ١٠٠ .
(٤) من قصيدة : وشم على ذراع بغداد ، من ديوان « يا أمة الإسلام » لعبد الرحمٰن العشماوي - مكتبة العبيكان .

صاحب الخوارق والشجاعة التي يعجز القلم عن وصفها في معارك الفتح الإسلامي .. وما أَبْلَغَ وصف أبي بكرٍ للقعقاع : « لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[١].

قال القعقاع : قال لي رسول الله ﷺ : « ما أعددتَ للجهاد ؟ » . قلتُ : طاعة الله ورسوله ، والخيل . قال : « تلك الغاية » .

مع خالد في العراق :

لما احتاج خالد إلى إمداداتٍ ، كتب إلى أبي بكر يستمدُّه ، فأمدّه بالقعقاع ، فقيل لأبي بكر : أتُمدُّ رجُلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجلٍ ؟ فقال : « لا يُهزم جيش فيه مِثْلُ هذا »[٢].

في معركة كاظمة ، لما خرج هرمز للقاء خالد ، أنقذ القعقاع خالدًا في هذه المعركة من الموت ، لما احتضن خالد هرمز ، وشدَّ أهلُ فارس يريدون الغدر بخالدٍ وقتله ، لم يُمهلهم القعقاع ، وحمل عليهم وانقضَّ كالصقر على الحامية ، فأبادهم جميعًا قبل أن يصلوا إلى خالد .

وكان له أكبر الأثر في كل معركةٍ خاضها المسلمون ، يقول في يوم « الولجة » :

ولم أَرَ قومًا مِثْلَ قومٍ رأيتُهم ... على وَلَجَاتِ البرِّ أحْمَى وأنْجَبَا
وأَقْتَلَ للرّوّاسِ من كلِّ مجمعٍ ... إذا ضَعْضَعَ الدَّهْرُ الجموعَ وكَبْكَبَا

ولما استسلمتِ « الحيرةُ » أرسل خالدٌ قادته ومنهم القعقاع للتَّغلغُل في أرض السواد حتى دجلة ، فنجح القعقاع في مهمته نجاحًا باهرًا . وأصبحت

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٤ .

الحيرةُ القاعدةَ المتقدّمة لجيش المسلمين ، ولما أراد خالد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، استخلف القعقاع على الحيرة ، فحمى القعقاعُ ظهر خالد ، وحافظ على الحيرة قلعة المسلمين المتقدّمة ، وصدَّ هجومًا مقابلًا شنَّته الفرس وحلفاؤهم على المناطق المجاورة للأنبار .

معركة الحصيد ، العاشر من شعبان سنة اثنتي عشرة هجرية :

كان قائد المسلمين القعقاع ، وقائد قوات الحصيد « روزبه » على رأس قوات الفرس وحلفائهم المُتَنَصِّرة ، فهاجمهم القعقاع ، وكان مِثْل خالدٍ ذِكْرُه يُرعِب الأعداء ، وكانت معركة ضارية ، غير أن النصر في النهاية كان حليف المسلمين ، وتوّج القعقاع نصره المؤزَّر بقتْل قائد الفرس زرمهر ، وَقَتَلَ عصمةُ الضّبّي القائد الثانيَ روزبه ، وقُتِلَ من المجوس وحلفائهم العرب عددٌ كبير . وقال القعقاع :

أَلَا أَبْلِغَا أسماء أن حليلَها ... قضى وَطَرًا من روزمهرِ الأعاجِمِ
غداة أصبْنا في حصيدٍ جموعَهُمْ ... بِهِنْدِيَّةٍ تَفْري فراخَ الجماجمِ

وفي « المصيّخ كان القَعقاعُ ، وعبدُ بنُ فدكى السعدي ، وأبو ليلى ابن فدكى ، وعروة بن جعد البارقي : هُمُ القادة الذين تولَّوْا تصفيةَ القواتِ الفارسية والعربِ الموالين لهم - ومتى ؟! بالليل ، إي واللهِ ، بالليل بعد منتصفه ..!!

وفي « الفراض » يقول القعقاع :

لَقِينَا بالفِراضِ جموعَ رُومٍ ... وَفُرْسٍ غمَّها طولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُم لَمَّا التَقَيْنَا ... وَبَيَّتْنَا بجمعِ بني رزامِ

قاتل القعقاعُ تحت لواءِ خالدٍ أيضًا في كلِّ المعارك التي خاضها بعد ذلك ، حتى تحرَّك خالدٌ إلى الشام ، فكان القعقاعُ أحدَ الأبطال الذين

اختارهم خالدٌ ليُعَاونوه في مهمَّته الشَّاقَّة ، وهي فَتْحُ بلاد الشام .

وفي الطريق إلى الشام قَاتَل القعقاعُ تحتَ لواءِ خالدٍ في كافَّة المعارك ، حتى التحقَتْ قواتُ العراق بقواتِ الشام .

وفي « فَحْلٍ » أبلى أعظمَ البلاء ، قال القعقاع :

وغداةَ فحلٍ قد رأوْني مُعْلَمًا[1] والخيلُ تنحطُ[2] والبلا أطْوارُ
يُفـدي بـلائي عنـدها مُتَكَلِّفٌ سَلِسُ المياسِرِ عُـودُهُ خَـوَّارُ
سَلِسُ المياسرِ ما تسامَى ماقِطًا[3] عنـد الرِّهـانِ مُعَـيّرٌ عـيّارُ
ما زالتِ الخيلُ العرابُ تدوسهُمْ في حومِ فحلٍ والهَبَا[4] موَّارُ
حتى رميْنَ سَراتهم عَنْ أسْرِهم في ردغـةٍ ما بعدهـا استمرارُ
يومَ الرّداغِ بُعَيْدَ فحلٍ ساعةً وخـز الرِّمـاح عليهِمُ مُـدرارُ
ولقد أبرْنا[5] في الرداغِ جموعَهُمْ طُرًّا ونحويَ تشخصُ الأبصارُ

ويقول رحمه الله :

نحنُ الأُولى جُسْنا العراقَ بِخَيْلِنا والشّامَ جُسْنَا في ذُرَى الأشفارِ
كَمْ مِنْ قَمَامِسَةٍ[6] أَبَرْنا جَمْعَهُم بعدَ العراقِ وبعدَ ذي الأوتارِ

في حِصَارِ دِمشق :

إلى القعقاع ومذعور بن عدي وخالدٍ يعودُ الفضلُ الأكبرُ في إنهاءِ

---

(١) ذو علامةٍ ، شأن الصناديد .
(٢) النحط : صوتُ الخيل من الثِّقَل والإعياء .
(٣) المأقط : المضيق في الحرب .
(٤) الهباء : الغبار شِبه الدخان .
(٥) قتلنا .
(٦) القَمَامِسَة : البطارقة ؛ كبار الضباط في الروم .

حصار دمشق وفتْحها ؛ فالقعقاعُ ومذعورُ : هما اللذان صَعِدَا على سلالم الجبال إلى أعلى السُّور ، وأثبتا بقيةَ الحبال في شرف السُّور ، وهاجم خالدٌ برجاله - وعلى رأسهم القعقاعُ - حُمَاةَ أبوابِ المدينة ، فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب للفاتحين .

في اليرموك :

كان القعقاعُ بن عمرٍو في القلْب على كُرْدُوسٍ من كَرادِيس أهلِ العراق من جيش خالدٍ ، وكان القعقاعُ أحدَ الأبطالِ الذين اختارهم خالدٌ للتأثير على معنويَّات الروم في ابتداءِ معركة اليرموك ، وكان رضي الله عنه يُهاجِم الرومَ على رأس كُرْدُوسِهِ وهو يرتجزُ ، ضاربًا لرجالهِ في الشجاعة والإقدام أَرْوَعَ الأمثالِ . ولمّا أراد خالدٌ أن يقوم بهجومِهِ المُضَادِّ ، أمر خالدٌ عكرمةَ والقعقاعَ - وكانا على مجنبتي القلب - فبدأا الهجومَ المضادَّ الشامِلَ ، وارتجز القعقاعُ يقول :

يا ليتني ألقاكِ في الطِّرادِ ... قبلَ اعترامِ الجحفَلِ الورّادِ
وأنتِ في حَلْبتك الورادِ

وقال القعقاعُ بعد المعركة :

ألَمْ ترنا على اليرموك فُزْنَا ... كما فُزْنَا بأيَّامِ العراقِ
فتحْنَا قَبْلَهَا بصْرَىٰ وكانتْ ... مُحَرَّمَةَ الجَنَابِ لدىٰ العناقِ
وَعَذْرَاءُ المدائنِ قَدْ فَتَحْنَا ... ومرجُ الصُفّرَيْنِ على العِتَاقِ
قَتَلْنَا مَنْ أقَامَ لنا وفئْنَا ... نهابُهُم بأسيافٍ رِقَاقِ
قتلْنا الرُّومَ حتَّى ما تَسَاوىٰ ... على اليرمُوك ثَفْرُوق الوراق
فَضَضْنَا جمعَهُمْ لمّا استحالُوا ... على الواقُوصِ بالبُتْرِ الرِّقاقِ
غداةَ تهافَتُوا فيها فصارُوا ... إلى أمْرٍ يُعضّلُ بالذواقِ

في العراق ثانيةً :

(١) في القادِسيَّة : القعقاعُ أفرسُ الناسِ ، بشهادةِ سعدٍ :

كان في مقدِّمة قواتِ هاشمٍ التي جاءت من الشام لِنَجْدةِ سعدٍ ، فعجّل القعقاعُ في مسيرته ، حتى وصل العراقَ في صَبيحةِ اليوم الثاني من أيّامِ القادسية ، وهو يوم « أغواث » ، وقد عَهِدَ إلى أصحابه - وهم ألفُ رجلٍ - أن يكونُوا جماعاتٍ ، كلُّ جماعة مُؤلَّفَةٌ من عَشْرَةِ رجالٍ ، ثم تقدَّم القعقاعُ مع الجماعة الأُولىٰ فَسُرَّ الناسُ بقدومه ، وبشَّرهم القعقاعُ بقدوم الجنود ، قائلًا : « يَـٰأَيـُّهَا الناسُ ، إني جِئتُكُم في قومٍ - واللهِ - لو كانوا بمكانكم ثم أَحَسوّكم حَسَدُوكم حَظْوَتَهَا ، وحاولوا أن يطيروا بها دُونكم ، فاصنعوا كما أصنع »[١]. ثم تقدّم ، فلمّا كان بين الصَّفَّيْن ، نادىٰ : مَنْ يبارز ؟...

لله دَرُّك يا قعقاعُ : تأتي من سفرٍ بعيدٍ مثلِ هذا ، ثم تلتحم لحظةَ وصولِكَ وتبارز ؟! وخرج ذو الحاجب « بَهْمَن » وعرّف القعقاعَ بنفسه ، فقال : إني « بَهْمَن جاذويْه » . ففارَ الدَّمُ في عروقِ القعقاع ، وصاح : « يا لثاراتِ أبي عُبيدٍ وسليطٍ وأصحابِ يوم الجسر ! » ، ثم تبارزا بالسُّيوف ، فقتله القعقاعُ ، وكان « بهمن جاذويْه » - قائدُ قلب المجوس في القادسية ، وقائدُهم يومَ « جِسْرِ المروحة » - أوَّلَ القتلى يومَ « أغـواث » . وخرج القعقاعُ مرةً ثانيةً ، وقال : مَنْ يُبارز ؟ فخرجَ إليه « بيْرزان » قائدُ مؤخِّرتهم ، فسدّد إليه القعقاعُ ضربةَ سيفٍ قويةً فوقَ عنقهِ ، أَذْرَتْ برأسه . وبرزتْ فرسانُ المسلمين للمبارزة ، فكان القعقاع يقول لهم : يا معاشرَ المسلمين ، باشروهمْ بالسُّيوفِ ؛ فإنما يحصدُ الناسُ بها . وجعلتْ خيلُ القعقاع تَرِدُ جماعاتٍ ، وما زالتْ تَرِدُ إلى الليل ، فترتفعُ معنوياتُ المقاتلين من المسلمين .

---

(١) الطبري (٣ / ٥٢) .

وَحَمَلَ بَنُو عمٍّ القعقاع بجماعاتٍ مؤلَّفةٍ كلٌّ منها من عَشْرةِ رجالٍ ، على إبلٍ قد ألبسوها ، وهي مجللةٌ مُبرقَعَةٌ ، وأمَرَهم القعقاعُ أن يُهاجموا بها خَيْلَ الفرسِ ، فجفلتْ خيولُ الفرس تَفِرُّ منها ، وركبتْها خيولُ المسلمين ، فلمّا رأى الناسُ ذلك فَرِحُوا أشدّ الفرح ، إذْ لقي الفرسُ من هذه الإبل أعظمَ مما لقي المسلمون من الفِيَلَةِ في اليوم الأوَّل من أيام القادسية ، وَحَمَلَ القعقاعُ يوم ذاك ثلاثين حملةً ، كُلَّمَا طلعتْ جماعةٌ من جماعاتِهِ حَمَلَ معهم فيها ، فَقَتَلَ وَحدَه يومَهَا من الفرس ثلاثين رجلًا ، وبات القعقاعُ ليلته كُلَّها يُسَرِّب أصحابَه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس ، قائلًا لهم : « إذا طلعتْ لكم الشمسُ فأقبلوا مائةً مائة ، كلَّما توارىٰ عنكم مائةٌ فَلْيَتْبَعْهَا مائةٌ ، فإنْ جاءَ هَاشمٌ فذاك ، وإلَّا جدَّدتم للناس رجاءً وجِدًّا »[1]. وقد نفّذ ذلك دون علْم رجال القادسية الآخرين . وأصبح الناس على مواقعهم ، فلما ذرّ قرنُ الشمسِ ، طلعتْ نواصي خيل رجالِ القعقاع ، فكبّر وكبّر المسلمون ، وقالوا : جاءَ المددُ . فلمّا وصل آخِرُ رجالِ القعقاع ، أخذتْ قواتُ هاشمٍ تترارَد .

القعقاعُ .. قَاتِلُ الفيلِ الأبيض :

ولما عادتِ الفيلةُ تُكبِّد المسلمين خسائرَ فادِحَةً؛ .. هلْ كَانَ للفيل الأبيض الذي يقودُهَا إلا القعقاعُ وأخوه عاصمٌ ، كما ذكرنا من قبل ؟!

قال القعقاع :

لم تَعرفِ الخيلُ العرابُ سواءَنا ... عشيةَ أغواثٍ بجنْبِ القَوادِسِ
عشيةَ رُحْنَا بالرِّماحِ كأنَّها ... على القومِ ألوانُ الطيورِ الرَّسارِسِ[2]

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩ .

(٢) الخيل العراب : العربية الأصيلة . الرسارس : النشيطة .

وفي ليلة الهرير ، وكان القعقاع يتشوّق للقتال ، ولمّا أصاب سهمُ خالد بن يَعْمُر التميمي ، حَمَل القعقاع بغير إذْنٍ على الجهة التي خرج منها السَّهمُ ، وهو يقول :

فَأَقْسَمتُ لا ينفكُّ سيفي يَحُسُّهُم ... فإنْ زَحَلَ الأقوامُ لَمْ أَتَزَحَّلِ[١]

فقال سعد : اللهمَّ اغفرها له وانصرْه ، قد أذنتُ له إذْ لم يستأذِنّي ، واتميماهُ ! سائرَ الليلة . وفعَل الناسُ ما فعَل القعقاع ، فاشتدَّ القتالُ ، وَحَمِيَ وَطِيسُهُ كلَّما تقدم الليل ، وما كاد الليل ينتصف ، إلَّا وَسَمِعَ سعدٌ صوتَ القعقاع يهدرُ ، مرتجزًا :

نحنُ قتلنا معشرًا وزائِدا ... أربعةً وخمسةً وواحدا

نُحسَبُ فوقَ اللّبدِ الأَساودا ... حتى إذا ماتُوا دعوتُ جاهِدا

اللهَ ربي واحترزتُ عامِدا

وكان صوتُ القعقاع أوَّلَ ما استدلَّ به سعدٌ على الفتح[٢].

وتنفَّس الصبحُ عن هذه الليلةِ الدامية ، فسار القعقاعُ في الناس يقول : « إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلُوا ؛ فإنَّ النصر مع الصبر »[٣].

ولما انهزم الفرس ، طاردَهم القعقاعُ بأمْرِ سعد وأوقع بهم خسائرَ فادِحَةً ، وانتصر المسلمون في القادسية .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعدٍ : « أيّ فارسٍ كان أفرسَ في

---

(١) يَحُسُّهم : يقتلهم ، وزحل : يعني هرب .
(٢) الطبري ٣ / ٦٧ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

القادسية ؟ » فكتب إليه سعدٌ : « إني لم أرَ مثلَ القعقاع بن عمرو ؛ حمَل في يومٍ ثلاثين حَمْلةً ، يقتل في كلِّ حملةٍ بَطَلًا »[1].

(٢) في المدائِن : القعقاعُ قائدُ الكتيبةِ الخَرْسَاء :

لما قَرَّر سعدٌ عبورَ النهر على ظهور الخيل لفتْح المدائن ، فكان أول من عبَر النهر كتيبةُ الأهوالِ ، على رأْسِهَا عَاصِمٌ ، ثمّ كتيبةُ القَعْقَاعِ ، المسمَّاةُ بالكتيبة الخرساء .

وبعد انتصار المسلمين كان القعقاع على رأس قُوَّاتهم المطارِدَةِ للفُرس ، فوجد فارسيًّا يحمي انسحابَ الفرسِ فقتله ، فإذا مع المقتول أحدَ عشرَ سيفًا ودروعٌ ، بينها سيفُ وَدِرْعُ كِسرى ، وهُرْمُز ، وَهِرقَل ، وخاقَانَ ، والنعمان ، وغيرهم من الملوك والأمراء والقادة ، فغنِمَهَا القعقاعُ[2].

(٣) في جَلُولاء : قَعْقاعية جديدة ، وقَتْلُهُ لمهرانَ قائدِ الفرس :

كان القعقاعُ على مقدّمةِ قوات هاشمٍ التي حاصرت القوات الفارسية ، وطال الحصارُ ثمانين يومًا . وَزَحفَ القعقاعُ برجاله ، حتى انتهى إلى بابِ خندق الفُرس ، فدخل الخندقَ واحتلَّ قِسْمًا منه ، وأمَرَ مُناديًا ينادي : يا معاشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل الخندق ، وأخذ به ، فأقبِلُوا إليه ولا يمنعنَّكم مَن بيْنكم وبيْنه مِن دخوله . وقد أمَر القعقاع بذلك ليقوِّيَ معنوياتِ المسلمين ، وفعلًا حَمَلَ المسلمون ، وهم لا يشكُّون أنَّ هاشمًا في الخندق ، فإذا هم بالقعقاعِ قد احتلَّ قِسْمًا من الخندق ، وبذلك انهزمَ الفرسُ[3] ، ولكن القعقاعَ طاردهم حتى بلغ « خانقين » ، ثم دخل « حُلوان » ، وقصر

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .

(٢) الطبري ٣ / ١٢٨ ، والإصابة ٥ / ٢٤٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٢٠١ .

« شيرين » . وأثناء المطاردة لَحِقَ القعقاع بمهرانَ القائد الأكبر في « جلولاء »، وقتله في « خانقين » .

إلى الشام ثانيةً :

ولما حشدَ هِرقلُ ملك الروم قواتٍ كبيرةً ، وأقبلت قواتُه من الجزيرة ومن بلاده برًّا ، ومِن الإسكندرية بحرًا ، تحرّك القعقاعُ على رأس أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ لنجدة أبي عبيدة ، وفرّ الناسُ ، وبقي الروم وحْدَهم ، فقاتَلهم المسلمون وانتصروا عليهم ، قَبْل أنْ يبلغ القعقاعُ « حمصَ » بثلاثة أيام ، فكتب عمرُ إلى أبي عبيدةَ كَي يُشْرِك أهلَ الكوفة في العطاء ، قائلًا : « جزى الله أهلَ الكوفة خيرًا ؛ يَكفون حوزَتَهم ، ويَمدُّون أهلَ الأمصار ! » .

وعاد القعقاعُ بجنوده إلى العراق رافعًا اسمَهم عاليًا بين الفاتحين .

في بلادِ فارس : نهاوندُ فتْحُ الفتوح ، وقتْلُ القعقاعِ للفيْرزانَ قائدِ الفُرس : « إن للهِ جنودًا مِن عَسَلٍ »

قاتل القعقاع في معركة « نهاوند » تحت لواء النعمان بن مقرن المُزَني ، وكان له في هذه المعركة أثرٌ أيَّ أثرٍ ! وكان القعقاعُ على المُجرّدة[1] ، وقد خشي المسلمون أن يطول حصارُ المدينة دون جَدْوى ، إذ كان الفرْسُ قد تحصَّنوا داخلها ، فلا يخرجون منها إلَّا إذا أرادوا الخروج . واجتمع النعمانُ بقادة جيشهِ لِيجدَ حلًّا يُعينه على فتْح المدينة ، فاستقرَّ الرأيُ على أن يبعث النعمانُ خيلًا لِيَنْشَبْ القتال ، ثم تنسحب الخيلُ مُظْهِرَةً الفرارَ ، حتى يتعقَّبها الفرس ، وعند ذلك يهاجم المسلمون ، في معركةٍ تدور رَحَاها خارجَ أسوار

---

(١) المجردة : هي القوات المؤلفة من الفرسان التي تتقدم أمام المقدمة لحمايتها ، والمجردة : الذين لا يلبسون الدروع الحديدية .

المدينة الحصينة .

فمَن يقود الخيلَ لِتنفيذِ هذه الخطة بدقةٍ وإتقانٍ واندفاع ؟

أمر النعمانُ القعقاعَ ، فقاد الخيل وأنشب القتالَ ، فلمّا خرج الفرس لقتاله ، نكص ، ثم نكص ، ثم نكص ، وظنَّ الأعاجمُ أنها هزيمةٌ فاغتنموها ، وخرجوا حتى لم يبقَ منهم سِوى مَن يحرسُ الأبواب . وتقهقرَ القعقاعُ بالمسلمين ، حتى انقطعَ الفرسُ عن حصونهم ، ثم أعاد الكَرَّة عليهم بهجوم مضادٍّ فلما هاجمهم المسلمون في العَراء ، استطاعوا التغلُّبَ عليهم ، وبذلك انتهتِ المعركة - التي أطلق عليها المؤرِّخون : « فتح الفتوح »[1] - بنصر المسلمين ، وكان للقعقاع في هذا النصرِ نصيبٌ مرموقٌ . ولما انتهتِ المعركة ، كان القعقاعُ بفرسانه في مقدِّمة من طاردوا الفُلولَ الهاربة ، وانطلق القعقاع في أثَرِ « فيرزانَ » قائدِ الفُرس ، حتى أدركه في ثنيَّة همذان ، وتصادف أنْ كانت الثنيَّةُ مشحونةً بقافلةٍ من البغال والحمير محمَّلةً بحمولة من العَسَلِ ، فَحَبَسَتْ « فيرزانَ » عن المرور ، فلمَّا رأى القعقاع في أثرِه قد أدْرَكَهُ ، نزل عن جَوادِه وجرى في الجبل ؛ إذْ لَمْ يجدْ سبيلًا يذهب فيه ، ونزل القعقاع عن جَوادِه أيضًا ، فتبعَه حتى أدركه وقتله . وفي ذلك قال المسلمون مُتفكِّهين : إنَّ لله جنودًا من عسلٍ !

الفارج الكُرَبَ العظامَ بمثلِهَا ... والتارك المَلِكَ العزيزَ ذَليلا
نَطَقَتْ بسؤْدُدِكَ الحَمامُ تغنّيًا ... وبما تجشِّمُهَا الجيادُ صَهيلا
ما كلّ مَن طَلَبَ المعالِيَ نافِذًا ... فيها ولا كلّ الرجالِ فُحُولا[2]

رحمك اللهُ يا قعقاع ... ألم تقلْ يا سيدي :

---

(١) البلاذري صـ ٣٠٢ .

(٢) من ديوان المتنبي صـ ١٤٥ - ١٤٨ طبع دار صادر .

ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تِهَامةَ ... يهدي المناقِبَ راكبًا لعيارِ
في جُنْدِ سيفِ اللهِ سيفِ محمَّدٍ ... والسابقين لسُنَّةِ الأحرارِ

رحمك الله ورضي عنك .. نجدةَ الفوارس وليْثَهَا .

يدعونَ قَعقاعًا لكلِّ كَريهةٍ ... فيجيبُ قعقاعٌ دُعاءَ الهاتِفِ

وسيذكر التاريخ للقعقاعِ أنه ضرب رقمًا قياسيًّا في عدد المعارك التي خاضها في العراق وبلاد الشام وفارس ، وكانت له في كلّ معركةٍ خاضها قصةٌ مُشرِّفةٌ خالدةٌ ... إحدى عشرةَ معركةً كبيرةً : سبعٌ بالعراق ، وثلاثٌ بسورية ، وواحدةٌ في إيران ، فكم معركة صغيرة لم يذكرها له التاريخ ؟!

وسيذكر التاريخ للقعقاع القائد - بطل الإسلام ، وفارس العرب - أنه القائد الوحيدُ الذي قاتل في معاركِ الفتْح الإسلامي الثلاثةِ الحاسمة : القادسية واليرموك ونَهاوند ، وأبلى فيها كلِّها بلاءَه ، بل كان في القادسية قائدَ الميْدان الفعلي وفارسَه .

عَمرُو بنُ العَاصِ السَّهْمِيّ ، فاتحُ فلسطينَ ومصرَ وليبيا :

قال رسول الله ﷺ : « أسلم الناسُ ، وآمن عَمرُو بن العاص »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « ابنا العاصِ مُؤْمنان »[2].

وعن عمرو بن العاص ، قال : كان فَزَعٌ بالمدينة ، فأتيتُ على سالمٍ مولى أبي حذيفةَ ، وهو مُحْتَبٍ بحمائِل سيفه ، فأخذتُ سيفًا فاحتَبَيْتُ

---

(١)

(٢) إسناده حسن ، رواه أحمد ، والحاكم ، والنسائي في فضائل الصحابة ، عن أبي هريرة .

بحمائِله ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّهَا الناس ، ألا كان فَزَعُكُم إلى الله وإلى رسوله ؟! » ، ثم قال : « ألا فعلتُم كما فعَل هذانِ الرجلانِ المؤمنانِ ؟! »[1] .

لما أسلم هو وخالدٌ ، قال رسول الله ﷺ : « أَلقتْ إليكم مكّةُ أفلاذَ كَبِدِهَا » .

وكان عَمرٌو من فرسانِ قريشٍ وأبطالهم ، مذكورًا بذلك فيهم ، وكان فوق ذلك معروفًا بالدَّهَاءِ وحُسْن التَّصرُّف ، فلما أسلم قال عمرو : ما عَدَل بي رسول الله ﷺ وبخالدِ بن الوليد أحدًا من أصحابه في حرْبه ، منذ أسلمتُ .

الرَّسول ﷺ يُوَلِّي عَمْرًا القيادةَ في ذاتِ السَّلاسل :

« ولّى رسول الله ﷺ عَمْرًا قيادة سَرِيَّةٍ مُؤلَّفة من ثلاثمائة رجلٍ من أشراف المهاجرين والأنصار ، لِصَدِّ جمعِ « قُضَاعة » الذين يريدون أنْ يهاجموا أطرافَ المدينة المنَوَّرة ، فسار عمرٌو الليلَ وكَمَنَ النهارَ ، فلمّا قرُب مِنَ القوم ، بلغَهُ أنَّ لهم جَمْعًا غفيرًا ، فاستمدَّ رسولَ الله ﷺ ، فبعث إليه أبا عبيدة في مائتيْن وعقَد له لواءً ، وبعث به،معه سراةُ المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وأراد أبو عبيدة أن يؤُمَّ الناس ، فقال عمرٌو : إنما قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَدًا ، وأنا الأميرُ . وما زال عمرو بأبي عبيدة حتى أطاعه ، وسار عمرٌو حتى وَطِئ بلادَ « بَلّي » ودوّخها ، وأتى إلى أقاصي بلادهم وبلاد « عُذرة » و« بَلْقَين » ، ثم لقيَ جمعًا ، فحمل عليهم المسلمون ، فهربُوا في البلاد . وقفَل عمرٌو راجعًا إلى المدينة . ولمّا هَزَمَ المسلمون أعداءَهم طَمِعُوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، فحالَ عمرٌو بينهم وبين ذلك ، ثم أرادوا

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد في مسنده ، والنسائي في الفضائل .

أن يُوقدوا نارًا يَصْطَلُون عليها من البرد ، فمنعهم عمرٌو أيضًا ، فشقّ على المسلمين ذلك ، ولم يحتمِلُوا تلك الشِّدَّة ، فشكَوْه إلى رسول الله ﷺ ، فكلّمه في ذلك ، فقال له عمرٌو : كرهتُ أنْ آذنَ لهم أن يُوقدوا نارًا فيرىٰ عدوُّهم قلَّتَهم ، وكرهتُ أن يَتْبَعُوهم فيكون لهم مَدَدٌ . فأُعجِبَ به رسولُ الله ﷺ أيَّما إعجابٍ ، وَحَمِدَ له رأيَه »[1].

هَدْمُه لِسُوَاعٍ :

وبعثه النبي ﷺ لهدْم « سُواعٍ » صنمِ هُذيلٍ فهدمَه ، وأسلم سَادِنُه على يد عمرٍو .

في حروب الرِّدَّة :

« لمَّا مات رسول الله ﷺ وعَمرٌو بعُمانَ ، أقبل حتى نزل بقرَّة بن هبيرة ومعه جيشٌ من بني عامرٍ ، فأكرم قرَّةُ مَثْواه ، فلما أراد عَمرٌو الرحلةَ ، خَلا بِهِ قرَّةُ ، وقال : يا هذا ، إنَّ العربَ لا تَطيبُ لكم نفسًا بالأتاوَة ، فإنْ أعفيْتموها من أخْذ أموالكم ، فتسمع لكم وتُطيع ، وإنْ أبيْتم فلا تجتمع عليكم . فقال عَمرٌو : أكفرتَ يا قرّة ؟! أتخوِّفنا بالعرب ؟! فواللهِ لَأُوطِئَنَّ عليك الخيل في حِفْشِ أُمِّكَ »[2].

ولما وصل عمرو المدينة عقد له أبو بكر لواءً ، وأرسله إلى قُضاعةَ لمّا ارتدَّت ، فسار عمرو بجيشه ، فأعمل السيفَ في رقابهم وغلبهم على أمرهم ، فعادوا إلى الإسلام ، وعاد هو إلى المدينة حامِلًا لواءَ النصر .

* * *

---

(١) السيرة الحلبية ٣ / ٢٧٣ ، وتاريخ الخلفاء صـ ٧٢ .
(٢) الحِفْشُ : بيتٌ تنفرِدُ فيه النُّفَساء .

في أرضِ الشامِ :

لمَّا أراد الصدِّيق إرسالَ الجيوش إلى الشام ، كتب إلى عمرٍو : قد أحببتُ أنْ أُفرِّغَكَ لِمَا هو خيرٌ لك في الدنيا والآخرة . فكتب إليه عمرٌو : « إني سَهمٌ من سهامِ الإسلام ، وأنت - بعد الله - الرامي والجامعُ لها ، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها ، فارمِ به شيئًا إنْ جاءك من ناحيةٍ من النواحي »(١). فعقد أبو بكر لعمرو ، وأمرَه أن ينصرف إلى أرض فلسطين ، وأراد عَمرٌو أن يتولَّى قيادة الجيوش في الشام ، فجاء عمرٌو إلى عُمَرَ وقال له : « يا أبا حفص ، أنت تعلم شدَّتي على العدوِّ ، وصبري على الحرب ، فلو كلّمتَ الخليفةَ أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة ... وإني لأرجو أن يفتح الله على يديّ البلاد ويهلك الأعداء » . فقال عمر بن الخطاب : « ما كنتُ بالذي أُكلِّمُه في ذلك ؛ فإنه ليس على أبي عبيدة أميرٌ » .

وفي « اليرموك » كان عمرٌو على الميمنة(٢) ، فكان له أثر كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة ، وفي معركة فتْح دمشق كان عمرٌو على باب توما ، وفي « فحْلٍ » كان عمرٌو وأبو عبيدة على المجَنبتيْن ، وشهِدَ عمرو مع شُرحبيلَ فتحَ « بَيْسَانَ » و« طبرية » ، وصالحا أهل الأردن .

رَمَيْنَا أرطبونَ الرُّومِ بأرطبون العرب :

عَلِمَ عَمْرُو بن العاص أنّ الرومَ حشدوا جيوشَهم ، وعلى رأسها قائد فلسطين : أرطبون (أريطيون) في أجنادين ، فسار عمرٌو ومعه شرحبيل ابنُ حَسَنَة واستخْلفَ على الأردن أبا الأعورِ السُّلمي ، وكان الأرطبونُ أدهى

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٤ .
(٢) الطبري ٢ / ٥٩٣ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٨ .

الروم وأبعدَها غَوْرًا ، وكان قد وضع بالرّملة جندًا عظيمًا ، وبإيلياءَ جندًا عظيمًا أيضًا ، فلما بَلَغَ عمرَ بن الخطاب الخبرُ قال : « رَمْينا أرطبونَ الروم بأرطبون العرب - يقصدُ عَمرًا - فانظروا عمّا تنفرج به » وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر على الأرطبون ولا تَشفيه الرسلُ ، وكان رضي الله عنه يُقدِّر قيمة الاستطلاع حقَّ قدْره ، ولذا أقدمَ على مغامرةٍ استطلاعيةٍ فَذَّةٍ ، وهي قيامُه بالاستطلاعِ الشخصي لمَقَرّ قائد الروم ، والذي كاد أن يكلِّفَه حياتَه . سار عمرٌو إلى أرطبون بنفسه ، ودخلَ عليه كأنه رسولٌ ، ففطِنَ به الأرطبونُ ، وقال : لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَن يأخذ الأميرُ برأيه . فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به ، وَفَطِنَ عمرو إلى غَدْر الأرطبون ، فقال له : « قد سمعتَ مِنِّي وسمعتُ منك ، وقد وقع قولُك مني موقعًا ، وأنا واحد من عشرةٍ بَعَثَنَا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانِفَه ويُشهدنا أمورَه ، فأرجع آتيك بهمُ الآن ، فإنْ رأوْا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرى ، فقد رآه أهلُ العسكر والأميرُ ، وإن لم يَرَوْه رددتهم إلى مأْمنهم وكنت على رأس أمْرك » . فقال الأرطبون : نعم . وردّ الرجلَ الذي أمَرَه بقتْل عمرٍو ؛ فخرج عمرٌو مِن عند الأرطبون ، فَعَلِمَ الروميُّ بأنَّ عَمْرًا خَدَعَه ، فقال : خدعني الرجل ، هذا أدهىٰ الخلْق !! وبلغتْ خديعتُه عمر ابن الخطاب ، فقال : لله دَرُّ عَمرو ! وعَرَفَ عمرٌو من استطلاعِهِ الشخصي هذا نقاطَ الضَّعف في مواضع الروم فهاجمهم ، واقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك ، حتى كَثُرَتْ القتلىٰ بَيْنهم ، ولكنَّ أرطبونَ انهزم فأَوَىٰ إلى إيلياء ، ونزل عمرٌو أجنادينَ ، وانضمَّ علقمةُ ومسروقٌ وأبو أيوب إلى عمرٍو بأجنادين .

ولما دخل أرطبون « إيلياء » ، فتح عمرو « غَزَّة » ، و« سبسطِية » و« نابلس » ، و« اللّد » ، و« يُبْنَى » و« عَمْواس » ، و« بيت جبرين » ، و« يافا » و« رفح » ، وحاصر هو وأبو عبيدة « إيلياء » (بيت المقدس) .

لقد كان فَتْحُ أكثر فلسطين على يديْه رضي الله عنه .

فَتحُ مِصرَ :

كان لحضور عمرٍو إلى مصر في الجاهلية أثرٌ كبيرٌ على معرفتِهِ بأخبار مصر ؛ طرقِهَا وطبيعةِ أرضها ، ومدى اضطهادِ الروم لأهلها ، فلا عجبَ أنْ يُقدِم عمرٌو على دخول مصر على رأس ثلاثةِ آلافٍ وخمسمائةِ رجلٍ فقط ، إذْ لولا تيسُّرُ المعلوماتِ الكافية لديه عن مصر وأهلها ، وضعْف حاميتها ، لَمَا كَانَ مِنَ المعقول أنْ يُقْدِمَ على فتْح مصر بمثْلِ هذا العدد الضئيلِ مِنَ الرجال .

لمّا كتبَ عمرُ بن الخطاب إلى عمرٍو أنْ يسيرَ إلى مصر في جنده ، خرج فنزل العريش ففتحها ، ثم أتى إلى « الفَرَما » وبها قومٌ مستعدّون للقتال ، فحاربهم عمرٌو وهزمهم ومضى قُدُمًا إلى الفسطاط ، وكان اسمُها : « البونة » ، فنزل « جنانَ الريْحان » ، وقد خندق أهلُ الفسطاطِ ، فحاصرهم عمرٌو حتى ورد عليه الزبير في عشرةِ آلافٍ أو اثني عشر ألفًا ، واستمرَّ الحصارُ حتى فُتِحَتْ ، كما بيّنا في ترجمة الزبير .

ولما فتح عمرو حصنَ « بابليون » ، وجَّه عبدَ الله بن حذافة السَّهمي إلى « عيْن شمس » ، فغلب على أرضها ، وصالحَ أهلَ قُراها على مثلِ صلْح الفسطاط ، كما وجّه خارجةَ بنَ حذافة العدوي إلى « الفيُّوم » ، و« الأشمونين » ، و« إخيم » ، و« البشرودات » ، وَقُرَىٰ الصعيد ، فصالحَهَا على مِثْلِ صلْح الفسطاط ، ووجّه عميرَ بنَ وهبٍ الجُمَحِي إلى « تِنِّيس » و« دمياط » و« تونة » و« دميرة » و« شطا » و« دقهلة » و« بنا » و« بوصير » ، فصالحها على مثلِ صلْحِ الفسطاط ، ووجَّه عُقْبة بنَ عامرٍ - وقيل : وردانَ مولاه - إلى سائرِ قُرَىٰ أسفل الأرض ، ففعل مِثْلَ ذلك ، وبذلك استجمع عمرٌو

فتْح مصرَ ، فصارت أرضُها أرضَ خَراجٍ .

وسار عمرٌو إلى الإسكندرية ، وكان من دون الإسكندرية - الرومُ والقبطُ ، قد تجمَّعُوا له فلقيَهم بـ« الكريون » قُرْبَ الإسكندرية فهزمهم ، وَقَتَل منهم مَقْتلةً عظيمةً ، ثم سارَ عمرٌو حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فوجد أهلها قد أعـدُّوا العُـدَّةَ لِقتَالِهِ ، لكنَّ القبطَ منهم كان يرغبون في الصُّلْح ، فحـاصرها عمرو ، فأرسـل إليه « المُقَـوْقِسُ » ، يسـأله الصُّلْح والمهادنة إلى مُدَّةٍ ، فأبىٰ عمرٌو ذلك ، وأمَر المقوقس النساءَ أن يقمْنَ على سُور المدينة ، مُقبِلاتٍ بوجُوههنَّ إلى داخله ، وأقام الرجال بالسّلاح مقبلين بُوجوههم إلى المسلمين لِيُرْهبَهم بذلك ، فأرسل إليه عمرٌو : إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غَلَبْنَا مَنْ غَلَبْنَا ، فقد لقينا « هِرَقْل » ملكَكُم ، فكان مِن أمْره ما كان . فقال المُقوقِسُ لأصحابه : قد صدق هؤلاء القومُ ؛ أَخْرَجُوا مَلِكَنَا من دارِ مملكته ، حتى أدخلوه « القسطنطينية » ، فنحن أوْلى بالإذعان . فأغلظ له أصحابُه القولَ ، وَأَبَوْا إلَّا القتالَ ، فقاتلَهم قِتالًا شديدًا ، وحصروهم ثلاثة أشهرٍ ، ففتحها عمرو بالسيف ، واستخلف عمرو على الإسكندرية عبدَ الله بنَ حُذافة ، وانصرفَ إلى الفسطاط[1] .

فَـتْحُ لِيبْـيَا :

اخترق عمرٌو الصحراءَ حتى بلغ « بَرْقة » ، فافتتحها عمرو وصالَحَ أهلَها على الجزية ، ووجّه عمرٌو عقبةَ بنَ نافعٍ حتى بلغ « زَويلة » ، وصار ما بين « برقة » و« زويلة » للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل « أطرابلس » ، وكانت حصونُها أقوىٰ من حصونِ « برقة » ، وحامِيَتُها أكثر عددًا ، فامتنعتْ عن العَربِ شهرًا واحدًا ، ولكنها استسلمتْ للفاتحين ، وبذلك أنجز عمرٌو

---

(١) البلاذري صـ ٢٢١ - ٢٢٢ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٩ .

فتْحَ ليبيا .

في النّوبة :

أراد عَمرٌو أن يُؤَمِّن مصرَ من الجنوب ، فبعث عقبةَ بنَ نافع الفِهْرِيّ ، فدخلتْ خيولُهم أرضَ النوبة ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا ؛ إذْ كان أهلها ماهرين برمي السِّهام ، فرشقُوا المسلمين بالنَّبْل حتى جُرِح عامَّتُهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرةٍ وحدق مفقودة ، فلم يصالحْهم عَمرو ، ولم يزلْ يهاجمهم بَيْنَ حينٍ وآخر .

العَوْدُ إلى قِتالِ الرُّومِ بالإسكندرية :

كتب أهلُ الروم إلى « قُسْطَنْطِينَ » إمبراطورِ الروم ، يهوّنون عليه فَتْحَ الإسكندرية ؛ لقلَّةِ ما بها من حاميةٍ للمسلمين ، فبعثَ رجلًا مِن أصحابه في ثلاثمائةِ مركبٍ مشحونة بالمقاتِلة ، فدخَل الإسكندرية وقتل مَن بها من المسلمين المرابطين ، إلا مَنِ استطاعَ النجاة بنفسه . وَبَلَغَ عمرًا الخبرُ فسار إليهم ، وكان « منويل » قائد الروم قد تقدَّم نحوَ الجنوب ، ورجالُه يَعيثُون في الأرض فسادًا ، حتى وصلُوا « نَقْيُوس » ، حيث اشتبكُوا بالمسلمين - الذين كان عددُهم خمسةَ عشرَ ألفًا - بقتالٍ عنيفٍ في البَرِّ والبحر ، وكَثُرَ الترامي بالنّشَّابِ حتى أصابت فَرَسَ عَمرٍو ، فنزل عنه ، وشدّ المسلمون على الرومِ وقاتلوهم قتالًا مُستميتًا ، حتى غلبوهم على أمْرهم ، فانهزم الروم ، وطاردهم المسلمون ، فتحصَّنَ الرومُ بالإسكندرية ، ولكنَّ المسلمين قاتلوهم أشدَّ قتالٍ ، وَنَصَبُوا المجانيقَ حتى دخلها المسلمون عَنْوةً[1] .

ينـادي الأرطبـونُ يا بـلادي أضعْـتِ الهَـدْيَ كنَّا فاتحينا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢٢٣ .

فيَا فسطاطَ عَمرِو العاص عُودي ... يعـودُ الطيرُ كمْ نَزَحَ السِّنينا

لك الله يا عمرُو مِن قائدٍ يحارب بِعَقْلِهِ وسيْفه !!

لقد اجتمعتْ في عَمرٍو كلُّ عناصرِ القيادة ؛ من شجاعةٍ وبطولَةٍ ، وإقدام ، ورأْيٍ سديدٍ وعقلٍ راجحٍ ، وفوق هذا : دهاءٌ في موضعه .

« كان عُمر بنُ الخطاب إذا رأىٰ رجلًا يتلجلج ، يقول : أشهدُ أنَّ خَالِقَ هذا ، وخَالِقَ عمرو بن العاص : واحدٌ »[1].

وكان إذا استضعف رجلًا في رأيه وعقله ، قال : « أشهد أن خالِقَك وخالقَ عمرٍو : واحدٌ » ، يريد خالق الأضْدادِ[2].

وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرٍو يمشي ، يقول : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا »[3].

فرضي الله عن عَمرِو بن العاص ، الذي يحتلُّ أنْصَعَ صَفَحَاتِ الفتح الإسلامي في تاريخ العرب والمسلمين ؛ بِفَتْحِهِ لفلسطين ومصر وليبيا ، وهي بلادٌ لم يفتحْ غيرُه من قادةِ العرب أوسعَ منها وأكثرَ خيرًا .

هــذه الأرضُ التي قــد زينــتْ ... بنجومِ المجدِ تحبُو في سَمَاهَا

هاهنــا مــرَّ الزبـيرُ وهاهنــا ... ضمَّخَ ابنُ العاصِ بالطِّيبِ ثَراها

أمَّا واقِعُنَا :

ماذا تبقَّىٰ من ضياء الصُّبح في عينِ الوطنْ

---

(١) الإصابة ٥ / ٢ - ٣ .

(٢) الاستيعاب ٣ / ١١٨٨ .

(٣) الإصابة ٥ / ٢.

والشمسُ تجمعُ ضوءَها المكسورْ
والصبحُ الطريدُ
رفاتُ قِدّيسٍ يفتِّشُ عنْ كَفَنْ
النيلُ بين خرائِبِ الزمنِ اللقيطْ
يسيرُ مُنكسرًا على قدمَيْنِ عاجزتَيْنِ
ثُمَّ يطلُّ في سَأمٍ ويسأل عن سَكَنْ
يتسوَّل الأحلامَ بين الناسِ
يسألهم وقدْ ضاقتْ به الأيامُ
مَنْ منّا تغيَّر ؟..
وجْهُ هـٰذي الأرضِ .. أمْ وجهُ الزمنْ
في كلِّ يومٍ يشطرون النهرَ
فالعينانِ هاربتانِ في فَزَعٍ
وأنفُ النيل يسقط كالشظايا
والفمُ المسجون أطلالٌ
وصوتُ الريحِ يعصفُ بالبَدَنْ
قدمانِ خائرتانِ .. بطنٌ جائعٌ
ويدٌ مُكَبَّلةٌ .. وسيفٌ أخرسُ
باعُوهُ يومًا في المزادِ بلا ثَمَنْ
النيلُ يرفعُ رايةَ العِصيانِ
في وَجْهِ الدمامَةِ ... والتنطُّع ... والعَفَنْ

* * *

ماذا تبقّىٰ مِنْ ضياءِ الصبحِ

في عَيْنِ الوطنْ ..
الآن فوقَ شواطئ النهرِ العريقِ
يموتُ ضوءُ الشمسِ
تصمُتُ أُغنياتُ الطيرِ .. ينتحِرُ الشجرْ
خَنقُوا ضياءَ الصُّبحِ في عين الصغارِ
ومَزَّقوا وَجْهَ القمرْ
باعُوا ثيابَ النهرِ في سُوق النِّخاسَةِ
أسكتُوا صوْتَ المَطَرْ ..
في كلِّ شِبْرٍ وَجْهُ ثُعبانٍ بلوْنِ الموتِ
يَنْفُثُ سُمَّهُ بين الحُفَرْ ..
في كلّ عينٍ وَجْهُ جَلّادٍ يُطِلُّ ويختفي
ويعودُ يزأر كالقَدَرْ ..
صَلَبُوا على الطرقاتِ
أمجادَ السنينِ الخُضْرِ
باعُوا كلَّ أوْسِمَةِ الزمانِ البِكْرِ
عُمْرًا .. أو ترابًا .. أو بَشَرْ ..
أترىٰ رأيتم كيفَ يُولد عندنا
طفلٌ وفي فَمِهِ حَجَرْ ؟
لَمْ يَبْقَ شيءٌ للطيورِ علىٰ ضفافِ النيلِ
غيرُ الحزن يَعْصِفُ بالجوانِحْ
زمنُ العصافير الجميلةِ قد مضىٰ
وتحكَّمَتْ في النهرِ أنيابٌ جَوارِحْ
زمنُ القراصِنَةِ الكبارِ

يُطلُّ في حُزْن العيونِ ..
وفي انطفاءِ الحُلمِ ..
في بؤسِ الملامِحْ ..

* * *

ماذا تَبقّى مِنْ ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوَطَنْ
زمنُ الفوارِسِ قد مضَى ..
قلْ للخُيولِ تَمَهَّلي في السَّيْرِ
فالفُرسانُ تسقُط في الكمائِنْ
قلْ للنوارسِ حاذري في الطيرِ
إنَّ الريحَ تعصِفُ بالسّفائِنْ
قلْ للطيورِ بأنَّ وجهَ الموتِ قنَّاصٌ
يطوفُ الآنَ في كلّ الأماكنْ ..
ويلٌ لماءِ النهرِ حينَ يجيءُ مُنكَسِرًا
وفي فَزَعٍ يُهادِنْ

* * *

ماذا تبقّى مِن ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوطنْ
والنهر مسجونٌ وطَيْفُ الحلمِ
بين رُبوعِهِ يَجري ويصرخُ في أَلَمْ
لم يبقَ شيءٌ فوق أطلال الشواطىء
غيرُ عصفور كسير كان يشدو بالنَّغمْ
لمْ يبقَ بينَ حدائقِ الأطفالِ

غيرُ فراشةٍ بيضاءَ مَاتَتْ
حينَ حَاصَرَهَا العَدَمْ
لم يَبْقَ غيرُ كَتَائِبِ الجَهْلِ العتيق
تُطِلُّ في خُبْثٍ .. وتَضحكُ في سَأَمْ
مَنْ باعَ للّيلِ الطَّويلِ عيونَنَا ؟
مَنْ أخْرَسَ الكلماتِ فينا ؟
مَنْ بحدِّ السيفِ ينتهكُ القلمْ ؟

* * *

مَاذَا سَيَبْقَىٰ بعدَ موتِ النهرِ
غيرُ شُجَيْرَةٍ صفراءَ تبحثُ عن كَفَنْ
ماذا سيبقىٰ بعدَ قتْل الفجْرِ
غير سحابةٍ سوداءَ
تَبكي فَوْقَ أطلالِ الوَطَنْ
ماذا سيبقىٰ مِنْ رُفَاتِ الصُّبحِ
غير شراذِمِ الليلِ القبيحِ
تحومُ في وَجْهِ الزمَنْ

* * *

يَـٰأَيُّهَا الليلُ الطويلُ
ماذا يَضيرُكَ إنْ تركتَ الصبحَ يَلْهُو
فوقَ أعناقِ الحَدائِقْ ..
ماذا يَضيرُك إنْ غَرستَ القمحَ في وطَني

وحَطمتَ المشانِقْ
في كلِّ بيتٍ في مدينتنا سُرَادِقْ
ماذا يضيركَ أن يعودَ العدلُ فينا شامِخًا
ويطوفُ مرفوعًا علىٰ ضَوْءِ البَيَارِقْ
مَاذَا يَضيرُكَ أنْ تعودَ الشمسُ
تسري في العيونِ
وأن يعودَ الفجرُ يقتحمُ الخَنَادِقْ
ماذا يَضيرُكَ أنْ يعودَ النّوْرَسُ المقهورُ
يَصْدَحُ في السماءِ ..
فلا تطارِدُهُ البنادقْ
ماذا يضيرك أنْ تعودَ قوافِلُ الأحلامِ
تسكنُ في العيونْ
ماذا يضيرك أنْ يصِيرَ الحَرْفُ حُرًّا
لا قيودَ .. ولا سياطَ .. ولا سجونْ ..

* * *

يَـٰأَيُّـهَا النهرُ الجَليلْ
أنا مِن بلاطِكَ مُستقيلْ ..
أنا لن أغنِّي في سجونِ القَهْرِ
والليلِ الطويلْ
أنا لَنْ أكونَ البُلْبُلَ المسجونَ في قَفَصٍ ذليلْ
أنا لن أكونَ الفارسَ المهزومَ
يجري خلفَ حُلْمٍ مُستحيلْ ..

ما زال دمعُ النيل في عيني
دماءٌ لا تجفُّ .. ولا تسيلْ
الآن أُعْلِنُ .. أنَّ أزْمِنَةَ التنطُّعِ
أخرستْ صوْتي
وأنَّ الخيْلَ مَاتَتْ عندما اختنقَ الصهيلْ ..
يَٰأَيُّهَا النهرُ الجليلْ
إنْ جِئْتَ يومًا شامخًا ..
ستعودُ في عَيْنَيَّ .. نِيلْ(١)...

وفي واقعنا يا عمرو :

كانت نكسةُ « يونيو » .. ووقفتْ « كوكبُ الشَّرْقِ » تُغَنِّي لِلَّيْل ، والخمر ، والحبِّ الضائع ، والدَّمُ البَريءُ يَسِيلُ على كلِّ رابِيَةٍ .. والعارُ الأَسْودُ يجلِّل جِبَاه المُخدَّرين والمُخدَّراتِ ، ممَّن راحتْ تصفعُ وجوهَهم ولا يشعرون : هذه ليلتي ، وحُلْمُ حياتي . وساعَتَها قال صَحَفِيٌّ في مجلة « الصيَّاد » : إني أعرفُ مكانةَ « أُمّ كلثوم » عند العرب .. وأعرفُ كذلك أنَّ حبَّ الكثيرين لها يوازي حبَّهم لفلسطين .

خدِّريهِمْ يا « كوْكبَ الشَّرْقِ »

« كَوْكَبَ الشَّرْقِ » لا تذوبي غَراما	وَدَلالًا وَحُـــرْقةً وَهَيَامَـــا
لا .. ولا تنفثي الضيَّاعَ قصيدًا	عَبْقَــرِيًّا أو تُرسِــلي الأَنْغَــاما
فَدِمَـاءُ الأحبـابِ في كلِّ بيتٍ	تتـــنزَّىٰ وتبعـــثُ الآلامـــا
وجراحُ « الأقصىٰ » جراحُ الثكالىٰ	ودموعُ « الأقصىٰ » دموعُ اليَتَامَىٰ

(١) قصيدة : « أغنية للوطن » لفاروق جويدة - الأهرام : ٢٥ / ٦ / ١٩٩٥ م .

أيُّهَا الشعبُ خدّرتْه الليالي مُثَقَّلاتٍ تفجَّرتْ آثاما
فعنِ الحقِّ تارةً يتلهّى وَعَنِ النُّورِ تارةً يتعامى
يَتَهاوَى على ذراعِ طَرُوبٍ أو لَعُوبٍ في حِضْنها يترامى
وإذا الشِّعْرُ بالكُئوسِ تغنَّى « والنُّوَاسِيُّ عانَقَ الخيّاما »
وأنِينُ الكَمَانِ صارَ أذانًا في حِمَى البيتِ .. والنديمُ « إماما »
وإذا « ليلتي » و« حُلْم حياتي » لم نحطِّمْ في فجرها الأصناما
فإلامَ الجهادُ يا « كوكبَ الشَّرْ قِ » وما بالُنا نهزُّ الحُسَاما
لا تُغنّي الخيّامَ يا « كوكبَ الشَّرْ قِ » وتسقي من راحتَيْهِ المُدَاما
ففلسطينُ لا تحبُّ السّكَارى وَرُبَى القُدْسِ لا تريدُ النِّياما
ولو انَّ الخيّامَ يُبْعَثُ حَيًّا هَوَتِ الكأسُ مِن يديْهِ حُطاما
« كوكبَ الشّرق » ضاعَ قوميَ لمّا تاهَ في حُبِّكِ القطيعُ وهَاما
مَنحوكِ الإعْجَابَ يا وَيْحَ قَوْمي وعلى الصَّدْرِ علّقوك وِسَامَا
خَدّريهِمْ باللَّحْنِ يا « كوكبَ الشَّرْ قِ» وصُوغي مِنْ لَحْنِكِ اسْتِسْلاما
أيُّهَا السادةُ الكبارُ سلامًا قدْ قتلْتُم في كلِّ نفسٍ سَلاما
وصنعْتُمْ مَجْدًا مِنَ الزَّيْفِ زُورًا فأماطَتْ عَنْهُ الليالي اللّثاما[1]
نَسِيَ الناسُ صهيلَ فرسِ الزبير وزئيرَ ابنِ العاصِ فاقَ الحُساما
ودماء الشهداء الألَى فتحُوها في رُبَانَا تَفتَّحَتْ إسلاما

وفي واقعنا .. أصبح المعروفُ مُنكرًا ، والمنكرُ معروفًا .. وتبدَّلتْ الموازينُ وأقدارُ الرجالِ .. ولسانُ الكلِّ ينعِقُ بتقديس التُّرابِ .. قِيَمُ مصر .. ومبادِئُ مصرَ :

(١) من قصيدة : « خدِّريهم يا كوكب الشرق » ليوسف العظم - من ديوان : « في رحاب الأقصى » - ط : المكتب الإسلامي .

مجاويشُ اللَّعينةُ سوْفَ تبقَى ... دليلًا فاضحًا للظَّالمِينَا
مجاويشٌ نوادي قومِ لُوطٍ ... وتسخَرُ من تُقَى المُطَّهِّرينا
تناديهم[1] أَيَا قومَ الفراعِنْ ... ويا أحفاد رمسيسَ اللَّعِينا
بأرضِ النيلِ دينُ الجِدِّ أحْمُسْ ... أَيُتركُ دينُ لُوطٍ والأَمِينا
أَتَرْكُ المسلمينَ لِنَشْرِ طُهْرٍ ... سَيبكي مُوَحِّدُ القُطْرَيْنِ « مِينا »
أنتركُهُمْ لتحريمِ الحرامِ ... وقطْعِ يدٍ لِسَرَّاقٍ خَئُونا
وَغَلْقٍ للمصارِفِ يا مُرابي ... وإنَّ رِبا المصارِفِ كَنزُ سِينا
نعودُ إلى البيوتِ .. إلى النِّقَابِ ... إلى لُبْسِ الخيامِ .. ابكِ أمينا[2]
ونغضَبُ يا رفاقَ العمِّ سَام ... بمنْعِ القَمْحِ ما نجدُ الطَّحِينا

❊ ❊ ❊

وذكرَى كامبَ دِيفيدَ شَدْوُ عُمْري ... وَبيجِنَ كارْتَرَ المبعوثِ فينا
وآثاري .. وأهرامي .. وسَينا ... و« ميت الكوم » .. مرّ الناصرينا
وموسيقارُنا عبدُ الوهابِ ... وكوكبُ شرقِنَا نَعَقَتْ سنينا
وذاكَ العندليبُ أخو الغرابِ ... أنتركُهُ لِدَعْوَى الطاهرينا
ورقْصُ الشَّرْقِ ذا فنٌّ تجلَّى ... وذا تسبيحُ عَيْنِ الشَّاكرينا
و« موسَى » صَبرِهم يَعْوي جهارًا ... يَسبُّ الحَبْرَ يَهجُو المسلمينا
و« يُسْرَانا » و« عادِلُنا إمامٌ » ... و« ليلَى » ثم « فيفي » بلْ « لُوسي » طاهرينا
و« غالينا » و« بطرُسُنَا » المُفدَّى ... إمامُ الذَّبحِ للأحنافِ فينا

---

(١) هذا نداء مجاويش .. قرية العُرَاة ، تُذَكِّر العلمانيِّين بمفاخرهم ورموزهم .
(٢) أمينَة السَّعيد .

وَسَمَّوْنا الخوارجَ يا خناسٌ ... بمصرَ النيل بلْ والمارقينا
ويا « رأسَ العَمَائِمِ » قُلْتَ كُفْرًا ... وزُورًا بل وَبهتانًا مُبينا
جَعَلْتَ تَعدُّدَ الزوجاتِ ضُرًّا ... جعلتُ زبالةَ الأذهانِ دِينا
لترضَىٰ عنكمُ « جيهانُ » مصرٍ ... فما بقيتْ « جيهانُ » وصار طينا
زَعَمْتُمْ أنَّكم أحبارُ عِلْمٍ ... وتطعنُ في « ابن تيمية » الأمينا
وكلُّكُمُ خُوَاءٌ وهْوَ بَحْرٌ ... هو الصَّبارُ شيخُ المسلمينا
وذا قولُ الأَئِمَةِ مِنْ قديمٍ ... وما بالطَّعْنِ صار التِّبْرُ طِينا
أنأخذُ عنكُمُ الدينَ النَّدِيَّ ... وقدْ صِرْتُمْ رُعاةَ الفِسْقِ فينا

* * *

وإخناتونُ للتوحيدِ داعٍ ... قديمًا قبْلَ كلِّ المُرْسَلِينا
أإخناتونُ عابدُ قُرصِ شمسٍ ... بزعمِ الكفرِ شيخُ المسلمينا
وكعبتُنَا الحبيبةُ لو أرادُوا ... لقالُوا إنها كانتْ بـ« سينا »
إلٰهُ القومِ نِيلُهُمُ العتيقُ(١) ... رسولُهُمُ غدًا طَمْيًا وطينا
حضارةُ سبعِ آلافٍ لِكُفْرٍ ... وفرعونُ استخفَّ الصاغرينا
أليسَ النيلُ لي ومِصْرُ ملْكِي ... ومُوسَىٰ ساحرٌ لَبِثَ السنينا
نربِّيه صغيرًا ثمَّ يدْعُو ... لدينٍ غيْرِ دينِ السَّاحرينا
فميمُكُمُ وصادُكُمُ وراءٌ ... غدتْ وثنًا وطاغوتًا لعينا(٢)
وَنِسْبَتُكُمْ لأهرامٍ ووثنٍ ... ونسبتُنا لتوحيدِ الأمينا(٣)

---

(١) يقولون : النيل وحّدنا وغرس فينا القيم .. وهو باعث الحياة فينا .
(٢) حضارة مصر وتراب مصر ومبادئ مصرَ وأخلاق مصر ... مصر ...
(٣) هذا القول مُوجَّه للعلمانيين ، لا للمسلمين من أبناء مصر الطيِّبين .

ونسبتُكُمْ لحَتْشِبْسُوتَ كُفْرٌ ... ونسبتُنَا لحُورِ الدَّارِ عِينا
ونسبتُكُمْ لنيرانٍ تلظَّى ... ونسبتُنَا لدارِ المُتَّقِينَا
ونسبتُنَا لعَمرِو العاصِ حُبِّي ... ونسبتُهم لفرعون اللَّعينا
وهذي مساخِرُ الفُسَّاقِ أمي ... فنادى أينَ رَبَّانُ السفينا

أخي :

النيلُ أصبحَ مَرْتعًا
كي تسْتَحِمَّ بِهِ البغالْ
وهو النجاشيُّ المسافرُ في القرونِ
فكم رأى قِصَصًا وقالْ
طهِّرْ مياهَ النيلِ مِلْءَ شطوطِهِ
بحديث عَمْرٍو والرجالْ
ذوِّبْ لنا الآياتِ ..
دوِّنْ سِرَّهَا في النيلْ ..
هذا كاتِمُ الأسرارِ في لغةِ المُحَالْ
سنُفَتِّشُ الأمواجَ عَنْ مكنونِهَا
فعطِّر ورْدَهَا بِنَذْرِ[1] الزُّبيرِ
ورَوِّهَا قِصصَ الجلالْ

❊ ❊ ❊

انتهى المُجلَّد الثالث ويليه المُجلَّد الرابع
إنْ شاء الله تعالى

---

(١) حين وهب نفسه لله ، لفتْح حِصْن بابليون .



□ فهرس المجلد الثالث □

الموضــوع — الصفحة